فالقصر الأول لإبطال ما يلبسون به على الناس من أن محمدا صلى الله عليه وسلم يدعو إلى التوحيد ثم يذكر الله والرحمان. ويلبسون تارة بأنه ساحر لأنه يدعو إلى ما لا يعقل. قال تعالى) وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب(فيكون معنى الآية في معنى قوله تعالى)قل ما كنت بدعا من الرسل(وقوله تعالى)واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون(.

ثم إن كلا القصرين كان كلمة جامعة لدعوة الإسلام تقريبا لشقة الخلاف والتشعيب. وعلى جميع هذه الاعتبارات تفرع عليها جملة) فهل أنتم مسلمون(.

والاستفهام حقيقي، أي فهل تسلمون بعد هذا البيان. وهو مستعمل أيضا في معنى كنائي وهو التحريض على نبذ الإشراك وعلى الدخول في دعوة الإسلام.

واسم الفاعل مستعمل في الحال على أصله، أي فهل أنتم مسلمون الآن استبطاء لتأخر إسلامهم. وصيغ ذلك في الجملة الاسمية الدالة على الثبات دون أن يقال: فهل تسلمون، لإفادة أن المطلوب منهم إسلام ثابت. وكأن فيه تعريضا بهم بأنهم في ريب يترددون.

)فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون[109](أي فإن أعرضوا بعد هذا التبيين المفصل والجامع فأبلغهم الإنذار بحلول ما توعدهم الله به.

والإيذان: الإعلام ، وهو بوزن أفعل من أذن لكذا بمعنى سمع. واشتقاقه من اسم الأذن، وهي جارحة السمع، ثم استعمل بمعنى العلم بالسمع ثم شاع استعماله في العلم مطلقا.

وأما)آذن(فهو فعل متعد بالهمزة وكثر استعمال الصيغتين في معنى الإنذار وهو الإعلام المشوب بتحذير. فمن استعمال أذن قوله تعالى)فأذنوا بحرب من الله ورسوله(. ومن استعمال)آذن(قول الحارث بن حلزة:

آذنتنا ببينها أسماء وحذف مفعول)آذنتكم(الثاني لدلالة قوله تعالى)ما توعدون(عليه، أو يقدر: آذنتكم ما يوحى إلي لدلالة ما تقدم عليه. والأظهر تقدير ما يشمل المعنيين كقوله تعالى)فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم(.

وقوله تعالى)على سواء( )على(فيه للاستعلاء المجازي، وهو قوة الملابسة وتمكن الوصف من موصوفه.
و)سواء(اسم معناه مستو. والاستواء: المماثلة في شيء ويجمع على أسواء. وأصله مصدر ثم عومل معاملة الأسماء فجمعوه لذلك، وحقه أن لا يجمع فيجوز أن يكون)على سواء(ظرفا مستقرا هو حال من ضمير الخطاب في قوله تعالى)آذنتكم(أي أنذرتكم مستوين في إعلامكم به لا يدعي أحد منكم أنه لم يبلغه الإنذار. وهذا إعذار لهم وتسجيل عليهم كقوله في خطبته)ألا هل بلغت(.
ويجوز أن يتعلق المجرور بفعل)آذنتكم(قال أبو مسلم: الإيذان على السواء: الدعاء إلى الحرب مجاهرة لقوله تعالى)فانبذ إليهم على سواء(آه. يريد أن هذا مثل بحال النذير بالحرب إذ لم يكن في القرآن النازل بمكة دعاء إلى حرب حقيقية. وعلى هذا المعنى يجوز أن يكون)على سواء(حالا من ضمير المتكلم.
وحذف متعلق)آذنتكم(لدلالة قوله تعالى)وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون(عليه، ولأن السياق يؤذن به لقوله قبله)حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج(الآية. وتقدم عند قوله تعالى)فانبذ إليهم على سواء(في سورة الأنفال.
وقوله)وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون(يشمل كل ما يوعدونه من عقاب في الدنيا والآخرة إن عاشوا أو ماتوا.
و)إن(نافية وعلق فعل)أدري(عن العمل بسبب حرف الاستفهام وحذف العائد. وتقديره: ما توعدون به.
)إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون[110](جملة معترضة بين الجمل المتعاطفة. وضمير الغائب عائد إلى الله تعالى بقرينة المقام. والمقصود من الجملة تعليل الإنذار بتحقيق حلول الوعيد بهم وتعليل عدم العلم بقربه أو بعده؛ علل ذلك بأن الله تعالى يعلم جهرهم وسرهم وهو الذي يؤاخذهم عليه وهو الذي يعلم متى يحل بهم عذابه.
وعائد الموصول في قوله تعالى)ما تكتمون(ضمير محذوف.
)وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين[111](

صفحة : 2751

عطف على جملة)وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون(.
والضمير الذي هو اسم)لعل(عائد إلى ما يدل عليه قوله تعالى) أقريب أم بعيد ما توعدون(من أنه أمر منتظر الوقوع وأنه تأخر عن وجود موجبه، والتقدير: لعل تأخيره فتنة لكم، أو لعل تأخير ما توعدون فتنة لكم، أي ما أدري حكمة هذا التأخير فلعله فتنة لكم

أرادها الله ليملي لكم إذ بتأخير الوعد يزدادون في التكذيب والتولي وذلك فتنة.
والفتنة: اختلال الأحوال المفضي إلى ما فيه مضرة.
والمتاع: ما ينفع به مدة قليلة. كما تقدم في قوله تعالى)لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل(. في سورة آل عمران.
والحين: الزمان.
)قل رب احكم بالحق وربنا الرحمان المستعان على ما تصفون[112](استئناف ابتدائي بعدما مضى من وصف رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإجمال أصلها وأمره بإنذارهم وتسجيل التبليغ. قصد من هذا الاستئناف التلويح إلى عاقبة أمر هذا الدين المرجوة المستقبلة لتكون قصة هذا الدين وصاحبه مستوفاة المبدأ والعاقبة على وزان ما ذكر قبلها من قصص الرسل السابقين من قوله تعالى)ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء(إلى هنا.
وفي أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالالتجاء إليه والاستعانة به بعد ما قال له)فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء(رمز إلى أنهم متولون لا محالة وأن الله سيحكم فيهم بجزاء جرمهم لأن الحكم بالحق لا يغادرهم، وإن الله في إعانته لأن الله إذ لقن عباده دعاء فقد ضمن لهم إجابته كقوله تعالى)ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا(ونحو ذلك، وقد صدق الله وعده واستجاب لعبده فحكم في هؤلاء المعاندين بالحق يوم بدر.
والمعنى: قل ذلك بمسمع منهم إظهارا لتحديه إياهم بأنه فوض أمره إلى ربه ليحكم فيهم بالحق الذي هو خضد شوكتهم وإبطال دينهم، لأن الله يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.
والباء في قوله تعالى)بالحق(للملابسة. وحذف المتعلق الثاني لفعل)احكم(لتنبيههم إلى أن النبي على الحق فإنه ما سأل الحكم بالحق إلا لأنه يريده، أي احكم لنا أو فيهم أو بيننا.
وقرأ الجمهور)قل(بصيغة الأمر. وقرأ حفص)قال(بصيغة الماضي مثل قوله تعالى)قل ربي يعلم القول(في أول هذه السورة. ولم يكتب في المصحف الكوفي بإثبات الألف. على أنه حكاية عن الرسول صلى الله عليه وسلم.
و)رب(منادى مضاف حذفت منه ياء المتكلم المضاف هو إليها وبقيت الكسرة دليلا على الياء.
وقرأ الجمهور بكسر الباء من)رب(. وقرأه أبو جعفر بضم الباء وهو وجه عربي في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم كأنهم جعلوه بمنزلة الترخيم وهو جائز إذا أمن اللبس.
وتعريف المسند إليه بالإضافة في قوله تعالى)وربنا(لتضمنها تعظيما لشأن المسلمين بالاعتزاز بأن الله ربهم.

وضمير المتكلم المشارك للنبي ومن معه من المسلمين. وفيه تعريض بالمشركين بأنهم ليسوا من مربوبية الله في شيء حسب إعراضهم عن عبادته إلى عبادة الأصنام كقوله تعالى)ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم(.

والرحمان عطف بيان من)ربنا(لأن المراد به هنا الاسم لا الوصف توركا على المشركين، لأنهم أنكروا اسم الرحمان)وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمان أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا(.

وتعريف)المستعان(لإفادة القصر، أي لا أستعين بغيره على ما تصفون، إذ لا ينصرنا غير ربنا وهو ناظر إلى قوله تعالى)وإياك نستعين(.

وفي قوله تعالى)على ما تصفون(مضاف محذوف هو مجرور) على(، أي على إبطال ما تصفون بإظهار بطلانكم للناس حتى يؤمنوا ولا يتبعوكم. أو على إبطال ما يترتب عليه من أذاهم له وللمؤمنين وتأليب العرب عليه.

ومعنى)ما تصفون(ما تصدر به أقوالكم من الأذى لنا. فالوصف هنا هو الأقوال الدالة عن الأوصاف، وقد تقدم في سورة يوسف. وهم وصفوا النبي صلى الله عليه وسلم بصفات ذم كقولهم: مجنون وساحر، ووصفوا القرآن بأنه شعر وأساطير الأولين، وشهروا ذلك في دهمائهم لتأليب الناس عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحج

صفحة : 2752

سميت هذه السورة الحج في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. أخرج أبو داود، والترمذي عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم . وأخرج أبو داود، وابن ماجه عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان. وليس لهذه السورة اسم غير هذا.

ووجه تسميتها سورة الحج أن الله ذكر فيها كيف أمر إبراهيم عليه السلام بالدعوة إلى حج البيت الحرام، وذكر ما شرع للناس يومئذ من النسك تنويها بالحج وما فيه من فضائل ومنافع، وتقريعا للذين يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام وإن كان نزولها قبل أن

يفرض الحج على المسلمين بالاتفاق، وإنما فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة وفي سورة آل عمران.
واختلف في هذه السورة هل هي مكية أو مدنية. أو كثير منها مكي وكثير منها مدني.
فعن ابن عباس ومجاهد وعطاء: هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله)هذان خصمان(إلى)وذوقوا عذاب الحريق(. قال ابن عطية: وعد النقاش ما نزل منها بالمدينة عشر آيات.
وعن ابن عباس أيضا والضحاك وقتادة والحسن: هي مدنية إلا آيات)وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي(إلى قوله تعالى)أو يأتيهم عذاب يوم مقيم(فهن مكيات.
وعن مجاهد، عن ابن الزبير: أنها مدنية. ورواه العوفي عن ابن عباس.
وقال الجمهور هذه السورة بعضها مكي وبعضها مدني وهي مختلطة، أي لا يعرف المكي بعينه، والمدني بعينه. قال ابن عطية: وهو الأصح.
وأقول: ليس هذا القول مثل ما يكثر أن يقولوه في بضع آيات من عدة سور: إنها نزلت في غير البلد الذي نزل فيه أكثر السورة المستثنى منها، بل أرادوا أن كثيرا منها مكي وأن مثله أو يقاربه مدني، وأنه لا يتعين ما هو مكي منها وما هو مدني ولذلك عبروا بقولهم: هي مختلطة. قال ابن عطية: روي عن أنس ابن مالك أنه قال: نزل أول السورة في السفر فنادى رسول الله بها فاجتمع إليه الناس وساق الحديث الذي سيأتي. يريد ابن عطية أن نزولها في السفر يقتضي أنها نزلت بعد الهجرة.
ويشبه أن يكون أولها نزل بمكة فإن افتتاحها ب)يا أيها الناس(جار على سنن فواتح السور المكية. وفي أساليب نظم كثير من آياتها ما يلائم أسلوب القرآن النازل بمكة. ومع هذا فليس الافتتاح ب)يا أيها الناس(بمعين أن تكون مكية، وإنما قال ابن عباس)يا أيها الناس(يراد به المشركون. ولذا فيجوز أن يوجه الخطاب به إلى المشركين في المدينة في أول مدة حلول النبي صلى الله عليه وسلم بها، فإن قوله)إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام(يناسب أنه نزل بالمدينة حيث صد المشركون النبي والمؤمنين عن البقاء معهم بمكة. وكذلك قوله)أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق(فإنه صريح في أنه نزل في شان الهجرة.
روى الترمذي بسنده عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم ليهلكن فأنزل الله)أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم

بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله(، وكذلك قوله)والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا(ففيه ذكر الهجرة وذكر من يقتل من المهاجرين وذلك مؤذن بجهاد متوقع كما سيجيء هنالك.

وأحسب أنه لم تتعين طائفة منها متوالية نزلت بمكة ونزل ما بعدها بالمدينة بل نزلت آياتها متفرقة. ولعل ترتيبها كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم ومثل ذلك كثير.

وقد قيل في قوله تعالى)هذان خصمان اختصموا في ربهم(إنه نزل في وقعة بدر، لما في الصحيح عن علي وأبي ذر: أنها نزلت في مبارزة حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث مع شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر وكان أبو ذر يقسم على ذلك.

ولذلك فأنا أحسب هذه السورة نازلا بعضها آخر مدة مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة كما يقتضيه افتتاحها ب)يا أيها الناس(فقد تقرر أن ذلك الغالب في أساليب القرآن المكي، وأن بقيتها نزلت في مدة مقام النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة.

صفحة : 2752

سميت هذه السورة الحج في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. أخرج أبو داود، والترمذي عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم . وأخرج أبو داود، وابن ماجه عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان. وليس لهذه السورة اسم غير هذا.

ووجه تسميتها سورة الحج أن الله ذكر فيها كيف أمر إبراهيم عليه السلام بالدعوة إلى حج البيت الحرام، وذكر ما شرع للناس يومئذ من النسك تنويها بالحج وما فيه من فضائل ومنافع، وتقريعا للذين يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام وإن كان نزولها قبل أن يفرض الحج على المسلمين بالاتفاق، وإنما فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة وفي سورة آل عمران.

واختلف في هذه السورة هل هي مكية أو مدنية. أو كثير منها مكي وكثير منها مدني.

فعن ابن عباس ومجاهد وعطاء: هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله)هذان خصمان(إلى)وذوقوا عذاب الحريق(. قال ابن عطية: وعد النقاش ما نزل منها بالمدينة عشر آيات.

وعن ابن عباس أيضا والضحاك وقتادة والحسن: هي مدنية إلا آيات)وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي(إلى قوله تعالى)أو يأتيهم عذاب يوم مقيم(فهن مكيات.

وعن مجاهد، عن ابن الزبير: أنها مدنية. ورواه العوفي عن ابن عباس.

وقال الجمهور هذه السورة بعضها مكي وبعضها مدني وهي مختلطة، أي لا يعرف المكي بعينه، والمدني بعينه. قال ابن عطية: وهو الأصح.

وأقول: ليس هذا القول مثل ما يكثر أن يقولوه في بضع آيات من عدة سور: إنها نزلت في غير البلد الذي نزل فيه أكثر السورة المستثنى منها، بل أرادوا أن كثيرا منها مكي وأن مثله أو يقاربه مدني، وأنه لا يتعين ما هو مكي منها وما هو مدني ولذلك عبروا بقولهم: هي مختلطة. قال ابن عطية: روي عن أنس ابن مالك أنه قال: نزل أول السورة في السفر فنادى رسول الله بها فاجتمع إليه الناس وساق الحديث الذي سيأتي. يريد ابن عطية أن نزولها في السفر يقتضي أنها نزلت بعد الهجرة.

ويشبه أن يكون أولها نزل بمكة فإن افتتاحها ب)يا أيها الناس(جار على سنن فواتح السور المكية. وفي أساليب نظم كثير من آياتها ما يلائم أسلوب القرآن النازل بمكة. ومع هذا فليس الافتتاح ب)يا أيها الناس(بمعين أن تكون مكية، وإنما قال ابن عباس)يا أيها الناس(يراد به المشركون. ولذا فيجوز أن يوجه الخطاب به إلى المشركين في المدينة في أول مدة حلول النبي صلى الله عليه وسلم بها، فإن قوله)إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام(يناسب أنه نزل بالمدينة حيث صد المشركون النبي والمؤمنين عن البقاء معهم بمكة. وكذلك قوله)أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق(فإنه صريح في أنه نزل في شان الهجرة.

روى الترمذي بسنده عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم ليهلكن فأنزل الله)أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله(، وكذلك قوله)والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا(ففيه ذكر الهجرة وذكر من يقتل من المهاجرين وذلك مؤذن بجهاد متوقع كما سيجيء هنالك.

وأحسب أنه لم تتعين طائفة منها متوالية نزلت بمكة ونزل ما بعدها بالمدينة بل نزلت آياتها متفرقة. ولعل ترتيبها كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم ومثل ذلك كثير.

وقد قيل في قوله تعالى)هذان خصمان اختصموا في ربهم(إنه نزل في وقعة بدر، لما في الصحيح عن علي وأبي ذر: أنها نزلت في مبارزة حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث مع شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر وكان أبو ذر يقسم على ذلك.

ولذلك فأنا أحسب هذه السورة نازلا بعضها آخر مدة مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة كما يقتضيه افتتاحها ب)يا أيها الناس(فقد تقرر أن ذلك الغالب في أساليب القرآن المكي، وأن بقيتها نزلت في مدة مقام النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة.

صفحة : 2753

وروى الترمذي وحسنه وصححه عن ابن أبي عمر، عن سفيان عن ابن جدعان، عن الحسن، عن عمران بن حصين أنه لما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم)يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم(إلى قوله)ولكن عذاب الله شديد(. قال: أنزلت عليه هذه وهو في سفر؟ فقال:)أتدرون(وساق حديثا طويلا. فاقتضى قوله: أنزلت عليه وهو في سفر؟ أن هذه السورة أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة فإن أسفاره كانت في الغزوات ونحوها بعد الهجرة.

وفي رواية عنه أن ذلك السفر في غزوة بني المصطلق من خزاعة وتلك الغزوة في سنة أربع أو خمس، فالظاهر من قوله) أنزلت وهو في سفر(أن عمران بن حصين لم يسمع الآية إلا يومئذ فظنتها أنزلت يومئذ فإن عمران بن حصين ما أسلم إلا عام خيبر وهو عام سبعة، أو أن أحد رواة الحديث أدرج كلمة أنزلت عليه وهو في سفر في كلام عمران بن حصين ولم يقله عمران. ولذلك لا يوجد هذا اللفظ فيما ما روى الترمذي وحسنه وصححه أيضا عن محمد ابن بشار، عن يحيى بن سعيد عن هشام بن أبي عبد الله عن قتادة، عن الحسن، عن عمران بن حصين قال: كنا مع النبي في سفر فرفع صوته بهاتين الآيتين)يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم(إلى قوله)ولكن عذاب الله شديد(إلى آخره. فرواية قتادة عن الحسن أثبت من رواية ابن جدعان عن الحسن، لأن ابن جدعان واسمه علي بن زيد قال فيه أحمد وأبو

زرعة: ليس بالقوي. وقال فيه ابن خزيمة: سيء الحفظ، وقد كان اختلط فينبغي عدم اعتماد ما انفرد به من الزيادة. وروى ابن عطية عن أنس بن مالك أنه قال: أنزل أول هذه السورة على رسول الله في سفر. ولم يسنده ابن عطية.

وذكر القرطبي عن الغزنوي أنه قال: سورة الحج من أعاجيب السور نزلت ليلا ونهارا، سفرا وحضرا، مكيا ومدنيا، سلميا وحربيا، ناسخا ومنسوخا، محكما ومتشابها.

وقد عدت السورة الخامسة والمائة في عداد نزول سورة القرآن في رواية جابر بن زيد، عن ابن عباس قال: نزلت بعد سورة النور وقبل سورة المنافقين. وهذا يقتضي أنها عنده مدنية كلها لأن سورة النور وسورة المنافقين مدنيتان فينبغي أن يتوقف في اعتماد هذا فيها.

وعدت آياتها عند أهل المدينة ومكة: سبعا وسبعين. وعدها أهل الشام: أربعا وسبعين. وعدها أهل البصرة: خمسا وسبعين: وعدها أهل الكوفة: ثمانا وسبعين.

ومن أغراض هذه السورة: خطاب الناس بأمرهم أن يتقوا الله ويخشوا يوم الجزاء وأهواله.

والاستدلال على نفي الشرك وخطاب المشركين بأن يقلعوا عن المكابرة في الاعتراف بانفراد الله تعالى بالإلهية وعن المجادلة في ذلك اتباعا لوساوس الشياطين، وأن الشياطين لا تغني عنهم شيئا ولا ينصرونهم في الدنيا وفي والآخرة.

وتفظيع جدال المشركين في الوحدانية بأنهم لا يستندون إلى علم وأنهم يعرضون عن الحجة ليضلوا الناس.

وأنهم يرتابون في البعث وهو ثابت لا ريبة فيه وكيف يرتابون فيه بعلة استحالة الإحياء بعد الإماتة ولا ينظرون أن الله أوجد الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم طوره أطورا.

وأن الله ينزل الماء على الأرض الهامدة فتحيا وتخرج من أصناف النبات، فالله هو القادر على كل ذلك. فهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

وأن مجادلتهم بإنكار البعث صادرة عن جهالة وتكبر عن الامتثال لقول الرسول صلى الله عليه وسلم.

ووصف المشركين بأنهم في تردد من أمرهم في اتباع دين الإسلام.

والتعريض بالمشركين بتكبرهم عن سنة إبراهيم عليه السلام الذي ينتمون إليه ويحسبون أنهم حماة دينه وأمناء بيته وهم يخالفونه في أصل الدين.

وتذكير لهم بما من الله عليهم في مشروعية الحج من المنافع فكفروا نعمته.
وتنظيرهم في تلقي دعوة الإسلام بالأمم البائدة الذين تلقوا دعوة الرسل بالإعراض والكفر فحل بهم العذاب.
وأنه يوشك أن يحل بهؤلاء مثله فلا يغرهم تأخير العذاب فإنه إملاء من الله لهم كما أملى للأمم من قبلهم. وفي ذلك تأنيس للرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا، وبشارة لهم بعاقبة النصر على الذين فتنوهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حق.
وأن اختلاف الأمم بين أهل هدى وأهل ضلال أمر به افترق الناس إلى ملل كثيرة.
وأن يوم القيامة هو يوم الفصل بينهم لمشاهدة جزاء أهل الهدى وجزاء أهل الضلال.

صفحة : 2754

وأن المهتدين والضالين خصمان اختصموا في أمر الله فكان لكل فريق جزاؤه.
وسلى الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن الشيطان يفسد في قلوب أهل الضلالة آثار دعوة الرسل ولكن الله يحكم دينه ويبطل ما يلقي الشيطان فلذلك ترى الكافرين يعرضون وينكرون آيات القرآن.
وفيها التنويه بالقرآن والمتلقين له بخشية وصبر. ووصف المفار بكراهيتهم القرآن وبغض المرسل به. والثناء على المؤمنين وأن الله يسر لهم أتباع الحنيفية وسماهم المسلمين.
والإذن للمسلمين بالقتال وضمان النصر والتمكين في الأرض لهم.
وختمت السورة بتذكير الناس بنعم الله عليهم وأن الله اصطفى خلقا من الملائكة ومن الناس فأقبل على المؤمنين بالإرشاد إلى ما يقربهم إلى الله زلفى وأن الله هو مولاهم وناصرهم.
) يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم[1](نداء للناس كلهم من المؤمنين وأهل الكتاب والمشركين الذين يسمعون هذه الآية من الموجودين يوم نزولها ومن يأتون بعدهم إلى يوم القيامة، ليتلقوا الأمر بتقوى الله وخشيته، أي خشية مخالفة ما يأمرهم به على لسان رسوله، فتقوى كل فريق بحسب حالهم من التلبس بما نهى الله عنه والتفريط فيما أمر به، ليستبدلوا ذلك بضده.

وأول فريق من الناس دخولا في خطاب)يا أيها الناس(هم المشركون من أهل مكة حتى قيل إن الخطاب بذلك خاص بهم. وهذا يشمل مشركي أهل المدينة قبل صفائها منهم.

وفي التعبير عن الذات العلية بصفة الرب مضافا إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى استحقاقه أن يتقى لعظمته بالخالقية، وإلى جدارة الناس بأن يتقوه لأنه بصفة تدبير الربوبية لا يأمر ولا ينهى إلا لمرعي مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم.

وكلا الأمرين لا يفيده غير وصف الرب دون نحو الخالق والسيد.

وتعليق التقوى بذات الرب يقتضي بدلالة الاقتضاء معنى اتقاء مخالفته أو عقابه أو نحو ذلك لأن التقوى لا تتعلق بالذات بل بشأن لها مناسب للمقام. وأول تقواه هو تنزيهه عن النقائض، وفي مقدمة ذلك تنزيهه عن الشركاء باعتقاد وحدانيته في الإلهية.

وجملة)أن زلزلة الساعة شيء عظيم(في موضع العلة للأمر بالتقوى كما يفيد حرف التوكيد الواقع في مقام خطاب لا تردد للسامع فيه.

والتعليل يقتضي أن لزلزلة الساعة أثرا في الأمر بالتقوى وهو أنه وقت لحصول الجزاء على التقوى وعلى العصيان وذلك على وجه الإجمال المفصل بما بعده في قوله)ولكن عذاب الله شديد(.

والزلزلة، حقيقتها: تحرك عنيف في جهة من سطح الأرض من أثر ضغط مجاري الهواء الكائن في طبقات الأرض القريبة من ظاهر الأرض وهي من الظواهر الأرضية المرعبة ينشأ عنها تساقط البناء وقد ينشأ عنها خسف الأشياء في باطن الأرض.

والساعة: علم بالغلبة في اصطلاح القرآن على وقت فناء الدنيا والخلوص إلى عالم الحشر الأخروي، قال تعالى)إذا زلزلت الأرض زلزالها(إلى قوله)يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم(.

وإضافة)زلزلة(إلى)الساعة(على معنى في ، أي الزلزلة التي تحدث وقت حلول الساعة.

فيجوز أن تكون الزلزلة في الدنيا أو في وقت الحشر. والظاهر حمل الزلزلة على الحقيقة، وهي حاصلة عند إشراف العالم الدنيوي على الفناء وفساد نظامه فإضافتها إلى الساعة إضافة حقيقية فيكون معنى قوله تعالى)إذا زلزلت الأرض زلزالها(الآية.

ويجوز أن تكون الزلزلة مجازا عن الأهوال والمفزعات التي تحصل يوم القيامة فإن ذلك تستعار له الزلزلة، قال تعالى)وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله(أي أصيبوا بالكوارث والأضرار لقوله قبله)مستهم البأساء والضراء(. وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على الأحزاب: اللهم اهزمهم وزلزلهم .

والإتيان بلفظ)شيء(للتهويل بتوغله في التنكير، أي زلزلة الساعة لا يعرف كنهها بأنها شيء عظيم، وهذا من المواقع التي يحسن فيها موقع كلمة)شيء(وهي التي نبه عليها الشيخ عبد القاهر في دلائل الإعجاز في فصل في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة وقد ذكرناه عند قوله تعالى)ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا(في سورة البقرة.
والعظيم: الضخم، وهو هنا استعاري للقوي الشديد. والمقام يفيد أنه شديد الشر.

صفحة : 2755

)يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد[2](جملة)يوم ترونها تذهل(الخ بيان لجملة)إن زلزلة الساعة شيء عظيم(لأن ما ذكر في هذه الجملة يبين معنى كونها شيئا عظيما وهو أنه عظيم في الشر والرعب.
ويتعلق)يوم ترونها(بفعل)تذهل(. وتقديمه على عامله للاهتمام بالتوقيت بذلك اليوم وتوقع رؤيته لكل مخاطب من الناس. وأصل نظم الجملة: تذهل كل مرضعة عما أرضعت يوم ترون زلزلة الساعة. فالخطاب لكل من تتأتى منه رؤية تلك الزلزلة بالإمكان.
وضمير النصب في)ترونها(يجوز أن يعود على)زلزلة(وأطلقت الرؤية على إدراكها الواضح الذي هو كرؤية المرئيات لأن الزلزلة تسمع ولا ترى. ويجوز أن يعود إلى الساعة.
ورؤيتها: رؤية ما يحدث فيها من المرئيات من حضور الناس للحشر وما يتبعه ومشاهدة أهوال العذاب. وقرينة ذلك قوله)تذهل كل مرضعة(الخ.
والذهول: نيسان ما من شأنه أن لا ينسى لوجود مقتضى تذكره؛ إما لأنه حاضر أو لأن علمه جديد وإنما ينسى لشاغل عظيم عنه. فذكر لفظ الذهول هنا دون النسيان لأنه أدل على شدة التشاغل. قاله شيخنا الجد الوزير قال: وشفقة الأم على الابن أشد من شفقة الأب فشفقتها على الرضيع أشد من شفقتها على غيره. وكل ذلك يدل بدلالة الأولى على ذهول غيرها من النساء والرجال. وقد حصل من هذه الكناية دلالة على جميع لوازم شدة الهول وليس يلزم في الكناية أن يصرح بجميع اللوازم لأن دلالة الكناية عقلية وليست لفظية.

والتحقت هاء التأنيث بوصف)مرضعة(للدلالة على تقريب الوصف من معنى الفعل،فإن الفعل الذي لا يوصف بحدثه غير المرأة تلحقه علامة التأنيث ليفاد بهذا التقريب أنها في حالة التلبس بالإرضاع، كما يقال: هي ترضع. ولولا هذه النكتة لكان مقتضى الظاهر أن يقال: كل مرضع، لأن هذا الوصف من خصائص الأنثى فلا يحتاج معه إلى الهاء التي أصل وضعها للفرق بين المؤنث والمذكر خيفة اللبس. وهذا من دقائق مسائل نحاة الكوفة وقد تلقاها الجميع بالقبول ونظمها ابن مالك في أرجوزته الكافية بقوله:

وما من الصفات بالأنثى يخـص عن
تاء استغنى لأن اللفظ نص
وحيث معنى الفعل تنوي التاء زد

كذي غدت مرضعة طفلا ولـد والمراد: أن ذلك يحصل لكل مرضعة موجودة في آخر أيام الدنيا. فالمعنى الحقيقي مراد، فلم يقتض أن يكون الإرضاع واقعا. فأطلق ذهول المرضع وذات الحمل وأريد ذهول كل ذي علق نفيس عن علقه على طريقة الكناية.

وزيادة كلمة)كل(للدلالة على أن هذا الذهول يعتري كل مرضع وليس هو لبعض المراضع باحتمال ضعف في ذاكرتها. ثم تقتضي هذه الكناية كناية عن تعميم هذا الهول لكل الناس لأن خصوصية هذا المعنى بهذا المقام أنه أظهر في تصوير حالة الفزع والهلع بحيث يذهل فيه من هو في حال شدة التيقظ لوفرة دواعي اليقظة. وذلك أن المرأة لشدة شفقتها كثيرة الاستحضار لما تشفق عليه، وأن المرضع أشد النساء شفقة على رضيعها، وأنها في حال ملابسة الإرضاع أبعد شيء عن الذهول فإذا ذهلت عن رضيعها في هذه الأحوال دل ذلك على أن الهول العارض لها هول خارق للعادة. وهذا من بديع الكناية عن شدة ذلك الهول لأن استلزام ذهول المرضع عن رضيعها لشدة الهول يستلزم شدة الهول لغيرها بطريق الأولى، فهو لزوم بدرجة ثانية. وهذا النوع من الكناية يسمى الإيماء.

و)ما(في)عما أرضعت(موصولة ما صدقها الطفل الرضيع. والعائد محذوف لأنه ضمير متصل منصوب بفعل، وحذف مثله كثير.

والإتيان بالموصول وصلته في تعريف المذهول عنه دون أن يقول عن ابنها للدلالة على أنها تذهل عن شيء هو نصب عينها وهي في عمل متعلق به وهو الإرضاع زيادة في التكني عن شدة الهول.

وقوله)وتضع كل ذات حمل حملها(هو كناية أيضا كقوله)تذهل كل مرضعة عما أرضعت(. ووضع الحمل لا يكون إلا لشدة اضطراب نفس الحامل من فرط الفزع والخوف لأن الحمل في قرار مكين.

والحمل: مصدر معنى المفعول، بقرينة تعلقه بفعل)تضع(أي تضع جنينها.

والتعبير ب)ذات حمل(دون التعبير: بحامل، لأنه الجاري في الاستعمال في الأكثر. فلا يقال: امرأة حامل، بل يقال: ذات حمل قال تعالى)وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن(، مع ما في هذه الإضافة من التنبيه على شدة اتصال الحمل بالحامل فيدل على أن وضعها إياه لسبب مفظع.
والقول في حمله على الحقيقة أو على معنى الكناية كالقول في) تذهل كل مرضعة عما أرضعت(.
والخطاب في)ترى الناس(لغير معين، وهو كل من تتأتى منه الرؤية من الناس، فهو مساو في المعنى للخطاب الذي في قوله) يوم ترونها(. وإنما أوثر الإفراد هنا للتفنن كراهية إعادة الجمع. وعدل عن فعل المضي إلى المضارع في قوله)وترى(لاستحضار الحالة والتعجيب منها كقوله)فتثير سحابا(وقوله)ويصنع الفلك(.
وقرأ الجمهور)سكارى(بضم السين المهملة وبألف بعد الكاف . ووصف الناس بذلك على طريقة التشبيه البليغ. وقوله بعده)وما هم بسكارى(قرينة على قصد التشبيه وليبنى عليه قوله بعده)ولكن عذاب الله شديد(.
وقرأه حمزة والكسائي)سكرى(بوزن عطشى في الموضعين. وسكارى وسكرى جمع سكران. وهو الذي اختل شعور عقله من أثر شرب الخمر، وقياس جمعه سكارى. وأما سكرى فهو محمول على نوكى لما في السكر من اضطراب العقل. وله نظير وهو جمع كسلان على كسالى وكسلى.
وجملة)وما هم بسكارى(في موضع الحال من الناس.
و)عذاب الله(صادق بعذابه في الدنيا وهو عذاب الفزع والوجع، وعذاب الرعب في الآخرة بالإحساس بلفح النار وزبن ملائكة العذاب.
وجملة)وما هم بسكارى(في موضع الحال من)الناس(.
)ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد[3](عطف على جملة)يا أيها الناس اتقوا ربكم(، أي الناس فريقان: فريق يمتثل الأمر فيتقي الله ويخشى عذابه، وفريق يعرض عن ذلك ويعارضه بالجدل الباطل في شأن الله تعالى من وحدانيته وصفاته ورسالته. وهذا الفريق هم أئمة الشرك وزعماء الكفر لأنهم الذين يتصدون للمجادلة بما لهم من أغاليط وسفسطة وما لهم من فصاحة وتمويه.

والاقتصار على ذكرهم إيماء إلى أنهم لولا تضليلهم قومهم وصدهم إياهم عن متابعة الذين لاتبع عامة المشركين الإسلام لظهور حجته وقبولهم في الفطرة.

وقيل: أريد ب)من يجادل في الله(النضر بن الحارث أو غيره كما سيأتي، فتكون)من(الموصولة صادقة على متعدد عامة لكل من تصدق عليه الصلة.

والمجادلة: المخاصمة والمحاجة. والظرفية مجازية، أي يجادل جدلا واقعا في شأن الله. ووصف الجدل بأنه بغير علم، أي جدلا ملتبسا بمغايرة العلم، وغير العلم هو الجهل، أي جدلا ناشئا عن سوء نظر وسوء تفكير فلا يعلم ما تقتضيه الألوهية من الصفات كالوحدانية والعلم وفعل ما يشاء.

واتباع الشيطان: الانقياد إلى وسوسته التي يجدها في نفسه والتي تلقاها بمعتاده والعمل بذلك دون تردد ولا عرض على نظر واستدلال.

وكلمة)كل(في قوله)كل شيطان(مستعملة في معنى الكثرة. كما سيأتي قريبا عند قوله تعالى)وعلى كل ضامر(في هذه السورة. وتقدم في تفسير قوله تعالى)ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك(في سورة البقرة.

والمريد: صفة مشبهة من مرد بضم الراء على عمل. إذا عتا فيه وبلغ الغاية التي تتجاوز ما يكون عليه أصحاب ذلك العمل. وكأنه محول من مرد بفتح الراء بمعنى مرن إلى ضم الراء للدلالة على أن الوصف صار له سجية، فالمريد صفة مشبهة. أي العاتي في الشيطنة.

)كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير[4] (جملة)كتب عليه أنه من تولاه(إلى آخرها صفة ثانية ل)شيطان مريد(فالضمير المجرور عائد إلى)شيطان(. وكذلك الضمائر في)أنه من تولاه فأنه.

وأما الضميران البارزان في قوله)يضله ويهديه إلى عذاب السعير(فعائدان إلى)من(الموصوله. أي يضل الشيطان متوليه عن الحق ويهدي متوليه إلى عذاب السعير.

واتفقت القراءات العشر على قراءة)كتب(بضم الكاف على أنه مبني للنائب. واتفقت أيضا على فتح الهمزتين من قوله تعالى)أنه من تولاه فأنه يضله(.

والكتابة مستعارة للثبوت واللزوم، أي لزمه إضلال متوليه ودلالته على عذاب السعير، فأطلق على لزوم ذلك فعل)كتب عليه(أي وجب عليه، فقد شاع أن العقد إذا أريد تحقيق العمل به وعدم الإخلال به كتب في صحيفة. قال الحارث بن حلزة:

وهل ينقض ما في المهارق الأهواء والضمير في)أنه(عائد إلى) شيطان(وليس ضمير شأن لأن جعله ضمير شأن لا يناسب كون الجملة في موقع نائب فاعل)كتب(. إذ هي حينئذ في تأويل مصدر وضمير الشأن يتطلب بعده جملة، والمصدران المنسبكان من قوله) أنه من تولاه(وقوله)فأنه يضله(نائب فعل)كتب(ومفرع عليه بفاء الجزاء. أي كتب عليه إضلال من تولاه. والتولي: اتخاذ ولي، أي نصير، أي من استنصر به.

و)من(موصولة وليست شرطية لأن المعنى على الإخبار الثابت لا على التعليق بالشرط. وهي مبتدأ ثان. والضمير المستتر في قوله) تولاه(عائد إلى)من(الموصولة. والضمير المنصوب البارز عائد إلى) شيطان(. أي أن الذي يتخذ الشيطان وليا فذلك الشيطان يضله.

والفاء في قوله)فأنه يضله(داخلة على الجملة الواقعة خبرا عن من الموصولة تشبيها لجملة الخبر عن الموصول بجملة الجزاء لشبه الموصول بالشرط قصدا لتقوية الإخبار. والمصدر المنسبك من قوله)فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير(في تقدير مبتدأ هو صدر للجملة الواقعة خبرا عن)من(الموصولة. والتقدير: فإضلاله إياه ودلالته إياه إلى عذاب السعير. وخبر هذا المبتدأ مقدر لأنه حاصل من معنى إسناد فعلي الإضلال والهداية إلى ضمير المبتدأ. والتقدير: ثابتان.

ويجوز أن تجعل الفاء في قوله)فأنه يضله(فاء تفريع ويجعل ما بعدها معطوفا على)من تولاه(ويكون المعطوف هو المقصود من الإخبار كما هو مقتضى التفريع. والتقدير: كتب عليه ترتب الإضلال منه لمتوليه وترتب إيصاله متوليه إلى عذاب السعير.

هذان هما الوجهان في نظم الآية وما عداهما تكلفات.

واعلم أن ما نظمت به الآية هنا لا يجري على نظم قوله تعالى في سورة براءة)ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها(لأن مقتضى فعل العلم غير مقتضى فعل)كتب(. فلذلك كانت)من(في قوله)من يحادد(شرطية لا محالة وكان الكلام جاريا على اعتبار الشرطية وكان الضمير هنالك في قوله) أنه(ضمير شأن.

ولما كان الضلال مشتهرا في معنى البعد عن الخير والصلاح لم يحتج في هذه الآية إلى ذكر متعلق فعل)يضله(لظهور المعنى.

وذكر متعلق فعل)يهديه(وهو)إلى عذاب السعير(لأن تعلقه به غريب إذ الشأن أن يكون الهدي إلى ما ينفع لا إلى ما يضر ويعذب.

وفي الجمع بين)يضله ويهديه(محسن الطباق بالمضادة. وقد عد من هذا الفريق الشامل له قوله تعالى)ومن الناس من يجادل في الله بغير علم(النضر بن الحارث. وقيل نزلت فيه. كان كثير الجدل يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء أجساد بليت وصارت ترابا. وعد منهم أيضا أبو جهل، وأبي بن خلف. ومن قال: إن المقصود بقوله)من يجادل(معينا خص الآية به. ولا وجه للتخصيص وما هو إلا تخصيص بالسبب.

)يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا(أعاد خطاب الناس بعد أن أنذرهم بزلزلة الساعة، وذكر أن منهم من يجادل في الله بغير علم، فأعاد خطابهم بالاستدلال على إمكان البعث وتنظيره بما هو أعظم منه. وهو الخلق الأول. قال تعالى)أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد(. فالذي خلق الإنسان من عدم وأخرجه من تراب، ثم كونه من ماء. ثم خلقه أطوارا عجيبة، إلى أن يتوفاه في أحوال جسمه وفي أحوال عقله وإدراكه، قادر على إعادة خلقه بعد فنائه.

صفحة : 2758

ودخول المشركين بادئ ذي بدء في هذا الخطاب أظهر من دخولهم في الخطاب السابق لأنهم الذين أنكروا البعث، فالمقصود الاستدلال عليهم ولذلك قيل إن الخطاب هنا خاص بهم.

وجعل ريبهم في البعث مفروضا ب)إن(الشرطية مع أن ريبهم محقق للدلالة على أن المقام لما حف به من الأدلة المبطلة لريبهم ينزل منزلة مقام من لا يتحقق ريبه كما في قوله تعالى)أفنضرب عنكم الذكر صفحا إن كنتم قوما مسرفين(.

والظرفية المفادة ب)في(مجازية. شبهت ملابسة الريب إياهم بإحاطة الظرف بالمظروف.

وجملة)فإنا خلقناكم من تراب(واقعة موقع جواب الشرط ولكنها لا يصلح لفظها لأن يكون جوابا لهذا الشرط بل هي دليل الجواب. والتقدير: فاعلموا أو فنعلمكم بأنه ممكن كما خلقناكم من تراب مثل

الرفات الذي تصير إليه الأجساد بعد الموت، أو التقدير: فانظروا في بدء خلقكم فإنا خلقناكم من تراب.
والذي خلق من تراب هو أصل النوع. وهو آدم عليه السلام وحواء، ثم كونت في آدم وزوجه قوة التناسل. فصار الخلق من النطفة فلذلك عطفت ب)ثم(.
والنطفة: اسم لمني الرجل، وهو بوزن فعلة بمعنى مفعول، أي منطوف. والنطف: القطر والصب. والعلقة: القطعة من الدم الجامد اللين.
والمضغة: القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ مثله. وهي فعلة بمعنى مفعولة بتأويل: مقدار ممضوغه. و)ثم(التي عطف بها)ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة(عاطفة مفردات فهي للتراخي الحقيقي.
و)من(المكررة أربع مرات هنا ابتدائية وتكريرها توكيد.
وكون الإنسان مخلوقا من النطفة لأنه قد تقرر في علم الطب أن في رحم المرأة مدة الحيض جزاءا هو مقر الأجرام التي أعدت لأن يتكون منها الجنين، وهذا الجزء من الرحم يسمى في الاصطلاح الطبي)المبيض(بفتح الميم وكسر الموحدة على وزن اسم المكان لأنه مقر بيضات دقيقة هي حبيبات دقيقة جدا وهي من المرأة بمنزلة البيضة من الدجاجة أو بمنزلة حبوب بيض الحوت، مودعة في كرة دقيقة كالغلاف لها يقال لها الحويصلة بضم الحاء بصيغة تصغير حوصلة تشتمل على سائل تسبح فيه البيضة فإذا حاضت المرأة ازدادت كمية ذلك السائل الذي تسبح فيه البيضة فأوجب ذلك انفجار غلاف الحويصلة، فيأخذ ذلك السائل في الانحدار يحمل البيضة السابحة فيه إلى قناة دقيقة تسمة بوق فلوبيوس لشبهه بالبوق، وأضيف إلى)فلوبيوس(اسم مكتشفه. وهو البرزخ بين المبيض والرحم، فإذا نزل فيه ماء الرجل وهو النطفة بعد انتهاء سيلان دم الحيض لقحت فيه البيضة واختلطت أجزاؤها بأجزاء النطفة المستملة على جرثومات ذات حياة وتمكث مع البيضة متحركة مقدار سبعة أيام تكون البيضة في أثنائها تتطور بالتشكل يشبه تقسيم من أثر ضغط طبيعي، وفي نهاية تلك المدة تصل البيضة إلى الرحم وهنالك تأخذ في التشكل. وبعد أربعين يوما تصير البيضة علقة في حجم نملة كبيرة طولها من 12 إلى 14 ميليمتر. ثم يزداد تشكلها فتصير قطعة صغيرة من لحم هي المسماة)
مضغة(طولها ثلاثة سنتيمتر تلوح فيها تشكيلات الوجه والأنف خفية جدا كالخطوط. ثم يزداد التشكل يوما فيوما إلى أن يستكمل الجنين مدته فيندفع للخروج وهو الولادة.
فقوله تعالى)مخلقة وغير مخلقة(صفة)مضغة(. وذلك تطور من تطورات المضغة. إشارة إلى أطوار تشكل تلك المضغة فإنها في

أول أمرها تكون غير مخلقة، أي غير ظاهر فيها شكل الخلقة. ثم تكون مخلقة، والمراد تشكيل الوجه ثم الأطراف، ولذلك لم يذكر مثل هذين الوصفين عند ذكر النطفة والعلقة، وإذ ليس لهما مثل هذين الوصفين بخلاف المضغة. وإذ قد جعلت المضغة من مبادئ الخلق تعين أن كلا الوصفين لازمان للمضغة. فلا يستقيم تفسير من فسر غير المخلقة بأنها التي لم يكمل خلقها فسقطت.

والتخلق: صيغة تدل على تكرير الفعل، أي خلقا بعد خلق، أي شكلا بعد شكل.

وقدم ذكر المخلقة على ذكر غير المخلقة خلاف الترتيب في الوجود لأن المخلقة أدخل في الاستدلال، وذكر بعده غير المخلقة لأنه إكمال للدليل وتنبيه على أن تخليقها نشأ عن عدم. فكلا الحالين دليل على القدرة على الإنشاء وهو المقصود من الكلام.

ولذلك عقب بقوله تعالى)لنبين لكم(أي لنظهر لكم إذا تأملتم دليلا واضحا على إمكان الإحياء بعد الموت.

صفحة : 2759

واللام للتعليل متعلقة بما في تضمينه جواب الشرط من فعل ونحوه تدل عليه جملة)فإنا خلقناكم من تراب(الخ، وهو فعل: فاعلموا، أو فنعلمكم، أو فانظروا.

وحذف مفعول)لنبين(لتذهب النفس في تقديره كل مذهب مما يرجع إلى بيان ما في هذه التصرفات من القدرة والحكمة، أي لنبين لكم قدرتنا وحكمتنا.

وجملة)ونقر(عطف على جملة)فإنا خلقناكم من تراب(.وعدل عن فعل المضي إلى المضارع للدلالة على استحضار تلك الحالة لما فيها من مشابهة استقرار الأجساد في الأجداث ثم إخراجها منها بالبعث كما يخرج الطفل من قرارة الرحم، مع تفاوت القرار. فمن الأجنة ما يبقى ستة أشهر، ومنها ما يزيد على ذلك، وهو الذي أفاده إجمال قوله تعالى)إلى أجل مسمى(والاستدلال في هذا كله بأنه إيجاد بعد العدم وإعدام بعد الوجود لتبيين إمكان البعث بالنظير وبالضد.

والأجل: الأمد المجعول لإتمام عمل ما، والمراد هنا مدة الحمل.

والمسمى: اسم مفعول سماه إذا جعل له اسما، ويستعار المسمى للمعين المضبوط لضبط الأمور غير المشخصة بعدد معين أو وقت محسوب، بتسمية الشخص بوجه شبه يميزه عما شابهه. ومنه قول

الفقهاء: المهر المسمى، أي المعين من نقد معدود أو عرض موصوف، وقول الموثقين: وسمي لها من الصداق كذا وكذا.
ولكل مولود مدة معينة عند الله لبقائه في رحم أمه قبل وضعه. والأكثر استكمال تسعة أشهر وتسعة أيام، وقد يكون الوضع أسرع من تلك المدة لعارض، وكل معين في علم الله تعالى. وتقدم في قوله تعالى)إلى اجل مسمى فاكتبوه(في سورة البقرة.
وعطف جملة)ثم نخرجكم طفلا(بحرف)ثم(للدلالة على التراخي الرتبي فإن إخراج الجنين هو المقصود، وقوله)طفل(حال من ضمير)نخرجكم(، أي حال كونكم أطفالا. وإنما أفرد)طفلا(لأن المقصود به الجنس فهو بمنزلة الجمع.
وجملة)ثم لتبلغوا أشدكم(مرتبطة بجملة)ثم نخرجكم طفلا(ارتباط العلة بالمعلول، واللام للتعليل، والمعلل فعل)نخرجكم طفلا(.
وإذا قد كانت بين الطفل وحال بلوغ الأشد أطوار كثيرة علم أن بلوغ الأشد هو العلة الكاملة لحكمة إخراج الطفل. وقد أشير إلى ما قبل بلوغ الأشد وما بعده قوله)ومنكم من يتوفى من قبل ومنكم من يرد إلى أرذل العمر(.
وحرف)ثم(في قوله)ثم لتبلغوا أشدكم(تأكيد لمثله في قوله)ثم نخرجكم طفلا(هذا ما ظهر لي في اتصال هذه الجملة بما قبلها وللمفسرين توجيهات غير سالمة من التعقب ذكرها الآلوسي.
وإنما جعل بلوغ الأشد علة لأنه أقوى أطوار الإنسان وأجلى مظاهر مواهبه في الجسم والعقل وهو الجانب الأهم كما أومأ إلي ذلك قوله بعد هذا)لكيلا يعلم من بعد علم شيئا(فجعل)الأشد(كأنه الغاية المقصودة من تطويره.والأشد: سن الفتوة واستجماع القوى. وقد تقدم في سورة يوسف)ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما(.
ووقع في سورة المؤمن)ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا(. فعطف طور الشيخوخة على طور الأشد باعتبار أن الشيخوخة مقصد للأحياء لحبهم التعمير. وتلك الآية وردت مورد الامتنان فذكر فيها الطور الذي يتملى المرء فيه بالحياة. ولم يذكر في آية سورة الحج لأنها وردت مورد الاستدلال على الإحياء بعد العدم فلم يذكر فيها من الاضمحلال، ولأن المخاطبين بها فريق معين من المشركين كانوا في طور الأشد، وقد نبهوا عقب ذلك إلى أن منهم نفرا يردون إلى أرذل العمر، وهو طور الشيخوخة بقوله)ومنكم من يرد إلى أرذل العمر(.
وجيء بقوله)ومنكم من يتوفى(على وجه الاعتراض استقراء لأحوال الأطوار الدالة على عظيم القدرة والحكمة الإلهية مع التنبيه على تخلل الوجود والعدم أطوار الإنسان بدءا ونهاية كما يقتضيه مقام الاستدلال على البعث. والمعنى: ومنكم من يتوفى قبل بلوغ

بعض الأطوار. وأما أصل الوفاة لاحقة لكل إنسان لا لبعضهم، وقد صرح بهذا في سورة المؤمن)ومنكم من يتوفى من قبل(

صفحة : 2760

وقوله)ومنكم من يرد إلى أرذل العمر(هو عديل قوله تعالى) ومنكم من يتوفى(. وسكت عن ذكر الموت بعد أرذل العمر لأنه معلوم بطريقة لحن الخطاب. وجعل انتفاء علم الإنسان عند أرذل العمر علة إلى أرذل العمر باعتبار أنه علة غائية لذلك لأنه مما اقتضته حكمة الله في نظام الخلق فكان حصوله مقصودا عند رد الإنسان غلى ارذل العمر، فإن ضعف القوى الجسيمة يستتبع ضعف القوى العقلية قال تعالى)ومن نعمره ننكسه في الخلق(فالخلق يشمل كل ما هو من الخلقة ولا يختص بالجسم.

وقوله)من بعد علم(أي بعد ما كان علمه فيما قبل أرذل العمر.

و)من(الداخلية على)بعد(هنا مزيدة للتأكيد على رأي الأخفش وابن مالك من عدم انحصار زيادة)من(في خصوص جر النكرة بعد نفي وشبهه، أو هي للابتداء عند الجمهور وهو ابتداء صوري يساوي معنى التأكيد، ولذلك لم يؤت ب)من(في قوله تعالى)لكيلا يعلم من بعد علم شيئا(في سورة النحل.

والآيتان بمعنى واحد فذكر)من(هنا تفنن في سياق العبرتين.

و)شيئا(واقع في سياق النفي يعم كل معلوم، أي لا يستفيد معلوما جديدا. ولذلك مراتب في ضعف العقل بحسب توغله في أرذل العمر تبلغ إلى مرتبة انعدام قبوله لعلم جديد، وقبلها مراتب من الضعف متفاوتة كمرتبة نسيان الأشياء ومرتبة الاختلاط بين المعلومات وغير ذلك.

)وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج[5](عطف على جملة)فإنا خلقناكم من تراب(، والخطاب لغير معين فيعم كل من يسمع هذا الكلام. وهذا ارتقاء في الاستدلال على الإحياء بعد الموت بقياس التمثيل لأنه استدلال بحالة مشاهدة فلذلك افتتح بفعل الرؤية. بخلاف الاستدلال بخلق الإنسان فإن مبدأ غير مشاهد فقيل في شأنه)فإنا خلقناكم من تراب(الآية. ومحل الاستدلال من قوله تعالى)فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت(. فهو مناسب الأول)فإنا خلقناكم من تراب(، فهمود الأرض بمنزلة موت الإنسان واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت.

والهمود: قريب من الخمود. فهمود الأرض جفافها وزوال نبهتا ، وهمود النار خمودها.

والاهتزاز: التحرك إلى أعلى، فاهتزاز الأرض تمثل لحال ارتفاع ترابها بالماء وحال ارتفاع وجهها بما عليه من العشب بحال الذي يهتز ويتحرك إلى أعلى.

وربت: حصل لها ربو بضم الراء وضم الموحدة وهو ازدياد السيء يقال: ربا يربو ربوا، وفسر هنا بانتفاخ الأرض من تفتق النبت والشجر. وقرأ أبو جعفر وربأت بهمزة مفتوحة بعد الموحدة، أي ارتفعت. ومنه قولهم: ربأ بنفسه عن كذا، أي ارتفع مجازا، وهو فعل مشتق من اسم الربيئة وهو الذي يعلوا ربوة من الأرض لينظر هل من عدو يسير إليهم.

والزوج: الصنف من الأشياء. أطلق عليه اسم الزوج تشبيها له بالزوج من الحيوان وهو صنف الذكر وصنف الأنثى. لأن كل فرد من أحد الصنفين يقترن بالفرد من الصنف الآخر فيصير زوجا فيسمى كل واحد منهما زوجا بهذا المعنى، ثم شاع إطلاقه على أحد الصنفين، ثم أطلق على كل نوع وصنف وإن لم يكن ذكرا ولا أنثى. فأطلق هنا على أنواع النبات.

والبهيج: الحسن المنظر السار للناظر. وقد سيق هذا الوصف إدماجا للامتنان في أثناء الاستدلال امتنانا بجمال صورة الأرض المنبتة، لآن كونه بهيجا لا دخل له في الاستدلال، فهو امتنان محض كقوله تعالى)ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون(وقوله تعالى)ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح(.

)ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير[6] وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور[7](فذلكة ما تقدم، فالجملة تذييل.

والإشارة ب)ذلك(إلى ما تقدم من أطوار خلق الإنسان وفنائه، ومن إحياء الأرض بعد موتها وانبثاق النبت منها.

وإفراد حرف الخطاب المقترن باسم الإشارة لإرادة مخاطب غير معين على نسق قوله)وترى الأرض هامدة(على أن اتصال اسم الإشارة بكاف خطاب الواحد هو الأصل.

صفحة : 2761

والمجرور خبر عن اسم الإشارة، أي ذلك حصل بسبب أن الله هو الحق الخ. والباء للسببية فالمعنى: تكون ذلك الخلق من تراب وتطور، وتكون إنزال الماء على الأرض الهامدة والنبات البهيج بسبب أن الله ألا له الحق دون غبره. ويجوز أن تكون الباء للملابسة، أي كان ذلك الخلق وذلك الإنبات البهيج ملابسا لحقية إلهية الله وهذه

الملابسة ملابسة الدليل لمدلوله. وهذا ارشق من حمل الباء على معنى السببية وهو أجمع لوجود الاستدلال.

والحق: الثابت الذي لا مراء فيه، أي هو الموجود. والقصر إضافي، أي دون غيره من معبوداتكم فإنها لا وجود لها قال تعالى)إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان(.وهذا الاستدلال هو أصل بقية الأدلة لأنه نقض للشرك الذي هو الأصل لجميع ضلالات أهله كما قال تعالى)إنما النسيء زيادة في الكفر(.

وأما بقية الأمور المذكورة بعد قوله)ذلك بأن الله هو الحق(، فهي لبيان إمكان البعث.

ووجه كون هذه الأمور الخمسة المعدودة في هذه الآية ملابسة لأحوال خلق الإنسان وأحوال إحياء الأرض أن تلك الأحوال دالة على هذه الأمور الخمسة: إما بدلالة المسبب بالنسبة إلى وجود الله وإلى ثبوت قدرته على كل شيء, وإما بدلالة التمثيل على الممثل والواقع على إمكان نظيره الذي لم يقع بالنسبة إلى إحياء الله الموتى، ومجيء الساعة، والبعث، وإذا تبين إمكان ذلك حق التصديق بوقوعه لأنهم لم يكن بينهم وبين التصديق به حائل إلا ظنهم استحالته، فالذي قدر على خلق الإنسان عن عدم سابق قادر على إعادته بعد اضمحلاله الطارئ على وجوده الأحرى بطريقة.

والذي خلق الأحياء بعد أن لم تكن فيها حياة يمكنه فعل الحياة فيها أو في بقية آثارها أو خلق أجسام مماثلة لها وإيداع أرواحها فيها بالأولى. وإذا كان ذلك علم أنه ساعة فناء هذا العالم واقعة قياسا على انعدام المخلوقات بعد تكوينها، وعلم أن الله يعيدها قياسا على إيجاد النسل وانعدام أصله.الحاصل للمشركين في وقوع الساعة منزلة العدم لانتفاء استناده إلى دليل.

وصيغة نفي الجنس على سبيل التنصيص صيغة تأكيد. لأن لا النافية للجنس في مقام النفي بمنزلة)إن(في مقام الإثبات ولذلك حملت عليها في العمل.

)ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير[6] ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق[9] ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلم للعبيد[10](عطف على جملة)يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث(كما عطفت جملة)ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير(على جملة)يا أيها الناس اتقوا ربكم(. والمعنى: إن كنتم في ريب من وقوع البعث فإنا نزيل ريبكم بهذه الأدلة الساطعة، فالناس بعد ذلك فريقان: فريق يوقن بهذه الدلالة فلا يبقي في ريب، وفريق من الناس يجادل في الله بغير علم وهؤلاء هم أئمة الشرك وزعماء الباطل.

وجملة)لا ريب فيها(معترضة بين المتعاطفات، أي ليس الشأن أن يرتاب فيها، فلذلك نفى جنس الريب فيها، أي فالريب والمعنى بهذه الآية هو المعنى بقوله فيما مضى)ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد(فيكون المراد فريق المعاندين المكابرين الذين يجادلون في الله بغير علم بعد أن بلغهم الإنذار من زلزلة الساعة. فهم كذلك يجادلون في الله بغير علم بعد أن وضحت لهم الأدلة على وقوع البعث.

ودافعهم إلى الجدال في الله عند سماع الإنذار بالساعة عدم علمهم ما يجادلون فيه واتباعهم وسواس الشياطين.

ودافعهم إلى الجدال في الله عند وضوح الأدلة على البعث عدم علمهم ما يجادلون فيه. وانتفاء الهدى.وانتفاء تلقي شريعته من قبل. والتكبر عن الاعتراف بالحجة. ومحبة إضلال الناس عن سبيل الله. فيؤول إلى معنى أن أحوال هؤلاء مختلفة وأصحابها فريق واحد هو فريق أهل الشرك والضلالة. ومن أساطين هذا الفريق من عدوا في تفسير الآية الأولى مثل : النصر بن حارث. وأبي جهل، وأبي بن خلف.

صفحة : 2762

وقيل: المراد في هذه الآية بمن يجادل في الله: النضر بن الحارث، كرر الحديث عنه تبيينا لحالتي جداله. وقيل المراد بمن يجادل في هذه الآية أبو جهل، كما قيل: أن المراد في الآية الماضية النضر بن الحارث، فجعلت الآية خاصة بسبب نزولها في نظر هذا القائل، وروي ذلك عن أبن عباس وقيل: هو الأخنس بن شريق وتقدم معنى قوله)بغير علم(في نظير هذه الآية. وقيل المراد ب)من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد(المقلدون بكسر اللام من المشركين الذين يتبعون ما تمليه عليهم سادة الكفر. والمراد ب)من يجادل في الله بغير علم ولا هدى(المقلدون بفتح اللام أئمة الكفر.

والهدى مصدر في معنى المضاف إلى مفعوله، أي ولا هدى هو مهدي به، وتلك مجادلة المقلد إذا كان مقلدا هاديا للحق مثل أتباع الرسل، فهذا دون مرتبة من يجادل في الله بعلم. ولذلك لم يستغن بذكر السابق عن ذكر هذا.

والكتاب المنير: كتب الشرائع مثل: التوراة والإنجيل. وهذا كما يجادل أهل الكتاب قبل مجيء الإسلام المشركين والدهريين فهو جدال بكتاب منير.

والمنير: المبين للحق، شبه بالمصباح المضيء في الليل.
ويجيء في وصف)كتاب(بصفة)منير(تعريض بالنضر ابن الحارث إذ كان يجادل في شأن الإسلام بالموازنة بين كتاب الله المنير وكتاب أخبار رستم، وكتاب أخبار أسفنديار المظلمة الباطلة.
والثني: لي الشيء، يقال: ثني عنان فرسه، إذا لواه ليدير رأس فرسه إلى الجهة التي يريد أن يوجهه إليها. ويطلق أيضا الثني على الإمالة.
والعطف: المنكب والجانب و)ثاني عطفه(تمثيل للتكبير والخيلاء. ويقال: لوي جيده، إذا أعرض تكبرا. وهذه الصفة تنطبق على حال أبي جهل فلذلك قيل إنه المراد هنا.
واللام في قوله)ليضل(لتعليل المجادلة، فهو متعلق ب)يجادل(أي غرضه من المجادلة الإضلال.
وسبيل الله: الدين الحق.
وقوله)ليضل(بضم الياء أي ليضلل الناس بجداله. فهذا المجادل يريد بجدله ان يوهم العامة بطلان الإسلام كيلا يتبعوه.
وإفراد الضمير في قوله)عطفه(وما ذكر بعده مراعاة للفظ) من(وإن كان معنى تلك الضمائر الجمع.
وخزي الدنيا: الإهانة، وهو ما أصابهم من القتل يوم بدر ومن القتل والأسر بعد ذلك. وهؤلاء هم اللذين لم يسلموا بعد. وينطبق الخزي على ما حصل لأبي جهل يوم بدر من قتله بيد غلامين من شباب الأنصار وهما أبناء عفراء. وباعتلاء عبد الله بن مسعود على صدره وذبحه وكان في عظمته لا يطر أمثال هؤلاء الثلاثة بخاطره.
وينطبق الخزي أيضا على ما حل بالنضر بن الحارث من الأسر يوم بدر وقتله صبرا في موضع يقال له: الأثيل قرب المدينة عقب واقعة بدر كما وصفته أخته قتيلة في رثائه من قصيدة:

صبرا يقاد إلى المنية متعبا صبر

المقيد وهو عان موثق وإذا كانت هذه الآية ونظيرتها التي سبقت مما نزل بمكة لا محال كان قوله تعالى)له في الدنيا خزي(من الإخبار بالغيب وهو من معجزات القرآن وإذاقة العذاب تخيل للمكنية.
وجملة)ذلك بما قدمت يداك(مقول قول محذوف تدل عليه صيغة الكلام وهي جملة مستأنفة، أو في موضع الحال من ضمير النصب في قوله تعالى)ونذيقه(.
و)قدمت(بمعنى: أسلفت. جعل كفره كالشيء الذي بعث به إلى دار الجزاء بل أن يصل هو إليها فوجده يوم القيامة حاضرا ينتظره قال تعالى)ووجدوا ما عملوا حاضرا(.

والإشارة إلى العذاب. والباء سببية، و)ما(موصولة. وعطف على)ما(الموصولة قوله تعالى)وأن الله ليس بظلام للعبيد(لأنه في تأويل مصدره، أي وبانتفاء ظلم الله العبيد، أي ذلك العذاب مسبب لهذين الأمرين فصاحبه حقيق به لأنه أثر عدل الله تعالى وأنه لم يظلمه فيما أذاقه.

وصيغة المبالغة تقتضي بظاهرها نفي الظلم الشديد. والمقصود أن الظلم من حيث هو ظلم أمر شديد فصيغت له زنة المبالغة،وكذلك التزمت في ذكره حيثما وقع في القرآن. وقد اعتاد جمع من المتأخرين أن يجعلوا المبالغة راجعة للنفي لا للمنفي وهو بعيد.

)ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين[11](

صفحة : 2763

هذا وصف فريق آخر من الذين يقابلون الأمر بالتقوى والإنذار بالساعة مقابلة غير المطمئن بصدق دعوة الإسلام ولا المعرض عنها إعراضا تاما ولكنهم يضعون أنفسهم في معرض الموازنة بين دينهم القديم ودين الإسلام. فهم يقبلون دعوة الإسلام ويدخلون في عداد متبعيه ويرقبون ما ينتابهم بعد الدخول في الإسلام فإن أصابهم الخير عقب ذلك علموا أن دينهم القديم ليس بحق وأن آلهتهم لا تقدر على شيء لأنها لو قدرت لانتقمت منهم على نبذ عبادتها وظنوا أن الإسلام حق، وإن أصابهم سر من شرور الدنيا العارضة في الحياة المسببة عن أسباب عادية سخطوا على الإسلام وانخلعوا عنه. وتوهموا أن آلهتهم أصابتهم بسوء غضبا من مفارقتهم عبادتها كما حكي الله عن عاد إذ قالوا لرسولهم)إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء(.

فالعبادة في قوله تعالى)من يعبد الله على حرف(مراد بها عبادة الله وحده بدليل قوله تعالى)يدعوا من دون الله ما لا يضره ولا ينفعه(.

والظاهر أن الآية نزلت بالمدينة، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس في قوله)ومن الناس من يعبد الله على حرف(قال: كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء.

وفي رواية الحسن: أنها نزلت في المنافقين يعني المنافقين من الذين كانوا مشركين مثل: عبد الله بن أبي بن سلول. وهذا بعيد لأن أولئك كانوا مبطنين الكفر فلا ينطبق عليهم قوله)فإن أصابه خير

اطمأن به(. وممن يصلح مثالا لهذا الفريق العرنيون الذين أسلموا وهاجروا فاجتووا المدينة. فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بان يلحقوا براعي إبل الصدقة خارج المدينة فيشربوا من ألبانها وأبوالها حتى يصحوا فلما صحوا قتلوا الراعي واستاقوا الذود وفروا. فألحق بهم النبي صلى الله عليه وسلم الطلب في أثرهم حتى لحقوا بهم فأمر بهم فقتلوا.

وفي حديث الموطأ: أن أعرابيا أسلم وبايع النبي صلى الله عليه وسلم فأصابه وعك بالمدينة، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستقيله بيعته فأبى أن يقيله، فخرج من المدينة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها فجعله خبثا لأنه لم يكن مؤمنا ثابتا. وذكر الفخر عن مقاتل أن نفرا من أسد وغطفان قالوا: تخاف أن لا ينصر الله محمدا فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا فنزل فيهم قوله تعالى)من كان يظن أن لن ينصره الله(الآيات.

وعن الضحاك: أن الآية نزلت في المؤلفة قلوبهم، منهم: عيينة ابن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس قالوا: ندخل في دين محمد فإن أصبنا خيرا عرفنا أنه حق. وإن أصبنا غير ذلك عرفنا أنه باطل. وهذا كله ناشئ عن الجهل وتخليط الأسباب الدنيوية بالأسباب الأخروية، وجعل المقارنات الاتفاقية كالمعلومات اللزومية. وهذا أصل كبير من أصول الضلالة في أمور الدين وأمور الدنيا. ولنعم المعبر عن ذلك قوله تعالى)خسر الدنيا والآخرة(إذ لا يهتدي إلى تطلب المسببات من أسبابها.

وحرف الشيء طرفه وجانبه سواء كان مرتفعا كحرف الجبل والوادي أم كان مستويا كحرف الطريق. ويطلق الحرف على طرف الجيش. ويجمع على طرف بوزن عنب قال في القاموس: ولا نظير له سوى طل وطلل.

وقوله تعالى)يعبد الله على حرف(تمثيل لحال المتردد في عمله، يريد تجربة عاقبته بحال من يمشي على حرف جبل أو حرف واد فهو متهيئ لأن يزل عنه إلى أسفله فينقلب، أي ينكب.

ومعنى اطمأن: استقر وسكن في مكانه. ومصدره الاطمئنان واسم المصدر الطمأنينة. وتقدم في قوله تعالى _ولكن ليطمئن قلبي(في سورة البقرة.

والمعنى: استمر على التوحيد فرحا بالخير الذي أصابه. واستقرار مثل هذا على الإيمان يصيره مؤمنا إذا زال عنه التردد وحال هؤلاء قريب من حال المؤلفة قلوبهم.

والانقلاب: مطاوع قلبه إذا كبه، أي ألقاه على عكس ما كان عليه بأن جعل ما كان أعلاه أسلفه كما يقلب القالب بفتح اللام .

فالانقلاب مستعمل في حقيقته، والكلام تمثيل. وتفسيرنا الانقلاب هنا بهذا المعنى هو المناسب لقوله)على وجهه(أي سقط وانكب عليه، كقول امرئ القيس:
يكب على الأذقان دوح الكنهبل

صفحة : 2764

وكقول النبي صلى الله عليه وسلم إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا كبه الله على وجهه .
وحرف الاستعلاء ظاهر وهو أيضا الملائم لتمثيل أول حاله بحال من هو على حرف.
ويطلق الانقلاب كثيرا على الانصراف من الجهة التي أتاها إلى الجهة التي جاء منها، وهو مجاز شائع وبه فسر المفسرون. ولا يناسب اعتباره هنا لأن مثله يقال فيه: انقلب على عقبيه لا على وجهه، كما قال تعالى)إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه(إذ الرجوع إنما يكون إلى جهة غير جهة الوجه.
والفتنة: اضطراب الحال وقلق البال من حدوث شر لا مدفع له. وهي مقابل الخير.
وجملة)خسر الدنيا والآخرة(يدل اشتمال من جملة)انقلب على وجهه(.
وجملة)ذلك هو الخسران المبين(معترضة بين جملة)انقلب على وجهه(وجملة)يدعو من دون الله(التي هي في موضع الحال من ضمير)انقلب(أي أسقط في الشرك.
والخسران: تلف جزء من أصل مال التجارة، فسبه نفع الدنيا ونفع الآخرة بمال التاجر الساعي في توفيره لأن الناس يرغبون تحصيله. وثنى على ذلك إثبات الخسران لصاحبه الذي هو من مرادفات مال التجارة المشبه به، فشبه فوات النفع المطلوب بخسارة المال.
وتعلق الخسران بالدنيا والآخرة على حذف مضاف. والتقدير خسر خير الدنيا وخير الآخرة.
فخسارة الدنيا بسبب ما أصابه فيها من الفتنة، وخسارة الآخرة بسبب عدم الانتفاع بثوابها المرجو له.
والمبين: الذي فيه ما يبين للناس أنه خسران بأدنى تأمل. والمراد أنه خسران شديد لا يخفى.
والإتيان باسم الإشارة لزيادة تمييز المسند اليه أتم تمييز لتقرير مدلوله في الأذهان.
وضمير)هو(ضمير فصل. والقصر المستفاد من تعريف المسند قصر ادعائي. ادعي أن ماهية الخسران المبين انحصرت في

خسرانهم. والمقصود من القصر الادعائي تحقيق الخبر ونفي الشك في وقوعه. وضمير الفصل أكد معنى القصر فأفاد تقوية الخبر المقصور.

)يدعوا من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد[12](جملة)يدعو من دون الله(الخ حال من ضمير)انقلب(.

وقدم الضر على النفع في قوله)ما لا يضره(إيماء إلى أنه تملص من الإسلام تجنبا للضر لتوهمه أن ما لحقه من الضر بسبب الإسلام وبسبب غضب الأصنام عليه، فعاد إلى عبادة الأصنام حاسبا أنها لا تضره. وفي هذا الإيماء تهكم به يظهر بتعقيبه بقوله تعالى)وما لا ينفعه(أي فهو مخطئ في دعائه الأصنام لتنزيل عنه الضر فينتفع بفعلها. والمعنى: أنها لا تفعل ما يجلب ضرا ولا ما يجلب نفعا.

والإشارة في قوله)ذلك هو الضلال(إلى الدعاء المستفاد من) يدعو(.

والقول في اسم الإشارة وضمير الفصل والقصر مثل ما تقدم في قوله)ذلك هو الخسران المبين(.

والبعيد: المتجاوز الحد المعروف في مدى الضلال، أي هو الضلال الذي لا يماثله ضلال لأنه يعبد ما لا غناء له.

)يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير[13](جملة في موضع حال ثانية. ومضمونها ارتقاء في تضليل عابدي الأصنام. فيعد أن بين لهم أنهم يعبدون ما لا غناء لهم فيه زاد فبين أنهم يعبدون ما فيه ضر. فموضع الارتقاء هو مضمون جملة)ما لا يضره(كأنه قيل: ما لا يضره بل ما ينجر له منه ضر. وذلك أن عبادة الأصنام تضره في الدنيا بالتوجه عند الاضطرار إليها فيضيع زمنه في تطلب ما لا يحصل وتضره في الآخرة بالإلقاء في النار.

ولما كان الضر الحاصل من الأصنام ليس ضرا ناشئا عن فعلها بل هو ضر ملابس لها أثبت الضر بطريق الإضافة للضمير دون طريق الإسناد إذ قال تعالى)لمن ضره أقرب من نفعه(ولم يقل: لمن يضر ولا ينفع، لأن الإضافة أوسع من الإسناد فلم يحصل تناف بين قوله)ما لا يضره(وقوله)لمن ضره أقرب من نفعه(.

وكونه أقرب من النفع كناية عن تمحضه للضر وانتفاء النفع منه لأن الشيء الأقرب حاصل قبل البعيد فيقتضي أن لا يحصل معه إلا الضر.

واللام في قوله)لمن(لام الابتداء، وهي تفيد تأكيد مضمون الجملة الواقعة بعدها، فلام الابتداء تفيد مفاد)إن(من التأكيد.

وقدمت من تأخير إذ حقها أن تدخل على صلة من الموصولة. والأصل: يدعو من لضره أقرب من نفعه.

ويجوز أن تعتبر اللام داخلة على من الموصولة ويكون فعل) يدعو(معلقا عن العمل لدخول لام الابتداء بناء على الحق من عدم اختصاص التعليق بأفعال القلوب.

وجملة)لبئس المولى ولبئس العشير(إنشاء ذم للأصنام التي يدعونها بأنها شر الموالي وشر العشراء لأن شأن المولى جلب النفع لمولاه، وشأن العشير جلب الخير لعشيره فإذا تخلف ذلك منهما نادرا كان مذمة وغضاضة، فأما أن يكون ذلك منه مطردا فذلك شر الموالي.

)إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد[14](هذا مقابل قوله)ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق(وقوله)خسر الدنيا والآخرة(. فالجملة معترضة. وقد اقتصر على ذكر ما للمؤمنين من ثواب الآخرة دون ذكر حالهم في الدنيا لعدم أهمية ذلك لديهم ولا في نظر الدين.

وجملة)إن الله يفعل ما يريد(تذييل للكلام المتقدم من قوله) ومن الناس من يجادل في الله بغير علم(إلى هنا، وهو اعتراض بين الجمل الملتئم منها الغرض. وفيها معنى التعليل الإجمالي لاختلاف أحوال الناس في الدنيا والآخرة.

وفعل الله ما يريد هو إيجاد أسباب أفعال العباد في سنة نظام هذا العالم. وتبيينة الخير والشر. وترتيبه الثواب والعقاب. وذلك لا يحيط بتفاصيله إلا الله تعالى.

)من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ[15](موقع هذه الآية غامض، ومفادها كذلك. ولنبدأ ببيان موقعها ثم نتبعه ببيان معناها فإن بين موقعها ومعناها اتصالا.

فيحتمل أن يكون موقعها استئنافا ابتدائيا أريد به ذكر فريق ثالث غير الفريقين المتقدمين في قوله تعالى)ومن الناس من يجادل في الله بغير علم(الآية وقوله)ومن الناس من يعبد الله على حرف(. وهذا الفريق الثالث جماعة أسلموا واستبطأوا نصر المسلمين فأيسوا منه وغاظهم تعجلهم للدخول في الإسلام وأن لم يتريثوا في ذلك وهؤلاء هم المنافقون.

ويحتمل أن يكون موقعها تذييلا لقوله)ومن الناس من يعبد الله على حرف(الآية بعد أن اعترض بين تلك الجملة وبين هاته بجمل أخرى فيكون المراد: أن الفريق الذين يعبدون الله على حرف

والمخبر عنهم بقوله)خسر الدنيا والآخرة(هم قوم يظنون أن الله لا ينصرهم في الدنيا ولا في الآخرة إن بقوا على الإسلام.
فأما ظنهم انتفاء النصر في الدنيا فلأنهم قد أيسوا من النصر استبطاء. وأما في الآخرة فلأنهم لا يؤمنون بالبعث ومن أجل هذا علق فعل لن ينصره بالمجرور بقوله)في الدنيا والآخرة(إيماء إلى كونه متعلق الخسران في قوله)خسر الدنيا والآخرة(. فإن عدم النصر خسران في الدنيا بحصول ضده. وفي الآخرة باستحالة وقوع الجزاء في الآخرة حسب اعتقاد كفرهم. وهؤلاء مشركون مترددون.
ويترجح هذا الاحتمال بتغيير أسلوب الكلام، فلم يعطف بالواو كما عطف قوله)ومن الناس من يعبد الله(ولم تورد فيه جملة)ومن الناس(كما أوردت في ذكر الفريقين السابقين ويكون المقصود من الآية تهديد هذا الفريق. فيكون التعبير عن هذا الفريق بقوله)من كان يظن(الخ إظهارا في مقام الإضمار، فإن مقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير ذلك الفريق فيقال بعد قوله)إن الله يفعل ما يريد( ) فليمدد بسبب إلى السماء(الخ عائدا الضمير المستتر في قوله) فليمدد(على)من يعبد الله على حرف(.
والعدول عن الإضمار إلى الإظهار لوجهين. أحدهما: بعد معاد الضمير. وثانيهما التنبيه على أن عبادته الله على حرف ناشئة عن ظنه أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة إن صمم على الاستمرار في اتباع الإسلام لأنه غير واثق بوعد النصر للمسلمين.
وضمير النصب في)ينصره(عائد إلى)من يعبد الله على حرف(على كلا الاحتمالين.

صفحة : 2766

واسم)السماء(مراد به المعنى المشهور على كلا الاحتمالين أيضا أخذا بما رواه القرطبي عن ابن زيد)يعني عبد الرحمان بن زيد ابن أسلم(أنه قال في قوله تعالى)فليمدد بسبب إلى السماء(قال: هي السماء المعروفة، يعني المطلة. فالمعنى: فلينط حبلا بالسماء مربوطا به ثم يقطعه فيسقط من السماء فيتمزق كل ممزق فلا يغني عنه فعله شيئا من إزالة غيظه.
ومفعول)يقطع(محذوف لدلالة المقام عليه. والتقدير: ثم ليقطعه، أي ليقطع السبب.
والأمر في قوله)فليمدد بسبب إلى السماء(للتعجيز، فيعلم أن تعليق الجواب على حصول شرط لا يقع كقوله تعالى)يا معشر

الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا(.
وأما استخراج معنى الآية من نظمها فإنها نسجت على إيجاز بديع. شبهت حالة استبطان هذا الفريق الكفر وإظهارهم الإسلام على حنق، أو حالة ترددهم بين البقاء في المسلمين وبين الرجوع إلى الكفار بحالة المغتاظ مما صنع فقيل لهم: عليكم أن تفعلوا ما يفعله أمثالكم ممن ملأهم الغيظ وضاقت عليهم سبل الانفراج، فامددوا حبلا بأقصى ما يمد إليه حبل، وتعلقوا به في أعلى مكان ثم قطعوه تخروا إلى الأرض. وذلك تهكم بهم في أنهم لا يجدون غنى في شيء من أفعالهم. وإنذار باستمرار فتنتهم في الدنيا مع الخسران في الآخرة.
ويحتمل أن تكون الآية مشيرة إلى فريق آخر أسلموا في مدة ضعف الإسلام واستبطأوا النصر فضاقت صدورهم فخطرت لهم خواطر شيطانية أن يتركوا الإسلام ويرجعوا إلى الكفر فزجرهم الله وهددهم بأنهم إن كانوا آيسين من النصر في الدنيا ومرتابين في نيل ثواب الآخرة فإن ارتدادهم عن الإسلام لا يضر الله ولا رسوله ولا يكيد الدين وإن شاءوا فليختنقوا فينظروا هل يزيل الاختناق غيظهم. ولعل هؤلاء من المنافقين.

فموقع الآية على هذا الوجه موقع الاستئناف الابتدائي لذكر فريق آخر يشبه من يعبد الله على حرف. والمناسبة ظاهرة.
ويجيء على هذا الوجه أن يكون ضمير)ينصره الله(عائدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا مروي عن ابن عباس واختاره الفراء والزجاج.
ويستتبع ذلك في كل الوجوه تعريضا بالتنبيه لخلص المؤمنين أن لا ييأسوا من نصر الله في الدنيا والآخرة أو في الآخرة فقط. قال تعالى)من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضي نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين(الآية.
والسبب: الحبل. وتقدم في قوله)وتقطعت بهم الأسباب(في سورة البقرة.
والقطع: قيل يطلق على الاختناق لأنه يقطع الأنفاس.
و)ما(مصدرية، أي غيظه.
والاستفهام ب)هل(إنكاري. وهو معلق فعل)فلينظر(عن العمل. والنظر قلبي. وسمي الفعل كيدا لأنه يشبه الكيد في أنه فعله لأن يكيد المسلمين على وجه الاستعارة التهكمية فإنه لا يكيد به المسلمين بل يضر به نفسه.

وقرأ الجمهور)ثم ليقطع(بسكون لام ليقطع وهو لام الأمر. فإذا كان في أول الكلمة كان مكسورا، وإذا وقع بعد عاطف غير) ثم(كان ساكنا مثل)ولتكن منكم أمة(. فإذا وقع بعد)ثم(جاز فيه الوجهان. وقرأه ابن عامر، وأبو عمرو وورش عن نافع، وأبو جعفر ورويس عن يعقوب بكسر اللام .

)وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدي من يريد[16](لما تضمنت هذه الآيات تبيين أحوال الناس تجاه دعوة الإسلام بما لا يبقى بعده التباس عقبت بالتنويه بتبيينها؛ بأن شبه ذلك التبيين بنفسه كناية عن بلوغه الغاية في جنسه بحيث لا يلحق بأوضح منه، أي مثل هذا الإنزال أنزلنا القرآن آيات بينات.

فالجملة معطوفة على الجمل التي قبلها عطف غرض على غرض والمناسبة ظاهرة، فهي استئناف ابتدائي. وعطف على التنويه تعليل إنزاله كذلك بان الله يهدي من يريد هديه أي بالقرآن. فلام التعليل محذوفة. وحذف حرف الجر مع)أن(مطرد.

)إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد[17](

صفحة : 2767

فذلكة لما تقدم. لأنه لما اشتملت الآيات السابقة على بيان أحوال المترددين في قبول الإسلام كان ذلك مشار لأن يتساءل عن أحوال الفرق بعضهم مع بعض في مختلف الأديان. وأن يسأل عن الدين الحق لأن كل أمة تدعى أنها على الحق وغيرها على الباطل وتجادل في ذلك .

فبينت هذه الآية أن الفصل بين أهل الأديان فيما اختصموا فيه يكون يوم القيامة. إذ لم تقدهم الحجج في الدنيا.

وهذا الكلام بما فيه من إجمال هو جار مجرى التفويض. ومثله يكون كناية عن تصويب المتكلم طريقته وتخطئته طريقة خصمه. لأن مثل ذلك التفويض لله لا يكون إلا من الواثق بأنه على الحق وهو كقوله تعالى)لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير(وذلك من قبيل الكناية التعريضية.

وذكر المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين تقدم في آية البقرة وآية العقود.

وزاد في هذه الآية ذكر المجوس والمشركين، لأن الآيتين المتقدمتين كانتا في مساق بيان فضل التوحيد والإيمان بالله واليوم الآخر في كل زمان وفي كل أمة. وزيد في هذه السورة ذكر

المجوس والمشركين لأن هذه الآية مسوقة لبيان التفويض إلى الله في الحكم بين أهل الملل، فالمجوس والمشركون ليسوا من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر.

فأما المجوس فهم أهل دين يثبت إلهين: إلها للخير، وإلها للشر، وهم أهل فارس. ثم هي تتشعب شعبا تأوي إلى هذين الأصلين.

وأقدم النحل المجوسية أسسها كيومرث الذي هو أول ملك بفارس في أزمنة قديمة يظن أنها قبل زمن إبراهيم عليه السلام ، ولذلك يلقب أيضا بلقب جل شاه تفسيره: ملك الأرض. غير أن ذلك ليس مضبوطا بوجه علمي وكان عصر كيومرث يلقب زروان أي الأزل، فكان أصل المجوسية هم أهل الديانة المسماة: الزروانية وهي تثبت إلهين هما يزدان و أهرمن . قالوا: كان يزدان منفردا بالوجود الأزلي، وأنه كان نورانيا، وأنه بقي كذلك تسعة آلف وتسعين سنة ثم حدث له خاطر في نفسه: أنه لو حدث له منازع كيف يكون الأمر فنشأ من هذا الخاطر موجود جديد ظلماني سمي أهرمن وهو إله الظلمة مطبوعا على الشر والضر.

وإلى هذا أشار أبو العلاء المعري بقوله في لزومياته:

قال أناس باطل زعمهـم فراقبوا الله ولا تزعمـن

فكر يزدان علـى غـرة فصيغ من تفكيره أهرمن فحدث بين أهرمن وبين يزدان خلاف ومحاربة إلى الأبد. ثم نشأت على هذا الدين نحل خصت بألقاب وهي متقاربة التعاليم أشهرها نحلة زرادشت الذي ظهر في القرن السادس قبل ميلاد المسيح، وبه اشتهرت المجوسية. وقد سمي إله الخير أهورا مزدا أو أرمزد أو هرمز ، وسمي إله الشر أهرمن ، وجعل إله الخير نورا، وإله الشر ظلمة. ثم دعا الناس إلى عبادة النار على أنها مظهر إله الخير وهو النور.

ووسع شريعة المجوسية، ووضع لها كتابا سماه زندافستا . ومن أصول شريعته تجنب عبادة التماثيل.

ثم ظهرت في المجوس نحلة المانوية . وهي المنسوبة إلى ماني الذي ظهر في زمن سابور بن أردشير ملك الفرس بين سنة 238 وسنة 271م.

وظهرت في المجوس نحلة المزدكية ، وهي منسوبة إلى مزدك الذي ظهر في زمن قباذ بين سنة 487 وسنة 523م. وهي نحلة قريبة من المانوية ، وهي آخر نحلة ظهرت في تطور المجوسية قبل الفتح الإسلامي لبلاد الفرس.

وللمجوسية شبه في الأصل بالإشراك إلا أنها تخالفه بمنع عبادة الأحجار، وبأن لها كتابا، فأشبهوا بذلك أهل الكتاب. ولذلك قال النبي

صلى الله عليه وسلم فيهم: سنوا بهم سنة أهل الكتاب أي في الاكتفاء بأخذ الجزية منهم دون الإكراه على الإسلام كما يكره المشركون على الدخول في الإسلام.
وقد تقدم شيء من هذا عند قوله تعالى)وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين(في سورة النحل.
وأعيدت)إن(في صدر الجملة الواقعة خبرا عن اسم)إن(الأولى توكيدا لفظيا للخبر لطول الفصل بين اسم)إن(وخبرها. وكون خبرها جملة وهو توكيد حسن بسبب طول الفصل. وتقدم منه قوله تعالى)إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا(في سورة الكهف. وإذا لم يطل الفصل فالتوكيد بإعادة) إن(أقل حسنا كقول جرير:

إن الخليفة أن الله سربله سربال
ملك به تزجى الخواتيم ولا يحسن إذا كان مبتدأ الجملة الواقعة خبرا ضمير اسم)إن(الأولى كما تقول إن زيدا إنه قائم. بل لا بد من الاختلاف ليكون المؤكد الثاني غير الأول فتقبل إعادة المؤكد وإن كان المؤكد الأول كافيا.
والفصل: الحكم، أي يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من تصحيح الديانة.
وجملة)إن الله على كل شيء شهيد(مستأنفة استئنافا ابتدائيا للإعلام بإحاطة علم الله بأحوالهم واختلافهم والصحيح من أقوالهم.
)ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء[18](جملة مستأنفة لابتداء استدلال على انفراد الله تعالى بالإلهية. وهي مرتبطة بمعنى قوله)يدعو من دون الله ما لا يضره ولا ينفعه(إلى قوله)لبئس المولى ولبئس العشير(ارتباط الدليل بالمطلوب فإن دلائل أحوال المخلوقات كلها عاقلها وجمادها شاهدة بتفرد الله بالإلهية. وفي تلك الدلالة شهادة على بطلان دعوة من يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه.
وما وقع بين هاتين الجملتين استطراد واعتراض.
والروية: علمية. والخطاب لغير معين.
والاستفهام إنكاري. أنكر على المخاطبين عدم علمهم بدلالة أحوال المخلوقات على تفرد الله بالإلهية. ويجوز أن يكون الخطاب للنبي

صلى الله عليه وسلم والاستفهام تقريريا، لأن حصول علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك متقرر من سورة الرعد وسورة النحل. وقد تقدم الكلام على معنى هذا السجود في السورتين المذكورتين.

وقد استعمل السجود في حقيقته ومجازه، وهو حسن وإن أباه الزمخشري، وقد حققناه في المقدمة التاسعة، لأن السجود المثبت لكثير من الناس هو السجود الحقيقي، ولولا إرادة ذلك لما احترس بإثباته لكثير من الناس لا لجميعهم.

ووجه هذا التفكيك أن سجود الموجودات غير الإنسانية ليس إلا دلالة تلك الموجودات على أنها مسخرة بخلق الله، فاستعير السجود لحالة التسخير والانطباع. وأما دلالة حال الإنسان على عبوديته لله تعالى فلما خالطها إعراض كثير من الناس عن السجود لله تعالى، وتلبسهم بالسجود للأصنام كما هو حال المشركين غطى سجودهم الحقيقي على السجود المجازي الدال على عبوديتهم لله لأن المشاهدة أقوى من دلالة الحال فلم يثبت لهم السجود الذي أثبت لبقية الموجودات وإن كان حاصلا في حالهم كحال المخلوقات الأخرى.

وجملة)وكثير حق عليه العذاب(معترضة بالواو.

وجملة)حق عليه العذاب(مكنى بها عن ترك السجود لله، أي حق عليهم العذاب لأنهم لم يسجدوا لله، وقد قضى الله في حكمه استحقاق المشترك لعذاب النار. فالذين أشركوا بالله وأعرضوا عن إفراده بالعبادة قد حق عليهم العذاب بما قضى الله به وأنذرهم به.

وجملة)ومن يهن الله فما له من مكرم(اعتراض ثان بالواو.

والمعنى: أن الله أهانهم باستحقاق العذاب فلا يجدون من يكرمهم بالنصر أو بالشفاعة.

وجملة)إن الله يفعل ما يشاء(في محل العلة للجملتين المعترضتين لأن وجود حرف التوكيد في أول الجملة مع عدم المنكر يمحض حرف التوكيد إلى إفادة الاهتمام فنشأ من ذلك معنى السببية والتعليل، فتغني)أن(غناء حرف التعليل أو السببية.

وهذا موضع سجود من سجود القرآن باتفاق الفقهاء.

)هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم[19] يصهر به ما في بطونهم والجلود[20] ولهم مقامع من حديد[21] كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق[22](

مقتضى سياق السورة واتصال آي السورة وتتابعها في النزول أن تكون هذه الآيات متصلة النزول بالآيات التي قبلها فيكون موقع جملة)هذان خصمان(موقع الاستئناف البياني، لأن قوله)وكثير حق عليه العذاب(يثير سؤال من يسأل عن بعض تفصيل صفة العذاب الذي حق على كثير من الناس الذين لم يسجدوا لله تعالى، فجاءت هذه الجملة لتفصيل ذلك. فهي استئناف بياني. فاسم الإشارة المثنى مثير إلى ما يفيده قوله تعالى) وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب(من انقسام المذكورين إلى فريقين أهل توحيد وأهل شرك كما يقتضيه قوله)وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب(من كون أولئك فريقين: فريق يسجد لله تعالى، وفريق يسجد لغيره. فالإشارة إلى ما يستفاد من الكلام بتنزيله منزلة ما يشاهده بالعين، ومثلها كثير في الكلام.

والاختصام: افتعال من الخصومة. وهي الجدل والاختلاف بالقول يقال: خاصمه واختصما، وهو من الأفعال المقتضية جانبين فلذلك لم يسمع منه فعل مجرد إلا إذا أريد منه معنى الغلب في الخصومة لأنه بذلك يصير فاعله واحدا. وتقدم قوله تعالى)ولا تكن للخائنين خصيما(في سورة النساء. واختصام فريقي المؤمنين وغيرهم معلوم عند السامعين قد ملأ الفضاء جلبته، فالإخبار عن الفريقين بأنهما خصمان مسوق لغير إفادة الخبر بل تمهيدا للتفصيل في قوله) فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نارا(.

فالمراد من هذه الآية ما يعم جميع المؤمنين وجميع مخالفيهم في الدين.

ووقع في الصحيحين عن أبي ذر: أنه كان يقسم أن هذه الآية) هذان خصمان اختصموا في ربهم (نزلت في حمزة وصاحبيه علي ابن أبي طالب وعتبة بن الحارث الذين بارزوا يوم بدر شيبة ابن ربيعة. وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

وفي صحيح البخاري عن علي بن أبي طالب قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمان للخصومة يوم القيامة. قال قيس بن عبادة: وفيهم نزلت)هذان خصمان اختصموا في ربهم(. قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي، وحمزة، وعبيدة، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة. وليس في كلام علي أن الآية نزلت في يوم بدر ولكن ذلك مدرج من كلام قيس بن عبادة، وعليه فهذه الآية مدنية فتكون)هذان(إشارة إلى فريقين حاضرين في أذهان المخاطبين فنزل حضور قصتهما العجيبة في الأذهان منزلة المشاهدة حتى أعيد عليها اسم الإشارة الموضوع للمشاهد، وهو استعمال في كلام البلغاء. ومنه قول الأحنف بن قيس: خرجت لأنصر هذا الرجل يريد علي بن أبي طالب في قصة صفين.

والأظهر أن أبا ذر عنى بنزول الآية في هؤلاء أن أولئك النفر الستة هم أبرز مثال وأشهر فرد في هذا العموم. فعبر بالنزول وهو يريد أنهم ممن يقصد من معنى الآية. ومثل هذا كثير في كلام المتقدمين. والاختصام على الوجه الأول حقيقي وعلى الوجه الثاني أطلق الاختصام على المبارزة مجازا مرسلا لأن الاختصام في الدين هو سبب تلك المبارزة.

واسم الخصم يطلق على الواحد وعلى الجماعة إذا أتحدث خصومتهم كما في قوله تعالى)وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب(فلمراعاة تثنية اللفظ أتي باسم الإشارة الموضوع للمثنى ولمراعاة العدد أتي بضمير الجماعة في قوله تعالى)اختصموا في ربهم(.

ومعنى)في ربهم(في شأنه وصفاته، فالكلام على حذف مضاف ظاهر. وقرأ الجمهور)هاذان(بتخفيف النون ، وقراه ابن كثير بتشديد النون وهما لغتان.

والتقطيع: مبالغة القطع، وهو فصل بعض أجزاء شيء عن بقيته. والمراد: قطع شقة الثوب. وذلك أن الذي يريد اتخاذ قميص أو نحوه يقطع من شقة الثوب ما يكفي كما يريده. فصيغت صيغة الشدة في القطع للإشارة إلى السرعة في إعداد ذلك لهم فيجعل لهم ثياب من نار. والثياب من النار ثياب محرقة للجلود وذلك من شؤون الآخرة.

والحميم: الماء الشديد الحرارة.

والإصهار: الإذابة بالنار أو بحرارة الشمس، يقال: أصهره وصهره.

وما في بطونهم: أمعاؤهم، أي هو شديد في النفاذ إلى باطنهم.

والمقامع: جمع مقمعة بكسر الميم بصيغة اسم آله القمع. والقمع: الكف عن شيء بعنف. والمقمعة: السوط، أي يضربون بسياط من حديد.

صفحة : 2770

ومعنى)كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها(أنهم لشدة ما يغمهم، أي يمنعهم من التنفس، يحاولون الخروج فيعادون فيها فيحصل لهم ألم الخيبة، ويقال لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

والحريق: النار الضخمة المنتشرة. وهذا القول إحانة لهم فإنهم قد علموا أنهم يذوقونه.

)إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها

حرير[23] وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد[24](كان مقتضى الظاهر أن يكون هذا الكلام معطوفا بالواو على جملة)فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار(، لأنه قسيم تلك الجملة في تفصيل الإجمال الذي في قوله)هذان خصمان اختصموا في ربهم(بأن يقال:)والذين آمنوا وعملوا الصالحات يدخلهم الله جنات...(إلى آخره. فعدل عن ذلك الأسلوب إلى هذا النظم لاسترعاء الأسماع إلى هذا الكلام إذا جاء مبتدأ به مستقلا مفتتحا بحرف التأكيد ومتوجا باسم الجلالة، والبليغ لا تفوته معرفة أن هذا الكلام قسيم للذي قبله في تفصيل إجمال)هذان خصمان اختصموا في ربهم(لوصف حال المؤمنين المقابل لحال الذين كفروا في المكان واللباس وخطاب الكرامة.

فقوله)يدخل الذين آمنوا(الخ مقابل قوله)كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها(. وقوله)يحلون فيها من أساور من ذهب(يقابل قوله)يصب من فوق رؤوسهم الحميم(. وقوله)ولباسهم فيها حرير(مقابل قوله)قطعت لهم ثياب من نار(. وقوله)وهدوا إلى الطيب من القول(مقابل قوله)وذوقوا عذاب الحريق(فإنه من القول النكد.

والتحلية وضع الحلي على أعضاء الجسم. حلاه: ألبسه الحلي مثل جلبب.

والأساور: جمع أسورة الذي هو جمع سوار. أشير بجمع الجمع إلى التكثير كما تقدم في قوله)يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا(في سورة الكهف.

و)من(في قوله)من أساور(زائدة للتوكيد. ووجهه أنه لما لم يعهد تحلية الرجال بالأساور كان الخبر عنهم بأنهم يحلون أساور معرضا للتردد في إرادة الحقيقة فجيء بالمؤكد لإفادة المعنى الحقيقي. ولذلك ف)أساور(في موضع المفعول الثاني ل)يحلون(.

)ولؤلؤا(قرأه نافع، ويعقوب، وعاصم بالنصب عطفا على محل) أساور(أي يحلون لؤلؤا أي عقودا ونحوها. وقرأه الباقون بالجر عطفا على اللفظ . والمعنى: أساور من ذهب وأساور من لؤلؤ.

وهي مكتوبة في المصحف بألف بعد الواو الثانية في هذه السورة فكانت قراءة جر)لؤلؤ(مخالفة لمكتوب المصحف. والقراءة نقل ورواية فليس اتباع الخط واجبا على من يروي بما يخالفه. وكتب نظيره في سورة فاطر بدون ألف. والذين قرأوه بالنصب خالفوا أيضا خط المصحف واعتمدوا روايتهم.

وسريان معنى التأكيد على القراءتين واحد لأن التأكيد تعلق بالجملة كلها لا بخصوص المعطوف عليه حتى يحتاج إلى إعادة المؤكد مع المعطوف.

واللؤلؤ: الدر. ويقال له الجمان والجوهر. وهو حبوب بيضاء وصفراء ذات بريق رقراق تستخرج من أجواف حيوان مائي حلزوني مستقر في غلاف ذي دفتين مغلقتين عليه يفتحهما بحركة حيوية منه لامتصاص الماء الذي يسبح فيه ويسمى غلافه صدفا، فتوجد في جوف الحيوان حبة ذات بريق وهي تتفاوت بالكبر والصغر وبصفاء اللون وبياضه. وهذا الحيوان يوجد في عدة بحار: كبحر العجم وهو المسمى بالبحرين، وبحر الجابون، وشط جزيرة جربة من البلاد التونسية، وأجوده وأحسنه الذي يوجد منه في البحرين حيث مصب نهري الدجلة والفرات، ويستخرجه عواصون مدربون على التقاطه من قعر البحر بالغوص، يغوص الغائص مشدودا بحبل بيد من يمسكه على السفينة وينتشله بعد لحظة تكفيه للالتقاط. وقد جاء وصف ذلك في قول المسيب بن علس أو الأعشى:

لجمانة البحري جاء بهـا عواصها من لجة البحر

تصف النهار الماء غامره ورفيقه بالغيب لا يدري

وقال أبو ذؤيب الهذلي يصف لؤلؤة:

فجاء بها ما شئت من لطمـية على وجهها ماء الفرات يموج

وقد أشارت إليه آية سورة النحل)وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها(.

صفحة : 2771

ولما كانت التحلية غير اللباس جيء باسم اللباس بعد) يحلون(بصيغة الاسم دون)يلبسون(لتحصل الدلالة على الثبات والاستمرار كما دلت صيغة)يحلون(على أن التحلية متجددة بأصناف وألوان مختلفة، ومن عموم الصيغتين يفهم تحقق مثلها في الجانب الآخر فيكون في الكلام احتباك كأنه قيل: يحلون بها وحليتهم من أساور من ذهب ولباسهم فيها حرير يلبسونه.

والحرير: يطلق على ما نسج من خيوط الحرير كما هنا. وأصل اسم الحرير اسم الخيوط تفرزها من لعابها دودة مخصوصة تلفها لفا بعضها إلى بعض مثل كبة تلتئم مشدودة كصورة الفول السوداني تحيط بالدودة كمثل الجوزة وتمكث فيه الدودة مدة إلى أن تتحول الدودة إلى فراشة ذات جناحين فتثقب ذلك البيت وتخرج منه. وإنما تحصل الخيوط من ذلك البيت بوضعها في ماء حار في درجة الغليان حتى يزول تماسكها بسبب انحلال المادة الصمغية اللعابية

التي تشدها فيطلقونها خيطا واحدا طويلا. ومن تلك الخيوط تنسج ثياب تكون بالغة في اللين واللمعان. وثياب الحرير أجود الثياب في الدنيا قديما وحديثا. وأقدم ظهورها في بلاد الصين منذ خمسة آلاف سنة تقريبا حيث يكثر شجر التوت. لأن دود الحرير لا يفرز الحرير إلا إذا كان علقه ورق التوت، والأكثر أنه يبني بيوته في أغصان التوت. وكان غير أهل الصين لا يعرفون تربية دود الحرير فلا يحصلون الحرير إلا من طريق بلاد الفرس يجلبه التجار فلذلك يباع بأثمان غالية. وكانت الأثواب الحريرية تباع بوزنها من الذهب. ثم نقل بزر دود الحرير الذي يولد منه الدود إلى القسطنطينية في زمن الإمبراطور بوستنيانوس بين سنة 527 وسنة 565م. ومن أصناف ثياب الحرير السندس والإستبرق وقد تقدما في سورة الكهف. وعرفت الأثواب الحريرية في الرومان في حدود أوائل القرن الثالث المسيحي.

ومعنى)وهدوا إلى الطيب من القول(أن الله يرشدهم إلى أقوال، أي يلهمهم أقوالا حسنة يقولونها بينهم. وقد ذكر بعضها في قوله تعالى)دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين(وفي قوله)وقالوا الحمد الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين(.

ويجوز أن يكون المعنى: أنهم يرشدون إلى أماكن يسمعون فيها أقوالا طيبة. وهو معنى قوله تعالى)والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار(. وهذا أشد مناسبة بمقابلة ما يسمعه أهل النار في قوله)وذوقوا عذاب الحريق(.

وجملة)وهدوا إلى صراط الحميد(معترضة في آخر الكلام، والواو للاعتراض، هي كالتكملة لوصف حسن حالهم لمناسبة ذكر الهداية في قوله)وهدوا إلى الطيب من القول(، ولم يسبق مقابل لمضمون هذه الجملة بالنسبة لأحوال الكافرين. وسيجيء ذكر مقابلها في قوله)إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله(إلى قوله)نذقه من عذاب أليم(وذلك من أفانين المقابلة. والمعنى: وقد هدوا إلى صراط الحميد في الدنيا، وهو دين الإسلام، شبه بالصراط لأنه موصل إلى رضى الله.

والحميد من أسماء الله تعالى، أي المحمود كثيرا فهو فعيل بمعنى مفعول، فإضافة)صراط(إلى اسم)الله(لتعريف أي صراط هو. ويجوز أن يكون)الحميد(صفة ل)صراط(، أي المحمود لسالكه. فإضافة صراط إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة. والصراط المحمود هو صراط دين الله. وفي هذه الجملة إيماء إلى سبب

استحقاق تلك النعم أنه الهداية السابقة إلى دين الله في الحياة الدنيا.
)إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم[25](هذا مقابل قوله)وهدوا إلى صراط الحميد(بالنسبة إلى أحوال المشركين إذ لم يسبق لقوله ذلك مقابل في الأحوال المذكورة في آية)فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار(كما تقدم. فموقع هذه الجملة الاستئناف البياني. والمعنى: كما كان سبب استحقاق المؤمنين ذلك النعيم اتباعهم صراط الله كذلك كان سبب استحقاق المشركين ذلك العذاب كفرهم وصدهم عن سبيل الله.

صفحة : 2772

وفيه مع هذه المناسبة لما قبله تخلص بديع إلى ما بعده من بيان حق المسلمين في المسجد الحرام، وتهويل أمر الإلحاد فيه، والتنويه به وتنزيهه عن أن يكون مأوى للشرك ورجس الظلم والعدوان.
وتأكيد الخبر بحرف التأكيد للاهتمام به.
وجاء)يصدون(بصيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك منهم وأنه دأبهم سواء فيه أهل مكة وغيرهم لأن البقية ظاهروهم على ذلك الصد ووافقوهم.
أما صيغة الماضي في قوله)إن الذين كفروا(فلأن ذلك الفعل صار كاللقب لهم مثل قوله)إن الله يدخل الذين آمنوا(.
وسبيل الله: الإسلام، فصدهم عنه هو الذي حقق لهم عذاب النار، كما حقق اهتداء المؤمنين إليه لهم نعيم الجنة.
والصد عن المسجد الحرام مما شمله الصد عن سبيل الله فخص بالذكر للاهتمام به، ولينتقل منه إلى التنويه بالمسجد الحرام، وذكر بنائه، وشرع الحج له من عهد إبراهيم. والمراد بصدهم عن المسجد الحرام صد عرفه المسلمون يومئذ. ولعله صدهم المسلمين عن دخول المسجد الحرام والطواف بالبيت. والمعروف من ذلك أنهم منعوا المسلمين بعد الهجرة من زيارة البيت فقد قال أبو جهل لسعد بن معاذ لما جاء إلى مكة معتمرا وقال لصاحبه أمية بن خلف: انتظر لي ساعة من النهار لعلي أطوف بالبيت، فبينما سعد يطوف إذ أتاه أبو جهل وغرفه. فقال له أبو جهل: أتطوف بالكعبة؟ آمنا وقد أوتيتم الصباة)يعني المسلمين(. ومن ذلك ما صنعوه يوم

الحديبية. وقد قيل: إن الآية نزلت في ذلك. وأحسب أن الآية نزلت قبل ذلك سواء نزلت بمكة أم بالمدينة.

ووصف المسجد بقوله)الذي جعلناه للناس(الآية للإيماء إلى علة مؤاخذة المشركين بصدهم عنه لأجل أنهم خالفوا ما أراد الله منه فإنه جعله للناس كلهم يستوي في أحقية التعبد به العاكف فيه، أي المستقر في المسجد، والبادي، أي البعيد عنه إذا دخله.

والمراد بالعاكف: الملازم له في أحوال كثيرة، وهو كناية عن الساكن بمكة لأن الساكن بمكة يعكف كثيرا في المسجد الحرام، بدليل مقابلته بالبادي، فأطلق العكوف في المسجد على سكنى مكة مجازا بعلاقة اللزوم العرفي. وفي ذكر العكوف تعريض بأنهم لا يستحقون بسكنى مكة مزية على غيرهم، وبأنهم حين يمنعون الخارجين عن مكة من الدخول للكعبة قد ظلموهم باستئثارهم بمكة.

وقرأ الجمهور)سواء(بالرفع على أنه مبتدأ)والعاكف فيه(فاعل سد مسد الخبر، والجملة مفعول ثان ل)جعلناه(. وقرأه حفص بالنصب على أنه المفعول الثاني ل)جعلناه(.

والعكوف: الملازمة. والبادي: ساكن البادية.

وقوله)سواء(لم يبين الاستواء فيما ذا لظهور أن الاستواء فيه بصفة كونه مسجدا إنما هي في العبادة المقصودة منه ومن ملحقاته وهي: الطواف، والسعي، ووقوف عرفه.

وكتب)والباد(في المصحف بدون ياء في آخره. وقرأ ابن كثير) والبادي(بإثبات الياء على القياس لأنه معرف، والقياس إثبات ياء الاسم المنقوص إذا كان معرفا باللام، ومحمل كتابته في المصحف بدون ياء عند أهل هذه القراءة أن الياء عوملت معاملة الحركات وألفات أواسط الأسماء فلم يكتبوها. وقرأه نافع بغير ياء في الوقف وأثبتها في الوصل. ومحمل كتابته على هذه القراءة بدون ياء أنه روعي فيه التخفيف في حالة الوقف لأن شأن الرسم أن يراعى فيه حالة الوقف.

وقراه الباقون بدون ياء في الحالين الوصل والوقف. والوجه فيه قصد التخفيف ومثله كثير.

وليس في هذه الآية حجة لحكم امتلاك دور مكة إثباتا ولا نفيا لأن سياقها خاص بالمسجد الحرام دون غيره، ويلحق به ما هو من تمام مناسكه: كالمسعى، والموقف، والمشعر الحرام، والجمار. وقد جرت عادة الفقهاء أن يذكروا مسألة امتلاك دور مكة عند ذكر هذه الآية على وجه الاستطراد. ولا خلاف بين المسلمين في أن الناس سواء في أداء المناسك بالمسجد الحرام وما يتبعه إلا ما منعته الشريعة كطواف الحائض بالكعبة.

وأما مسألة امتلاك دور مكة فللفقهاء فيها ثلاثة أقوال: فكان عمر بن الخطاب وابن عباس وغيرهما يقولون: إن القادم إلى مكة للحج له أن ينزل حيث شاء من ديارها وعلى رب المنزل أن يؤويه. وكانت دور مكة تدعى السوائب في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأب بكر وعمر رضي الله عنهما .

صفحة : 2773

وقال مالك والشافعي: دور مكة ملك لأهلها، ولهم الامتناع من إسكان غيرهم، ولهم إكراؤها للناس، وإنما تجب المواساة عند الضرورة، وعلى ذلك حملوا ما كان يفعله عمر فهو من المواساة. وقد اشترى عمر دار صفوان بن أمية وجعلها سجنا. وقال أبو حنيفة: دور مكة لا تملك وليس أهلها أن يكروها. وقد ظن أن الخلاف في ذلك مبني على الاختلاف في أن مكة فتحت عنوة أو صلحا. والحق أنه لا بناء على ذلك لأن من القائلين بأنها فتحت عنوة قائلين بتملك دور مكة فهذا مالك بن أنس يراها فتحت عنوة ويرى صحة تملك دورها. ووجه ذلك: أن النبي صلى الله عليه وسلم أقر أهلها في منازلهم فيكون قد أقطعهم إياها كما من على أهلها بالإطلاق من الأسر ومن السبي. ولم يزل أهل مكة يتبايعون دورهم ولا ينكر عليهم أحد من أهل العلم.
وخبر)إن الذين كفروا(محذوف تقديره: نذقهم من عذاب أليم، دل عليه قوله في الجملة الآتية)ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم(.
وإذ كان الصد عن المسجد الحرام إلحادا بظلم فإن جملة)ومن يرد فيه فإلحاد بظلم(تذييل للجملة السابقة لما في)من(الشرطية من العموم.
والإلحاد: الانحراف عن الاستقامة وسواء الأمور. والظلم يطلق على الإشراك وعلى المعاصي لأنها ظلم النفس.
والباء في)بإلحاد(زائدة للتوكيد مثلها في)وامسحوا برؤوسكم(. أي من يرد إلحادا وبعدا عن الحق والاستقامة وذلك صدهم عن زيارته.
والباء في)بظلم(للملابسة. فالظلم: الإشراك، لأن المقصود تهديد المشركين الذين حملهم الإشراك على مناواة المسلمين ومنعهم من زيارة المسجد الحرام.
و)من(في قوله)من عذاب أليم(مزيدة للتوكيد على رأي من لا يشترطون لزيادة)من(وقوعها بعد نفي أو نهي. ولك أن تجعلها للتبعيض، أي نذقه عذابا من عذاب أليم.

)وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود[26](عطف على جملة)ومن يرد فيه بإلحاد بظلم(عطف قصة على قصة. ويعلم منها تعليل الجملة المعطوفة عليها بأن الملحد في المسجد الحرام قد خالف بإلحاده فيه ما أراده الله من تطهيره حين أمر ببنائه. والتخلص من ذلك إلى إثبات ظلم المشركين وكفرانهم نعمة الله في إقامة المسجد الحرام وتشريع الحج.

و)إذا(اسم زمان مجرد عن الظرفية فهو منصوب بفعل مقدر على ما هو متعارف في أمثاله، والتقدير: واذكر إذ بوأنا، أي اذكر زمان بوأنا لإبراهيم فيه كقوله تعالى)وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة(، أي اذكر ذلك الوقت العظيم. وعرف معنى تعظيمه من إضافة اسم الزمان إلى الجملة الفعلية دون المصدر فصار بما يدل عليه الفعل من التجدد كأنه زمن حاضر.

والتبوئة: الإسكان. وتقدم في قوله تعالى)وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها(.

والمكان: الساحة من الأرض وموضع للكون فيه، فهو فعل مشتق من الكون، فتبوئته المكان: إذنه بأن يتخذه مباءة، أي مقرا يبني فيه بيتا، فوقع بذكر)مكان(إيجاز في الكلام كأنه قيل: وإذ أعطيناه مكانا ليتخذ فيه بيتا، فقال: مكان البيت، لأن هذا حكاية عن قصة معروفة لهم. وسبق ذكرها فيما نزل قبل هذه الآية من القرآن.

واللام في)لإبراهيم(لام العلة لأن)إبراهيم(مفعول أول ل) بوأنا(الذي هو من باب أعطى، فاللام مثلها في قولهم: شكرت لك، أي شكرتك لأجلك. وفي ذكر اللام في مثله ضرب من العناية والتكرمة.

و)البيت(معروف معهود عند نزول القرآن فلذلك عرف بلام العهد ولولا هذه النكتة لكان ذكر)مكان(حشوا. والمقصود أن يكون مأوى للدين، أي معهدا لإقامة شعائر الدين.

فكان يتضمن بوجه الإجمال أنه يترقب تعلما بالدين فلذلك أعقب بحرف أن التفسيرية التي تقع بعد جملة فيها معنى القول دون حروفه. وكان أصل الدين هو نفي الإشراك بالله فعلم أن البيت جعل معلما للتوحيد بحيث يشترط على الداخل إليه أن لا يكون مشركا، فكانت الكعبة لذلك أول بيت وضع للناس، لإعلان التوحيد كما بيناه عند قوله تعالى)إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين(في سورة آل عمران.

وقوله تعالى)وطهر بيتي(مؤذن بكلام مقدر دل عليه)بوأنا لإبراهيم مكان البيت(. والمعنى: وأمرناه ببناء البيت في ذلك المكان، وبعد أن بناه قلنا لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي.

وإضافة البيت إلى ضمير الجلالة تشريف للبيت. والتطهير: تنزيهه عن كل خبيث: معنى كالشرك والفواحش وظلم الناس وبث الخصال الذميمة، وحسا من الأقذار ونحوها، أي أعدده طاهرا للطائفين والقائمين فيه.

والطواف المشي حول الكعبة، وهو عبادة قديمة من زمن إبراهيم قررها الإسلام وقد كان أهل الجاهلية يطوفون حول أصنامهم كما يطوفون بالكعبة.

والمراد بالقائمين الداعون تجاه الكعبة، ومنه سمي مقام إبراهيم، وهو مكان قيامه للدعاء فكان الملتزم موضعا للدعاء. قال زيد بن عمرو بن نفيل:

عذت مما عاذ به إبراهيم مستقبل

الكعبة وهو قائم والركع: جمع راكع، ووزن فعل يكثر جمعا لفاعل وصفا إذا كان صحيح اللام نحو: عذل وسجد.

والسجود : جمع ساجد مثل: الرقود، والقعود، وهو من جموع أصحاب الأوصاف المشابهة مصادر أفعالها.

)وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق[27] ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير[28]( )وأذن(عطف على)وطهر بيتي(. وفيه إشارة إلى أن من إكرام الزائر تنظيف المنزل وأن ذلك يكون قبل نزول الزائر بالمكان.

والتأذين: رفع الصوت بالإعلام بشيء. وأصله مضاعف أذن إذا سمع ثم صار بمعنى بلغه الخبر فجاء منه آذن بمعنى أخبر. وأذن بما فيه من مضاعفة الحروف مشعر بتكرير الفعل، أي أكثر الإخبار بالشيء، والكثرة تحصل بالتكرار وبرفع الصوت القائم مقام التكرار. ولكونه بمعنى الإخبار يعدى إلى المفعول الثاني بالباء.

والناس يعم كل البشر، أي كل ما أمكنه أن يبلغ إليه ذلك.

والمراد بالحج: القصد إلى بيت الله. وصار لفظ الحج علما بالغلبة على الحضور بالمسجد الحرام لأداء المناسك. ومن حكمة مشروعيته تلقي عقيدة توحيد الله بطريق المشاهدة للهيكل الذي أقيم لذلك حتى يرسخ معنى التوحيد في النفوس لأن للنفوس ميلا إلى المحسوسات ليتقوى الإدراك العقلي بمشاهدة المحسوس. فهذه أصل في سنة المؤثرات لأهل المقصد النافع.

وفي تعليق فعل)يأتوك(بضمير خطاب إبراهيم دلالة على أنه كان يحضر موسم الحج كل عام يبلغ للناس التوحيد وقواعد الحنيفية. روي أن إبراهيم لما أمره الله بذلك اعتلى جبل أبي قيس وجعل إصبعيه في أذنيه ونادى:)إن الله كتب عليكم الحج فحجوا(. وذلك أقصى استطاعته في امتثال الأمر بالتأذين. وقد كان إبراهيم رحالة فلعله كان ينادي في الناس في كل مكان يحل فيه.

وجملة)يأتوك(جواب للأمر، جعل التأذين سببا للإتيان تحقيقا لتيسير الحج على الناس. فدل جواب الأمر على أن الله ضمن له استجابة ندائه.

وقوله)رجالا(حال من ضمير الجمع في قوله)يأتوك(.

وعطف عليه)وعلى كل ضامر(بواو التقسيم التي بمعنى) أو(كقوله تعالى)ثيبات وأبكارا(إذ معنى العطف هنا على اعتبار التوزيع بين راجل وراكب، إذ الراكب لا يكون راجلا ولا العكس. والمقصود منه استيعاب أحوال الآتين تحقيقا للوعد بتيسير الإتيان المشار إليه بجعل إتيانهم جوابا للأمر، أي يأتيك من لهم رواحل ومن يمشون على أرجلهم.

ولكون هذه الحال أغرب قدم قوله)رجالا(ثم ذكر بعده)وعلى كل ضامر(تكملة لتعميم الأحوال إذ إتيان الناس لا يعدو أحد هذين الوصفين.

و)رجالا(: جمع راجل وهو ضد الراكب.

والضامر: قليل لحم البطن. يقال: ضمر ضمورا فهو ضامر، وناقة ضامر أيضا. والضمور من محاسن الرواحل والخيل لأنه يعينها على السير والحركة.

فالضامر هنا بمنزلة الاسم كأنه قال: وعلى كل راحلة.

صفحة : 2775

وكلمة)كل(من قوله)وعلى كل ضامر(مستعملة في الكثرة، أي وعلى رواحل كثيرة. وكلمة)كل(أصلها الدلالة على استغراق جنس ما تضاف إليه ويكثر استعمالها في معنى كثير مما تضاف إليه كقوله تعالى)وأوتيت من كل شيء(أي من أكثر الأشياء التي يؤتاها أهل الملك، وقول النابغة:

بها كل ذيال وخنساء تـرعـوي إلى

كل رجاف من الرمل فارد أي بها وحش كثير في رمال كثيرة.

وتكرر هذا الإطلاق ثلاث مرات في قول عنترة:

جادت عليه كل بكـر حـرة فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا وتسكابا فكل عـشـية يجري
عليها الماء لم يتصرم وتقدم عند قوله تعالى)ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك(في سورة البقرة. ويأتي إن شار الله في سورة النمل.
و)يأتين(يجوز أن يكون صفة ل)كل ضامر(لأن لفظ كل صيره في معنى الجمع. وإذ هو جمع لما لا يعقل فحقه التأنيث، وإنما أسند الإتيان إلى الرواحل دون الناس فلم يقل: يأتون، لأن الرواحل هي سبب إتيان الناس من بعد لمن لا يستطيع السفر على رجليه.
ويجوز أن تجعل جملة)يأتين(حالا ثانية من ضمير الجمع في)يأتوك(لأن الحال الأولى تضمنت معنى التنويع والتصنيف، فصار المعنى: يأتوك جماعات، فلما تأول ذلك بمعنى الجماعات جرى عليهم الفعل بضمير التأنيث.
وهذا الوجه أظهر لأنه يتضمن زيادة التعجيب من تيسير الحج حتى على المشاة, وقد تشاهد في طريق الحج جماعات بين مكة والمدينة يمشون رجالا بأولادهم وأزواجهم وكذلك يقطعون المسافات بين مكة وبلادهم.
والفج: الشق بين جبلين تسير فيه الركاب، فغلب الفج على الطريق لأن أكثر الطرق المؤدية إلى مكة تسلك بين الجبال.
والعميق: البعيد إلى أسفل لأن العمق البعد في القعر، فأطلق على البعيد مطلقا بطريقة المجاز المرسل، أو هو استعارة بتشبيه مكة بمكان مرتفع والناس مصعدون إليه. وقد يطلق على السفر من موطن المسافر إلى مكان آخر إصعاد كما يطلق على الرجوع انحدار وهبوط، فإسناد الإتيان إلى الرواحل تشريف لها بأن جعلها مشاركة للحجيج في الإتيان إلى البيت.
وقوله)ليشهدوا(يتعلق بقوله)يأتوك(فهو علة لإتيانهم الذي هو مسبب على التأذين بالحج فآل إلى كونه علة في التأذين بالحج.
ومعنى)ليشهدوا(ليحضروا منافع لهم، أي ليحضروا فيحصلوا منافع لهم إذ يحصل كل واحد ما فيه نفعه. وأهم المنافع ما وعدهم الله على لسان إبراهيم عليه السلام من الثواب. فكنى بشهود المنافع عن نيلها. ولا يعرف ما وعدهم الله على ذلك بالتعيين. وأعظم ذلك اجتماع أهل التوحيد في صعيد واحد ليتلقى بعضهم عن بعض ما به كمال إيمانه.
وتنكير)منافع(للتعظيم المراد منه الكثرة وهي المصالح الدينية والدنيوية لأن في مجمع الحج فوائد جمة للناس: لأفرادهم من

الثواب والمغفرة لكل حاج. ولمجتمعهم لأن في الاجتماع صلاحا في الدنيا بالتعارف والتعامل.
وخص من المنافع أن يذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام. وذلك هو النحر والذبح للهدايا. وهو مجمل في الواجبة والمتطوع بها. وقد بينته شريعة إبراهيم من قبل بما لم يبلغ إلينا. وبينه الإسلام بما فيه شفاء.
وحرف)على(متعلق ب)يذكروا(. وهو للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى الملابسة والمصاحبة، أي على الأنعام. وهو على تقدير مضاف، أي عند نحر بهيمة الأنعام أو ذبحها.
و)ما(موصولة، و)من بهيمة الأنعام(بيان لمدلول)ما(. والمعنى: ليذكروا اسم الله على بهيمة الأنعام. وأدمج في هذا الحكم الامتنان بأن الله رزقهم تلك الأنعام. وهذا تعريض بطلب الشكر على هذا الرزق بالإخلاص لله في العبادة وإطعام المحاويج من عباد الله من لحومها. وفي ذلك سد لحاجة الفقراء بتزويدهم ما يكفيهم لعامهم. ولذلك فرع عليه)فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير(.
فالأمر بالأكل منها يحتمل أن يكون أمر وجوب في شريعة إبراهيم عليه السلام فيكون الخطاب في قوله)فكلوا(لإبراهيم ومن معه.

صفحة : 2776

وقد عدل عن الغيبة الواقعة في ضمائر)ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام(، إلى الخطاب بذلك في قوله)فكلوا منها وأطعموا البائس(الخ. على طريقة الالتفات أو على تقدير قول محذوف مأمور به إبراهيم عليه السلام .
وفي حكاية هذا تعريض بالرد على أهل الجاهلية إذ كانوا يمنعون الأكل من الهدايا.
ثم عاد الأسلوب إلى الغيبة في قوله)ثم ليقضوا تفثهم(.
ويحتمل أن تكون جملة)فكلوا منها(الخ معترضة مفرعة على خطاب إبراهيم ومن معه تفريع الخبر على الخبر تحذيرا من أن يمنع الأكل من بعضها.
والأيام المعلومات أجملت هنا لعدم تعلق الغرض ببيانها إذ غرض الكلام ذكر حج البيت وقد بينت عند التعرض لأعمال الحج عند قوله تعالى)واذكروا الله في أيام معدودات(.
والبائس: الذي أصابه البؤس، وهو ضيق المال، وهو الفقير. هذا قول جمع من المفسرين. وفي الموطأ: في باب ما يكره من أكل

الدواب. قال مالك: سمعت أن البائس هو الفقير اه. وقلت: من أجل ذلك لم يعطف أحد الوصفين على الآخر لأنه كالبيان له وإنما ذكر البائس مع أن الفقير مغن عنه لترقيق أفئدة الناس على الفقير بتذكيرهم أنه في بؤس لأن وصف فقير لشيوع تداوله على الألسن صار كاللقب غير مشعر بمعنى الحاجة وقد حصل من ذكر الوصفين التأكيد. وعن ابن عباس: البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه، والفقير الذي تكون ثيابه نقية ووجهه وجه غني.

فعلى هذا التفسير يكون البائس هو المسكين ويكون ذكر الوصفين لقصد استيعاب أحوال المحتاجين والتنبيه إلى البحث عن موقع الامتناع.

)ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق[29](هذا من جملة ما خاطب الله به إبراهيم عليه السلام .

وقرأ ورش عن نافع، وقنبل عن ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو بكسر لام)ليقضوا(. وقرأه الباقون بسكون اللام . وهما لغتان في لام الأمر إذا وقعت بعد)ثم(، كما تقدم آنفا في قوله تعالى) ثم ليقطع(.

و)ثم(هنا عطفت جملة على جملة فهي للتراخي الرتبي لا الزمني فتفيد أن المعطوف بها أهم في الغرض المسوق إليه الكلام من المعطوف عليه. وذلك في الوفاء بالنذر والطواف بالبيت العتيق ظاهر إذ هما نسكان أهم من نحر الهدايا، وقضاء التفث محمول على أمر مهم كما سنبينه.

والتفث: كلمة وقعت في القرآن وتردد المفسرون في المراد منها. واضطرب علماء اللغة في معناها لعلهم لم يعثروا عليها في كلام العرب المحتج به. قال الزجاج: إن أهل اللغة لا يعلمون التفث إلا من التفسير، أي أقوال المفسرين. فعن ابن عمر وابن عباس: التفث: مناسك الحج وأفعاله كلها. قال ابن العربي لو صح عنهما لكان حجة الإحاطة باللغة. قلت: رواه الطبري عنهما بأسانيد مقبولة. ونسبة الجصائص إلى سعيد. وقال نفطويه وقطرب: التفث: هو الوسخ والدرن. ورواه ابن وهب عن مالك بن أنس. واختاره أبو بكر ابن العربي وأنشد قطرب لأمية بن أبي الصلت:

حفوا رؤوسهم لم يحلقوا تفثا ولم

يسلوا لهم قملا وصئبانا ويحتمل أن البيت مصنوع لأن أئمة اللغة قالوا لم يجئ في معنى التفث شعر يحتج به. قال نفطويه: سألت أعرابيا: ما معنى قوله)ثم ليقضوا تفثهم(، فقال: ما أفسر القرآن ولكن نقول للرجل ما أتفثك، أي ما أدرنك.

وعن أبي عبيده: التفث: قص الأظفار والأخذ من الشارب وكل ما يحرم على المحرم، ومثله قوله عكرمة ومجاهد وربما زاد مجاهد مع ذلك: رمي الجمار.
وعن صاحب العين والفراء والزجاج: التفث الرمت، والذبح، والحلق وقص الأظفار والشارب وشعر الإبط. وهو قول الحسن ونسب إلى مالك بن أنس أيضا.

صفحة : 2777

وعندي: أن فعل)ليقضوا(ينادي على أن التفث عمل من أعمال الحج وليس وسخا ولا ظفرا ولا شعرا. ويؤيده ما روي عن ابن غمر وابن عباس آنفا، وأن موقع)ثم(في عطف جملة الأمر على ما قبلها ينادي على معنى التراخي الرتبي فيقتضي أن المعطوف ب)ثم(أهم مما ذكر قبلها فإن أعمال الحج هي المهم في الإتيان إلى مكة، فلا جرم أن التفث هو مناسك الحج وهذا الذي درج عليه الحريري في قوله في المقامة المكية فلما قضيت بعون الله التفث. واستبحت الطيب والرفث. صادف موسم الخيف. معمعان الصيف .
وقوله)وليوفوا نذورهم(أي إن كانوا نذروا أعمالا زائدة على ما تقتضيه فريضة الحج مثل نذر طواف زائد أو اعتكاف في المسجد الحرام أو نسكا أو إطعام فقير أو نحو ذلك.
والنذر: التزام قربة الله تعالى لم تكن واجبة على ملتزمها بتعليق على حصول مرغوب أو بدون تعليق، وبالنذر تصير القربة الملتزمة واجبة على الناذر. وأشهر صيغة: لله علي...، وفي هذه الآية دليل على أن النذر كان مشروعا في شريعة إبراهيم. وقد نذر عمر في الجاهلية اعتكاف ليلة بالمسجد الحرام ووفى به إسلامه كما في الحديث.
وقرأ الجمهور)وليوفوا(بضم التحتية وسكون الواو بعدها مضارع أوفى. وقرأ أبو بكر عن عاصم)وليوفوا(بتشديد الفاء وهو بمعنى قراءة التخفيف لأن كلتا الصيغتين من فعل وفى المزيد فيه بالهمزة وبالتضعيف.
وختم خطاب إبراهيم بالأمر بالطواف بالبيت إيذانا بأنهم كانوا يجعلون آخر أعمال الحج الطواف بالبيت وهو المسمى في الإسلام طواف الإفاضة.
والعتيق: المحرر غير المملوك للناس. شبه بالعبد العتيق في أنه لا ملك لأحد عليه. وفيه تعريض بالمشركين إذ كانوا يمنعون منه من

يشاءون حتى جعلوا بابه مرتفعا بدون درج لئلا يدخله إلا من شاءوا كما جاء في حديث عائشة أيام الفتح. وأخرج الترمذي بسند حسن أن رسول الله قال: إنما سمى الله البيت العتيق لأنه أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط .

واعلم أن هذه الآيات حكاية عما كان في عهد إبراهيم عليه السلام فلا تؤخذ منها أحكام الحج والهدايا في الإسلام.

وقرأ الجمهور)ثم ليقضوا- وليوفوا- وليطوفوا(بإسكان لام الأمر في جميعها. وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر)وليوفوا- وليطوفوا(بكسر اللام فيهما . وقرأ ابن هشام عن ابن عامر، وأبو عمرو، وورش عن نافع، وقنبل عن ابن كثير، ورويس عن يعقوب)ثم ليقضوا(بكسر اللام . وتقدم توجيه الوجهين آنفا عند قوله تعالى) ثم ليقطع(.

وقرا أبو بكر عن عاصم)وليوفوا(بفتح الواو وتشديد الفاء من وفى المضاعف.

) ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه(اسم الإشارة مستعمل هنا للفصل بين كلامين أو بين وجهين من كلام واحد. والقصد منه التنبيه على الاهتمام بما سيذكر بعده. فالإشارة مراد بها التنبيه، وذلك حيث يكون ما بعده غير صالح لوقوعه خبرا عن اسم الإشارة فيتعين تقدير خبر عنه في معنى: ذلك بيان، أو ذكر، وهو من أساليب الاقتضاب في الانتقال. والمشهور في هذا الاستعمال لفظ هذا كما في قوله تعالى)هذا وإن للطاغين لشر مئاب(وقول زهير:

هذا وليس كمن يعيا بخطبته وسط الندي إذا ما قائل نطقا وأوثر في الآية اسم إشارة البعيد للدلالة على بعد المنزلة كناية عن تعظيم مضمون ما قبله.

فاسم الإشارة مبتدأ حذف خبره لظهور تقديره، أي ذلك بيان ونحوه. وهو كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض الأغراض فإذا أراد الخوض في غرض آخر، قال: هذا وقد كان كذا وكذا.

وجملة)ومن يعظم(الخ معترضة عطفا على جملة)وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت(عطف الغرض على الغرض. وهو انتقال إلى بيان ما يجب الحفاظ عليه من الحنيفية والتنبيه إلى أن الإسلام بني على أساسها.

وضمير)فهو(عائد إلى التعظيم المأخوذ من فعل)ومن يعظم حرمات الله(. والكلام موجه إلى المسلمين تنبيها لهم على أن تلك الحرمات لم يعطل الإسلام حرمتها، فيكون الانتقال من غرض إلى غرض ومن مخاطب إلى مخاطب آخر. فإن المسلمين كانوا يعتمرون ويحجون قبل إيجاب الحج عليهم. أي قبل فتح مكة.

والحرمات: جمع حرمة بضمتين : وهي ما يجب احترامه.

صفحة : 2778

والاحترام: اعتبار الشيء ذا حرم، كناية عن عدم الدخول فيه, أي عدم انتهاكه بمخالفة أمر الله في شأنه، والحرمات يشمل كل ما أوصى الله بتعظيم أمره فتشمل مناسك الحج كلها.
وعن زيد بن أسلم: الحرمات خمس: المسجد الحرام، والبيت الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمحرم ما دام محرما. فقصره على الذوات دون الأعمال. والذي يظهر أن الحرمات يشمل الهدايا والقلائد والمشعر الحرام وغير ذلك من أعمال الحج. كالغسل في مواقعه، والحلق ومواقيته ومناسكه.
)وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور[30] حنفاء لله غير مشركين به(لما ذكر آنفا بهيمة الأنعام وتعظيم حرمات الله أعقب ذلك بإبطال ما حرمه المشركون على أنفسهم من الأنعام مثل: البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي وبعض ما في بطونها. وقد ذكر في سورة الأنعام.
واستثنى منه ما يتلى تحريمه في القرآن وهو ما جاء ذكره في سورة الأنعام في قوله)قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما(الآيات وما ذكر في سورة النحل وكلتاهما مكيتان سابقتان.
وجيء بالمضارع في قوله)إلا ما يتلى عليكم(ليشمل ما نزل من القرآن في ذلك مما سبق نزول سورة الحج بأنه تلي فيما مضى ولم يزل بتلى، ويشمل ما عسى أن ينزل من بعد مثل قوله)ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة(الآية في سورة العقود.
والأمر باجتناب الأوثان مستعمل في طلب الدوام كما في قوله)يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله(. وفرع على ذلك جملة معترضة للتصريح بالأمر باجتناب ما ليس من حرمات الله، وهو الأوثان.
واجتناب الكذب على الله بقولهم لبعض المحرمات)هذا حلال(مثل الدم وما أهل لغير الله به، وقولهم لبعض)هذا حرام(مثل: البحيرة، والسائبة قال تعالى)ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب(.
والرجس: حقيقته الخبث والقذارة. وتقدم في قوله تعالى)فإنه رجس(في سورة الأنعام.

ووصف الأوثان بالرجس أنها رجس معنوي لكون اعتقاد إلهيتها في النفوس بمنزلة تعلق الخبث بالأجساد فإطلاق الرجس عليها تشبيه بليغ.

و)من(في قوله)من الأوثان(بيان لمجمل الرجس، فهي تدخل على بعض أسماء التمييز بيانا للمراد من الرجس هنا لا أن معنى ذلك أن الرجس هو عين الأوثان بل الرجس أعم أريد به هنا بعض أنواعه فهذا تحقيق معنى)من(البيانية.

و)حنفاء لله(حال من ضمير)اجتنبوا(أي تكونوا إن اجتنبتم ذلك حنفاء لله، جمع حنيف وهو المخلص لله في العبادة، أي تكونوا على ملة إبراهيم حقا. ولذلك زاد معنى)حنفاء(بيانا بقوله)غير مشركين به(وهذا كقوله)إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين(.

والباء في قوله)مشركين به(للمصاحبة والمعية، أي غير مشركين معه غيره.

)ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق[31](أعقب نهيهم عن الأوثان بتمثيل فظاعة حال من يشرك بالله في مصيره بالشرك إلى حال انحطاط وتلقف الضلالات إياه ويأسه من النجاة ما دام مشركا تمثيلا بديعا إذ كان من قبيل التمثيل القابل لتفريق أجزائه إلى تشبيهات.

قال في الكشاف: يجوز أن يكون هذا التشبيه من المركب والمفرق بأن صور حال المشرك بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة، وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة. والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة اه.

يعني أن المشرك لما عدل عن الإيمان الفطري وكان في مكنته فكأنه كان في السماء فسقط منها، فتوزعته أنواع المهالك. ولا يخفى عليك أن في مطاوي هذا التمثيل تشبيهات كثيرة لا يعوزك استخراجها.

والسحيق: البعيد فلا نجاة لمن حل فيه.

وقوله)أو تهوي به الريح(تخيير في نتيجة التشبيه، كقوله)أو كصيب من السماء(. أشارت الآية إلى أن الكافرين قسمان: قسم شركه ذبذبة وشك، فهذا مشبه بمن اختطفته الطير فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر، فكذلك المذبذب متى لاح له خيال اتبعه وترك ما كان عليه. وقسم مصمم على الكفر مستقر فيه، فهو مشبه بمن ألقته الريح في واد سحيق، وهو إيماء إلى أن من المشركين من شركه لا يرجى منه خلاص كالذي تخطفته الطير. ومنهم من شركه قد يخلص منه بالتوبة إلا أن توبته أمر بعيد عسير الحصول.

والخرور: السقوط وتقدم في قوله)فخر عليهم السقف من فوقهم(في سورة النحل.

و)تخطفه(مضاعف خطف للمبالغة. الخطف والخطف: أخذ شيء بسرعة سواء كان في الأرض أم كان في الجو ومنه تخطف الكرة. والهوي: نزول شيء من علو إلى الأرض. والباء في)تهوي به(للتعدية مثلها في: ذهب به.

وقرأ نافع، وأبو جعفر)فتخطفه(بفتح الخاء وتشديد الطاء مفتوحة مضارع خطف المضاعف. وقرأه الجمهور بسكون الخاء وفتح الطاء مخففة مضارع خطف المجرد.

)ذلك من يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب[32]( )

ذلك(تكرير لنظيره السابق.

الشعائر: جمع شعيرة: المعلم الواضح مشتقة من الشعور. وشعائر الله: لقب لمناسك الحج. جمع شعيرة بمعنى: مشعرة بصيغة اسم الفاعل أي. معلمة بما عينه الله.

فمضمون جملة)ومن يعظم شعائر الله(الخ أخص من مضمون جملة)ومن يعظم حرمات الله(وذكر الأخص بعد الأعم للاهتمام. أو بمعنى مشعر بها فتكون شعيرة فعلية بمعنى مفعولة لأنها تجعل ليشعر بها الرائي. وتقدم ذكرها في قوله تعالى)إن الصفا والمروة من شعائر الله(في سورة البقرة. فكل ما أمر الله به بزيارته أو بفعل يوقع فيه فهو من شعائر الله، أي مما اشعر الله الناس وقرره وشهره. وهي معالم الحج: الكعبة. والصفا والمروة. وعرفة، والمشعر الحرام. ونحوها من معالم الحج.

وتطلق الشعيرة أيضا على بدنة الهدي قال تعالى)والبدن جعلناها لكم من شعائر الله(لأنهم يجعلون فيها شعارا، والشعار العلامة بأن يطعنوا في جلد جانبها الأيمن طعنا حتى يسيل منه الدم فتكون علامة على أنها نذرت للهدي. فهي فعلية بمعنى مفعولة مصوغة من أشعر على غير قياس.

فعلى التفسير الأول تكون جملة)ومن يعظم شعائر الله(إلى آخرها عطفا على جملة)ومن يعظم حرمات الله(الخ. وشعائر الله أخص من حرمات الله فعطف هذه الجملة للعناية بالشعائر.

وعلى التفسير الثاني للشعائر تكون جملة)ومن يعظم شعائر الله(عطفا على جملة)ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام(تخصيصا لها بالذكر بعد ذكر حرمات الله.

وضمير)فإنها(عائد إلى شعائر الله المعظمة فيكون المعنى: فإن تعظيمها من تقوى القلوب.

وقوله)فإنها من تقوى القلوب(جواب الشرط والرابط بين الشرط وجوابه هو العموم في قوله)القلوب(فإن من جملة القلوب قلوب الذين يعظمون شعائر الله. فالتقدير: فقد حلت التقوى قلبه بتعظيم الشعائر لأنها من تقوى القلوب. أي لأن تعظيمها من تقوى القلوب.

وإضافة)تقوى(إلى)القلوب(لأن تعظيم الشعائر اعتقاد قلبي ينشأ عنه العمل.

)لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق[33](جملة)لكم فيها منافع(حال من الأنعام في قوله)وأحلت لكم الأنعام(وما بينهما اعتراضات أو حال من)شعائر الله(على التفسير الثاني للشعائر. والمقصود بالخبر هنا: هو صنف من الأنعام، وهو صنف الهدايا بقرينة قوله)ثم محلها إلى البيت العتيق(.

وضمير الخطاب موجه للمؤمنين.

والمنافع: جمع منفعة، وهي اسم النفع، وهو حصول ما يلائم ويحف. وجعل المنافع فيها يقتضي أنها انتفاع بخصائصها مما يراد من نوعها قبل أن تكون هديا.

وفي هذا تشريع لإباحة الانتفاع بالهدايا انتفاعا لا يتلفها، وهو رد على المشركين إذ قلدوا الهدي وأشعروه حظروا الانتفاع به: من ركوبه وحمل عليه وشرب لبنه. وغير ذلك.

صفحة : 2780

وفي الموطأ: عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة فقال: اركبها؟ فقال: إنها بدنة، فقال: اركبها، فقال: إنها بدنة، فقال: اركبها، ويلك في الثانية أو الثالثة .

والأجل المسمى هو وقت نحرها، وهو يوم من أيام منى. وهي الأيام المعدودات.

والمحل: بفتح الميم وكسر الحاء مصدر ميمي من حل بحل إذا بلغ المكان واستقر فيه. وهو كناية عن نهاية أمرها، كما يقال: بلغ الغاية. ونهاية أمرها النحر أو الذبح.

و)إلى(حرف انتهاء مجازي لأنها لا تنحر في الكعبة، ولكن التقرب بها بواسطة تعظيم الكعبة لأن الهدايا إنما شرعت تكملة لشرع الحج، والحج قصد البيت. قال تعالى)ولله على الناس حج البيت(، فالهدايا تابعة للكعبة قال تعالى)هديا بالغ الكعبة(وإن كانت الكعبة لا ينحر فيها، وإنما المناحر: منى، والمروة، وفجاج مكة أي، طرقها بحسب أنواع الهدايا. وتبيينه في السنة.

وقد جاء في قوله تعالى)ثم محلها إلى البيت العتيق(رد العجز على الصدر باعتبار مبدأ هذه الآيات وهو قوله تعالى)وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت(.

)ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا(عطف على جملة)ثم محلها إلى البيت العتيق(.

والأمة: أهل الدين الذين اشتركوا في اتباعه. والمراد: أن المسلمين لهم منسك واحد وهو البيت العتيق كما تقدم. والمقصود من هذا الرد على المشركين إذ جعلوا لأصنامهم مناسك تشابه مناسك الحج وجعلوا لها مواقيت ومذابح مثل الغبغب منحر العزى. فذكرهم الله تعالى بأنه ما جعل لكل أمة إلا منسكا واحدا للقربان إلى الله تعالى الذي رزق الناس الأنعام التي يتقربون إليه منها فلا يحق أن يجعل لغير الله منسك لأن ما لا يخلق الأنعام المقرب بها ولا يرزقها الناس لا يستحق أن يجعل له منسك لقربانها فلا تتعدد المناسك.

فالتنكير في قوله)ليذكروا اسم الله(وأدل عليه التفريع بقوله) فإلهكم إله واحد(. والكلام يفيد الاقتداء ببقية الأمم أهل الأديان الحق.

و)على(يجوز أن تكون للاستعلاء المجازي متعلقة ب)يذكروا اسم الله(مع تقدير مضاف بعد على تقديره: إهداء ما رزقهم. أي عند إهداء ما رزقهم. يعني ونحرها أو ذبحها.

ويجوز أن تكون)على(بمعنى: لام التعليل. والمعنى: ليذكروا اسم الله لأجل ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

وقد فرع على هذا الانفراد بالإلهية بقوله)فإلهكم إله واحد فله أسلموا(أي إذ كان قد جعل لكم منسكا واحدا فقد نبهكم بذلك أنه إله واحد، ولو كانت آلهة كثيرة لكانت شرائعها مختلفة. وهذا التفريع الأول تمهيد للتفريع الذي عقبه وهو المقصود، فوقع في النظم تغيير بتقديم وتأخير. وأصل النظم: فلله أسلموا، لأن إلهكم إله واحد.

وتقديم المجرور في)فله أسلموا(للحصر، أي أسلموا له لا لغيره. والإسلام: الانقياد التام، وهو الإخلاص في الطاعة، أي لا تخلصوا إلا لله، أي فاتركوا جميع المناسك التي أقيمت لغير الله فلا تنسكوا إلا في المنسك الذي جعله لكم، تعريضا بالرد على المشركين.

وقرأ الجمهور)منسكا(بفتح السين وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف بكسر السين . وهو على القراءتين اسم مكان للنسك، وهو الذبح. إلا أنه على قراءة الجمهور جار على القياس لأن قياسه الفتح في اسم المكان إذ هو من نسك ينسك بضم العين في المصارع. وأما على قراءة الكسر فهو سماعي مثل مسجد من سجد يسجد، قال أبو علي الفارسي: ويشبه أن الكسائي سمعه من العرب.

)وبشر المخبتين[34] الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون[35] (اعتراض بين سوق المنن. والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. وأصحاب هذه الصفات هم المسلمون.

والمخبت: المتواضع الذي لا تكبر عنده. وأصل المخبت من سلك الخبت. وهو المكان المتخفض ضد المصعد. ثم استعير للمتواضع كأنه سلك نفسه في الانخفاض، والمراد بهم هنا المؤمنون، لأن التواضع من شيمهم كما كان التكبر من سمات المشركين قال تعالى)كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار(.

صفحة : 2781

والوجل: الخوف الشديد. وتقدم في قوله تعالى)قال إنا منكم وجلون(في سورة الحجر.

وقد أتبع صفة)المخبتين(بأربع صفات وهي: وجل القلوب عند ذكر الله، والصبر على الأذى في سبيله، وإقامة الصلاة، والإنفاق. وكل هذه الصفات الأربع مظاهر للتواضع فليس المقصود من جمع تلك الصفات لأن بعض المؤمنين لا يجد ما ينفق منه وإنما المقصود من لم يخل بواحدة منها عند إمكانها. والمراد من الإنفاق الإنفاق على المحتاجين الضعفاء من المؤمنين لأن ذلك هو دأب المخبتين. وأما الإنفاق على الضعيف والأصحاب فذلك مما يفعله المتكبرون من العرب كما تقدم عند قوله تعالى)كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين(. وهو نظير الإنفاق على الندماء في مجالس الشراب. ونظير إتمام الإيسار في مواقع الميسر، كما قاله النابغة:

أني أتمم أيساري وأمـنـحـهـم مثنى
الأيادي وأكسو الجفنة الأدما والمراد بالصبر: الصبر على ما يصيبهم من الأذى في سبيل الإسلام. وأما الصبر في الحروب وعلى فقد الأحبة فمما تتشرك فيه النفوس الجلدة من المتكبرين والمخبتين. وفي كثير من ذلك الصبر فضيلة إسلامية إذا كان تخلقا بأدب الإسلام قال تعالى)وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون(الآية.

)والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون[36](عطف على جملة)ولكل أمة جعلنا منسكا(أي جعلنا منسكا للقربان والهدايا، وجعلنا البدن التي تهدى ويتقرب بها شعائر من شعائر الله.

والمعنى: أن الله أمر بقربان البدن في الحج من عهد إبراهيم عليه السلام وجعلها جزاء عما يترخص فيه من أعمال الحج. وأمر بالتطوع بها فوعد عليها بالثواب الجزيل فنالت بذلك الجعل الإلهي يمنا وبركة وحرمة ألحقتها بشعائر الله، وامتن بذلك على الناس بما اقتضته كلمة)لكم(.

والبدن: جمع بدنة بالتحريك، وهي البعير العظيم البدن. وهو اسم مأخوذ من البدانة. وهي عظم الجثة والسمن. وفعله ككرم ونصر، وليست زنة بدنة وصفا ولكنها اسم مأخوذ من مادة الوصف. وجمعه بدن, وقياس هذا الجمع أن يكون مضموم الدال مثل خشب جمع خشبة، وثمر جمع ثمرة، فتسكين الدال تخفيف شائع. وغلب اسم البدنة على البعير المعين للهدي.

وفي الموطأ: عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة فقال: اركبها، فقال: إنها بدنة، فقال: اركبها، فقال: إنها بدنة، فقال: اركبها ويلك في الثانية أو الثالثة فقول الرجل: إنها بدنة، متعين لإرادة هديه للحج.

وتقديم)البدن(على عامله للاهتمام بها تنويها بشأنها.

والاقتصار على البدن الخاص بالإبل لأنها أفضل في الهدي لكثرة لحمها. وقد ألحقت بها البقر والغنم بدليل السنة. واسم ذلك هدي.

ومعنى كونها من شعائر الله: أن الله جعلها معالم تؤذن بالحج وجعل لها حرمة. وهذا وجه تسميتهم وضع العلامة التي يعلم بها بعير الهدي في جلده إشعارا.

قال مالك في الموطأ: كان عبد الله بن عمر إذا أهدى هديا من المدينة قلده وأشعره بذي الحليفة، يقلده قبل أن يشعره... يقلده بنعلين ويشعره من الشق الأيسر.. بطعن في سنامه فالإشعار إعداد للنحر.

وقد عدها في جملة الحرمات في قوله)لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي(في سورة العقود.
وتقديم)لكم(على المبتدأ ليتأتى كون المبدأ نكرة ليفيد تنوينه التعظيم. وتقديم)فيها(على متعلقه وهو)خير(للاهتمام بما تجمعه وتحتوي عليه من الفوائد.
والخير: النفع. وهو ما يحصل للناس من النفع في الدنيا من انتفاع الفقراء بلحومها وجلودها وجلالها ونعالها وقلائدها. وما يحصل للمهدين وأهلهم من الشبع من لحمها يوم النحر، وخير الآخرة من ثواب المهدين، وثواب الشكر من المعطين لحومها لربهم الذي أغناهم بها.
وفرع على ذلك أن أمر الناس بأن يذكروا اسم الله عليها حين نحرها.

صفحة : 2782

وصواف: جمع صافة. يقال: صف إذا كان مع غيره صفا بأن اتصل به. ولعلهم كانوا يصفونها في المنحر يوم النحر بمنى، لأنه كان بمنى موضع أعد للنحر وهو المنحر.
وقد ورد في حديث مسلم عن جابر بن عبد الله في حجة الوداع قال فيه: ثم انصرف رسول الله إلى المنحر فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثلاثا وستين بدنة جعل يطعنها بحربة في يده ثم أعطى الحربة عليا فنحر ما غبر، أي ما بقي وكانت مائة بدنة . وهذا يقتضي أنها كانت مجتمعة متقاربة.
وانتصب صواف على الحال من الضمير المجرور في قوله) عليها(. وفائدة هذه الحال ذكر محاسن من مشاهد البدن فإن إيقاف الناس بدنهم للنحر مجتمعة ومنتظمة غير متفرقة مما يزيد هيئتها جلالا. وقريب منه قوله تعالى)إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص(.
ومعنى:)وجبت(سقطت، أي إلى الأرض، وهو كناية عن زوال الروح التي بها الاستقلال. والقصد من هذا التوقيت المبادرة بالانتفاع بها إسراعا إلى الخير الحاصل من ذلك في الدنيا بإطعام الفقراء وأكل أصحابها منها فإنه يستحب أن يكون فطور الحاج يوم النحر من هديه، وكذلك الخير الحاصل من ثواب الآخرة.
والأمر في قوله)فكلوا منها(مجمل، يحتمل الوجوب ويحتمل الإباحة ويحتمل الندب. وقرينة عدم الوجوب ظاهرة لأن المكلف لا يفرض عليه ما الداعي إلى فعله من طبعه. وإنما أراد الله إبطال ما

كان عند أهل الجاهلية من تحريم أكل المهدي من لحوم هديه فبقي النظر في أنه مباح بحت أو هو مندوب.

واختلف الفقهاء في الأكل من لحوم الهدايا الواجبة.

فقال مالك: يباح الأكل من لحوم الهدايا الواجبة. وهو عنده مستحب ولا يؤكل من فدية الأذى وجزاء الصيد ونذر المساكين. والحجة لمالك صريح الآية. فإنها عامة إلا ما قام الدليل على منعه وهي الثلاثة الأشياء المستثناة.

وقال أبو حنيفة: يأكل من هدي التمتع والقران. ولا يأكل من الواجب الذي عينه الحاج عند إحرامه.

وقال الشافعي: لا يأكل من لحوم الهدايا بحال مستندا إلى القياس. وهو أن المهدي أوجب إخراج الهدي من ماله فكيف يأكل منه. كذا قال ابن العربي. وإذا كان هذا قصارى كلام الشافعي فهو استدلال غير وجيه ولفظ القرآن ينافيه لا سيما وقد ثبت أكل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من لحوم الهدايا بأحاديث صحيحة.

وقال أحمد: يؤكل من الهدايا الواجبة إلا جزاء الصيد والنذر.

وأما الأمر في قوله)وأطعموا القانع والمعتر(فقال الشافعي: للوجوب. وهو الأصح. قال ابن العربي وهو صريح قول مالك.

وقلت: المعروف من قول مالك أنه لو اقتصر المهدي على نحو هديه ولم يتصدق منه ما كان آثما.

والقانع: المتصف بالقنوع. وهو التذلل. يقال: قنع من باب سأل، قنوعا بضم القاف إذا سأل بتذلل.

وأما القناعة ففعلها من باب تعب ويستوي الفعل المضارع مع اختلاف الموجب. ومن أحسن ما جمع من النظائر ما أنشده الخفاجي:

العبد حر إن قنـع والحر عبد إن قنع

فاقنع ولا تقنع فمل شيء يشين سوى الطمع وللزمخشري في مقاماته: يا أبا القاسم اقنع من القناعة لا من القنوع، تستغن عن كل معطاء ومنوع . وفي الموطأ في كتاب الصيد: قال مالك: والقانع هو الفقير .

والمعتر: اسم فاعل من اعتر، إذا تعرض للعطاء، أي دون سؤال بل بالتعريض وهو أن يحضر موشع العطاء، يقال: اعتر، إذا تعرض، وفي الموطأ في كتاب الصيد: قال مالك: وسمعت أن المعتر هو الزائر، أي فتكون من عرا إذا زار . والمراد زيارة التعرض للعطاء. وهذا التفسير أحسن. ويرجحه أنه عطف المعتر على القانع ، فدل العطف على المغايرة، ولو كانا في معنى واحد لما عطف عليه كما لم يعطف في قوله)وأطعموا البائس الفقير(.

وجملة)كذلك سخرناها لكم(استئناف للامتنان بما خلق من المخلوقات لنفع الناس. والأمارة الدالة على إرادته ذلك أنه سخرها للناس مع ضعف الإنسان وقوة تلك الأنعام فيأخذ الرجل الواحد العدد منها ويسوقها منقادة ويؤلمونها بالإشعار ثم بالطعن. ولولا أن الله أودع في طباعها هذا الانقياد لما كانت أعجز من بعض الوحوش التي هي أضعف منها فتنفر من الإنسان ولا تسخر له.

صفحة : 2783

وقوله)كذلك(هو مثل نظائره، أي مثل ذلك التسخير العجيب الذي ترونه كان تسخيرها لكم.
ومعنى)لعلكم تشكرون(خلقناها مسخرة لكم استجلابا لأن تشكروا الله بإفراده بالعبادة. وهذا تعريض بالمشركين إذ وضعوا الشرك موضع السكر.
)لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم(جملة في موضع التعليل لجملة)كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون(. أي دل على أنا سخرناها لكم لتشكروني أنه لا انتفاع لله بشيء من لحومها ولا دمائها حين تتمكنون من الانتفاع بها فلا يريد الله منكم على ذلك إلا أن تتقوه.
والنيل: الإصابة. يقال ناله. أي أصابه ووصل إليه. ويقال أيضا بمعنى أحرز، فإن فيه معنى الإصابة كقوله تعالى)لن تنالوا البر حتى تفقوا مما تحبون(وقوله)وهموا بما لم ينالوا(.
والمقصود من نفي أن يصل إلى الله لحومها ودماؤها إبطال ما يفعله المشركون من نصح الدماء في المذابح وحول الكعبة وكانوا يذبحون بالمروة. قال الحسن: كانوا يلطخون بدماء القرابين وكانوا يشرحون لحوم الهدايا وينصبونها حول الكعبة قربانا لله تعالى. يعني زيادة على ما يعطونه للمحاويج.
وفي قوله)لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم(إيماء إلى أن إراقة الدماء وتقطيع اللحوم ليسا مقصودين بالتعبد ولكنهما وسيلة لنفع الناس بالهدايا إذ لا ينفع بلحومها وجلودها وأجزائها إلا بالنحر أو الذبح وأن المقصد من شرعها انتفاع الناس المهدين وغيرهم.
فأما المهدون فانتفاعهم بالأكل منها في يوم عيدهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في تحريم صيام يوم النحر)يوم تأكلون فيه من نسككم(فذلك نفع لأنفسهم ولأهاليهم ولو بالادخار منه إلى رجوعهم إلى آفاقهم.

وأما غيرهم فانتفاع من ليس له هدي من الحجيج بالأكل مما يهديه إليهم أقاربهم وأصحابهم، وانتفاع المحاويج من أهل الحرم بالشبع والتزود منها والانتفاع بجلودها وجلالها وقلائدها.

كما أومأ إليه قوله تعالى)جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد(.

وقد عرض غير مرة سؤال عما إذا كانت الهدايا أوفر من حاجة أهل الموسم قطعا أو ظنا قريبا من القطع كما شوهد ذلك في مواسم الحج، فما يبقى منها حيا يباع وبنفق ثمنه في سد خلة المحاويج أجدى من نحره أو ذبحه حين لا يرغب فيه أحد. ولو كانت اللحوم التي فات أن قطعت وكانت فاضلة عن حاجة المحاويج يعمل تصبيرها بما يمنع عنها التعفن فينفع بها في خلال العام أجدى للمحاويج.

وقد ترددت في الجواب عن ذلك أنظار المتصدين للإفتاء من فقهاء هذا العصر، وكادوا أن تتفق كلمات من صدرت منهم فتاوى على أن تصبيرها مناف للتعبد بهديها.

أما أنا فالذي أراه أن المصير إلى كلا الحالين من البيع والتصبير لما فضل عن حاجة الناس في أيام الحج. لينتفع بها المحتاجون في عامهم، أوفق بمقصد الشارع تجنبا لإضاعة ما فضل منها رعيا لمقد الشريعة من نفع المحتاج وحفظ الأموال مع عدم تعطيل النحر والذبح للقدر المحتاج إليه منها المشار إليه بقوله تعالى)فاذكروا اسم الله عليها صواف(وقوله)كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم(، جمعا بين المقاصد الشرعية.

وتعرض صورة أخرى وهي توزيع المقادير الكافية للانتفاع بها على أيام النحر الثلاثة بحيث لا يتعجل بنحر جميع الهدايا في اليوم الأول طلبا لفضيلة المبادرة. فإن التقوى التي تصل إلى الله من تلك الهدايا هي تسليمها للنفع بها.

وهذا قياس على أصل حفظ الأموال كما فرضوه في بيع الفرس الحبس إذا أصابه ما يفضي به إلى الهلاك أو عدم النفع، وفي المعاوضة لربع الحبس إذا خرب.

وحكم الهدايا مركب من تعبد وتعليل. ومعنى التعليل فيه أقوى. وعلته انتفاع المسلمين، ومسلك العلة الإيماء الذي في قوله تعالى) فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر(.

وقوله)كذلك(هو مثل نظائره، أي مثل ذلك التسخير العجيب الذي ترونه كان تسخيرها لكم.
ومعنى)لعلكم تشكرون(خلقناها مسخرة لكم استجلابا لأن تشكروا الله بإفراده بالعبادة. وهذا تعريض بالمشركين إذ وضعوا الشرك موضع السكر.
)لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم(جملة في موضع التعليل لجملة)كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون(. أي دل على أنا سخرناها لكم لتشكروني أنه لا انتفاع لله بشيء من لحومها ولا دمائها حين تتمكنون من الانتفاع بها فلا يريد الله منكم على ذلك إلا أن تتقوه.
والنيل: الإصابة. يقال ناله. أي أصابه ووصل إليه. ويقال أيضا بمعنى أحرز، فإن فيه معنى الإصابة كقوله تعالى)لن تنالوا البر حتى تفقوا مما تحبون(وقوله)وهموا بما لم ينالوا(.
والمقصود من نفي أن يصل إلى الله لحومها ودماؤها إبطال ما يفعله المشركون من نصح الدماء في المذابح وحول الكعبة وكانوا يذبحون بالمروة. قال الحسن: كانوا يلطخون بدماء القرابين وكانوا يشرحون لحوم الهدايا وينصبونها حول الكعبة قربانا لله تعالى. يعني زيادة على ما يعطونه للمحاويج.
وفي قوله)لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم(إيماء إلى أن إراقة الدماء وتقطيع اللحوم ليسا مقصودين بالتعبد ولكنهما وسيلة لنفع الناس بالهدايا إذ لا ينفع بلحومها وجلودها وأجزائها إلا بالنحر أو الذبح وأن المقصد من شرعها انتفاع الناس المهدين وغيرهم.
فأما المهدون فانتفاعهم بالأكل منها في يوم عيدهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في تحريم صيام يوم النحر)يوم تأكلون فيه من نسككم(فذلك نفع لأنفسهم ولأهاليهم ولو بالادخار منه إلى رجوعهم إلى آفاقهم.
وأما غيرهم فانتفاع من ليس له هدي من الحجيج بالأكل مما يهديه إليهم أقاربهم وأصحابهم، وانتفاع المحاويج من أهل الحرم بالشبع والتزود منها والانتفاع بجلودها وجلالها وقلائدها.
كما أومأ إليه قوله تعالى)جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد(.
وقد عرض غير مرة سؤال عما إذا كانت الهدايا أوفر من حاجة أهل الموسم قطعا أو ظنا قريبا من القطع كما شوهد ذلك في مواسم الحج، فما يبقى منها حيا يباع وبنفق ثمنه في سد خلة المحاويج أجدى من نحره أو ذبحه حين لا يرغب فيه أحد. ولو كانت اللحوم التي فات أن قطعت وكانت فاضلة عن حاجة المحاويج يعمل

تصبيرها بما يمنع عنها التعفن فينفع بها في خلال العام أجدى للمحاويج.
وقد ترددت في الجواب عن ذلك أنظار المتصدين للإفتاء من فقهاء هذا العصر، وكادوا أن تتفق كلمات من صدرت منهم فتاوى على أن تصبيرها مناف للتعبد بهديها.
أما أنا فالذي أراه أن المصير إلى كلا الحالين من البيع والتصبير لما فضل عن حاجة الناس في أيام الحج. لينتفع بها المحتاجون في عامهم، أوفق بمقصد الشارع تجنبا لإضاعة ما فضل منها رعيا لمقد الشريعة من نفع المحتاج وحفظ الأموال مع عدم تعطيل النحر والذبح للقدر المحتاج إليه منها المشار إليه بقوله تعالى)فاذكروا اسم الله عليها صواف(وقوله)كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم(، جمعا بين المقاصد الشرعية.
وتعرض صورة أخرى وهي توزيع المقادير الكافية للانتفاع بها على أيام النحر الثلاثة بحيث لا يتعجل بنحر جميع الهدايا في اليوم الأول طلبا لفضيلة المبادرة. فإن التقوى التي تصل إلى الله من تلك الهدايا هي تسليمها للنفع بها.
وهذا قياس على أصل حفظ الأموال كما فرضوه في بيع الفرس الحبس إذا أصابه ما يفضي به إلى الهلاك أو عدم النفع، وفي المعاوضة لربع الحبس إذا خرب.
وحكم الهدايا مركب من تعبد وتعليل. ومعنى التعليل فيه أقوى. وعلته انتفاع المسلمين، ومسلك العلة الإيماء الذي في قوله تعالى) فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر(.

صفحة : 2784

واعلم أن توهم التقرب بتلطيخ دماء القرابين وانتفاع المتقرب إليه بتلك الدماء عقيدة وثنية قديمة فربما كانوا يطرحون ما يتقربون به من لحم وطعام فلا يدعون أحدا يأكله. وكان اليونان يشوون لحوم القرابين على النار حتى تصير رمادا ويتوهمون أن رائحة الشواء تسر الآلهة المتقرب إليها بالقرابين. وكان المصريون يلقون الطعام للتماسيح التي في النيل لأنها مقدسة.
وقرأ الجمهور)ينال(، و)يناله(بتحتية في أولهما. وقرأه يعقوب بفوقية على مراعاة ما يجوز في ضمير جمع غير العاقل، وربما كانوا يقذفون بمزع من اللحم على أنها لله فربما أصابها محتاج وربما لم يتفطن لها فتأكلها السباع أو تفسد.

ويشمل التقوى ذكر اسم الله عليها والتصدق ببعضها على المحتاجين.
و)يناله(مشاكله ل)ينال(الأول، استعير النيل لتعلق العلم. شبه علم الله تقواهم بوصول الشيء المبعوث إلى الله تشبيها وجهه الحصول في كل وحسنته المشاكلة.
و)من(في قوله)منكم(ابتدائية. وهي ترشيح للاستعارة. ولذلك عبر بلفظ)التقوى منكم(دون: تقواكم أو التقوى. مجردا مع كون المعدول عنه أوجز لأن في هذا الإطناب زيادة معنى من البلاغة.
)كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين[37](تكرير لجملة)كذلك سخرناها لكم(. وليبنى عليه التنبيه إلى أن الثناء على الله مسخرها هو رأس الشكر المنبه عليه في الآية السابقة، فصار مدلول الجملتين مترادفا، فوقع التأكيد. فالقول في جملة)كذلك سخرها لكم لتكبروا الله(كالقول في أشباهها.
وقوله)على ما هداكم( )على(فيه للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى التمكن. أي لتكبروا الله عند تمكنكم من نحرها. و)ما(موصولة. والعائد محذوف مع جاره. والتقدير: على ما هداكم إليه من الأنعام.
والهداية إليها: هي تشريع في تلك المواقيت لينفع بها الناس ويرتزق سكان الحرم الذين اصطفاهم الله ليكونوا دعاة التوحيد لا يفارقون ذلك المكان. والخطاب للمسلمين.
وتغيير الأسلوب تخريج على خلاف مقتضى الظاهر بالإظهار في مقام الإضمار للإشارة إلى أنهم قد اهتدوا وعملوا بالاهتداء فأحسنوا.
)إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور[38](استئناف بياني جوابا لسؤال يخطر في نفوس المؤمنين ينشأ من قوله تعالى)إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله(الآية، فإنه توعد المشركين على صدهم عن سبيل الله والمسجد الحرام بالعذاب الأليم. وبشر المؤمنين المخبتين والمحسنين بما يتبادر منه ضد وعيد المشركين وذلك ثواب الآخرة. وطال الكلام في ذلك بما تبعه لا جرم تشوفت نفوس المؤمنين إلى معرفة عاقبة أمرهم في الدنيا. وهل ينتصر لهم من أعدائهم أو يدخر لهم الخير كله إلى الدار الآخرة. فكان المقام خليقا بأن يطمئن الله نفوسهم بأنه كما أعد لهم نعيم الآخرة هو أيضا مدافع عنهم في الدنيا وناصرهم. وحذف مفعول)يدافع(لدلالة المقام.
فالكلام موجه إلى المؤمنين. ولذلك فافتتاحه بحرف التوكيد إما لمجرد تحقيق الخبر، وإما لتنزيل غير المتردد لشدة انتظارهم النصر واستبطائهم إياه.
والتعبير بالموصول لما فيه من الإيمان إى وجه بناء الخبر وأن دفاع الله عنهم لأجل إيمانهم.

وقرأ الجمهور لفظ)يدافع(بألف بعد الدال فيفيد قوة الدفع.وقرأه أبو عمرو، وابن كثير، ويعقوب)يدافع(بدون ألف بعد الدال.
وجملة)أن الله لا يحب كل خوان كفور(تعليل الدفاع بكونه عن الذين آمنوا، بأن الله لا يجب الكافرين الخائبين، فلذلك يدفع عن المؤمنين لرد أذى الكافرين: ففي هذا إيذان بمفعول) يدافع(المحذوف، أي يدافع الكافرين الخائنين.
والخوان: الشديد الخون. والخون كالخيانة: الغدر بالأمانة. والمراد بالخوان الكافر، لأن الكفر خيانة لعهد الله الذي أخذه على المخلوقات بأن يوحدوه فجعله في الفطرة وأبلغه الناس على ألسنة الرسل فنبه بذلك ما أودعهم في فطرتهم.

والكفور: الشديد الكفر. وأفادت)كل(في سياق النفي عموم نفي محبة الله عن جميع الكافرين إذ لا يحتمل المقام غير ذلك. ولا يتوهم من قوله)لا يحب كل خوان(أنه يحب بعض الخوانين لأن كلمة)كل(اسم جامد لا يشعر بصفة فلا يتوهم توجه النفي إلى معنى الكلية المستفاد من كلمة كل وليس هو مثل قوله تعالى) وما ربك بظلام للعبيد(الموهم أن نفي قوة الظلم لا يقتضي نفي قليل الظلم.
)أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير[39](جملة وقعت بدل اشتمال من جملة)إن الله يدافع(لأن دفاع الله عن الناس يكون تارة بالإذن لهم بمقاتلة من أراد الله مدافعتهم عنهم فإنه إذا أذن لهم بمقاتلهم كان متكفلا لهم بالنصر.
وقرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم)أذن(بالبناء للنائب. وقراه الباقون بالبناء إلى الفاعل.
وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر)يقاتلون(بفتح التاء الفوقية مبنيا إلى المجهول. وقرأه البقية بكسر التاء مبنيا للفاعل.
والذين يقاتلون مراد بهم المؤمنون على كلتا القراءتين لأنهم إا قوتلوا فقد قاتلوا. والقتال مستعمل في المعنى المجازي إما بمادته. وإما بصيغة المضي.
فعلى قراءة فتح التاء فالمراد بالقتال فيه القتل المجازي. وهو الأذى. وأما على قراءة)يقاتلون(بكسر التاء فصيغة المضي مستعملة مجازا في التهيؤ والاستعداد. أي أذن للذين تهيئوا للقتال وانتظروا إذن الله.

وذلك أن المشركين كانوا يؤذون المؤمنين بمكة أذى شديد فكان المسلمون يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه. فيقول لهم: اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال. فلما هاجر نزلت هذه الآية بعد بيعة العقبة إذنا لهم بالتهيؤ للدفاع عن أنفسهم ولم يكن قتال قبل ذلك كما يؤذن به قوله تعالى عقب هذا)الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق(.

والباء في)بأنهم ظلموا(أراها متعلقة ب)أذن(لتضمينه معنى الإخبار. أي أخبرناهم بأنهم مظلومون. وهذا الإخبار كناية عن الإذن للدفاع لأنك إذا قلت لأحد: إنك مظلوم، فكأنك استعديته على ظالمه وذكرته بوجوب الدفاع، وقرينة ذلك تعقيبه بقوله)وإن الله على نصرهم لقدير(، ويكون قوله)بأنهم ظلموا(نائب فاعل)أذن(على قراءة ضم الهمزة أو مفعولا على قراءة فتح الهمزة . وذهب المفسرون إلى أن الباء سببية وأن المأذون به محذوف دل عليه قوله)يقاتلون(، أي أذن لهم في القتال، وهذا يجري على كلتا القراءتين في قوله)يقاتلون(، والتفسير الذي رأيته أنسب وأرشق.

وجملة)وإن الله على نصرهم لقدير(عطف على جملة)أذن للذين يقاتلون(، أي أذن لهم بذلك وذكروا بقدرة الله على أن ينصرهم. وهذا وعد من الله بالنصر وارد على سنن كلام العظيم المقتدر بإيراد الوعد في صورة الإخبار بأن ذلك بمحل العلم منه ونحوه، كقولهم: عسى أن يكون كذا، أو أن عندنا خيرا، أو نحو ذلك، بحيث لا يبقى للمترقب شك في الفوز بمطلوبه.

وتوكيد هذا الخبر بحرف التوكيد لتحقيقه أو تعريض بتنزيلهم منزلة المتردد في ذلك لأنهم استبطأوا النصر.

)الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله(بدل من)الذين يقاتلون(. وفي إجراء هذه الصلة عليهم إيماء إلى أن المراد بالمقاتلة الأذى، وأعظمه إخراجهم من ديارهم كما قال تعالى)والفتنة أشد من القتل(.

و)بغير حق(حال من ضمير)أخرجوا(، أي أخرجوا متلبسين بعدم الحق عليهم الموجب إخراجهم. فإن للمرء حقا في وطنه ومعاشرة قومه، وهذا الحق ثابت بالفطرة لأن من الفطرة أن الناشئ في أرض والمتولد بين قوم هو مساو لجميع أهل ذلك الموطن في حق القرار في وطنهم وبين قومهم بالوجه الذي ثبت لجمهورهم في ذلك المكان من نشأة متقادمة أو قهر وغليب لسانه، كما قال عمر بن الخطاب: إنها لبلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الإسلام . ولا يزول ذلك الحق إلا بموجب قرره الشرع أو العوائد قبل الشرع. كما قال زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

صفحة : 2786

فمن ذلك في الشرائع التغريب والنفي، ومن ذلك في قوانين أهل الجاهلية الجلاء والخلع. وإنما يكون ذلك لاعتداء يعتديه المرء على قومه لا يجدون له مسلكا من الردع غير ذلك.
ولذلك قال تعالى)بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله(فإن إيمانهم بالله لا ينحر منه اعتداء على غيرهم إذ هو شيء قاصر على نفوسهم والإعلان به بالقول لا يضر بغيرهم. فالاعتداء عليهم بالإخراج من ديارهم لأجل ذلك ظلم بواح واستخدام للقوة في تنفيذ الظلم.
والاستثناء في قوله)إلا أن يقولوا ربنا الله(استثناء من عموم الحق. ولما كان المقصود من الحق حقا يوجب الإخراج. أي الحق عليهم، كان هذا الاستثناء مستعملا على طريقة الاستعارة التهكمية. أي إن كان عليهم حق فهو أن يقولوا ربنا الله، فيستفاد من ذلك تأكيد عدم الحق عليهم بسبب استقراء ما قد يتخيل أنه حق عليهم. وهذا من تأكيد الشيء بما يوهم نقضه. ويسمى عند أهل البديع تأكيد المدح بما يشبه الذم، وشاهده قول النابغة:
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن
فلول من قراع الكتائب وهذه الآية لا محالة نزلت بالمدينة.
)ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز[40](اعتراض بين جملة)أذن للذين يقاتلون(الخ وبين قوله)الذين إن مكناهم في الأرض(الخ. فلما تضمنت جملة)أذن للذين يقاتلون(الخ الإذن للمسلمين بدفاع المشركين عنهم أتبع ذلك ببيان الحكمة في هذا الإذان بالدفاع، مع التنويه بهذا الدفاع، والمتولين له بأنه دفاع عن الحق والدين ينتفع به جميع أهل أديان التوحيد من اليهود والنصارى والمسلمين، وليس هو دفاعا لنفع المسلمين خاصة. والواو في قوله)ولولا دفاع الله الناس(إلى آخره. اعتراضية وتسمى واو الاستئناف. ومفاد هذه الجملة تعليل مضمون جملة)أذن للذين يقاتلون(الخ.
و)لولا(حرف امتناع لوجود، أي حرف يدل على امتناع جوابه، أي انتفائه لأجل وجود شرطه، أي عند تحقيق مضمون جملة شرطه فهو حرف يقتضي جملتين. والمعنى: لولا دفاع الناس عن مواضع عبادة المسلمين لصري المشركون ولتجاوزوا فيه المسلمين إلى الاعتداء على ما يجاور بلادهم من أهل الملل الأخرى المناوئة لملة

الشرك ولهدموا معابدهم من صوامع، وبيع، وصلوات، ومساجد، للأديان المخالفة للشرك. فذكر الصوامع، والبيع، إدماج لينتبهوا إلى تأييد المسلمين فالتعريف في)الناس(تعريف العهد، أي الناس الذين يتقاتلون وهم المسلمون ومشركو أهل مكة.

ويجوز أن يكون المراد: لولا ما سبق قبل الإسلام من إذن الله لأمم التوحيد بقتال أهل الشرك كما قاتل داودد جالوت. وكما تغلب سليمان على ملكة سبا . لمحق المشركون معالم التوحيد كما محق بختنصر هيكل سليمان فتكون هذه الجملة تذييلا لجملة)أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا(، أي أذن للمسلمين بالقتال كما أذن لأمم قبلهم لكيلا يطغى عليهم المشركون كما طغوا على من قبلهم حين لم يأذن الله لهم بالقتال، فالتعريف في)الناس(تعريف الجنس.

وإضافة الدفاع إلى الله إسناد مجازي عقلي لأنه إذن للناس أن يدفعوا عن معابدهم فكان إذن الله سبب الدفع. وهذا يهيب بأهل الأديان إلى التألب على مقاومة أهل الشرك.

وقرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب)دفاع(. وقرأ الباقون)دفع(بفتح الدال وبدون ألف . و)بعضهم(بدل من)الناس(بدل بعض. و)ببعض(متعلق ب)دفاع(والباء للآلة.

والهدم: تقويض البناء وتسقيطه.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر)لهدمت(بتخفيف الدال . وقرأه الباقون بتشديد الدال للمبالغة في الهدم، أي)لهدمت(هدما ناشئا عن غيظ بحيث لا يبقون لها أثرا.

والصوامع: جمع صومعة بوزن فوعلة، وهي بناء مستطيل مرتفع يصعد إليه بدرج وبأعلاه بيت، كان الرهبان يتخذونه للعبادة ليكونوا بعداء عن مشاغلة الناس إياهم، وكانوا يوقدون به مصابيح للإعانة على السهر للعبادة ولإضاءة الطريق للمارين. من أجل ذلك سميت الصومعة المنارة. قال امرؤ القيس:

تضيء الظلام بالعشي كأنها منارة ممسي راهب متبتل

والبيع جمع: بيعة بكسر الباء وسكون التحتية مكان عبادة النصارى ولا يعرف أصل اشتقاقها. ولعلها معربة عن لغة أخرى.

والصلوات جمع: صلاة وهي هنا مراد بها كنائس اليهود معربة عن كلمة)صلوثا(بالمثلثة في آخره بعدها ألف . فلما عربت جعلوا مكان المثلثة مثناة فوقية وجمعوها كذلك. وعن مجاهد. والجحدري،

وأبي العالية، وأبي رجاء أنهم قرأوها هنا)وصلواث(بمثلثة في آخره. وقال ابن عطيه: قرأ عكرمة. ومجاهد)صلويثا(بكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الألف بعد الثاء أي المثلثة كما قال القرطبي وهذه المادة قد فاتت أهل اللغة وهي غفلة عجيبة.

والمساجد: اسم لمحل السجود من كل موضع عبادة ليس من الأنواع الثلاثة المذكورة قبله وقت نزول هذه الآية فتكون الآية نزلت في ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة حين بنوا مسجد قباء ومسجد المدينة.

وجملة)يذكر فيها اسم الله كثيرا(صفة والغالب في الصفة الواردة بعد جمل متعاطفة فيها أن ترجع إلى ما في تلك الجمل من الموصوف بالصفة. فلذلك قيل برجوع صفة)يذكر فيها اسم الله(إلى صوامع، وبيع، وصلوات، ومساجد للأربعة المذكورات قبلها وهي معاد ضمير فيها .

وفائدة هذا الوصف الإيماء إلى أن سبب هدمها أنها يذكر فيها اسم الله كثيرا، أي ولا تذكر أسماء أصنام أهل الشرك فإنهم لما أخرجوا المسلمين بلا سبب إلا أنهم يذكرون اسم الله فيقولون ربنا الله. لمحو ذكر اسم الله من بلدهم لا جرم أنهم يهدمون المواضع المجعولة لذكر اسم الله كثيرا. أي دون ذكر الأصنام. فالكثرة مستعملة في الدوام لاستغراق الأزمنة، وفي هذا لإيماء إلى أن في هذه المواضع فائدة دينية وهي ذكر اسم الله.

قال ابن خويز منداد من أئمة المالكية من أهل أواخر القرن الرابع تضمنت هذه الآية المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبيعهم وبيوت نارهم اه.

قلت: أما بيوت النار فلا تتضمن هذه الآية منع هدمها فإنها لا يذكر فيها اسم الله وإنما منع هدمها عقد الذمة الذي ينعقد بين أهلها وبين المسلمين. وقيل الصفة راجعة إلى مساجد خاصة.

وتقديم الصوامع في الذكر على ما بعده لأن صومع الرهبان كانت أكثر في بلاد العرب من غيرها، وكانت أشهر عندهم، لأنهم كانوا يهتدون بأضوائها في أسفارهم ويأوون إليها. وتعقيبها بذكر البيع للمناسبة إذ هي معابد النصارى مثل الصوامع. وأما ذكر الصلوات بعدهما فلأنه قد تهيأ المقام لذكرها، وتأخير المساجد لأنها أعم، وشأن العموم أن يعقب به الخصوص إكمالا للفائدة.

وقوله)ولينصرن الله من ينصره(عطف على جملة)ولولا دفاع الله الناس(، أي أمر الله المسلمين بالدفاع عن دينهم. وضمن لهم النصر في ذلك الدفاع لأنهم بدفاعهم ينصرون دين الله، فكأنهم نصروا الله. ولذلك أكد الجملة بلام القسم ونون التوكيد. وهذه الجملة

تذييل لما فيها من العموم الشامل للمسلمين الذين أخرجهم المشركون.
وجملة)إن الله لقوي عزيز(تعليل لجملة)ولينصرن الله من ينصره(، أي كان نصرهم مضمونا لأن ناصرهم قدير على ذلك بالقوة والعزة. والقوة مستعملة في القدرة. والعزة هنا حقيقة لأن العزة هي المنعة، أي عدم تسلط غير صاحبها على صاحبها.
بدل)من الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق(وما بينهما اعتراض. فالمراد من)الذين إن مكناهم في الأرض(المهاجرون فهو ثناء على المهاجرين وشهادة لهم بكمال دينهم. وعن عثمان: هذا والله ثناء قبل بلاء . أي قبل اختبار. أي فهو من الإخبار بالغيب الذي علمه الله من حالهم. ومعنى)إن مكناهم في الأرض(أي بالنصر الذي وعدناهم في قوله)وإن الله على نصرهم لقدير(.
)الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر(ويجوز أن يكون بدلا من)من(الموصولة في قوله)من ينصره(فيكون المراد: كل من نصر الدين من أجيال المسلمين. أي مكناهم بالنصر الموعود به إن نصروا دين الله. وعلى الاحتمالين فالكلام مسوق للتنبيه على الشكر على نعمة النصر بأن يأتوا بما أمر الله به من أصول الإسلام فإن بذلك دوام نصرهم، وانتظام عقد جماعتهم، والسلامة من اختلال أمرهم، فإن حادوا عن ذلك فقد فرطوا في ضمان نصرهم وأمرهم إلى الله.

صفحة : 2788

فأما إقامة الصلاة فلدلالتها على القيام بالدين وتجديد لمفعوله في النفوس، وأما إيتاء الزكاة فهو ليكون أفراد الأمة متقاربين في نظام معاشهم، وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلتنفيذ قوانين الإسلام بين سائر الأمة من تلقاء أنفسهم.
والتمكين: التوثيق. وأصله إقرار الشيء في مكان وهو مستعمل هنا في التسليط والتمليك، والأرض للجنس، أي تسليطهم على شيء من الأرض فيكون ذلك شأنهم فيما هو ملكهم وما بسطت فيه أيديهم. وقد تقدم قوله تعالى)ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لك فيها معايش(في سورة الأعراف، وقوله)وكذلك مكنا ليوسف في الأرض(في سورة يوسف: والمراد بالمعروف ما هو مقرر من شؤون الدين: وإما بكونه معروفا للأمة كلها: وهو ما يعلم من الدين بالضرورة فيستوي في العلم بكونه من الدين سائر الأمة. وإما بكونه

معروفا لطائفة منهم وهو دقائق الأحكام فيأمر به الذين من شأنهم أن يعلموه وهم العلماء على تفوت مراتب العلم ومرتب علمائه.
والمنكر: ما شأنه أن ينكر في الدين، أي أن لا يرضى بأنه من الدين. وذلك كل عمل يدخل في أمور الأمة والشريعة وهو مخالف لها فعلم أن المقصود بالمنكر الأعمال التي يراد إدخالها في شريعة المسلمين وهي مخالفة لها، فلا يدخل في ذلك ما يفعله الناس في شؤون عاداتهم مما هو في منطقة المباح، ولا ما يفعلون في شؤون دينهم مما هو من نوع الديانات كالأعمال المندرجة تحت كليات دينية، والأعمال المشروعة بطريق القياس وقواعد السريعة من مجالات الاجتهاد والتفقه في الدين.
والنهي عن المنكر آيل إلى الأمر بالمعروف وكذلك الأمر بالمعروف آيل إلى النهي عن المنكر وإنما جمعت الآية بينها بأعتبار أول ما تتوجه إليه نفوس الناس عن مشاهدة الأعمال، ولتكون معروفة دليلا على إنكار المنكر وبالعكس إذ بضدها تتمايز الأشياء، ولم يزل من طرق النظر والحجاج الاستدلال بالنقائض والعكوس.
)ولله عاقبة الأمور[41](عطف على جملة)ولنصرن الله من ينصره(، أو على جملة)إن الله لقوي عزيز(، والمآل واحد، وهو تحقيق وقوع النصر، لأن الذي وعد به لا يمنعه من تحقيق وعده مانع، وفيه تأنيس للمهاجرين لئلا يستبطئوا النصر.
والعاقبة: آخر الشيء وما يعقب الحاضر. وتأنيثها لملاحظة معنى الحالة وصارت بكثرة الاستعمال اسما. وفي حديث هرقل ثم تكون لهم العاقبة .
وتقديم المجرور هنا للاهتمام والتنبيه على أن ما هو لله فهو يصرفه كيف يشاء.
)وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود[42] وقوم إبراهيم وقوم لوط[43] وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير[44](لما نعى على المشركين مساويهم في شؤون الدين بإشراكهم وإنكارهم البعث وصدهم عن الإسلام وعن المسجد الحرام وما ناسب ذلك في غرضه من إخراج أهله منه، عطف هنا إلى ضلالهم بتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم فقصد من ذلك تسلية الرسول)عليه الصلاة والسلام(وتمثيلهم بأمثال الأمم التي استأصلها الله، وتهديدهم بالمصير إلى مصيرهم. ونظير هذه الآية إجمالا وتفصيلا تقدم غير مرة في سورة آل عمران وغيرها.
وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله)فقد كذبت قبلهم(الخ إذ التقدير: فلا عجب في تكذيبهم، أو فلا غضاضة عليك في تكذيب قومك إياك فإن تلك عادة أمثالهم.

وقوم إبراهيم هم الكلدان. وأصحاب مدين هم قوم شعيب. وإنما لم يعبر عنهم بقوم شعيب لئلا يتكرر لفظ قوم أكثر من ثلاث مرات.
وقال)وكذب موسى(لأن مكذبيه هم القبط قوم فرعون ولم يكذبه قومه بنو إسرائيل.
وقوله)فأمليت للكافرين(معناه فأمليت لهم، فوضع الظاهر موضع الضمير للإيماء إلى أن علة الإملاء لهم ثم أخذهم هو الكفر بالرسل تعريضا بالنذارة لمشركي قريش.

صفحة : 2789

والأخذ، حقيقته: التناول لما لم يكن في اليد، واستعير هنا للقدرة عليهم بتسليط الإهلاك بعد إمهالهم. ومناسبة هذه الاستعارة أن الإملاء لهم يشبه بعد الشيء عن متناوله فشبه انتهاء ذلك الإملاء بالتناول، شبه ذلك بأخذ الله إياهم عنده، لظهور قدرته عليهم بعد وعيدهم، وهذا الأخذ معلوم في آيات أخرى عدا أن قوم إبراهيم لم يتقدم في القرآن ذكر لعذابهم أو أخذهم سوى أن قوله تعالى في سورة الأنبياء)وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين(مشير إلى سوء عاقبتهم مما أرادوا به من الكيد. وهذه الآية صريحة في ذلك كما أشرنا هنالك.
ومناسبة عد قوم إبراهيم هنا في عداد الأقوام الذين أخذهم الله دون الآيات الأخرى التي ذكر فيها من أخذوا من الأقوام ، أن قوم إبراهيم أتم شبها بمشركي قريش في أنهم كذبوا رسولهم وآذوه، وألجأوه إلى الخروج من موطنه)قال إني ذاهب إلى ربي سيدين(، فكان ذكر إلجاء قريش المؤمنين إلى الخروج من موطنهم في قوله)الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق(مناسبة لذكر قوم إبراهيم.
والإملاء: ترك المتلبس بالعصيان دون تعجيل عقوبته وتأخيرها إلى وقت متأخر حتى يحسب أنه قد نجا ثم يؤخذ بالعقوبة.
والفاء في)فأمليت للكافرين(للتعقيب دلالة على أن تقدير هلاكهم حاصل في وقت تكذيبهم وإنما أخر لهم، وهو تعقيب موزع، فلكل قوم من هؤلاء تعقيب إملائه. والأخذ حاصل بعد الإملاء بمهلة، فلذلك عطف فعله بحرف المهلة.
وعطفت جملة)فكيف كان نكير(بالفاء لأن حق ذلك الاستفهام أن يحصل عند ذكر ذلك الأخذ، وهو استفهام تعجيبي، أي فاعجب من نكيري كيف حصل. ووجه التعجيب منه أنهم أبدلوا بالنعمة محنة، وبالحياة هلاكا، وبالعمارة خرابا فهو عبرة لغيرهم.
والنكير: الإنكار الزجري لتغيير الحالة التي عليها الذي ينكر عليه.

و)نكير(بكرة في آخره دالة على بناء المتكلم المحذوفة تخفيفا.
وكأن مناسبة اختيار النكير في هذه الآية دون العذاب ونحوه أنه وقع بعد التنويه بالنهي عن النكر لينبه المسلمين على أن يبذلوا في تغيير المنكر منتهى استطاعتهم، فإن الله عاقب على المنكر بأشد العقاب، فعلى المؤمنين الائتساء بصنع الله، وقد قال الحكماء: إن الحكمة هي التشبه بالخالق بقدر ما تبلغه القوة الإنسانية، وفي هذا المجال تتسابق جياد الهمم.
)فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد[45](تفرع ذكر جملة)كأين من قرية(على جملة)فكيف كان نكير(فعطفت عليها بفاء التفريع، والتعقيب في الذكر لا في الوجود، لأن الإملاء لكثير من القرى ثم أخذها بعد الإملاء لها بين كيفية نكير الله وغضبه على القرى الظالمة ويفسره، فناسب أن يذكر التفسير عقب المفسر بحرف التفريع. ثم هو يفيد بما ذكر فيه من اسم كثرة العدد شمولا للأقوام الذين ذكروا من قبل في قوله)فقد كذبت قبلهم قوم نوح(إلى آخره فيكون لتلك الجملة بمنزلة التذييل.
و)كأين(اسم دال على الإخبار عن عدد كثير.
وموضعها من الجملة محل رفع بالابتداء وما بعده خبر. والتقدير: كثير من القرى أهلكناها، وجملة)أهلكناها(الخبر: ويجوز كونها في محل نصب على المفعولية بفعل محذوف يفسره)أهلكناها(. والتقدير: أهلكنا كثيرا من القرى أهلكناها، والأحسن الوجه الأول لأنه يحقق الصدارة التي تستحقها)كأين(بدون حاجة إلى ذكر الاكتفاء بالصدارة الصورية. وعلى الوجه الأول فجملة)أهلكناها(في محل جر صفة ل)قرية(وجملة)فهي خاوية(معطوفة على جملة)أهلكناها(وقد تقدم نظيره في قوله)وكأين من نبي (في سورة آل عمران.
وأهل المدن الذين أهلكهم الله لظلمهم كثيرون، منهم من ذكر في القرآن مثل عاد وثمود، ومنهم من لم يذكر مثل طسم وجديس وآثارهم باقية في اليمامة.
ومعنى)خاوية على عروشها(أنها لم يبق فيها سقف ولا جدار. وجملة)على عروشها(خبر ثان عن ضمير)فهي(. والمعنى: ساقطة على عروشها، أي ساقطة جدرانها فوق سقفها.
والعروش: جمع عرش، وهو السقف. وقد تقدم تفسير نظير هذه الآية عند قوله تعالى)أو كالذي مر على قرية خاوية على عروشها(في سورة البقرة.

والمعطلة: التي عطل الانتفاع بها مع صلاحها للانتفاع، أي هي نابعة بالماء وحولها وسائل السقي ولكنها لا يستقي منها لأن أهلها هلكوا. وقد وجد المسلمون في مسيرهم إلى تبوك بئار في ديار ثمود ونهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الشرب منها إلا بئرا واحدة التي شربت منها ناقة صالح)عليه السلام(.

والقصر: المسكن المبني بالحجارة المجعول طباقا.

والمشيد: المبني بالشيد بكسر الشين وسكون الياء وهو الجص، وإنما يبنى به البناء من الحجر لأن الجص أشد من التراب فبشدة مسكه يطول بقاء الحجر الذي رص به.

والقصور المشيدة، وهي المخلفة عن القرى التي أهلكها الله، كثيرة مثل: قصر غمدان في اليمن، وقصور ثمود في الحجر، وقصور الفراعنة في صعيد مصر. وفي تفسير القرطبي يقال: إن هذه البئر وهذا القصر بحضرموت معروفان. ويقال: إنها بئر الرس وكانت في عدن وتسمى حضور بفتح الحاء وكان أهلها بقية من المؤمنين بصالح الرسول)عليه السلام(وكان صالح معهم، وأنهم آل أمرهم إلى عبادة صنم وأن الله بعث إليهم حنظلة بن صفوان رسولا فنهاهم عن عبادة الصنم فقتلوه فغارت البئر وهلكوا عطشا . يريد أن هذه القرية واحدة من القرى المذكورة في هذه الآية وإلا فإن كلمة)كأين(تنافي إرادة قرية معينة.

وقرأ الجمهور)أهلكناها(بنون العظمة وقرأه أبو عمرو ويعقوب) أهلكتها(بتاء المتكلم .

)أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور[46](تفريع على جملة)فكأين من قرية أهلكناها(وما بعدها.

والاستفهام تعجيبي من حالهم في عدم الاعتبار بمصارع الأمم المكذبة لأنبيائها: والتعجيب متعلق بمن سافروا منهم ورأوا شيئا من تلك القرى المهلكة وبمن لم يسافروا، فإن شأن المسافرين أن يخبروا القاعدين بعجائب ما شاهدوه في أسفارهم كما يشير إليه قوله تعالى)أو آذان يسمعون بها(فالمقصود بالتعجب هو حال الذين ساروا في الأرض، ولكن جعل الاستفهام داخلا على نفي السير لأن سير السائرين منهم لما لم يفدهم عبرة وذكرى جعل كالعدم فكان التعجب من انتفائه، فالكلام جار على خلاف مقتضى الظاهر.

والفاء في)فتكون(سببية جوابية مسبب ما بعدها على السير، أي لم يسيروا سيرا تكون لهم به قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها، أي انتفى أن تكون لهم قلوب وآذان بهذه المثابة لانتفاء سيرهم في

الأرض. وهذا شأن الجواب بالفاء بعد النفي أن تدخل الفاء على ما هو مسبب على المنفي لو كان ثابتا. وفي هذا المعنى قال المعري:

وقيل أفاد بالأسفار مالا فقلنا هل

أفاد بها فؤادا وهذا شأن الأسفار أن تفيد المسافر ما لا تفيده الإقامة في الأوطان من اطلاع على أحوال الأقوام وخصائص البلدان واختلاف العادات، فهي تفيد كل ذي همة في شيء فوائد همته نفاذا فيما تتوجه إليه وأعظم ذلك فوائد العبرة بأسباب النجاح والخسارة.

وأطلقت القلوب على تقاسيم العقل على وجه المجاز المرسل لأن القلب هو مفيض الدم وهو مادة الحياة على الأعضاء الرئيسة وأهمها الدماغ الذي هو عضو العقل، ولذلك قال)يعقلون بها(وإنما آلة العقل هي الدماغ ولكن الكلام جرى أوله على متعارف أهل اللغة ثم أجري عقب ذلك على الحقيقة العلمية فقال)يعقلون بها(فأشار إلى أن القلوب هي العقل.

ونزلت عقولهم منزلة المعدوم كما نزل سيرهم في الأرض منزلة المعدوم.

وأما ذكر الأذان فلأن الأذان آلة السمع والسائر في الأرض ينظر آثار الأمم ويسمع أخبار فنائهم فيستدل من ذلك على ترتب المسببات على أسبابها، على أن حظ كثير من المتحدث إليهم وهم الذين لم يسافروا أن يتلقوا الأخبار من المسافرين فيعلموا ما علمه المسافرون علما سبيله سماع الأخبار.

وفي ذكر الآذان اكتفاء عن ذكر الأبصار إذ يعلم أن القلوب التي تعقل إنما طريق علمها مشاهدة آثار العذاب والاستئصال كما أشار إليه قوله بعد ذلك)فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور(.

صفحة : 2791

فحصل من مجموع نظم الآية أنهم بمنزلة الأنعام لهم آلات الاستدلال وقد انعدمت منهم آثارها فلهو قلوب لا يعقلون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون. بها وهذا كقوله تعالى) ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون(.

والفاء في جملة)فإنها لا تعمى الأبصار(تفريع على جواب النفي في قوله)فتكون لهم قلوب يعقلون بها(، وفذلكة للكلام السابق، وتذييل له بما في هذه الجملة من العموم.

والضمير في قوله)فإنها(ضمير القصة والشأن، أي فإن الشأن والقصة هو مضمون الجملة بعد الضمير، أي لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب. أي فإن الأبصار والأسماع طرق لحصول العلم بالمبصرات والمسموعات، والمدرك لذلك هو الدماغ فإذا لم يكن في الدماغ عقل كان المبصر كالأعمى والسامع كالأصم، فآفة ذلك كله هو اختلال العقل.

واستعير العمى الثاني لانتفاء إدراك المبصرات بالعقل مع سلامة حاسة البصر لشبهه به في الحالة الحاصلة لصاحبه.

والتعريف في)الأبصار، والقلوب، والصدور(تعريف الجنس الشامل لقلوب المتحدث عنهم وغيرهم. والجمع فيها باعتبار أصحابها.

وحرف التوكيد في قوله)فإنها لا تعمى الأبصار(لغرابة الحكم لا لأنه مما يشك فيه.

وغالب الجمل المفتتحة بضمير الشأن اقترانها بحرف التوكيد.

والقصر المستفاد من النفي وحرف الاستدراك قصر ادعائي للمبالغة بجعل فقد حاسة البصر المسمى بالعمى كأنه غير عمى، وجعل عدم الاهتداء إلى دلالة المبصرات مع سلامة حاسة البصر هو العمى مبالغة في استحقاقه لهذا الاسم الذي استعير إليه، فالقصر ترشيح للاستعارة.

ففي هذه الآية أفانين من البلاغة والبيان وبداعة النظم.

و)التي في الصدور(صفة)للقلوب(تفيد توكيدا للفظ) القلوب(فوزانه وزان الوصف في قوله تعالى)ولا طائر يطير بجناحيه(. ووزان في قوله)يقولون بأفواههم(فهو لزيادة التقرير والتشخيص.

ويفيد هذا الوصف وراء التوكيد تعريضا بالقوم المتحدث عنهم بأنهم لم ينتفعوا بأفئدتهم مع شدة اتصالها بهم إذ هي قارة في صدورهم على نحو قول عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: فالآن أنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي فإن كونها بين جنبيه يقتضي أن تكون أحب الأشياء إليه.

)ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون[47](عطف على جملة)وإن يكذبوك(عطف القصة على القصة فإن من تكذيبهم أنهم كذبوا بالوعيد وقالوا: لو كان محمد صادقا في وعيده لعجل لنا وعيده، فكانوا يسألونه التعجيل بنزول العذاب استهزاء، كما حكى الله عنهم في قوله)وإذ قالوا اللهم إن كان هذا الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم(، وقال)ويقولون. متى هذا الفتح إن كنتم صادقين(فذكر ذلك في هذه الآية بمناسبة قوله)فأمليت للكافرين(الآية.

وحكي)ويستعجلونك(بصيغة المضارع للإشارة إلى تكريرهم ذلك تجديدا منهم للاستهزاء وتوركا على المسلمين.
والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمقصود إبلاغه إياهم.
والباء من قوله)بالعذاب(زائدة لتأكيد معنى الاستعجال بشدته كأنه قيل يحرصون على تعجيله. وقد تقدم ذلك عند قوله ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة في أول سورة الرعد.
ولما كان استعجالهم إياه تعريضا منهم بأنهم موقنون بأنه غير واقع أعقب بقوله)ولن يخلف الله وعده(. أي فالعذاب الموعود لهم واقع لا محالة لأنه وعد من الله والله لا يخلف وعده. وفيه تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لئلا يستبطئونه.
وقوله)وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون(عطف على جملة)ولن يخلف الله وعده(فإن الله توعدهم بالعذاب وهو صادق على عذاب الدنيا والآخرة وهم إنما استعجلوا عذاب الدنيا تهكما وكناية عن إيقانهم بعدم وقوعه بلازم واحد، وإيماء إلى عدم وقوع عذاب الآخرة بلازمين، فرد الله عليهم ردا عاما بقوله)ولئن يخلف الله وعده(، وكان ذلك تثبيتا للمؤمنين. ثم أعقبه بإنذارهم بأن عذاب الآخرة لا يفلتون منه أيضا وهو أشد العذاب.
فقوله)وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون(خبر مستعمل في التعريض بالوعيد. وهذا اليوم هو يوم القيامة(.

صفحة : 2791

فحصل من مجموع نظم الآية أنهم بمنزلة الأنعام لهم آلات الاستدلال وقد انعدمت منهم آثارها فلهو قلوب لا يعقلون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون. بها وهذا كقوله تعالى) ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون(.
والفاء في جملة)فإنها لا تعمى الأبصار(تفريع على جواب النفي في قوله)فتكون لهم قلوب يعقلون بها(، وفذلكة للكلام السابق، وتذييل له بما في هذه الجملة من العموم.
والضمير في قوله)فإنها(ضمير القصة والشأن، أي فإن الشأن والقصة هو مضمون الجملة بعد الضمير، أي لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب. أي فإن الأبصار والأسماع طرق لحصول العلم بالمبصرات والمسموعات، والمدرك لذلك هو الدماغ فإذا لم يكن في الدماغ عقل كان المبصر كالأعمى والسامع كالأصم، فآفة ذلك كله هو اختلال العقل.

واستعير العمى الثاني لانتفاء إدراك المبصرات بالعقل مع سلامة حاسة البصر لشبهه به في الحالة الحاصلة لصاحبه.
والتعريف في)الأبصار، والقلوب، والصدور(تعريف الجنس الشامل لقلوب المتحدث عنهم وغيرهم. والجمع فيها باعتبار أصحابها.
وحرف التوكيد في قوله)فإنها لا تعمى الأبصار(لغرابة الحكم لا لأنه مما يشك فيه.
وغالب الجمل المفتتحة بضمير الشأن اقترانها بحرف التوكيد.
والقصر المستفاد من النفي وحرف الاستدراك قصر ادعائي للمبالغة بجعل فقد حاسة البصر المسمى بالعمى كأنه غير عمى، وجعل عدم الاهتداء إلى دلالة المبصرات مع سلامة حاسة البصر هو العمى مبالغة في استحقاقه لهذا الاسم الذي استعير إليه، فالقصر ترشيح للاستعارة.
ففي هذه الآية أفانين من البلاغة والبيان وبداعة النظم.
و)التي في الصدور(صفة)للقلوب(تفيد توكيدا للفظ) القلوب(فوزانه وزان الوصف في قوله تعالى)ولا طائر يطير بجناحيه(. ووزان في قوله)يقولون بأفواههم(فهو لزيادة التقرير والتشخيص.
ويفيد هذا الوصف وراء التوكيد تعريضا بالقوم المتحدث عنهم بأنهم لم ينتفعوا بأفئدتهم مع شدة اتصالها بهم إذ هي قارة في صدورهم على نحو قول عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: فالآن أنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي فإن كونها بين جنبيه يقتضي أن تكون أحب الأشياء إليه.
)ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون[47](عطف على جملة)وإن يكذبوك(عطف القصة على القصة فإن من تكذيبهم أنهم كذبوا بالوعيد وقالوا: لو كان محمد صادقا في وعيده لعجل لنا وعيده، فكانوا يسألونه التعجيل بنزول العذاب استهزاء، كما حكى الله عنهم في قوله)وإذ قالوا اللهم إن كان هذا الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم(، وقال)ويقولون. متى هذا الفتح إن كنتم صادقين(فذكر ذلك في هذه الآية بمناسبة قوله)فأمليت للكافرين(الآية.
وحكي)ويستعجلونك(بصيغة المضارع للإشارة إلى تكريرهم ذلك تجديدا منهم للاستهزاء وتوركا على المسلمين.
والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمقصود إبلاغه إياهم.
والباء من قوله)بالعذاب(زائدة لتأكيد معنى الاستعجال بشدته كأنه قيل يحرصون على تعجيله. وقد تقدم ذلك عند قوله ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة في أول سورة الرعد.

ولما كان استعجالهم إياه تعريضا منهم بأنهم موقنون بأنه غير واقع أعقب بقوله)ولن يخلف الله وعده(. أي فالعذاب الموعود لهم واقع لا محالة لأنه وعد من الله والله لا يخلف وعده. وفيه تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لئلا يستبطئونه.

وقوله)وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون(عطف على جملة)ولن يخلف الله وعده(فإن الله توعدهم بالعذاب وهو صادق على عذاب الدنيا والآخرة وهم إنما استعجلوا عذاب الدنيا تهكما وكناية عن إيقانهم بعدم وقوعه بلازم واحد، وإيماء إلى عدم وقوع عذاب الآخرة بلازمين، فرد الله عليهم ردا عاما بقوله)ولئن يخلف الله وعده(، وكان ذلك تثبيتا للمؤمنين. ثم أعقبه بإنذارهم بأن عذاب الآخرة لا يفلتون منه أيضا وهو أشد العذاب.

فقوله)وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون(خبر مستعمل في التعريض بالوعيد. وهذا اليوم هو يوم القيامة(.

صفحة : 2792

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى)ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين(.

وليس المراد بقوله)وإن يوما عند ربك(إلى آخره استقصار أجل حلول العذاب بهم في الدنيا كما درج عليه أكثر المفسرين لعدم رشاقة. ذلك على أن هذا الاستقصار يغني عنه قوله عقب هذا) وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها(.

والخطاب في)تعدون(للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. وقرأ الجمهور)تعدون(بالفوقية. وقرأه ابن كثير، وحمزة، والكسائي)مما يعدون(بياء الغائبين ، أي مما يعده المشركون المستعجلون بالعذاب.

)وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير[48](عطف على جملة)ويستعجلونك بالعذاب(أو على جملة)ولن يخلف الله وعده(باعتبار ما تضمنه استعجالهم بالعذاب من التعريض بأنهم آيسون منه لتأخر وقوعه، فذكروا بأن أمما كثيرة أمهلت ثم حل بها العذاب. فوزان هذه الآية وزان قوله آنفا)فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة(الخ، إلا أن الأولى قصد منها كثرة الأمم التي أهلكت لئلا يتوهم من ذكر قوم نوح ومن عطف عليهم أن الهلاك لم يتجاوزهم ولذلك اقتصر فيها على ذكر الإهلاك دون الإمهال. وهذه الآية القصد منها التذكير بان تأخير الوعيد لا يقتضي إبطاله، ولذلك

اقتصر فيها على ذكر الإمهال ثم الأخذ بعده المناسب للإملاء من حيث إنه دخول في القبضة بعد بعده عنها.
وأما عطف جملة)فكأين من قرية أهلكناها(بالفاء وعطف جملة)وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة(بالواو فلأن الجملة الأولى وقعت بدلا من جملة)فكيف كان نكير(فقرنت بالفاء التي دخلت نظيرتها على الجملة المبدل منها، وأما هذه الجملة الثانية فخلية عن ذلك فعطفت بالحرف الأصلي للعطف.
وجملة)وإلي المصير(تذييل، أي مصير الناس كلهم إلي والمصير مصدر ميمي ل)صار(بمعنى: رجع، وهو رجوع مجازي بمعنى الحصول في المكنة.
وتقديم المجرور للحصر الحقبقي، أي يصير الناس إلا إلى الله، وهو يقتضي أن المصير إليه لا محالة، وهو المقصود من الحصر لأن الحصر يقتضي بالأحرى فهو كناية عن عدم الإفلات.
)قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين[49] فالذين آمنوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم[50] والذين سعوا في آياتنا معجزين أولئك أصحاب الجحيم[51](استئناف بعد المواعظ السالفة والإنذارات. وافتتحاه ب)قل(للاهتمام به: وافتتاح المقول بنداء الناس للفت ألبابهم إلى الكلام. والمخاطبون هم المشركون.
والغرض من خطابهم إعلامهم بأن تكذيبهم واستهزاءهم لا يغيظ النبي صلى الله عليه وسلم ولا يصده عن إداء رسالته: ففي ذلك قمع لهم إذا كانوا يحسبون أنهم بتكذيبهم واستهزائهم يملونه فيترك دعوتهم. وفيه تثبيت للنبي وتسلية فيما يلقاه منهم.
وقصر النبي على صفة النذارة قصر إضافي، أي لست طالبا نكايتكم ولا تزلفا فمن آمن فلنفسه ومن عمي فعليها.
والنذير: المحذر من شر يتوقع.
وفي تقديم المجرور المؤذن بالاهتمام بنذارتهم إيماء إلى أنهم مشرفون على شر عظيم فهم أحرياء بالنذارة.
والمبين: المفصح الموضح، أي مبين للإنذار بما لا إيهام فيه ولا مصانعة.
وفرع على الأمر بالقول تقسيم للناس في تلقي هذا الإنذار المأمور الرسول بتبليغه إلى مصدق ومكذب لبيان حال كلا الفريقين في الدنيا والآخرة ترغيبا في الحالة الحسنى وتحذيرا من الحالة السوأى فقال تعالى)فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم (إلى آخره، فهذا إخبار من الله تعالى كما يقتضيه قوله)في آياتنا(والجملة معترضة بالفاء.

والمغفرة: غفران ما قدموه من الشرك وما يتبعه من شرائع الشرك وضلالاته ومفاسده. وهذه المغفرة تفضي إلى نعيم الآخرة، فالمعنى: أنهم فازوا في الدار الآخرة.
والرزق: العطاء. ووصفه بالكريم يجمع وفرته وصفائه من المكدرات كقوله تعالى)لهم أجر غير ممنون(ذلك هو الجنة.
والرزق منه ما هو حاصل لهم في الدنيا، فهم متمتعون بانشراح صدورهم ورضاهم عن ربهم، وأعظمه ما يحصل لهم في الآخرة.

صفحة : 2793

والذين سعوا هم الفريق المقابل للذين آمنوا، فمعناه: والذين استمروا على الكفر، فعبر عن الاستمرار بالسعي في الآيات لأنه أخص من الكفر، وذلك حال المشركين المتحدث عنهم.
والسعي: المشي الشديد، ويطلق على شدة الحرص في العمل تشبيها للعامل الحريص بالماشي الشديد في كونه يكد للوصول إلى غاية كما قال تعالى)ثم أدبر يسعى فحشر فنادى(. فليس المراد أن فرعون خرج يمشي وأنما المراد أنه صرف عنايته لإحضار السحرة لإحباط دعوة موسى، وقال تعالى)ويسعون في الأرض فسادا(.
والكلام تمثيل، شبهت هيئة تفننهم في التكذيب بالقرآن وتطلب المعاذير لنقض دلائله من قولهم: هو سحر، هو شعر، هو أساطير الأولين، هو قول مجنون، وتعرضهم بالمجادلات والمناقضات للنبي صلى الله عليه وسلم بهيئة الساعي في طريق يسابق غيره ليفوز بالوصول.
والمعاجز: المسابق الطالب عجز مسايره عن الوصول إلى غايته وعن اللحاق به، فصيغ له المفاعلة لأن كل واحد يطلب عجز الآخر عن لحاقه. والمعنى: أنهم بعملهم يغالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم لا يشعرون أنهم يحاولون أن يغلبوا الله وقد ظنوا أنهم نالوا مرادهم في الدنيا ولم يعلموا ما لهم من سوء العاقبة.
وقرأ الجمهور)معاجزين(بألف بعد العين وقرأه ابن كثير، وأبوا عمرو)معجزين(بفتح العين وتضعيف الجيم أي محاولين إعجاز الله تعالى وهم لا يعلمون.
والتصدير باسم الإشارة في قوله)أولئك أصحاب الجحيم(للتنبيه على أن المخبر عنهم جديرون بما سيرد بعد اسم الإشارة من الحكم لأجل ما ذكر قبله من الأوصاف، أي هم أصحاب الجحيم لأنهم سعوا في آياتنا معاجزين. ومن أحسن ما يفسر هذه الآية ما جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن

مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان. فالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة من قومه فأدلجوا، وانطلقوا على مهلهم. وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثلي ومثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق .

)وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم[52] ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شفاق بعيد[53] وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم[54](عطف على جملة)قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين(، لأنه لما أفضى الكلام السابق إلى تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتأنيس نفسه فيما يلقاه من قومه من التكذيب بأن تلك شنشنة الأمم الظالمة من قبلهم فيما جاء عقب قوله)وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة(الخ، وأنه مقصور على النذارة فمن آمن فقد نجا ومن كفر فقد هلك، أريد الانتقال من ذلك إلى تفصيل تسليته وتثبيته بأنه لقي ما لقيه سلفه من الرسل والأنبياء)عليهم السلام(وأنه لم يسلم أحد منهم من محاولة الشيطان أن يفسد بعض ما يحاولونه من هدي الأمم وأنهم لقوا من أقوامهم مكذبين ومصدقين سنة الله في رسله)عليهم السلام(.

فقوله)من رسول ولا نبي(نص في العموم، فأفاد أن ذلك لم يعد أحد من الأنبياء والرسل.

وعطف)نبي(على)رسول(دال على أن للنبي معنى غير معنى الرسول.

فالرسول: هو الرجل المبعوث من الله إلى الناس بشريعة. والنبي: من أوحى الله إليه بإصلاح أمر قوم بحملهم على شريعة سابقة أو بإرشادهم إلى ما هو مستقر في الشرائع كلها فالنبي أعم من الرسول، وهو التحقيق.

والتمني: كلمة مشهورة. وحقيقتها: طلب الشيء العسير حصوله. والأمنية: الشيء المتمنى. وإنما يتمنى الرسل والأنبياء أن يكون قومهم كلهم صالحين مهتدين. والاستثناء من عموم أحوال تابعه

لعموم أصحابها وهو)من رسول ولا نبي(، أي ما أرسلناهم في حال من الأحوال إلا في حال إذا تمنى أحدهم أمنية ألقي الشيطان فيها الخ، أي في حال حصول الإلقاء عند حصول التمني لأن أماني الأنبياء خير محض والشيطان دأبه الإفساد وتعطيل الخير.

والقصر المستفاد من النفي والاستثناء قصر موصوف على صفة، وهو قصر إضافي، أي دون أن نرسل أحد منهم في حال الخلو من إلقاء الشيطان ومكره.

والإلقاء حقيقته: رمي الشيء من اليد. واستعير هنا للوسوسة وتسويل الفساد تشبيها للتسويل بإلقاء شيء من اليد بين الناس. ومنه قوله تعالى)فكذلك ألقي السامري(وقوله)فألقوا إليهم القول(وكقوله تعالى)فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها(على ما حققناه فيما مضى.

ومفعول)ألقى(محذوف دل عليه المقام لأن الشيطان إنما يلقي الشر والفساد. فإسناد التمني إلى الأنبياء دل على أنه تمنى الهدي والصلاح. وإسناد الإلقاء إلى الشيطان دل على أنه إلقاء الضلال والفساد. فالتقدير: أدخل الشيطان في نفوس القوام ضلالات تفسد ما قاله الأنبياء من الإرشاد.

ومعنى إلقاء الشيطان في أمنية النبي والرسول ألقاء ما يضادها، كمن يمكر فيلقي السم في السم، فإلقاء الشيطان بوسوسته: أن يأمر الناس بالتكذيب والعصيان، ويلقي في قلوب أئمة الكفر مطاعن يبثونها في قومهم. ويروج الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكر البرهان، والله تعالى يعيد الإرشاد ويكرر الهدي على لسان النبي. ويفضح وساوس الشيطان وسوء فعله بالبيان الواضح كقوله تعالى)يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة(وقوله)إن الشيطان لكم عدو فأتخذوه عدوا(. فالله يهديه وبيانه ينسخ ما يلقي الشيطان، أي يزيل الشبهات التي يلقيها الشيطان ببيان الله الواضح، ويزيد آيات دعوة رسله بيانا، وذلك هو إحكام آياته، أي تحقيقها وتثبيت مدلولها وتوضيحها بما لا شبهة بعده إلا لمن رين على قلبه. وقد تقدم معنى الآيات المحكمات في آل عمران.

وقد فسر كثير من المفسرين)تمنى(بمعنى قرأ. وتبعهم أصحاب كتب اللغة وذكروا بيتا نسبوه إلى حسان بن ثابت وذكروا قصة بروايات ضعيفة سنذكرها. وأياما كان فالقول فيه هو والقول في تفسير التمني بالمعنى المشهور سواء، أي إذا قرأ على الناس ما أنزل إليه ليهتدوا به ألقى الشيطان في أمنيته، أي في قراءته، أي وسوس لهم في نفوسهم ما يناقضه وينافيه بوسوسته للناس

التكذيب والإعراض عن التدبر. فشبه تسويل الشيطان بوسوسته للكافرين عدم امتثال النبي بإلقاء شيء لخلطه وإفساده.
وعندي في صحة إطلاق لفظ المنية على القراءة شك عظيم، فإنه وإن كان قد ورد تمنى بمعنى قرأ في بيت نسب إلى حسان بن ثابت إن صحت رواية البيت عن حسان على اختلاف في مصراعه الخير:
تمنى كتاب الله أول لـيلـه تمنى
داود الزبور على مهل فلا أظن أن القراءة يقال لها أمنية.
ويجوز أن يكون المعنى أن النبي إذا تمنى هدي قومه أو حرص على ذلك فلقي العناد، وتمنى حصول هداهم بكل وسيلة ألقى الشيطان في نفس النبي خاطر اليأس من هداهم عسى أن يقصر النبي من حرصه أو أن يضجره، وهي خواطر تلوح في النفس ولكن العصمة تعترضها فلا يلبث ذلك الخاطر ان ينقشع ويرسخ في نفس الرسول ما كلف به الدأب على الدعوة والحرص على الرشد. فيكون معنى الآية على هذا الوجه ملوحا إلى قوله تعالى)وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت ان تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدي فلا تكونن من الجاهلين(.
و)ثم(في قوله)ثم يحكم الله آياته(للترتيب الرتبي، لأن إحكام الآيات وتقريرها أهم من نسخ ما يلقي الشيطان بالإحكام يتضح الهدى ويزداد ما يلقيه الشيطان نسخا.
وجملة)والله عليم حكيم(معترضة.

صفحة : 2795

ومعنى هذه الآية: أن الأنبياء والرسل يرجون اهتداء قومهم ما استطاعوا فيبلغونهم ما ينزل إليهم من الله ويعظونهم ويدعونهم بالحجة والمجادلة الحسنة حتى يظنوا أن أمنيتهم قد نجحت ويقترب القوم من الإيمان، كما حكي الله عن المشركين قولهم)أهذا الذي بعث الله رسولا إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها(فيأتي الشيطان فلا يزال يوسوس في نفوس الكفار فينكصون على أعقابهم، وتلك الوساوس ضروب شتى من تذكيرهم بحب آلهتهم، ومن تخويفهم بسوء عاقبة نبذ دينهم، ونحو ذلك من ضروب الضلالات التي حكيت عنهم في تفاصيل القرآن، فيتمسك أهل الضلالة بدينهم ويصدون عن دعوة رسلهم، وذلك هو الصبر الذي في قوله)لولا أن صبرنا عليها(وقوله)وانطلق الملأ منهم أن امشوا

واصبروا على آلهتكم(. وكلما أفسد الشيطان دعوة الرسل أمر الله رسله فعاودوا الإرشاد وكرروه وهو سبب تكرر مواعظ متماثلة في القرآن. فبتلك المعاودة ينسخ ما ألقاه الشيطان وتثبت الآيات السالفة. فالنسخ: الإزالة، والإحكام: التثبيت. وفي كلتا الجملتين حذف مضاف، أي ينسخ آثارها ما يلقي الشيطان، ويحكم آثار آياته.

واللامان في قوله)ليجعل(وفي قوله)وليعلم(متعلقتان بفعل) ينسخ الله(فإن النسخ يقتضي منسوخا. وفي)يجعل(ضمير عائد إلى الله في قوله)فينسخ الله(.

والجعل، هنا: جعل نظام ترتب المسببات على أسبابها، وتكوين تفاوت المدارك ومراتب درجاتها. فالمعنى: أن الله مكن الشيطان من ذلك الفعل بأصل فطرته من يوم خلق فيه داعية الإضلال، ونسخ ما يلقيه الشيطان بواسطة رسله وآياته ليكون من ذلك فتنة ضلال كفر وهدي إيماء بحسب اختلاف القابليات. فهذا كقوله تعالى)قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك نتهم المخلصين قال هذا صراط على مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين(.

ولام)ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة(مستعار لمعنى الترتب مثل اللام في قوله تعالى)فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا(. وهي مستعارة لمعنى التعقيب الذي حقه أن يكون بحرف الفاء، أي تحصل عقب النسخ الذي فعله الله فتنة من أفتن من المشركين بانصرافهم عن التأمل في أدلة نسخ ما يلقيه الشيطان، وعن استماع ما أحكم الله به آياته، فيستمر كفرهم ويقوى.

وأما لام)وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك(فهي على أصل معنى التعليل، أي ينسخ ما يلقي الشيطان لإرادة أن يعلم المؤمنون انه الحق برسوخ ما تمناه الرسول والأنبياء لهم من الهدي كما يحصل لهم بما يحكم الله من آياته ازدياد الهدى في قلوبهم.

)والذين في قلوبهم مرض(هم المترددون في قبول الإيمان.) والقاسية قلوبهم(هم الكافرون المصممون على الكفر. والفريقان هم المراد ب)الظالمين(في قوله)وإن الظالمين لفي شقاق بعيد(. فذكر)الظالمين(إظهار في مقام الإضمار للإيماء إلى أن علة كونهم في شقاق بعيد هي ظلمهم. أي كفرهم.

والشقاق: الخلاف والعداوة.

والبعيد هنا مستعمل في معنى: البالغ حدا قويا في حقيقته. تشبيها لانتشار الحقيقة فيه بانتشار المسافة في المكان البعيد كما في قوله تعالى)فذو دعاء عريض(أي دعاء كثير ملح.

وجملة)وإن الظالمين لفي شقاق بعيد(معترضة بين المتعاطفات.

و)الذين أوتوا العلم(هم المؤمنون بقرينة مقابلته ب)الذين في قلوبهم مرض(وبقوله)وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم(. فالمراد بالعلم الوحي والكتب التي أوتيها أصحاب الرسل السابقين فإنهم بها يصيرون من أهل العلم.
وإطلاق)الذين أوتوا العلم(على المؤمنين تكرار في القرآن.
وهذا ثناء على أصحاب الرسل بأنهم أوتوا العلم، وهو علم الدين الذي يبلغهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فإن نور النبوءة يشرق في قلوب الذين يصحبون الرسول. وذلك تجد من يصحب الرسول صلى الله عليه وسلم قد يكون قبل الإيمان جلفا فإذا آمن انقلب حكيما، مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم .

صفحة : 2796

وضمير)أنه الحق(عائد إلى العلم الذي أوتوه، أي ليزدادوا يقينا بأن الوحي الذي أوتوه هو الحق لا غيره مما ألقاه الشيطان لهم من التشكيك والشبه والتضليل، فالقصر المستفاد من تعريف الجزأين قصر إضافي. ويجوز أن يكون ضمير أنه عائدا إلى م تقدم من قوله)فينسخ الله(إلى قوله)ثم يحكم الله آياته(، أي أن المذكور هو الحق، كقول رؤية:
فيها خطوط من سواد وبلق كأنه
في الجلد توليع البهق أي كان المذكور.
وقوله)فيؤمنوا به(معناه: فيزدادوا إيمانا أو فيؤمنوا بالناسخ والمحكم كما آمنوا بالأصل.
والإخبات: الاطمئنان والخشوع. وتقدم آنفا عند قوله تعالى)وبشر المخبتين(، أي فيستقر ذلك في قلوبهم كقوله تعالى)قال بلى ولكن ليطمئن قلبي(.
وبما تلقيت في تفسير هذه الآية من الانتظام البين الواضح المستقل بدلالته والمستغني بنهله عن علالته، والسالم من التكلفات والاحتياج إلى ضميمة القصص ترى أن الآية بمعزل عما ألصقه بها الملصقون والضعفاء في علوم السنة، وتلقاء منهم فريق من المفسرين حبا في غرائب النوادر دون تأمل ولا تمحيص، من أن الآية نزلت في قصة تتعلق سورة النجم فلم يكتفوا بما أفسدوا من معنى هذه الآية حتى تجاوزوا بهذا الإلصاق إلى إفساد معاني سورة النجم، فذكروا في ذلك روايات عن سعيد بن جبير، وابن شهاب،

ومحمد بن كعب القرطبي، وأبي العالية، والضحاك وأقربها رواية عن ابن شهاب وابن جبير والضحاك قالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم جلس في ناد من أندية قريش كثير أهله من مسلمين وكافرين، فقرأ عليهم سورة النجم فلما بلغ قوله)أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى(القي الشيطان بين السامعين عقب ذلك قوله تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ففرح المشركون بان ذكر آلهتهم بخير. وكان في آخر تلك السورة سجدة من سجود التلاوة. فلما سجد في آخر السورة سجد كل من حضر من المسلمين والمشركين. وتسامع الناس بان قريشا أسلموا حتى شاع ذلك ببلاد الحبشة. فرجع من مهاجرة الحبشة نفر منهم عثمان بن عفان إلى المدينة. وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشعر بأن الشيطان ألقى. فأعلمه جبريل عليه السلام فاغتم لذلك فنزل قوله تعالى)وما أرسلنا من قبلك(الآية تسلية له.

وهي قصة يجدها السامع ضغثا على إبالة، ولا يلقي إليها النحرير باله. وما رويت إلا بأسانيد واهية ومنتهاها إلى ذكر قصة، وليس في أحد أسانيدها سماع صحابي لشيء في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وسندها إلى ابن عباس سند مطعون. على أن ابن عباس يوم نزلت سورة النجم كان لا يحضر مجالي النبي صلى الله عليه وسلم وهي أخبار آحاد تعارض أصول الدين لأنها تخالف أصل عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم لا التباس عليه في تلقي الوحي. ويكفي تكذيبا لها قوله تعالى)وما ينطق عن الهوى(. وفي معرفة الملك. فلو رووها الثقات لوجب رفضها وتأويلها فكيف وهي ضعيفة واهية. وكيف يروج على ذي مسكة من عقل أن يجتمع في كلام واحد تسفيه المشركين في عبادتهم الأصنام بقوله تعالى)أفرأيتم اللات والعزى(إلى قوله)ما أنزل الله بها من سلطان(فيقع في خلال ذلك مدحها بأنها الغرانيق العلى وأن شفاعتهم لترتجى .

وهل هذا إلا كلام يلعن بعضه بعضا. وقد اتفق الحاكون أن النبي صلى الله عليه وسلم قرا سورة النجم كلها حتى خاتمتها)فاسجدوا لله واعبدوا(لأنهم إنما سجدوا حين سجد المسلمون، فدل على أنهم سمعوا السورة كلها وما بين آية)أفرأيتم اللات والعزى(وبين آخر السورة آيات كثيرة في إبطال الأصنام وغيرها من معبودات المشركين، وتزييف كثير لعقائد المشركين فكيف يصح أن المشركين سجدوا من أجل الثناء على آلهتهم. فإن لم تكن تلك الأخبار مكذوبة من أصلها فإن تأويلها: أن بعض المشركين وجدوا ذكر اللات والعزى فرصة للدخل لاختلاق كلمات في مدحهن، وهي هذه الكلمات وروجوها بين الناس تأنيسا لأوليائهم من المشركين وإلقاء للريب في قلوب ضعفاء الإيماء.

وفي شرح الطيبي على الكشاف نقلا عن بعض المؤرخين: أن كلمات الغرانيق.. أي هذه الجمل من مفتريات ابن الزبعرى. ويؤيد هذا ما رواه الطبري عن الضحاك: أن النبي صلى الله عليه وسلم أنزل عليه قصة آلهة العرب أي قوله تعالى)أفرأيتم اللات والعزى(الخ فجعل يتلو: اللات والعزى أي الآية المشتملة على هذا فسمع أهل مكة نبي الله يذكر آلهتهم ففرحوا ودونوا يستمعون فألقى الشيطان: تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجي فإن قوله)دنوا يستمعون فألقى الشيطان(الخ يؤذن بأنهم لم يسمعوا أول السورة ولا آخرها وأن شيطانهم ألقى تلك الكلمات. ولعل ابن الزبعرى كانت له مقدرة على محاكاة الأصوات وهذه مقدرة توجد في بعض الناس. وكنت أعرف فتى من أترابنا ما يحاكي صوت أحد إلا ظنه السامع أنه صوت المحاكى.

وأما تركيب تلك القصة على الخبر الذي ثبت فيه أن المشركين سجدوا في آخر سورة النجم لما سجد المسلمون، وذلك مروي في الصحيح، فلذلك من تخليط المؤلفين.

وكذلك تركيب تلك القصة على آية سورة الحج. وكم بين نزول سورة النجم التي هي من أوائل السور النازلة بمكة وبين نزول سورة الحج التي بعضها من أول ما نزل بالمدينة وبعضها من آخر ما نزل بمكة.

وكذلك ربط تلك القصة بقصة رجوع من رجع من مهاجرة الحبشة. وكم بين مدة نزول سورة النجم وبين سنة رجوع من رجع من مهاجرة الحبشة.

فالوجه: أن هذه الشائعة التي أشيعت بين المشركين في أول الإسلام. إنما هي من اختلافات المستهزئين من سفهاء الأحلام بمكة مثل ابن الزبعرى، وأنهم عمدوا إلى آية ذكرت فيها اللات والعزى ومناة فركبوا عليها كلمات أخرى لإلقاء الفتنة في الناس وإنما خصوا سورة النجم بهذه المرجفة لأنهم حضروا قراءتها في المسجد الحرام وتعلقت بأذهانهم وتطلبا لإيجاد المعذرة لهم بين قومهم على سجودهم فيها الذي جعله الله معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم. وقد سرى هذا التعسف إلى إثبات معنى في اللغة، فزعموا أن)تمنى(بمعنى: قرأ، والأمنية: القراءة، وهو ادعاء لا يوثق به ولا يوجد له شاهد صريح في كلام العرب. وأنشدوا بيتا لحسان بن ثابت في رثاء عثمان رضي الله عنه :

تمنى كتاب الله أول ليلـه وآخره
لاقي حمام المقادر وهو محتمل أن معناه تمنى أن يقرأ القرآن في أول الليل على عادته فلم يتمكن من ذلك بتشغيب أهل الحصار عليه وقتلوه آخر الليل. ولهذا جعله تمنيا لأنه أحب ذلك فلم يستطع. وربما أنشدوه برواية أخرى فظن أنه شاهد آخر. وربما توهموا الرواية الثانية بيتا آخر. ولم يذكر الزمخشري هذا المعنى في الأساس. وقد قدمنا ذلك عند قوله تعالى)ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني(في سورة البقرة.
وجملة)وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم(معترضة. والواو للاعتراض. والذين أوتوا العلم هم المؤمنون. وقد جمع لهم الوصفان كما في قوله تعالى)وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث(في سورة سبأ)ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق(. فإظهار لفظ)الذين آمنوا(في مقام ضمير)الذين أوتوا العلم(لقصد مدحهم بوصف الإيمان، والإيماء إلى أن إيمانهم هو سبب هديهم. وعكسه قوله تعالى)إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار(. فالمراد بالهدى في كلتا الآيتين عناية الله بتيسيره وإلا فإن الله هدى الفريقين بالدعوة والإرشاد فمنهم من اهتدى ومنهم من كفر.
وكتب في المصحف)لهاد(بدون ياء بعد الدال واعتبار بحالة الوصل على خلاف الغالب. وفي الوقف يثبت يعقوب الياء بخلاف البقية.
)ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم[55](

صفحة : 2798

لما حكى عن الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم أن ما يلقيه لهم الشيطان من إبطال ما جاءت به الرسل يكون عليهم فتنة، خص في هذه الآية الكافرين بالقرآن بعد أن عمهم مع جملة الكافرين بالرسل، فخصهم بأنهم يستمر شكهم فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ويترددون في الإقدام على الإسلام إلى أن يحال بينهم وبينه بحلول الساعة بغتة أو بحلول عذاب بهم قبل الساعة، فالذين كفروا هنا هم مشركو العرب بقرينة المضارع في فعل)لا يزال(وفعل)حتى تأتيهم(الدالين على استمرار ذلك في المستقبل.
ولأجل ذلك قال جمع من المفسرين: إن ضمير)في مرية منه(عائد إلى القرآن المفهوم من المقام. والأظهر أنه عائد إلى ما عاد عليه ضمير)أنه الحق من ربك فيؤمنوا به(.

و)الساعة(علم بالغلبة على يوم القيامة في اصطلاح القرآن، واليوم: يوم الحرب. وقد شاع إطلاق اسم اليوم على وقت الحرب. ومنه دعيت حروب العرب المشهورة)أيام العرب(.

والعقيم: المرأة التي لا تلد؛ استعير العقيم للمسؤوم لأنهم يعدون المرأة التي لا تلد مشؤومة.

فالمعنى: يأتيهم يوم يستأصلون فيه قتلا. وهذا إنذار بيوم بدر.

)الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم[56] والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين[57] والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين[58] ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم[59](آذنت الغاية التي في قوله)حتى تأتيهم الساعة بغتة(أن ذلك وقت زوال مرية الذي كفروا، فكان ذلك منشأ سؤال سائل عن صورة زوال المرية, وعن ماذا يلقونه عند زوالها، فكان المقام أن يجاب السؤال بجملة)الملك يومئذ لله يحكم بينهم(إلى آخر ما فيها من التفصيل، فهي استئناف بياني.

فقوله)يومئذ(تقدير مضافة الذي عوض عنه التنوين: يوم إذ تزول مريتهم بحلول الساعة وظهور أن ما وعدهم الله هو الحق، أو يوم إذ تأتيهم الساعة بغتة.

وجملة)يحكم بينهم(اشتمال من جملة)الملك يومئذ لله(.

والحكم بينهم: الحكم فيما اختلفوا فيه من أدعاء كل فريق أنه على الحق وأن ضده على الباطل، الدال عليه قوله)وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك(وقوله)ولا يزال الذين كفروا في مرية منه(فقد يكون الحكم بالقول، وقد يكون بظهور آثار الحق لفريق وظهور آثار الباطل لفريق. وقد فصل الحكم بقوله)فالذين آمنوا وعملوا الصالحات(الخ، وهو تفصيل لأثر الحكم يدل على تفصيل أصله، أي ذلك حكم الله بينهم في ذلك اليوم.

وأريد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات عمومه. وخص بالذكر منهم الذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا تنويها بشأن الهجرة، ولأجلها استوى أصحابها في درجات الآخرة سواء منهم من قتل في سبيل الله أو مات في غير قتال بعد أن هاجر من دار الكفر.

والتعريف في)الملك(تعريف الجنس. فذلت جملة)الملك يومئذ لله(على أن ماهية الملك مقصورة يومئذ على الكون ملكا لله. كما تقدم في قوله تعالى)الحمد لله(، أي لا ملك لغيره يومئذ.

والمقصود بالكلام هو جملة)يحكم بينهم(إذ هم البدل. وإنما قدمت جملة)الملك يومئذ لله(تمهيدا لها وليقع البيان بالبدل بعد الإبهام الذي في المبدل منه.

وافتتح الخبر عن الذين كفروا باسم الإشارة في قوله)فأولئك لهم عذاب مهين(للتنبيه على أنهم استحقوا العذاب المهين لأجل ما تقدم من صفتهم بالفكر والتكذيب بالآيات.
والمهين: المذل، أي لهم عذاب مشتمل على ما فيه مذلتهم كالضرب بالمقامع ونحوه.
وقرن)فأولئك لهم عذاب مهين(بالفاء لما تضمنه التقسيم من معنى حرف التفصيل وهو)أما(، كأنه قيل: وأما الذين كفروا، لأنه لما تقدم ثواب الذين آمنوا كان المقام مثيرا لسؤال من يترقب مقابلة ثواب المؤمنين بعقاب الكافرين وتلك المقابلة من مواقع حرف التفصيل.
والرزق: العطاء، وهو كل ما يتفضل به من أعيان ومنافع. ووصفه بالحسن لإفادة أنه يرضيهم بحيث لا يتطلبون غيره لأنه لا أحسن منه.

صفحة : 2799

وجملة)ليدخلنهم مدخلا يرضونه(بدل من جملة)ليرزقنهم الله رزقا حسنا(، وهي بدل اشتمال، لأن كرامة المنزل من جملة الإحسان في العطاء بل هي أبهج لدى أهل الهمم، ولذلك وصف المدخل ب)يرضونه(.
ووقعت جملة)وإن الله لهو خير الرازقين(معترضة بين البدل والمبدل منه. وصريحها الثناء على الله، وكنايتها التعريض بأن الرزق الذي يرزقهم الله هو خير الأرزاق لصدوره من خير الرازقين.
وأكدت الجملة بحرف التوكيد ولامه وضمير الفصل تصويرا لعظمة رزق الله تعالى. وجملة)وإن الله لعليم حليم(تذييل، أي عليم بما تجشموه من المشاق في شان هجرتهم من ديارهم وأهلهم وأموالهم، وهو حليم بهم فيما لاقوه فهو يجازيهم بما لقوه من أجله. وهذه الآية تبين مزية المهاجرين في الإسلام.
وقرأ نافع)مدخلا(بفتح الميم على أنهه اسم مكان من دخل المجرد لأن الإدخال يقتضي الدخول. وقرأ الباقون بضم الميم جريا على فعل)ليدخلنهم(المزيد وهو أيضا اسم مكان للإدخال.
)ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور[60](اسم الإشارة للفصل بين الكلامين لفتا لأذهان السامعين إلى ما سيجيء من الكلام لأن ما بعده غير صالح لأن يكون خبرا عن اسم الإشارة. وقد تقدم نظيره عند قوله)ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه(.

وجملة)ومن عاقب(الخ، معطوفة على جملة)والذين هاجروا في سبيل الله(الآية.
والغرض منها التهيئة للجهاد والوعد بالنصر الذي أشير إليه سابقا بقوله تعالى)أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير(إلى قوله)ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز(، فأنه قد جاء معترضا في خلال النعي على تكذيب المكذبين وكفر هو النعم، فأكمل الغرض الأول بما فيه من انتقالات، ثم عطف الكلام إلى الغرض الذي جرت منه لمحة فعاد الكلام هنا إلى الوعد بنصر الله القوم المعتدي عليهم كما وعدهم بأن يدخلهم في الآخرة مدخلا يرضونه.
وجيء بإشارة الفصل للتنبيه على أهمية ما بعده.
وما صدق)من(الموصولة العموم لقوله فيما سلف)أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا(، فنبه على أن القتال المأذون فيه هو قتال جزاء على اعتداء سابق كما دل عليه أيضا قوله)بأنهم ظلموا(وتغيير أسلوب الجمع الذي في قوله)أذن للذين يقاتلون(إلى أسلوب الإفراد في قوله)ومن عاقب(للإشارة إلى إرادة العموم مكن هذا الكلام ليكون بمنزلة القاعدة الكلية لسنة من سنن الله تعالى في الأمم.
ولما أتى في الصلة هنا بفعل)عاقب(مع قصد شمول عموم الصلة للذين أذن لهم بأنهم ظلموا علم السامع أن القتال المأذون لهم به قتال جزاء على ظلم سابق.
وفي ذلك تحديد لقانون العقاب أن يكون مماثلا للعدوان المجزي عليه، اي أن لا يكون أشد منه.
وسمي اعتداء المشركين على المؤمنين عقابا في قوله تعالى) بمثل ما عوقب به(لأن الذي دفع المعتدين إلى الاعتداء قصد العقاب على خروجهم عن دين الشرك ونبذ عبادة أصنامهم. ويعلم أن ذلك العقاب ظلم بقوله فيما مضى)الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله(.
ومعنى)بمثل ما عوقب به(المماثلة في الجنس فإن المشركين آذوا المسلمين وأرغموهم على مغادرة موطنهم فيكون عقابهم على ذلك بإخراج من يمكنهم أن يخرجوه من ذلك الوطن، ولا يستطيعون ذلك إلا بالجهاد لأن المشركين كانوا أهل كثرة وكانوا مستعصمين ببلدهم فإلجاء من يمكن إلجاؤه إلى مفارقة وطنه، إما بالقتال فهو إخراج كامل، أو بالأسر: و)ثم(من قوله)ثم بغي عليه(عطف على جملة)ومن عاقب بمثل ما عوقب به(، ف)ثم(للتراخي الرتبي فإن البغي عليه أهم من كونه عاقب بمثل ما عوقب به إذ كان مبدوءا بالظلم كما يقال البادئ أظلم . فكان المشركون محقوقين بأن

يعاقبوا لنهم بغوا على المسلمين. ومعنى الآية في معنى قوله)ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة.

صفحة : 2800

وكان هذا شرعا لأصول الدفاع عن البيضة، وأما آيات الترغيب في العفو فليس هذا مقام تنزيلها وإنما هي في شرع معاملات الأمة بعضها مع بعض، وقد أكد لهم الله نصره إن هم امتثلوا لما أذنوا به وعاقبوا بمثل ما عوقبوا به. وللمفسرين في تقرير هذه الآية تكلفات تنبئ عن حيرة في تلئيم معانيها: وجملة)أن الله لعفو غفور(تعليل للاقتصار على الإذن في العقاب بالمماثلة في قوله) ومن عاقب بمثل ما عوقب به(دون الزيادة في الانتقام مع أن البادئ أظلم بأن عفو الله ومغفرته لخلقه قضيا بحكمته أن لا يأذن إلا بمماثلة العقاب للذنب لأن ذلك هو أوفق بالحق. ومما يؤثر عن كسرى أنه قيل له: بم دام ملككم؟ فقال: لأننا نعاقب على قدر الذنب لا على قدر الغضب، فليس ذكر وصفي)عفو غفور(إيماء إلى الترغيب في العفو عن المشركين.

ويجوز أن يكون تعليلا للوعد بجزاء المهاجرين اتباعا للتعليل في قوله)وإن الله لعليم حليم(لأن الكلام مستمر في شأنهم.

)ذلك بأن الله يولج الليل فشي النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير[61](ليس اسم الإشارة مستعملا في الفصل بين الكلامين مثل شبيهه الذي قبله، بل الإشارة هنا إلى الكلام السابق الدال على تكفل النصر، فإن النصر يقتضي تغليب أحد الضدين على ضده وإقحام الجيش في الجيش الآخر في الملحمة، فضرب له مثلا بتغليب مدة النهار على مدة الليل في بعض السنة، وتغليب مدة الليل على مدة النهار في بعضها، لما تقرر من اشتهار التضاد بين الليل والنهار، أي الظلمة والنور. وقريب منها استعارة التلبيس للإقحام في الحرب في قول المرار السلمي:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا

التبست نفضت لها يدي فخبر اسم الإشارة هنا هو قوله)بأن الله يولج الليل(الخ.

ويجوز أن يكون اسم الإشارة تكريرا لشبيهه السابق لقصر توكيده لأنه متصل به لأن جملة)بأن الله يولج الليل في النهار(الخ، مرتبطة بجملة)ومن عاقب بمثل ما عوقب به(الخ. ولذلك يصح

جعل)بأن الله يولج الليل في النهار(الخ متعلقا بقوله)لينصرنه الله(.

والإيلاج: الإدخال. مثل به اختفاء ظلام الليل عند ظهور نور النهار وعكسه تشبيها لذلك التصيير بإدخال جسم في جسم آخر، فإيلاج الليل في النهار: غشيان ضوء النهار على ظلمة الليل. وإيلاج النهار في الليل: غشيان ظلمة الليل على ما كان من ضوء النهار. فالمولج هو المختفي. فإيلاج الليل انقضاؤه. واستعارة الإيلاج لذلك استعارة بديعة لأن تقلص ظلمة الليل يحصل تدريجا. وكذلك تقلص ضوء النهار يحصل تدريجا، فأشبه ذلك إيلاج شيء في شيء إذ يبدو داخلا فيه شيئا فشيئا.

والباء للسببية. أي لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على الكافرين مع قلة المسلمين، فإن القادر على تغليب النهار على الليل حينا بعد أن كان أمرهما على العكس حينا آخر قادر على تغليب الضعيف على القوي، فصار حاصل المعنى: ذلك بأن الله قادر على نصرهم.

والجمع بين ذكر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل للإيماء إلى تقلب أحوال الزمان فقد يصير المغلوب غالبا ويصير ذلك الغالب مغلوبا. مع ما فيه من التنبيه على تمام القدرة بحيث تتعلق بالأفعال المتضادة ولا تلزم طريقة واحدة كقدرة الصناع من البشر. وفيه إدماج التنبيه بأن العذاب الذي استبطأه المشركون منوط بحلول أجله، وما الأجل إلا إيلاج ليل في نهار ونهار في ليل.

وفي ذكر الليل والنهار في هذا المقام إدماج تشبيه الكفر بالليل والإسلام بالنهار لأن الكفر ضلالة اعتقاد، فصاحبه مثل الذي يمشي في ظلمة، ولأن الإيمان نور يتجلى به الحق والاعتقاد الصحيح، فصاحبه كالذي يمشي النهار. ففي هذا إيماء إلى أن الإيلاج المقصود هو ظهور النهار بعد ظلمة الليل. أي ظهور الدين الحق بعد ظلمة الإشراك. ولذلك ابتدئ في الآية بإيلاج الليل في النهار، أي دخول ظلمة الليل تحت ضوء النهار.

وقوله)ويولج النهار في الليل(تتميم لإظهار صلاحية القدرة الإلهية. وتقدم في سورة آل عمران)تولج الليل في النهار(.

صفحة : 2801

وعطف)وأن الله سميع بصير(على السبب للإشارة إلى علم الله بالأحوال كلها فهو ينصر من ينصره بعلمه وحكمته ويعد بالنصر من علم أنه ناصره لا محالة، فلا يصدر منه شيء إلا عن حكمة.

)ذلك بأن الله هو الحق وأن ما تدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير[62](اسم الإشارة هنا تكرير لاسم الإشارة الذي سبقه ولذلك لم يعطف. ثم أخبر عنه بسبب آخر لنصر المؤمنين على المشركين بأن الله هو الرب الحق الذي إذا أراد فعل وقدر فهو ينصر أولياءه وأن ما يدعوه المشركون من دون الله هو الباطل فلا يستطيعون نصرهم ولا أنفسهم ينصرون. وهذا على حمل الباء في قوله)بأن الله هو الحق(على معنى السببية، وهو محمل المفسرين. وسيأتي في سورة لقمان في نظيرها: أن الأظهر حمل الباء على الملابسة ليلتئم عطف)وأن ما تدعون من دونه هو الباطل(.

والحق: المطابق للواقع، أي الصدق، مأخوذ من حق الشيء إذا ثبت. والمعنى: أنه الحق في الإلهية. فالقصر في هذه الجملة المستفاد من ضمير الفصل قصر حقيقي.

وأما القصر في قوله)وأن ما تدعون من دونه هو الباطل(المستفاد من ضمير الفصل فهو قصر ادعائي لعدم الاعتداد بباطل غيرها حتى كأنه ليس من الباطل. وهذا مبالغة في تحقير أصنامهم لأن المقام مقام مناضلة وتوعد، وإلا فكثير من أصنام وأوثان غير العرب باطل أيضا.

وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر) تدعون(بالتاء الفوقية على الالتفات إلى خطاب المشركين لأن الكلام السابق الذي جرت عليهم فيه ضمائر الغيبة مقصود منه إسماعهم والتعريض باقتراب الانتصار عليهم. وقرأ البقية بالتحتية على طريقة الكلام السابق.

وعلو الله: مستعار للجلال والكمال التام.

والكبر: مستعار لتمام القدرة، أي هو العلي الكبير دون الأصنام التي تعبدونها إذ ليس لها كمال ولا قدرة ببرهان المشاهدة.

)ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير[63](انتقال إلى التذكير بنعم الله تعالى على الناس بمناسبة ما جرى من قوله)ذلك بأن الله يولج الليل في النهار(الآية. والمقصود: التعريض بشكر الله على نعمه وأن لا يعبدوا غيره كما دل عليه التذييل عقب تعداد هذه النعم بقوله)إن الإنسان لكفور(، أي الإنسان المشرك. وفي ذلك كله إدماج الاستدلال على انفراده بالخلق والتدبير فهو الرب الحق المستحق للعبادة. والمناسبة هي ما جرى من أن لله هو الحق وأن ما يدعونه الباطل، فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

والخطاب لكل من تصلح منه الرؤية لأن المرئي مشهور.

والاستفهام: إنكاري، نزلت غفلة كثير من الناس عن الاعتبار بهذه النعمة والاعتداد بها منزلة عدم العلم بها. فأنكر ذلك لعدم على الناس الذين أهملوا الشكر والاعتبار.
وإنما حكي الفعل المستفهم عنه الإنكاري مقترنا بحرف)لم(الذي يخلصه إلى المضي، وحكي متعلقة بصيغة الماضي في قوله)أنزل من السماء ماء(وهو الإنزال بصيغة الماضي كذلك ولم يراع فيهما معنى تجدد ذلك لأن موقع إنكار عدم العلم بذلك هو كونه أمرا متقررا ماضيا لا يدعى جهله.
و)تصبح(بمعنى تصير فإن خمسا من أخوات)كان(تستعمل بمعنى: صار.
واختير في التعبير عن النبات الذي هو مقتضى الشكر لما فيه من إقامة أقوات الناس والبهائم بذكر لونه الأخضر لأن ذلك اللون ممتع للأبصار فهو أيضا موجب شكر على ما خلق الله من جمال المصنوعات في المرأى كما قال تعالى)ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون(.
وإنما عبر عن مصير الأرض خضراء بصيغة)تصبح مخضرة(مع أن ذلك مفرع على فعل)أنزل من السماء ماء(الذي هو بصيغة الماضي لأنه قصد من المضارع استحضار تلك الصورة العجيبة الحسنة، ولإفادة بقاء أثر إنزال المطر زمانا بعد زمان كما تقول: أنعم فلان علي فأروح وأغدو شاكرا له.

صفحة : 2802

وفعل)تصبح(مفرع على فعل)أنزل(فهو مثبت في المعنى. وليس مفرعا على النفي ولا على الإستفهام، فلذلك لم ينصب بعد الفاء لأنه لم يقصد بالفاء جواب للنفي إذ ليس المعنى: ألم تر فتصبح الأرض. قال سيبويه وسألته يعني الخليل عن)ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة(فقال: هذا واجب أي الرفع واجب وهو تنبيه كأنك قلت: أتسمع: أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا اه.
قال في الكشاف:)لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض لأن معناه)أي الكلام(إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار. مثاله أن تقول لصاحبك: ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر، إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك تفريطه فيه، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر. وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب(اه.

والمخضرة: التي صار لونها الخضرة. يقال: اخضر الشيء، كما يقال: اصفر الثمر واحمر، واسود الأفق. وصيغة افعل مما يصاغ للاتصاف بالألوان.

وجملة)إن الله لطيف خبير(في موقع التعليل للإنزال، أي أنزل الماء المتفرع عليه الاخضرار لأنه لطيف، أي رفيق بمخلوقاته، ولأنه عليم بترتيب المسببات على أسبابها.

)له ما في السماوات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد[64](الجملة خبر ثان عن اسم الجلالة في قوله)إن الله لطيف خبير(للتنبيه على اختصاصه بالخالقية والملك الحق ليعلم من ذلك أنه المختص بالمعبودية فيرد زعم المشركين أن الأصنام له شركاء في الإلهية وصرف عبادتهم إلى أصنامهم. والمناسبة هي ذكر إنزال المطر وإنبات العشب فما ذلك إلا بعض ما في السماوات وما في الأرض.

وإنما لم تعطف الجملة على التي قبلها مع اتحادهما في الغرض لأن هذه تتنزل من الأولى منزلة التذييل بالعموم الشامل لما تضمنته الجملة التي قبلها، ولأن هذه لا تتضمن تذكيرا بنعمة.

وجملة)وإن الله لهو الفني الحميد(عطف على جملة)له ما في السماوات وما في الأرض(. وتقديم المجرور للدلالة على القصر. أي له ذلك لا لغيره من أصنامكم، إن جعلت القصر إضافيا، أو لعدم الاعتداد بغنى غيره ومحموديته إن جعلت القصر ادعائيا.

ونبه بوصف الغني على أنه غير مفتقر إلى غيره، وهو معنى الغنى في صفاته تعالى أنه عدم الافتقار بذاته وصفاته لا إلى محل ولا إلى مخصص بالوجود دون العدم والعكس تنبيها على أن افتقار الأصنام إلى من يصنعها ومن ينقلها من مكان إلى آخر ومن ينفض عنها القتام والقذر دليل على انتفاء الإلهية عنها.

وأما وصف)الحميد(بمعنى المحمود كثيرا، فذكره لمزاوجة وصف الغنى لأن الغني مفيض على الناس فهم يحمدونه.

وفي ضمير الفصل إفادة أنه المختص بوصف الغنى دون الأصنام وبأنه المختص بالمحمودية فإن العرب لم يكونوا يوجهون الحمد لغير الله تعالى. وأكد الحصر بحرف التوكيد وبلام الابتداء تحقيقا لنسبة القصر إلى المقصور كقول عمرو بن معد يكرب)إني أنا الموت(. وهذا التأكيد لتنزيل تحققهم اختصاصه بالغنى أو المحمودية منزلة الشك أو الإنكار لأنهم لم يجروا على موجب علمهم حين عبدوا غيره وإنما يعبد من وصفه الغنى.

)ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤف رحيم[65](هذا من نسق التذكير بنعم الله واقع موقع قوله)

ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة(، فهو من عداد الامتنان والاستدلال، فكان كالتكرير لغرض، ولذلك فصلت الجملة ولم تعطف. وهذا تذكير بنعمة تسخير الحيوان وغيره. وفيه إدماج الاستدلال على انفراده بالتسخير. والتقدير: فهو الرب الحق.
وجملة)ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض(مستأنفة كجملة) ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء(.
والخطاب هنا والاستفهام كلاهما كما في الآية السابقة.

صفحة : 2803

والتسخير: تسهيل الانتفاع بدون مانع وهو يؤذن بصعوبة الانتفاع لولا ذلك التسخير. وأصله تسهيل الانتفاع بما فيه إرادة التمنع مثل تسخير الخادم وتسهيل استخدام الحيوان الداجن من الخيل، والإبل. والبقر، والغنم ونحوها، بان جعل الله فيها طبع الخوف من الإنسان مع تهيئتها للإلف بالإنسان. ثم أطلق على تسهيل الانتفاع بما في طبعه أو في حاله ما يعذر الانتفاع به لولا ما ألهم الله إليه الإنسان من وسائل التغلب عليها بتعرف نواميسه وأحواله وحركاته وأوقات ظهوره، وبالاحتيال على تملكه مثل صيد الوحش ومغاصات اللؤلؤ والمرجان، ومثل آلات الحفر والنقر للمعادن، ومثل التشكيل في صنع الفلك والعجل. ومثل التركيب والتصهير في صنع البواخر والمزجيات والصياغة. ومثل الإرشاد إلى ضبط أحوال المخلوقات العظيمة من الشمس والقمر والكواكب والأنهار والأودية والأنواء والليل والنهار، باعتبار كون تلك الأحوال تظهر على وجه الأرض، وما لا يحصى مما ينتفع به الإنسان مما على الأرض فكل ذلك داخل في معنى التسخير.
وقد تقدم القول في التسخير آنفا في هذه السورة. وتقدم في سورة الأعراف وسورة إبراهيم وغيرهما. وفي كلامنا هنا زيادة إيضاح لمعنى التسخير.
وجملة)تجري في البحر بأمره(في موضع الحال من)الفلك(. وإنما خص هذا بالذكر لأن ذلك الجري في البحر هو مظهر التسخير إذ لولا الإلهام إلى صنعها على الصفة المعلومة لكان حظها من البحر الغرق.
وقوله)بأمره(هو أمر التكوين إذ جعل البحر صالحا لحملها، وأوحى إلى نوح عليه السلام معرفة صنعها، ثم تتابع إلهام الصناع لزيادة إتقانها.

والإمساك: السد، وهو ضد الإلقاء. وقد ضمن معنى المنع هنا وفي قوله تعالى)إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا(فيقدر حرف جر لتعدية فعل الإمساك بعد هذا التضمين فيقدر) عن(أو)من(.

ومناسبة عطف إمساك السماوات على تسخير ما في الأرض وتسخير الفلك أن إمساك السماء عن أن تقع على الأرض ضرب من التسخير لما في عظمة المخلوقات السماوية من مقتضيات تغلبها على المخلوقات الأرضية وحطمها إياها لولا ما قدر الله تعالى لكل نوع منها من سنن ونظم تمنع من تسلط بعضها على بعض، كما أشار إليه قوله تعالى)لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون(. فكما سخر الله للناس ما ظهر على وجه الأرض من موجودات مع ما في طبع كثير منها من مقتضيات إتلاف الإنسان، وكما سخر لهم الأحوال التي تبدو للناس من مظاهر الأفق مع كثرتها وسعتها وتباعدها، ومع ما في تلك الأحوال من مقتضيات تعذر الضبط، كذلك سخر لمصلحة الناس ما في السماوات من الموجودات بالإمساك المنظم المنوط بما قدره الله كما أشار إليه قوله)إلا بإذنه(، أي تقديره.

ولفظ)السماء(في قوله)ويمسك السماء(يجوز أن يكون بمعنى ما قابل الأرض في اصطلاح الناس فيكون كلا شاملا للعوالم العلوية كلها التي لا نحيط بها علما كالكواكب السيارة وما الله أعلم به وما يكشفه للناس في متعاقب الأزمان.

ويكون وقوعها على الأرض بمعنى الخرور والسقوط فيكون المعنى أن الله بتدبير علمه وقدرته جعل للسماء نظاما يمنعها من الخرور على الأرض، فيكون قوله)ويمسك السماء(امتنانا على الناس بالسلامة مما يفسد حياتهم، ويكون قوله)إلا بإذنه(احتراسا جمعا بين الامتنان والتخويف، ويكون الناس شاكرين مستزيدين من النعم خائفين من غضب ربهم أن يأذن لبعض السماء بالوقوع على الأرض. وقد أشكل الاستثناء بقوله)إلا بإذنه(فقيل في دفع الإشكال: إن معناه إلا يوم القيامة بأذن الله لها في الوقوع على الأرض. ولكن لم يرد في الآثار أنه يقع سقوط السماء وإنما ورد تشقق السماء وانفطارها. وفيما جعلنا ذلك احتراسا دفع للإشكال لأن الاحتراس أمر فرضي فلا يقتضي الاستثناء وقوع المستثنى.

ويجوز أن يكون لفظ)السماء(بمعنى المطر، كقول معاوية بن مالك:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وقول زيد بن خالد الجهني في حديث الموطأ: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فيكون معنى الآية:أن الله بتقديره جعل لنزول المطر على الأرض مقادير قدر أسبابها، وأنه لو استمر نزول المطر على الأرض لتضرر الناس فكان في إمساك نزوله باطراد منه على الناس، وكان تقدير نزوله عند تكوين الله إياه منة أيضا. فيكون هذا مشتملا على ذكر نعمتين: نعمة الغيث، ونعمة السلامة من طغيان المياه.

ويجوز أن يكون لفظ السماء قد أطلق على جميع الموجودات العلوية التي يشملها لفظ)السماء(الذي هو ما علا الأرض فأطلق على ما يحويه، كما أطلق لفظ الأرض على سكانها في قوله تعالى)أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها(. فالله يمسك ما في السماوات من الشهب ومن كريات الأثير والزمهرير عن اختراق كرة الهواء. ويمسك ما فيها من القوى كالمطر والبرد والثلج والصواعق من الوقوع على الأرض والتحك بها إلا بإذن الله فيما اعتاد الناس إذنه به من وقوع المطر والثلج والصواعق والشهب وما لم يعتادوه من تساقط الكواكب. فيكون موقع)ويمسك السماء(بعد قوله تعالى)والفلك تجري في البحر بأمره(كموقع قوله تعالى)الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه(في سورة الجاثية.

ويكون في قوله)إلا بإذنه(إدماجا بين الامتنان والتخويف: فإن من الإذن بالوقوع على الأرض ما هو مرغوب للناس، ومنه ما هو مكروه. وهذا المحمل الثالث أجمع لما في المحملين الآخرين وأوجز، فهو لذلك أنسب بالإعجاز.

والاستثناء في قوله)إلا بإذنه(استثناء من عموم متعلقات فعل) يمسك(وملابسات مفعوله وهو كلمة)السماء(على اختلاف محامله، أي يمنع ما في السماء من الوقوع على الأرض في جميع أحواله إلا وقوعا ملابسا لإذن من الله. هذا ما ظهر لي في معنى الآية.

وقال ابن عطية: يحتمل أن يعود قوله)إلا بإذنه(على الإمساك لأن الكلام يقتضي بغير عمد أي يدل بدلالة الاقتضاء على تقدير هذا المتعلق أخذا من قوله تعالى)بغير عمد ترونها(ونحوه فكأنه أراد: إلا بإذنه فيمسكها اه. يريد أن حرف الاستثناء قرينة على المحذوف.

والإذن. حقيقته: قول يطلب به فعل شيء. واستعير هنا للمشيئة والتكوين، وهما متعلق الإرادة والقدرة.

وقد استوعبت الآية العوالم الثلاثة: البر، والبحر، والجو.

وموقع جملة)إن الله بالناس لرؤوف رحيم(موقع التعليل للتسخير والإمساك باعتبار الاستثناء لأن في جميع ذلك رأفة بالناس بتيسير منافعهم الذي في ضمنه دفع الضر عنهم.

والرؤوف: صيغة مبالغة من الرأفة أو صفة مشبهة. وهي صفة تقتضي صرف الضر.

والرحيم: وصف من الرحمة. وهي صفة تقتضي النفع لمحتاجه. وقد تتعاقب الصفتان، والجمع بينهما يفيد ما تختص به كل صفة منهما ويؤكد ما تجتمعان عليه.

)وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم(بعد أن أدمج الاستدلال على البعث بالمواعظ والمنن والتذكير بالنعم أعيد الكلام على البعث هنا بمنزلة نتيجة القياس، فذكر الملحدون بالحياة الأولى التي لا ريب فيها، وبالإماتة التي لا يرتابون فيها، وبان بعد الإماتة إحياء آخر كما أخذ من الدلائل السابقة. وهذا محل الاستدلال، فجملة)وهو الذي أحياكم(عطف على جملة)ويمسك السماء(لأن صدر هذه من جملة النعم فناسب أن تعطف على سابقتها المتضمنة امتنانا واستدلالا كذلك.

)إن الإنسان لكفور[66](تذييل يجمع المقصد من تعداد نعم المنعم بجلائل النعم المقتضية انفراده باستحقاق الشكر واعتراف الخلق له بوحدانية الربوبية.

وتوكيد الخبر بحرف)إن(لتنويلهم منزلة المنكر أنهم كفراء.

والتعريف في)الإنسان(تعريف الاستغراق العرفي المؤذن بأكثر أفراد الجنس من باب قولهم: جمع الأمير الصاغة، أي صاغة بلده، وقوله تعالى)فجمع السحرة لميقات يوم معلوم(. وقد كان أكثر العرب يومئذ منكرين للبعث، أو أريد بالإنسان خصوص المشرك كقوله تعالى)ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا(.

والكفور: مبالغة في الكافر، لأن كفرهم كان عن تعنت ومكابرة.

ويجوز كون الكفور مأخوذا من كفر النعمة وتكون المبالغة باعتبار آثار الغفلة عن الشكر، وحينئذ يكون الاستغراق حقيقيا.

)لكل امة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم[67](هذا متصل في المعنى بقوله)ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم(الآية. وقد فصل بين الكلامين ما اقتضى الحال استطراده من قوله)وبشر المحسنين إن الله يدافع عن الذين آمنوا(إلى هنا، فعاد الكلام إلى

الغرض الذي في قوله)ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله(الآية ليبنى عليه قوله)فلا ينازعنك في الأمر(. فهذا استدلال على توحيد الله تعالى بما سبق من الشرائع لقصد إبطال تعدد الآلهة، بان الله ما جعل لأهل كل ملة سبقت إلا منسكا واحدا يتقربون فيه إلى الله لأن المتقرب إليه واحد. وقد جعل المشركون مناسك كثيرة فلكل صنم بيت يذبح فيه مثل الغبغب للعزى، قال النابغة:

وما هريق على الأنصاب من جسد أي دم . وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى)ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا(كما تقدم آنفا.

فالجملة استئناف. والمناسبة ظاهرة ولذلك فصلت الجملة ولم تعطف كما عطفت نظيرتها المتقدمة.

والمنسك بفتح الميم وفتح السين : اسم مكان النسك بصمهما كما تقدم. وأصل النسك العبادة ويطلق على القربان، فالمراد بالمنسك هنا مواضع الحج بخلاف المراد به في الآية السابقة فهو موضع القربان. والضمير في)ناسكوه(منصوب على نزع الخافض، أي ناسكون فيه.

وفي الموطأ: أن قريشا كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة بقزح، وكانت العرب وغيرهم يقفون بعرفة فكانوا يتجادلون بقول هؤلاء: نحن أصوب، ويقول هؤلاء: نحن أصوب، فقال الله تعالى)لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه(الآية، فهذا الجدال فيما نرى والله أعلم وقد سمعت ذلك من أهل العلم اه.

قال الباجي في المنتقى: وهو قول ربيعة . وهذا يقتضي أن أصحاب هذا التفسير يرون الآية قد نزلت بعد فرض الحج في الإسلام وقبل أن يمنع المشركون منه، أي نزلت في سنة تسع. والأظهر خلافه كما تقدم في أول السورة.

وفرع على هذا الاستدلال أنهم لم تبق لهم حجة ينازعون بها النبي صلى الله عليه وسلم في شأن التوحيد بعد شهادة الملل السابقة كلها، فالنهي ظاهرة موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأن ما أعطيه من الحجج كاف في قطع منازعة معارضيه، فالمعارضون هم المقصود بالنهي، ولكن لما كان سبب نهيهم هو ما عند الرسول صلى الله عليه وسلم من الحجج وجه إليه النهي عن منازعتهم إياه، كأنه قيل: فلا تترك لهم ما ينازعونك به، وهو من باب قول العرب: لا أعرفنك تفعل كذا، أي لا تفعل فاعرفك، فجعل المتكلم النهي موجها إلى نفسه. والمراد نهي السامع عن أسبابه، وهو نهي للغير بطريق الكناية.

وقال الزجاج: هو نهي للرسول عن منازعتهم لأن صيغة المفاعلة تقتضي حصول الفعل من جانبي فاعله ومفعوله. فيصح نهي كل من الجانبين عنه. وإنما أسند الفعل هنا لضمير المشركين مبالغة في نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن منازعته إياهم كإثبات الشيء بدليله. وحاصل معنى هذا الوجه أنه أمر للرسول بالإعراض عن مجادلتهم بعد ما سيق لهم من الحجج.

واسم)الأمر(هنا مجمل مراد به التوحيد بالقرينة، ويحتمل أن المشركين كانوا ينازعون في كونهم على ضلال بأنهم على ملة إبراهيم وأن النبي صلى الله عليه وسلم قرر الحج الذي هو من مناسكهم، فجعلوا ذلك ذريعة إلى ادعاء أنهم على الحق وملة إبراهيم.فكان قوله تعالى)لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه(كشفا لشبهتهم بان الحج منسك حق، وهو رمز التوحيد، وأن ما عداه باطل طارئ عليه فلا ينازعن في أمر الحج بعد هذا، وهذا المحمل هو المناسب لتناسق الضمائر العائدة على المشركين مما تقدم إلى قوله)وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير(، ولأن هذه السورة نزل بعضها بمكة في آخر مقام النبي صلى الله عليه وسلم بها وبالمدينة في أول مقامه بها فلا منازعة بين النبي وبين أهل الكتاب يومئذ، فيبعد تفسير المنازعة بمنازعة أهل الكتاب.

صفحة : 2806

وقوله)وادع إلى ربك(عطف على جملة)فلا ينازعنك في الأمر(. عطف على انتهاء المنازعة في الدين أمر بالدوام على الدعوة وعدم الاكتفاء بظهور الحجة لأن المكابرة تجافي الاقتناع، ولأن في الدوام على الدعوة فوائد للناس أجمعين. وفي حذف مفعول) ادع(إيذان بالتعميم.

وجملة)إنك لعلى هدى مستقيم(تعليل للدوام على الدعوة وأنها قائمة مقام فاء التعليل لا لرد الشك. و)على(مستعارة للتمكن من الهدى.

ووصف الهدى بالمستقيم استعارة مكنية، شبه الهدى بالطريق الموصل إلى المطلوب ورمز إليه بالمستقيم لأن المستقيم أسرع إيصالا، فدين الإسلام أيسر الشرائع في الإيصال إلى الكمال النفساني الذي هو غاية الأديان. وفي هذا الخبر تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم وتجديد لنشاطه في الاضطلاع بأعباء الدعوة.

)وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون[68] الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون[69](عطف على جملة)فلا ينازعنك

في الأمر(. والمعنى: إن تبين عدم اقتناعهم بالأدلة التي تقطع المنازعة وأبوا إلا دوام المجادلة تشغيبا واستهزاء فقل: الله أعلم بما تعملون.

وفي قوله)الله أعلم بما تعلمون(تفويض أمرهم إلى الله تعالى، وهو كناية عن قطع المجادلة معهم، وإدماج بتعريض بالوعيد والإنذار بكلام موجه صالح لما يتظاهرون به من تطلب الحجة. ولما في نفوسهم من إبطال العناد كقوله تعالى)فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون.

والمراد ب)ما يعملون(ما يعملونه من أنواع المعارضة والمجادلة بالباطل لدحضوا به الحق وغير ذلك.

وجملة)الله يحكم بينكم يوم القيامة(كلام مستأنف ليس من المقول. فهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. وليس خطابا للمشركين بقرينة قوله)بينكم(. والمقصود تأييد الرسول والمؤمنين.

وما كانوا فيه يختلفون: هو ما عبر عنه بالأمر في قوله)فلا ينازعنك في الأمر(.

)ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير[70](استئناف لزيادة تحقيق التأييد الذي تضمنه قوله)الله يحكم بينكم يوم القيامة(. أي فهو لا يفوته شيء من أعمالكم فيجازي كلا على حساب عمله. فالكلام كناية عن جزاء كل بما يليق به.

و)ما في السماء والأرض(يشمل ما يعمله المشركون وما كانوا يخالفون فيه.

والاستفهام إنكاري أو تقريري، أي أنك تعلم ذلك. وهذا الكلام كناية عن التسلية أي فلا تضق صدرا مما تلاقيه منهم.

وجملة)إن ذلك في كتاب(بيان للجملة قبلها. أي يعلم ما في السماء والأرض علما مفصلا لا يختلف، لأن شأن الكتاب أن لا تتطرق إليه الزيادة والنقصان.

واسم الإشارة إلى العمل في قوله)الله أعلم بما تعملون(أو إلى)ما(في قوله)ما كنتم فيه تختلفون(.

والكتاب هو ما به حفظ جميع الأعمال: إما على تشبيه تمام الحفظ بالكتابة، وإما على الحقيقة، وهو جائز أن يجعل الله لذلك كتابا لائقا بالمغيبات.

وجملة)إن ذلك على الله يسير(بيان لمضمون الاستفهام من الكتانة عن الجزاء.

واسم الإشارة عائد إلى مضمون الاستفهام من الكناية فتأويله بالمذكور. ولك أن تجعلها بيانا لجملة)يعلم ما في السماء والأرض(واسم الإشارة عائد إلى العلم المأخوذ من فعل)يعلم(، أي

أن علم الله بما في السماء والأرض لله حاصل دون اكتساب، لأن علمه ذاتي لا يحتاج إلى مطالعة وبحث.
وتقديم المجرور على متعلقه وهو)يسير(للاهتمام بذكره للدلالة على إمكانة في جانب علم الله تعالى.
)ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير[71](يجوز أن يكون الواو حرف عطف وتكون الجملة معطوفة على الجملة السابقة بما تفرع عليها عطف غرض على غرض.
ويجوز أن يكون الواو للحال والجملة بعدها حالا من الضمير المرفوع في قوله)جادلوك(. والمعنى: جادلوك في الدين مستمرين على عبادة ما لا يستحق العبادة بعد ما رأوا من الدلائل. وتتضمن الحال تعجيبا من شأنهم في مكابرتهم وإصرارهم.

صفحة : 2807

والإتيان بالفعل المضارع المفيد للتجدد على الوجهين لأن في الدلائل التي تحف بهم والتي ذكروا ببعضها في الآيات الماضية ما هو كاف لإقلاعهم عن عبادة الأصنام لو كانوا يريدون الحق.
و)من دون(يفيد أنهم يعرضون عن عبادة الله، لأن كلمة) دون(وإن كانت اسما للمباعدة قد يصدق بالمشاركة بين ما تضاف إليه وبين غيره. فكلمة)دون(إذا دخلت عليها)من(صارت تفيد معنى ابتداء الفعل من جانب مباعد لما أضيف إليه)دون (فاقتضى أن المضاف إليه غير مشارك في الفعل. فوجه ذلك أنهم لما أشربت قلوبهم الإقبال على عبادة الأصنام وإدخالها في شؤون قرباتهم حتى الحج إذ قد وضعوا في شعائره أصناما بعضها وضعوها في الكعبة وبعضها فوق الصفا والمروة جعلوا كالمعطلين لعبادة الله أصلا.
والسلطان: الحجة. والحجة المنزلة: هي الأمر الإلهي الوارد على ألسنة رسله وفي شرائعه، أي يعبدون ما لا يجدون عذرا لعبادته من الشرائع السالفة. وقصارى أمرهم أنهم اعتذروا بتقدم آبائهم بعبادة أصنامهم، ولم يدعوا أن نبيا أمر قومه بعبادة صنم ولا أن دينا إلهيا رخص في عبادة الأصنام.
)وما ليس لهم به علم(، أي ليس لهم به اعتقاد جازم لأن الاعتقاد الجازم لا يكون إلا عن دليل، والباطل لا يمكن حصول دليل عليه. وتقديم انتفاء الدليل الشرعي على انتفاء الدليل العقلي لأن الدليل الشرعي أهم.

و)ما(التي في قوله)وما للظالمين من نصير(نافية. والجملة عطف على جملة)ويعبدون من دون الله(أي يعبدون ما ذكر وما لهم نصير فلا تنفعهم عبادة الأصنام. فالمراد بالظالمين المشركون المتحدث عنهم، فهو من الإظهار في مقام الإضمار للإيماء إلى أن سبب انتفاء النصير لهم هو ظلمهم، أي كفرهم. وقد أفاد ذلك ذهاب عبادتهم الأصنام باطلا لأنهم عبدوها رجاء النصر. ويفيد بعمومه أن الأصنام لا تنصرهم فأغنى عن موصول ثالث هو من صفات الأصنام كأنه قيل: وما لا ينصرهم، كقوله تعالى:) والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم(.

)وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون بالذين يتلون عليهم آياتنا(عطف على جملة)ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا(لبيان جرم آخر من أجرامهم مع جرم عبادة الأصنام. وهو جرم تكذيب الرسول والتكذيب بالقرآن.

والآيات هي القرآن لا غيره من المعجزات لقوله)وإذا تتلى عليهم(.

والمنكر: إما الشيء الذي تنكره الأنظار والنفوس فيكون هنا اسما، أي دلائل كراهيتهم وغضبهم وعزمهم على السوء، وإما مصدر ميمي بمعنى الإنكار كالمكرم بمعنى الإكرام. والمحملان آيلان إلى معنى أنهم يلوح على وجوههم الغيظ والغضب عندما يتلى عليهم القرآن ويدعون إلى الإيمان. وهذا كناية عن امتلاء نفوسهم من الإنكار والغيظ حتى تجاوز أثره بواطنهم على وجوههم. كما في قوله تعالى)تعرف في وجوههم نضرة النعيم(كناية عن وفرة نعيمهم وفرط مسرتهم به. ولأجل هذه الكناية عدل عن التصريح بنحو: أشتد غيظهم، أو يكادون يتميزون غيظا، ونحو قوله)قلوبهم منكرة وهم مستكبرون(.

وتقييد الآيات بوصف البينات لتفظيع إنكارهم إياها. إذ ليس فيها ما يعذر به منكروها.

والخطاب في قوله)تعرف(لكل من يصلح للخطاب بدليل قوله) بالذين يتلون عليهم آياتنا(.

والتعبير ب)الذين كفروا(إظهار في مقام الإضمار. ومقتضى الظاهر أن يكون)تعرف في وجوه الذين كفروا(. أي وجوه الذين يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا. فخولف مقتضى الظاهر للتسجيل عليهم بالإيماء إلى أن علة ذلك هو ما يبطنونه من الكفر.

والسطو: البطش، أي يقاربون أن يصولوا على الذين يتلون عليهم الآيات من شدة الغضب والغيظ من سماع القرآن.

)والذين يتلون(يجوز أن يكون مرادا به النبي صلى الله عليه وسلم من إطلاق اسم الجمع على الواحد كقوله)وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم(، أي كذبوا الرسول.
ويجوز أن يراد به من يقرأ عليهم القرآن من المسلمين والرسول. أما الذين سطوا عليهم من المؤمنين فلعلهم غير الذين قرأوا عليهم القرآن، أو لعل السطو عليهم كان بعد نزول هذه الآية فلا إشكال في ذكر فعل المقاربة.

صفحة : 2808

وجملة)يكادون يسطون(في موضع بدل الاشتمال لجملة)تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر(لأن الهم بالسطو مما يشتمل عليه المنكر.
)قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير[72](استئناف ابتدائي يفيد زيادة إغاظتهم بأن أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يتلو عليهم ما يفيد أنهم صائرون إلى النار.
والتفريع بالفاء ناشئ من ظهور أثر المنكر على وجوههم فجعل دلالة ملامحهم بمنزلة دلالة الألفاظ. ففرع عليها ما هو جواب عن كلام فيزيدهم غيظا.
ويجوز كون التفريع على التلاوة المأخوذة من قوله)وإذا تتلى عليهم آياتنا(أي اتل عليهم الآيات المنذرة والمبينة لكفرهم، وفرع عليها وعيدهم بالنار.
والاستفهام مستعمل في الاستئذان، وهو استئذان تهكمي لأنه قد نبأهم بذلك دون أن ينتظر جوابهم.
وشر: اسم تفضيل، أصله أشر. كثر حذف الهمزة تخفيفا، كما حذفت في خير بمعنى أخير.
والإشارة ب)ذلكم(إلى ما أثار منكرهم وحفيظتهم، أي بما هو أشد شرا عليكم في نفوسكم مما سمعتموه فأغضبكم، أي فإن كنتم غاضبين لما تلي عليكم من الآيات فازدادوا غضبا بهذا الذي أنبئكم به.
وقوله)النار(خبر مبتدأ محذوف دل عليه قوله)بشر من ذلكم(. والتقدير: شر من ذلكم النار.
فالجملة استئناف بياني، أي إن سألتم عن الذي هو أشد شرا فاعلموا أنه النار.
وجملة)وعدها الله(حال من النار، أو هي استئناف.

والتعبير عنهم بقوله)الذين كفروا(إظهار في مقام الإضمار، أي وعدها الله إياكم لكفركم.
)وبئس المصير(أي بئس مصيرهم هي، فحرف التعريف عوض عن المضاف إليه، فتكون الجملة إنشاء ذم معطوفة على جملة الحال على تقدير القول. ويجوز أن يكون التعريف للجنس فيفيد العموم، أي بئس المصير هي لمن صار إليها، فتكون الجملة تذييلا لما فيها من عموم الحكم للمخاطبين وغيرهم وتكون الواو اعتراضية تذييلية.
)يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب[73](أعقبت تضاعيف الحجج والمواعظ والإنذارات التي اشتملت عليها السورة مما فيه مقنع للعلم بان إله الناس واحد وأن ما يعبد من دونه باطل، أعقبت تلك كلها بمثل جامع لوصف حال تلك المعبودات وعابديها.
والخطاب ب)يا أيها الناس(للمشركين لأنهم المقصود بالرد والزجر وبقرينة قوله)إن الذين تدعون(على قراءة الجمهور)تدعون(بتاء الخطاب.
فالمراد ب)الناس(هنا المشركون على ما هو المصطلح الغالب في القرآن. ويجوز أن يكون المراد ب)الناس(جميع الناس من مسلمين ومشركين.
وفي افتتاح السورة ب)يا أيها الناس(وتنهيتها بمثل ذلك شبه برد العجز على الصدر. ومما يزيده حسنا أن يكون العجز جامعا لما في الصدر وما بعده. حتى يكون كالنتيجة للاستدلال والخلاصة للخطبة والحوصلة للدرس.
وضرب المثل: ذكره وبيانه؛ استعير الضرب للقول والذكر تشبيها بوضع الشيء بشدة، أي ألقي إليكم مثل. وتقدم بيانه عند قوله تعالى)أن يضرب مثلا ما(في سورة البقرة.
وبني فعل)ضرب(بصيغة النائب فلم يذكر له فاعل بعكس ما في المواضع الأخرى التي صرح فيها بفاعل ضرب المثل نحو قوله تعالى)إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما(في سورة البقرة و)ضرب الله مثلا عبدا مملوكا(في سورة النحل و)ضرب الله مثلا رجلا(في سورة الزمر)وضرب الله مثلا رجلين(في سورة النحل. إذ أسند في تلك المواضع وغيرها ضرب المثل إلى الله، ونحو قوله)فلا تضربوا لله الأمثال(في سورة النحل.)وضرب لنا مثلا ونسي خلقه(في سورة يس، إذ أسند الضرب إلى المشركين. لأن المقصود هنا نسج التركيب على إيجاز صالح لإفادة احتمالين.

أحدهما: أن يقدر الفاعل الله تعالى وأن يكون المثل تشبيها تمثيليا، أي أوضح الله تمثيلا يوضح حال الأصنام في فرط العجز عن إيجاد أضعف المخلوقات كما هو مشاهد لكل أحد.
والثاني: أن يقدر الفاعل المشركين ويكون المثل بمعنى المماثل، أي جعلوا أصنامهم مماثلة لله تعالى في الإلهية.

صفحة : 2809

وصيغة الماضي في قوله)ضرب(مستعملة في تقريب زمن الماضي من الحال على الاحتمال الأول، نحو قوله تعالى)لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا(. أي لو شارفوا أن يتركوا. أي بعد الموت.
وجملة)إن الذين تدعون من دون الله(إلى آخرها يجوز أن تكون بيانا لفعل ضرب على الاحتمال الأول في التقدير، أي بين تمثيل عجيب.
ويجوز أن تكون بيانا للفظ)مثل(لما فيها من قوله)تدعون من دون الله(على الاحتمال الثاني.
وفرع على ذلك المعنى من الإيجاز قوله)فاستمعوا له (لاسترعاء الأسماع إلى مفاد هذا المثل مما يبطل دعوى الشركة لله في الإلهية. أي استمعوا استماع تدبر.
فصيغة الأمر في)استمعوا له(مستعملة في التحريض على الاحتمال الأول، وفي التعجيب على الاحتمال الثاني. وضمير له عائد على المثل على الاحتمال الأول لأن المثل على ذلك الوجه من قبيل الألفاظ المسموعة، وعائد على الضرب المأخوذ من فعل) ضرب(على الاحتمال الثاني على طريقة)اعدلوا هو أقرب للتقوى(، أي استمعوا للضرب، أي لما يدل على الضرب من الألفاظ، فيقدر مضاف بقرينة)استمعوا(لأن المسموع لا يكون إلا ألفاظا، أي استمعوا لما يدل على ضرب المثل المتعجب منه في حماقة ضاربيه.واستعملت صيغة الماضي في)ضرب(مع أنه لما يقل لتقريب زمن الماضي من الحال كقوله)لو تركوا من خلقهم ذرية ضعافا(، أي لو قاربوا أن يتركوا. وذلك تنبيه للسامعين بان يتهيأوا لتلقي هذا المثل، لما هو معروف لدى البلغاء من استشرافهم للأمثال ومواقعها.
والمثل: شاع في تشبيه حالة بحالة، كما تقدم في قوله)مثلهم كمثل الذي استوقد نارا(في سورة البقرة، فالتشبيه في هذه الآية ضمني خفي ينبئ عنه قوله)ولو اجتمعوا له(وقوله)لا يسنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب(. فشبهت الأصنام المتعددة المتفرقة في

قبائل العرب وفي مكة بالخصوص بعظماء، أي عند عابديها. وشبهت هيئتها في العجز بهيئة ناس تعذر عليهم خلق أضعف المخلوقات، وهو الذباب، بله المخلوقات العظيمة كالسماوات والأرض. وقد دل إسناد نفي الخلق إليهم على تشبيههم بذوي الإرادة لأن نفي الخلق بمقتضى محاولة إيجاده، وذلك كقوله تعالى)أموات غير أحياء(كما تقدم في سورة النحل. ولو فرض أن الذباب سلبهم شيئا لم يستطيعوا أخذه منه، ودليل ذلك مشاهدة عدم تحركهم، فكما عجزت عن إيجاد أضعف الخلق وعن دفع أضعف المخلوقات عنها فكيف عجزت عن إيجاد أضعف الخلق وعن دفع أضعف المخلوقات عنها فكيف توسم بالإلهية. ورمز إلى الهيئة المشبه بها يذكر لوازم أركان التشبيه من قوله)لن يخلقوا(وقوله)وإن يسلبهم الذباب شيئا(إلى آخره. لا جرم حصل تشبيه هيئة الأصنام في عجزها بما دون هيئة أضعف المخلوقات فكانت تمثيلية مكنية.

وفسر صاحب الكشاف المثل هنا بالصفة الغربية تشبيها لها ببعض الأمثال السائرة. وهو تفسير بما لا نظير له ولا استعمال يعضده اقتصادا منه في الغوص عن المعنى لا ضعفا عن استخراج حقيقة المثل فيها وهو جذيعها المحكك. وعذيقها الموجب ولكن أحسبه صادف منه وقت سرعة في التفسير أو شغلا بأمر خطير، وكم ترك الأول للأخير.

وفرع على التهيئة لتلقي هذا المثل الأمر بالاستماع له وإلقاء الشراشر لوعيه وترقب بيان إجماله توخيا للتفطن لما يتلى بعد.

وجملة)إن الذين تدعون(إلخ بيان ل)مثل(على كلا الاحتمالين السابقين في معنى)ضرب مثل(، فإن المثل في معنى القول فصح بيانه بهذا الكلام.

وأكد إثبات الخبر بحرف توكيد الإثبات وهو)إن(، وأكد ما فيه من النفي بحرف توكيد النفي)لن(لتنويل المخاطبين منزلة المنكرين لمضمون الخبر، لأن جعلهم الأصنام آلهة يقتضي إثباتهم الخلق إليها وقد نفي عنها الخلق في المستقبل لأنه أظهر في إقحام الذين ادعوا لها الإلهية لأن نفي أن تخلق في المستقبل يقتضي نفي ذلك في الماضي بالأحرى لأن الذي يفعل شيئا يكون فعله من بعد أيسر عليه.

وقرأ الجمهور)تدعون(بتاء الخطاب على أن المراد بالناس في قوله)يا أيها الناس(خصوص المشركين. وقرأه يعقوب بياء الغيبة على أن يقصد ب)يا أيها الناس(جميع الناس وأنهم علموا بحال فريق منهم وهم أهل الشرك. والتقدير: إن الذين يدعون هم فريق منكم.

والذباب: اسم جمع ذبابة، وهي حشرة طائرة معروفة، وتجمع على ذبان بكسر الذال وتشدد النون ولا يقال في العربية للواحدة ذبابة.
وذكر الذباب لأنه من أحقر المخلوقات التي فيها الحياة المشاهدة. وأما ما في الحديث في المصورين قال الله تعالى)فليخلقوا حبة وليخلقوا ذرة(فهو في سياق التعجيز لأن الحبة لا حياة فيها والذرة فيها حياة ضعيفة.
وموقع)لو اجتمعوا له(موقع الحال، والواو واو الحال، و)لو(فيه وصيلة. وقد تقدم بيان حقيقتها عند قوله)فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به(في سورة آل عمران، أي لن يستطيعوا ذلك الخلق وهم مفترقون، بل ولو اجتمعوا من مفترق القبائل وتعاونوا على خلق الذباب لن يخلقوه.
والاستنقاذ: مبالغة في الإنقاذ مثل الاستحياء والاستجابة.
وجملة)ضعف الطالب والمطلوب(تذييل وفذلكة للغرض من التمثيل، أي ضعف الداعي والمدعو، إشارة إلى قوله)إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا(الخ. أي ضعفتم أنتم في دعوتهم آلهة وضعفت الأصنام عن صفات الإله.
وهذه الجملة كلام أرسل مثلا، وذلك من بلاغة الكلام.
)ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز[74](تذييل للمثل بان عبادتهم الأصنام مع الله استخفاف بحق إلهيته تعالى إذ أشركوا معه في أعظم الأوصاف أحقر الموصوفين، وإذ استكبروا عند تلاوة آياته تعالى عليهم، وإذ هموا بالبطش برسوله.
والقدر: العظمة: وفعل قدر يفيد أنه عامل بقدره. فالمعنى: ما عظموه حق تعظيمه إذ أشركوا معه الضعفاء العجز وهو الغالب القوي. وقد تقدم تفسيره في قوله)وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء(في سورة الأنعام.
وجملة)إن الله لقوي عزيز(تعليل لمضمون الجملة قبلها، فإن ما أشركوهم مع الله في العبادة كل ضعيف ذليل فما قدروه حق قدره لأنه قوي عزيز فكيف يشاركه الضعيف الذليل. والعدول عن أن يقال: ما قدرتم الله حق قدره. إلى أسلوب الغيبة، التفات تعريضا بهم بأنهم ليسوا أهلا للمخاطبة توبيخا لهم، وبذلك يندمج في قوله) إن الله لقوي عزيز(تهديد لهم بأنه ينتقم منهم على وقاحتهم.

وتوكيد الجملة بحرف التوكيد ولام الابتداء مع أن مضمونها مما لا يختلف فيه التنزيل علمهم بذلك منزلة الإنكار لأنهم لم يجروا على موجب العلم حين أشركوا مع القوي العزيز ضعفاء أذلة.
والقوي: من أسمائه تعالى. وهو مستعمل في القدرة على كل مراد له. والعزيز: من أسمائه، وهو بمعنى: الغالب لكل معاند.
]الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير[75](لما نفت الآيات السابقة أن يكون للأصنام التي يعبدها المشركون مزية في نصرهم بقوله)وما للظالمين من نصير(، وقوله)ضعف الطالب والمطلوب(ونعى على المشركين تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله)يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا(، وقد كان من دواعي التكذيب أنهم أحالوا أن يأتيهم رسول من البشر)وقالوا لولا أنزل عليه ملك(، أي يصاحبه،)وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا(أعقب إبطال أقوالهم بأن الله يصطفي من شاء اصطفاه من الملائكة ومن الناس دون الحجارة، وأنه يصطفيهم ليرسلهم إلى الناس، أي لا ليكونوا شركاء. فلا جرم أبطل قوله)الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس(جميع مزاعمهم في أصنامهم.
فالجملة استئناف ابتدائي. والمناسبة ما علمت.
وتقديم المسند إليه وهو اسم الجلالة على الخبر الفعلي في قوله)الله يصطفي(دون أن يقول: يصطفي، لإفادة الاختصاص، أي الله وحده هو الذي يصطفي لا أنتم تصطفون وتنسبون إليه.
والإظهار في مقام الإضمار هنا حيث لم يقل: هو يصطفي من الملائكة رسلا، لأن اسم الجلالة أصله الإله، أي الإله المعروف الذي لا إله غيره، فاشتقاقه مشير إلى أن مسماه جامع كل الصفات العلى تقريرا للقوة الكاملة والعزة القاهرة.

صفحة : 2811

وجملة)إن الله سميع بصير(تعليل لمضمون جملة)الله يصطفي(لأن المحيط علمه بالأشياء هو الذي يختص بالاصطفاء. وليس لأهل العقول ما بلغت بهم عقولهم من الفطنة والاختيار أن يطلعوا على خفايا الأمور فيصطفوا للمقامات العليا من قد تخفى عنهم نقائصهم بله اصطفاء الحجارة الصماء.
والسميع البصير: كناية عن عموم العلم بالأشياء بحسب المتعارف في المعلومات أنها لا تعدو المسموعات والمبصرات.

)يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور[76](جملة مقررة لمضمون جملة)إن الله سميع بصير(. وفائدتها زيادة على التقرير أنها تعريض بوجوب مراقبتهم ربهم في السر والعلانية لأنه لا تخفى عليه خافية.

و)ما بين أيديهم(مستعار لما يظهرونه،)وما خلفهم(هو ما يخفونه لأن الشيء الذي يظهره صاحبه يجعله بين يديه والشيء الذي يخفيه يجعله وراءه.

ويجوز أن يكون)ما بين أيديهم(مستعارا لما سيكون من أحوالهم لأنها تشبه الشيء الذي هو تجاه الشخص وهو يمشي إليه.

)وما خلفهم(مستعار لما مضى وعبر من أحوالهم لأنها تشبه ما تركه السائر وراءه وتجاوزه.

وضمير)أيديهم(و)خلفهم(عائدان: إما إلى المشركين الذين عاد إليهم ضمير) فلا ينازعنك في الأمر(، وإما إلى الملائكة والناس. وإرجاع الأمور إرجاع القضاء في جزائها من ثواب وعقاب إليه يوم القيامة.

وبني فعل)ترجع(إلى النائب لظهور من هو فاعل الإرجاع فإنه لا يليق إلا بالله تعالى، فهو يمهل الناس في الدنيا وهو يرجع الأمور إليه يوم القيامة.

وتقديم المجرور لإفادة الحصر الحقيقي، أي إلى الله لا إلى غيره يرجع الجزاء لأنه ملك يوم الدين. والتعريف في)الأمور(للاستغراق، أي كل أمر. وذلك جمع بين البشارة والنذارة تبعا لما قبله من قوله)يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم(.

)يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون[77](لما كان خطاب المشركين فاتحا لهذه السورة وشاغلا لمعظمها عدا ما وقع اعتراضا في خلال ذلك. فقد خوطب المشركون ب)يا أيها الناس(أربع مرات، فعند استيفاء ما سيق إلى المشركين من الحجج والقوارع والنداء على مساوي أعمالهم. ختمت السورة بالإقبال على خطاب المؤمنين بما يصلح أعمالهم وينوه بشأنهم.

وفي هذا الترتيب إيماء إلى أن الاشتغال بإصلاح الاعتقاد مقدم على الاشتغال بإصلاح الأعمال.

والمراد بالركوع والسجود الصلوات. وتخصيصهما بالذكر من بين أعمال الصلاة لأنهما أعظم أركان الصلاة إذ بهما إظهار الخضوع والعبودية. وتخصيص الصلاة بالذكر قبل الأمر ببقية العبادات المشمولة لقوله)واعبدوا ربكم(تنبيه على أن الصلاة عماد الدين.

والمراد بالعبادة: ما أمر الله الناس أن يتعبدوا به مثل الصيام والحج.

وقوله)وافعلوا الخير(أمر بإسداء الخير إلى الناس من الزكاة، وحسن المعاملة: كصلة الرحم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسائر مكارم الأخلاق، وهذا مجمل بينته وبينت مراتبه أدلة أخرى.
والرجاء المستفاد من)لعلكم تفلحون(مستعمل في معنى تقريب الفلاح لهم إذا بلغوا بأعمالهم الحد الموجب للفلاح فيما حدد الله تعالى. فهذه حقيقة الرجاء. وأما ما يستلزمه الرجاء من تردد الراجي في حصول المرجو فذلك لا يخطر بالبال لقيام الأدلة التي تحيل الشك على الله تعالى.
واعلم أن قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا(إلى) لعلكم تفلحون(اختلف الأئمة في كون ذلك موضع سجدة من سجود القرآن. والذي ذهب إليه الجمهور أن ليس ذلك موضع سجدة وهو قول مالك في الموطأ والمدونة، وأبي حنيفة، والثوري.
وذهب جمع غفير إلى أن ذلك موضع سجدة، وروى الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وفقهاء المدينة، ونسبه ابن العربي إلى مالك في رواية المدنيين من أصحابه عنه. وقال ابن عبد البر في الكافي: ومن أهل المدينة قديما وحديثا من يرى السجود في الثانية من الحج قال: وقد رواه ابن وهب عن مالك . وتحصيل مذهبه أنها إحدى عشرة سجدة ليس في المفصل منها شيء ، فلم ينسبه إلى مالك إلا من رواية ابن وهب، وكذلك ابن رشد في المقدمات: فما نسبة ابن العربي إلى المدنيين من أصحاب مالك غريب.

صفحة : 2812

وروى الترمذي عن ابن لهيعة عن مشرح عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا رسول الله فضلت سورة الحج لأن فيها سجدتين؟ قال: نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما اه. قال أبو عيسى: هذا حديث إسناده ليس بالقوي اه، أي من أجل أن ابن لهيعة ضعفه يحيى بن معين. وقال مسلم: تركه وكيع، والقطان، وابن مهدي. وقال أحمد: احترقت كتبه فمن روى عنه قديما أي قبل احتراق كتبه قبل.
)وجاهدوا في الله حق جهاده(الجهاد بصيغة المفاعلة حقيقة عرفية في قتال أعداء المسلمين في الدين لأجل إعلاء كلمة الإسلام أو للدفع عنه كما فسره النبي صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله . وأن ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حين قفل من غزوة تبوك قال لأصحابه رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر(، وفسره لهم بمجاهدة

العبد هواه، فذلك محمول على المشاكلة بإطلاق الجهاد على منع داعي النفس إلى المعصية.
ومعنى)في(التعليل، أي لأجل الله، أي لأجل نصر دينه كقول النبي صلى الله عليه وسلم: دخلت امرأة النار في هرة أي لأجل هرة، أي لعمل يتعلق بهرة كما بينة بقوله حبستها لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها ترمم من خشاش الأرض حتى ماتت هزلا .
وانتصب حق جهاده على المفعول المطلق المبين للنوع، وأضيفت الصفة إلى الموصوف، وأصله: جهاده الحق، وإضافة جهاد إلى ضمير الجلالة لأدنى ملابسة، أي حق الجهاد لأجله، وقرينة المراد تقدم حرف في كقوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته(.
والحق بمعنى الخالص، أي الجهاد الذي لا يشوبه تقصير.
والآية أمر بالجهاد. ولعلها أول آية جاءت في الأمر بالجهاد لأن السورة بعضها مكي وبعضها مدني ولأنه تقدم آنفا قوله)ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله(. فهذا الآن أمر بالأخذ في وسائل النصر، فالآية نزلت قبل وقعة بدر لا محالة.
)هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس(جملة)هو اجتباكم(إن حملت على أنها واقعة موقع العلة لما أمروا به ابتداء من قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا(الخ، أي لأنه لما اجتباكم، كان حقيقا بالشكر له بتلك الخصال المأمور بها.
والاجتباء: الاصطفاء والاختبار، أي هو اختاركم لتلقي دينه ونشره ونصره على معانديه. فيظهر أن هذا موجه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصالة ويشركهم فيه كل من جاء بعدهم بحكم اتحاد الوصف في الأجيال كما هو الشان في مخاطبات التشريع.
وإن حمل قوله)هو اجتباكم(على معنى التفضيل على الأمم كان ملحوظا فيه تفضيل مجموع الأمة على مجموع الأمم السابقة الراجع إلى تفضيل كل طبقة من هذه الأمة على الطبقة المماثلة لها من الأمم السالفة.
وقد تقدم مثل هذين المحملين في قوله تعالى)كنتم خير أمة أخرجت للناس(.
وأعقب ذلك بتفضيل هذا الدين المستتبع تفضيل أهله بأن جعله دينا لا حرج فيه لأن ذلك يسهل العمل به مع حصول مقصد الشريعة من العمل فيسعد أهله بسهولة امتثاله. وقد امتن الله تعالى بهذا المعنى في آيات كثيرة من القرآن، منها قوله تعالى)يريد الله

بكم اليسر ولا يريد بكم العسر(. ووصفه الدين بالحنيف، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: بعثت بالحنيفية السمحة .
والحرج: الضيق، أطلق على عسر الأفعال تشبيها للمعقول بالمحسوس ثم شاع ذلك حتى صار حقيقة عرفية كما هنا.
والملة: الدين والشريعة. وقد تقدم عند قوله تعالى)ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا(في سورة النحل. وقوله)واتبعت ملة آبائي(في سورة يوسف.

صفحة : 2813

وقوله)ملة أبيكم إبراهيم(زيادة في التنويه بهذا الدين وتحضيض على الأخذ به بأنه اختص بأنه دين جاء به رسولان إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم وهذا لم يستتب لدين آخر، وهو معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: أنا دعوة أبي إبراهيم أي بقوله)ربنا وابعث فيهم رسولا منهم(. وإذ قد كان هذا هو المقصود فمحمل الكلام أن هذا الدين دين إبراهيم، أي أن الإسلام احتوى على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام . ومعلوم أن للإسلام أحكاما كثيرة ولكنه اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من الشرائع الأخرى من دين إبراهيم، جعل كأنه عين ملة إبراهيم، فعلى هذا الاعتبار يكون انتصاب)ملة أبيكم إبراهيم(على الحال من)الدين(باعتبار أن الإسلام حوى ملة إبراهيم.
ثم إن كان الخطاب موجها إلى الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم فإضافة أبوة إبراهيم إليهم باعتبار غالب الأمة، لأن غالب الأمة يومئذ من العرب المضرية وأما الأنصار فإن نسبهم لا ينتمي إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنهم من العرب القحطانيين؛ على أن أكثرهم كانت لإبراهيم عليهم ولادة من قبل الأمهات.
وإن كان الخطاب لعموم المسلمين كانت إضافة أبوة إبراهيم لهم على معنى التشبيه في الحرمة واستحقاق التعظيم كقوله تعالى) وأزواجه أمهاتهم(، ولأنه أبو النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومحمد له مقام الأبوة للمسلمين وقد قرئ قوله تعالى)وأزواجه أمهاتهم(بزيادة وهو أبوهم.
ويجوز أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم على طريقة التعظيم كأنه قال: ملة أبيك إبراهيم.
والضمير في)هو سماكم المسلمين(عائد إلى الجلالة كضمير)هو اجتباكم(فتكون الجملة استئنافا ثانيا، أي هو اجتباكم وخصكم بهذا الاسم الجليل فلم يعطه غيركم ولا يعود إلى إبراهيم.

و)قبل(إذا بني على الضم كان على تقدير مضاف إليه منوي بمعناه دون لفظه. والاسم الذي أضيف إليه)قبل(محذوف. وبني) قبل(على الضم إشعارا بالمضاف إليه. والتقدير: من قبل القرآن. والقرينة قوله)وفي هذا(، أي وفي هذا القرآن.

والإشارة في قوله)وفي هذا(إلى القرآن كما في قوله تعالى) ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين(، أي وسماكم المسلمين في القرآن. وذلك في نحو قوله)فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون(وقوله)وأمرت لأن أكون أول المسلمين(.

واللام في قوله)ليكون الرسول شهيدا عليكم(يتعلق بقوله)اركعوا واسجدوا(أو بقوله)اجتباكم(أي ليكون الرسول، أي محمد صلى الله عليه وسلم شهيدا على الأمة الإسلامية بأنها آمنت به، وتكون الأمة الإسلامية شاهدة على الناس، أي على الأمم بأن رسلهم بلغوهم الدعوة فكفر بهم الكافرون. ومن جملة الناس القوم الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وقدمت شهادة الرسول للأمة هنا، وقدمت شهادة الأمة في آية البقرة)وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا(؛ لأن آية هذه السورة في مقام التنويه بالدين الذي جاء به الرسول. فالرسول هنا أسبق إلى الحضور فكان ذكر شهادته أهم، وآية البقرة صدرت بالثناء على الأمة فكان ذكر شهادة الأمة أهم.

)فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير[78](تفريع على جملة)هو اجتباكم(وما بعدها، أي فاشكروا الله بالدوام على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله.

والاعتصام: افتعال من الصم. وهو المنع من الضر والنجاة، قال تعالى)قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله(، وقال النابغة:

يظل من خوفه الملاح معتصما

بالخيزرانة بعد الأين والنجـد والمعنى: اجعلوا الله ملجأكم ومنجاكم.

وجملة)هو مولاكم(مستأنفة معللة للأمر بالاعتصام بالله لأن المولى يعتصم به ويرجع إليه لعظيم قدرته وبديع حكمته.

والمولى: السيد الذي يراعي صلاح عبده.

وفرع عليه إنشاء الثناء على الله بأنه أحسن مولى وأحسن نصير. أي نعم المدبر لشؤونكم، ونعم الناصر لكم. ونصير: صيغة مبالغة في النصر. أي نعم المولى لكم ونعم النصير لكم. وأما الكافرون فلا يتولاهم تولي العناية ولا ينصرهم.

وهذا الإنشاء يتضمن تحقيق حسن ولاية الله تعالى وحسن نصره. وبذلك الاعتبار حسن تفريعه على الأمر بالاعتصام به.
وهذا من براعة الختام . كما هو بين لذوي الأفهام.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة المؤمنون
ويقال)سورة المؤمنون(.
فالأول على اعتبار إضافة السورة إلى المؤمنين لافتتاحها بالإخبار عنهم بأنهم أفلحوا. ووردت تسميتها بمثل هذا فيما رواه النسائي: عن عبد الله بن السائب قال: حضرت رسول الله يوم الفتح فصلى في قبل الكعبة فخلع نعليه فوضعهما عن يساره فافتتح سورة المؤمنين فلما جاء ذكر موسى أو عيسى أخذته سعلة فركع.
والثاني على حكاية لفظ)المؤمنون(الواقع أولها في قوله تعالى) قد أفلح المؤمنون(فجعل ذلك اللفظ تعريفا للسورة.
وقد وردت تسمية هذه السورة)سورة المؤمنين(في السنة. روى أبو داود: عن عبد الله بن السائب قال: صلى بنا رسول الله الصبح بمكة فاستفتح سورة المؤمنين حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون أو ذكر موسى وعيسى أخذت النبي سعلة فحذف فركع.
ومما جرى على الألسنة أن يسموها سورة)قد أفلح(. ووقع ذلك في كتاب الجامع من العتبية في سماع ابن القاسم. قال ابن القاسم: أخرج لنا مالك مصحفا لجده فتحدثنا أنه كتبه على عهد عثمان بن عفان وغاشيته من كسوة الكعبة فوجدنا.. إلى أن قال .. وفي قد أفلح كلها الثلاث لله أي خلافا لقراءة:)سيقولون الله(. ويسمونها أيضا سورة الفلاح.
وهي مكية بالاتفاق. ولا اعتداد بتوقف من توقف في ذلك بأن الآية التي ذكرت فيها الزكاة وهي قوله)والذين هم للزكاة فاعلون(تعين أنها مدنية لأن الزكاة فرضت في المدينة. فالزكاة المذكورة فيها هي الصدقة لا زكاة النصب المعينة في الأموال. وإطلاق الزكاة على الصدقة مشهور في القرآن. قال تعالى)وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة(وهي من سورة مكية بالاتفاق، وقال)واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة(ولم تكن زكاة النصب مشروعة في زمن إسماعيل.

وهي السورة السادسة والسبعون في عداد نزول سور القرآن نزلت بعد سورة)الطور(وقبل سورة)تبارك الذي بيده الملك(.
وآياتها مائة وسبع عشرة في عد الجمهور. وعدها أهل الكوفة مائة وثمان عشرة، فالجمهور عدوا)أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون(آية، وأهل الكوفة عدوا)أولئك هم الوارثون(آية وما بعدها آية أخرى، كما يؤخذ من كلام أبي بكر ابن العربي في العارضة في الحديث الذي سنذكره عقب تفسير قوله تعالى)أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون(.

أغراض السورة
هذه السورة تدور آيها حول محور تحقيق الوحدانية وإبطال الشرك ونقض قواعده، والتنويه بالإيمان وشرائعه.
فكان افتتاحها بالبشارة للمؤمنين بالفلاح العظيم على ما تحلوا به من أصول الفضائل الروحية والعملية التي بها تزكية النفس واستقامة السلوك.
وأعقب ذلك بوصف خلق الإنسان أصله ونسله الدال على تفرد الله تعالى بالإلهية لتفرده بخلق الإنسان ونشأته ليبتدئ الناظر بالاعتبار في تكوين ذاته ثم بعدمه بعد الحياة. ودلالة ذلك الخلق على إثبات البعث بعد الممات وأن الله لم يخلق الخلق سدى ولعبا.
وانتقل إلى الاعتبار بخلق السماوات ودلالته على حكمة الله تعالى.
وإلى الاعتبار والامتنان بمصنوعات الله تعالى التي أصلها الماء الذي به حياة ما في هذا العالم من الحيوان والنبات وما في ذلك من دقائق الصنع، وما في الأنعام من المنافع ومنها الحمل.
ومن تسخير المنافع للناس وما أوتيه الإنسان من آلات الفكر والنظر.
وورد ذكر الحمل على الفلك فكان منه تخلص إلى بعثه نوح وحدث الطوفان. وانتقل إلى التذكير ببعثة الرسل للهدى والإرشاد إلى التوحيد والعمل الصالح، وما تلقاها به أقوامهم من الإعراض والطعن والتفرق، وما كان من عقاب المكذبين، وتلك أمثال لموعظة المعرضين عن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فأعقب ذلك بالثناء على الذين آمنوا واتقوا.
وبتنبيه المشركين على أن حالهم مماثل لأحوال الأمم الغابرة وكلمتهم واحدة فهم عرضة لأن يحل بهم ما حل بالأمم الماضية المكذبة.

وقد أراهم الله مخائل العذاب لعلهم يقلعون عن العناد فأصروا على إشراكهم بما ألقى الشيطان في عقولهم.

وذكروا بأنهم يقرون إذا سئلوا بأن الله مفرد بالربوبية ولا يجرون على مقتضى إقرارهم أنهم سيندمون على الكفر عندما يحضرهم الموت وفي يوم القيامة.

وبأنهم عرفوا الرسول وخبروا صدقه وأمانته ونصحه المجرد عن طلب المنفعة لنفسه الإ ثواب الله فلا عذر لهم بحال في إشراكهم وتكذيبهم الرسالة، ولكنهم متبعون أهواءهم معرضون عن الحق.

وما تخلل ذلك من جوامع الكلم.

وختمت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يغض عن سوء معاملتهم ويدفعها بالتي هي أحسن، ويسأل المغفرة للمؤمنين، وذلك هو الفلاح الذي ابتدئت به السورة.

)قد أفلح المؤمنون[1](افتتاح بديع لأنه من جوامع الكلم فإن الفلاح غاية كل ساع إلى عمله، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون ذكر متعلق بفعل الفلاح يقتضي في المقام الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب، فكأنه قيل: قد أفلح المؤمنون في كل ما رغبوا فيه.

ولما كانت همة المؤمنين منصرفة إلى تمكن الإيمان والعمل الصالح من نفوسهم كان ذلك إعلاما بأنهم نجحوا فيما تعلقت به هممهم من خير الآخرة وللحق من خير الدنيا، ويتضمن بشارة برضى الله عنهم ووعدا بأن الله مكمل لهم مايتطلبونه من خير.

وأكد هذا الخبر بحرف)قد(الذي إذا دخل على الفعل الماضي أفاد التحقيق أي التوكيد. فحرف)قد(في الجملة الفعلية يفيد مفاد)إن واللام(في الجملة الاسمية، أي يفيد توكيدا قويا.

ووجه التوكيد هنا أن المؤمنين كانوا مؤملين مثل هذه البشارة فيما سبق لهم من رجاء فلاحهم كالذي في قوله)وافعلوا الخير لعلكم تفلحون(، فكانوا لا يعرفون تحقق أنهم أتوا بما أرضى ربهم ويخافون أن يكونوا فرطوا في أسبابه وما علق عليه وعده إياهم، بله أن يعرفوا اقتراب ذلك، فلما أخبروا بأن ما ترجوه قد حصل حقق لهم بحرف التحقيق وبفعل المضي المستعمل في معنى التحقق. فالإتيان بحرف التحقيق لتنزيل ترقبهم إياه لفرط الرغبة والانتظار منزلة الشك في حصوله. ولعل منه: قد قامت الصلاة، إشارة إلى رغبة المصلين في حلول وقت الصلاة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: أرحنا بها يا بلال وشأن المؤمنين التشوق إلى عبادتهم كما يشاهد في تشوق كثير إلى قيام رمضان.

وحذف المتعلق للإشارة إلى أنهم أفلحوا فلاحا كاملا.

والفلاح: الظفر بالمطلوب من عمل العامل. وقد تقدم في أول البقرة. ونيط الفلاح بوصف الإيمان للإشارة إلى أنه السبب الأعظم في الفلاح فإن الإيمان وصف جامع للكمال لتفرع جميع الكمالات عليه.

)الذين هم في صلاتهم خاشعون[2](إجراء الصفات على) المؤمنون(بالتعريف بطريق الموصول وبتكريره للإيماء إلى وجه فلاحهم وعلته، أي أن كل خصلة من هاته الخصال هي من أسباب فلاحهم. وهذا يقتضي أن كل خصلة من هذه الخصال سبب للفلاح لأنه لم يقصد أن سبب فلاحهم مجموع الخصال المعدودة هنا فإن الفلاح لا يتم إلا بخصال أخرى مما هو مرجع التقوى، ولكن لما كانت كل خصلة من هذه الخصال تنبئ عن رسوخ الإيمان من صاحبها اعتبرت لذلك سببا للفلاح، كما كانت أضدادها كذلك في قوله تعالى)ماسلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين(على أن ذكر عدة أشياء لا يقتضي الاقتصار عليها في الغرض المذكور.

والخشوع تقدم في قوله تعالى)وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين(في سورة البقرة وفي قوله)وكانوا لنا خاشعين(في سورة الأنبياء. وهو خوف يوجب تعظيم المخوف منه، ولاشك أن الخشوع، أي الخشوع لله، يقتضي التقوى فهو سبب فلاح.

صفحة : 2816

وتقييده هنا بكونه في الصلاة لقصد الجمع بين وصفهم بأداء الصلاة وبالخشوع وخاصة إذا كان في حال الصلاة لأن الخشوع لله يكون في حالة الصلاة وفي غيرها، إذ الخشوع محله القلب فليس من أفعال الصلاة ولكنه يتلبس به المصلي في حالة صلاته. وذكر مع الصلاة لأن الصلاة أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوته ولذلك قدمت، ولأنه بالصلاة أعلق فإن الصلاة خشوع لله تعالى وخضوع له، ولأن الخشوع لما كان لله تعالى كان أولى الأحوال به حال الصلاة لأن المصلي يناجي ربه فيشعر نفسه أنه بين يدي ربه فيخشع له.

وهذا من آداب المعاملة مع الخالق تعالى وهي رأس الآداب الشرعية ومصدر الخيرات كلها.

ولهذا الاعتبار قدم هذا الوصف على بقية أوصاف المؤمنين وجعل مواليا للإيمان فقد حصل الثناء عليهم بوصفين.

وتقديم)في صلاتهم(على)خاشعون(للاهتمام بالصلاة للإيذان بأن لهم تعلقا شديدا بالصلاة لأن شأن الإضافة أن تفيد شدة الاتصال بين المضاف والمضاف إليه لأنها على معنى لام الاختصاص. فلو قيل: الذين إذا صلوا خشعوا، فات هذا المعنى، وأيضا لم يتأت وصفهم بكونهم خاشعين إلا بواسطة كلمة أخرى نحو: كانوا خاشعين. وإلا يفت ما تدل عليه الجملة الاسمية من ثبات الخشوع لهم ودوامه، أي كون الخشوع خلقا لهم بخلاف نحو: الذين خشعوا، فحصل الإيجاز، ولم يفت الإعجاز.

)والذين هم عن اللغو معرضون[3](العطف من عطف الصفات لموصوف واحد كقول بعض الشعراء وهو من شواهد النحو:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم وتكرير الصفات تقوية للثناء عليهم.

والقول في تركيب جملة)هم عن اللغو معرضون(كالقول في)هم في صلاتهم خاشعون(، وكذلك تقديم)عن اللغو(على متعلقه.

وإعادة اسم الموصول دون اكتفاء بعطف صلة على صلة للإشارة إلى أن كل صفة من الصفات موجبة للفلاح فلا يتوهم أنهم لا يفلحون حتى يجمعوا بين مضامين الصلاة كلها، ولما في الإظهار في مقام الإضمار من زيادة تقرير للخبر في ذهن السامع.

واللغو: الكلام الباطل. وتقدم في قوله تعالى)لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم(في البقرة، وقوله)لا يسمعون فيها لغوا(في سورة مريم.

والإعراض: الصد أي عدم الإقبال على الشيء، من العرض بضم العين وهو الجانب، لأن من يترك الشيء يوليه جانبه ولا يقبل عليه فيشمل الإعراض إعراض السمع عن اللغو. وتقدم عند قوله)فأعرض عنهم وعظهم(في سورة النساء، وقوله)وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم(في سورة الأنعام، وأهمه الإعراض عن لغو المشركين عند سماع القرآن)وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون(وقال تعالى)وإذا مروا باللغو مروا كراما(. ويشمل الإعراض عن اللغو بالألسنة، أي أن يلغوا في كلامهم.

وعقب ذكر الخشوع بذكر الإعراض عن اللغو لأن الصلاة في الأصل الدعاء، وهو من الأقوال الصالحة، فكان اللغو مما يخطر بالبال عند ذكر الصلاة بجامع الضدية، فكان الإعراض عن اللغو بمعنيي الإعراض مما تقتضيه الصلاة والخشوع لأن من اعتاد القول الصالح تجنب القول الباطل ومن اعتاد الخشوع لله تجنب قول الزور. وفي الحديث إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا

يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم .
والإعراض عن جنس اللغو من خلق الجد ومن تخلق بالجد في شؤونه كملت نفسه ولم يصدر منه إلا الأعمال النافعة، فالجد في الأمور من خلق الإسلام كما أفصح عن ذلك قول أبي خراش الهذلي بذكر الإسلام:
وعاد الفتى كالكهل ليس بـقـائل
سوى العدل شيئا فاستراح العواذل ولإعراض عنه يقتضي بالأولى اجتناب قول اللغو ويقتضي تجنب مجالس أهله.
واعلم أن هذا أدب عظيم من آداب المعاملة مع بعض الناس وهم الطبقة غير المحترمة لأن أهل اللغو ليسوا بمرتبة التوقير فالإعراض عن لغوهم رب‌ء عن التسفل معهم.
)والذين هم للزكوة فاعلون[4](

صفحة : 2817

أصل الزكاة أنها اسم مصدر)زكى(المشدد، إذا طهر النفس من المذمات. ثم أطلقت على إنفاق المال لوجه الله مجازا لأن القصد من ذلك المال تزكية النفس أو لأن ذلك يزيد في مال المعطي. فأطلق اسم المسبب على السبب.
وأصله قوله تعالى)خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها(. وأطلقت على نفس المال المنفق من إطلاق اسم المصدر على المفعول لأنه حاصل به وهو المتعين هنا بقرينة تعليقه
ب)فاعلون(المقتضي أن الزكاة مفعول. وأما المصدر المتعين فلا يكون مفعولا به لفعل من مادة)ف.ع.ل(لان صوغ الفعل من مادة ذلك المصدر يغني الإتيان بفعل مبهم ونصب مصدره على المفعولية به. فلو قال أحد: فعلت مشيا، إذا أراد أن يقول: مشيت، كان خارجا عن تركيب العربية ولو كان مفيدا. ولو قال أحد: فعلت مما تريده ، لصح التركيب قال تعالى)من فعل هذا بآلهتنا(، أي هذا المشاهد من الكسر والحطم، أي هذا الحاصل بالمصدر. وليس المراد المصدر لأنه لا يشار إليه ولا سيما بعد غيبة فاعله.
والمراد بالفعل هنا الفعل المناسب لهذا المفعول وهو الإيتاء، فهو كقوله)ويؤتون الزكاة(فلا حاجة إلى تقدير أداء الزكاة.
وإنما أوثر هنا الاسم الأعم وهو)فاعلون(لأن مادة)ف.ع.ل(مشتهرة في إسداء المعروف. واشتق منها الفعال بفتح الفاء، قال محمد بن بشير الخارجي:

إن تنفق المال أو تكلف مساعيه
يشقق عليك وتفعل دون ما فعلا وعلى هذا الاعتبار جاء ما نسب إلى أمية بن أبي الصلت:
المطعمون الطعام في السنة الغاز
ثمة والفاعلـون لـلـزكـوات أنشده في الكشاف. وفي نفسي من صحة نسبته تردد لأني أحسب استعمال الزكاة في معنى المال المبذول لوجه الله إلا من مصطلحات القرآن فلعل اللبيب مما نحل من الشعر على ألسنة الشعراء. قال ابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء وعلماؤنا لا يرون شعر أمية حجة على الكتاب .
واللام على هذا الوجه لام التقوية لضعف العامل بالفرعية وبالتأخير عن معموله.
وقال أبو مسلم والراغب: اللام للتعليل وجعلا الزكاة تزكية النفس. ومعنى)فاعلون(فاعلون الأفعال الصالحات فحذف معمول) فاعلون(بدلالة علته عليه.
وفي الكشاف أن الزكاة هنا مصدر وهو فعل المزكي، أي إعطاء الزكاة وهو الذي يحسن أن يتعلق ب)فاعلون(لأنه ما من مصدر إلا ويعبر عن معناه بمادة فعل، فيقال للضارب: فاعل الضرب، وللقاتل: فاعل القتل. وإنما حاول بذلك إقامة تفسير الآية فغلب جانب الصناعة اللفظية على جانب المعنى وجوز الوجه الآخر على شرط تقدير مضاف، وكلا الاعتبارين غير ملتزم.
وعقب ذكر الصلاة بذكر الزكاة لكثرة التآخي بينهما في آيات القرآن، وإنما فصل بينهما هنا بالإعراض عن اللغو للمناسبة التي سمعت آنفا.
وهذا من آداب المعاملة مع طبقة أهل الخصاصة وهي ترجع إلى آداب التصرف في المال. والقول في إعادة الموصول وتقديم المعمول كما تقدم آنفا.
)والذين هم لفروجهم حافظون[5] إلا على أزوجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين[6] فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون[7](الحفظ: الصيانة والإمساك. وحفظ الفرج معلوم، أي عن الوطء. والاستثناء في قوله)إلا على أزواجهم(الخ استثناء من عموم متعلقات الحفظ التي دل عليها حرف)على(، أي حافظونها على كل ما يحفظ عليه إلا المتعلق الذي هو أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، فضمن)حافظون(معنى عدم البذل، يقال: احفظ علي عنان فرسي كما يقال: أمسك علي كما في آية)أمسك عليك زوجك(. والمراد حل الصنفين من بين بقية أصناف النساء. وهذا مجمل تبينه تفاصيل الأحكام في عدد الزوجات وما يحل منهن بمفرده أو الجمع بينه.

وتفاصيل الأحوال من حال حل الانتفاع أو حال عدة فذلك كله معلوم للمخاطبين. وكذلك في الإماء.
والتعبير عن الإماء باسم)ما(الموصولة الغالب استعمالها لغير العاقل جرى على خلاف الغالب وهو استعمال كثير لاحتاج معه إلى تأويل.

صفحة : 2818

وقوله)فإنهم غير ملومين(تصريح بزائد على حكم مفهوم الاستثناء، لأن الاستثناء لم يدل على أكثر من كون عدم الحفظ على الأزواج والمملوكات لا يمنع الفلاح فأريد زيادة بيان أنه أيضا لا يوجب اللوم الشرعي، فيدل هذا بالمفهوم على أن عدم الحفظ على من سواهن يوجب اللوم الشرعي ليحذره المؤمنون.
والفاء في قوله)فإنهم غير ملومين(تفريع للتصريح على مفهوم الاستثناء الذي هو في قوة الشرط فأشبه التفريع عليه جواب الشرط فقرىء بالفاء تحقيقا للاشتراط.
وزيد ذلك التحذير تقريرا بأن فرع عليه)فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون(لأن داعية غلبة شهوة الفرج على حفظ صاحبه إياه غريزة طبيعية يخشى أن تتغلب على حافظها، فالإشارة بذلك إلى المذكور في قوله)إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم(أي وراء الأزواج والمملوكات، أي غير ذينك الصنفين.
وذكر حفظ الفرج هنا عطفا على الإعراض عن اللغو لأن من الإعراض عن اللغو ترك اللغو بالأحرى كما تقدم آنفا؛ لأن زلة الصالح قد تأتيه من انفلات أحد هذين العضوين من جهة ما أودع في الجبلة من شهوة استعمالهما فلذلك ضبطت الشريعة استعمالهما بأن يكون في الأمور الصالحة التي أرشدت إليها الديانة. وفي الحديث:)من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة(.
واللوم: الإنكار على الغير ما صدر منه من فعل أو قول لا يليق عند الملائم، وهو مرادف العذل وأضعف من التعنيف.
و)وراء(منصوب على المفعول به. وأصل الوراء اسم المكان الذي في جهة الظهر، ويطلق على الشيء الخارج عن الحد المحدود تشبيها للمتجاوز الشيء بشيء موضوع خلف ظهر ذلك الشيء لأن ما كان من أعلاق الشخص يجعل بين يديه وبمرأى منه وما كان غير ذلك ينبذ وراء الظهر، وهذا التخيل شاع عنه هذا الإطلاق بحيث يقال: هو وراء الحد، ولو كان مستقبله. ثم توسع فيه فصار بمعنى)

غير(أو)ما عدا(كما هنا، أي فمن ابتغوا بفروجهم شيئا غير الأزواج وما ملكت أيمانهم.
وأتي لهم باسم الإشارة في قوله:)فأولئك هم العادون(لزيادة تمييزهم بهذه الخصلة الذميمة ليكون وصفهم بالعدوان مشهورا مقررا كقوله تعالى)وأولئك هم المتقون(في سورة البقرة. والعادي هو المعتدي، أي الظالم لأنه عدا على الأمر.
وتوسيط ضمير الفصل لتقوية الحكم، أي هم البالغون غاية العدوان على الحدود الشرعية.
والقول في إعادة الموصول وتقديم المعمول كما مر.
)والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون[8](هذه صفة أخرى من جلائل صفات المؤمنين تنحل إلى فضيلتين هما فضيلة أداء الأمانة التي يؤتمنون عليها وفضيلة الوفاء بالعهد.
فالأمانة تكون غالبا من النفائس التي يخشى صاحبها عليها التلف فيجعلها عند من يظن فيه حفظها، وفي الغالب يكون ذلك على انفراد بين المؤتمن والأمين، فهي لنفاستها قد تغري الأمين عليها بأن لا يردها وبأن يجحدها ربها، ولكون دفعها في الغالب عريا عن الإشهاد تبعث محبتها الأمين على التمسك بها وعدم ردها، فلذلك جعل الله ردها من شعب الإيمان.
وقد جاء في الحديث عن حذيفة بن اليمان قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة ، وحدثنا عن رفعها قال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا وليس فيه شيء فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلا أمينا، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان اه.
الوكت: سواد يكون في قشر التمر. والمجل: انتفاخ في الجلد الرقيق يكون شبه قشر العنبة ينشأ من مس النار الجلد ومن كثرة العمل باليد، وقوله: مثقال حبة من خردل من إيمان هو مصدر آمنه، أي وما في قرارة نفسه من إيمان الناس إياه فلا يأتمنه إلا مغرور.
وقد تقدم الكلام على الأمانة في قوله تعالى:)إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها(في سورة النساء.
وجمع)الأمانات(باعتبار تعدد أنواعها وتعدد القائمين بالحفظ تنصيصا على العموم.

وقرأ الجمهور:)لأماناتهم(بصيغة الجمع، وقرأه ابن كثير) لأمانتهم(بالإفراد باعتبار المصدر مثل)الذين هم في صلاتهم خاشعون(.

والعهد: التزام بين اثنين أو أكثر على شيء يعامل كل واحد من الجانبين الآخر به. وسمي عهدا لأنهم يتحالفان بعهد الله، أي بأن يكون الله رقيبا عليهما في ذلك لايفيتهم المؤاخذة على تخلفه، وتقدم عند قوله تعالى)الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه(في سورة البقرة.

والوفاء بالعهد من أعظم خلق الكريم لدلالته على شرف النفس وقوة العزيمة، فإن المرائين قد يلتزم كل منهما للآخر عملا عظيما فيصادف أن يتوجه الوفاء بذلك الالتزام على أحدهما فيصعب عليه أن يتجشم عملا لنفع غيره بدون مقابل ينتفع به هو فتسول له نفسه الختر بالعهد شحا أو خورا في العزيمة، فلذلك كان الوفاء بالعهد علامة على عظم النفس قال تعالى)وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا(.

والرعي: مراقبة شيء بحفظه من التلاشي وبإصلاح ما يفسد منه، فمنه رعي الماشية، ومنه رعي الناس، ومنه أطلقت المراعاة على ما يستحقه ذو الأخلاق الحميدة من حسن المعاملة. والقائم بالرعي راع.

فرعي الأمانة: حفظها. ولما كان الحفظ مقصودا لأجل صاحبها كان ردها إليه أولى من حفظها.

ورعي العهد مجاز، أي ملاحظته عند كل مناسبة.

والقول في تقديم)لأماناتهم وعهدهم(على)راعون(كالقول في نظائره السابقة، وكذلك إعادة اسم الموصول.

والجمع بين رعي الأمانات ورعي العهد لأن العهد كالأمانة لأن الذي عاهدك قد ائتمنك على الوفاء بما يقتضيه ذلك العهد.

وذكرهما عقب أداء الزكاة لأن الزكاة أمانة الله عند الذين أنعم عليهم بالمال، ولذلك سميت: حق الله، حق المال، وحق المسكين.

)والذين هم على صلواتهم يحافظون[9](ثناء على المؤمنين بالمحافظة على الصلوات، أي بعدم إضاعتها أو إضاعة بعضها. والمحافظة مستعملة في المبالغة في الحفظ إذ ليست المفاعلة هنا حقيقية كقوله تعالى)حافظوا على الصلوات(وتقدم معنى الحفظ قريبا.

وجيء بالصلوات بصيغة الجمع للإشارة إلى المحافظة على أعدادها كلها تنصيصا على العموم.
وإنما ذكر هذا مع ما تقدم من قوله)الذين هم في صلاتهم خاشعون(لأن ذكر الصلاة هنالك جاء تبعا للخشوع فأريد ختم صفات مدحهم بصفة محافظتهم على الصلوات ليكون لهذه الخصلة كمال الاستقرار في الذهن لأنها آخر ما قرع السمع من هذه الصفات.
وقد حصل بذلك تكرير ذكر الصلاة تنويها بها. وردا للعجز على الصدر تحسينا للكلام الذي ذكرت فيه تلك الصفات لتزداد النفس قبولا لسماعها ووعيها فتتأسى بها.
والقول في إعادة الموصول وتقديم المعمول وإضافة الصلوات إلى ضميرهم مثل القول في نظيره ونظائره.
وقرأ الجمهور)على صلواتهم(بصيغة الجمع، وقرأه حمزة والكسائي وخلف)على صلاتهم(بالإفراد.
وقد جمعت هذه الآية أصول التقوى الشرعية لأنها أتت على أعسر ما تراض له النفس من أعمال القلب والجوارح.
فجاءت بوصف الإيمان وهو أساس التقوى لقوله تعالى)ثم كان من الذين آمنوا(وقوله)والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا(.
ثم ذكرت الصلاة وهي عماد التقوى والتي تنهى عن الفحشاء والمنكر لما فيها من تكرر استحضار الوقوف بين يدي الله ومناجاته.
وذكرت الخشوع وهو تمام الطاعة لأن المرء قد يعمل الطاعة للخروج من عهدة التكليف غير مستحضر خشوعا لربه الذي كلفه بالأعمال الصالحة، فإذا تخلق المؤمن بالخشوع اشتدت مراقبته ربه فامتثل واجتنب. فهذان من أعمال القلب.
وذكرت الإعراض عن اللغو، واللغو من سوء الخلق المتعلق باللسان الذي يعسر إمساكه فإذا تخلق المؤمن بالإعراض عن اللغو فقد سهل عليه ما هو دون ذلك. وفي الإعراض عن اللغو خلق للسمع أيضا كما علمت.
وذكرت إعطاء الصدقات وفي ذلك مقاومة داء الشح)ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون(.
وذكرت حفظ الفرج. وفي ذلك خلق مقاومة اطراد الشهوة الغريزية بتعديلها وضبطها والترفع بها عن حضيض مشابهة البهائم فمن تخلق بذلك فقد صار كبح الشهوة ملكة له وخلقا.
وذكرت أداء الأمانة وهو مظهر للإنصاف وإعطاء ذي الحق حقه ومغالبة شهوة النفس لأمتعة الدنيا.

وذكرت الوفاء بالعهد وهو مظهر لخلق العدل في المعاملة والإنصاف من النفس بأن يبذل لأخيه ما يحب لنفسه من الوفاء.
وذكرت المحافظة على الصلوات وهو التخلق بالعناية والوقوف عند الحدود والمواقيت وذلك يجعل انتظام أمر الحياتين ملكة وخلقا راسخا.
وأنت إذا تأملت هذه الخصال وجدتها ترجع إلى حفظ ما من شأن النفوس إهماله مثل الصلاة والخشوع وترك اللغو وحفظ الفرج وحفظ العهد، وإلى بذل ما من شأن النفوس إمساكه مثل الصدقة وأداء الأمانة.
فكان في مجموع ذلك أعمال ملكتي الفعل والترك في المهمات، وهما منبع الأخلاق الفاضلة لمن تتبعها.
روى النسائي: أن عائشة قيل لها: كيف كان خلق رسول الله ? قالت: كان خلقه القرآن، وقرأت:)قد أفلح المؤمنون(حتى انتهت إلى قوله)والذين هم على صلواتهم يحافظون(. وقد كان خلق أهل الجاهلية على العكس من هذا، فيما عدا حفظ العهد غالبا، قال تعالى:)وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية(، وقال في شأن المؤمنين مع الكافرين)وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لابتغى الجاهلين(، وقال)وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة(، وقد كان البغاء والزنى فاشيين في الجاهلية.
)أولئك هم الوارثون[10] الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون[11](جيء لهم باسم الإشارة بعد أن أجريت عليهم الصفات المتقدمة ليفيد أسم الإشارة أن جدارتهم بما سيذكر بعد اسم الإشارة حصلت من اتصافهم بتلك الصفات على نحو قوله تعالى) أولئك على هدى من ربهم(بعد قوله)هدى للمتقين(إلى آخره في سورة البقرة. والمعنى: أولئك هم الأحقاء بأن يكونوا الوارثين بذلك.
وتوسيط ضمير الفصل لتقوية الخبر عنهم بذلك. وحذف معمول) الوارثون(ليحصل إبهام وإجمال فيترقب السامع بيانه فبين بقوله) الذين يرثون الفردوس(قصدا لتفخيم هذه الوراثة. والإتيان في البيان باسم الموصول الذي شأنه أن يكون معلوما للسامع بمضمون صلته إشارة إلى أن تعريف)الوارثون(تعريف العهد كأنه قيل: هم أصحاب هذا الوصف المعروفون به.
واستعيرت الوراثة للاستحقاق الثابت لآن الإرث أقوى الأسباب لاستحقاق المال، قال تعالى)وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون(.

والفردوس: اسم من أسماء الجنة في مصطلح القرآن، أو من أسماء أشرف جهات الجنات. وأصل الفردوس: البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر. وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأم حارثة بن سراقة لما أصابه سهم غرب يوم بدر فقلته وقالت أمه: إن كان في الجنة أصبر وأحتسب فقال لها ويحك أهبلت أ و جنة واحدة هي، إنها لجنان كثيرة وإنه لفي الفردوس .

وقد ورد في فضل هذه الآيات عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ)قد أفلح المؤمنون(حتى ختم عشر آيات . قال ابن العربي في العارضة: قوله)الذين يرثون الفردوس(هي العاشرة. رواه الترمذي وصححه.

)ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين[12] ثم جعلناه نطفة في قرار مكين[13] ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين[14](الواو عاطفة غرضا على غرض ويسمى عطف القصة على القصة، فللجملة حكم الاستيناف لأنها عطف على جملة)قد أفلح المؤمنون(التي هي ابتدائية. وهذا شروع في الاستدلال على انفراد الله تعالى بالخلق وبعظيم القدرة التي لا يشاركه فيها غيره، وعلى أن الإنسان مربوب لله تعالى وحده، والاعتبار بما في خلق الإنسان وغيره من دلائل القدرة ومن عظيم النعمة. فالمقصود منه إبطال الشرك لأن ذلك الأصل الأصيل في ضلال المعرضين عن الدعوة المحمدية.

ويتضمن ذلك امتنانا على الناس بأنهم أخرجهم من مهانة العدم إلى شرف الوجود وذلك كله ليظهر الفرق بين فريق المؤمنين الذين جروا في إيمانهم على ما يليق بالاعتراف بذلك وبين فريق المشركين الذين سلكوا طريقا غير بينة فحادوا عن مقتضى الشكر بالشرك.

صفحة : 2821

وتأكيد الخبر بلام القسم وحرف التحقيق مراعى فيه التعريض بالمشركين المنزلين منزلة من ينكر هذا الخبر لعدم جريهم على موجب العلم.

والخلق: الإنشاء والصنع، قد تقدم في قوله)قال كذلك الله يخلق ما يشاء(في آل عمران. والمراد بالإنسان يجوز أن يكون النوع

الإنسان ي. وفسر به ابن عباس ومجاهد، فالتعريف للجنس. وضمير) جعلناه(عائد إلى الإنسان .

والسلالة: الشيء المسلول، أي المنتزع من شيء آخر، يقال: سللت السيف،إذا أخرجته من غمده. فالسلالة خلاصة من شيء، ووزن فعالة؟ يؤذن بالقلة مثل القلامة والصبابة.

و)من(ابتدائية، أي خلقناه منفصلا وآتيا من سلالة، فتكون السلالة على هذا مجموع ماء الذكر والأنثى المسلول من دمهما.

وهذه السلالة هي ما يفرزه جهاز الهضم من الغذاء حين يصير دما؛ فدم الذكر حين يمر على غدتي التناسل)الأنثيين(تفرز منه الأنثيان مادة دهنية شحمية تحتفظ بها وهي التي تتحول إلى مني حين حركة الجماع، فتلك السلالة مخرجة من الطين لأنها من الأغذية التي أصلها من الأرض. ودم المرأة إذا مر على قناة الرحم ترك فيها بويضات دقيقة هي بذر الأجنة. ومن اجتماع تلك المادة الدهنية التي في الأنثيين مع البويضة من البويضات التي في قناة الرحم يتكون الجنين فلا جرم هو مخلوق من سلالة من طين.

وقوله)ثم جعلناه نطفة في قرار مكين(طور آخر للخلق وهو طور اختلاط السلالتين في الرحم. سميت سلالة الذكر نطفة لأنها تنطف، أي تقطر في الرحم في قناة معروفة وهو القرار المكين.

ف)نطفة(منصوب على الحال وقوله)في قرار مكين(هو المفعول الثاني ل)جعلناه(. و)ثم(للترتيب الرتبي لأن ذلك الجعل أعظم من خلق السلالة. فضمير)جعلناه(عائد إلى الإنسان باعتبار أنه من السلالة، فالمعنى: جعلنا السلالة في قرار مكين، أي وضعناها فيه حفظا لها، ولذلك غير في الآية التعبير عن فعل الخلق إلى فعل الجعل المتعدي ب)في(بمعنى الوضع.

والقرار في الأصل: مصدر قر إذا ثبت في مكانه. وقد سمي به هنا المكان نفسه. والمكين: الثابت في المكان بحيث لا يقلع من مكانه، فمقتضى الظاهر أن يوصف بالمكين الشيء الحال في المكان الثابت فيه. وقد وقع هنا وصفا لنفس المكان الذي استقرت فيه النطفة، على طريقة المجاز العقلي للمبالغة، وحقيقته مكين حاله. وقد تقدم قوله تعالى)أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة(في سورة الكهف وقوله)فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة(في سورة الحج.

ويجوز أن يراد بالإنسان في قوله)ولقد خلقنا الإنسان (آدم. وقال بذلك قتادة فتكون السلالة الطينة الخاصة التي كون الله منها آدم وهي الصلصال الذي ميزه من الطين في مبدإ الخليقة، فتلك الطينة مسلولة سلا خاصا من الطين ليتكون منها حي، وعليه فضمير) جعلناه نطفة(على هذا الوجه عائد إلى الإنسان باعتبار كونه نسلا

لآدم فيكون في الضمير استخدام، ويكون معنى هذه الآية كمعنى قوله تعالى)وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين(.
وحرف)ثم(في قوله تعالى)ثم خلقنا النطفة علقة(للترتيب الرتبي إذ كان خلق النطفة علقة أعجب من خلق النطفة إذ صير الماء السائل دما جامدا فتغير بالكثافة وتبدل اللون من عوامل أودعها الله في الرحم.
ومن إعجاز القرآن العلمي تسمية هذا الكائن العلقة فإنه وضع بديع لهذا الاسم إذ قد ثبت في علم التشريح أن هذا الجزء الذي استحالت إليه النطفة هو كائن حي له قوة امتصاص القوة من دم الأم بسبب التصاقه بعروق في الرحم تدفع إليه قوة الدم. والعلقة: قطعة من دم عاقد.
والمضغة: القطعة الصغيرة من اللحم مقدار اللقمة التي تمضغ. وقد تقدم في أول سورة الحج كيفية تخلق الجنين.
وعطف جعل العلقة مضغة بالفاء لأن الانتقال من العلقة إلى المضغة يشبه تعقيب شيء عن شيء إذ اللحم والدم الجامد متقاربان فتطورهما قريب وإن كان مكث كل طور مدة طويلة.
وخلق المضغة عظاما هو تكوين العظام في داخل تلك المضغة وذلك ابتداء تكوين الهيكل الإنسان ي من عظم ولحم، وقد دل عليه قوله)فكسونا العظام لحما(بفاء التفريع على الوجه الذي قرر في عطف)فخلقنا المضغة(بالفاء.

صفحة : 2822

فمعنى)فكسونا(أن اللحم كان كالكسوة للعظام ولا يقتضي ذلك أن العظام بقيت حينا غير مكسوة، وفي الحديث الصحيح: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح الحديث، فإذا نفخ فيه الروح فقد تهيأ للحياة والنماء وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى)ثم أنشأناه خلقا آخر(لأن الخلق المذكور قبله كان دون حياة ثم نشأ فيه خلق الحياة وهي حالة أخرى طرأت عليه عبر عنها بالإنشاء. وللإشارة إلى التفاوت الرتبي بين الخلقين عطف هذا الإنشاء ب)ثم(الدالة على أصل الترتيب في عطف الجمل ب)ثم(.
وهذه الأطوار التي تعرضت لها الآية سبعة أطوار فإذا تمت فقد صار المتخلق حيا. وفي شرح الموطأ:)تناجى رجلان في مجلس عمر

بن الخطاب وعلي حاضر فقال لهما عمر: ما هذه المناجاة ؟ فقال أحدهما: إن إليهود يزعمون أن العزل هو الموؤدة الصغرى، فقال علي: لا تكون موؤدة تمر عليها التارات السبع)ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين(الآية، فقال عمر لعلي:)صدقت أطال الله بقاءك(. فقيل: ان عمر أول من دعا بكلمة)أطال الله بقاءك(.

وقرأ الجمهور)فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام(بصيغة جمع)العظام(فيهما، وقرأه ابن عامر وأبو بكر عن عاصم)عظما(..)والعظم(بصيغة الإفراد.

وفرع على حكاية هذا الخلق العجيب إنشاء الثناء على الله تعالى بأنه)أحسن الخالقين(أي أحسن المنشئين إنشاء، لأنه أنشأ ما لا يستطيع غيره إنشاءه.

ولما كانت دلالة خلق الإنسان على عظم القدرة أسبق إلى اعتبار المعتبر كان الثناء المعقب به ثناء على بديع قدرة الخالق مشتقا من البركة وهي الزيادة.

وصيغة تفاعل صيغة مطاوعة في الأصل وأصل المطاوعة قبول أثر الفعل، وتستعمل في لازم ذلك وهو التلبس بمعنى الفعل تلبسا مكينا لأن شأن المطاوعة أن تكون بعد معالجة الفعل فتقتضي ارتساخ معنى الفعل في المفعول القابل له حتى يصير ذلك المفعول فاعلا فيقال: كسرته فتكسر، فلذلك كان تفاعل إذا جاء بمعنى فعل دالا على المبالغة كما صرح به الرضي في شرح الشافية، ولذلك تتفق صيغ المطاوعة وصيغ التكلف غالبا في نحو: تثنى، وتكبر، وتشامخ، وتقاعس. فمعنى)تبارك الله(أنه موصوف بالعظمة في الخير، أي عظمة ما يقدره من خير للناس وصلاح لهم.

وبهذا الاعتبار تكون الجملة تذييلا لأن)تبارك(لما حذف متعلقه كان عاما فيشمل عظمة الخير في الخلق وفي غيره. وكذلك حذف متعلق)الخالقين(يعم خلق الإنسان وخلق غيره كالجبال والسماوات.

)ثم إنكم بعد ذلك لميتون[15] ثم إنكم يوم القيمة تبعثون[16]

(إدماج في أثناء تعداد الدلائل على تفرد الله بالخلق على اختلاف أصناف المخلوقات لقصد إبطال الشرك. و)ثم(للترتيب الرتبي لأن أهمية التذكير بالموت في هذا المقام أقوى من أهمية ذكر الخلق لأن الإخبار عن موتهم توطئة للجملة بعده وهي قوله)ثم إنكم يوم القيامة تبعثون(وهو المقصود.فهو كقوله)الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا(وهذه الجملة لها حكم الجملة الابتدائية وهي معترضة بين التي قبلها وبين جملة)ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق(. ولكون)ثم(لم تفد مهلة في الزمان هنا صرح بالمهلة في قوله بعد ذلك. والإشارة إلى الخلق المبين آنفا، أي بعد ذلك التكوين العجيب والنماء المحكم أنتم صائرون إلى الموت الذي هو تعطيل

أثر ذلك الإنشاء ثم مصيره إلى الفساد والاضمحلال. وأكد هذا الخبر ب)إن(واللام مع كونهم لا يرتابون فيه لأنهم لما أعرضوا عن التدبر فيما بعد هذه الحياة كانوا بمنزلة من ينكرون أنهم يموتون.
وتوكيد خبر)ثم إنكم يوم القيامة تبعثون(لأنهم ينكرون البعث.
ويكون ما ذكر قبله من الخلق الأول دليلا على إمكان الخلق الثاني كما قال تعالى)أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد(، فلم يحتج إلى تقوية التركيز بأكثر من حرف التأكيد وإن كان إنكارهم البعث قويا.
ونقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات، ونكتته هنا أن المقصود التذكير بالموت وما بعده على وجه التعريض بالتخويف وإنما يناسبه الخطاب.
)ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين[17](

صفحة : 2823

انتقال من الاستدلال بخلق الإنسان إلى الاستدلال بخلق العوالم العلوية لأن أمرها أعجب، وإن كان الإنسان إلى نظيره أقرب، فالجملة عطف على جملة)ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين(. وانما ذكر هذا عقب قوله)ثم إنكم يوم القيامة تبعثون(للتنبيه على أن الذي خلق هذا العالم العلوي ما خلقه إلا الحكمة، وأن الحكيم لايهمل ثواب الصالحين على حسناتهم، ولا جزاء المسيئين على سيئاتهم، وأن جعله تلك الطرائق فوقنا بحيث نراها ليدلنا على أن لها صلة بنا لأن عالم الجزاء كائن فيها ومخلوقاته مستقرة فيها، فالإشارة بهذا الترتيب مثل الإشارة بعكسه في قوله)وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين(.
والطرائق: جمع طريقة وهي اسم للطريق تذكر وتؤنث. والمراد بها هنا طرائق سير الكواكب السبعة وهي أفلاكها، أي الخطوط الفرضية التي ضبط الناس بها سموت سير الكواكب. وقد أطلق على الكواكب اسم الطارق في قوله تعالى)والسماء والطارق(من أجل أنه ينتقل في سمت يسمى طريقة فإن السايرفي طريق يقال له: طارق، ولا شك أن الطرائق تستلزم سائرات فيها، فكان المعنى: خلقنا سيارات وطرائقها.
وذكر)فوقكم(للتنبيه على وجوب النظر في أحوالها للاستدلال بها على قدرة الخالق لها تعالى فإنها بحالة إمكان النظر إليها والتأمل فيها.

ولأن كونها فوق الناس مما سهل انتفاعهم بها في التوقيت ولذلك عقب بجملة)وما كنا عن الخلق غافلين(المشعر بأن في ذلك لطفا بالخلق وتيسيرا عليهم في شؤون حياتهم، وهذا امتنان. فالواو في جملة)وما كنا عن الخلق غافلين(للحال، والجملة في موضع الحال. وفيه تنبيه للنظر في أن عالم الجزاء كائن بتلك العوالم قال تعالى)وفي السماء رزقكم وما توعدون(.

والخلق مفعول سمي بالمصدر، أي ما كنا غافلين عن حاجة مخلوقاتنا يعني البشر. ونفي الغفلة كناية عن العناية والملاحظة، فأفاد ذلك أن في خلق الطرائق السماوية لما خلقت له لطفا بالناس أيضا إذ كان نظام خلقها صالحا لانتفاع الناس به في مواقيتهم وأسفارهم في البر والبحر كما قال)وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر(. وأعظم تلك الطرائق طريقة الشمس مع ما زادت به من النفع بالإنارة وإصلاح الأرض والأجساد فصار المعنى: خلقنا فوقكم سبع طرائق لحكمة لا تعلمونها وما أهملنا في خلقها رعي مصالحكم أيضا.

والعدل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله)وما كنا عن الخلق غافلين(دون أن يقال: وما كنا عنكم غافلين، لما يفيده المشتق من معنى التعليل، أي ما كنا عنكم غافلين لأنكم مخلوقاتنا فنحن نعاملكم بوصف الربوبية، وفي ذلك تنبيه على وجوب الشكر والإقلاع عن الكفر.

)وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون[18] فأنشأنا لكم به جنت من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون[19] وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين[20](مناسبة عطف إنزال ماء المطر على جملة)ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق(أن ماء المطر ينزل من صوب السماء، أي من جهة السماء.

وفي إنزال ماء المطر دلالة على سعة العلم ودقيق القدرة، وفي ذلك أيضا منة على الخلق فالكلام اعتبار وامتنان من قوله)فأنشأنا لكم به جنات(إلى آخره. ومعنى هذه الآية تقدم في سورة الأنعام وسورة الرعد وسورة النحل.

وإنزال الماء هو إسقاطه من السحب ماء وثلجا وبردا على السهول والجبال.

والقدر هنا: التقدير والتعيين للمقدار في الكم وفي النوبة، فيصح أن يحمل على صريحه، أي بمقدار معين مناسب للإنعام به لأنه إذا أنزل كذلك حصل به الري والتعاقب، وكذلك ذوبان الثلوج النازلة. ويصح أن يقصد مع ذلك الكناية عن الضبط والإتقان. وليس المراد

بالقدر هنا المعنى الذي في قول النبي صلى الله عليه وسلم:) وتؤمن بالقدر خيره وشره(.
والإسكان: جعل الشيء في مسكن، والمسكن: محل القرار، وهو مفعل اسم مكان مشتق من السكون.

صفحة : 2824

وأطلق الإسكان على الإقرار في الأرض على طريق الاستعارة. وهذا الإقرار على نوعين: إقرار قصير مثل إقرار ماء المطر في القشرة الظاهرة من الأرض عقب نزول الأمطار على حسب ما تقتضيه غزارة المطر ورخاوة الأرض وشدة الحرارة أو شدة البرد. وهو ما ينبت به النبات في الحرث والبقل في الربيع وتمتص منه الأشجار بعروقها فتثمر إثمارها وتخرج به عروق الأشجار وأصولها من البزور التي في الأرض.
ونوع آخر هو إقرار طويل وهو إقرار المياه التي تنزل من المطر وعن ذوب الثلوج النازلة فتتسرب إلى دواخل الأرض فتنشأ منها العيون التي تنبع بنفسها أو تفجر بالحفر آبارا.
وجملة)وإنا على ذهاب به لقادرون(معترضة بين الجملة وما تفرع عليها، وفي هذا تذكير بأن قدرة الله تعالى صالحة للإيجاد والإعدام.
وتنكير)ذهاب(للتفخيم والتعظيم، ومعنى التعظيم هنا تعدد أحوال الذهاب به من تغويره إلى أعماق الأرض بانشقاق الأرض بزلزال ونحوه، ومن تجفيفه بشدة الحرارة، ومن إمساك إنزاله زمنا طويلا.
وفي معناه قوله تعالى)قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين(. وفي الكشاف:)وهو)أي ما في هاته الآية(أبلغ في الإيعاد من قوله)قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين(1 ه. فبين صاحب التقريب)1(للأبلغية ثمانية عشر وجها: الأول: أن ذلك على الفرض والتقدير وهذا على الجزم على معنى أنه أدل على تحقيق ما أوعد به وإن لم يقع.
الثاني: التوكيد ب)إن(، الثالث: اللام في الخبر، الرابع: أن في مطلق الماء المنزل من السماء وتلك في ماء مضاف إليهم ، الخامس: أن الغائر قد يكون باقيا بخلاف الذاهب.
السادس: ما في تنكير)ذهاب(من المبالغة، السابع: إسناده ههنا إلى مذهب بخلافه ثمت حيث قيل)غورا(، الثامن: ما في ضمير المعظم نفسه من الروعة، التاسع: ما في)قادرون(من الدلالة على القدرة عليه والفعل الواقع من القادر ابلغ، العاشر: ما في جمعه، الحادي عشر: ما في لفظ)به(من الدلالة على أن يمسكه فلا

مرسل له، الثاني عشر: إخلاؤه من التعقيب بإطماع وهنالك ذكر الإتيان المطمع، الثالث عشر: تقديم ما في الإيعاد وهو الذهاب على ما هو كالمتعلق له أو متعلقه على المذهبين البصري والكوفي، الرابع عشر: ما بين الجملتين الاسمية والفعلية من التفاوت ثباتا وغيره، الخامس عشر: ما في لفظ أصبح من الدلالة على الانتقال والصيرورة، السادس عشر: أن الإذهاب ههنا مصرح به وهنالك مفهوم من سياق الاستفهام، السابع عشر: أن هنالك نفي ماء خاص أعني المعين بخلافه ههنا، الثامن عشر: اعتبار مجموع هذه الأمور التي يكفي كل منها مؤكدا وزاد الألوسي في تفسيره فقال: التاسع عشر: إخباره تعالى نفسه به من دون أمر للغير ههنا بخلافه هنالك فإنه سبحانه أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول ذلك، العشرون:عدم تخصيص مخاطب ههنا وتخصيص الكفار بالخطاب هنالك، الحادي والعشرون: التشبيه المستفاد من جعل الجملة حالا فإنه يفيد تحقيق القدرة ولا تشبيه ثمة، الثاني والعشرون: إسناد القدرة إليه تعالى مرتين.

ونقل الألوسي عن عصريه المولى محمد الزهاوي وجوها وهي: الثالث والعشرون: تضمين الإيعاد هنا إيعادهم بالإبعاد عن رحمة الله تعالى لأن)ذهب به(يستلزم مصاحبة الفاعل المفعول، وذهاب الله تعالى عنهم مع الماء بمعنى ذهاب رحمته سبحانه عنهم ولعنهم وطردهم عنها ولا كذلك ما هناك.

الرابع والعشرون: أنه ليس الوقت للذهاب معينا هنا بخلافه في)إن أصبح(فإنه يفهم منه أن الصيرورة في الصبح على أحد استعمالي) أصبح(ناقصا.

الخامس والعشرون: أن جهة الذهاب به ليست معينة بأنها السفل) أي ما دل عليه لفظ غورا(.

السادس والعشرون: أن الإيعاد هنا بما لم يبتلوا به قط بما هنالك.

السابع والعشرون: أن الموعد به هنا إن وقع فهم هالكون البتة.

الثامن والعشرون: أنه لم يبق هنا لهم متشبث ولو ضعيفا في تأميل امتناع الموعد به وهناك حيث أسند الإصباح غورا إلى الماء، ومعلوم أن الماء لا يصبح غورا بنفسه كما هو تحقيق مذهب الحكيم أيضا احتمل أن يتوهم الشرطية مع صدقها ممتنعة المقدم فيأمنوا وقوعه.

التاسع والعشرون: أن الموعد به هنا يحتمل في بادئ النظر وقوعه حالا بخلافه هناك فإن المستقبل متعين لوقوعه لمكان)أن(. وظاهر أن التهديد لمحتمل الوقوع في الحال أهول، ومتعين الوقوع في الاستقبال أهون.

الثلاثون: أن ما هنا لا يحتمل غير الإيعاد بخلاف ما هناك فأنه يحتمل ولو علم بعد أن يكون المراد به الامتنان بأنه: إن أصبح ماؤكم غورا فلا يأتيكم بماء معين سوى الله تعالى.

وأنا أقول: عني هؤلاء النحارير ببيان التفاوت بين الآيتين ولم يتعرض أحدهم للكشف عن وجه وتوفير الخصائص في هذه الآية دون الآية الأخرى مما يوازنها، وليس ذلك لخلو الآية عن نكت الإعجاز ولا عجز الناظرين عن استخراج أمثالها؛ ولكن ما يبين من الخصائص البلاغية في القرآن ليس يريد من يبينه أن ما لاح له ووفق إليه هو قصارى ما أودعه الله في نظم القرآن من الخصائص والمعاني ولكن مبلغ ماصا دف لوحه للناظر المتدبر، والعلماء متفاوتون في الكشف عنه على قدر القرائح والفهوم فقد يفاض على أحد من إدراك الخصائص البلاغية في بعض الآيات ولا يفاض عليه مثله أو على مثله في غيرها. وإنما يقصد أهل المعاني بإفاضة القول في بعض الآيات أن تكون نموذجا لاستخراج أمثال تلك الخصائص في آيات اخرى. كما فعل السكاكي في بيان خصائص قوله تعالى)وقيل يا أرض ابلعي ماءك(الآية من مبحث الفصاحة والبلاغة من المفتاح، وأنه قال في منتهى كلامه)ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت لأن المقصود لم يكن إلا الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان(.

وقد نقول: إن آية سورة المؤمنين قصد منها الإنذار والتهديد بسلب تلك النعمة العظيمة، وأما آية سورة الملك فالقصد منها الاعتبار بقدرة الله تعالى على سلبها، فاختلاف المقامين له أثر في اختلاف المقتضيات فكانت آية سورة المؤمنين آثر بوفرة الخصائص المناسبة لمقام الإنذار والتهديد دون تعطيل لاستخراج خصائص فيها لعلنا نلم بها حين نصل إليها.

على أن سورة الملك نزلت عقب نزول سورة المؤمنين وقد يتداخل نزول بعضها مع نزول بعض سورة المؤمنين، فلما أشبعت آية سورة المؤمنين بالخصوصيات التي اقتضاها المقام اكتفي عن مثلها في نظيرتها من سورة الملك فسلك في الثانية مسلك الإيجاز لقرب العهد بنظيرها.

وإنشاء الجنات من صنع الله تعالى أول إنبات الجنات في الأرض ومن بعد ذلك أنبتت الجنات بغرس البشر وذلك أيضا من صنع الله

بما أودع في العقول من معرفة الغرس والزرع والسقي وتفجير المياه واجتلابها من بعد، فكل هذا الإنشاء من الله تعالى.
والجنة: المكان ذو الشجر. وأكثر إطلاقه على ما كان فيه نخل وكرم. وقد تقدم عند قوله تعالى كمثل)جنة بربوة(الآية في سورة البقرة.
وما ذكر هنا من أصناف الشجر الثلاثة هو أكرم الشجر وأنفعه ثمرا وهو النخيل والأعناب والزيتون، وتقدم الكلام على النخيل والأعناب والزيتون في سورة النحل.
والفواكه: جمع فاكهة، وهي الطعام الذي يتفكه بأكله، أي يتلذذ بطعمه من غير قصد القوت، فإن قصد به القوت قيل له طعام. فمن الأطعمة ما هو فاكهة وطعام كالتمر والعنب لأنه يؤكل رطبا ويابسا، ومنها ما هو فاكهة وليس بطعام كاللوز والكمثرى، ومنها ما هو طعام غير فاكهة كالزيتون، ولذلك أخر ذكر شجرة الزيتون عن ذكر أخويها لأنه أريد الامتنان بما في ثمرتهما من التفكه والقوت فتكون منة بالحاجي والتحسيني.
ووصف الفواكه ب)كثيرة(باعتبار اختلاف الأصناف كالبسر والرطب والتمر، وكالزيت والعنب والرطب، وأيضا باعتبار كثرة إثمار هذين الشجرين.
)وشجرة(عطف على)جنات(أي وأخرجنا لكم به شجرة تخرج من طور سيناء وهي شجرة الزيتون، وجملة)تخرج(صفة ل)شجرة(.
وتخصيصها بالذكر مع طي كون الناس منها يأكلون تنويه بشأنها، وإيماء إلى كثرة منافعها لأن من ثمرتها طعاما وإصلاحا ومداواة، ومن أعوادها وقود وغيره. وفي الحديث كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة .

صفحة : 2826

وطور سيناء: جبل في صحراء سيناء الواقعة بين عقبة أيله وبين مصر، وهي من بلاد فلسطين في القديم وفيه ناجى موسى ربه تعالى، وتقدم الكلام عليه في سورة الأعراف عند قوله)ولكن انظر إلى الجبل(. وغلب عليه اسم الطور بدون إضافة، وطور سيناء أو طور سينين. ومعنى الطور الجبل. وسيناء قيل اسم شجر يكثر هنالك. وقيل اسم حجارة. وقيل هو اسم لذلك المكان. قيل هو اسم نبطي وقيل هو اسم حبشي ولا يصح. وإنما اغتر من قاله بمشابهة هذا الاسم لوصف الحسن في اللغة الحبشية وهو كلمة سناه. ومثل هذا التشابه قد أثار أغلاطا.

وسكنت ياء)سيناء(سكونا ميتا وبه قرأ الجمهور. ويجوز فيها الفتح وسكون الياء سكونا حيا، وبه قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف، وهو في القراءتين ممدود، وهو فيهما ممنوع من الصرف فقيل للعلمية والعجمة على قراءة الكسر لأن وزن فعلاء إذا كان عينه أصلا لاتكون ألفه للتأنيث بل للالحاق وألف الإلحاق لاتمنع الصرف، وعلى قراءة الفتح فمنعه لأجل ألف التأنيث لأن وزن فعلاء من أوزان ألف التأنيث.

وقوله)تخرج من طور سيناء(يقتضي أن لها مزيد اختصاص بطور سيناء. وقد غمض وجه ذاك. والذي أراه أن الخروج مستعمل في معنى النشأة والتخلق كقوله تعالى)فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى(وقوله)يخرج به زرعا مختفلا ألوانه(. وذلك أن حقيقة الخروج هو البروز من المكان ولما كان كل مخلوق يبرز بعد العدم وكان المكان لازما لكل حادث شبه ظهور الشيء بعد أن كان معدوما بخروج الشيء من المكان الذي كان محجوبا فيه. وهي استعارة شائعة في القرآن.

فيظهر أن المعنى أن الله خلق أول شجر الزيتون في طور سيناء، وذلك أن الأجناس والأنواع الموجودة على الكرة الأرضية لابد لها من مواطن كان فيها ابتداء وجودها قبل وجودها في غيرها لأن بعض الأمكنة تكون أسعد لنشأة بعض الموجودات من بعض آخر لمناسبة بين طبيعة المكان وطبيعة الشيء الموجود فيه من حرارة أو برودة أو اعتدال، وكذلك فصول السنة كالربيع لبعض الحيوان والشتاء لبعض آخر والصيف لبعض غيرها فالله تعالى يوجد الموجودات في الأحوال المناسبة لها فالحيوان والنبات كله جار على هذا القانون.

ثم إن البشر إذا نقلوا حيوانا أو نباتا من أرض إلى أرض أو أرادوا الانتفاع به في فصل غير فصله ورأوا عدم صلاحية المكان أو الزمان المنقول إليهما يحتالون له بما يكمل نقصه من تدفئة في شدة برد أو تبريد بسبح في الماء في شدة الحر حتى لا يتعطل تناسل ذلك المنقول إلى غير مكانه، فكما أن بعض الحيوان أو النبات لا يعيش طويلا في بعض المناطق الملائمة لطباعه كالغزال في بلاد الثلوج فكذلك قد يكون بعض الأماكن من المنطقة الملائمة للحيوان أو النبات أصلح به من بعض جهات تلك المنطقة، فلعل جو طور سيناء لتوسطه بين المناطق المتطرفة حرا وبردا ولتوسط ارتفاعه بين النجود والسهول يكون أسعد بطبع فصيلة الزيتون كما قال تعالى)زيتونه لا شرقية ولا غربية(، فالله تعالى هيأ لتكوينها حين أراد تكوينها ذلك المكان كما هيأ لتكوين آدم طينة خاصة فقال)خلق الإنسان من صلصال(. ثم يكون الزيتون قد نقل من أول

مكان ظهر فيه إلى أمكنة أخرى نقله إليها ساكنوها للانتفاع به فنجح في بعضها ولم ينجح في بعض.

وقد ثبت في التوراة أن شجرة الزيتون كانت موجودة قبل الطوفان وبعده. ففي الإصحاح الثامن من سفر التكوين: أن نوح أرسل حمامة تبحث عن مكان غيضت عنه مياه الطوفان فرجعت الحمامة عند المساء تحمل في منقارها ورقة زيتون خضراء فعلم نوح أن الماء أخذ يغيض عن الأرض.

ومعلوم أن ابتداء غيض الماء إنما ينكشف عن أعالي الجبال أول الأمر فلعل ورقة الزيتون التي حملتها الحمامة كانت من شجرة في طور سيناء.

وأياما كان فقد عرف نوح ورقة الزيتون فدل على أنهم كانوا يعرفون هذه الشجرة قبل الطوفان. ولكن لم يرد ذكر استعمال زيت الزيتون في طعام في التاريخ القديم إلا في عهد موسى عليه السلام أيام كان بنو إسرائيل حول طور سيناء؛ فقد استعمل الزيت لإنارة خيمة الاجتماع بوحي الله لموسى، وسكب موسى دهن المسحة على رأس هارون أخيه حين أقامه كاهنا لبني إسرائيل.

صفحة : 2827

ويجوز أن يكون معنى)تخرج(تظهر وتعرف، فيكون أول اهتداء الناس إلى منافع هذه الشجرة وانتقالهم إياها كان من الزيتون الذي بطور سيناء. وهذا كما نسمي الديك الرومي في بلدنا بالديك الهندي لأن الناس عرفوه من بلاد الهند، وكما تسمى بعض السيوف في بلاد العرب بالمشرفية لأنها عرفت من مشارف الشام، وبعض الرماح الخطية لأنها ترد إلى بلاد العرب من مرفأ يقال له: الخط، وبعض السيوف بالمهند لأنه يجلب من الهند، وقد كان الزيت يجلب إلى بلاد العرب من الشام ومن فلسطين.

وأياما كان فليس القصد من ذكر أنها تخرج من طور سيناء إلا التنبيه على أنه منبتها الأصلي وإلا فإن الامتنان بها لم يكن موجها يومئذ لسكان طور سيناء. وما كان هذا التنبيه إلا للتنويه بشرف منبتها وكرم الموطن الذي ظهرت فيه، ولم تزل شجرة الزيتون مشهورة بالبركة بين الناس. ورأيت في لسان العرب عن الأصمعي عن عبد الملك بن صالح: أن كل زيتونة بفلسطين من غرس أمم يقال لهم اليونانيون 1 ه. والظاهر أنه يعني به زيتون زمانهم الذي أخلفوا به أشجارا قديمة بادت.

وفي أساطير اليونان)ميثولوجيا(أن منيرفا ونبتون)الربين في اعتقاد اليونان(تنازعا في تعيين أحدهما ليضع اسما لمدينة بناها) ككرابيس(فحكمت الأرباب بينهما بأن هذا الشرف لا يناله إلا من يصنع أنفع الأشياء. فأما)نبتون(فأوجد فرسا بحريا عظيم القوة، وأما)مينيرفا(فصنعت شجرة الزيتون بثمرتها، فحكم الأرباب لها بأنها أحق، فلذلك وضعوا للمدينة اسم)اثينا(الذي هو اسم منيرفا. وزعموا أن)هيركول(لما رجع من بعض غزواته جاء معه بأغصان من الزيتون فغرسها في جبل)أولمبوس(وهو مسكن آلهتهم في زعمهم.

فقد كان زيت الزيتون مستعملا عند اليونان من عهد) هوميروس(إذ ذكر في الإلياذة أن)أخيل(سكب زيتا على شلو)فطر قليوس(وشلو)هكتور(.

وكان الزيت نادرا في معظم بلاد العرب إذ كان يجلب إلى بلاد العرب من الشام.

وقد ضرب الله بزيت الزيتونة مثلا لنوره في قوله)مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتون لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور(.

والتعبير بالمضارع في قوله)تخرج من طور سيناء(لاستحضار الصورة العجيبة المهمة التي كونت بها تلك الشجرة في أول تكوينها حتى كأن السامع يبصرها خارجة بالنبات في طور سيناء. وذلك كقوله)وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير(. وهذا أنسب بالوجه الأول في تفسير معنى)تخرج من طور سيناء(.

ومعنى)تنبت بالدهن(أنها تنبت ملابسة للدهن فالباء للملابسة.

وهذه الآية مثال لباء الملابسة. والملابسة معنى واسع. فملابسة نبات شجرة الزيتون للدهن والصبغ ملابسة بواسطة ملابسة ثمرتها للدهن والصبغ؛ فإن ثمرتها تشتمل على الزيت وهو يكون دهنا وصبغا للآكلين. فأما كونه دهنا فهو أنه يدهن به الناس أجسادهم ويرجلون به شعورهم ويجعلون فيه عطورا فيرجلون به الشعور، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدهن بالزيت في رأسه.

والدهن بضم الدال: اسم لما يدهن به، أي يطلى به شيء، ويطلق الدهن على الزيت باعتبار أنه يطلى به الجسد للتداوي والشعر للترجيل.

والصبغ، بكسر الصاد: ما يصبغ به أي يغير به اللون. ثم توسع في إطلاقه على كل مائع يطلى به ظاهر جسم ما، ومنه قوله تعالى) صبغة الله(وسمي الزيت صبغا لأنه يصبغ به الخبز. وعطف) صبغ(على)الدهن(باعتبار المغايرة في ما تدل عليه مادة اشتقاق الوصف فإن الصبغ ما يصبغ به والدهن ما يدهن والصبغ أخص؛ فهو

من باب عطف الخاص على العام للاهتمام، وكانوا يأدمون به الطعام وذلك صبغ للطعام. أخرج الترمذي في سننه عن عمر بن الخطاب وعن أبي أسيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة .
وقرأ الجمهور)تنبت(بفتح التاء وضم الموحدة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس ويعقوب بضم التاء وكسر الموحدة على لغة من يقول: أنبت بمعنى نبت، أو على حذف المفعول، أي تنبت هي ثمرها، أي تخرجه.

صفحة : 2828

)وإن لكم في الأنعم لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون[21] وعليها وعلى الفلك تحملون[22](.
هذا العطف مثل عطف جملة)وأنزلنا من السماء(ففيه كذلك استدلال ومنة.
والعبرة: الدليل لأنه يعبر من معرفته إلى معرفة أخرى. والمعنى: إن في الأنعام دليلا على انفراد الله تعالى بالخلق وتمام القدرة وسعة العلم.
والأنعام تقدم أنها الإبل في غالب عرف العرب.
وجملة)نسقيكم مما في بطونها(بيان لجملة)وإن لكم في الأنعام لعبرة(فلذلك لم تعطف لأنها في موقع المعطوف عطف البيان.
والعبرة حاصلة من تكوين ما في بطونها من الألبان الدال عليه) نسقيكم(. وأما)نسقيكم(بمجرده فهو منة. وقد تقدم نظير هذه الآية مفصلا في سورة النحل.
وجملة)ولكم فيها منافع كثيرة(وما بعدها معطوفة على جملة) نسقيكم مما في بطونها(فإن فيه بقية بيان العبرة وكذلك الجمل بعده. وهذه المنافع هي الأصواف والأوبار والأشعار والنتاج.
وأما الأكل منها فهو عبرة أيضا إذ أعدها الله صالحة لتغذية البشر بلحومها لذيذة الطعم، وألهم إلى طريقة شيها وصلقها وطبخها، وفي ذلك منة عظيمة ظاهرة.
وكذلك القول في معنى)وعليها تحملون(فإن في ذلك عبرة بإعداد الله تعالى إياها لذلك وفي ذلك منة ظاهرة. والحمل صادق بالركوب وبحمل الأثقال.
وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بفتح النون، وقرأه الباقون عدا أبا جعفر بضم النون يقال: سقاه وأسقاه بمعنى، وقرأه أبو جعفر بتاء التأنيث مفتوحة على أن الضمير للأنعام.

وعطف)وعلى الفلك(إدماج وتهيئة للتخلص إلى قصة نوح.
)ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون[23] فقال ألملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين[24] إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين[25](لما كان الاستدلال والامتنان اللذان تقدما موجهين إلى المشركين الذين كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم واعتلوا لذلك بأنهم لا يؤمنون برسالة بشر مثلهم وسألوا إنزال ملائكة ووسموا الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنون، فلما شابهوا بذلك قوم نوح ومن جاء بعدهم ناسب أن يضرب لهم بقوم نوح مثل تحذيرا مما أصاب قوم نوح من العذاب. وقد جرى في أثناء الاستدلال والامتنان ذكر الحمل في الفلك فكان ذلك مناسبة للانتقال فحصل بذلك حسن التخلص، فيعتبر ذلك قصص الرسل إما استطرادا في خلال الاستدلال على الوحدانية ، وإما انتقالا كما سيأتي عند قوله تعالى)وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار(.
وتصدير الجملة بلام القسم تأكيد للمضمون التهديدي من القصة، فالمعنى تأكيد الإرسال إلى نوح وما عقب به ذلك.
وعطف مقالة نوح على جملة إرساله بفاء التعقيب لإفادة أدائه رسالة ربه بالفور من أمره وهو شأن الامتثال.
وأمر ه قومه بأن يعبدوا الله يقتضي أنهم كانوا معرضين عن عبادة الله بأن أقبلوا على عبادة أصنامهم ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر حتى أهملوا عبادة الله ونسوها. وكذلك حكيت دعوة نوح قومه في أكثر الآيات بصيغة أمر بأصل عبادة الله دون الأمر بقصر عبادتهم على الله مع الدلالة على أنهم ما كانوا ينكرون وجود الله ولذلك عقب كلامه بقوله)مالكم من إله غيره(.
ويدل على هذا قولهم)ولو شاء الله لأنزل ملائكة(فهم مثبتون لوجود الله. فجملة)مالكم من إله غيره(في موقع التعليل للأمر بعبادته وهو تعليل أخص من المعلل، وهو أوقع لما فيه من الإيجاز لاقتضائه معنى: اعبدوا الله وحده. فالمعنى: اعبدوا الله الذي تركتم عبادته وهو إلهكم دون غيره فلا يستحق غيره العبادة فلا تعبدوا أصنامكم معه.
و)غيره(نعت ل)إله(قرأه الجمهور بالرفع على اعتبار محل المنعوت ب)غير(لأن المنعوت مجرور بحرف جر زائد. وقرأه الكسائي بالجر على اعتبار اللفظ المجرور بالحرف الزائد.

وفرع على الأمر بإفراده بالعبادة استفهام إنكار على عدم اتقائهم عذاب الله تعالى. وقد خولفت في حكاية جواب الملإ من قومه الطريقة المألوفة في القرآن في حكاية المحاورات وهي ترك العطف التي جرى عليها قوله)وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة(في سورة البقرة.

فعطف هنا جواب الملإ من قومه بالفاء لوجهين: أحدهما: أنهم لم يوجهوا الكلام إليه بل تركوه وأقبلوا على قومهم يفندون لهم ما دعاهم إليه نوح.

والثاني: ليفاد أنهم أسرعوا لتكذيبه وتزييف دعوته قبل النظر.

ووصف الملإ بأنهم الذين كفروا للإيماء إلى أن كفرهم هو الذي أنطقهم بهذا الرد على نوح، وهو تعريض بأن مثل ذلك الرد لا نهوض له ولكنهم روجوا به كفرهم خشية على زوال سيادتهم.

وقوله)من قومه(صفة ثانية.

وقول الملأ من قومه)ما هذا إلا بشر مثلكم(خاطب به بعضهم بعضا إذ الملأ هم القوم ذوو السيادة والشارة، أي فقال عظماء القوم لعامتهم.

وإخبارهم بأنه بشر مثلهم مستعمل كناية عن تكذيبه في دعوى الرسالة بدليل من ذاته، أوهموهم أن المساواة في البشرية مانعة من الوساطة بين الله وبين خلقه، وهذا من الأوهام التي أضلت أمما كثيرة. واسم الإشارة منصرف إلى نوح وهو يقتضي أن كلام الملإ وقع بحضرة نوح في وقت دعوته، فعدلوا من اسمه العلم إلى الإشارة لأن مقصودهم تصغير أمره وتحقيره لدى عامتهم كيلا يتقبلوا قوله. وقد تقدم نظير هذا في سورة هود.

وزادت هذه القصة بحكاية قولهم)يريد أن يتفضل عليكم(فإن سادة القوم ظنوا أنه ما جاء بتلك الدعوة إلا حبا في أن يسود على قومهم فخشوا أن تزول سيادتهم وهم بجهلهم لا يتدبرون أحوال النفوس ولا ينظرون مصالح الناس ولكنهم يقيسون غيرهم على مقياس أنفسهم.

فلما كانت مطامح أنفسهم حب الرئاسة والتوسل إليها بالانتصاب لخدمة الأصنام توهموا أن الذي جاء بإبطال عبادة الأصنام إنما أراد منازعتهم سلطانهم.

والتفضل: تكلف الفضل وطلبه، والفضل أصله الزيادة ثم شاع في زيادة الشرف والرفعة، أي أن يكون أفضل الناس لأنه نسبهم كلهم إلى الضلال.

وقولهم)ولو شاء الله لأنزل ملائكة(عطف على جملة)ما هذا إلا بشر مثلكم(بعد أن مهدوا له بأن البشرية مانعة من أن يكون صاحبها رسولا لله.

وحذف مفعول فعل المشيئة لظهوره من جواب)لو(، أي لو شاء الله إرسال رسول لأنزل ملائكة رسلا. وحذف مفعول المشيئة جائز إذا دلت عليه القرينة، وذلك من الإيجاز. ولا يختص بالمفعول الغريب مثلما قال صاحب المفتاح: ألا ترى قول المعري:

وإن شئت فازعم أن من فوق ظهرها

عبيدك واستشهد إلـهـك يشـهـد وهل أغرب من هذا الزعم لو كانت الغرابة مقتضية ذكر مفعول المشيئة. فلما دل عليه مفعول جواب الشرط حسن حذفه من فعل الشرط.

وجملة)ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين(مستأنفة قصدوا بها تكذيب الدعوة بعد تكذيب الداعي، فلذلك جيء بها مستأنفة غير معطوفة تنبيها على أنها مقصودة بذاتها وليست تكملة لما قبلها، بخلاف أسلوب عطف جملة)ولو شاء الله لأنزل ملائكة(إذ كان مضمونها من تمام غرض ما قبلها.

فالإشارة ب)هذا(إلى الكلام الذي قاله نوح، إي ما سمعنا بأن ليس لنا إله غير الله في مدة أجدادنا، فالمقصود بالإشارة معنى الكلام لا نفسه، وهو استعمال شائع. ولما كان حرف الظرفية يقتضي زمنا تعين أن يكون مدخوله على تقدير مضاف، أي في مدة آبائنا لأن الآباء لا يصلح للظرفية.

والآباء الأولون هم الأجداد.

ولما كان السماع المنفي ليس سماعا بآذانهم لكلام في زمن آبائهم بل المراد ما بلغ إلينا وقوع مثل هذا في زمن آبائنا، عدي فعل)سمعنا(بالباء لتضمينه معنى الاتصال. جعلوا انتفاء علمهم بالشيء حجة على بطلان ذلك الشيء، وهو مجادلة سفسطائية إذ قد يكون انتفاء العلم عن تقصير في اكتساب المعلومات، وقد يكون لعدم وجود سبب يقتضي حدوث مثله بأن كان الناس على حق فلم يكن داع إلى مخاطبتهم بمثل ذلك، وقد كان الناس من زمن آدم على الفطرة حتى حدث الشرك في الناس فأرسل الله نوحا فهو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض كما ورد في حديث الشفاعة.

صفحة : 2830

وجملة)إن هو إلا رجل به جنة(استئناف بياني لأن جميع ما قالوه يثير في نفوس السامعين أن يتساءلوا إذا كان هذا حال

دعوته في البطلان والزيف فماذا دعاه إلى القول بها ? فيجاب بأنه أصابه خلل في عقله فطلب ما لم يكن لينالـه مثله على الناس كلهم بنسبتهم إلى الضلال فقد طمع فيما لا يطمع عاقل في مثله فدل طمعه في ذلك على أنه مجنون.

والتنوين في)جنة(للنوعية، أي هو متلبس بشيء من الجنون، وهذا اقتصاد منهم في حاله حيث احترزوا من أن يورطوا أنفسهم في وصفه بالخبال مع أن المشاهد من حاله ينافي ذلك فأوهموا قومهم أن به جنونا خفيفا لا تبدوا آثاره واضحة.

وقصروه على صفة المجنون وهو قصر إضافي، أي ليس برسول من الله.

وفرعوا على ذلك الحكم أمرا لقومهم بانتظار ما ينكشف عنه أمره بعد زمان: إما شفاء من الجنة فيرجع إلى الرشد، أو ازدياد الجنون به فيتضح أمره فتعلموا أن لا اعتداد بكلامه.

والحين: اسم للزمان غير المحدود.

والتربص: التوقف عن عمل يراد عمله والتريث فيه انتظارا لما قد يغني عن العمل أو انتظارا لفرصة تمكن من إيقاعه على أتقن كيفية لنجاحه، وهو فعل قاصر يتعدى إلى المفعول بالباء التي هي للتعدية ومعناها السببية، أي كان تربص المتربص بسبب مدخول الباء. والمراد: بسبب ما يطرأ عليه من أحوال، فهو على نية مضاف حذف لكثرة الاستعمال. وقد تقدم عند قوله تعالى)ويتربص بكم الدوائر(في سورة براءة فانظره مع ما هنا.

)قال رب انصرني بما كذبون[26] فأوحينا إليه أن أصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار ألتنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون[27](استئناف بياني لأن ما حكي عن صدهم الناس عن تصديق دعوة نوح وما لفقوه من البهتان في نسبته إلى الجنون، مما يثير سؤال من يسأل عماذا صنع نوح حين كذبه قومه فيجاب بأنه قال)رب انصرني(الخ.

ودعاؤه بطلب النصر يقتضي أنه عد فعلهم معه اعتداء عليه بوصفه رسولا من عند ربه.

والنصر: تغليب المعتدى عليه على المعتدي، فقد سأل نوح نصرا مجملا كما حكي هنا، وأعلمه الله أنه لا رجاء في إيمان قومه إلا من آمن منهم كما جاء في سورة هود، فلا رجاء في أن يكون نصره برجوعهم إلى طاعته وتصديقه واتباع ملته، فسأل نوح حين ذاك نصرا خاصا وهو استئصال الذين لم يؤمنوا كما جاء في سورة نوح)وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك(. فالتعقيب الذي في قوله تعالى هنا)فأوحينا

إليه(تعقيب بتقدير جمل محذوفة كما علمت، وهو إيجاز في حكاية القصة كما في قوله تعالى)أن اضرب بعصاك البحر فانفلق(الخ في سورة الشعراء.
والباء في)بما كذبون(سببية في موضع الحال من النصر المأخوذ من فعل الدعاء، أي نصرا كائنا بسبب تكذيبهم، فجعل حظ نفسه فيما اعتدوا عليه ملغى واهتم حظ الرسالة عن الله لأن الاعتداء على الرسول استخفاف بمن أرسله.
وجملة)أن اصنع(جملة مفسرة لجملة)أوحينا(لأن فعل)أوحينا(فيه معنى القول دون حروفه، وتقدم نظير جملة)واصنع الفلك بأعيننا ووحينا(في سورة هود.
وفرع على الأمر بصنع الفلك تفصيل ما يفعله عند الحاجة إلى استعمال الفلك فوقت له استعماله بوقت الاضطرار إلى إنجاء المؤمنين والحيوان.
وتقدم الكلام على معنى)فار التنور(ومعنى)زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول(في سورة هود.
والزوج: اسم لكل شيء له شيء آخر متصل به بحيث يجعله شفعا في حالة ما. وتقدم في سورة هود.

صفحة : 2831

وإنما عبر هنالك بقوله)قلنا احمل فيها(وهنا بقوله)فاسلك فيها(لأن آية سورة هود حكت ما خاطبه الله به عند حدوث الطوفان وذلك وقت ضيق فأمر أن يحمل في السفينة من أراد الله إبقاءهم، فأسند الحمل إلى نوح تمثيلا للإسراع بإركاب ما عين له في السفينة حتى كأن حاله في إدخاله إياهم حال من يحمل شيئا ليضعه في موضع، وآية هذه السورة حكت ما خاطبه الله به من قبل حدوث الطوفان إنباء بما يفعله عند حدوث الطوفان فأمره بأنه حينئذ يدخل في السفينة من عين الله إدخالهم، مع ما في ذلك من التفنن في حكاية القصة.
ومعنى)أسلك(أدخل، وفعل)سلك(يكون قاصرا بمعنى دخل ومتعديا بمعنى أدخل ومنه قوله تعالى)ماسلككم في سقر(. وقول الأعشى:
كما سلك السكي في الباب فيتق وتقدم الكلام على مثل قوله) ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون(في سورة هود.
وقرأ الجمهور)من كل زوجين(بإضافة)كل(إلى)زوجين(. وقرأه حفص بالتنوين)كل(على أن يكون)زوجين(مفعول)فاسلك(، وتنوين

)كل(تنوين عوض يشعر بمحذوف أضيف إليه)كل(. وتقديره: من كل ما أمرتك أن تحمله في السفينة.
)فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجنا من القوم الظالمين[28] وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين[29](الاستواء: الاعتلاء. وتقدم عند قوله تعالى)ثم استوى على العرش(في سورة الأعراف.
وإطلاق الاستواء على الاستقرار في داخل السفينة مجاز مرسل بعلاقة الإطلاق وإلا فحقيقة الاستقرار في الفلك أنه دخول. وأتي بحرف الاستعلاء دون حرف الظرفية لأنه الذي يتعدى به معنى الاعتلاء إيذانا بالتمكن من الفلك فهو ترشيح للمجاز.
والتنجية من القوم الظالمين: الإنجاء من أذاهم والكون فيهم لأن في الكون بيهنم مشاهدة كفرهم ومناكرهم وذلك مما يؤذي المؤمن.
والظلم يجوز أن يراد به الشرك كما قال تعالى)إن الشرك لظلم عظيم(، ويجاوز أن يراد به الاعتداء على الحق لأن الكافرين كانوا يؤذون نوحا والمؤمنين بشتى الأذى باطلا وعدوانا وإنما كان ذلك إنجاء لأنهم قد استقلوا بجماعتهم فسلموا من الاختلاط بأعدائهم.
وقد ألهمه الله بالوحي أن يحمد ربه على ما سهل له من سبيل النجاة وأن يسأله نزولا في منزل مبارك عقب ذلك الترحل، والدعاء لذلك يتضمن سؤال سلامة من غرق السفينة. وهذا كالمحامد التي يعلمها الله محمدا صلى الله عليه وسلم يوم الشفاعة، فيكون في ذلك التعليم إشارة إلى أنه سيتقبل ذلك منه.
وجملة)وأنت خير المنزلين(في موضع الحال. وفيها معنى تعليل سؤاله ذلك.
وقرأ الجمهور)منزلا(بضم الميم وفتح الزاي وهو اسم مفعول من)أنزله(على حذف المجرور، أي منزلا فيه. ويجوز أن يكون مصدرا، أي إنزالا مباركا. والمعنيان متلازمان. وقرأه أبو بكر عن عاصم بفتح الميم وكسر الزاي، وهو اسم لمكان النزول.
)إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين[30](لما ذكر هذه القصة العظيمة أعقبها بالتنبيه إلى موضع العبرة منها للمسلمين فأتى بهذا الاستئناف لذلك.
والإشارة إلى ما ذكر من قصة نوح مع قومه وما فيها. والآيات: الدلالات، أي لآيات كثيرة منها ما هي دلائل على صدق رسالة نوح وهي إجابة دعوته وتصديق رسالته وإهلاك مكذبيه، ومنها آيات لأمثال قوم نوح من الأمم المكذبين لرسلهم، ومنها آيات على عظيم قدرة الله تعالى في إحداث الطوفان وإنزال من في السفينة منزلا مباركا، ومنها آيات على علم الله تعالى وحكمته إذ قدر لتطهير الأرض من الشرك مثل هذا الاستيصال العام لأهله، وإذ قدر لإبقاء

الأنواع مثل هذا الصنع الذي أنجى به من كل نوع زوجين ليعاد التناسل.
وعطف على جملة)إن في ذلك لآيات(جملة)وإن كنا لمبتلين(لأن مضمون)وإن كنا لمبتلين(يفيد معنى: إن في ذلك لبلوى، فكأنه قيل: إن في ذلك لآيات وابتلاء وكنا مبتلين، أي وشأننا ابتلاء أوليائنا.
فإن الابتلاء من آثار الحكمة الإلهية لترتاض به نفوس أوليائه وتظهر مغالبتها للدواعي الشيطانية فتحمل عواقب البلوى، ولتتخبط نفوس المعاندين وينزوي بعض شرها زمانا.

صفحة : 2832

والمعنى: أن ماتقدم قبل الطوفان من بعد بعثة نوح من تكذيب قومه وآذاهم إياه والمؤمنين معه إنما كان ابتلاء من الله لحكمته تعالى ليميز الله للناس الخبيث من الطيب ولو شاء الله لآمن بنوح قومه ثم لو شاء الله لنصره عليهم من أول يوم وهذه سنة إلهية.وفي هذا المعنى ما جاء في حديث أبي سفيان أن هرقل قال له وكذلك الأنبياء تبتلى ثم تكون لهم العاقبة ، وفي القرآن) والعاقبة للمتقين(.
والابتلاء تقدم في قوله تعالى)وإذ ابتلى إبراهيم ربه(وقوله)وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم(في سورة البقرة.
وفي قوله)وإن كنا لمبتلين(تسلية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من المشركين، وتعريض بتهديد المشركين بأن ما يواجهون به الرسول صلى الله عليه وسلم لا بقاء له وإنما هو بلوى تزول عنه وتحل بهم ولكل حظ يناسبه.
ولكون هذا مما قد يغيب عن الألباب نزل منزلة الشيء المتردد فيه فأكد ب)إن(المخففة وبفعل)كنا(.
واللام هي الفارقة بين)إن(المؤكدة المخففة عند إهمال عملها وبين)إن(النافية.
)ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين[32] فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون[32](تعقيب قصة نوح وقومه بقصة رسول آخر، أي أخرى، وما بعدها من القصص يراد منه أن ما أصاب قوم نوح على تكذيبهم له لم يكن صدفة ولكنه سنة الله في المكذبين لرسله ولذلك لم يعين القرن ولا القرون بأسمائهم.
والقرن: الأمة. والأظهر أن المراد به هنا ثمود لأنه الذي يناسبه قوله في آخر القصة)فأخذتهم الصيحة بالحق(، لأن ثمود أهلكوا

بالصاعقة ولقوله)قال عما قليل ليصبحن نادمين(مع قوله في سورة الحجر)فأخذتهم الصيحة مصبحين(فكان هلاكهم في الصباح. ولعل تخصيصهم بالذكر هنا دون عاد خلافا لما تكرر في غير هذه الآية لأن العبرة بحالهم أظهر لبقاء آثار ديارهم بالحجر كما قال تعالى)وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون(.

وقوله)فأرسلنا فيهم رسولا(أي جعل الرسول بينهم وهو منهم، أي من قبيلتهم. وضمير الجمع عائد إلى)قرنا(لأنه في تأويل) الناس(كقوله)وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا(.

وعدي فعل)أرسلنا(ب)في(دون)إلى(لإفادة أن الرسول كان منهم ونشأ فيهم لأن القرن لما لم يعين باسم حتى يعرف أن رسولهم منهم أو واردا إليهم مثل لوط لأهل سدوم ، ويونس لأهل نينوى ، وموسى للقبط. وكان التنبيه على أن رسولهم منه مقصودا إتماما للمماثلة بين حالهم وحال الذين أرسل إليهم محمد صلى الله عليه وسلم.

وكلام رسولهم مثل كلام نوح.

و)أن(تفسير لما تضمنه)أرسلنا(من معنى القول.

)وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون [33] ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون[34] أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظما أنكم مخرجون[35] هيهات هيهات لما توعدون[36] إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين[37] إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين[38](عطفت حكاية قول قومه على حكاية قوله ولم يؤت بها مفصولة كما هو شأن حكاية المحاورات كما بيناه غير مرة في حكاية المحاورات ب)قال(ونحوها دون عطف. وقد خولف ذلك في الآية السابقة للوجه الذي بيناه، وخولف أيضا في سورة الأعراف وفي سورة هود إذ حكي جواب هؤلاء القوم رسولهم بدون عطف.

ووجه ذلك أن كلام الملأ المحكي هنا غير كلامهم المحكي في السورتين لأن ما هنا كلامهم الموجه إلى خطاب قومهم إذ قالوا)ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه(إلى آخره خشية منهم أن تؤثر دعوة رسولهم في عامتهم، فرأوا الاعتناء لأن يحولوا دون تأثر نفوس قومهم بدعوة رسولهم أولى من أن يجاوبوا رسولهم كما تقدم بيانه آنفا في قصة نوح.

وبهذا يظهر وجه الإعجاز في المواضيع المختلفة التي أورد فيها صاحب الكشاف سؤالا ولم يكن في جوابه شافيا وتحير شراحه فكانوا على خلاف.

وإنما لم يعطف قول الملأ بفاء التعقيب كما ورد في قصة نوح آنفا لأن قولهم هذا كان متأخرا عن وقت مقالة رسولهم التي هي فاتحة دعوته بأن يكونوا أجابوا كلامه بالرد والزجر فلما استمر على دعوتهم وكررها فيهم وجهوا مقالتهم المحكية هنا إلى قومهم ومن أجل هذا عطف جملة جوابهم ولم تأت على أسلوب الاستعمال في حكاية أقوال المحاورات.

وأيضا لأن كلام رسولهم لم يحك بصيغة قول بل حكي ب)أن(التفسيرية لما تضمنه معنى الإرسال في قوله)فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله(.

وقد حكى الله في آيات أخرى عن قوم هود وعن قوم صالح أنهم أجابوا دعوة رسولهم بالرد والزجر كقول قوم هود)قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء(، وقول قوم صالح)قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا إننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب(.

وقوله)وقال الملأ من قومه الذين كفروا( )الذين كفروا(نعت ثان ل)الملأ(فيكون على وزان قوله في قصة نوح)فقال الملأ الذين كفروا من قومه(. وإنما أخر النعت هنا ليتصل به الصفتان المعطوفتان من قوله)وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم(.

واللقاء: حضور أحد عند آخر. والمراد لقاء الله تعالى للحساب كقوله تعالى)واعلموا أنكم ملاقوه(في سورة البقرة وعند قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا(في سورة الأنفال.

وإضافة)لقاء(إلى)الآخرة(على معنى)في(أي اللقاء في الآخرة.

والإتراف: جعلهم أصحاب ترف. والترف: النعمة الواسعة. وقد تقدم عند قوله)وارجعوا إلى ما أترفتم فيه(في سورة الأنبياء.

وفي هذين الوصفين إيماء إلى أنهما الباعث على تكذيبهم رسولهم لأن تكذيبهم بلقاء الآخرة ينفي عنهم توقع المؤاخذة بعد الموت، وثروتهم ونعمتهم تغريهم بالكبر والصلف إذ ألفوا أن يكونوا سادة لا تبعا، قال تعالى)وذرني والمكذبين أولي النعمة(، ولذلك لم يتقبلوا ما دعاهم إليه رسولهم من اتقاء عذاب يوم البعث وطلبهم النجاة باتباعهم ما يأمرهم به فقال بعضهم لبعض)ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون(.

و)ما هذا إلا بشر مثلكم(كناية عن تكذيبه في دعوى الرسالة لتوهمهم أن البشرية تنافي أن يكون صاحبها رسولا من الله فأتوا بالملزوم وأرادوا لازمه.
وجملة)يأكل مما تأكلون منه(في موقع التعليل والدليل للبشرية لأنه يأكل مثلهم ويشرب مثلهم ولا يمتاز فيما يأكله وما يشربه.
وحذف متعلق)تشربون(وهو عائد الصلة للاستغناء عنه بنظيره الذي في الصلة المذكورة قبلها.
واللام في)ولئن أطعتم(موطئة للقسم، فجملة)إنكم إذا لخاسرون(جواب القسم، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم. وأقحم حرف الجزاء في جواب القسم لما في جواب القسم من مشابهة الجزاء لاسيما متى اقترن القسم بحرف شرط.
والاستفهام في قوله)أيعدكم(للتعجب، وهو انتقال من تكذيبه في دعوى الرسالة إلى تكذيبه في المرسل به.
وقوله)أنكم إذا متم(إلى آخره مفعول)يعدكم(أي يعدكم إخراج مخرج إياكم. والمعنى: يعدكم إخراجكم من القبور بعد موتكم وفناء أجسامكم.
وأما قوله)أنكم مخرجون(فيجوز أن يكون إعادة لكلمة) أنكم(الأولى اقتضى إعادتها بعد ما بينها وبين خبرها. وتفيد إعادتها تأكيدا للمستفهم عنه استفهام استبعاد تأكيدا لاستبعاده. وهذا تأويل الجرمي والمبرد.
ويجوز أن يكون)أنكم مخرجون(مبتدأ. ويكون قوله)إذا متم وكنتم ترابا وعظاما(خبرا عنه مقدما عليه وتكون جملة)إذا متم(إلى قوله)مخرجون(خبرا عن)أن(من قوله)أنكم(الأولى.
وجعلوا موجب الاستبعاد هو حصول أحوال تنافي أنهم مبعوثون بحسب قصور عقولهم، وهي حال الموت المنافي للحياة، وحال الكون ترابا وعظاما المنافي لإقامة الهيكل الإنسان ي بعد ذلك.
وأريد بالإخراج إخراجهم أحياء بهيكل إنساني كامل أي مخرجون للقيامة بقرينة السياق.
وجملة)هيهات(بيان لجملة)يعدكم(لفذلك فصلت ولم تعطف.

صفحة : 2834

و)هيهات(كلمة مبنية على فتح الآخر وعلى كسره أيضا. وقرأها الجمهور بالفتح، وقرأها أبو جعفر بالكسر. وتدل على البعد. وأكثر ما تستعمل مكررة مرتين كما في هذه الآية أو ثلاثا كما جاء في شعر لحميد الأرقط وجرير يأتيان.

واختلف فيها أهي فعل أم اسم؛ فجمهور النحاة ذهبوا إلى أن)هيهات(اسم فعل للماضي من البعد، فمعنى هيهات كذا: بعد. فيكون ما يلي)هيهات(فاعلا. وقيل هي اسم للبعد، أي فهي مصدر جامد وهو الذي اختاره الزجاج في تفسيره. قال الراغب: قالب البعض: غلط الزجاج في تفسيره واستهواه اللام في قوله تعالى)هيهات هيهات لما توعدون(.

وقبل: هيهات ظرف غير متصرف، وهو قول المبرد. ونسبه في لسان العرب إلى أبي علي الفارسي. قال: قال ابن جني: كان أبو علي يقول في هيهات: أنا أفتى مرة بكونها اسما سمي به الفعل مثل صه ومه ، وأفتى مرة بكونها ظرفا على قدر ما يحضرني في الحال.

وفيها لغات كثيرة وأفصحها أنها بهاءين وتاء مفتوحة فتحة بناء، وأن تاءها تثبت في الوقف وقيل بوقف عليها هاء، وأنها لا تنون تنوين تنكير.

وقد ورد ما بعد)هيهات(مجرورا باللام كما في هذه الآية، وورود مرفوعا كما في قول جرير:

فهيهات هيهات العقيق وأهله وهيهات خل بالعقيق نحاوله وورد مجرورا ب)من(في قول حميد الأرقط:

هيهات من مصبحها هيهات هيهات حجر من صنيبعات فالذي يتضح في استعمال)هيهات(أن الأصل فيما بعدها أن يكون مرفوعا على تأويل)هيهات(بمعنى فعل ماض من البعد كما في بيت جرير.

وأن الأفصح أن يكون ما بعدها مجرورا باللام فيكون على الاستغناء عن فاعل اسم الفعل للعلم به مما يسبق)هيهات(من الكلام لأنها لا تقع غالبا إلا بعد كلام، وتجعل اللام للتبيين، أي إيضاح المراد من الفاعل، فيحصل بذلك إجمال ثم تفصيل يفيد تقوية الخبر. وهذه اللام ترجع إلى لام التعليل. وإذا ورد ما بعدها مجرورا ب)من(ف)من(بمعنى)عن(أي بعد عنه أو بعدا عنه.

على أنه يجوز أن تؤول)هيهات(مرة بالفعل وهو الغالب ومرة بالمصدر فتكون اسم مصدر مبنيا جامدا غير مشتق. ويكون الإخبار بها كالإخبار بالمصدر، وهو الوجه الذي سلكه الزجاج في تفسير هذه الآية ويشير كلام الزمخشري إلى اختياره.

وجاء هنا فعل)توعدون(من)أوعد(وجاء قبله فعل)أيعدكم(وهو من)وعد(مع أن الموعود به شيء واحد. قال الشيخ ابن عرفة: لأن الأول راجع إليهم في حال وجودهم فجعل وعدا، والثاني راجع إلى حالتهم بعد الموت والانعدام فناسب التعبير عنه بالوعيد اه.

وأقول: أحسن من هذا أنه عبر مرة بالوعد ومرة بالوعيد على وجه الاحتباك، فإن إعلامهم بالبعث مشتمل على وعد بالخير إن صدقوا وعلى وعيد إن كذبوا، فذكر الفعلان على التوزيع إيجازا.

وقوله)إن هي إلا حياتنا الدنيا(يجوز أن يكون بيانا للاستبعاد الذي في قوله)هيهات لما توعدون(واستدلالا وتعليلا له، ولكلا الوجهين كانت الجملة مفصولة عن التي قبلها.

وضمير)هي(عائد إلى ما لم يسبق في الكلام بل عائد على مذكور بعده قصدا للإبهام ثم التفصيل ليتمكن المعنى في ذهن السامع. وهذا من مواضع عود الضمير على ما بعده إذا كان ما بعده بيانا له، ولذلك يجعل الاسم الذي بعد الضمير عطف بيان. ومنه قول الشاعر أنشده في الكشاف المصراع الأول وأثبته الطيبي كاملا:

هي النفس ما حملتها تتحمل وللدهر أيام تجور وتعـدل قول أبي العلاء:

هو الهجر حتى ما يلـم خـيال وبعض صدود الزائرين وصال ومبين الضمير هنا قوله)إلا حياتنا(فيكون الاسم الذي بعد)إلا(عطف بيان من الضمير. والتقدير: إن حياتنا إلا حياتنا الدنيا. ووصفها بالدنيا وصف زائد على البيان فلا يقدر مثله في المبين.

وليس هذا الضمير ضمير القصة والشأن لعدم صلاحية المقام له. ولأنه في الآية مفسر بالمفرد لا بالجملة وكذلك في بيت أبي العلاء.

ولأن دخول)لا(النافية يأبى من جعله ضمير شأن إذ لا معنى لأن يقال: لا قصة إلا حياتنا، فدخلت عليه)لا(النافية للجنس لأنه في معنى اسم جنس لتبيينه باسم الجنس وهو)حياتنا(فالمعنى: ليست الحياة إلا حياتنا هذه، أي لا حياة بعدها.

والدنيا: مؤنث الأدنى، أي القريبة بمعنى الحاضرة.

صفحة : 2835

وضمير)حياتنا(مراد به جميع القوم الذي دعاهم رسولهم. فقولهم:)نموت ونحيا(معناه: يموت هؤلاء القوم ويحيا قوم بعدهم. ومعنى) نحيا(: نولد، أي يموت من يموت ويولد من يولد، أو المراد: يموت من يموت فلا يرجع ويحيا من لم يمت إلى أن يموت. والواو لا تفيد ترتيبا بين معطوفها والمعطوف عليه. وعقبوه بالعطف في قوله)وما نحن بمبعوثين(أي لا نحيا حياة بعد الموت.

وهو عطف على جملة)نموت ونحيا(باعتبار اشتمالها على إثبات حياة عاجلة وموت ، فإن الاقتصار على الأمرين مفيد للانحصار في

المقام الخطابي مع قرينة قوله)إن هي إلا حياتنا الدنيا(. وأفاد صوغ الخبر في الجملة الاسمية تقوية مدلولة وتحقيقه.
ثم جاءت جملة)إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا(نتيجة عقب الاستدلال، فجاءت مستأنفة لأنها مستقلة على ما تقدمها فهي تصريح بما كني عنه آنفا في قوله)ما هذا إلا بشر مثلكم(وما بعده من تكذيب دعوته، فاستخلصوا من ذلك أن حاله منحصر في أنه كاذب على الله فيما ادعاه من الإرسال. وضمير)إن هو(عائد إلى اسم الإشارة من قوله)ما هذا إلا بشر مثلكم(.
فجملة)افترى على الله كذبا(صفة ل)رجل(وهي منصب الحصر فهو من قصر الموصوف على الصفة قصر قلب إضافيا، أي لا كما يزعم أنه مرسل من الله.
وإنما أجروا عليه أنه رجل متابعة لوصفه بالبشرية في قولهم)ما هذا إلا بشر مثلكم(تقريرا لدليل المماثلة المنافية للرسالة في زعمهم، أي زيادة على كونه رجلا مثلهم فهو رجل كاذب.
والافتراء: الاختلاق. وهو الكذب الذي لا شبهة فيه للمخبر. وتقدم عند قوله تعالى)ولكن الذين كفرا يفترون على الله الكذب(في سورة المائدة.
وإنما صرحوا بأنهم لا يؤمنون به مع دلالة نسبته إلى الكذب على أنهم لا يؤمنون به إعلانا بالتبري من أن ينخدعوا لما دعاهم إليه، وهو مقتضى حال خطاب العامة.
والقول في إفادة الجملة الاسمية التقوية كالقول في)وما نحن بمبعوثين(.
)قال رب انصرني بما كذبون[40] قال عما قليل ليصبحن نادمين[41](استئناف بياني لأن ما حكي من صد الملإ الناس عند اتباعه وإشاعتهم عنه أنه مفتر على الله وتلفيقهم الحجج الباطلة على ذلك مما يثير سؤال سائل عما كان من شأنه وشأنهم بعد ذلك، فيجاب بأنه توجه إلى الله الذي أرسله بالدعاء بأن ينصره عليهم. وتقدم القول في نظيره آنفا في قصة نوح.
وجاء جواب دعاء هذا الرسول غير معطوف لأنه جرى على أسلوب حكاية المحاورات الذي بيناه في مواضع منها قوله)قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها(في سورة البقرة.
و)عما قليل(أفاد)عن(المجاوزة، أي مجاوزة معنى متعلقها الاسم المجرور بها. ويكثر أن تفيد مجاوزة معنى متعلقها الاسم المجرور بها فينشأ منها معنى)بعد(نحو)لتركبن طبقا عن طبق(فيقال: إنها تجيء بمعنى)بعد(كما ذكره النحاة وهم جروا على الظاهر وتفسير المعنى إذ لا يكون حرف بمعنى اسم، فإن معاني الحروف ناقصة ومعاني الأسماء تامة. فمعنى)عما قليل ليصبحن نادمين(: أن إصباحهم نادمين

يتجاوز زمنا قليل، أي من زمان التكلم وهو تجاوز مجازي بحرف) عن(مستعار لمعنى)بعد(استعارة تبعية.
و)ما(زائدة للتوكيد.
و)قليل(صفة لموصوف محذوف دل عليه السياق أو فعل الإصباح الذي هو من أفعال الزمن فوعد الله هذا الرسول نصرا عاجلا.
وندمهم يكون عند رؤية مبدأ الاستئصال ولا ينفعهم ندمهم بعد حلول العذاب.
والإصباح هنا مراد به زمن الصباح لا معنى الصيرورة بدليل قوله في سورة الحجر)فأخذتهم الصيحة مصبحين(.
)فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلنهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين[41] تقتضي الفاء تعجيل إجابة دعوة رسولهم.
والأخذ مستعار للإهلاك.
والصيحة: صوت الصاعقة، وهذا يرجع أو يعين أن يكون هؤلاء القرن هم ثمود قال تعالى)فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية(وقال في شأنهم في سورة الحجر)فأخذتهم الصيحة مصبحين(.
وإسناد الأخذ إلى الصيحة مجاز عقلي لأن الصيحة سبب الأخذ أو مقارنة سببه فإنها تحصل من تمزق كرة الهواء عند نزول الصاعقة.
والباء في)بالحق(للملابسة، أي أخذتهم أخذا ملابسا للحق ، أي لا اعتداء فيه عليهم لأنهم استحقوه بظلمهم.

والغثاء: ما يحمله السيل من الأعواد اليابسة والورق. والكلام على التشبيه البليغ للهيئة فهو تشبيه حالة بحالة، أي جعلناهم كالغثاء في البلى والتكدس في موضع واحد فهلكوا هلكة واحدة.
وفرع على حكاية تكذيبهم دعاء عليهم وعلى أمثالهم دعاء شتم وتحقير بأن يبعدوا تحقيرا لهم وكراهية، وليس مستعملا في حقيقة الدعاء لأن هؤلاء بعدوا بالهلاك. وانتصب)بعدا(على المفعولية المطلقة بدلا من فعله مثل: تبا وسحقا، أي أتبه الله وأسحقه.
وعكس هذا المعنى قول العرب لا تبعد)بفتح العين(أي لا تفقد.
قال مالك بن الريب:
يقولون لا تبعد وهم يدفنوني وأين مكان البعد إلا مكانيا والمراد بالقوم الظالمين الكافرون)إن الشرك لظلم عظيم(. واختير هذا الوصف هنا لأن هؤلاء ظلموا أنفسهم بالإشراك وظلموا هودا لأنه تعمد الكذب على الله إذ قالوا)إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا(.

والتعريف في)الظالمين(للاستغراق فشملهم، ولذلك تكون الجملة بمنزلة التذييل.
واللام في)للقوم الظالمين(للتبيين وهي مبينة للمقصود بالدعاء زيادة في البيان كما في قولهم: سحقا لك وتبا له، فإنه لو قيل: فبعدا، لعلم أنه دعاء عليه فبزيادة اللام يزيد بيان المدعو عليهم وهي متعلقة بمحذوف مستأنف للبيان.
)ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين[42] ما تسبق من أمة أجلها وما يستئخرون[43](القرون: الأمم، وهذا كقوله تعالى)وقرونا بين ذلك كثيرا(.
وهي الأمم الذين لم ترسل إليهم رسل وبقوا على اتباع شريعة نوح أو شريعة هود أو شريعة صالح. أو لم يؤمروا بشرع لأن الاقتصار على ذكر الأمم هنا دون ذكر الرسل ثم ذكر الرسل عقب هذا يومئ إلى أن هذه إما أمم لم تأتهم رسل لحكمة اقتضت تركهم على ذلك لأنهم لم يتأهلوا لقبول شرائع، أو لأنهم كانوا على شرائع سابقة.
وجملة)ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون(معترضة بين المتعاطفة. وهي استئناف بياني لما يؤذن به قوله)ثم أنشأنا من بعدهم قرونا(من كثرتها ولا يؤذن به وصفهم ب)آخرين(من جهل الناس بهم، ولما يؤذون به عطف جملة)ثم أرسلنا رسلنا تترى(من انقراض هذه القرون بعد الأمة التي ذكرت قصتها آنفا في قوله)ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين(دون أن تجيئهم رسل، فكان ذلك كله مما يثير سؤال سائل عن مدة تعميرهم ووقت انقراضهم.
فيجاب بالإجمال لأن لكل قرن منهم أجلا عينه الله يبقى إلى مثله ثم ينقرض ويخلفه قرن آخر يأتي بعده، أو يعمر بعده قرن كان معاصرا له، وأن ما عين لكل قرن لا يتقدمه ولا يتأخر عنه كقوله تعالى)لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون(.
والسبق: تجاوز السائر وتركه مسائره خلفه، وعكسه التأخر. والمعنى واضح. والسين والتاء في)يستأخرون(زائدتان للتأكيد مثل: استجاب.
وضمير)يستأخرون(عائد إلى)أمة(باعتبار الناس.
)ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء امة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلنهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون[44](الرسل الذين جاءوا من بعد، أي من بعد هذه القرون منهم إبراهيم ولوط ويوسف وشعيب، ومن أرسل قبل موسى، ورسل لم يقصصهم الله على رسوله.
والمقصود بيان اطراد سنة الله تعالى في استئصال المكذبين رسله المعاندين في آياته كما دل عليه قوله)فأتبعنا بعضهم بعضا(.

و)تترى(قرأه الجمهور بألف في آخره دون تنوين فهو مصدر على وزن فعلى مثل دعوى وسلوى، وألفه للتأنيث مثل ذكرى، فهو ممنوع من الصرف. وأصله: وترى بواو في أوله مشتقا من الوتر وهو الفرد. وظاهر كلام اللغويين انه لا فعل له، أي فردا فردا، أي فردا بعد فرد فهو نظير مثنى. وأبدلت الواو تاء إبدالا غير قياسي كما أبدلت في)تجاه(للجهة المواجهة وفي)تولج(لكناس الوحش) وتراث(للموروث.

ولا يقال تترى إلا إذا كان بين الأشياء تعاقب مع فترات وتقطع. ومنه التواتر وهو تتابع الأشياء وبينها فجوات. والوتيرة: الفترة عن العمل. وأما التعاقب بدون فترة فهو التدارك. يقال: جاءوا متداركين، أي متتابعين.

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر منونا وهي لغة كنانة. وهو على القراءتين منصوب على الحال من)رسلنا(.

صفحة : 2837

واعلم أن كلمة)تترى(كتبت في المصاحف كلها بصورة الألف في آخرها على صورة الألف الأصلية مع أنها في قراءة الجمهور ألف تأنيث مقصورة وشأن ألف التأنيث المقصورة أن تكتب بصورة الياء مثل تقوى ودعوى، فلعل كتاب المصاحف راعوا كلتا القراءتين فكتبوا الألف بصورتها الأصلية لصلوحية نطق القارئ على كلتا القراءتين. على أن أصل الألف أن تكتب بصورتها الأصلية، وأما كتابتها في صورة الياء حيث تكتب كذلك فهو إشارة إلى أصلها أو جواز إمالتها فخولف ذلك في هذه اللفظة لدفع اللبس.

ومعنى الآية: ثم بعد تلك القرون أرسلنا رسلا، أي أرسلناهم إلى أمم أخرى، لأن إرسال الرسول يستلزم وجود أمة وقد صرح به في قوله)كلما جاء أمة رسولها كذبوه(. والمعنى: كذبه جمهورهم وربما كذبه جميعهم.

وفي حديث ابن عباس عند مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد... الحديث.

وإتباع بعضهم بعضا إلحاقهم بهم في الهلاك بقرينة المقام وبقرينة قوله)وجعلناهم أحاديث(، أي صيرناهم أحدوثات يتحدث الناس بما أصابهم. إنما يتحدث الناس بالشيء الغريب النادر مثله. والأحاديث هنا جمع أحدوثة، وهي اسم لما يتلهى الناس بالحديث عنه. ووزن الأفعولة يدل على ذلك مثل الأعجوبة والأسطورة.

وهو كناية عن إبادتهم، فالمعنى: جعلناهم أحاديث بائدين غير مبصرين.

والقول في)فبعدا لقوم لا يؤمنون(مثل الكلام على)فبعدا للقوم الظالمين(؛ إلا أن الدعاء نيط هنا بوصف أنهم لا يؤمنون ليحصل من مجموع الدعوتين التنبيه على مذمة الكفر وعلى مذمة عدم الإيمان بالرسل تعريضا بمشركي قريش، على أنه يشمل كل قوم لا يؤمنون برسل الله لأن النكرة في سياق الدعاء تعم كما في قول الحريري: يا أهل ذا المغنى وقيتم ضرا .

)ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطن مبين[45] إلى فرعون وملإيه فاستكبروا وكانوا قوما عالين[46] فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون[47] فكذبوهما فكانوا من المهلكين[48](الآيات: المعجزات، وإضافتها إلى ضمير الجلالة للتنويه بها وتعظيمها. والسلطان المبين: الحجة الواضحة التي لقنها الله موسى فانتهضت على فرعون وملئه. والباء للملابسة، أي بعثناه ملابسا للمعجزات والحجة.

وملأ فرعون: أهل مجلسه وعلماء دينه وهم السحرة. وإنما جعل الإرسال إليهم دون بقية أمة القبط لأن دعوة موسى وأخيه إنما كانت خطابا لفرعون وأهل دولته الذين بيدهم تصريف أمور الأمة لتحرير بني إسرائيل من استعبادهم إياهم قال تعالى)فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم(. ولم يرسلا بشريعة إلى القبط. وأما الدعوة إلى التوحيد فمقدمة لإثبات الرسالة لهم.

وعطف)فاستكبروا(بفاء التعقيب يفيد أنهم لم يتأملوا الدعوة والآيات والحجة ولكنهم أفرطوا في الكبرياء، فالسين والتاء للتوكيد، أي تكبروا كبرياء شديدة بحيث لم يعيروا آيات موسى وحجته أذنا صاغية.

وجملة)وكانوا قوما عالين(معترضة بين فعل)استكبروا(وما تفرع عليه من قوله)فقالوا(في موضع الحال من فرعون وملئه، أي فاستكبروا بأن أعرضوا عن استجابة دعوة موسى وهارون وشأنهم الكبرياء والعلو، أي كان الكبر خلقهم وسجيتهم. وقد بينا عند قوله تعالى)لآيات لقوم يعقلون(من سورة البقرة أن إجراء وصف على لفظ)قوم(أو الإخبار بلفظ)قوم(متبوع باسم فاعل إنما يقصد منه تمكن ذلك الوصف من الموصوف بلفظ)قوم(أو تمكنه من أولئك القوم. فالمعنى هنا: أن استكبارهم على تلقي دعوة موسى وآياته وحجته إنما نشأ عن سجيتهم من الكبر وتطبعهم. فالعلو بمعنى التكبر والجبروت. وسيجيء بيانه عند قوله)إن فرعون علا في الأرض(في سورة القصص.

وبين ذلك بالتفريع بقوله)فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون(فهو متفرع على قوله)فاستكبروا(، أي استكبر فرعون وملؤه عن اتباع موسى وهارون، فأفصحوا عن سبب استكبارهم عن ذلك بقولهم)أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون(. وهذا ليس من قول فرعون ولكنه قول بعض الملإ لبعض، ولما كانوا قد تراضوا عليه نسب إليهم جميعا. وأما فرعون فكان مصغيا لرأيهم ومشورتهم وكان له قول آخر حكي في قوله تعالى)وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري(فإن فرعون كان معدودا في درجة الآلهة لأنه وإن كان بشرا في الصورة لكنه اكتسب الإلهية بأنه ابن الآلهة.

والاستفهام في)أنؤمن(إنكاري، أي ما كان لنا أن نؤمن بهما وهما مثلنا في البشرية وليسا بأهل لأن يكونا ابنين للآلهة لأنهما جاءا بتكذيب إلهية الآلهة، فكان ملأ فرعون لضلالهم يتطلبون لصحة الرسالة عن الله أن يكون الرسول مباينا للمرسل إليهم، فلذلك كانوا يتخيلون آلهتهم أجناسا غريبة مثل جسد آدمي ورأس بقرة أو رأس طائر أو رأس ابن آوى أو جسد أسد ورأس آدمي، ولا يقيمون وزنا لتباين مراتب النفوس والعقول وهي أجدر بظهور التفاوت لأنها قرارة الإنسانية. وهذه الشبهة هي سبب ضلالة أكثر الأمم الذين أنكروا رسلهم.

واللام في قوله)لبشرين(لتعدية فعل)نؤمن(. يقال للذي يصدق المخبر فيما أخبر به: آمن له، فيعدى فعل)آمن(باللام على اعتبار أنه صدق بالخبر لأجل المخبر، أي لأجل ثقته في نفسه. فأصل هذه اللام لام العلة والأجل. ومنه قوله تعالى)فآمن له لوط(وقوله)وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون(. وأما تعدية فعل الإيمان بالباء فإنها إذا علق به ما يدل على الخبر تقول: آمنت بأن الله واحد. وبهذا ظهر الفرق بين قولك: آمنت بمحمد وقولك: آمنت لمحمد. فمعنى الأول: أنك صدقت شيئا. ولذلك لا يقال: آمنت لله وإنما يقال: آمن بالله. وتقول: آمن بمحمد وآمنت لمحمد. ومعنى الأول يتعلق بذاته وهو الرسالة ومعنى الثاني أنك صدقته فيما جاء به.

و)مثلنا(وصف)لبشرين(وهو مما يصح التزام إفراده وتذكيره دون نظر إلى مخالفة صيغه موصوفه كما هنا. ويصح مطابقته لموصوفه كما في قوله تعالى)إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم(.

وهذا طعن في رسالتهما من جانب حالهما الذاتي ثم أعقبوه بطعن من جهة منشئهما وقبيلهما فقالوا)وقومهما لنا عابدون(، أي وهم من فريق هم عباد لنا وأحط منا فكيف يسودانا.
وقوله)عابدون(جمع عابد، أي مطيع خاضع. وقد كانت بنو إسرائيل خولا للقبط وخدما لهم قال تعالى)وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل(.
وتفرع على قولهم التصميم على تكذيبهم إياهما المحكي بقوله) فكذبوهما(أي أرسى أمرهم على أن كذبوهما، ثم فرع على تكذيبهم أن كانوا من المهلكين إذ أهلكهم الله بالغرق، أي فانتظموا في سلك الأقوام الذين أهلكوا. وهذا أبلغ من أن يقال: فأهلكوا، كما مر بنا غير مرة.
والتعقيب هنا تعقيب عرفي لأن الإغراق لما نشأ عن التكذيب فالتكذيب مستمر إلى حين الإهلاك.
وفي هذا تعريض بتهديد قريش على تكذيبهم رسولهم صلى الله عليه وسلم لأن في قوله)من المهلكين(إنما إلى أن الإهلاك سنة الله في الذين يكذبون رسله.
)ولقد آتينا موسى الكتب لعلهم يهتدون[49](لما ذكرت دعوة موسى وهارون لفرعون وملئه وما ترتب على تكذيبهم من إهلاكهم أكملت قصة بعثة موسى بالمهم منها الجاري ومن بعثة من سلف من الرسل المتقدم ذكرهم وهو إيتاء موسى الكتاب لهداية بني إسرائيل لحصول اهتدائهم ليبني على ذلك الاتعاظ بخلافهم على رسلهم في قوله بعد ذلك)فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا(فإن موعظة المكذبين رسولهم بذلك أولى. وهنا وقع الإعراض عن هارون لأن رسالته قد انتهت لاقتصاره على تبليغ الدعوة لفرعون وملئه إذ كانت مقام محاجة واستدلال فسأل موسى ربه إشراك أخيه هارون في تبليغها لأنه أفصح منه لسانا في بيان الحجة والسلطان المبين.
والتعريف في)الكتاب(للعهد. وهو التوراة.

صفحة : 2839

ولذلك كان ضمير)لعلهم يهتدون(ظاهر العود إلى غير مذكور في الكلام بل إلى معلوم من المقام وهم القوم المخاطبون بالتوراة وهم بنو إسرائيل فانتساق الضمائر ظاهر في المقام دون حاجة إلى تأويل قوله)آتينا موسى(بمعنى: آتينا قوم موسى، كما سلكه في الكشاف.

و)لعل(للرجاء، لأن ذلك الكتاب من شأنه أن يترقب من إيتائه اهتداء الناس به.

)وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين[50](لما كانت آية عيسى العظمى في ذاته في كيفية تكوينه كان الاهتمام بذكرها هنا، ولم تذكر رسالته لأن معجزة تخليقه دالة على صدق رسالته. وأما قوله)وأمه(فهو إدماج لتسفيه إليهود فيما رموا به مريم عليها السلام فإن ما جعله الله آية لها ولابنها جعلوه مطعنا ومغمزا فيهما.

وتنكير)آية(للتعظيم لأنها آية تحتوي على آيات. ولما كان مجموعها دالا على صدق عيسى في رسالته جعل مجموعها آية عظيمة على صدقه كما علمت.

وأما قوله)وآويناهما إلى ربوة(فهو تنويه بهما إذ جعلهما الله محل عنايته ومظهر قدرته ولطفه.

والإيواء: جعل الغير آويا، أي ساكنا. وتقدم عند قوله)أو آوي إلى ركن شديد(في سورة هود وعند قوله)سآوي إلى جبل يعصمني من الماء(في سورة هود.

والربوة بضم الراء: المرتفع من الأرض. ويجوز في الراء الحركات الثلاث. وتقدم في قوله تعالى)كمثل جنة بربوة(في البقرة. والمراد بهذا الإيواء وحي الله لمريم أن تنفرد بربوة حين اقترب مخاضها لتلد عيسى في منعزل من الناس حفظا لعيسى من أذاهم.

والقرار: المكث في المكان، أي هي صالحة لأن تكون قرارا، فأضيفت الربوة إلى المعنى الحاصل فيها لأدنى ملابسة وذلك بما اشتملت عليه من النخيل المثمر فتكون في ظله ولا تحتاج إلى طلب قوتها.

والمعين: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض، وهو وصف جرى على موصوف محذوف، أي ماء معين، لدلالة الوصف عليه كقوله) حملناكم في الجارية(. وهذا في معنى قوله في سورة مريم)قد جعل ربك تحتك سريا وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي وقري عينا(.

)يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صلحا إني بما تعملون عليم)51(.

يتعين تقدير قول محذوف اكتفاء بالمقول، وهو استئناف ابتدائي، أي قلنا: يا أيها الرسل كلوا. والمحكي هنا حكي بالمعنى لأن الخطاب المذكور هنا لم يكن موجها للرسل في وقت واحد بضرورة اختلاف عصورهم. فالتقدير: قلنا لكل رسول ممن مضى ذكرهم كل من الطيبات واعمل صالحا إني بما تعمل عليم.

وذلك على طريقة التوزيع لمدلول الكلام وهي شائعة في خطاب الجماعات. ومنه: ركب القوم دوابهم.
والغرض من هذا بيان كرامة الرسل عند الله ونزاهتهم في أمورهم الجسمانية والروحانية، فالأكل من الطيبات نزاهة جسمية والعمل الصالح نزاهة نفسانية.
والمناسبة لهذا الاستئناف هي قوله)وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين(وليحصل من ذلك الرد على اعتقاد الأقوام المعللين تكذيبهم رسلهم بعلة أنهم يأكلون الطعام كما قال تعالى في الآية السابقة) ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون(، وقال)وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق(، وليبطل بذلك ما ابتدعه النصارى من الرهبانية. وهذه فوائد من الاستدلال والتعليم كان لها في هذا المكان الوقع العظيم.
والأمر في قوله)كلوا(للإباحة، وإن كان الأكل أمرا جبليا للبشر إلا أن المراد به هنا لازمه وهو إعلام المكذبين بأن الأكل لا ينافي الرسالة وأن الذي أرسل الرسل أباح لهم الأكل.
وتعليق)من الطيبات(بكسب الإباحة المستفادة من الأمر شرط أن يكون المباح من الطيبات، أي أن يكون المأكول طيبا. ويزيد في الرد على المكذبين بأن الرسل إنما يجتنبون الخبائث ولا يجتنبون ما أحل الله لهم من الطيبات. والطيبات: ما ليس بحرام ولا مكروه.
وعطف العمل الصالح على الأمر بأكل الطيبات إيماء إلى أن همة الرسل إنما تنصرف إلى الأعمال الصالحة، وهذا كقوله تعالى)ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات(والمراد به ما تناولوه من الخمر قبل تحريمها.

صفحة : 2840

وقوله)إني بما تعملون عليم(تحريض على الاستزادة من الأعمال الصالحة لأن ذلك يتضمن الوعد بالجزاء عنها وأنه لا يضيع منه شيء، فالخبر مستعمل في التحريض.
)وأن هذه أمتكم أمة وحدة وأنا ربكم فاتقون[52](يجوز أن تكون الواو عاطفة على جملة)يا أيها الرسل كلوا من الطيبات(الخ، فيكون هذا مما قيل للرسل. والتقدير: وقلنا)لهم إن هذه أمتكم أمة واحدة(الآية. ويجوز أن تكون عطفا على قصص الإرسال المبدوءة من قوله)ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه(لأن تلك القصص إنما قصت عليهم ليهتدوا بها إلى أن شأن الرسل منذ ابتداء الرسالة هو

الدعوة إلى توحيد الله بالإلهية. وعلى هذا الوجه يكون سياقها كسياق آية سورة الأنبياء)إن هذه أمتكم أمة واحدة(الآية.

وفي هذه الآية ثلاث قراءات بخلاف آية سورة الأنبياء. فتلك اتفق القراء على قراءتها بكسر همزة)إن(. فأما هذه الآية فقرأ الجمهور)وأن(بفتح الهمزة وتشديد النون، فيجوز ان تكون خطابا للرسل وأن تكون خطابا للمقصودين بالنذارة على الوجهين وفتح الهمزة بتقدير لام كي متعلقة بقوله)فاتقون(عند من لا يرى وجود الفاء فيه مانعا من تقديم معموله، أو متعلقة بمحذوف دل عليه)فاتقون(عند من يمنع تقديم المعمول على العامل المقترن بالفاء، كما تقدم في قوله تعالى)فإياي فارهبون(في سورة البقرة.

والمعنى عليه: ولكون دينكم دينا واحدا لا يتعدد فيه المعبود. وكوني ربكم فاتقون ولا تشركوا بي غيري، خطابا للرسل والمراد أممهم، أو خطابا لمن خاطبهم القرآن.

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بكسر همزة)إن(وتشديد النون، فكسر همزة)إن(إما لأنها واقعة في حكاية القول على الوجه الأول، وإما لأنها مستأنفة على الوجه الثاني. والمعنى كما تقدم في معنى قراءة الجمهور.

وقرأ بن عامر بفتح الهمزة وتخفيف النون على أنها مخففة من) أن(المفتوحة واسمها ضمير شأن محذوف وخبرها الجملة التي بعدها. ومعناه كمعنى قراءة الجمهور سواء.

واسم الإشارة مراد به شريعة كل من الأنبياء أو شريعة الإسلام على الوجهين في المخاطب بهذه الآية.

وتأكيد الكلام بحرف)إن(على القراءات كلها للرد على المشركين من أمم الرسل أو المشركين المخاطبين بالقرآن.

وتقدم تفسير نظيرها في سورة الأنبياء؛ إلا أن الواقع هنا)فاتقون(وهناك)فاعبدون(فيجوز أن الله أمرهم بالعبادة وبالتقوى ولكن حكي في كل سورة أمرا من الأمرين، ويجوز أن يكون الأمران وقعا في خطاب واحد، فاقتصر على بعضه في سورة الأنبياء وذكر معظمه في سورة المؤمنين بحسب ما اقتضاه مقام الحكاية في كلتا السورتين. ويحتمل أن يكون كل أمر من الأمرين: الأمر بالعبادة والأمر بالتقوى، قد وقع في خطاب مستقل تماثل بعضه وزاد الآخر عليه بحسب ما اقتضاه مقام الخطاب من قصد إبلاغه للأمم كما في سورة الأنبياء، أو من قصد اختصاص الرسل كما في سورة المؤمنين. ويرجح هذا أنه قد ذكر في سورة المؤمنين خطاب الرسل بالصراحة.

وأياما كان من الاحتمالين فوجه ذلك أن آية سورة الأنبياء لم تذكر فيها رسالات الرسل إلى أقوامهم بالتوحيد عدا رسالة إبراهيم في

قوله)ولقد آتينا إبراهيم رشده(ثم جاء ذكر غيره من الرسل والأنبياء مع الثناء عليهم وطال البعد بين ذلك وبين قصة إبراهيم فكان الأمر بعبادة الله تعالى، أي إفراده بالعبادة الذي هو المعنى الذي اتحدت فيه الأديان. أولى هنالك لأن المقصود من ذلك الأمر أن يبلغ إلى أقوامهم، فكان ذكر الأمر بالعبادة أولى بالمقام في تلك السورة لأنه الذي حظ الأمم منه أكثر. إذ الأنبياء والرسل لم يكونوا بخلاف ذلك قط فلا يقصد أمر الأنبياء بذلك إذ يصير من تحصيل الحاصل إلا إذا أريد به الأمر بالدوام.

صفحة : 2841

وأما آية هذه السورة فقد جاءت بعد ذكر ما أرسل به الرسل إلى أقوامهم من التوحيد وإبطال الشرك فكان حظ الرسل من ذلك أكثر كما يقتضيه افتتاح الخطاب ب)يا أيها الرسل(فكان ذكر الأمر بالتقوى هنا أنسب بالمقام لأن التقوى لا حد لها، فالرسل مأمورون بها وبالازدياد منها كما قال تعالى في حق نبيه)يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه(ثم قال في حق الأمة)فاقرأوا ما تيسر من القرآن(الآية. وقد مضى في تفسير سورة الأنبياء شيء من الإشارة إلى هذا ولكن ما ذكرناه هنا أبسط فضمه إليه وعول عليه.
وقد فات في سورة الأنبياء أن نبين عربية قوله تعالى)إن هذه أمتكم أمة واحدة(فوجب أن نشبع القول فيه هنا. فالإشارة بقوله) هذه(إلى أمر مستحضر في الذهن بينه الخبر والحال ولذلك أنث اسم الإشارة ، أي هذه الشريعة التي أوحينا إليك هي شريعتك. ومعنى هذه الإخبار أنك تلتزمها ولا تنقص منها ولا تغير منها شيئا، ولأجل هذا المراد جعل الخبر ما حقه أن يكون بيانا لاسم الإشارة لأنه لم يقصد به بيان اسم الإشارة بل قصد به الإخبار عن اسم الإشارة لإفادة الاتحاد بين مدلولي اسم الإشارة وخبره فيفيد أنه هو هو لا يغير عن حاله.
قال الزجاج: ومثل هذه الحال من لطيف النحو وغامضه إذ لا تجوز إلا حيث يعرف الخبر. ففي قولك: هذا زيد قائما، لا يقال إلا لمن يعرفه فيفيده قيامه، ولو لم يكن كذلك لزم أن لا يكون زيدا عند عدم القيام وليس بصحيح.
وبهذا يعلم بأنه ليس المقصود من الإخبار عن اسم الإشارة حقيقته بل الخبر مستعمل مجازا في معنى التحريض والملازمة، وهو يشبه لازم الفائدة وإن لم يقع في أمثلتهم، ومنه قوله تعالى)وهذا بعلي

شيخا(فإن سارة قد علمت أن الملائكة عرفوا أن إبراهيم بعلها إذ قد بشروها بإسحاق. وإنما المعنى: وهذا الذي ترونه هو بعلي الذي يترقب منه النسل المبشر به، أي حاله ينافي البشارة، ولذلك يتبع مثل هذا التركيب بحال تبين المقصود من الإخبار كما في هذه الآية. وقد تقدم ذكر لطيفة في تلك الآية.

)فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون[53](جيء بفاء التعقيب لإفادة أن الأمم لم يتريثوا عقب تبليغ الرسل إياهم) إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون(أن تقطعوا أمرهم بينهم فاتخذوا آلهة كثيرة فصار دينهم متقطعا قطعا لكل فريق صنم وعبادة خاصة به. فضمير)تقطعوا(عائد إلى الأمم المفهوم من السياق الذين هم المقصود من قوله)وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون(. وضمير الجمع عائد إلى أمم الرسل يدل عليه السياق.

فالكلام مسوق مساق الذم. ولذلك قد تفيد الفاء مع التعقيب معنى التفريع، أي فتفرع على ما أمرناهم به من التوحيد أنهم أتوا بعكس المطلوب منهم، فيفيد الكلام زيادة على الذم تعجيبا من حالهم. ومما يزيد معنى الذم تذييله بقوله)كل حزب بما لديهم فرحون(أي وهم ليسوا بحال من يفرح.

والتقطع أصله مطاوع قطع. واستعمل فعلا متعديا بمعنى قطع بقصد إفادة الشدة في حصول الفعل، ونظيره تخوفه السير، أي تنقصه، وتجهمه الليل وتعرفه الزمن. فالمعنى: قطعوا أمرهم بينهم قطعا كثيرة، أي تفرقوا على نحل كثيرة فجعل كل فريق منهم لنفسه دينا. ويجوز أن يجعل)تقطعوا(قاصرا أسند التقطع إليهم على سبيل الإبهام ثم ميز بقوله)أمرهم(كأنه قيل: تقطعوا أمرا، فإن كثيرا من نحاة الكوفة يجوزون كون التمييز معرفة. وقد بسطنا القول في معنى)تقطعوا أمرهم بينهم(في سورة الأنبياء.

والأمر هنا بمعنى الشأن والحال وما صدقه أمور دينهم.

والزبر بضم الزاي وضم الموحدة كما قرأ به الجمهور جمع زبور وهو الكتاب. استعير اسم الكتاب للدين لأن شأن الدين أن يكون لأهله كتاب، فيظهر أنها استعارة تهكمية إذ لم يكن لكل فريق كتاب ولكنهم اتخذوا لأنفسهم أديانا وعقائد لو سجلت لكانت زبرا.

وقرأه أبو عمرو بخلاف عنه)زبرا(بضم الزاء وفتح الموحدة وهو جمع زبرة بمعنى قطعة.

وجملة)كل حزب بما لديهم فرحون(تذييل لما قبله لأن التقطع يقتضي التحزب فذيل بأن كل فريق منهم فرح بدينه، ففي الكلام صفة محذوفة ل)حزب(أي كل حزب منهم، بدلالة المقام.

والفرح: شدة المسرة، أي راضون جذلون بأنهم اتخذوا طريقتهم في الدين. والمعنى: أنهم فرحون بدينهم عن غير دليل ولا تبصر بل لمجرد العكوف على المعتاد، وذلك يومئ إليه)لديهم(المقتضي أنه متقرر بينهم من قبل، أي بالدين الذي هو لديهم فهم لا يرضون على من خالفهم ويعادونه، وذلك يفضي إلى التفريق والتخاذل بين الأمة الواحدة وهو خلاف مراد الله ولذلك ذيل به قوله)وإن هذه أمتكم أمة واحدة(. وقديما كان التحزب مسببا لسقوط الأديان والأمم وهو من دعوة الشيطان التي يلبس فيها الباطل في صورة الحق.

والحزب: الجماعة المجتمعون على أمر من اعتقاد أو عمل، أو المتفقون عليه.

)فذرهم في غمرتهم حتى حين[54](انتقال بالكلام إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم. وضمير الجمع عائد إلى معروف من السياق وهم مشركو قريش فإنهم من جملة الأحزاب الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبرا، أو هم عينهم: فمنهم اتخذ إلهه العزى. ومنهم من اتخذ مناة، ومنهم من اتخذ ذا الخلصة إلى غير ذلك.

والكلام ظاهره المتاركة، والمقصود منه الإملاء لهم وإنذارهم بما يستقبلهم من سوء العاقبة في وقت ما. ولذلك نكر لفظ) حين(المجعول غاية لاستدراجهم، أي زمن مبهم، كقوله)لا تأتيكم إلا بغتة(.

والغمرة حقيقتها: الماء الذي يغمر قامة الإنسان بحيث يغرقه. وتقدم في قوله تعالى)ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت(في سورة الأنعام. وإضافتها إلى ضميرهم باعتبار ملازمتها إياهم حتى قد عرفت بهم، وذلك تمثيل الحال اشتغالهم بما هم فيه من الازدهار وترف العيش عن التدبر فيما يدعوهم إليه الرسول لينجيهم من العقاب بحال قوم غمرهم الماء فأوشكوا على الغرق وهم يحسبون أنهم يسبحون.

)أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين[55] نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون[56](الأشبه أن تكون هذه الجملة بدل اشتمال من جملة)فذرهم في غمرتهم حتى حين(باعتبار أن جملة) فذرهم(تشتمل على معنى عدم الاكتراث بما هم فيه من الأحوال التي ألهتهم عن النظر في دعوة الإسلام وغرتهم بأنهم بمحل الكرامة على الله بما خولهم من العزة والترف، وما تشتمل عليه من التوعد بأن ذلك له نهاية ينتهون إليها وأن الله أعطاهم ما هم فيه زمن النعمة استدراجا لهم. وهذا كقوله تعالى)وذرني والمكذبين

أولي النعمة ومهلهم قليلا(وقوله)لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل(.
والاستفهام في)أيحسبون(إنكاري وتوبيخ على هذا الحسبان سواء كان هذا الحسبان حاصلا لجميع المشركين أم غير حاصل لبعض لأن حالهم حال من هو مظنة هذا الحسبان فينكر عليه هذا الحسبان لإزالته من نفسه أو لدفع حصوله فيها.
و)أنما(هنا كلمتان)أن(المؤكدة)وما(الموصوله وكتبتا في المصحف متصلتين كما تكتب)إنما(المكسورة التي هي أداة حصر لأن الرسم القديم لم يكن منضبطا كل الضبط وحقها أن تكتب مفصولة.
والإمداد: إعطاه المدد وهو العطاء. و)من مال وبينين(بيان ل)ما(الموصولة.
والمسارعة: التعجيل، وهي هنا مستعارة لتوخي المرغوب والحرص على تحصيله. وفي حديث عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم)ما أرى ربك إلا يسارع في هواك(أي يعطيك ما تحبه لأن الراغب في إرضاء شخص يكون متسارعا في إعطائه مرغوبه، ويقال: فلان يجري في حظوظك. ومتعلق)نسارع(محذوف تقديره: نسارع لهم به، أي بما نمدهم به من مال وبنين. وحذف لدلالة) نمدهم به(عليه.
وظرفية)في(مجازية. جعلت)الخيرات(بمنزلة الطريق يقع فيه المسارعة بالمشي فتكون)في(قرينة مكنية. وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى)يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر(وقوله)فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم(كلاهما في سورة العقود، وقوله إنهم كانوا يسارعون في الخيرات(في سورة الأنبياء.
والخيرات: جمع خير بالألف والتاء، وهو من الجموع النادرة مثل سرادقات.
وقد تقدم عند قوله تعالى)وأولئك لهم الخيرات(في سورة براءة، وتقدم في سورة الأنبياء.
و)بل(إضراب عن المظنون لا على الظن كما هو ظاهر بالقرينة، أي لسنا نسارع لهم بالخيرات كما ظنوا بل لا يشعرون بحكمة ذلك الإمداد وأنها لاستدراجهم وفضحهم بإقامة الحجة عليهم.

)إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون[57] والذين هم بآيات ربهم يؤمنون[58] والذين هم بربهم لا يشركون[59] والذين يؤتون ما

آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون[60] أولئك يسرعون في الخيرات وهم لها سابقون[61](هذا الكلام مقابل ما تضمنته الغمرة من قوله)فذرهم في غمرتهم(من الإعراض عن عبادة الله وعن التصديق بآياته، ومن إشراكهم آلهة مع الله، ومن شحهم عن الضعفاء وإنفاق مالهم في اللذات، ومن تكذيبهم بالبعث. كل ذلك مما شملته الغمرة فجيء في مقابلها بذكر أحوال المؤمنين ثناء عليهم، ألا ترى إلى قوله بعد هذا)بل قلوبهم في غمرة من هذا(.
فكانت هذه الجملة كالتفصيل لإجمال الغمرة مع إفادة المقابلة بأحوال المؤمنين. واختير أن يكون التفصيل بذكر المقابل لحسن تلك الصفات وقبح أضدادها تنزيها للذكر عن تعداد رذائلهم، فحصل بهذا إيجاز بديع، وطباق من ألطف البديع، وصون للفصاحة من كراهة الوصف الشنيع.
وافتتاح الجملة ب)إن(للاهتمام بالخبر، والإتيان بالموصولات للإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو أنهم يسارعون في الخيرات ويسابقون إليها وتكرير أسماء الموصولات للاهتمام بكل صلة من صلاتها فلا تذكر تبعا بالعطف. والمقصود الفريق الذين اتصفوا بصلة من هذه الصلات.
و)من(في قوله)من خشية ربهم(للتعليل.
والإشفاق: توقع المكروه وتقدم عند قوله تعالى)وهم من خشيته مشفقون(في سورة الأنبياء. وقد حذف المتوقع منه لظهور أنه هو الذي كان الإشفاق بسبب خشيته، أي يتوقعون غضبه وعقابه.
والمراد بالآيات الدلائل التي تضمنها القرآن ومنها إعجاز القرآن.
والمعنى: أنهم لخشية ربهم يخافون عقابه، فحذف متعلق) مشفقون(لدلالة السياق عليه.
وتقديم المجرورات الثلاثة على عواملها للرعاية على الفواصل مع الاهتمام بمضمونها.
ومعنى)يؤتون ما آتوا(يعطون الأموال صدقات وصلات ونفقات في سبيل الله. قال تعالى)وآتى المال على حبه ذوي القربى(الآية وقال)وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة(. واستعمل الإيتاء في إعطاء المال شائع في القرآن متعين أنه المراد هنا.
إنما عبر ب)ما آتوا(دون الصدقات أو الأموال ليعم كل أصناف العطاء المطلوب شرعا وليعم القليل والكثير، فلعل بعض المؤمنين ليس له من المال ما تجب فيه الزكاة وهو يعطي مما يكسب.
وجملة)وقلوبهم وجلة(في موضع الحال وحق الحال إذا جاءت بعد جمل متعاطفة أن تعود إلى جميع الجمل التي قبلها، أي يفعلون ما ذكر من الأعمال الصالحة بقلوبهم وجوارحهم وهم مضمرون وجلا وخوفا من ربهم أن يرجعوا إليه فلا يجدونه راضيا عنهم، أو لا يجدون ما يجده غيرهم ممن يفوتهم في الصالحات، فهم لذلك

يسارعون في الخيرات ويكثرون منها ما استطاعوا وكذلك كان شأن المسلمين الأولين. وفي الحديث أن أهل الصفة قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به، إن لكلم بكل تسبيحة صدقة وكل تحميدة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة .

وقال أبو مسعود الأنصاري: لما أمرنا بالصدقة كنا نحامل فيصيب أحدنا المد فيتصدق به. ومما يشير إلى معنى هذه الآية قوله تعالى)ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا إنا نخاف ربنا يوما عبوسا قمطريرا(الآيات.

وخبر)إن(جملة)أولئك يسارعون في الخيرات(.

وافتتح باسم الإشارة لزيادة تمييزهم للسامعين لأن مثلهم أحرياء بأن يعرفوا.

وتقدم الكلام على معنى)يسارعون في الخيرات(آنفا.

ومعنى)وهم لها سابقون(أنهم يتنافسون في الإكثار من أعمال الخير، فالسبق تمثيل للتنافس والتفاوت في الإكثار من الخيرات بحال السابق إلى الغاية، أو المعنى وهم محرزون لما حرصوا عليهم، فالسبق مجاز لإحراز المطلوب لأن الإحراز من لوازم السبق.

وعلى التقديرين فاللام بمعنى)إلى(. وقد قيل إن فعل السبق يتعدى باللام كما يتعدى ب)إلى(.

وتقديم المجرور للاهتمام ولرعاية الفاصلة.

صفحة : 2844

)ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتب ينطق بالحق وهم لا يظلمون[62](تذييل لما تقدم من أحوال الذين من خشية ربهم مشفقون، لأنه لما ذكر ما اقتضى مخالفة المشركين لما أمروا به من توحيد الدين، وذكر بعده ما دل على تقوى المؤمنين بالخشية وصحة الإيمان والبذل ومسارعتهم في الخيرات. ذيل ذلك بأن الله ما طلب من الذين تقطعوا أمرهم إلا تكليفا لا يشق عليهم، وبأن الله عذر من المؤمنين من لم يبلغوا مبلغ من يفوتهم في الأعمال عذرا يقتضي اعتبار أجرهم على ما فاتهم إذ بذلوا غاية وسعهم. قال تعالى)ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله(.

فقوله)ولا نكلف نفسا إلا وسعها(خبر مراد منه لازمه وهو تسجيل التقصير على الذين تقطعوا أمرهم بينهم. وقطع معذرتهم، وتيسير الاعتذار على الذين هم من خشية ربهم مشفقون كقوله تعالى)يريد الله بكم اليسر(مع ما في ذلك من جبر الخواطر المنكسرة من أهل الإيمان الذين لم يلحقوا غيرهم لعجز أو خصاصة.

ولمراعاة هذا المعنى عطف قوله)ولدينا كتاب ينطق بالحق(وهو معنى إحاطة العلم بأحوالهم ونواياهم. فالكتاب هنا هو الأمر الذي فيه تسجيل الأعمال من حسنات وسيئات وإطلاق الكتاب عليه لإحاطته. وفي قوله)لدينا(دلالة على أن ذلك محفوظ لا يستطيع أحد تغييره بزيادة ولا نقصان. والنطق مستعار للدلالة، ويجوز أن يكون نطق الكتاب حقيقة بأن تكون الحروف المكتوبة فيه ذات أصواب وقدرة الله لا تحد.

وأما قوله)وهم لا يظلمون(فالمناسب أن يكون مسوقا لمؤاخذة المفرطين والمعرضين فيكون الضمير عائدا إلى ما عاد إليه ضمير) فتقطعوا أمرهم(وأشباهه من الضمائر والاعتماد على قرينة السياق، وقوله)بل قلوبهم في غمرة من هذا(وما بعده من الضمائر. والظلم على هذا الوجه محمول على ظاهره وهو حرمان الحق والاعتداء.

ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى عموم الأنفس في قوله)ولا تكلف نفسا إلا وسعها(فيكون قوله)وهم لا يظلمون(من بقية التذييل، والظلم على هذا الوجه مستعمل في النقص من الحق كقوله تعالى)كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم شيئا(فيكون وعيدا لفريق ووعدا لفريق.

وهذا أليق الوجهين بالإعجاز.

)بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمل من دون ذلك لها عاملون[63](إضراب انتقال إلى ما هو أغرب مما سبق وهو وصف غمرة أخرى انغمس فيها المشركون فهم في غمرة غمرت قلوبهم وأبعدتها عن أن تتخلق بخلق الذين هم من خشية ربهم مشفقون كيف وأعمالهم إلى الضد من أعمال المؤمنين تناسب كفرهم، فكل يعمل على شاكلته.

فحرف)من(في قوله)من هذا(يوهم البدلية، أي في غمرة تباعدهم عن هذا.

والإشارة ب)هذا(إلى ما ذكر آنفا من صفات المؤمنين في قوله) إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون(إلى قوله)وهم لها سابقون(.

و)دون(تدل على المخالفة لأحوال المؤمنين، أي ليسوا أهلا للتحلي بمثل تلك المكارم.

وقوله)ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون(يبين)هذا(، أي وأعمالهم التي يعملونها غير ذلك. ويذكرني هذا قول محمد بن بشير الخارجي في مدح عروة بن زيد الخيل:

يا أيها المتمني أن يكـون فـتـى مثل ابن زيد لقد أخلى لك السبلا

أعدد فضائل أخلاق عـددن لـه هل سب من أحد أو سب أو بخلا

إن تنفق المال أو تكلف مساعـيه يشفق عليك وتفعل دون ما فعلا ولام)لهم أعمال(للاختصاص. وتقديم المجرور بها على المبدأ لقصر المسند إليه على المسند، أي لهم أعمال لا يعملون غيرها من أعمال الإيمان والخيرات.

ووصف)أعمال(بجملة)هم لها عاملون(للدلالة على أنهم مستمرون عليها لا يقلعون عنها لأنهم ضروا بها لكثرة انغماسهم فيها.

وجيء بالجملة الاسمية لإفادة الدوام على تلك الأعمال وثباتهم عليها.

ويجوز أن يكون تقديم)لها(على)عاملون(لإفادة الاختصاص لقصر القلب، أي لا يعملون غيرها من الأعمال الصالحة التي دعوا إليها. ويجوز أن يكون للرعاية على الفاصلة لأن القصر قد أفيد بتقديم المسند إليه.

صفحة : 2845

)حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجئرون[64] لا تجئروا اليوم إنكم منا لا تنصرون[65] قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون[66] مستكبرين به سامرا تهجرون[67]( )

حتى(ابتدائية. وقد تقدم ذكرها في سورة الأنبياء عند قوله تعالى) حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج(.

و)حتى(الابتدائية يكون ما بعدها ابتداء كلام، فليس الدال على الغاية لفظا مفردا كما هو الشأن مع)حتى(الجارة و)حتى(العاطفة، بل هي غاية يدل عليها المقام والأكثر أن تكون في معنى التفريع.

وبهذه الغاية صار الكلام تهديدا لهم بعذاب سيحل بهم يجأرون منه ولا ملجأ لهم منه. والظاهر أنه عذاب في الدنيا بقرينة قوله)ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون(.

و)إذا(الأولى ظرفية فيها معنى الشرط فلذلك كان الأصل والغالب فيها أن تدل على ظرف مستقبل.)وإذا(الثانية فجائية داخلة على جواب شرط)إذا(.

والمترفون: المعطون ترفا وهو الرفاهية، أي المنعمون كقوله تعالى)وذرني والمكذبين أولي النعمة(فالمترفون منهم هم سادتهم وأكابرهم والضمير المضاف إليه عائد إلى جميع المشركين أصحاب الغمرة.

وإنما جعل الأخذ واقعا على المترفين منهم لأنهم الذين أضلوا عامة قومهم ولولا نفوذ كلمتهم على قومهم لاتبعت الدهماء الحق لأن العامة أقرب إلى الإنصاف إذا فهموا الحق بسبب سلامتهم من جل دواعي المكابرة من توقع تقلص سؤدد وزوال نعيم. وكذلك حق على قادة الأمم أن يؤاخذوا بالتبعات اللاحقة للعامة من جراء أخطائهم ومغامرتهم عن تضليل أو سوء تدبر، وأن يسألوا عن الخيبة أن ألقوا بالذين اتبعوهم في مهواة الخطر كما قال تعالى)وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثير(، وقال)ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون(.

وتخصيص المترفين بالتعذيب مع أن شأن العذاب الإلهي إن كان دنيويا أن يعم الناس كلهم إيماء إلى أن المترفين هم سبب نزول العذاب بالعامة، ولأن المترفين هم أشد إحساسا بالعذاب لأنهم لم يعتادوا مس الضراء والآلام. وقد علم مع ذلك أن العذاب يعم جميعهم من قوله)إذا هم يجأرون(فإن الضميرين في)إذا هم(و)يجأرون(عائدان إلى ما عاد إليه ضمير)مترفيهم(بقرينة قوله)قد كانت آياتي تتلى عليكم(إلى قوله)سامرا تهجرون(فإن ذلك كان من عمل جميعهم.

ويجوز أن يكون المراد بالمترفين جميع المشركين فتكون الإضافة بيانيه ويكون ذكر المترفين تهويلا في التهديد تذكيرا لهم بأن العذاب يزيل عنهم ترفهم؛ فقد كان أهل مكة في ترف ودعة إذ كانوا سالمين من غارات الأقوام لأنهم أهل الحرم الآمن وكانوا تجبى إليهم ثمرات كل شيء وكانوا مكرمين لدى جميع القبائل، قال الأخطل:

فأما الناس ما حاشا قريشا فإنا نحن أفضلهم فعـالا

وكانت أرزاقهم تأتيهم من كل مكان قال تعالى)الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف(، فيكون المعنى: حتى إذا أخذناهم وهم في ترفهم، كقوله)وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا(.

ويجوز أن يكون المراد حلول العذاب بالمترفين خاصة، أي بسادتهم وصناديدهم وهو عذاب السيف يوم بدر فإنه قتل يومئذ كبراء قريش وهم أصحاب القليب. قال شداد بن الأسود:

وماذا بالقليب قليب بدر من
الشيزى تزين بالسنام
وماذا بالقليب قليب بدر من
القينات والشرب الكرام يعني ما ضمنه القليب من رجال كانت سجاياهم الإطعام والطرب واللذات.

وضمير)إذا هم يجأرون(على هذا الوجه عائد إلى غير المترفين لأن المترفين قد هلكوا فالبقية يجأرون من التلهف على ما أصاب قومهم والإشفاق أن يستمر القتل في سائرهم فهم يجأرون كلما صرع واحد من سادتهم ولأن أهل مكة عجبوا من تلك المصيبة ورثوا أمواتهم بالمراثي والنياحات.

ثم الظاهر أن المراد من هذا العذاب عذاب يحل بهم في المستقبل بعد نزول هذه الآية التي هي مكية فيتعين أن هذا عذاب مسبوق بعذاب حل بهم قبله كما يقتضيه قوله تعالى)ولقد أخذناهم بالعذاب(الآية.

ولذا فالعذاب المذكور هنا عذاب هددوا به. وهو إما عذاب الجوع الثاني الذي أصاب أهل مكة بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته. ذلك أنه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي عقب سرية خالد بن الوليد إلى بني كلب التي أخذ فيها ثمامة أسيرا وأسلم فمنع صدور الميرة من أرض قومه باليمامة إلى أهل مكة وكانت اليمامة مصدر أقواتهم حتى سميت ريف أهل مكة فأصابهم جوع حتى أكلوا العلهز والجيف سبع سنين، وإما عذاب السيف الذي حل بهم يوم بدر.

وقيل إن هذا العذاب عذاب وقع قبل نزول الآية وتعين انه عذاب الجوع الذي أصابهم أيام مقام النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ثم كشفه الله عنهم ببركة نبيه وسلامة المؤمنين، وذلك المذكور في سورة الدخان)ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنين(.

وقيل العذاب عذاب الآخرة. ويبعد هذا القول أنه سيذكر عذاب الآخرة في قوله تعالى)حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون...(الآيات إلى قوله)إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم تعلمون(كما ستعلمه.

وتجيء منه وجوه من الوجوه المتقدمة لا يخفى تقريرها.
ومعنى)يجأرون(يصرخون ومصدره الجأر. والاسم الجؤار بضم الجيم وهو كناية عن شدة ألم العذاب بحيث لا يستطيعون صبرا عليه فيصدر منهم صراخ التأوه والويل والثبور.

وجملة)لا تجأروا اليوم(معترضة بين ما قبلها وما تفرع عليه من قوله)أفلم يدبروا القول(وهي مقول قول محذوف، أي تقول لهم: لا تجأروا اليوم.
وهذا القول كلام نفسي أعلمهم الله به لتخويفهم من عذاب لا يغني عنهم حين حلوله جؤار إذا لا مجيب لجؤارهم ولا مغيث لهم منه إذ هو عذاب خارج عن مقدور الناس لا يطمع أحد في تولي كشفه. وهذا تأييس لهم من النجاة من العذاب الذي هددوا به. وإذا كان المراد بالعذاب الآخرة فالقول لفظي والمقصود منه قطع طماعيتهم في النجاة.
والنهي عن الجؤار مستعمل في معنى التسوية. وورود النهي في معنى التسوية مقيس على ورود الأمر في التسوية. وعثرت على اجتماعهما في قوله تعالى)اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم(.
وجملة)إنكم منا لا تنصرون(تعليل للنهي المستعمل في التسوية، أي لا تجأروا إذ لا جدوى لجؤاركم إذ لا يقدر مجير أن يجيركم من عذابنا، فموقع)إن(إفادة التعليل لأنها تغني غناء فاء التفريع.
وضمن)تنصرون(معنى النجاة فعدي الفعل ب)من(، أي لا تنجون من عذابنا. فثم مضاف محذوف بعد)من(وحذف المضاف في مثل هذا المقام شائع في الاستعمال. وتقديم المجرور للاهتمام بجانب الله تعالى ولرعاية الفاصلة.
وقوله)قد كانت آياتي تتلى عليكم(استئناف. والخبر مستعمل في التنديم والتلهيف. وإنما لم تعطف الجملة على ملة)إنكم منا لا تنصرون(لقصد إفادة معنى بها غير التعليل إذ لا كبير فائدة في الجمع بين علتين.
والآيات هنا هي آيات القرآن بقرينة)تتلى(إذ التلاوة القراءة.
والنكوص: الرجوع من حيث أتى، وهو الفرار. والأعقاب: مؤخر الأرجل. والنكوص هنا تمثيل للإعراض وذكر الأعقاب ترشيح للتمثيل. وقد تقدم في قوله تعالى)فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه(في سورة الأنفال.
وذكر فعل)كنتم(للدلالة على أن ذلك شأنهم. وذكر المضارع للدلالة على التكرر فذلك خلق منهم معاد مكرور.
وضمير)به(يجوز أن يكون عائدا على الآيات لأنها في تأويل القرآن فيكون)مستكبرين(بمعنى معرضين استكبارا ويكون الباء

بمعنى)عن(، أو ضمن)مستكبرين(معنى ساخرين فعدي بالباء للإشارة إلى تضمينه.
ويجوز أيضا أن يكون الضمير للبيت أو المسجد الحرام وإن لم يتقدم له ذكر لأنه حاضر في الأذهان فلا يسمع ضمير لم يتقدم له معاد إلا ويعلم أنه المقصود بمعونة السياق لا سيما وقد ذكر تلاوة الآيات عليهم. وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلوا عليهم آيات القرآن في المسجد الحرام إذ هو مجتمعهم. فتكون الباء للظرفية. وفيه إنحاء عليهم في استكبارهم، وفي كون استكبارهم في ذلك الموضع الذي أمر الله أن يكون مظهرا للتواضع ومكارم الأخلاق، فالاستكبار في الموضع الذي شأن القائم فيه أن يكون قانتا لله حنيفا أشنع استكبار.
وعن منذر بن سعيد البلوطي الأندلسي قاضي قرطبة أن الضمير في قوله)به(للنبي صلى الله عليه وسلم والباء حينئذ للتعدية، وتضمين)مستكبرين(معنى مكذبين لأن استكبارهم هو سبب التكذيب.

صفحة : 2847

و)سامرا(حال ثانية من ضمير المخاطبين، أي حال كونكم سامرين. والسامر: اسم لجمع السامرين، أي المتحدثين في سمر الليل وهو ظلمته، أو ضوء قمره. وأطلق السمر على الكلام في الليل، فالسامر كالحاج والحاضر والجامل بمعنى الحجاج والحاضرين وجماعة الجمال. وعندي أنه يجوز أن يكون)سامرا(مرادا منه مجلس السمر حيث يجتمعون للحديث ليلا ويكون نصبه على نزع الخافض، أي في سامركم، كما قال تعالى)وتأتون في ناديكم المنكر(.
و)تهجرون(بضم التاء وسكون الهاء وكسر الجيم في قراءة نافع مضارع أهجر: إذ قال الهجر بضم الهاء وسكون الجيم وهو اللغو والسب والكلام السيء. وقرأ بقية العشرة بفتح التاء من هجر إذا لغا. والجملة في موضع الصفة ل)سامرا(، أي في حال كونكم متحدثين هجرا وكان كبراء قريش يسمرون حول الكعبة يتحدثون بالطعن في الدين وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم.
)أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين[68] أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون[69] أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون[70](الفاء لتفريع الكلام على الكلام السابق وهو قوله)بل قلوبهم في غمرة من هذا(إلى قوله)سامرا

تهجرون(. وهذا التفريع معترض بين جملة)بل قلوبهم في غمرة من هذا(وجملة)ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون(.

والمفرع استفهامات عن سبب إعراضهم واستمرار قلوبهم في غمرة إلى أن يحل بهم العذاب الموعودونه.

وهذه الاستفهامات مستعملة في التخطئة على طريق المجاز المرسل لأن اتضاح الخطأ يستلزم الشك في صدوره عن العقلاء فيقتضي ذلك الشك السؤال عن وقوعه من العقلاء.

ومآل معاني هذه الاستفهامات أنها إحصاء لمثار ضلالهم وخطئهم لذلك خصت بذكر أمور من هذا القبيل. وكذلك احتجاج عليهم وقطع لمعذرتهم وإيقاظ لهم بأن صفات الرسول كلها دالة على صدقه.

فالاستفهام الأول عن عدم تدبرهم فيما يتلى عليهم من القرآن وهو المقصود بالقول أي الكلام، قال تعالى)أفلا يتدبرون القرآن(. والتدبر: إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نصت له. وأصله أنه من النظر في دبر الأمر، أي فيما منه للمتأمل بادئ ذي بدء. وقد تقدم عند قوله تعالى)أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا(في سورة النساء.

والمعنى: أنهم لو تدبروا قول القرآن لعلموا أنه الحق بدلالة إعجازه وبصحة أغراضه، فما كان استمرار عنادهم إلا لأنهم لم يدبروا القول. وهذا أحد العلل التي غمرت بهم في الكفر.

والاستفهام الثاني هو المقدر بعد)أم(وقوله)أم لم يعرفوا رسولهم(. ف)أم(حرف إضراب انتقالي من استفهام إلى غيره وهي)أم(المنقطعة بمعنى)بل(ويلزمها تقدير استفهام بعدها لا محالة، فقوله)جاءهم ما لم يأت آباءهم(تقديره: بل أجاءهم. والمجيء مجاز في الإخبار والتبليغ وكذلك الإتيان.

و)ما(الموصولة صادقة على دين. والمعنى: أجاءهم دين لم يأت آباءهم الأولين وهو الدين الداعي إلى توحيد الإله وإثبات البعث، ولذلك كانوا يقولون)إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثرهم مهتدون(. ولهذا قال الله تعالى)وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون(.

ثم إنه إن كان المراد ظاهر معنى الصلة وهي)ما لم يأت آباءهم الأولين(من أن الدين الذي جاءهم لا عهد لهم به تعين أن يكون في الكلام تهكم بهم إذ قد أنكروا دينا جاءهم ولم يسبق مجيئه لآباءهم. ووجه التهكم أن شأن كل رسول جاء بدين أن يكون دينه أنفا ولو كان للقوم مثله لكان مجيئه تحصيل حاصل.

وإن كان المراد من الصلة أنه مخالف لما كان عليه آباؤهم لأن ذلك من معنى: لم يأت آباءهم، كان الكلام مجرد تغليط، أي لا اتجاه لكفرهم به لأنه مخالف لما كان عليه آباؤهم إذ لا يكون الدين إلا مخالفا للضلالة ويكون في معنى قوله تعالى)أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون(.

صفحة : 2848

وأما الاستفهام الثالث المقدر بعد)أم(الثانية في قوله)أم لم يعرفوا رسولهم(فهو استفهام عن عدم معرفتهم الرسول بناء على ان عدم المعرفة به هو أحد احتمالين في شأنهم إذ لا يخلون عن أحدهما، فأما كونهم يعرفونه فهو المظنون بهم فكان الأجدر بالاستفهام وهو عدم معرفتهم به إذ تفرض كما يفرض الشيء المرجوح لأنه محل الاستغراب المستلزم للتغليط؛ فإن رميهم الرسول بالكذب وبالسحر والشعر يناسب أن لا يكونوا يعرفونه من قبل إذ العارف بالمرء لا يصفه بما هو منه بريء ولذلك تفرع على عدم معرفتهم إنكارهم إياه، أي إنكارهم صفاته الكاملة.
فتعليق ضمر ذات الرسول ب)منكرون(هو من باب إسناد الحكم إلى الذات والمراد صفاتها مثل)حرمت عليكم أمهاتكم(. وهذه الصفات هي الصدق والنزاهة عن السحر وأنه ليس في عداد الشعراء.
ولله در أبي طالب في قوله:
لقد علموا أن ابننا لا مكـذب لدينا
ولا يعزى لقول الأباطل وقال تعالى فيما أمر به رسوله)فقد لبثت فيكم عمرا من قبله)أي القرآن(أفلا تعقلون(.
ولما كان البشر قد يعرض له ما يسلب خصاله وهو اختلال عقله عطف على)أم لم يعرفوا رسولهم(قوله)أم يقولون به جنة(، وهو الاستفهام الرابع، أي ألعلهم ادعوا أن رسولهم الذي يعرفونه قد أصيب بجنون فانقلب صدقه كذبا.
والجنة: الجنون، وهو الخلل العقلي الذي يصيب الإنسان ، كانوا يعتقدون أنه من مس الجن.
والجنة يطلق على الجن وهو المخلوقات المستترة عن أبصارنا كما في قوله)من الجنة والناس(. ويطلق الجنة على الداء اللاحق من إصابة الجن وصاحبه مجنون، وهو المراد هنا بدليل باء الملابسة. وتقدم عند قوله تعالى)أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة(في

سورة الأعراف. وهم لم يظنوا به الجنون ولكنهم كانوا يقولونه بألسنتهم بهتانا. وليس القول بألسنتهم هو مصب الاستفهام. ثم قد نقض ما تسبب على ما اختلقوه فجيء بحرف الإضراب في الخبر في معنى الاستدراك وهو)بل(.

والحق: الثابت في الواقع ونفس الأمر، يكون في الذوات وأوصافها. وفي الأجناس. وفي المعاني. وفي الأخبار. فهو ضد الكذب وضد السحر وضد الشعر، فما جاءهم به النبي صلى الله عليه وسلم من الأخبار والأوامر والنواهي كله ملابس للحق فبطل بهذا ما قالوه في القرآن وفي الرسول عليه السلام مقالة من لم يتدبروا القرآن ومن لم يراعوا إلا موافقة ما كان عليه آباؤهم الأولون ومن لم يعرفوا حال رسولهم الذي هو من أنفسهم ومقالة من يرمي بالبهتان فنسبوا الصادق إلى التلبيس والتغليط.

فالحق الذي جاءهم به النبي أوله إثبات الوحدانية لله تعالى وإثبات البعث وما يتبع ذلك من الشرائع النازلة بمكة كالأمر بالصلاة والزكاة وصلة الرحم، والاعتراف للفاضل بفضله، وزجر الخبيث عن خبثه، وأخوة المسلمين بعضهم لبعض، والمساواة بينهم في الحق، ومنع الفواحش من الزنى وقتل الأنفس ووأد البنات والاعتداء وأكل الأموال بالباطل وإهانة اليتيم والمسكين. ونحو ذلك من إبطال ما كان عليه أمر الجاهلية من العدوان. والخلافة التي نشأوا عليها من عهد قديم. فكل ما جاء به الرسول يومئذ هو الموافق لمقتضى نظام العمران الذي خلق الله عليه العالم فهو الحق كما قال)ما خلقناهما إلا بالحق(. ولما كان قول الكاذب وقول المجنون المختص بهذا الذي لا يشاركهما فيه العقلاء والصادقون غير جاريين على هذا الحق كان إثبات أن ما جاء به الرسل حق نقضا لإنكارهم صدقه. ولقولهم هو مجنون كان ما بعد)بل(نقضا لقولهم.

وظاهر تناسق الضمائر يقتضي أن ضمير)أكثرهم(يعود إلى القوم المتحدث عنهم في قوله)فذرهم في غمرتهم(فيكون المعنى: أكثر المشركين من قريش كارهون للحق. وهذا تسجيل عليهم بأن طباعهم تأنف الحق الذي يخالف هواهم لما تخلفوا به من الشرك وإتيان الفواحش والظلم والكبر والغصب وأفانين الفساد، بله ما هم عليه من فساد الاعتقاد بالإشراك وما يتبعه من الأعمال كما قال تعالى)ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون(، فلا جرم كانوا بذلك يكرهون الحق لأن جنس الحق يجافي هذه الطباع. ومن هؤلاء أبو جهل قال تعالى)ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي(إلى قوله)ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا(.

وإنما أسندت كراهية الحق إلى أكثرهم دون جميعهم إنصافا لمن كان منهم من أهل الأحلام الراجحة الذين علموا بطلان الشرك وكانوا يجنحون إلى الحق ولكنهم يشايعون طغاة قومهم مصانعة لهم واستبقاء على حرمة أنفسهم بعلمهم أنهم إن صدعوا بالحق لقوا من طغاتهم الأذى والانتقاص، وكان من هؤلاء أبو طالب والعباس والوليد بن المغيرة. فكان المعنى: بل جاءهم بالحق فكفروا به كلهم فأما أكثرهم فكراهية للحق وأما قليل منهم مصانعة لسائرهم وقد شمل الكفر جميعهم.

وتقديم المعمول في قوله)للحق كارهون(اهتمام بذكر الحق حتى يستوعي السامع ما بعده فيقع من نفسه حسن سماعه موقع العجب من كارهيه، ولما ضعف العامل فيه بالتأخير قرن المعمول بلام التقوية.

)ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن(عطف هذا الشرط الامتناعي على جملة)وأكثرهم للحق كارهون(زيادة في التشنيع على أهوائهم فإنها مفضية إلى فساد العالم ومن فيه وكفى بذلك فظاعة وشناعة.

والحق هنا هو الحق المتقدم في قوله)بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون(وهو الشيء الموافق للوجود الواقعي ولحقائق الأشياء. وعلم من قوله)ولو اتبع الحق أهواءهم(أن كراهة أكثرهم للحق ناشئة عن كون الحق مخالفا أهواءهم فسجل عليهم أنهم أهل هوى. والهوى شهوة ومحبة لما يلائم غرض صاحبه، وهو مصدر بمعنى المفعول. وإنما يجري الهوى على شهوة دواعي النفوس أعني شهوات الأفعال غير التي تقتضيها الجبلة، فشهوة الطعام والشراب ونحوهما مما تدعو إليه الجبلة ليست من الهوى وإنما الهوى شهوة ما لا تقتضيه الفطرة كشهوة الظلم وإهانة الناس، أو شهوة ما تقتضيه الجبلة لكن يشتهى على كيفية وحالة لا تقتضيها الجبلة لما يترتب على تلك الحالة من فساد وضر مثل شهوة الطعام المغصوب وشهوة الزنا، فمرجع معنى الهوى إلى المشتهى الذي لا تقتضيه الجبلة.

والاتباع: مجاز شائع في الموافقة، أي لو وافق الحق ما يشتهونه. ومعنى موافقة الحق الأهواء أن تكون ماهية الحق موافقة لأهواء النفوس. فإن حقائق الأشياء لها تقرر في الخارج سواء كانت موافقة لما يشتهيه الناس أم لم تكن موافقة له: فمنها الحقائق الوجودية وهي الأصل فهي متقررة في نفس الأمر مثل كون الإله واحدا،

وكونه لا يلد وكونه البعث واقعا للجزاء، فكونها حقا هو عين تقررها في الخارج.

ومنها الحقائق المعنوية الموجودة في الاعتبار فهي متقررة في الاعتبارات. وكونها حقا هو كونها جارية على ما يقتضيه نظام العالم مثل كون الوأد ظلما، وكون القتل عدوانا، وكون القمار أخذ مال بلا حق لآخذه في أخذه، فلو فرض أن يكون الحق في أضداد هذه المذكورات لفسدت السماوات والأرض وفسد من فيهن، أي من في السماوات والأرض من الناس.

ووجه الملازمة بين فساد السماوات والأرض وفساد الناس وبين كون الحق جاريا على أهواء المشركين في الحقائق هو أن أهواءهم شتى؛ فمنها المتفق ، وأكثرهم مختلف، وأكثر اتفاق أهوائهم حاصل بالشرك، فلو كان الحق الثابت في الواقع موافقا لمزاعمهم لاختلت أصول انتظام العوالم.

فإن مبدأ الحقائق هو حقيقة الخالق تعالى، فلو كانت الحقيقة هي تعدد الآلهة لفسدت العوالم بحكم قوله تعالى)لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا(وقد تقدم تفصيله في سورة الأنبياء. وذلك أصل الحق وقوامه وانتقاضه انتقاض لنظام السماوات والأرض كما تقدم. وقد قال الله تعالى في هذه السورة)ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله(الآية، فمن هواهم الباطل أن جعلوا من كمال الله أن يكون له ولد.

ثم ننتقل بالبحث إلى بقية حقائق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الحق لو فرض أن يكون الثابت نقيض ذلك لتسرب الفساد إلى السماوات والأرض ومن فيهن. فلو فرض عدم البعث للجزاء لكان الثابت أن لا جزاء على العمل؛ فلم يعمل أحد خيرا إذ لا رجاء في ثواب. ولم يترك أحد شرا إلا إذ لا خوف من عقاب فيغمر الشر الخير والباطل الحق وذلك فساد لمن في السماوات والأرض قال تعالى)أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون(.

صفحة : 2850

وكذا لو كان الحق حسن الاعتداء والباطل قبح العدل لارتمى الناس بعضهم على بعض بالإهلاك جهد المستطاع فهلك الضرع والزرع قال تعالى)وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد(، وهكذا الحال في أهوائهم

المختلفة. ويزيد أمرها فسادا بأن يتبع الحق كل ساعة هوى مخالفا للهوى الذي اتبعه قبل ذلك فلا يستقر نظام ولا قانون.

وهذا المعنى ناظر إلى معنى قوله تعالى)وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون(.

والظاهر أن)من(في قوله)ومن فيهن(صادقة على العقلاء من البشر والملائكة. ففساد البشر على فرض أن يكون جاريا على أهواء المشركين ظاهر مما قررناه.

وأما فساد الملائكة فلأن من أهواء المشركين زعمهم أن الملائكة بنات الله فلو كان الواقع أن حقيقة الملائكة بنوة الله لأفضى ذلك إلى أنهم آلهة لأن المتولد من جنس يجب أن يكون مماثلا لما تولد هو منه إذ الولد نسخة من أبيه فلزم عليه ما يلزم على القول بتعدد الآلهة. وأيضا لو لم يكن من فصول حقيقة الملائكة أنهم مسخرون لطاعة الله وتنفيذ أوامره لفسدت حقائقهم فأفسدوا ما يأمرهم الله بإصلاحه وبالعكس فتنتقض المصالح.

ويجوز أن يكون)من(صادقا على المخلوقات كلها على وجه التغليب في استعمال)من(. ووجه الملازمة ينتظم بالأصالة مع وجه الملازمة بين تعدد الآلهة وبين فساد السماوات والأرض ثم يسري إلى اختلاف مواهي الموجودات فتصبح غير صالحة لما خلقت عليه، فيفسد العالم. وقد كان بعض الفلاسفة المتأخرين فرض بحثا في إمكان فناء العالم وفرض أسبابا إن وجد واحدا منها في هذا العالم، وعد من جملتها أن تحدث حوادث جوية تفسد عقول البشر كلهم فيتألبون على إهلاك العالم فلو أجرى الله النظام على مقتضى الأهواء من مخالفة الحق لما هو عليه في نفس الأمر كما يشتهون لعاد ذلك بالفساد على جميع العالم فكانوا مشمولين لذلك الفساد لأنهم من جملة ما في السماوات والأرض، فناهيك بأفن آراء لا تميز بين الضر والنافع لأنفسهما. وكفى بذلك شناعة لكراهيتهم الحق وإبطالا لزعمهم أن ما جاه به الرسول تصرفات مجنون.

)بل أتينهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون[71](إبطال لما اقتضاه الفرض في قوله)ولو اتبع الحق أهواءهم(أي بل لم يتبع الحق أهواءهم فأبلغنا إليهم الحق على وجهه بالقرآن الذي هو ذكر لهم يوقظ عقولهم من سباتها. كأنه يذكر عقولهم الحق الذي نسيته بتقادم الزمان على ضلالات آبائهم التي سنوها لهم فصارت أهواء لهم ألفوها فلم يقبلوا انزياحا عنها وأعرضوا عن الحق بأنه خالفها، فجعل إبلاغ الحق لهم بالأدلة بمنزلة تذكير الناسي شيئا طال عهده به كما قال عمر بن الخطاب في كتابه إلى أبي موسى الأشعري

فإن الحق قديم قال تعالى)ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون(.
وعدي فعل)أتيناهم(بالباء لأنه استعمل مجازا في الإرسال والتوجيه.
والذكر يجوز أن يكون مصدرا بمعنى التذكير. ويجوز أن يكون اسما للكلام الذي يذكر سامعيه بما غفل عنه وهو شأن الكتب الربانية. وإضافة الذكر إلى ضميرهم لفظية من الإضافة إلى مفعول المصدر.
والفاء لتفريع إعراضهم على الإتيان بالذكر إليهم، أي فتفرع على الإرسال إليهم بالذكر إعراضهم عنه. والمعنى: أرسلنا إليهم القرآن ليذكرهم.
وقيل: إضافة الذكر إلى ضميرهم معنوية، أي الذكر الذي سألوه حين كانوا يقولون)ولو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين(فيكون الذكر على هذا مصدرا بمعنى الفاعل، أي ما يتذكرون به. والفاء على هذا الوجه فاء فصيحة، أي فها قد أعطيناهم كتابا فأعرضوا عن ذكرهم الذي سألوه كقوله تعالى)لو أن عندنا ذكرا من الأولين(أي من رسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم) لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به(، وقول عباس ابن الأحنف:
قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خـراسـان وقوله تعالى)أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير(.
والتعبير عن إعراضهم بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات إعراضهم وتمكنه منهم. وتقديم المجرور على عامله للاهتمام بذكرهم ليكون إعراضهم عنه محل عجب.

صفحة : 2851

)أم تسئلهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين[72]( ) أم(عاطفة على)أم يقولون به جنة(وهلى للانتقال إلى استفهام آخر عن دواعي إعراضهم عن الرسول واستمرار قلوبهم في غمرة.
والاستفهام المقدر هنا إنكاري، أي ما تسألهم خرجا فيعتذروا بالإعراض عنك لأجله شحا بأموالهم. وهذا في معنى قوله تعالى)قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله(على سبيل الفرض، والتقدير: إن كنت سألتكم أجرا فقد رددته عليكم فماذا يمنعكم من اتباعي. وقوله)أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون(كل ذلك على معنى التهكم. وأصرح منهما قوله تعالى)قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى(.

وهذا الانتقال كان إلى غرض نفي أن يكون موجب إعراضهم عن دعوة الرسول جائيا من قبله وتسببه بعد أن كانت الاستفهامات السابقة الثلاثة متعلقة بموجبات الإعراض الجائية من قبلهم، فالاستفهام الذي في قوله)أم تسألهم خرجا(إنكاري إذ لا يجوز أن يصدر عن الرسول ما يوجب إعراض المخاطبين عن دعوته فانحصرت تبعة الإعراض فيهم.

والخرج: العطاء المعين على الذوات أو على الأرضين كالإتاوة، وأما الخراج فقيل هو مرادف الخرج وهو ظاهر كلام جمهور اللغويين. وعن ابن الأعرجي: التفرقة بينهما بأن الخرج بالإتاوة على الذوات والخراج الإتاوة على الأرضين.

وقيل الخرج: ما تبرع به المعطي والخراج: ما لزمه أوداؤه. وفي الكشاف: والوجه أن الخرج أخص من الخراج يريد أن الخرج أعم كما أصلح عبارته صاحب الفرائد في نقل الطيبي كقولك خراج القرية وخرج الكردة زيادة اللفظ لزيادة المعنى، ولذلك حسنت قراءة من قرأ)خراجا فخراج ربك خير(يعني أم تسألهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير اه. وهذا الذي ينبغي التعويل عليه لأن الأصل في اللغة عدم الترادف.

هذا وقد قرأ الجمهور)أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير(. وقرأ ابن عامر)خرجا فخرج ربك(. وقرأ حمزة والكسائي وخلف)أم تسألهم خراجا فخراج ربك خير(. فأما قراءة الجمهور فتوجيهها على اعتبار ترادف الكلمتين أنها جرت على التفنن في الكلام تجنبا لإعادة اللفظ في غير المقام المقتضي إعادة اللفظين مع قرب اللفظين بخلاف قوله تعالى)قل ما سألتكم من أجرا فهو لكم إن أجري إلا على الله(فإن لفظ أجر أعيد بعد ثلاثة ألفاظ.

وأما على اعتبار الفرق الذي اختاره الزمخشري فتوجيهها باشتمالها على التفنن وعلى محسن المبالغة.

وأما قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف فتوجيهها على طريقة الترادف أنهما وردتا على اختيار المتكلم في الاستعمال مع حسن المزاوجة بتماثل اللفظين. ولا توجهان على طريقة الزمخشري.

قال صاحب الكشاف: ألزمهم الله الحجة في هذه الآيات أي قوله)أفلم يدبروا القول(إلى هنا وقطع معاذيرهم وعللهم بأن الذي أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله، مخبور سره وعلنه، خليق بأن يجتبي مثله للرسالة من بين ظهرانيهم، وأنه لم يعرض)1(له حتى يدعي بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل، ولم يجعل ذلك سلما إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون من أدوائهم وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل، واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير

برهان، وتعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة، وكراهتهم للحق وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر(اه.
وجملة)وهو خير الرازقين(معترضة تكميلا للغرض بالثناء على الله والتعريف بسعة فضله. ويفيد تأكيدا لمعنى)فخراج ربك خير(.
)وإنك لتدعوهم إلى صرط مستقيم[73] وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصرط لناكبون[74](

صفحة : 2852

أعقب تنزيه الرسول عما افتروه عليه بتنزيه الإسلام عما سموه به من الأباطيل والتنزيه بإثبات ضد ذلك وهو أنه صراط مستقيم، أي طريق لا التواء فيه ولا عقبات، فالكلام تعريض بالذين اعتقدوا خلاف ذلك. وإطلاق الصراط المستقيم عليه من حيث إنه موصل إلى ما يتطلبه كل عاقل من النجاة وحصول الخير، فكما أن السائر إلى ما طلبته لا يبلغها إلا بطريق، ولا يكون بلوغه مضمونا ميسورا إلا إذا كان الطريق مستقيما فالنبي صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى الإسلام دعاهم إلى السير في طريق موصل بلا عناء.
والتأكيد ب)إن(واللام باعتبار أنه مسوق للتعريض بالمنكرين على ما دعاهم إليه النبي صلى الله عليه وسلم.
وكذلك التوكيد في قوله)وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون(. والتعبير فيه بالموصول وصلته إظهار في مقام الإضمار حيث عدل عن أن يقول: وإنهم عن الصراط لناكبون. والغرض منه ما تنبئ به الصلة من سبب تنكبهم عن الصراط المستقيم أن سببه عدم إيمانهم بالآخرة.
وتقدم قوله تعالى)قال هذا صراط علي مستقيم(في سورة الحجر.
والتعريف في)الصراط(أي هم ناكبون عن الصراط من حيث هو حيث لم يتطلبوا طريق نجاة فهم ناكبون عن الطريق بله الطريق المستقيم ولذلك لم يكن التعريف في قوله)عن الصراط(للعهد بالصراط المذكور لأن تعريف الجنس أتم في نسبتهم إلى الضلال بقرينة أنهم لا يؤمنون بالآخرة التي هي غاية العامل من عمله فهم إذن ناكبون عن كل صراط موصل إذ لا همة لهم في الوصول.
والناكب: العادل عن شيء، المعرض عنه، وفعله كنصر وفرح. وكأنه مشتق من المنكب وهو جانب الكتف لأن العادل عن شيء يولي وجهه عنه بجانبه.

)ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون[75](عطف على جملة)حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون(وما بينهما اعتراضات باستدلال عليهم وتنديم وقطع لمعاذيرهم، أي ليسوا بحيث لو استجاب الله جؤارهم عند نزول العذاب بهم وكشف عنهم العذاب لعادوا إلى ما كانوا فيه من الغمرة والأعمال السيئة لأنها صارت سجية لهم لا تتخلف عنهم. وهذا في معنى قوله تعالى)إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون(.

و)لو(هنا داخلة على الفعل الماضي المراد منه الاستقبال بقرينة المقام إذ المقام للإنذار والتأييس من الإغاثة عند نزول العذاب الموعود به، وليس مقام اعتذار من الله عن عدم استجابته لهم أو عن إمساك رحمته عنهم لظهور أن ذلك لا يناسب مقام الوعيد والتهديد. وأما مجيء هذا الفعل بصيغة المضي فذلك مراعاة لما شاع في الكلام من مقارنة)لو(لصيغة الحاضر لأن أصلها أن تدل على الامتناع في الماضي ولذلك كان الأصل عدم جزم الفعل بعدها.

واللجاج بفتح اللام: الاستمرار على الخصام وعدم الإقلاع عن ذلك، يقال: لج يلج ويلج بكسر اللام وفتحها في المضارع على اختلاف حركة العين في الماضي.

والطغيان: أشد الكبر. والعمه: التردد في الضلالة.)وفي طغيانهم(متعلق ب)يعمهون(قدم عليه للاهتمام بذكره، وللرعي على الفاصلة. و)في(للظرفية المجازية المراد منها معنى السببية. وتقدم قوله تعالى)ويمدهم في طغيانهم يعمهون(في سورة البقرة.

)ولقد أخذنهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون[76] حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون[77]

(استدلال على مضمون قوله)ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون(بسابق إصرارهم على الشرك والإعراض عن الالتجاء إلى الله وعدم الاتعاظ بأن ما حل بهم من العذاب هو جزاء شركهم.

والجملة المتقدمة خطاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعلم صدقه فلم يكن بحاجة إلى الاستظهار عليه. ولكنه لما كان متعلقا بالمشركين وكان بحيث يبلغ أسماعهم وهم لا يؤمنون بأنه كلام من لا شك في صدقه، كان المقام محفوفا بما يقتضي الاستدلال عليهم بشواهد أحوالهم فيما مضى؛ ولذلك وقع قبله)فذرهم في غمرتهم حتى حين(، ووقع بعده)قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون(.

والتعريف في قوله)بالعذاب(للعهد، أي بالعذاب المذكور آنفا في قوله)حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب(الخ. ومصب الحال هو ما عطف على جملتها من قوله)فما استكانوا لربهم(، فلا تتوهمن أن إعادة ذكر العذاب هنا تدل على أنه عذاب آخر غير المذكور آنفا مستندا إلى أن إعادة ذكر الأول لا طائل تحتها. وهذه الآية في معنى قوله في سورة الدخان)أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه(إلى قوله)إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون(. والمعنى فلم يكن حظهم حين أخذناهم بالعذاب إلا العويل والجوار دون التوبة والاستغفار.

وقيل: هذا عذاب آخر سابق للعذاب المذكور آنفا فيتركب هذا على التفاسير المتقدمة أنه عذاب الجوع الأول أو عذاب الجوع الثاني بالنسبة لعذاب يوم بدر.

والاستكانة: مصدر بمعنى الخضوع مشتقة من السكون لأن الذي يخضع يقطع الحركة أمام من خضع له، فهو افتعال من السكون للدلالة على تمكن السكون وقوته. وألفه ألف الافتعال مثل الاضطراب، والتاء زائدة كزيادتها في استعاذة.

وقيل الألف للإشباع، أي زيدت في الاشتقاق فلازمت الكلمة. وليس ذلك من الإشباع الذي يستعمله المستعملون شذوذا كقول طرفة: ينباع من ذفري غضوب جسرة أي ينبع. وأشار في الكشاف إلى الاستشهاد على الإشباع في نحوه إلى قول ابن هرمة:

وأنت من الغوائل حين ترمي ومن

ذم الرجال بمنتـزاح أراد: بمنتزح، فأشبع الفتحة.

ويبعد أن يكون)استكانوا(استفعالا من الكون من جهتين: جهة مادته فإن معنى الكون فيه غير وجيه، وجهة صيغته لأن حمل السين والتاء فيه على معنى الطلب غير واضح.

والتعبير بالمضارع في)يتضرعون(لدلالته على تجدد انتفاء تضرعهم. والتضرع: الدعاء بتذلل، وتقدم في قوله)لعلهم يتضرعون(في سورة الأنعام. والقول في جملة)حتى إذا فتحنا عليهم بابا(كالقول في) حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب(.

و)إذا(من قوله)حتى إذا فتحنا عليهم بابا(مثل)إذا(التي تقدمت في قوله)حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب(الخ.

وفتح الباب تمثيل لمفاجأتهم بالعذاب بعد أن كان محجوزا عنه حسب قوله تعالى)وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم(. وقريب من هذا التمثيل قوله تعالى)ولو دخلت عليهم من أقطارها(.

شبهت هيئة إصابتهم بالعذاب بعد أن كانوا في سلامة وعافية بهيئة ناس في بيت مغلق عليهم ففتح عليهم باب البيت من عدو مكروه،

أو تقول: شبهت هيئة تسليط العذاب عليهم بهيئة فتح باب اختزن فيه العذاب فلما فتح الباب انهال العذاب عليهم. وهذا كما مثل بقوله)وفار التنور(وقولهم: طفحت الكأس بأعمال فلان، وقوله تعالى)فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم(وقول علقمة:

فحق لشاس من نداك ذنوب ومنه قول الكتاب: فتح باب كذا على مصراعيه، تمثيلا لكثرة ذلك وأفاض عليه سجلا من الإحسان، وقول أبي تمام:

من شاعر وقف الكلام ببابـه واكتن

في كنفي ذراه المنطق ووصف)بابا(بكونه)ذا عذاب شديد(دون أن يضاف باب إلى عذاب فيقال: باب عذاب كما قال تعالى)فصب عليهم ربك سوط عذاب(لأن)ذا عذاب(يفيد من شدة انتساب العذاب إلى الباب ما لا تفيده إضافة باب إلى عذاب، وليتأتى بذلك وصف)عذاب(ب)شديد(بخلاف قوله)سوط عذاب(فقد استغني عن وصفه ب)شديد(بأنه معمول لفعل)صب(الدال على الوفرة.

والمراد بالعذاب الشديد عذاب مستقبل. والأرجح: أن المراد به عذاب السيف يوم بدر. وعن مجاهد: أنه عذاب الجوع.

وقيل: عذاب الآخرة. وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون الباب حقيقة وهو باب من أبواب جهنم كقوله تعالى)حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها(.

والإبلاس: شدة اليأس من النجاة. قال: أبلس، إذا ذل ويئس من التخلص، وهو ملازم للهمزة ولم يذكروا له فعلا مجردا. فالظاهر أنه مشتق من البلاس كسحاب وهو المسح، وأن أصل أبلس صار ذا بلاس. وكان شعار من زهدوا في النعيم. يقال: لبس المسوح، إذا ترهب.

وهنا انتهت الجمل المعترضة المبتدأة بجملة)ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه(وما تفرع عليها من قوله)فذرهم في غمرتهم حتى حين(إلى قوله)إذا هم فيه مبلسون(.

)وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون[78](

صفحة : 2854

هذا رجوع إلى غرض الاستدلال على انفراد الله تعالى بصفات الإلهية والامتنان بما منح الناس من نعمة لعلهم يشكرون بتخصيصه بالعبادة، وذلك قد انتقل عنه من قوله)وعليها وعلى الفلك تحملون(فانتقل إلى الاعتبار بآية فلك نوح عليه السلام فأتبع بالاعتبار بقصص أقوام الرسل عقب قوله تعالى)وعليها وعلى الفلك

تحملون(فالجملة إما معطوفة على جملة)وإن لكم في الأنعام لعبرة(والغرض واحد وما بينهما انتقالات.
وإما مستأنفة رجوعا إلى غرض الاستدلال والامتنان وقد تقدمت الإشارة إلى هذا عند قوله تعالى)ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه(.
وفي هذا الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ثم الرجوع إلى الغرض تجديد لنشاط الذهن وتحريك للإصغاء إلى الكلام وهو من أساليب كلام العرب في خطبهم وطوالهم. وسماه السكاكي: قرى الأرواح، وجعله من آثار كرم العرب.
وقوله)وهو الذي أنشأ لكم السمع(تذكير بواحدانية الله تعالى.
والأظهر أن يكون ضمير الجلالة مسندا واسم الموصول مسندا إليه لأنهم علموا أن منشئا أنشأ لهم السمع والأبصار، فصاحب الصلة هو الأولى بأن يعتبر مسندا إليه وهم لما عبدوا غيره نزلوا منزلة من جهل أنه الذي أنشأ لهم السمع فأتى لهم بكلام مفيد لقصر القلب أو الإفراد، أي الله الذي أنشأ ذلك دون أصنامكم. والخطاب للمشركين على طريقة الالتفات، أو لجميع الناس، أو للمسلمين، والمقصود منه التعريض بالمشركين.
والإنشاء: الإحداث، أي الإيجاد.
وجمع الأبصار والأفئدة باعتبار تعدد أصحابها. وأما إفراد السمع فجرى على الأصل في إفراد المصدر لأن أصل السمع أنه مصدر. وقيل: الجمع باعتبار المتعلقات فلما كان البصر يتعلق بأنواع كثيرة من الموجودات وكانت العقول تدرك أجناسا وأنواعا جمعا بهذا الاعتبار. وأفراد السمع لأنه لا يتعلق إلا بنوع واحد وهو الأصوات.
وانتصب)قليلا(عل الحال من ضمير)لكم(.)وما(مصدرية. والتقدير: في حال كونكم قليلا شكركم. فإن كان الخطاب للمشركين فالشكر مراد به التوحيد، أي فالشكر الصادر منكم قليل بالنسبة إلى تشريككم غيره معه في العبادة؛ وإن كان الخطاب لجميع الناس فالشكر عام في كل شكر نعمة وهو قليل بالنسبة لقلة عدد الشاكرين، لأن أكثر الناس مشركون كما قال تعالى)ولا تجد أكثرهم شاكرين(. وإن كان الخطاب للمسلمين والمقصود التعريض بالمشركين فالشكر عام وتقليله تحريض على الاستزادة منه ونبذ الشرك.
)وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون[79](هو على شاكلة قوله)وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار(.
والذرء: البث. وتقدم في سورة الأنعام. وهذا امتنان بنعمة الإيجاد والحياة وتيسير التمكن من الأرض وإكثار النوع لأن الذرء يستلزم ذلك كله. وهذا استدلال آخر على انفراد الله تعالى بالإلهية إذ قد علموا أنه لا شريك له في الخلق فكيف يشركون معه الإلهية أصنافا

هم يعلمون أنها لا تخلق شيئا، وهو أيضا استدلال على البعث لأن الذي أحيا الناس عن عدم قادر على إعادة إحيائهم بعد تقطع أوصالهم.
وقوبل الذرء بضده وهو الحشر والجمع، فإن الحشر يجمع كل من كان على الأرض من البشر، وفيه محسن الطباق.
والمقصود من هذه المقابلة الرد على منكري البعث، فتقديم المجرور في)إليه تحشرون(تعريض بالتهديد بأنهم محشورون إلى الله فهو يجازيهم.
)وهو الذي يحي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون[80] (هو من أسلوب)وهو الذي أنشأ لكم السمع(. وأعقب ذكر الحشر بذكر الإحياء لأن إحياء إدماجا للاستدلال على إمكان البعث في الاستدلال على عموم التصرف في العالم.
وأما ذكر الإماتة فلمناسبة التضاد، ولأن فيها دلالة على عظيم القدرة والقهر. ولما كان من الإحياء خلق الإيقاض ومن الإماتة خلق النوم كما قال تعالى)الله يتوفى الأنفس حين موتها(الآية عطف على ذلك أن بقدرته اختلاف الليل والنهار لتلك المناسبة، ولأن في تصريف الليل والنهار دلالة على عظيم القدرة، والعلم دلالة على الانفراد بصفات الإلهية وعلى وقوع البعث كما قال تعالى)كما بدأكم تعودون(.

صفحة : 2855

واللام في)له اختلاف الليل والنهار(للملك، أي بقدرته تصريف الليل والنهار، فالنهار يناسب الحياة ولذلك يسمى الهبوب في النهار بعثا، والليل يناسب الموت ولذلك سمى الله النوم وفاة في قوله) وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه(.
وتقديم المجرور للقصر، أي له اختلاف الليل والنهار لا لغيره، أي فغيره لا تحق له الإلهية.
ولما كانت هذه الأدلة تفيد من نظر فيها علما بأن الإله واحد وأن البعث واقع وكان المقصودون بالخطاب قد أشركوا به ولم يهتدوا بهذه الأدلة جعلوا بمنزلة غير العقلاء فأنكر عليهم عدم العقل بالاستفهام الإنكاري المفرع على الأدلة الأربعة بالفاء في قوله)أفلا تعقلون(.
وهذا تذييل راجع إلى قوله)وإليه تحشرون(وما بعده.
)بل قالوا مثل ما قال الأولون[81] قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظما إنا لمبعوثون[82] لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا

أساطير الأولين[83](هذا إدماج لذكر أصل آخر من أصول الشرك وهو إحالة البعث بعد الموت. و)بل(للإضراب الإبطالي إبطالا لكونهم يعقلون، وإثبات لإنكارهم البعث مع بيان ما بعثهم على إنكاره وهو تقليد. والمعنى: أنهم لا يعقلون الأدلة لكنهم يتبعون أقوال آبائهم.

والكلام جرى على طريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة لأن الكلام انتقل من التقريع والتهديد إلى حكاية ضلالهم فناسب هذا الانتقال مقام الغيبة لما في الغيبة من الإبعاد فالضمير عائد إلى المخاطبين.

والقول هنا مراد به ما طابق الاعتقاد لأن الأصل في الكلام مطابقة اعتقاد قائله، فالمعنى: بل ظنوا مثل ما ظن الأولون.

والأولون: أسلافهم في النسب أو أسلافهم في الدين من الأمم المشركين.

وجملة)قالوا أإذا متنا(إلخ بدل مطابق من جملة)قالوا مثل ما قال الأولون(تفصيل لإجمال المماثلة، فالضمير الذي مع)قالوا(الثاني عائد إلى ما عاد إليه ضمير)قالوا(الأول وليس عائدا على) الأولون(. ويجوز جعل)قالوا(الثاني استئنافا بيانيا لبيان)ما قال الأولون(ويكون الضمير عائدا إلى)الأولون(والمعنى واحد على التقديرين. وعلى كلا الوجهين فإعادة فعل)قالوا(من قبيل إعادة الذي عمل به في المبدل منه. ونكتته هنا التعجيب من هذا القول.

وقرأ الجمهور)أإذا متنا(بهمزتين على أنه استفهام عن الشرط. وقرأه ابن عامر بهمزة واحدة على صورة الخبر والاستفهام مقدر في جملة)إنا لمبعوثون(.

وقرأ الجمهور)أإنا لمبعوثون(بهمزتين على تأكيد همزة الاستفهام الأولى بإدخال مثلها على جواب الشرط. وقرأه نافع وأبو جعفر بدون همزة استفهام ووجود همزة الاستفهام داخلة على الشرط كاف في إفادة الاستفهام عن جوابه.

والاستفهام إنكاري، و)إذا(ظرف لقوله)لمبعوثون(.

والجمع بين ذكر الموت والكون ترابا وعظاما لقصد تقوية الإنكار بتفظيع إخبار القرآن بوقوع البعث، أي الإحياء بعد ذلك التلاشي القوي.

وأما ذكر حرف)إن(في قولهم)إنا لمبعوثون(فالمقصود منه حكاية دعوى البعث بأن الرسول الذي يدعيها بتحقيق وتوكيد مع كونها شديدة الاستحالة، ففي حكاية توكيد مدعيها زيادة في تفظيع الدعوى في وهمهم.

وجملة)لقد وعدنا(إلخ تعليل للإنكار وتقوية له. وقد جعلوا مستند تكذيبهم بالبعث أنه تكرر الوعد به في أزمان متعددة فلم يقع ولم يبعث واحد من آبائهم.

ووجه ذكر الآباء دفع ما عسى أن يقول لهم قائل: إنكم تبعثون قبل أن تصيروا ترابا وعظاما، فأعدوا الجواب بأن الوعد بالبعث لم يكن مقتصرا عليهم فيقعوا في شك باحتمال وقوعه بهم بعد موتهم وقبل فناء أجسامهم بل ذلك وعد قديم وعد به آباؤهم الأولون وقد مضت أزمان وشوهدت رفاتهم في أجداثهم وما بعث أحد منهم.
وجملة)إن هذا إلا أساطير الأولين(من القول الأول وهي مستأنفة استئنافا بيانيا لجواب سؤال يثيره قولهم)لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل(وهو أن يقول سائل: فكيف تمالأ على هذه الدعوى العدد من الدعاة في عصور مختلفة مع تحققهم عدم وقوعه، فيجيبون بأن هذا الشيء تلقفوه عن بعض الأولين فتناقلوه.

صفحة : 2856

والإشارة في قوله)لقد وعدنا هذا(إلى ما تقدم في قولهم)أإذا متنا(إلى آخره، أي هذا المذكور من الكلام. وكذلك اسم الإشارة الثاني)إن هذا إلا أساطير الأولين(. وصيغة القصر بمعنى: هذا منحصر في كونه من حكايات الأولين. وهو قصر إضافي لا يعدو كونه من الأساطير إلى كونه واقعا كما زعم المدعون.
والعدول عن الإضمار إلى اسم الإشارة الثاني لقصد زيادة تمييزه تشهيرا بخطئه في زعمهم.
والأساطير: جمع أسطورة وهي الخبر الكاذب الذي يكسى صفة الواقع مثل الخرافات والروايات الوهمية لقصد التلهي بها. وبناء الأفعولة يغلب فيما يراد به التلهي مثل: الأعجوبة والأضحوكة والأرجوحة والأحدوثة وقد مضى قريبا.
)قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون[84] سيقولون لله قل أفلا تذكرون[85](استئناف استدلال عليهم في إثبات الوحدانية لله تعالى عاد به الكلام متصلا بقوله)وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون(.
والاستفهام تقريري، أي أجيبوا عن هذا، ولا يسعهم إلا الجواب بأنها لله. والمقصود: إثبات لازم جوابهم وهو انفراده تعالى بالوحدانية.
و)إن كنتم تعلمون(شرط حذف جوابه لدلالة الاستفهام عليه، تقديره: فأجيبوني عن السؤال. وفي هذا الشرط توجيه لعقولهم أن يتأملوا فيظهر لهم أن الأرض لله وأن من فيها لله فإن كون جميع ذلك لله قد يخفى لأن الناس اعتادوا نسبة المسببات إلى أسبابها المقارنة والتصرفات إلى مباشريها فنبهوا بقوله)إن كنتم تعلمون(إلى التأمل، أي إن كنتم تعلمون علم اليقين، ولذلك عقب

بقوله)سيقولون لله(، أي يجيبون عقب التأمل جوابا غير بطيء. وانظر ما تقدم في تفسير قوله تعالى)قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله(في سورة الأنعام.

ووقعت جملة)قل أفلا تذكرون(جوابا لإقرارهم واعترافهم بأنها لله. والاستفهام إنكاري إنكار لعدم تذكيرهم بذلك، أي تفطن عقولهم لدلالة ذلك على انفراده تعالى بالإلهية. وخص بالتذكر لما في بعضه من خفاء الدلالة والاحتياج إلى النظر.
)قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم[86] سيقولون لله قل أفلا تتقون[87](تكرير الأمر بالقول وإن كان المقول مختلفا دون أن تعطف جملة)من رب السماوات(لأنها وقعت في سياق التعداد فناسب أن يعاد الأمر بالقول دون الاستغناء بحرف العطف. والمقصود وقوع هذه الأسئلة متتابعة دفعا أهم بالحجة، ولذلك لم تعد في السؤالين الثاني والثالث جملة)إن كنتم تعلمون(اكتفاء بالافتتاح بها.
وقرأ الجمهور)سيقولون لله(بلام جارة لاسم الجلالة على أنه حكاية لجوابهم المتوقع بمعناه لا بلفظه، لأنهم لما سئلوا ب)من(التي هي للاستفهام عن تعيين ذات المستفهم عنه كان مقتضى الاستعمال أن يكون الجواب بذكر اسم ذات المسؤول عنه، فكان العدول عن ذلك إلى الجواب عن كون السماوات السبع والعرش مملوكة لله عدولا إلى جانب المعنى دون اللفظ مراعاة لكون المستفهم عنه لوحظ بوصف الربوبية والربوبية تقتضي الملك. ونظير هذا الاستعمال ما أنشده القرطبي وصاحب المطلع:
إذا قيل: من رب المزالف والقرى
ورب الجياد الجرد ؟ قلت: لخالد ولم أقف على من سبقهما بذكر هذا البيت ولعلهما أخذاه من تفسير الزجاج ولم يعزواه إلى قائل ولعل قائله حذا به حذو استعمال الآية.
وأقول: إن الأجدر أن نبين وجه صوغ الآية بهذا الأسلوب فأرى أن ذلك لقصد التعريض بأنهم يحترزون عن أن يقولوا: رب السماوات السبع الله، لأنهم أثبتوا مع الله أربابا في السماوات إذ عبدوا الملائكة فهم عدلوا عما فيه نفي الربوبية عن معبوداتهم واقتصروا على الإقرار بأن السماوات ملك لله لأن ذلك لا يبطل أوهام شركهم من أصلها؛ ألا ترى أنهم يقولون في التلبية في الحج)لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك(. ففي حكاية جوابهم بهذا اللفظ تورك عليهم، ولذلك ذيل حكاية جوابهم بالإنكار عليهم انتفاء اتقائهم الله تعالى.

وقرأه أبو عمرو ويعقوب)سيقولون الله(بدون لام الجر وهو كذلك في مصحف البصرة وبذلك كان اسم الجلالة مرفوعا على أنه خبر) من(في قوله)من رب السماوات(والمعنى واحد.

صفحة : 2857

ولم يؤت مع هذا الاستفهام بشرط)إن كنتم تعلمون(ونحوه كما جاء في سابقه لأن انفراد الله تعالى بالربوبية في السماوات والعرش لا يشك فيه المشركون لأنهم لم يزعموا إلهية أصنامهم في السماوات والعوالم العلوية.
وخص وعظهم عقب جوابهم بالحث على تقوى الله لأنه لما تبين من الآية التي قبلها أنهم لا يسعهم إلا الاعتراف بأن الله مالك الأرض ومن فيها وعقبت تلك الآية بحظهم على التذكير ليظهر لهم أنهم عباد الله لا عباد الأصنام. وتبين من هذه الآية أنه رب السماوات وهي أعظم من الأرض وأنهم لا يسعهم إلا الاعتراف بذلك ناسب حثهم على تقواه لأنه يستحق الطاعة له وحده وان يطيعوا رسوله فإن التقوى تتضمن طاعة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.
وحذف مفعول)تتقون(لتنزيل الفعل منزلة القاصر لأنه دال على معنى خاص وهو التقوى الشاملة لامتثال المأمورات واجتناب المنهيات.
)قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون[88] سيقولون لله قل فأني تسحرون[89](قد عرفت آنفا نكتة تكرير القول.
والملكوت: مبالغة في الملك بضم الميم. فالملكوت: الملك المقترن بالتصرف في مختلف الأنواع والعوالم لذلك جاء بعده)كل شيء(.
واليد: القدرة. ومعنى)يجير(يغيث ويمنع من يشاء من الأذى.
ومصدره الإجارة فيفيد معنى الغلبة، وإذا عدي بحرف الاستعلاء أفاد أن المجرور مغلوب على أن لا ينال المجار بأذى، فمعنى)لا يجار عليه(لا يستطيع أحد أن يمنع أحدا من عقابه، فيفيد معنى العزة التامة.
وبني فعل)يجار عليه(للمجهول لقصد انتفاء الفعل عن كل فاعل فيفيد العموم مع الاختصار.
ولما كان تصرف الله هذا خفيا يحتاج إلى تدبر العقل لإدراكه عقب الاستفهام بقوله)إن كنتم تعلمون(كما عقب الاستفهام الأول بمثله حثا لهم على علمه والاهتداء إليه.

ثم عقب بما يدل على أنهم إذا تدبروا علموا فقيل)سيقولون لله(.
وقرأ الجمهور)سيقولون لله(بلام الجر داخلة على اسم الجلالة مثل سالفه. وقرأه أبو عمرو ويعقوب بدون لام وقد علمت ذلك في نظيره السابق.
)وأنى(يجوز أن تكون بمعنى)من أين(كما تقدم في سورة آل عمران)قال يا مريم أنى لك هذا(. والاستفهام تعجيبي. والسحر مستعار لترويج الباطل بجامع تخيل ما ليس بواقع واقعا. والمعنى: فمن أين اختل شعوركم فراج عليكم الباطل. فالمراد بالسحر ترويج أئمة الكفر عليهم الباطل حتى جعلوهم كالمسحورين.
)بل أتينهم بالحق وإنهم لكاذبون[90](إضراب لإبطال أن يكونوا مسحورين، أي بل ليس الأمر كما خيل إليهم، فالذي أتيناهم به الحق يعني القرآن. والباء للتعدية كما يقال: ذهب به. أي أذهبه. وهذا كقوله آنفا)بل أتيناهم بذكرهم(.
والعدول عن الخطاب من قوله)فأنى تسحرون(إلى الغيبة التفات لأنهم الموجه إليهم الكلام في هذه الجملة. والحق هنا: الصدق فلذلك قوبل بنسبتهم إلى الكذب فيما رموا به القرءان من قولهم)إن هذا إلا أساطير الأولين(.
وفي مقابلة الحق ب)كاذبون(محسن الطباق.
وتأكيد نسبتهم إلى الكذب ب)إن(واللام لتحقيق الخبر.
وقد سلكت في ترتيب هذه الأدلة طريقة الترقي؛ فابتدئ بالسؤال عن مالك الأرض ومن فيها لأنها أقرب العوالم لإدراك المخاطبين ثم ارتقى إلى الاستدلال بربوبية السماوات والعرش، ثم ارتقي إلى ما هو أعم وأشمل وهو تصرفه المطلق في الأشياء كلها ولذلك اجتلبت فيه أداة العموم وهي)كل(.
)ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحن الله عما يصفون[91] علم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون[92](

أتبع الاستدلال على إثبات الوحدانية لله تعالى بالاستدلال على انتفاء الشركاء له في الإلهية. وقدمت النتيجة على القياس لتجعل هي المطلوب فإن النتيجة والمطلوب متحدان في المعنى مختلفان بالاعتبار، فهي باعتبار حصولها عقب القياس تسمى نتيجة، وباعتبار كونها دعوى مقام عليها الدليل وهو المقياس تسمى مطلوبا كما في علم المنطق. ولتقديمها نكتة أن هذا المطلوب واضح النهوض لا

يفتقر إلى دليل إلا لزيادة الاطمئنان فقوله)ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله(هو المطلوب وقوله)إذا لذهب كل إله بما خلق(إلى آخر الآية هو الدليل. وتقديم هذا المطلوب على الدليل أغنى عن التصريح بالنتيجة عقب الدليل. وذكر نفي الولد استقصاء للرد على مختلف عقائد أهل الشرك من العرب فإن منهم من توهم أنه ارتقى عن عبادة الأصنام فعبدوا الملائكة وقالوا: هم بنات الله.

وإنما قدم نفي الولد على نفي الشريك مع أن أكثر المشركين عبدة أصنام لا عبدة الملائكة نظرا إلى أن شبهة عبدة الملائكة أقوى من شبهة عبدة الأصنام لأن الملائكة غير مشاهدين فليست دلائل الحدوث بادية عليهم كالأصنام، ولأن الذي زعموهم بنات الله أقرب للتمويه من الذين زعموا الحجارة شركاء لله، فقد أشرنا إلى ذلك آنفا عند قوله تعالى)قل من رب السماوات السبع(الآية.

و)إذن(حرف جواب وجزاء لكلام قبلها ملفوظ أو مقدر. والكلام المجاب هنا هو ما تضمنه قوله)وما كان معه من إله(فالجواب ضد ذلك النفي. وإذ قد كان هذا الضد أمرا مستحيل وقوع تعين أن يقدر له شرط على وجه الفرض والتقدير، والحرف المعد لمثل هذا الشرط هو)لو(الامتناعية، فالتقدير: ولو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق.

وبقاء اللام في صدر الكلام الواقع بعد)إذن(دليل على أن المقدر شرط)لو(لأن اللام تلزم جواب)لو(ولأن غالب مواقع)إذن(أن تكون جواب)لو(فلذلك جاز حذف الشرط هنا لظهور تقديره.

وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى)إنكم إذن مثلهم(في سورة النساء.

فقوله)إذن لذهب كل إله بما خلق(استدلال على امتناع أن يكون مع الله آلهة.

وإنما لم يستدل على امتناع أن يتخذ الله ولدا لأن الاستدلال على ما بعده مغن عنه لأن ما بعده أعم منه وانتفاء الأعم يقتضي انتفاء الأخص فإنه لو كان لله ولدا لكان الأولاد آلهة لأن ولد كل موجود إنما يتكون على مثل ماهية أصله كما دل عليه قوله تعالى)قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين(أي له.

والذهاب في قوله)لذهب كل إله(مستعار للاستقلال بالمذهوب به وعدم مشاركة غيره له فيه. وبيان انتظام هذا الاستدلال أنه لو كان مع الله آلهة لاقتضى ذلك أن يكون الآلهة سواء في صفات الإلهية وتلك الصفات كمالات تامة فكان كل إله خالقا لمخلوقات لثبوت الموجودات الحادثة وهي مخلوقة، فلا جائز أن تتوارد الآلهة على مخلوق واحد لأن ذلك: إما لعجز عن الانفراد بخلق بعض المخلوقات

وهذا لا ينافي إلهية، وإما تحصيل للحاصل وهو محال، فتعين أن ينفرد كل إله بطائفة من المخلوقات. ولنفرض أن تكون مخلوقات كل إله مساوية لمخلوقات غيره بناء على أن الحكمة تقتضي مقدارا معينا من المخلوقات يعلمها الإله الخالق لها؛ فتعين أن لا تكون للإله الذي لم يخلق طائفة من المخلوقات ربوبية على ما لم يخلقه وهذا يفضي إلى نقص في كل من الآلهة وهو يستلزم المحال لأن الإلهية تقتضي الكمال لا النقص. ولا جرم أن تلك المخلوقات ستكون بعد خلقها معرضة للزيادة والنقصان والقوة والضعف بحسب ما يحف بها عن عوارض الوجود التي لا تخلو عنها المخلوقات كما هو مشاهد في مخلوقات الله تعالى الواحد. ولا مناص عن ذلك لأن خالق المخلوقات أودع فيها خصائص ملازمة لها كما اقتضته حكمته، فتلك المخلوقات مظاهر لخصائصها لا محالة فلا جرم أن ذلك يقتضي تفوق مخلوقات بعض الآلهة على مخلوقات بعض آخر بعوارض من التصرفات والمقارنات لازمة لذلك، لا جرم يستلزم ذلك كله لازمين باطلين:

صفحة : 2859

أولهما أن يكون كل إله مختصا بمخلوقاته فلا يتصرف فيها غيره من الآلهة ولا يتصرف هو في مخلوقات غيره، فيقتضي ذلك أن كل إله من الآلهة عاجز عن التصرف في مخلوقات غيره. وهذا يستلزم المحال لأن العجز نقص والنقص ينافي حقيقية الإلهية. وهذا دليل برهاني على الوحدانية لأنه أدى إلى استحالة ضدها. فهذا معنى قوله تعالى)لذهب كل إله بما خلق(.

وثاني اللازمين أن تصير مخلوقات بعض الآلهة أوفر أو أقوى من مخلوقات إله آخر بعوارض تقتضي ذلك من آثار الأعمال النفسانية وآثار الأقطار والحوادث كما هو المشاهد في اختلاف أحوال مخلوقات الله تعالى الواحد، فلا جرم أن ذلك يفضي إلى اعتزاز الإله الذي تفوقت مخلوقاته على الإله الذي تنحط مخلوقاته، وهذا يقتضي أن يصير بعض تلك الإلهة أقوى من بعض وهو مناف للمساواة في الإلهية. وهذا معنى قوله تعالى)ولعلا بعضهم على بعض(.

وهذا الثاني بناء على المعتاد من لوازم الإلهية في أنظار المفكرين، وإلا فيجوز اتفاق الآلهة على أن لا يخلقوا مخلوقات قابلة للتفاوت بأن لا يخلقوا إلا حجارة أو حديدا مثلا: إلا أن هذا ينافي الواقع في المخلوقات.

ويجوز اتفاق الآلهة أيضا على أن لا يعتز بعضهم على بعض بسبب تفاوت ملكوت كل على ملكوت الآخر بناء على ما اتصفوا به من الحكمة المتماثلة التي تعصمهم عن صدور ما يؤدي إلى اختلال المجد الإلهي؛ إلا أن هذا المعنى لا يخلو من المصانعة وهي مشعرة بضعف المقدرة. فبذلك كان الاستدلال الذي في هذه الآية برهانيا، وهو مثل الاستدلال الذي في قوله تعالى)لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا(إلا أن هذا بني على بعض لزوم النقص في ذات الآلهة وهو ما لا يجوزه المردود عليهم، والآخر بني على لزوم اختلال أحوال المخلوقات السماوية والأرضية وهو ما تبطله المشاهدة.

أما الدليل البرهاني الخالص على استحالة تعدد الآلهة بالذات فله مقدمات أخرى قد وفى أئمة علم الكلام بسطها بما لا رواج بعده لعقيدة الشرك. وقد أشار إلى طريقة منها المحقق عمر القزويني في هذا الموضع من حاشيته على الكشاف ولكنه انفرد بادعاء مأخوذ من الآية وليس كما ادعى. وقد ساقه الشهاب الآلوسي فإن شئت فتأمله.

ولما اقتضى هذا الدليل بطلان قولهم عقب الدليل بتنزيه الله تعالى عن أقوال المشركين بقوله تعالى)سبحان الله عما يصفون(وهو بمنزلة نتيجة الدليل. وما يصفونه به هو ما اختصوا بوصفهم الله به من الشركاء في الإلهية ومن تعذر البعث عليه ونحو ذلك وهو الذي جرى فيه غرض الكلام.

وإنما أتبع الاستدلال على انتفاء الشريك بقوله)عالم الغيب والشهادة(المراد به عموم العلم وإحاطته بكل شيء كما أفادته لام التعريف في)الغيب والشهادة(من الاستغراق الحقيقي، أي عالم كل مغيب وكل ظاهر، لدفع توهم أن يقال: إن استقلال كل إله بما خلق قد لا يفضي إلى علو بعض الآلهة على بعض، لجواز أن لا يعلم أحد من الآلهة بمقدار تفاوت ملكوته على ملكوت الآخر فلا يحصل علو بعضهم على بعض لاشتغال كل إله بملكوته. ووجه الدفع أن الإله إذا جاز أن يكون غير خالق لطائفة من المخلوقات التي خلقها غيره لئلا تتداخل القدر في مقدورات واحدة لا يجوز أن يكون غير عالم بما خلقه غيره لأن صفات العلم لا تتداخل، فإذا علم أحد الآلهة مقدار ملكوت شركائه فالعالم بأشدية ملكوته يعلو على من هو دونه في الملكوت، فظهر أن قوله)عالم الغيب والشهادة(من تمام الاستدلال على انتفاء الشركاء، ولذلك فرع عنه بالفاء قوله)فتعالى عما يشركون(.

وقرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر وخلف)عالم الغيب(برفع)عالم(على أنه خبر مبتدإ محذوف وهو من

الحذف الشائع في الاستعمال إذا أريد الإخبار عن شيء بعد أن أجريت عليه أخبار أو صفات.
وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحفص عن عاصم ويعقوب بجر)عالم(على الوصف لاسم الجلالة في قوله)سبحان الله عما يصفون(.
و)ما(مصدرية. والمعنى: فتعالى عن إشراكهم، أي هو أعظم من أن يكون موصوفا بكونه مشاركا في وصفه العظيم، أي هو منزه من أن يكون موصوفا بكونه مشاركا في وصفه العظيم، أي هو منزه عن ذلك.

صفحة : 2860

)قل رب إما تريني ما يوعدون[93] رب فلا تجعلني في القوم الظالمين[94] وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون[95](آذنت الآيات السابقة بأقصى ضلال المشركين وانتفاء عذرهم فيما دانوا به الله وبغضب الله عليهم لذلك، وأنهم سواء في ذلك مع الأمم التي عجل الله لها العذاب في الدنيا وادخر لها عذابا آخر في الآخرة، فكان ذلك نذارة لهم بمثله وتهديدا بما سيقولونه وكان مثارا لخشية النبي صلى الله عليه وسلم أن يحل العذاب بقومه في حياته والخوف من هوله فلقن الله نبيه أن يسأل النجاة من ذلك العذاب. وفي هذا التلقين تعريض بأن الله منجيهم من العذاب بحكمته، وإيماء إلى أن الله يري نبيه حلول العذاب بمكذبيه كما هو شأن تلقين الدعاء كما في قوله)ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا(الآية.
فهذه الجملة استئناف بياني جوابا عما يختلج في نفس رسول الله عليه الصلاة والسلام. وقد تحقق ذلك فيما حل بالمشركين يوم بدر ويوم حنين، فالوعيد المذكور هنا وعيد بعقاب في الدنيا كما يقتضيه قوله)فلا تجعلني في القوم الظالمين(.
وذكر في هذا الدعاء لفظ)رب(مكررا تمهيدا للإجابة لأن وصف الربوبية يقتضي الرأفة بالمربوب.
وأدخل بعد حرف الشرط)ما(الزائدة للتوكيد فاقترن فعل الشرط بنون التوكيد لزيادة تحقيق ربط الجزاء بالشرط.
ونظيره في تكرير المؤكدات بين الشرط وجوابه قول الأعشى:
إما ترينا حفاة لا نعال لنا إنا كذلك
ما نحفى وننتعل أي فاعلمي حقا أنا نحفى تارة وننتعل اخرى لأجل ذلك، أي لأجل إخفاء الخطى لا للأجل وجدان نعل مرة وفقدانها أخرى كحال أهل الخصاصة.

وقد تقدم في قوله)وإما ينزغنك من الشيطان نزغ(في آخر الأعراف.

والمعنى: إذا كان ما يوعدون حاصلا في حياتي فأنا أدعوكم أن لا تجعلوني فيهم حينئذ.

واستعمال حرف الظرفية من قوله)في القوم الظالمين(يشير إلى أنه أمر ان يسأل الكون في موضع غير موضع المشركين، وقد تحقق ذلك بالهجرة إلى المدينة فالظرفية هنا حقيقية، أي بينهم.

والخبر الذي هو قوله)وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون(مستعمل في إيجاد الرجاء بحصول وعيد المكذبين في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلا فلا حاجة إلى إعلام الرسول بقدرة الله على ذلك.

وفي قوله)أن نريك(إيماء إلى أنه في منجاة من أن يلحقه ما يوعدون به وأنه سيراه مرأى عين دون كون فيه. وقد يبدو أن هذا وعد غريب لأن المتعارف أن يكون العذاب سماويا فإذا نجى الله منه بعض رسله مثل لوط فإنه يبعده عن موضع العذاب ولكن كان عذاب هؤلاء غير سماوي فتحقق في مصرع صناديدهم يوم بدر بمرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقف رسول الله على القليب قليب بدر وناداهم بأسمائهم واحدا واحدا وقال لهم)لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا(. وبهذا القصد يظهر موقعي حرفي التأكيد)إن(واللام من إصابة محز الإعجاز.

)ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون[96](لما أنبأ الله رسوله عليه الصلاة والسلام بما يلمح له بأنه منجز وعيده من الذين كذبوه فعلم الرسول والمسلمون أن الله ضمن لهم النصر أعقب ذلك بأن أمره بأن يدفع مكذبيه بالتي هي أحسن وأن لا يضيق بتكذيبهم صدره فلذلك دفع السيئة بالحسنة كما هو أدب الإسلام. وسيأتي بيانه في سورة فصلت عند قوله)ادفع بالتي هي أحسن(.

وقوله)نحن أعلم بما يصفون(خبر مستعمل كناية عن كون الله يعامل أصحاب الإساءة لرسوله بما هم أحقاء به من العقاب لأن الذي هو أعلم بالأحوال يجري عمله على مناسب تلك الأحوال بالعدل وفي هذا تطمين لنفس الرسول صلى الله عليه وسلم.

وحذف مفعول)يصفون(وتقديره: بما يصفونك، أي مما يضيق به صدرك، وذلك تعهد بأنه يجازيهم على ما يعلم منهم فرب أحد يبدو منه السوء ينطوي ضميره على بعض الخير فقد كان فيهم من يحدب على النبي في نفسه، ورب أحد هو بعكسه كما قال تعالى)

ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام(.
و)التي هي أحسن(مراد بها الحسنة الكاملة، فاسم التفضيل للمبالغة مثل قوله)السجن أحب إلي(.

صفحة : 2861

والتخلق بهذه الآية هو أن المؤمن الكامل ينبغي له أن يفوض أمر المعتدين عليه إلى الله فهو يتولى الانتصار لمن توكل عليه وأنه إن قابل السيئة بالحسنة كان انتصار الله أشفى لصدره وأرسخ في نصره، وماذا تبلغ قدرة المخلوق تجاه قدرة الخالق، وهو الذي هزم الأحزاب بلا جيوش ولا فيالق.
وهكذا كان خلق النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان لا ينتقم لنفسه وكان يدعو ربه. وذكر في المدارك في ترجمة عبد الله بن غانم: أن رجلا يقال له ابن زرعة كان له جاه ورئاسة وكان ابن غانم حكم عليه بوجه حق ترتب عليه، فلقي ابن غانم في موضع خال فشتمه فأعرض عنه ابن غانم فلما كان بعد ذلك لقيه بالطريق فسلم ابن زرعة على ابن غانم فرد عليه ابن غانم ورحب به ومضى معه إلى منزله وعمل له طعاما فلما أراد مفارقته قال لابن غانم: يا أبا عبد الرحمان اغفر لي واجعلني في حل مما كان من خطابي فقال له ابن غانم: أما هذا فلست أفعله حتى أوقفك بين يدي الله تعالى، وأما أن ينالك مني في الدنيا مكروه أو عقوبة فلا.
)وقل رب أعوذ بك من همزت الشياطين[97] وأعوذ بك رب أن يحضرون[98](الظاهر أن يكون المعطوف مواليا للمعطوف هو عليه، فيكون قوله)وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين(متصلا بقوله)ادفع بالتي هي أحسن السيئة(فلما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يفوض جزاءهم إلى ربه أمره بالتعوذ من حيلولة الشياطين داعية الغضب والانتقام في نفس النبي صلى الله عليه وسلم، فيكون)الشياطين(مستعملا في حقيقته. والمراد من همزات الشياطين: تصرفاتهم بتحريك القوى التي في نفس الإنسان)أي في غير أمور التبليغ(مثل تحريك القوة الغضبية كما تأول الغزالي في قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث)ولكن الله أعانني عليه فأسلم(. ويكون أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بالتعوذ من همزات الشياطين مقتضيا تكفل الله تعالى بالاستجابة كما في قوله تعالى)ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من

قبلنا(، أو أن يكون أمره بالتعوذ من همزات الشياطين مرادا به الاستمرار على السلامة منهم. قال في الشفاء: الأمة مجتمعة)أي مجمعة(على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من الشيطان لا في جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بالوساوس.

ويجوز أن تكون جملة)وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين(عطفا على جملة)قل رب إما تريني ما يوعدون(بأن أمره الله بأن يلجأ إليه بطلب الوقاية من المشركين وأذاهم، فيكون المراد من الشياطين المشركين فإنهم شياطين الإنس كما قال تعالى)وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن(ويكون هذا في معنى قوله)قل أعوذ برب الناس(إلى قوله)الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة الناس(فيكون المراد: أعوذ بك من همزات القوم الظالمين أو من همزات الشياطين منهم.

والهمز حقيقته: الضغط باليد والطعن بالإصبع ونحوه، ويستعمل مجازا بمعنى الأذى بالقول أو بالإشارة ، ومنه قوله تعالى)هماز مشاء بنميم(وقوله)ويل لكل همزة لمزة(.

ومحمله هنا عندي على المعنى المجازي على كلا الوجهين في المراد من الشياطين. وهمز شياطين الجن ظاهر، وأما همز شياطين الإنس فقد كان من أذى المشركين النبي صلى الله عليه وسلم لمزه والتغامز عليه والكيد له.

ومعنى التعوذ من همزهم: التعوذ من آثار ذلك فإن من ذلك أن يغمزوا بعض سفهائهم إغراء لهم بأذاه، كما وقع في قصة إغرائهم من أتى بسلا جزور فألقاه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في صلاته حول الكعبة. وهذا الوجه في تفسير الشياطين هو الأليق بالغاية في قوله)حتى إذا جاء أحدهم الموت(كما سيأتي.

وأما قوله)وأعوذ بك رب أن يحضرون(فهو تعوذ من قربهم لأنهم إذا اقتربوا منه لحقه أذاهم.

)حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب أرجعون[99] لعلى أعمل صلحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون[100](

صفحة : 2862

)حتى(ابتدائية وقد علمت مفادها غير مرة، وتقدمت في سورة الأنبياء؛ ولا تفيد أن مضمون ما قبلها مغيا بها فلا حاجة إلى تعليق)حتى(ب)يصفون(. والوجه أن)حتى(متصلة بقوله)وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون(. فهذا انتقال إلى وصف ما يلقون من العذاب في الآخرة بعد أن ذكر عذابهم في الدنيا فيكون قوله هنا)

حتى إذا جاء أحدهم الموت(وصفا أنفا لعذابهم في الآخرة. وهو الذي رجحنا به أن يكون ما سبق ذكره من العذاب ثلاث مرات عذابا في الدنيا لا في الآخرة. فإن حملت العذاب السابق الذكر على عذاب الآخرة كان ذلك إجمالا وكان قوله)حتى إذا جاء أحدهم الموت(إلى آخره تفصيلا له.

وضمائر الغيبة عائدة إلى ما عادت عليه الضمائر السابقة من قوله)قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون(إلى ما هنا وليست عائدة إلى الشياطين. ولقصد إدماج التهديد بما سيشاهدون من عذاب أعد لهم فيندمون على تفريطهم في مدة حياتهم.

وضمير الجمع في)ارجعون(تعظيم للمخاطب. والخطاب بصيغة الجمع لقصد التعظيم طريقة عربية، وهو يلزم صيغة التذكير فيقال في خطاب المرأة إذا قصد تعظيمها: أنتم. ولا يقال: أنتن. قال العرجي:

فإن شئت حرمت النساء سواكـم

وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا فقال: سواكم. وقال جعفر بن علبة الحارثي من شعراء الحماسة:

فلا تحسبي أني تخشعت بعدكـم

لشيء ولا أني من الموت أفرق فقال: بعدكم، وقد حصل لي هذا باستقراء كلامهم ولم أر من وقف عليه.

وجملة الترجي في موضع العلة لمضمون)ارجعون(.

والترك هنا مستعمل في حقيقته وهو معنى التخلية والمفارقة. وما صدق)ماتركت(عالم الدنيا. ويجوز أن يراد بالترك معناه المجازي وهو الإعراض والرفض، على أن يكون ما صدق الموصول الإيمان بالله وتصديق رسوله، فذلك هو الذي رفضه كل من يموت على الكفر، فالمعنى: لعلي أسلم وأعمل صالحا في حالة إسلامي الذي كنت رفضته، فاشتمل هذا المعنى على وعد بالامتثال واعتراف بالخطأ فيما سلف. وركب بهذا النظم الموجز قضاء لحق البلاغة.

و)كلا(ردع للسامع ليعلم إبطال طلبة الكافر.

وقوله)إنها كلمة هو قائلها(تركيب يجري مجرى المثل وهو من مبتكرات القرآن. وحاصل معناه: أن قول المشرك)رب ارجعون(الخ لا يتجاوز أن يكون كاملا صدر من لسانه لا جدوى له فيه، أي لا يستجاب طلبه به.

فجملة)هو قائلها(وصف ل)كلمة(، أي هي كلمة هذا وصفها. وإذ كان من المحقق أنه قائلها لم يكن في وصف)كلمة(به فائدة جديدة فتعين أن يكون الخبر مستعملا في معنى أنه لا وصف لكلمته غير كونها صدرت من في صاحبها.

وبذلك يعلم أن التأكيد بحرف)إن(لتحقيق المعنى الذي استعمل له الوصف.
والكلمة هنا مستعمل في الكلام كقول النبي صلى الله عليه وسلم: أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:
ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكما في قولهم: كلمة الشهادة وكلمة الإسلام. وتقدم قوله تعالى)ولقد قالوا كلمة الكفر(في سورة براءة.
والوراء هنا مستعار للشيء الذي يصيب المرء لا محالة وينالـه وهو لا يظنه يصيبه. شبه ذلك بالذي يريد اللحاق بالسائر فهو لاحقه، وهذا كقوله تعالى)والله من ورائهم محيط(وقوله)من ورائهم جهنم(وقوله)من ورائه عذاب غليظ(. وتقدم قوله)وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا(.
وقال لبيد:
أليس ورائي أن تراخت منـيتـي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع والبرزخ: الحاجز بين مكانين. قيل: المراد به في هذه الآية القبر، وقيل: هو بقاء مدة الدنيا. وقيل: هو عالم بين الدنيا والآخرة تستقر فيه الأرواح فتكاشف على مقرها المستقبل. وإلى هذا مال الصوفية. وقال السيد في التعريفات: البرزخ العالم المشهود بين عالم المعاني المجردة وعالم الأجسام المادية، أعني الدنيا والآخرة ويعبر به عن عالم المثال ا ه، أي عند الفلاسفة القدماء.
ومعنى)إلى يوم يبعثون(أنهم غير راجعين إلى الحياة إلى يوم البعث.
فهي إقناط لهم لأنهم يعلمون ان يوم البعث الذي وعدوه لا رجوع بعده إلى الدنيا فالذي قال لهم)إلى يوم يبعثون(هو الذي أعلمهم بما هو البعث.

صفحة : 2863

)فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون[101] فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون[102] ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خلدون[103] تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون[104](تفريع على قوله)إلى يوم يبعثون(فإن زمن النفخ في الصور هو يوم البعث. فالتقدير: فإذا جاء يوم يبعثون، ولكن عدل عن ذلك إلى)فإذا نفخ في الصور(تصوير لحالة يوم البعث.

والصور: البوق الذي ينفخ فيه النافخ للتجمع والنفير، وهو مما ينادى به للحرب وينادى به للصلاة عند إليهود كما جاء في حديث بدء الأذان من صحيح البخاري. وتقدم ذكر الصور عند قوله تعالى)وله الملك يوم ينفخ في الصور(في سورة الأنعام.

وأسند)نفخ(إلى الجمهور لأن المعتنى به هو حدوث النفخ لا تعيين النافخ. وإنما ينفخ فيه بأمر تكوين من الله تعالى، أو ينفخ فيه أحد الملائكة وقد ورد أنه الملك إسرافيل.

والمقصود التفريغ الثاني في قوله)فمن ثقلت موازينه(إلى آخره لأنه مناط بيان الرد على قول قائلهم)رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت(المردود إجمالا بقوله تعالى)كلا إنها كلمة هو قائلها(فقدم عليه ما هو كالتمهيد له وهو قوله)فلا أنساب بينهم(إلى آخره مبادرة بتأييسهم من أن تنفعهم أنسابهم أو استنجادهم.

والأظهر أن جواب)إذا(هو قوله الآتي)قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين(كما سيأتي وما بينهما كله اعتراض نشأ بعضه عن بعض.

وضمير)بينهم(عائد إلى ما عادت عليه ضمائر جمع الغائبين قبله وهي عائدة إلى المشركين.

ومعنى نفي الأنساب نفي آثارها من النجدة والنصر والشفاعة لأن تلك في عرفهم من لوازم القرابة. فقوله)فلا أنساب بينهم(كناية عن عدم النصير.

والتساؤل: سؤال بعضهم بعضا. والمعنى به التساؤل المناسب لحلول يوم الهول، وهو أن يسأل بعضهم المعونة والنجدة، كقوله تعالى)ولا يسأل حميم حميما(.

وأما إثبات التساؤل يومئذ في قوله تعالى)وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون فأغويناكم إنا كنا غاوين فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون(فلذلك بعد يأسهم من وجود نصير أو شفيع.

وفي البخاري: أن رجلا هو نافع بن الأزرق الخارجي قال لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي قال)فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون(وقال)وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون(فقال ابن عباس: أما قوله)فلا أنساب بينهم(فهو في النفخة الأولى فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون اه. يريد اختلاف الزمان وهو قريب مما قلناه.

وذكر من)ثقلت موازينه(في هذه الآية إدماج للتنويه بالمؤمنين وتهديد المشركين لأن المشركين لا يجدون في موازين الأعمال

الصالحة شيئا، قال تعالى)وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا(. وتقدم الكلام على نظير قوله)فمن ثقلن موازينه(في أول سورة الأعراف.
والخسارة: نقصان مال التجارة وتقدم في قوله تعالى)الذين خسروا أنفسهم(في سورة الأنعام ، وقوله)فأولئك الذين خسروا أنفسهم(في أول الأعراف. وهي هنا تمثيل لحال خيبتهم فيما كانوا يأملونه من شفاعة أصنامهم وأن لهم النجاة في الآخرة أو من أنهم غير صائرين إلى البعث، فكذبوا بما جاء به الإسلام وحسبوا أنهم قد أعدوا لأنفسهم الخير فوجدوا ضده فكانت نفوسهم مخسورة كأنها تلفت منهم، ولذلك نصب)أنفسهم(على المفعول ب)خسروا(. واسما الإشارة لزيادة تمييز الفريقين بصفاتهم.
وجملة)تلفح وجوههم النار(في موضع الحال من)الذين خسروا أنفسهم(. ومعنى)تلفح وجوههم النار(تحرق. واللفح: شدة إصابة النار.
والكالح: الذي به الكلوح وهو تقلص الشفتين وظهور الأسنان من أثر تقطب أعصاب الوجه عند شدة الألم.

)ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون[105] قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين[106] ربنا أخرجنا منها فإنا ظالمون[107](جملة)ألم تكن آياتي تتلى عليكم(مقول قول محذوف، أي يقال لهم يومئذ. وهذا تعرض لبعض ما يجري يومئذ.
والآيات: آيات القرآن بقرينة قوله)تتلى عليكم(وقوله)فكنتم بها تكذبون(حملا على ظاهر اللفظ.
والتلاوة: القراءة. وقد تقدم عند قوله تعالى)واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان(في البقرة، وقوله)وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا(في سورة الأنفال. والاستفهام إنكار.
والغلب حقيقته: الاستيلاء والقهر. وأطلق هنا على التلبس بالشقوة دون التلبس بالسعادة. ومفعول)غلبت(محذوف يدل عليه) شقوتنا(لأن الشقوة تقابلها السعادة، أي غلبت شقوتنا السعادة. والمجرور ب)على(بعد مادة الغلب هو الشيء المتغالب عليه كما في الحديث قال النساء: غلبنا عليك الرجال ؛ مثلت حالة اختيارهم لأسباب الشقوة بدل أسباب السعادة بحالة غائرة بين السعادة والشقاوة على نفوسهم. وإضافة الشقوة إلى ضميرهم لا اختصاصها بهم حين صارت غالبة عليهم.

والشقوة بكسر الشين وسكون القاف في قراءة الجمهور. وهي زنة الهيئة من الشقاء. وقرأ حمزة والكسائي وخلف)شقاوتنا(بفتح الشين وبألف بعد القاف وهو مصدر على صيغة الفعالة مثل الجزالة والسذاجة. وزيادة قوله)قوما(ليدل على إن الضلالة من شيمتهم وبها قوام قوميتهم كما تقدم عند قوله)لآيات لقوم يعقلون(في سورة البقرة وعند قوله)وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون(في آخر سورة يونس.

وهم ظنوا أنهم إن أخرجوا من النار رجعوا إلى الإيمان والعمل الصالح فالتزموا لله بانهم لا يعودون إلى الكفر والتكذيب.

وحذف متعلق)عدنا(لظهوره من المقام إذ كان إلقاؤهم في النار لأجل الإشراك والتكذيب كما دل عليه قولهم)وكنا قوما ضالين(.

والظلم في)فإنا ظالمون(هو تجاوز العدل، والمراد ظلم آخر بعد ظلمهم الأول وهو الذي ينقطع عنده سؤال العفو.

)قال اخسئوا فيها ولا تكلمون[108] إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الرحمين[109] فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون[110] إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون[111]( )اخسأوا(زجر شتم بأنهم خاسئون، ومعناه عدم استجابة طلبهم. وفعل خسأ من باب منع ومعناه ذل. ونهوا عن خطاب الله والمقصود تأييسهم من النجاة مما هم فيه.

وجملة)إنه كان فريق من عبادي(إلى آخرها استئناف قصد منه إغاظتهم بمقابلة حالهم يوم العذاب بحال الذين أنعم الله عليهم، وتحسيرهم على ما كانوا يعاملون به المسلمين.

والإخبار في قوله)إنه كان فريق من عبادي(إلى قوله) سخريا(مستعمل في كون المتكلم عالما بمضمون الخبر بقرينة أن المخاطب يعلم أحوال نفسه. وتأكيد الخبر ب)إن(وضمير الشأن للتعجيل بإرهابهم.

وجملة)إني جزيتهم(خبر)إن(الأولى لزيادة التأكيد. وتقدم نظيره في قوله)إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا(في سورة الكهف.

والسخري بضم السين في قراءة نافع والكسائي وأبي جعفر وخلفن وبكسر السين في قراءة الباقين، وهما وجهان ومعناهما واحد عند المحقيقن من أئمة اللغة لا فرق بينهما خلافا لأبي عبيدة والكسائي والفراء الذين جعلوا المكسور مأخوذا من سخر بمعنى هزأ، والمضموم مأخوذا من السخرة بضم السين وهي الاستخدام بلا أجر. فلما قصد منه المبالغة في حصول المصدر أدخلت ياء النسبة كما يقال لك الخصوصية لمصدر الخصوص.

وسلط الاتخاذ على المصدر للمبالغة كما يوصف بالمصدر. والمعنى: اتخذتموهم مسخورا بهم، فنصب)سخريا(على أنه مفعول ثان ل)اتخذتموهم(.

صفحة : 2865

و)حتى(ابتدائية ومعنى)حتى(الابتدائية معنى فاء السببية فهي استعارة تبعية. شبه التسبب القوي بالغاية فاستعملت فيه)حتى(. والمعنى: أنكم لهوتم عن التأمل فيما جاء به القرآن من الذكر لأنهم سخروا منهم لأجل أنهم مسلمون فقد سخروا من الدين الذي كان اتباعهم إياه سبب السخرية بهم فكيف يرجى من هؤلاء التذكر بذلك الذكر وهو من دواعي السخرية بأهله. وتقدم الكلام على فعل) سخر(عند قوله)فحاق بالذين سخروا منهم(في سورة الأنعام وقوله)يسخرون منهم(في سورة براءة.

فإسناد الإنساء إلى الفريق مجاز عقلي لأنهم سببهن أو هو مجاز بالحذف بتقدير: حتى أنساكم السخري بهم ذكري، والقرينة على الأول معنوية وعلى الثاني لفظية.

وقوله)أنهم هم الفائزون(قرأه الجمهور بفتح همزة)أن(على معنى المصدرية والتأكيد أي جزيتهم بأنهم. وقرأه حمزة والكسائي بكسر همزة)إن(على التأكيد فقط فتكون استئنافا بيانيا للجزاء.

وضمير الفصل للاختصاص، أي هم الفائزون لا أنتم.

وقوله)بما صبروا(إدماج للتنويه بالصبر، والتنبيه على أن سخريتهم بهم كانت سببا في صبرهم الذي أكسبهم الجزاء. وفي ذلك زيادة تلهيف للمخاطبين بأن كانوا هم السبب في ضر أنفسهم ونفع من كانوا يعدونهم أعداءهم.

)قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين[112] قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فسئل العادين[113] قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون[114](قرأ الجمهور)قال كم لبثتم(بصيغة الماضي فيتعين أن هذا القول يقع عند النفخ في الصور وحياة الأموات من الأرض، فالأظهر أن يكون هو جواب)إذا(في قوله فيما سبق)فإذا نفخ في الصور(. والتقدير: قال الله لهم إذا نفخ في الصور: كم لبثتم في الأرض عدد سنين، وما بينهما اعتراضات نشأت بالتفريع والعطف والحال والمقاولات العارضة في خلال ذلك كما علمته مما تقدم في تفسير تلك الآي. وليس من المناسب أن يكون هذا القول حاصلا بعد دخول الكافرين النار، والمفسرون الذين حملوه على ذلك تكلفوا ما لا يناسب انتظام المعاني.

وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائي)قل(بصيغة الأمر. والخطاب للملك الموكل بإحياء الأموات.
وجملة)فاسأل العادين(تفريع على جملة)لبثنا يوما أو بعض يوم(لما تضمنته من ترددهم في تقدير مدة لبثهم في الأرض. وأرى في تفسير ذلك أنهم جاءوا في كلامهم بما كان معتادهم في حياتهم في الدنيا من عدم ضبط حساب السنين إذ كان علم موافقة السنين القمرية للسنين الشمسية تقوم به بنو كنانة الذين بيدهم النسيء ويلقبون بالنسأة، قال الكناني:

ونحن الناسئون على معـد شهور

الحل نجعلها حراما والمفسرون جعلوا المراد من العادين الملائكة أو الناس الذين يتذكرون حساب مدة المكث. ولكن القرطبي قال: أي سل الحساب الذين يعرفون ذلك فإنا نسيناه.
وقوله)قال إن لبثتم إلا قليلا(قرأه الجمهور كما قرأوا الذي قبله فهو حكاية للمحاورة فلذلك لم يعطف فعل)قال إن لبثتم إلا قليلا(وهي طريقة حكاية المحاورات كما في قوله تعالى)قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها(في سورة البقرة. وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائي بصيغة الأمر كالذي قبله.
والاستفهام عن عدد سنوات المكث في الأرض مستعمل في التنبيه ليظهر لهم خطؤهم إذ كانوا يزعمون أنهم إذا دفنوا في الأرض لا يخرجون منها.
وانتصب)عدد سنين(على التمييز ل)كم(الاستفهامية والتمييز إنما هو)سنين(. وإضافة لفظ)عدد(إليه تأكيد لمضمون)كم(لأن) كم(اسم استفهام عن العدد فذكر لفظ)عدد(معها تأكيد لبعض مدلولها.
وجوابهم يقتضي أنهم كانوا في الأرض وأنهم لم يتذكروا طول مدة مكثهم على تفاوت فيها. والظاهر أن المراد بقولهم)يوما أو بعض يوم(أنهم قدروا مدة مكثهم في باطن الأرض بنحو يوم من الأيام المعهودة لديهم في الدنيا كما دل عليه قوله تعالى في سورة الروم)ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة(.

ولم يعرج المفسرون على تبيين المقصد من سؤالهم وإجابتهم عنه وتعقيبه بما يقرره في الظاهر. والذي لاح لي في ذلك أن إيقافهم على ضلال اعتقادهم الماضي جيء به في قالب السؤال عن مدة مكثهم في الأرض كناية عن ثبوت خروجهم من الأرض

أحياء وهو ما كانوا ينكرونه، وكناية عن خطإ استدلالهم على إبطال البعث باستحالة رجوع الحياة إلى عظام ورفات. وهي حالة لا تقتضي مدة قرن واحد فكيف وقد أعيدت إليهم مما قدروه من الحياة بعد أن بقوا قرونا كثيرة، فذلك أدل وأظهر في سعة القدرة الإلهية وأدخل في إبطال شبهتهم إذ قد تبين بطلانهم فيما هو أكثر علة استحالة عود الحياة إليهم.

وقد دل على هذا قوله في آخر الآية)أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون(وقد ألجأهم الله إلى إظهار اعتقادهم قصر المدة التي بقوها زيادة في تشويه خطإهم فإنهم لما أحسوا أنفسهم أنهم صاروا أحياء كحياتهم الأولى وعاد لهم تفكيرهم القديم الذي ماتوا عليه، وكانوا يتوهمون أنهم إذا فنيت أجسادهم لا تعود إليهم الحياة أوهمهم كمال أجسادهم أنهم ما مكثوا في الأرض إلا زمنا يسيرا لا يتغير في مثله الهيكل الجثماني فبنوا على أصل شبهتهم الخاطئة خطأ آخر.

وأما قولهم)فاسأل العادين(فهو اعتراف بأنهم لم يضبطوا مدة مكثهم فأحالوا السائل على من يضبط ذلك من الذين يظنونهم لم يزالوا أحياء لأنهم حسبوا أنهم بعثوا والدنيا باقية وحسبوا أن السؤال على ظاهره فتبرأوا من عهدة عدم ضبط الجواب.

وأما رد الله عليهم بقوله)إن لبثتم إلا قليلا(فهو يؤذن بكلام محذوف على طريقة دلالة الاقتضاء، لأنهم قد لبثوا أكثر من يوم أو بعض يوم بكثير فكيف يجعل قليلا، فتعين أن يقول)إن لبثتم إلا قليلا(لا يستقيم أن يكون جوابا لكلامهم إلا بتقدير: قال بل لبثتم قرونا، كما في قوله في الذي مر على قرية)فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام(. ولذلك تعين أن يكون التقدير: قال بل لبثتم قرونا، وأن لبثتم إلا قليلا فيما عند الله)فإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون(.

وقرينة ذلك ما تفيده)لو(من الامتناع في قوله)لو أنكم كنتم تعلمون(أي لو كنتم تعلمون لعلمتم أنكم ما لبثتم إلا قليلا، فيقتضي الامتناع أنهم ما علموا أنهم لبثوا قليلا مع أن صريح جوابهم يقتضي أنهم علموا لبثا قليلا، فالجمع بين تعارض مقتضى جوابهم ومقتضى الرد عليهم إنما يكون باختلاف النسبة في قلة مدة المكث إذا نسبت إلى ما يراعى فيها، فهي إذا نسبت إلى شبهتهم في إحالة البعث كانت طويلة وقد وقع البعث بعدها فهذا خطأ منهم، وهي إذا نسبت إلى ما يترقبهم من مدة العذاب كانت مدة قليلة وهذا إرهاب لهم.

)أفحسبتم أنما خلقنكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون[115](هذا من تمام القول المحكي فيه)قال كم لبثتم في الأرض(مفرع على ما قبله. فرع الاستفهام عن حسبانهم أن الخلق لأجل العبث على إظهار بطلان ما زعموه من إنكار البعث. والاستفهام تقرير وتوبيخ لأن لازم إنكارهم البعث أن يكون خلق الناس مشتملا على عبث فنزلوا منزلة من حسب ذلك فقرروا ووبخوا أخذا لهم بلازم اعتقادهم.

صفحة : 2867

وأدخلت أداة الحصر بعد)حسب(فجعلت الفعل غير ناصب إلا مفعولا واحدا وهو المصدر المستخلص من)أنما خلقناكم(. وتقدير: أفحسبتم خلقنا إياكم لأجل العبث، وذلك أن أفعال الظن والعلم نصبت مفعولين غالبا لأن أصل مفعوليها مبتدأ وخبر، أي اسم ذات واسم صفة فاحتياجها إلى المفعول الثاني من باب احتياج المبتدإ إلى الخبر لئلا تنعدم الفائدة في المبتدإ مجردا عن خبره، وبذلك فارقت بقية الأفعال المتعدية باحتياجها إلى منصوبين لأن معناها لا يتعلق بالذوات، فقولك: ظننت زيدا قائما، إنما هو في الحقيقة: ظننت قيام زيد، فمفعولها هو المصدر وحقه أن يكون خبرا مضافا إلى ضمير مبتدئه كما قال الرضي: يعني أن العرب استعملوها بمفعولين كراهية لجعل المصدر مفعولا به كأنهم تجنبوا اللبس بين المفعول به والمفعول المطلق، وهذا كما استعملوا أفعال الكون مسندة إلى اسم الذوات ثم أتوا بعد اسم الذات باسم وصفها ولم يأتوا باسم الوصف من أول وهلة ولذلك إذا أوقعوا بعدها حرف المصدر اكتفوا به عن المفعولين، ولم يسمع عنهم أنهم نصبوا بها مصدرا صريحا، فإذا وقع مفعول أفعال الظن اسم معنى وهو المصدر الصريح أو المنسبك وحذف الفائدة فاجتزأت بالمصدر كقوله تعالى)إني ظننت أني ملاق حسابيه(.
وحيث كانت)أنما(مركبة من)أن(المفتوحة الهمزة ومن) ما(الكافة فوقوعها بعد فعل الحساب بمنزلة وقوع المصدر، ولولا) أن(لكان الكلام: أحسبتمونا خالقينكم عبثا.
وانتصب)عبثا(على الحال من ضمير الجلالة مؤولا باسم الفاعل. والعبث: العمل الذي لا فائدة فيه. وكلما تضاءلت الفائدة كان لها حكم العدم فلو لم يكن خلق البشر في هذه الحياة مرتبا عليه مجازاة الفاعلين على أفعالهم لكان خالقه قد أتى في فعله بشيء عديم الفائدة فكان فيه حظ من العبث.

وبيان كونه عبثا أنه خلق الخلق فأحسن المحسن وأساء المسيء ولم يلق كل جزاءه لكان ذلك إضاعة لحق المحسن وإغضاء عما حصل من فساد المسيء فكان ذلك تسليطا للعبث. وليس معنى الحال أن يكون عاملها غير مفارق لمدلولها بل يكفي حصول معناها في بعض أكوان عاملها.

وأما قوله)وأنكم إلينا لا ترجعون(فهم قد حسبوا ذلك حقيقة بلا تنزيل وهذا من تمام الإنكار.

وقرأ الجمهور)ترجعون(بضم التاء وفتح الجيم، أي أن الله يرجعهم قهرا.وقرأه حمزة والكسائي وخلف بفتح التاء وكسر الجيم، أي يرجعون طوعا أو كرها.

)فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم[116] (تفرع على ما تقدم بيانه من دلائل الوحدانية والقدرة والحكمة ظهور أن الله هو الملك الذي ليس في اتصافه بالملك شائبة من معنى الملك، فملكه الملك الكامل في حقيقته، الشامل في نفاذه. والتعريف في)الملك(للجنس.

والحق: ما قابل الباطل، ومفهوم الصفة يقتضي أن ملك غيره باطل، أي فيه شائبة الباطل لا من وجهة الجور والظلم لأنه قد يوجد ملك لا جور فيه ولا ظلم كملك الأنبياء والخلفاء الراشدين وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخلفاء والأمراء، بل من جهة أنه ملك غير مستكمل حقيقة المالكية فإن كل من ينسب إليه الملك عدا الله تعالى هو مالك من جهة ومملوك من جهة لما فيه من نقص واحتياج؛ فهو مملوك لما يتطلبه من تسديد نقصه بقدر الحاجة ومن استعانة بالغير لجبر احتياجه فذلك ملك باطل لأنه ادعاء ملك غير تام.

وجملة)تعالى(يجوز ان تكون خبرا قصد منه التذكير والاستنتاج مما تقدم من الدلائل المبينة لمعنى تعاليه وأن تكون إنشاء ثناء عليه بالعلو.

والتعالي: مبالغة في العلو. وأتبع ذلك بما هو دليل عليه وهو انفراده بالإلهية وذلك وصف ذاتي، وبأنه مالك أعظم المخلوقات أعني العرش وذلك دليل عظمة القدرة.

و)الكريم(بالجر صفة العرش. وكرم الجنس أن يكون مستوفيا فصائل جنسه كما في قوله تعالى)إني ألقي إلي كتاب كريم(في سورة النمل.

)ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهن له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون[117](

لما كان أعظم ما دعا الله إليه توحيده وكان أصل ضلالة المشركين إشراكهم أعقب وصف الله بالعلو العظيم والقدرة الواسعة ببيان أن الحساب الواقع بعد البعث ينال الذين دعوا مع الله آلهة دعوى لا عذر لهم فيها لأنها عرية عن البرهان أي الدليل، لأنهم لم يثبتوا لله الملك الكامل إذ أشركوا معه آلهة ولم يثبتوا ما يقتضي له عظيم التصرف إذ أشركوا معه تصرف آلهة. فقوله)لا برهان له به(حال من)من يدع مع الله إلها آخر(، وهي حال لازمة لأن دعوى الإله مع الله لا تكون إلا عرية عن البرهان. ونظير هذا الحال قوله تعالى)ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله(.

والقصر في قوله)فإنما حسابه عند ربه(قصر حقيقي. وفيه إثبات الحساب وأنه لله وحده في تخطئتهم وتهديدهم.

ويجوز أن يكون القصر إضافيا تطمينا للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الله لا يؤاخذه باستمرارهم على الكفر كقوله)إن عليك إلا البلاغ(وقوله)لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين(وهذا أسعد بقوله)وقل رب اغفر وارحم(.

ويدل على ذلك تذييله بجملة)إنه لا يفلح الكافرون(. وفيه ضرب من رد العجز على الصدر إذ افتتحت السورة ب)قد أفلح المؤمنون(وخمت ب)أنه لا يفلح الكافرون(وهو نفي الفلاح عن الكافرين ضد المؤمنين.

)وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الرحمين[118](عطف على جملة)ومن يدع مع الله إلها آخر(الخ باعتبار قوله)فإنما حسابه عند ربه(. فإن المقصود من الجملة خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بأن يدعو ربه بالمغفرة والرحمة. وفي حذف متعلق)اغفر وارحم(تفويض الأمر إلى الله في تعيين المغفور لهم والمرحومين، والمراد من كانوا من المؤمنين. ويجوز أن يكون المعنى اغفر لي وارحمني، بقرينة المقام.

وأمره بأن يدعو بذلك يتضمن وعدا بالإجابة.

وهذا الكلام مؤذن بانتهاء السورة فهو من براعة المقطع.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النور

سميت هذه السورة)سورة النور(من عهد النبي صلى الله عليه وسلم. روي عن مجاهد قال رسول الله:)علموا نساءكم سورة النور(ولم أقف على إسناده. وعن حارثة بن مضر:)كتب إلينا عمر بن الخطاب أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور(. وهذه تسميتها في المصاحف وكتب التفسير والسنة، ولا يعرف لها اسم آخر. ووجه التسمية أن فيها آية)الله نور السماوات والأرض(.

وهي مدنية باتفاق أهل العلم ولا يعرف مخالف في ذلك. وقد وقع في نسخ تفسير القرطبي عند قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا لسيتأذنكم الذين ملكت أيمانكم(الآية في المسألة الرابعة كلمة) وهي مكية(يعني الآية. فنسب الخفاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي وتبعه الآلوسي، إلى القرطبي أن تلك الآية مكية مع أن سبب نزولها الذي ذكره القرطبي صريح في أنها نزلت بالمدينة كيف وقد قال القرطبي في أول هذه السورة)مدنية بالإجماع(. ولعل تحريفا طرأ على النسخ من تفسير القرطبي وأن صواب الكلمة) وهي محكمة أي غير منسوخ حكمها فقد وقعت هذه العبارة في تفسير ابن عطية، قال)وهي محكمة قال ابن عباس: تركها الناس(. وسيأتي أن سبب نزول قوله تعالى)الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة(الآية قضية مرثد ابن أبي مرثد مع عناق. ومرثد بن أبي مرثد استشهد في صفر سنة ثلاث للهجرة في غزوة الرجيع، فيكون أوائل هذه السيرة نزل قبل سنة ثلاث، والأقرب، أن يكون في أواخر السنة الأولى أو أوائل السنة الثانية أيام كان المسلمون يتلاحقون للهجرة وكان المشركون جعلوهم كالأسرى.

ومن آياتها آيات قصة الإفك وهي نازلة عقب غزوة بني المصطلق من خزاعة. والأصح أن غزوة بني المصطلق كانت سنة أربع فإنها قبل غزوة الخندق.

ومن آياتها)والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم(الآية نزلت في شعبان سنة تسع بعد غزوة تبوك فتكون تلك الآيات مما نزل بعد نزول أوائل هذه السورة وهذا يقتضي أن هذه السورة نزلت منجمة متفرقة في مدة طويلة وألحق بعض آياتها ببعض.

وقد عدت هذه السورة المائة في ترتيب نزول سور القرآن عند جابر ابن زيد عن ابن عباس. قال: نزلت بعد سورة)إذا جاء نصر الله(وقبل سورة الحج، أي عند القائلين بان سورة الحج مدنية.

وآيها اثنتان وستون في عد المدينة ومكة، وأربع وستون في عد البقية.

أغراض هذه السورة

شملت من الأغراض كثيرا من أحكام معاشرة الرجال للنساء. ومن آداب الخلطة والزيادة.

وأول ما نزلت بسببه قضية التزوج بامرأة اشتهرت بالزنى وصدر ذلك ببيان حد الزنى.
وعقاب اللذين يقذفون المحصنات.
وحكم اللعان.
والتعرض إلى براءة عائشة رضي الله عنها مما أرجفه عليها أهل النفاق، وعقابهم، والذين شاركوهم في التحدث به.
البيوت غير المسكونة.
وآداب المسلمين والمسلمات في المخالطة.
وإفشاء السلام.
والتحريض على تزويج العبيد والإماء.
والتحريض على مكاتبتهم، أي إعتاقهم على عوض يدفعونه لمالكيهم.
وتحريم البغاء الذي كان شائعا في الجاهلية.
والأمر بالعفاف.
وذم أحوال أهل النفاق والإشارة إلى سوء طويتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم.
والتحذير من الوقوع في حبائل الشيطان.
وضرب المثل لهدي الإيمان وضلال الكفر.
والتنويه ببيوت العبادة والقائمين فيها.
وتخلل ذلك وصف عظمة الله تعالى وبدائع مصنوعاته وما فيها من منن على الناس.
وقد أردف ذلك بوصف ما أعده الله للمؤمنين، وأن الله علم بما يضمره كل أحد وأن المرجع إليه والجزاء بيده.
)سورة أنزلنها وفرضنها وأنزلنا فيها آيات بينت لعلكم تذكرون[1]
(يجوز أن يكون)سورة(خبرا عن مبتدإ مقدر دل عليه ابتداء السورة، فيقدر: هذه سورة. واسم الإشارة المقدر يشير إلى حاضر في السمع وهو الكلام المتتالي، فكل ما ينزل من هذه السورة وألحق بها من الآيات فهو من المشار إليه باسم الإشارة المقدر.
وهذه الإشارة مستعملة في الكلام كثيرا.
ويجوز أن تكون)سورة(مبتدأ ويكون قوله)الزانية والزاني(إلى آخر السورة خبرا عن)سورة(ويكون الابتداء بكلمة)سورة(ثم أجري عليه من الصفات تشويقا إلى ما يأتي بعده مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم كلمتان حبيبتان إلى الرحمان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .
وأحسن وجوه التقدير ما كان منساقا إليه ذهن السامع دون كلفة، فدع عنك التقادير الأخرى التي جوزوها هنا.

ومعنى)سورة(جزء من القرآن معين بمبدإ ونهاية وعدد آيات. وتقدم بيانه في المقدمة الثامنة من مقدمات هذا التفسير.
وجملة)أنزلناها(وما عطف عليها في موضع الصفة ل)سورة(. والمقصود من تلك الأوصاف التنويه بهذه السورة ليقبل المسلمون بشراشرهم على تلقي ما فيها. وفي ذلك امتنان على الأمة لتحديد أحكام سيرتها في أحوالها.
ففي قوله)أنزلناها(تنويه بالسورة بما يدل عليه)أنزلنا(من الإسناد إلى ضمير الجلالة الدال على العناية بها وتشريفها. وعبر ب)أنزلنا(عن ابتداء إنزال آياتها بعد ان قدرها الله بعلمه بكلامه النفسي. فالمقصود من إسناد إنزالها إلى الله تعالى تنويه بها. وعبر عن إنزالها بصيغة المضي وإنما هو واقع في الحال باعتبار إرادة إنزالها، فكأنه قيل: أردنا إنزالها وإبلاغها، فجعل ذلك الاعتناء كالماضي حرصا عليه. وهذا من استعمال الفعل في معنى إرادة وقوعه كقوله تعالى)إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم(الآية.
والقرينة قوله)وفرضناها(. ومعنى)فرضناها(عند المفسرين: أوجبنا العمل بما فيها. وإنما يليق هذا التفسير بالنظر إلى معظم هذه السورة لا إلى جميعها فإن منها ما لا يتعلق به عمل كقوله)الله نور السماوات والأرض(الآيات وقوله)والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة(.
فالذي أختاره أن يكون الفرض هنا بمعنى التعيين والتقدير كقوله تعالى)نصيبا مفروضا(فقوله)ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له(. وتعدية فعل)فرضنا(إلى ضمير السورة من قبيل ما يعبر عنه في مسائل أصول الفقه من إضافة الأحكام إلى الأعيان بإرادة أحوالها، مثل)حرمت عليكم الميتة(، أي أكلها. فالمعنى: وفرضنا آياتها. وسنذكر قريبا ما يزيد هذا بيانا عند قوله تعالى)ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات(وكيف قوبلت الصفات الثلاث المذكورة هنا بالصفات الثلاث المذكورة هنالك.
وقرأ الجمهور)وفرضناها(بتخفيف الراء بصيغة الفعل المجرد. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو)وفرضناها(بتشديد الراء للمبالغة مثل نزل المشدد. ونقل في حواشي الكشاف عن الزمخشري قوله:

كأنه عامل في دين سـؤدده بسورة
أنزلت فيه وفرضت وهذان الحكمان وهما الإنزال والفرض ثبتا لجميع السورة.

وأما قوله)وأنزلنا فيها آيات بينات(فهو تنويه آخر بهذه السورة تنويه بكل آية اشتملت عليها السورة: من الهدي إلى التوحيد، وحقية الإسلام، ومن حجج وتمثيل، وما في دلائل صنع الله على سعة قدرته وعلمه وحكمته، وهي ما أشار إليه قوله)ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين(وقوله)ألم تر أن الله يزجي سحابا(إلى قوله)صراط مستقيم(.

ومن الآيات البينات التي أنزلت فيها اطلاع الله رسوله على دخائل المنافقين مما كتموه في نفوسهم من قوله)وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون(إلى قوله)إن الله خبير بما تعملون(فحصل التنويه بمجموع السورة ابتداء والتنويه بكل جزء منها ثانيا.

فالآيات جمع آية وهي قطعة من الكلام القرآني دالة على معنى مستقل. وتقدم بيانها في المقدمة الثامنة من مقدمات هذا التفسير.

فالمراد من الآيات المنزلة في هذه السورة جميع ما اشتملت عليه من الآيات لا آيات مخصوصة من بينها. والمقصود التنويه بآياتها بإجراء وصف)بينات(عليها.

وإذا كانت الآيات التي اشتملت السورة على جميعها هي عين السورة لا بعضا منها إذ ليس ثم شيء غير تلك الآيات حاو لتلك الآيات حقيقة ولا مشبه بما يحوي، فكان حرف)في(الموضوع للظرفية مستعملا في غير ما وضع له لا حقيقة ولا استعارة مصرحة.

فتعين أن كلمة)فيها(تؤذن باستعارة مكنية بتشبيه آيات هذه السورة بأعلاق نفسية تكتنز ويحرض على حفظها من الإضاعة والتلاشي كأنها مما يجعل في خزانة ونحوها. ورمز إلى المشبه به بشيء من روادفه وهو حرف الظرفية فيكون حرف)في(تخييلا مجردا وليس باستعارة تخيلية إذ ليس ثم ما يشبه بالخزانة ونحوها، فوزان هذا التخييل وزان أظفار المنية في قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت

كل تميمة لا تنفع وهذه الظرفية شبيه بالإضافة البيانية مثل قوله تعالى)أحلت لكم بهيمة الأنعام(وقوله)أكفاركم خير(فإن الكفار هم عين ضمير الجماعة المخاطبين وهم المشركون.

فقوله)وأنزلنا فيها(هو: بمعنى وأنزلناها آيات بينات. ووصف) آيات(ب)بينات(أي واضحات، مجاز عقلي لأن البين هو معانيها. وأعيد فعل الإنزال مع إغناء حرف العطف عنه لإظهار مزيد العناية بها.

والوجه أن جملة)لعلكم تذكرون(مرتبطة بجملة)أنزلنا فيها آيات بينات(لأن الآيات بهذا المعنى مظنة التذكر، أي دلائل مظنة لحصول

تذكركم. فحصل بهذا الرجاء وصف آخر للسورة هو أنها مبعث تذكر وعظة. والتذكر: خطور ما كان منسيا في الذهن وهو هنا مستعار لاكتساب العلم من أدلته اليقينية بجعله كالعلم الحاصل من قبل فنسيه الذهن، أي العلم الذي شأنه أن يكون معلوما، فشبه جهله بالنسيان وشبه علمه بالتذكر.

وقرأ الجمهور)تذكرون(بتشديد الذال وأصله تتذكرون فأدغم. وقرأه حمزة والكسائي وحفص وخلف)تذكرون(بتخفيف الذال فحذفت إحدى التائين اختصارا.

)الزانية والزاني فاجلدوا كل وحد منهما مائة جلدة(.

ابتداء كلام وهو كالعنوان والترجمة في التبويب فلذلك أتي بعده بالفاء المؤذنة بأن ما بعدها في قوة الجواب وأن ما قبلها في قوة الشرط. فالتقدير: الزانية والزاني مما أنزلت له هذه السورة وفرضت. ولما كان هذا يستدعي استشراف السامع كان الكلام في قوة: إن أردتم حكمهما فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة. وهكذا شأن هذه الفاء كلما جاءت بعد ما هو في صورة المبتدإ فإنما يكون ذلك المبتدإ في معنى ما للسامع رغبة في استعلام حاله كقول الشاعر، وهو من شواهد كتاب سيبويه التي لم يعرف قائلها:

وقائلة: خولان فانكح فتاتهـم وأكرومة الحيين خلو كما هيا التقدير: هذه خولان، أو خولان مما يرغب في صهرها فانكح فتاتهم إن رغبت. ومن صرفوا ذهنهم عن هذه الدقائق في الاستعمال قالوا الفاء زائدة في الخبر. وتقدم زيادة الفاء في قوله تعالى)والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما(في سورة العقود.

صفحة : 2871

وصيغتا)الزانية والزاني(صيغة اسم فاعل وهو هنا مستعمل في أصل معناه وهو اتصاف صاحبه بمعنى مادته فلذلك يعتبر بمنزلة الفعل المضارع في الدلالة على الاتصاف بالحدث في زمن الحال، فكأنه قيل: التي تزني والذي يزني فاجلدوا كل واحد منهما الخ. ويؤيد ذلك الأمر بجلد كل واحد منهما فإن الجلد يترتب على التلبس بسببه.

ثم يجوز أن تكون قصة مرثد بن أبي مرثد النازل فيها قوله تعالى)الزاني لا ينكح إلا الزانية أو مشركة(الخ هي سبب نزول أول هذه السورة. فتكون آية)الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة(هي المقصد الأول من هذه السورة ويكون قوله)الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة(تمهيدا ومقدمة لقوله)الزاني لا ينكح إلا

زانية أو مشركة(فإن تشنيع حال البغايا جدير بأن يقدم قوله ما هو أجدر بالتشريع وهو عقوبة فاعل الزنى. ذلك أن مرثد ما بعثه على الرغبة في تزوج عناق إلا ما عرضته عليه من أن يزني معها.

وقدم ذكر)الزانية(على)الزاني(للاهتمام بالحكم لأن المرأة هي الباعث على زنى الرجل وبمساعفتها الرجل يحصل الزنى ولو منعت المرأة نفسها ما وجد الرجل إلى الزنى تمكينا، فتقديم المرأة في الذكر لأنه أشد في تحذيرها. وقوله)كل واحد منهما(للدلالة على أنه ليس أحدهما بأولى بالعقوبة من الآخر.

وتعريف)الزانية والزاني(تعريف الجنس وهو يفيد الاستغراق غالبا ومقام التشريع يقتضيه، وشأن)أل(الجنسية إذا دخلت على اسم الفاعل أن تبعد الوصف عن مشابهة الفعل فلذلك لا يكون اسم الفاعل معها حقيقة في الحال ولا في غيره وإنما هو تحقق الوصف في صاحبه. وبهذا العموم شمل الإماء والعبيد، ف)الزانية والزاني(من اتصفت بالزنى واتصف بالزنى.

والزنى: اسم مصدر زنى، وهو الجماع بين الرجل والمرأة اللذين لا يحل أحدهما للآخر، يقال: زنى الرجل وزنت المرأة، ويقال: زاني بصيغة المفاعلة لأن الفعل حاصل من فاعلين ولذلك جاء مصدره الزناء بالمد أيضا بوزن الفعال ويخفف همزه فيصير اسما مقصورا. وأكثر ما كان في الجاهلية أن يكون بداعي المحبة والموافقة بين الرجل والمرأة دون عوض، فإن كان بعوض فهو البغاء. يكون في الحرائر ويغلب في الإماء وكانوا يجهرون به فكانت البغايا يجعلن رايات على بيوتهن مثل راية البيطار ليعرفن بذلك. وكل ذلك يشمله اسم الزنى في اصطلاح القرآن وفي الحكم الشرعي. وتقدم ذكر الزنى في قوله تعالى)ولا تقربوا الزنى(في سورة الإسراء.

والجلد: الضرب بسير من جلد. مشتق من الجلد بكسر الجيم لأنه ضرب الجلد. أي البشرة، كما اشتق الجبه، والبطن، والرأس في قولهم جبهه إذا ضرب جبهته، وبطنه إذا ضرب بطنه، ورأسه إذا ضرب رأسه. قال في الكشاف: وفي لفظ الجلد إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحم اه. أي لا يكون الضرب يطير الجلد حتى يظهر اللحم، فاختيار هذا اللفظ دون الضرب مقصود به الإشارة إلى هذا المعنى على طريقة الإدماج.

واتفق فقهاء الأمصار على: أن ضرب الجلد بالسوط. أي بسير من جلد. والسوط: هو ما يضرب به الراكب الفرس وهو جلد مضفور، وأن يكون السوط متوسط اللين، وأن يكون رفع يد الضارب متوسطا. ومحل الجلد هو الظهر عن مالك. وقال الشافعي: تضرب سائر الأعضاء ما عدا الوجه والفرج. وأجمعوا على ترك الضرب على المقاتل، منها الرأس في الحد. روى الطبري أن عبد الله بن عمر

حد جارية أحدثت فقال للجالد: أجلد رجليها وأسفلها، فقال له أبنه عبد الله: فأين قول الله تعالى)ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله(فقال فاقتها. وقوله)كل واحد منهما(تأكيد للعموم المستفاد من التعريف فلم يكتف بأن يقال: فاجلدوهما، كما قال)والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما(. وتذكير كل واحد تغليب للمذكر مثل) وكانت من القانتين(.

والخطاب بالأمر بالجلد موجه إلى المسلمين فيقوم به من يتولى أمور المسلمين من الأمراء والقضاة ولا يتولاه الأولياء وقال مالك والشافعي وأحمد: يقيم السيد على عبده وأمته حد الزنى، وقال أبو حنيفة لا يقيمه إلا الإمام. وقال مالك: لا يقيم السيد حد الزنى على أمته إذا كانت ذات زوج حر أو عبد ولا يقيم الحد عليها إلا ولي الأمر.

صفحة : 2872

وكان أهل الجاهلية لا يعاقبون على الزنى لأنه بالتراضي بين الرجل والمرأة إلا إذا كان للمرأة زوج أو ولي يذب عن عرضه بنفسه كما أشار إليه قول امرئ القيس.

تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا علي
حراصا لو يسرون مقتلي وقول عبد بني الحسحاس:

وهن بنات القوم إن يشعروا بـنـا
يكن في بنات القوم إحدى الدهارس الدهارس: الدواهي. ولم تكن في ذلك عقوبة مقدرة ولكنه حكم السيف أو التصالح على ما يتراضان عليه. وفي الموطإ عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أن رجلين اختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما: يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله. وقال الآخر وهو أفقههما: أجل يا رسول الله فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لي أن أتكلم. فقال: تكلم. فقال: إن ابني كان عسيفا على هذا فزنى بامرأته فأخبروني أن على ابني الرجم فافتديت به بمائة شاة وبجارية لي، ثم إني سألت أهل العلم فأخبروني أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام وأخبروني أنما الرجم على امرأته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، أما غنمك وجاريتك فرد عليك. وجلد ابنه ماءه وغربه عاما وأمر أنيسا الأسلمي أن يأتي امرأة الآخر فإن اعترفت رجمها فاعترفت فرجمها. قال مالك: والعسيف الأجير اه.

فهذا الافتداء أثر مما كانوا عليه في الجاهلية، ثم فرض عقاب الزنى في الإسلام بما في سورة النساء وهو الأذى للرجل الزاني، أي بالعقاب الموجع، وحبس للمرأة الزانية مدة حياتها. وأشارت الآية إلى أن ذلك حكم مجمل بالنسبة للرجل لأن الأذى صالح لأن يبين بالضرب أو بالرجم وهو حكم موقت بالنسبة إلى المرأة بقوله)أو يجعل الله لهن سبيلا(ثم فرض حد الزنى بما في هذه السورة.

ففرض حد الزنى بهذه الآية جلد مائة فعم المحصن وغيره، وخصصته السنة بغير المحصن من الرجال والنساء. فأما من أحصن منهما، أي تزوج بعقد صحيح ووقع الدخول فإن الزاني المحصن حده الرجم بالحجارة حتى يموت. وكان ذلك سنة متواترة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ورجم ماعز ابن مالك. وأجمع على ذلك العلماء وكان ذلك الإجمال أثرا من آثار تواترها.

وقد روى عن عمر أن الرجم كان في القرآن)الثيب والثيبة إذا زنيا فارجموهما البتة(وفي رواية)الشيخ والشيخة(وأنه كان يقرأ ونسخت تلاوته. وفي أحكام ابن الفرس في سورة النساء:)وقد أنكر هذا قوم(. ولم أر من عين الذي أنكروا. وذكر في سورة النور أن الخوارج بأجمعهم يرون هذه الآية على عمومها في المحصن وغيره ولا يرون الرجم ويقولون: ليس في كتاب الله الرجم فلا رجم.

ولا شك في أن القضاء بالرجم وقع بعد نزول سورة النور. وقد سئل عبد الله بن أبي أوفى عن الرجم: أكان قبل سورة النور أو بعدها؟ يريد السائل بذلك أن تكون آية سورة النور منسوخة بحديث الرجم أو العكس، أي أن الرجم منسوخ بالجلد فقال ابن أبي أوفى: لا أدري. وفي رواية أبي هريرة أنه شهد الرجم. وهذا يقتضي أنه كان معمولا به بعد سورة النور لأن أبا هريرة أسلم سنة سبع وسورة النور نزلت سنة أربع أو خمس كما علمت وأجمع العلماء على أن حد الزنى المحصن الرجم.

وقد ثبت بالسنة أيضا تغريب الزاني بعد جلده تغريب سنة كاملة، ولا تغريب على المرأة. وليس التغريب عند أبي حنيفة بمتعين ولكنه لاجتهاد الإمام إن رأى تغريبه لدعارته. وصفة الرجم والجلد وآلهتما مبينة في كتب الفقه ولا يتوقف معنى الآية على ذكرها.

)ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الأخر(عطف على جملة)فاجلدوا(؛ فلما كان الجلد موجعا وكان المباشر له قد يرق على المجلود من وجعه نهي المسلمون أن تأخذهم رأفة بالزانية والزاني فيتركوا الحد أو ينقصوه.

والأخذ: حقيقته الاستيلاء. وهو هنا مستعار لشدة تأثير الرأفة على المخاطبين وامتلاكها إرادتهم بحيث يضعفون عن إقامة الحد فيكون

كقوله)أخذته العزة بالإثم(فهو مستعمل في قوة ملابسة الوصف للموصوف.
و)بهما(يجوز أن يتعلق ب)رأفة(فالباء للمصاحبة لأن معنى الأخذ هنا حدوث الوصف عند مشاهدتهما. ويجوز تعليقه ب)تأخذكم(فتكون الباء للسببية، أي أخذ الرأفة بسببهما أي بسبب جلدهما.

صفحة : 2873

وتقديم المجرور على عامله للاهتمام بذكر الزاني والزانية تنبيها على الاعتناء بإقامة الحد. والنهي عن أن تأخذهم رأفة كناية عن النهي عن أثر ذلك وهو ترك الحد أو نقصه. وأما الرأفة فتقع في النفس بدون اختيار فلا يتعلق بها النهي؛ فعلى المسلم أن يروض نفسه على دفع الرأفة في المواضع المذمومة فيها الرأفة.
والرأفة: رحمة خاصة تنشأ عند مشاهدة ضر بالمرؤوف. وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى)إن الله بالناس لرؤوف رحيم(في سورة البقرة. ويجوز سكون الهمزة وبذلك قرأ الجمهور. ويجوز فتحها وبالفتح قرأ ابن كثير.
وعلق بالرأفة قوله)في دين الله(لإفادة أنها رأفة غير محمودة لأنها تعطل دين الله، أي أحكامه، وإنما شرع الله الحد استصلاحا فكانت الرأفة في إقامته فسادا. وفيه تعريض بأن الله الذي شرع الحد هو أرأف بعباده من بعضهم ببعض. وفي مسند أبي يعلى عن حذيفة مرفوعا: يؤتى بالذي ضرب فوق الحد فيقول الله له: عبدي لم ضربت فوق الحد ؟ فيقول: غضبت لك. فيقول الله: أكان غضبك أشد من غضبي ؟ ويؤتى بالذي قصر فيقول: عبدي لم قصرت ؟ فيقول رحمته. فيقول: أكانت رحمتك أشد من رحمتي. ويؤمر بهما إلى النار وجملة)إن كنتم تؤمنون بالله(شرط محذوف الجواب لدلالة ما قبله عليه، أي إن كنتم مؤمنين فلا تأخذكم بهما رأفة، أي لا تؤثر فيكم رأفة بهما. والمقصود: شدة التحذير من أن يتأثروا بالرأفة بهما بحيث يفرض أنهم لا يؤمنون. وهذا صادر مصدر التلهيب والتهييج حتى يقول السامع: كيف لا أومن بالله واليوم الآخر.
وعطف الإيمان باليوم الآخر على الإيمان بالله للتذكير بأن الرأفة بهما في تعطيل الحد أو نقصه نسيان لليوم الآخر فإن تلك الرأفة تفضي بهما إلى أن يؤخذ منهما العقاب يوم القيامة فهي رأفة ضارة كرأفة ترك الدواء للمريض، فإن الحدود جوابر على ما تؤذن به أدلة الشريعة.

)وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين[2](أمر أن تحضر جماعة من المسلمين إقامة حد الزنا تحقيقا لإقامة الحد وحذرا من التساهل فيه فإن الإخفاء ذريعة للإنساء، فإذا لم يشهده المؤمنين فقد يتساءلوا عن عدم إقامته فإذا تبين لهم إهماله فلا يعدم بينهم من يقوم بتغيير المنكر من تعطيل الحدود.

وفيه فائدة أخرى وهي أن من مقاصد الحدود مع عقوبة الجاني أن يرتدع غيره، وبحضور طائفة من المؤمنين يتعظ به الحاضرون ويزدجرون ويشيع الحديث فيه بنقل الحاضر إلى الغائب.

والطائفة: الجماعة من الناس. وقد تقدم ذكرها عند قوله تعالى) فلتقم طائفة منهم معك(في سورة النساء، وعند قوله)أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا(في آخر الأنعام. وقد اختلف في ضبط عددها هنا. والظاهر أنه عدد تحصل بخبره الاستفاضة وهو يختلف باختلاف الأمكنة. والمشهور عن مالك الاثنان فصاعدا، وقال ابن أبي زيد: أربعة اعتبارا بشهادة الزنا. وقيل عشرة.

وظاهر الأمر يقتضي وجوب حضور طائفة للحد. وحمله الحنفية على الندب وكذلك الشافعية ولم أقف على تصريح بحكمه في المذهب المالكي. ويظهر من إطلاق المفسرين وأصحاب الأحكام من المالكية ومن اختلافهم في أقل ما يجزئ من عدد الطائفة أنه يحمل على الوجوب إذ هو محمل الأمر عند مالك. وأيا ما كان حكمه فهو في الكفاية ولا يطالب به من له بالمحدود مزيد صلة يحزنه أن يشاهد إقامة الحد عليه.

)الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين[3](هذه الآية نزلت مستقلة بأولها ونهايتها كما يأتي قريبا في ذكر سبب نزوله أن سواء كان نزولها قبل الآيات التي افتتحت بها السورة أم كان نزولها بعد تلك الآيات. فهذه الجملة ابتدائية، ومناسبة موقعها بعد الجملة التي قبلها واضحة.

وقد أعضل معناها فتطلب المفسرون وجوها من التأويل وبعض الوجوه ينحل إلى متعدد.

وسبب نزول هذه الآية ما رواه أبو داود وما رواه الترمذي وصححه وحسنه: أنه كان رجل يقال له مرثد ابن أبي مرثد الغنوي من المسلمين كان يخرج من المدينة إلى مكة يحمل الأسرى فيأتي بهم إلى المدينة. وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها: عناق، وكانت خليلة له، وأنه كان وعد رجلا من أسارى مكة ليحمله. قال:

فجئت حتى انتهيت إلى حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة. قال: فجاءت عناق فقالت: مرثد ? قلت: مرثد. قالت: مرحبا وأهلا هلم فبت عندنا الليلة. قال فقلت: حرم الله الزنى. فقالت عناق: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، فتبعني ثمانية من المشركين... إلى أن قال: ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته ففككت كبله حتى قدمت المدينة فأتيت رسول الله فقلت: يا رسول الله أنكح عناق ? فأمسك رسول الله فلم يرد علي شيئا حتى نزلت)الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين(فقال رسول الله: يا مرثد لا تنكحها .

فتبين أن هذه الآية نزلت جوابا عن سؤال مرثد بن أبي مرثد هل يتزوج عناق. ومثار ما يشكل ويعضل من معناها: أن النكاح هنا عقد التزوج كما جزم به المحققون من المفسرين مثل الزجاج والزمخشري وغيرهما. وأنا أرى لفظ النكاح لم يوضع ولم يستعمل إلا في عقد الزواج وما انبثق زعم أنه يطلق على الوطء إلا من تفسير بعض المفسرين قوله تعالى)فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره(بناء على اتفاق الفقهاء على أن مجرد العقد على المرأة بزوج لا يحلها لمن بتها إلا إذا دخل بها الزوج الثاني. وفيه بحث طويل، ليس هذا محله.

وأنه لا تردد في أن هذه الآية نزلت بعد تحريم الزنى إذ كان تحريم الزنى من أول ما شرع من الأحكام في السلام كما في الآيات الكثيرة النازلة بمكة، وحسبك أن الأعشى عد تحريم الزنى في عداد ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من التشريع إذ قال في قصيدته لما جاء مكة بنية الإسلام ومدح النبي صلى الله عليه وسلم فصده أبو جهل فانصرف إلى اليمامة ومات هناك قال:

أجدك لم تسمع وصاة محمـد نبي الإله حين أوصى وأشهدا إلى أن قال.....

ولا تقربن جـارة إن سـرهـا عليك حرام فانكحن أو تأبدا)1(وقد ذكرنا ذلك في تفسير سورة الأسراء. وانه يلوح في بادئ النظر من ظاهر الآية أن صدرها إلى قوله)أو مشرك(إخبار عن حال تزوج امرأة زانية وأنه ليس لتشريع حكم النكاح بين الزناة المسلمين، ولا نكاح بين المشركين. فإذا كان إخبارا لم يستقم معنى الآية إذ الزاني قد ينكح الحصينة والمشرك قد ينكح الحصينة وهو الأكثر فلا يستقيم لقوله تعالى)الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة(معنى، وأيضا الزانية قد ينكحها المسلم العفيف لرغبة في جمالها أو لينقذها من عهر الزنى وما هو بزان ولا مشرك فلا يستقيم معنى لقوله)والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك(. وإننا لو

تنازلنا وقبلنا أن تكون لتشريع حكم فالإشكال أقوى إذ لا معنى لتشريع حكم نكاح الزاني والزانية والمشرك والمشركة فتعين تأويل الآية بما يفيد معنى معتبرا.

والوجه في تأويلها: أن مجموع الآية مقصود منه التشريع دون الإخبار لأن الله تعالى قال في آخرها)وحرم ذلك على المؤمنين(. ولأنها نزلت جوابا عن سؤال مرثد تزويجه عناق وهي زانية ومشركة ومرثد مسلم تقي. غير أن صدر الآية ليس هو المقصود بالتشريع بل هو تمهيد لآخرها مشير إلى تعليل ما شرع في آخرها، وفيه ما يفسر مرجع اسم لإشارة الواقع في قوله)وحرم ذلك(، وأن حكمها عام لمرثد وغيره من المسلمين بحق عموم لفظ)المؤمنين(.

صفحة : 2875

وينبني على هذا التأصيل أن قوله)الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة(تمهيد للحكم المقصود الذي في قوله)وحرم ذلك على المؤمنين(وأنه مسوق مساق الإخبار دون التشريع فيتعين أن المراد من لفظ)الزاني(المعنى الاسمي لاسم الفاعل وهو معنى التلبس بمصدره دون معنى الحدوث؛ إذ يجب أن لا يغفل عن كون اسم الفاعل له شائبتان: شائبة كونه مشتقا من المصدر فهو بذلك بمنزلة الفعل المضارع، فضارب يشبه يضرب في إفادة حصول الحدث من فاعل، وشائبة دلالته على ذات متلبسة بحدث فهو بتلك الشائبة يقوى فيه جانب الأسماء الدالة على الذوات. وحمله في هذه الآية على المعنى الاسمي تقتضيه قرينة السياق إذ لا يفهم أن يكون المعنى أن الذي يحدث الزنى لا يتزوج إلا زانية لانتفاء جدوى تشريع منع حالة من حالات النكاح عن الذي أتى الزنى. وهذا على عكس محمل قوله)الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة(فإنه بالمعنى الوصفي، أي التلبس بإحداث الزنى حسبما حملناه على ذلك آنفا بقرينة سياق ترتب الجلد على الوصف إذ الجلد عقوبة إنما تترتب على إحداث جريمة توجبها.

فتمخض أن يكون المراد من قوله)الزاني لا ينكح إلا زانية(إلخ: من كان الزنى دأبا له قبل الإسلام وتخلق به ثم أسلم وأراد تزوج امرأة ملازمة للزنى مثل البغايا ومتخذات الأخدان)ولا يكن إلا غير مسلمات لا محالة(فنهى الله المسلمين عن تزوج مثلها بقوله) وحرم ذلك على المؤمنين(. وقدم له ما يفيد تشويهه بأنه لا يلائم حال المسلم وإنما هو شأن أهل الزنى، أي غير المؤمنين لأن

المؤمن لا يكون الزنى له دأبا، ولو صدر منه لكان على سبيل الفلتة كما وقع لماعز بن مالك.

فقوله)الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة(تمهيد وليس بتشريع، لأن الزاني بمعنى من الزنى له عادة لا يكون مؤمنا فلا تشرع له أحكام الإسلام.

وهذا من قبيل قوله تعالى)الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات(وهذا يتضمن أن المسلم إذا تزوج زانية فقد وضع نفسه في صف الزناة، أي المشركين.

وعطف قوله)أو مشركة(على)زانية(لزيادة التفظيع فأن الزانية غير المسلمة قد تكون غير مشركة مثل زواني إليهود والنصارى وبغاياهما. وكذلك عطف)أو مشرك(على)إلا زان(لظهور أن المقام ليس بصدد التشريع للمشركات والمشركين أحكام التزوج بينهم إذ ليسوا بمخاطبين بفروع التشريع.

فتمحض من هذا أن المؤمن الصالح لا يتزوج الزانية. ذلك لأن الدربة على الزنى يتكون بها خلق يناسب أحوال الزناة من الرجال والنساء فلا يرغب في معاشرة الزانية إلا من تروق له أخلاق أمثالها، وقد كان المسلمون أيامئذ قريبي عهد بشرك وجاهلية فكان من مهم سياسة الشريعة للمسلمين التباعد بهم عن كل ما يستروح منه أن يذكرهم بما كانوا يألفونه قصد أن تصير أخلاق الإسلام ملكات فيهم فأراد الله أن يبعدهم عما قد يجدد فيهم أخلاقا أوشكوا أن ينسوها.

فموقع هذه الآية موقع المقصود من الكلام بعد المقدمة ولذلك جاءت مستأنفة كما تقع النتائج بعد أدلتها، وقدم قبلها حكم عقوبة الزنى لإفادة حكمه وما يقتضيه ذلك من تشنيع فعله. فلذلك فالمراد بالزاني: من وصف الزنى عادته.

وفي تفسير القرطبي عن عمرو بن العاص ومجاهد: أن هذه الآية خاصة في رجل من المسلمين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في نكاح امرأة يقال لها: أم مهزول، وكانت من بغايا الزانيات وشرطت له أن تنفق عليه ولعل أم مهزول كنية عناق ولعل القصة واحدة إذ لم يرو غيرها. قال الخطابي: هذا خاص بهذه المرأة إذ كانت كافرة فأما الزانية المسلمة فإن العقد عليها لا يفسخ.

وابتدئ في هذه الآية بذكر الزاني قبل ذكر الزانية على عكس ما تقدم في قوله)الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهم مائة جلدة(فإن وجه تقديم الزانية في الآية السابقة هو ما عرفته، فأما هنا فإن سبب نزول هذه الآية كان رغبة رجل في تزوج امرأة

تعودت الزنى فكان المقام مقتضيا الاهتمام بما يترتب على هذا السؤال من مذمة الرجل الذي يتزوج مثل تلك المرأة.
وجملة)وحرم ذلك على المؤمنين(تكميل للمقصود من الجملتين قبلها، وهو تصريح بما أريد من تفظيع نكاح الزانية وببيان الحكم الشرعي في القضية.

صفحة : 2876

والإشارة بقوله)ذلك(إلى المعنى الذي تضمنته الجملتان من قبل وهو نكاح الزانية، أي وحرم نكاح الزانية على المؤمنين، فلذلك عطفت جملة)وحرم ذلك على المؤمنين(لأنها أفادت تكميلا لما قبلها وشأن التكميل أن يكون بطريق العطف. ومن العلماء من حمل الآية على ظاهرها من التحريم وقالوا: هذا حكم منسوخ نسختها الآية بعدها)وأنكحوا الأيامى منكم(فدخلت الزانية في الأيامي، أي بعد أن استقر الإسلام وذهب الخوف على المسلمين من أن تعاودهم أخلاق أهل الجاهلية.
وروي هذا عن سعيد بن المسيب وعن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عمر، وبه أخذ مالك وأبو حنيفة والشافعي، ولم يؤثر أن أحدا تزوج زانية فيما بين نزول هذه الآية ونزول ناسخها، ولا أنه فسخ نكاح مسلم امرأة زانية. ومقتضى التحريم الفساد وهو يقتضي الفسخ. وقال الخطابي: هذا خاص بهذه المرأة إذ كانت كافرة فأما الزانية المسلمة فإن العقد عليها لا يفسخ. ومنهم من رأى حكمها مستمرا. ونسب الفخر القول باستمرار حكم التحريم إلى أبي بكر وعمر وعلي وابن مسعود وعائشة رضي الله عنهم ونسبه غيره إلى التابعين ولم يأخذ به فقهاء الأمصار من بعد.
)والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون[4] إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم[5](كان فاشيا في الجاهلية رمي بعضهم بعضا بالزنى إذا رأوا بين النساء والرجال تعارفا أو محادثة.
وكان فاشيا فيهم الطعن في الأنساب بهتانا إذا رأوا قلة شبه بين الأب والابن، فكان مما يقترن بحكم حد الزنى أن يذيل بحكم الذين يرمون المحصنات بالزنا إذا كانوا غير أزواجهن وهو حد القذف. وقد تقدم وجه الاقتران بالفاء في قوله)الزانية والزاني فاجلدوا(الآية.
والرمي حقيقته: قذف شيء من اليد. وشاع استعماله في نسبة فعل أو وصف إلى شخص. وتقدم في قوله تعالى)ثم يرم به

بريئا(في سورة النساء. وحذف المرمي به في هذه الآية لظهور المقصود بقرينة السياق وذكر المحصنات.

والمحصنات: هن المتزوجات من الحرائر. والإحصان: الدخول بزوج بعقد النكاح. والمحصن: اسم مفعول من أحصن الشيء إذا منعه من الإضاعة واستيلاء الغير عليه، فالزوج يحصن امرأته، أي يمنعها من الإهمال واعتداء الرجال. وهذا كتسمية الأبكار مخدرات ومقصورات، وتقدم في سورة النساء. ولا يطلق وصف)المحصنات(إلا على الحرائر المتزوجات دون الإماء لعدم صيانتهن في عرف الناس قبل الإسلام.

وحذف متعلق الشهادة لظهور أنهم شهداء على إثبات ما رمى به القاذف، أي إثبات وقوع الزنى بحقيقته المعتد بها شرعا، ومن البين أن الشهداء الأربعة هم غير القاذف لأن معنى)يأتوا بأربعة شهداء(لا يتحقق فيما إذا كان القاذف من جملة الشهداء. والجلد تقدم آنفا. وشرع هذا الجلد عقابا للرامي بالكذب أو بدون تثبت ولسد ذريعة ذلك.

وأسند فعل)يرمون(إلى اسم الموصول المذكر وضمائر) تابوا(وأصلحوا(وكذلك وصف)الفاسقون(بصيغ التذكير. وعدي فعل الرمي إلى مفعول بصيغة الإناث كل ذلك بناء على الغالب أو على مراعاة قصة كانت سبب نزول الآية ولكن هذا الحكم في الجميع يشمل ضد أهل هذه الصيغة في مواقعها كلها بطريق القياس. ولا اعتداد بما يتوهم من فارق إلصاق المعرة بالمرأة إذا رميت بالزنى دون الرجل يرمى بالزنى لأن جعل العار على المرأة تزني دون الرجل يزني إنما هو عادة جاهلية لا التفات إليها في الإسلام فقد سوى الإسلام التحريم والحد والعقاب الآجل والذم العاجل بين المرأة والرجل.

وقد يعد اعتداء الرجل بزناه أشد من اعتداء المرأة بزناها لأن الرجل الزاني يضيع نسب نسله فهو جان على نفسه، وأما المرأة فولدها لاحق بها لا محالة فلا جناية على نفسها في شأنه، وهما مستويان في الجناية على الولد بإضاعة نسبه فهذا الفارق الموهوم ملغى في القياس.

أما عدم قبول شهادة القاذف في المستقبل فلأنه لما قذف بدون إثبات قد دل على تساهله في الشهادة فكان حقيقا بأن لا يؤخذ بشهادته.

والأبد: الزمن المستقبل كله.

واسم الإشارة للإعلان بفسقهم ليتميزوا في هذه الصفة الذميمة.

والحصر في قوله)وأولئك هم الفاسقون(للمبالغة في شناعة فسقهم حتى كأن ماعداه من الفسوق لا يعد فسقا.
والاستثناء في قوله)إلا الذين تابوا(حقه أن يعود إلى جميع ما تقدم قبله كما هو شأن الاستثناء عند الجمهور إلا أنه هنا راجع إلى خصوص عدم قبول شهادتهم وإثبات فسقهم وغير راجع إلى إقامة الحد، بقرينة قوله)من بعد ذلك(، أي بعد أن تحققت الأحكام الثلاثة فالحد قد فات على أنه قد علم من استقراء الشريعة أن الحدود الشرعية لا تسقطها توبة مقترف موجبها. وقال أبو حنيفة وجماعة: الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة جريا على أصله في عود الاستثناء الوارد بعد جمل متعاطفة.
والتوبة: الإقلاع والندم وظهور عزمه على أن لا يعود لمثل ذلك. وقد تقدم ذكر التوبة في ذكر النساء عند قوله تعالى)إنما التوبة على الله(الآيات. وليس من شرط التوبة ان يكذب نفسه فيما قذف به عند الجمهور، وهو قول مالك، لأنه قد يكون صادقا ولكنه عجز عن إثبات ذلك بأربعة شهداء على الصفة المعلومة، فتوبته أن يصلح ويحسن حاله ويثبت في أمره. وقال قوم: لا تعتبر توبته حتى يكذب نفسه. وهذا قول عمر بن الخطاب والشعبي، ولم يقبل عمر شهادة أبي بكرة لأنه أبى أن يكذب نفسه فيما رمى به المغيرة ابن شعبة. وقبل من بعد شهادة شبل بن معبد ونافع بن كلدة لأنهما أكذبا أنفسهما في تلك القضية وكان عمر قد حد ثلاثتهم حد القذف.
ومعنى)أصلحوا(فعلوا الصلاح، أي صاروا صالحين. فمفعول الفعل محذوف دل عليه السياق، أي اصلحوا أنفسهم باجتناب ما نهوا عنه، وقد تقدم عند قوله تعالى)قالوا إنما نحن مصلحون(وقوله)إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا(في سورة البقرة.
وفرع)فإن الله غفور رحيم(على ما يقتضيه الاستثناء من معنى: فاقبلوا شهادتهم واغفروا لهم ما سلف فأن الله غفور رحيم، أي فإن الله أمر بالمغفرة لهم لأنه غفور رحيم، كما قال في آية البقرة)إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم(.
وإنما صرح في آية البقرة بما قدر نظيره هنا لأن المقام هنالك مقام إطناب لشدة الاهتمام بأمرهم إذ ثابوا إلى الإيمان والإصلاح وبيان ما أنزل إليهم من الهدى بعد ما كتموه وكتمه سلفهم.
وظاهر الآية يقتضي أن حد القذف حق لله تعالى، وهو قول أبي حنيفة. وقال مالك والشافعي: حق المقذوف. وترتب على الخلاف سقوطه بالعفو من المقذوف.

وهذه الآية أصل في حد الفرية والقذف الذي كانوا اول ظهوره في رمي المحصنات بالزنى. فكل رمي بما فيه معرة موجب للحد بالإجماع المستند للقياس.
)والذين يرمون أزوجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين[6] والخامسة أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين[7] ويدرؤا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادت بالله إنه لمن الكاذبين[8] والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين[9](هذا تخصيص للعمومين اللذين في قوله) والذين يرمون المحصنات(فإن من المحصنات من هن أزواج لمن يرميهن، فخص هؤلاء الذين يرمون أزواجهم من حكم قوله)والذين يرمون المحصنات(الخ إذ عذر الأزواج خاصة في إقدامهم على القول في أزواجهم بالزنى إذا لم يستطيعوا إثباته بأربعة شهداء.
ووجه عذرهم في ذلك ما في نفوس الناس من سجية الغيرة على أزواجهم وعدم احتمال رؤية الزنى بهن فدفع عنهم حد القذف بما شرع لهم من الملاعنة.
وفي هذا الحكم قبول لقول الزوج في امرأته في الجملة إذا كان متثبتا حتى ان المرأة بعد أيمان زوجها تكلف بدفع ذلك بأيمانها وإلا قبل قوله فيها مع أيمانه فكان بمنزلة شهادة أربعة فكان موجبا حدها إذا لم تدفع ذلك بأيمانها.

صفحة : 2878

وعلة ذلك هو أن في نفوس الأزواج وازعا يزعهم عن أن يرموا نساءهم بالفاحشة كذبا وهو وازع التعيير من ذلك ووازع المحبة في الأزواج غالبا، ولذلك سمى الله ادعاء الزوج عليها باسم الشهادة بظاهرة الاستثناء في قوله)ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم(. وفي نفوسهم من الغيرة عليهن ما لا يحتمل معه السكوت على ذلك، وكانوا في الجاهلية يقتلون على ذلك وكان الرجل مصدقا فيما يدعيه على امرأته. وقد قال سعد بن عبادة لو وجدت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح . ولكن الغيرة قد تكون مفرطة وقد يذكيها في النفوس تنافس الرجال في أن يشتهروا بها، فمنع الإسلام من ذلك إذ ليس من حق أحد إتلاف نفس إلا الحاكم. ولم يقرر جعل أرواح الزوجات تحت تصرف مختلف نفسيات أزواجهن.
ولما تقرر حد القذف اشتد الأمر على الأزواج الذين يعثرون على ريبة في أزواجهم. ونزلت قضية عويمر العجلاني مع زوجه خولة بنت عاصم ويقال بنت قيس وكلاهما من بني عم عاصم بن عدي من

الأنصار. روى مالك في الموطأ عن سهل بن سعد أن عويمرا العجلاني جاء إلى عاصم بن عدي الأنصاري فقال له: يا عاصم أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل ? سل لي يا عاصم رسول الله عن ذلك. فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فكره رسول الله المسائل وعابها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله. فلما رجع عاصم إلى أهله جاءه عويمر فقال: يا عاصم ماذا قال لك رسول الله ? فقال عاصم لعويمر: لم تأتني بخير، قد كره رسول الله المسألة التي سألته عنها. فقال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأله عنها. فقام عويمر حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط الناس فقال: يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل ? فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد أنزل فيك وفي صاحبتك فاذهب فأت بها. قال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث. فكانت هذه الآية مبدأ شرع الحكم في رمي الأزواج نساءهم بالزنى. واختلط صاحب القصة على بعض الرواة فسموه هلال بن أميه الواقفي. وزيد في القصة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له البينة وإلا حد في ظهرك . والصواب أن سبب نزول الآية قصة عويمر العجلاني وكانت هذه الحادثة في شعبان سنة تسع عقب القفول من غزوة تبوك والتحقيق أنهما قصتان حدثتا في وقت واحد أو متقارب.

ولما سمع النبي صلى الله عليه وسلم قول سعد بن عبادة عند نزول آية القذف السالفة قال:)أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني(يعني أنها غير معتدلة الآثار لأنه جعل من آثارها أن يقتل من يجده مع امرأته والله ورسوله لما يأذنا بذلك، فأن الله ورسوله أغير من سعد، ولم يجعلا للزوج الذي يرى زوجته تزني أن يقتل الزاني ولا المرأة وذلك قال عويمر العجلاني من وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل? .

وحذف متعلق)شهداء(لظهوره من السياق، أي شهداء على ما ادعوه مما رموا به أزواجهم.

وشمل قوله)إلا أنفسهم(ما لا تتأتى فيه الشهادة مثل الرمي بنفي حمل منه ادعى قبله الزوج الاستبراء.

وقد علم من أحاديث سبب نزول الآية ومن على تخصيص الأزواج في حكم القذف بحكم خاص ومن لفظ)يرمون(ومن ذكر الشهداء

أن اللعان رخصة من الله بها على الأزواج في أحوال الضرورة فلا تتعداها. فلذلك قال مالك في المشهور عنه وآخر قوليه وجماعة: لا يلاعن بين الزوجين إلى إذا ادعى الزوج رؤية امرأته تزني أو نفى حملها نفيا مستندا إلى حدوث الحمل بعد تحقق براءة رحم زوجه وعدم قربانه إياها، فإن لم يكن كذلك ورماها بالزنى، أي بمجرد السماع أو برؤية رجل في البيت في غير حال الزنى، أو بقوله لها: يا زانية، أو نحو ذلك مما يجري مجرى السب والشتم فلا يشرع اللعان. ويحد الزوج في هذه الأحوال حد القذف لأنه افتراء لا بينة عليه ولا عذر يقتضي تخصيصه إذ العذر هو عدم تحمل رؤية امرأته تزني وعدم تحمل رؤية حمل يتحقق أنه ليس منه. وقال أبو حنيفة والشافعي والجمهور: إذا قال تحمل لها: يا زانية، وجب اللعان، ذهابا منه إلى أن اللعان بين الزوجين يجري في مجرد القذف أيضا تمسكا بمطلق لفظ)يرمون(. ويقدح في قياسهم أن بين دعوى الزنى على المرأة وبين السب بألفاظ فيها نسبة إلى الزنا فرقا بينا عند الفقيه. وتسمية القرآن أيمان اللعان شهادة يومئ إلى أنها لرد دعوى وشرط ترتب الآثار على الدعوى أن تكون محققة فقول مالك أرجح من قول الجمهور لأنه أغوص على الحقيقة الشرعية.

وقوله)فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله(الخ لما تعذر على الأزواج إلفاء الشهادة في مثل هذا الحال وعذرهم الله في الادعاء بذلك ولم يترك الأمر سبهللا ولا ترك النساء مضغة في أفواه من يريدون التشهير بهن من أزواجهن لشقاق أو غيظ مفرط أو حماقة كلف الأزواج شهادة لا تعسر عليهم أن كانوا صادقين فيما يدعون فأوجب عليهم الحلف بالله أربع مرات لتقوم الأيمان مقام الشهود الأربعة المفروضين للزنا في قوله تعالى)والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء(الخ.

وسمي اليمين شهادة لأنه بدل منها فهو مجاز بعلاقة الحلول الاعتباري، وأن صيغة الشهادة تستعمل في الحلف كثير وهنا جعلت بدلا من الشهادة فكأن المدعي أخرج من نفسه أربعة شهود على تلك الأيمان الأربع.

ومعنى كون الأيمان بدلا من الشهادة أنه قائمة مقامها للعذر الذي ذكرناه آنفا، فلا تأخذ جميع أحكام الشهادة، ولا يتوهم أن لا تقبل أيمان اللعان إلا من عدل فلو كان فاسقا لم يلتعن ولم يحد حد القذف بل كل من صحت يمينه صح لعانه وهذا قول مالللك والشافعي، واشترط أبو حنيفة الحرية وحجته في ذلك إلحاق اللعان بالشهادة لأن الله سماه شهادة.

ولأجل المحافظة على هذه البدلية اشترط أن تكون أيمان اللعان بصيغة:)أشهد بالله(عند الأئمة الأربعة. وأما ما بعد صيغة)

أشهد(فيكون كاليمين على حسب الدعوى التي حلف عليها بلفظ لا احتمال فيه.
وقوله)فشهادة أحدهم أربع شهادات(قرأه الجمهور بنصب)
أربع(على أنه مفعول مطلق ل)شهادة(فيكون)شهادة
أحدهم(محذوف الخبر دل عليه معنى الشرطية الذي في الموصول واقتران الفاء بخبره، والتقدير: فشهادة أحدهم لازمة له. ويجوز ان يكون الخبر قوله)إنه لمن الصادقين(على حكاية اللفظ مثل قولهم هجيرا أبي بكر لا إله إلا الله . وقرأه حمزة(والكسائي وحفص وخلف برفع)أربع(على انه خبر المبتدإ وجملة)إنه لمن الصادقين(إلى آخرها بدل من)شهادة أحدهم(. ولا خلاف بين القراء في نصب)أربع شهادات(الثاني.
وفي قوله)أنه لمن الصادقين(حكاية للفظ اليمين مع كون الضمير مراعى فيه سياق الغيبة، أي يقول: أني لمن الصادقين فيما ادعيت عليها.
وأما قوله)والخامسة(أي فالشهادة الخامسة، أي المكملة عدد خمس للأربع التي قبلها. وأنث اسم العدد لأنه صفه لمحذوف دل عليه قوله)فشهادة أحدهم(. والتقدير: والشهادة الخامسة. وليس لها مقابل في عدد شهود الزنى. فلعل حكمة زيادة هذه اليمين مع الأيمان الأربع القائمة مقام الشهود الأربعة انها لتقوية الأيمان الأربع باستذكار ما يترتب على أيمانه أن كانت غموسا من الحرمان مرحمة الله تعالى. وهذا هو وجه كونها مخالفة في صيغتها لصيغ الشهادات الأربع التي تقدمتها. وفي ذلك إيماء إلى أن الأربع هي المجعولة بدلا عن الشهود وأن هذه الخامسة تذييل للشهادة وتغليظ لها.

صفحة : 2880

وقرأ الجمهور)والخامسة أن غضب الله عليها(بالرفع كقوله)
والخامسة أن لعنة الله عليه(وهو من عطف الجمل. وقراه حفص عن عاصم بالنصب عطفا على)أربع شهادات(الثاني وهو من عطف المفردات.
وقرأ الجمهور)أن لعنة الله عليه( )وأن غضب الله عليه(بتشديد نون)أن(وبلفظ المصدر فيه)أن غضب الله(وجر اسم الجلالة بإضافة)غضب(إليه. ويتعين على هذه القراءة أن تقدر باء الجر داخلة على)أن(في الموضعين متعلقة)بالخامسة(لأنها صفة لموصوف تقديره: والشهادة الخامسة، ليتجه فتح همزة)أن(فيهما.

والمعنى: أن يشهد الرجل أو تشهد المرأة بإن لعنة الله أو بأن غضب الله أي بما يطابق هذه الجملة.
وقرأ نافع بتخفيف نون)أن(في الموضعين و)غضب الله(بصيغة فعل المضي، ورفع اسم الجلالة الذي بعد)غضب(. وخرجت قراءته على جعل)أن(مخففة من الثقلية مهملة العمل واسمها ضمير الشأن محذوف أي تهويلا لشأن الشهادة الخامسة. ورد بما تقرر من عدم خلو جملة خبر)أن(المخففة من أحد أربعة أشياء: قد، وحرف النفي، وحرف التنفيس، ولولا. والذي أرى أن تجعل)أن(على قرأه نافع تفسيرية لأن الخامسة يمين ففيها معنى القول دون حروفه فيناسبها التفسير.
وقرأ يعقوب)أن لعنة الله(بتخفيف)أن(ورفع)لعنة(وجر اسم الجلالة مثل قرآءة نافع. وقرأ وحده)أن غضب الله عليها(بتخفيف) أن(وفتح ضاد)غضب(ورفع الباء على أنه مصدر ويجر اسم الجلالة بالإضافة.
وعلى كل القراءات لا يذكر المتلاعنان في الخامسة من يمين اللعان لفظ)أن(فإنه لم يرد في وصف أيمان اللعان في كتب الفقه وكتب السنة.
والقول في صيغة الخامسة مثل القول في صيغ الأيمان الأربع. وعين له في الدعاء خصوص اللعنة لأنه وإن كان كاذبا فقد عرض بامرأته للعنة الناس ونبذ الأزواج إياها فناسب أن يكون جزاؤه اللعنة.
واللعنة واللعن: الإبعاد بتحقير. وقد تقدم في قوله)وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين(في سورة الحجر.
واعلم أن الزوج إن سمى رجلا معينا زنى بامرأته صار قاذفا له زيادة على قذفه المرأة، وأنه إذا لاعن وأتم اللعان سقط عنه حد القذف للمرأة وهو ظاهر ويبقى النظر في قذفه ذلك الرجل الذي نسب إليه الزنى. وقد اختلف الأئمة في سقوط حد القذف للرجل فقال الشافعي: يسقط عنه حد القذف للرجل لأن الله تعالى لم يذكر إلا حدا واحدا ولأنه لم يثبت في بالسنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام حد الفرية على عويمر العجلاني ولا على هلال أبن أميه بعد اللعان. وقال مالك و أبو حنيفة: يسقط اللعان حد الملاعن لقذف امرأته ولا يسقط حد القذف لرجل سماه، والحجة لهما بأن الله شرع حد القذف.
ولما كانت هذه الأيمان مقتضية صدق دعوى الزوج على المرأة كان من أثر ذلك أن تعتبر المرأة زانية أو أن يكون حملها ليس منه فهو من زنى لأنها في عصمة فكان ذلك مقتضيا أن يقام عليها حد الزنى، فلم تهمل الشريعة حق المرأة ولم تجعلها مأخوذة بأيمان

قد يكون حاذفها كاذبا فيها لأنه يتهم بالكذب لتبرئة نفسه فجعل للزوجة معارضة أيمان زوجها كما جعل للمشهود عليه الطعن في الشهادة بالتجريح أو المعارضة فقال تعالى)ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله(الآية. وإذ قد كانت أيمان المرأة لرد أيمان الرجل، وكانت أيمان الرجل بدلا من الشهادة وسميت شهادة، كانت أيمان المرأة لردها يناسب أن تسمى شهادة، ولأنها كالشهادة المعارضة، ولكونها بمنزلة المعارضة كانت أيمان المرأة كلها على إبطال دعواه لا على إثبات براءتها أو صدقها.

والدرء: الدفع بقوة، واستعير هنا للإبطال. وتقدم عند قوله تعالى) ويدرؤون بالحسنة السيئة(في سورة الرعد.

والتعريف في)العذاب(ظاهر في العهد لتقدم ذكر العذاب في قوله)وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين(. فيؤخذ من الآية أن المرأة إذا لم تحلف أيمان اللعان أقيم عليها الحد. وهذا هو الذي تشهد به روايات حديث اللعان في السنة. وقال أبو حنيفة: إذا نكلت المرأة عن أيمان اللعان لم تحد لأن الحد عنده لا يكون إلا بشهادة شهود أو إقرار. فعنده يرجع بها إلى حكم الحبس المنسوخ عندنا، وعنده إنما نسخ في بعض الأحوال وبقي في البعض.

صفحة : 2881

والقول في صيغة أيمان المرأة كالقول في صيغة أيمان الزواج سواء. وعين لها في الخامسة الدعاء بغضب الله عليها إن صدق زوجها لأنها أغضبت زوجها بفعلها فناسب أن يكون جزاؤها على ذلك غضب ربها عليها كما أغضبت بعلها.

وتتفرع من أحكام اللعان فروع كثيرة يتعرض بعض المفسرين لبعضها وهي من موضوع كتب الفروع.

)ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم[10](تذييل لما مر من الأحكام العظيمة المشتملة على التفضل من الله والرحمة منه، والمؤذنه بأنه تواب على من تاب من عباده، والمنبئة بكمال حكمته تعالى إذ وضع الشدة موضعها والرفق موضعه وكف بعض الناس عن بعض فلما دخلت تلك الأحكام تحت كلي هذه الصفات كان ذكر الصفات تذييلا.

وجواب)لولا(محذوف لقصد تهويل مضمونه فيدل تهويله على تفخيم مضمون الشرط الذي كان سببا في امتناع حصوله. والتقدير: لولا فضل الله عليكم فدفع عنكم أذى بعضكم لبعض بما شرع من الزواجر لتكالب بعضكم على بعض، ولولا رحمة الله بكم فقدر لكم

تخفيضا مما شرع من الزواجر في حالة الاضطرار والعذر لما استطاع أحد أن يسكت على ما يرى من مثار الغيرة، فإذا باح بذلك أخذ بعقاب وإذا انتصف لنفسه أهلك بعضا أو سكت على ما لا على مثله يغضى، ولولا أن الله تواب حكيم لما رد على من تاب فأصلح ما سلبه منه من العدالة وقبول الشهادة.

وفي ذكر وصف)الحكيم(هنا مع وصف)تواب(إشارة إلى أن في هذه التوبة حكمة وهي استصلاح الناس.

وحذف جواب)لولا(للتفخيم والتعظيم وحذفه طريقة لأهل البلاغة، وقد تكرر في هذه السورة وهو مثل حذف جواب)لو(، وتقدم حذف جواب)لو(عند قوله تعالى)ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب(في سورة البقرة. وجواب)لولا(لم يحضرني الآن شاهد لحذفه وقد قال بعض الأئمة: إن)لولا(مركبة من)لو(و)لا(.

)إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم[11](استئناف ابتدائي فإن هذه الآيات العشر إلى قوله تعالى:)والله سميع عليم(نزلت في زمن بعيد عن زمن نزول الآيات التي من أول هذه السورة كما ستعرفه.

والإفك: اسم يدل على كذب لا شبهة فيه فهو بهتان يفجأ الناس. وهو مشتق من الأفك بفتح الهمزة وهو قلب الشيء، ومنه سمي أهل سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم قرى قوم لوط أصحاب المؤتفكة لأن قراهم ائتفكت، أي قلبت وخسف بها فصار أعلاها أسفلها فكان الإخبار عن الشيء بخلاف حالته الواقعية قلبا له عن حقيقته فسمي إفكا. وتقدم عند قوله تعالى)فإذا هي تلقف ما يأفكون(في سورة الأعراف.

و)جاءوا بالإفك(معناه: قصدوا واهتموا. وأصله: أن الذي يخبر بخبر غريب يقال له: جاء بخبر كذا، ولأن شأن الأخبار الغريبة أن تكون مع الوافدين من أسفار أو المبتعدين عن الحي قال تعالى)إن جاءكم فاسق بنبإ(؛ فشبه الخبر بقدوم المسافر أو الوافد على وجه المكنية وجعل المجيء ترشيحا وعدي بباء المصاحبة تكميلا للترشح.

صفحة : 2882

والإفك: حديث اختلقه المنافقون وراج عند المنافقين ونفر من سذج المسلمين إما لمجرد اتباع النعيق وإما لإحداث الفتنة بين المسلمين. وحاصل هذا الخبر: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قفل من غزوة بني المصطلق من خزاعة، وتسمى غزوة المريسيع

ولم تبق بينه وبين المدينة إلا مرحلة، آذن بالرحيل آخر الليل. فلما علمت عائشة بذلك خرجت من هودجها وابتعدت عن الجيش لقضاء شأنها كما هو شأن النساء قبل الترحل فلما فرغت أقبلت إلى رحلها فافتقدت عقدا من جزع ظفار كان في صدرها فرجعت على طريقها تلتمسه فحبسها طلبه وكان ليل. فلما وجدته رجعت إلى حيث وضع رحلها فلم تجد الجيش ولا رحلها، وذلك أن الرجال الموكلين بالترحل قصدوا الهودج فاحتملوه وهم يحسبون أن عائشة فيه وكانت خفيفة قليلة اللحم فرفعوا الهودج وساروا فلما لم تجد أحدا اضطجعت في مكانها رجاء أن يفتقدوها فيرجعوا إليها فنامت وكان صفوان بن المعطل)بكسر الطاء(السلمي)بضم السين وفتح اللام نسبة إلى بني سليم وكان مستوطنا المدينة من مهاجرة العرب(قد أوكل إليه النبي صلى الله عليه وسلم حراسة ساقة الجيش، فلما علم بابتعاد الجيش وأمن عليه من غدر العدو ركب راحلته ليلتحق بالجيش فلما بلغ الموضع الذي كان به الجيش بصر بسواد إنسان فإذا هي عائشة وكان قد رآها قبل الحجاب فاسترجع، واستيقظت عائشة بصوت استرجاعة ونزل عن ناقته وأدناها منها وأناخها فركبتها عائشة وأخذ يقودها حتى لحق بالجيش في نحر الظهيرة وكان عبد الله ابن أبي بن سلول رأس المنافقين في الجيش فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، فراج قوله على حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة بكسر ميم مسطح وفتح طائه وضم همزة أثاثة وحمنة بنت جحش أخت زينب أم المؤمنين حملتها الغيرة لأختها ضرة عايشة وساعدهم في حديثهم طائفة من المنافقين أصحاب عبد الله بن أبي.

فالإفك: علم بالغلبة على ما في هذه القصة من الاختلاق.

والعصبة: الجماعة من عشرة إلى أربعين كذا قال جمهور أهل اللغة. وقيل العصبة: الجماعة من الثلاثة إلى العشرة وروي عن ابن عباس. وقيل في مصحف حفصة)عصبة أربعة منكم(. وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه، ويقال: عصابة. وقد تقدم في أول سورة يوسف.

و)عصبة(بدل من ضمير)جاءوا(.

وجملة)لا تحسبوه شرا لكم(خبر)إن(والمعنى: لا تحسبوا إفكهم شرا لكم، لأن الضمير المنصوب من)تحسبوه(لما عاد إلى الإفك وكان الإفك متعلقا بفعل)جاءوا(صار الضمير في قوة المعرف بلام العهد. فالتقدير: لا تحسبوا الإفك المذكور شرا لكم. ويجوز أن يكون خبر)إن(قوله)لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم(وتكون جملة)لا تحسبوه(معترضة.

ويجوز جعل)عصبة(خبر)إن(ويكون الكلام مستعملا في التعجيب من فعلهم مع انهم عصبة من القوم أشد نكرا، كما قال طرفة:
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند وذكر)عصبة(تحقير لهم ولقولهم، أي لا يعبأ بقولهم في جانب تزكية جميع الأمة لمن رموهما بالإفك. ووصف العصبة بكونهم)منكم(يدل على أنهم من المسلمين، وفي ذلك تعريض بهم بأنهم حادوا عن خلق الإسلام حيث تصدوا لأذى المسلمين.
وقوله)لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم(لإزالة ما حصل في نفوس المؤمنين من الأسف من اجتراء عصبة على هذا البهتان الذي اشتملت عليه القصة فضمير)تحسبوه(عائد إلى الإفك.
والشر المحسوب: أنه أحدث في نفر معصية الكذب والقذف والمؤمنون يودون أن تكون جماعتهم خالصة من النقائض)فإنهم أهل المدينة الفاضلة(. فلما حدث فيهم الاضطراب حسبوه شرا نزل بهم.
ومعنى نفي أن يكون ذلك شرا لهم لأنه يضيرهم بأكثر من ذلك الأسف الزائل وهو دون الشر لأنه آيل إلى توبة المؤمنين منهم فيتمخض إثمه للمنافقين وهم جماعة أخرى لا يضر ضلالهم المسلمين.

صفحة : 2883

وقال أبو بكر ابن العربي: حقيقة الخير ما زاد نفعه على ضره وحقيقة الشر ما زاد ضره على نفعه، وأن خيرا لا شر فيه هو الجنة وشرا لا خير فيه هو جهنم. فنبه الله عائشة ومن ماثلها ممن ناله هم من هذا الحديث أنه ما أصابهم منه شر بل هو خير على ما وضع الله الشر والخير عليه في هذه الدنيا من المقابلة بين الضر والنفع ورجحان النفع في جانب الخير ورجحان الضر في جانب الشر اه. وتقدم ذكر الخير عند قوله تعالى)أينما يوجهه لا يأت بخير(في سورة النحل.
وبعد إزالة خاطر أن يكون ذلك شرا للمؤمنين أثبتت أنه خير لهم فأتى بالإضراب لإبطال أن يحسبوه شرا، وإثبات انه خير لهم لأن فيه منافع كثيرة؛ إذ يميز به المؤمنون الخلص من المنافقين، وتشرع لهم بسببه أحكام تردع أهل الفسق عن فسقهم، وتتبين منه براءة فضلائهم، ويزداد المنافقون غيظا ويصبحون محقرين مذمومين، ولا يفرحون بظنهم حزن المسلمين، فإنهم لما اختلقوا هذا الخبر ما أرادوا إلا أذى المسلمين، وتجيء منه معجزات بنزول هذه الآيات

بالإنباء بالغيب. قال في الكشاف:... وفوائد دينية وآداب لا تخفى على متأملها اه.
وعدل أن يعطف)خيرا(على)شرا(بحرف)بل(فيقال: بل خيرا لكم، إيثارا للجملة الاسمية الدالة على الثبات والدوام.
والإثم: الذنب وتقدم عند قوله تعالى)قل فيهما إثم كبير(في سورة البقرة وعند قوله)وذروا ظاهر الإثم وباطنه(في سورة الأنعام.
وتولي الأمر: مباشرة عمله والتهمم به.
)والكبر(بكسر الكاف في قراءة الجمهور، ويجوز ضم الكاف.وقرأ به يعقوب وحده، ومعناه: أشد الشيء ومعظمه، فهما لغتان عند جمهور أئمة اللغة. وقال ابن جني والزجاج: المكسور بمعنى الإثم، والمضموم: معظم الشيء.)والذي تولى كبره(هو عبد الله بن أبي سلول وهو منافق وليس من المسلمين.
وضمير)منهم(عائد إلى)الذين جاءوا بالإفك(. وقيل: الذي تولى كبره حسان بن ثابت لما وقع في صحيح البخاري:)عن مسروق قال: دخل حسان على عائشة فأنشد عندها أبياتا منها:
حصان رزان ما تـزن بـريبة وتصبح
غرثي من لحوم الغوافل فقالت له عائشة: لكن أنت لست كذلك.
قال مسروق فقلت: تدعين مثل هذا يدخل عليك وقد أنزل الله تعالى:)والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم(فقالت: أي عذاب أشد من العمى.
والوعيد بأن له عذابا عظيما يقتضي أنه عبد الله بن أبي سلول. وفيه إنباء بأنه يموت على الكفر فيعذب العذاب العظيم في الآخرة وهو عذاب الدرك الأسفل من النار، وأما بقية العصبة فلهم من الإثم بمقدار ذنبهم. وفيه إيماء بأذن الله يتوب عليهم إن تابوا كما هو الشأن في هذا الدين.
)لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين[12](استئناف لتوبيخ عصبة الإفك من المؤمنين وتعنيفهم بعد أن سماه إفكا.
و)لولا(هنا حرف بمعنى)هلا(للتوبيخ كما هو شأنها إذا وليها الفعل الماضي وهو هنا)ظن المؤمنون(. وأما)إذ سمعتموه(فهو ظرف متعلق بفعل الظن فقدم عليه ومحل التوبيخ جملة)ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا(فأسند السماع إلى جميع المخاطبين وخص بالتوبيخ من سمعوا ولم يكذبوا الخبر.
وجرى الكلام على الإبهام في التوبيخ بطريقة التعبير بصيغة الجمع وإن كان المقصود دون عدد الجمع فإن من لم يظن خيرا رجلان،

فعبر عنهما بالمؤمنين وامرأة فعبر عنها بالمؤمنات على حد قوله) الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم(.
وقوله)بأنفسهم خيرا(وقع في مقابلة)ظن المؤمنون والمؤمنات(فيقتضي التوزيع، أي ظن كل واحد منهم بالآخرين ممن رموا بالإفك خيرا إذ لا يظن المرء بنفسه.
وهذا كقوله تعالى)ولا تلمزوا أنفسكم(أي يلمز بعشكم بعضا، وقوله)فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم(.
روي أن أبا أيوب الأنصاري لما بلغه خبر الإفك قال لزوجه: ألا ترين ما يقال؟ فقالت له: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله سوءا؟ قال: لا. قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله فعائشة خير مني وصفوان خير منك. قال: نعم.

صفحة : 2884

وتقديم الظرف وهو)إذ سمعتموه(على عامله وهو)قلتم(للاهتمام بمدلول ذلك الظرف تنبيها على أنهم كان من واجبهم أن يطرق ظن الخير قلوبهم بمجرد سماع الخير وأن يتبرؤا من الخوض فيه بفور سماعه.
والعدول عن ضمير الخطاب في إسناد فعل الظن إلى المؤمنين التفاوت، فمقتضى الظاهرة أن يقال: ظننتم بأنفسكم خيرا، فعدل عن الخطاب للاهتمام بالتوبيخ فإن الالتفات ضرب من الاهتمام بالخبر، وليصرح بلفظ الإيمان، دلالة على أن الاشتراك في الإيمان يقتضي أن لا يصدق مؤمن على أخيه وأخته في الدين ولا مؤمنة على أخيها وأختها في الدين قول عائب ولا طاعن. وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في مؤمن أن يبني الأمر فيها على الظن لا على الشك ثم ينظر في قرائن الأحوال وصلاحية المقام فإذا نسب سوء إلى عرف بالخير ظن أن ذلك إفك وبهتان حتى يتضح البرهان. وفيه تعريض بأن ظن السوء الذي وقع هو من خصال النفاق التي سرت لبعض المؤمنين عن غرور وقلة بصارة فكفى بذلك تشنيعا له.
وهذا توبيخ على عدم إعمالهم النظر في تكذيب قول ينادي حاله ببهتانه وعلى سكوتهم عليه وعدم إنكاره.
وعطف)وقالوا هذا إفك مبين(تشريع لوجوب المبادرة بإنكار ما يسمعه المسلم من الطعن في المسلم بالقول كما ينكره بالظن وكذلك تغيير المنكر بالقلب واللسان.

والباء في)بأنفسهم(لتعدية فعل الظن إلى المفعول الثاني لأنه متعد هنا إلى واحد إذ هو في معنى الاتهام.
والمبين: البالغ الغاية في البيان، أي الوضوح كأنه لقوة بيانه قد صار يبين غيره.
)لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون[14](استئناف ثان لتوبيخ العصبة الذين جاءوا بالإفك وذم لهم. و)لولا(هذه مثل)لولا(السابقة بمعنى)هلا(.
والمعنى: أن الذي يخبر خبرا عن غير مشاهدة يجب أن يستند في خبره إلى إخبار مشاهد، ويجب كون المشاهدين المخبرين عددا يفيد خبرهم الصدق في مثل الخبر الذي أخبروا به، فالذين جاءوا بالإفك اختلقوه من سوء ظنونهم فلم يستندوا إلى مشاهدة ما أخبروا به ولا إلى شهادة من شاهدوه ممن يقبل مثلهم فكان خبرهم إفكا.
وهذا مستند إلى الحكم المتقرر من قبل في أول السورة بقوله تعالى)والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة(فقد علمت أن أول سورة النور نزل أواخر سنة اثنتين أو أوائل سنة ثلاث قبل استشهاد مرثد بن أبي مرثد.
وصيغة الحصر في قوله)فأولئك عند الله هم الكاذبون(للمبالغة كأن كذبهم لقوته وشناعته لا يعد غيرهم من الكاذبين كاذبا فكأنهم انحصرت فيهم ماهية الموصوفين بالكذب.
واسم الإشارة لزيادة تمييزهم بهذه الصفة ليحذر الناس أمثالهم.
والتقييد بقوله)عند الله(لزيادة تحقيق كذبهم، أي هو كذب في علم الله فإن علم الله لا يكون إلا موافقا لنفس الأمر. وليس المراد ما ذكره كثير من المفسرين أن معنى)عند الله(في شرعه لأن ذلك يصيره قيدا للاحتراز، فيصير المعنى: هم الكاذبون في إجراء أحكام الشريعة. وهذا ينافي غرض الكلام ويجافي ما اقترن به من تأكيد وصفهم بالكذب؛ على أن كون ذلك هو شرع الله معلوم من قوله)والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة(إلى قوله)فأولئك عند الله هم الكاذبون(. فمسألة الأخذ بالظاهر في إجراء الأحكام الشرعية مسألة أخرى لا تؤخذ من هذه الآية.
)ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم[14](

)لولا(هذه حرف امتناع لوجود. والفضل في الدنيا يتعين أنه إسقاط عقوبة الحد عنهم بعفو عائشة وصفوان عنهم، وفي الآخرة

إسقاط العقاب عنهم بالتوبة. والخطاب للمؤمنين دون رأس المنافقين. وهذه الآية تؤيد ما عليه الأكثر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحد القذف أحدا من العصبة الذين تكلموا في الإفك. وهو الأصح من الروايات: إما لعفو عائشة وصفوان، وإما لأن كلامهم في الإفك كان تخافتا وسرارا ولم يجهروا به ولكنهم أشاعوه في أوساطهم ومجالسهم. وهذا الذي يشعر به حديث عائشة في الإفك في صحيح البخاري وكيف سمعت الخبر من أم مسطح وقولها: أو قد تحدث بهذا وبلغ النبي وأبوي?. وقيل: حد حسان ومسطحا وحمنة، قال ابن إسحاق وجماعة، وأما عبد الله بن أبي فقال فريق: إنه لم يحد حد القذف تأليفا لقلبه للإيمان. وعن ابن عباس أن أبيا جلد حد القذف أيضا.

والإفاضة في القول مستعار من إفاضة الماء في الإناء، أي كثرته فيه. فالمعنى: ما أكثرتم القول فيه والتحدث به بينكم.

)إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم[15]( )إذ(ظرف متعلق ب)أفضتم(والمقصود منه ومن الجملة المضاف هو إليها استحضار صورة حديثهم في الإفك وبتفظيعها.

وأصل)تلقونه(تتلقونه بتاءين حذفت إحداهما. وأصل التلقي أنه التكلف للقاء الغير، وتقدم في قوله تعالى)فتلقى آدم من ربه كلمات(أي علمها ولقنها، ثم يطلق التلقي على أخذ شيء باليد من يد الغير كما قال الشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمـين وفي الحديث)من تصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا تلقاها الرحمان بيمينه..(الحديث، وذلك بتشبيه التهيؤ لأخذ المعطى بالتهيؤ للقاء الغير وذلك هو إطلاقه في قوله)إذ تلقونه بألسنتكم(. ففي قوله)بألسنتكم(تسبيه الخبر بشخص وتشبيه الراوي للخبر بمن يتهيأ ويستعد للقائه استعارة مكنية فجعلت الألسن آله للتلقي على طريقة تخييلية بتشبيه الألسن في رواية الخبر بالأيدي في تناول الشيء. وإنما جعلت الألسن آلة للتلقي مع أن تلقي الأخبار بالأسماع لأنه لما كان هذا التلقي غايته التحدث بالخبر جعلت الألسن مكان الأسماع مجازا بعلاقة الأيلولة. وفيه تعريض بحرصهم على تلقي هذا الخبر فهم حين يتلقونه يبادرون بالإخبار به بلا ترو ولا تريث. وهذا تعريض بالتوبيخ أيضا.

وأما قوله)وتقولون بأفواهكم(فوجه ذكر)بأفواهكم(مع أن القول لا يكون بغير الأفواه أنه أريد التمهيد لقوله)ما ليس لكم به علم(، أي هو قول غير موافق لما في العلم ولكنه عن مجرد تصور لأن

أدلة العلم قائمة بنقيض مدلول هذا القول فصار الكلام مجرد ألفاظ تجري على الأفواه.
وفي هذا من الأدب الأخلاقي أن المرء لا يقول بلسانه إلا ما يعلمه ويتحققه وإلا فهو أحد رجلين: أفن الرأي يقول الشيء قبل أن يتبين له الأمر قيوشك أن يقول الكذب فيحسبه الناس كذابا. وفي الحديث: ب)حسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع(، أو رجل مموه مراء يقول ما يعتقد خلافه قال تعالى)ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلوبه وهو ألد الخصام(وقال)كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون(.
هذا في الخبر وكذلك الشأن في الوعد فلا يعد إلا بما يعلم أنه يستطيع الوفاء به. وفي الحديث)آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان(.
وزاد في توبيخهم بقوله)وتحسبون هينا وهو عند الله عظيم(، أي تحسبون الحديث بالقذف أمرا هينا.وإنما حسبوه هينا لأنهم استحفوا الغيبة والطعن في الناس استصحابا لما كانوا عليه في مدة الجاهلية إذ لم يكن لهم وازع من الدين يزعهم فلذلك هم يحذرون الناس فلا يعتدون عليهم باليد وبالسب خشية منهم فإذا خلوا أمنوا من ذلك. فهذا سبب حسبانهم الحديث في الإفك شيئا هينا وقد جاء الإسلام بإزالة مساوي الجاهلية وإتمام مكارم الأخلاق.

صفحة : 2886

والهين: مشتق من الهوان، وهو ان الشيء عدم توقيره والمبالاة بشأنه، يقال: هان على فلان كذا، أي لم يعد ذلك أمرا مهما، والمعنى: شيئا هينا. وإنما حسبوه هينا مع أن الحد ثابت قبل نزول الآية بحسب ظاهر ترتيب الآية في قوله تعالى)والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم(الآية لجواز أنه لم تحدث قضية قذف فيما بين نزول تلك الآية ونزول هذه الآية، أو حدثت قضية عويمر العجلاني ولم يعلم بها أصحاب الإفك، أو حسبوه هينا لغفلتهم عما تقدم من حكم الحد إذ كان العهد به حديثا. وفيه من أدب الشريعة أن احترام القوانين الشرعية يجب أن يكون سواء في الغيبة والحضرة والسر والعلانية.
ومعنى)عند الله(في علم الله مما شرعه لكم من الحكم كما تقدم آنفا في قوله تعالى)فأولئك عند الله هم الكاذبون(.
)ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحنك هذا بهتن عظيم[16](عطف على جملة)لولا إذ سمعتموه ظن

المؤمنون(الخ. وأعيدت)لولا(وشرطها وجوابها لزيادة الاهتمام بالجملة فلذلك لم يعطف)قلتم(الذي في هذه الجملة على)قلتم(الذي في الجملة قبلها لقصد أن يكون صريحا في عطف الجمل.

وتقديم الظرف وهو)إذ سمعتموه(على عامله وهو)قلتم ما يكون لنا(كتقديم نظيره في قوله)لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون(الخ وهو الاهتمام بمدلول الظرف.

وضمير)سمعتموه(عائد إلى الإفك مثل الضمائر المماثلة له في الآيات السابقة.

واسم الإشارة عائد إلى الإفك بما يشتمل عليه من الاختلاق الذي يتحدث به المنافقون والضعفاء، فالإشارة إلى ما هو حاضر في كل مجلس من مجالس سماع الإفك.

ومعنى)قلتم ما يكون لنا(أن يقولوا اللذين أخبروهم بهذا الخبر الإفك، أي قلتم لهم زجرا وموعظة.

وضمير)لنا(مراد به القائلون والمخاطبون. فأما المخاطبون فلأنهم تكلموا به حين حدثوهم بخبر الإفك. والمعنى: ما يكون لكم أن تتكلموا بهذا. وأما المتكلمون فلتنزههم أن يجري ذلك البهتان على ألسنتهم.

وإنما قال)ما يكون لنا أن نتكلم بهذا(دون أن يقول: ليس لنا أن نتكلم بهذا، للتنبيه على أن الكلام في هذا وكينونة الخوض فيه حقيق بالانتفاء. وذلك أن قولك: ما يكون لي أن أفعل، أشد في نفي الفعل عنك من قولك: ليس لي أن أفعل. ومنه قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام)قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق(.

وهذا مسوق للتوبيخ على تناقلهم الخبر الكاذب وكان الشأن أن يقول القائل في نفسه: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، ويقول ذلك لمن يجالسه ويسمعه منه. فهذا زيادة على التوبيخ على السكوت عليه في قوله تعالى)وقالوا هذا إفك مبين(.

و)سبحانك(جملة إنشاء وقعت معترضة بين جملة)ما يكون لنا أن نتكلم بهذا(وجملة)هذا بهتان عظيم(. و)سبحانك(مصدر وقع بدلا من فعله، أي نسبح سبحانا لك. وإضافته إلى ضمير الخطاب من إضافة المصدر إلى مفعوله، وهو هنا مستعار للتعجب كما تقدم عند قوله تعالى)سبحان الذي أسرى بعبده ليلا(وقوله)وسبحان الله وما أنا من المشركين(في سورة يوسف. والأحسن أن يكون هنا لإعلان المتكلم البراءة من شيء بتمثيل حال نفسه بحال من يشهد الله على ما يقول فيبتدئ بخطاب الله بتعظيمه ثم بقول)هذا بهتان عظيم(تبرئا من لازم ذلك وهو مبالغة في إنكار الشيء والتعجب من وقوعه.

وتوجيه الخطاب إلى الله في قوله)سبحانك(للإشعار بأن الله غاضب على من يخوض في ذلك فعليهم أن يتوجهوا لله بالتوبة منه لمن خاضوا فيه وبالاحتراز من المشاركة فيه لمن لم يخوضوا فيه.
وجملة)هذا بهتان عظيم(تعليل لجملة)ما يكون لنا أن نتكلم بهذا(فهي داخلة في توبيخ المقول لهم.
ووصف البهتان بأنه)عظيم(معناه أنه عظيم في وقوعه، أي بالغ في كنه البهتان مبلغا قويا.
وإنما كان عظيما لأنه مشتمل على منكرات كثيرة وهي: الكذب، وكون الكذب بطعن في سلامة العرض، وكونه يسبب إحنا عظيمة بين المفترين والمفترى عليهم من خيرة الناس وانتمائهم إلى أخير الناس من أزواج وآباء وقرابات، وأعظم من ذلك أنه اجتراء على مقام النبي صلى الله عليه وسلم ومقام أم المؤمنين رضي الله عنها.

صفحة : 2887

والبهتان مصدر مثل الكفران والغفران. والبهتان: الخبر الكذب الذي يبهت السامع لأنه لا شبهة فيه. وقد مضى عند قوله تعالى)وقولهم على مريم بهتانا عظيما(في سورة النساء.
)يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين[17] ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم[18](بعد أن بين الله تعالى ما في خبر الإفك من تبعات لحق بسببها للذين جاءوا به والذين تقبلوه عديد التوبيخ والتهديد، وافتضاح للذين روجوه وخيبة مختلقة بنقيض قصدهم، وانتفاع للمؤمنين بذلك، وبين بادئ ذي بدء أنه لا يحسب شرا لهم بل هو خير لهم، وأن الذين جاءوا به ما اكتسبوا به إلا إثما، وما لحق المسلمين به ضر، ونعى على المؤمنين تهاونهم وغفلتهم عن سوء نية مختلقيه، وكيف ذهلوا عن ظن الخير بمن لا يعلمون منها إلا خيرا فلم يفندوا الخبر، وأنهم اقتحموا بذلك ما يكون سببا للحاق العذاب بهم في الدنيا والآخرة، وكيف حسبوه أمرا هينا وهو عند الله عظيم، ولو تأملوا لعلموا عظمه عند الله، وسكوتهم عن تغيير هذا؛ أعقب ذلك كله بتحذير المؤمنين من العود إلى مثله من المجازفة في التلقي، ومن الاندفاع وراء كل ساع دون تثبت في مواطئ الأقدام، ودون تبصر في عواقب الإقدام.
والوعظ: الكلام الذي يطلب به تجنب المخاطب به أمرا قبيحا. وتقدم في آخر سورة النحل.

وفعل)يعظكم(لا يتعدى إلى مفعول ثان بنفسه، فالمصدر المأخوذ من)أن تعودوا(لا يكون معمولا لفعل)يعظكم(إلا بتقدير شيء محذوف، أو بتضمين فعل الوعظ معنى فعل متعد، أو بتقدير حرف جر محذوف، فلك أن تضمن فعل)يعظكم(معنى التحذير. فالتقدير: يحذركم من العود لمثله، أو يقدر: يعظكم الله في العود لمثله، أو يقدر حرف نفي، أي أن لا تعودوا لمثله، وحذف حرف النفي كثير إذا دل عليه السياق، وعلى كل الوجوه يكون في الكلام إيجاز.

والأبد: الزمان المستقبل كله، والغالب أن يكون ظرفا للنفي.

وقوله)إن كنتم مؤمنين(تهييج وإلهاب لم يبعث حرصهم على أن لا يعودوا لمثله لأنهم حريصون على إثبات إيمانهم، فالشرط في مثل هذا لا يقصد بالتعليق، إذ ليس المعنى: إن لم تكونوا مؤمنين فعودوا لمثله، ولكن لما كان احتمال حصول مفهوم الشرط مجتنبا كان في ذكر الشرط بعث على الامتثال، فلو تكلم أحد في الإفك بعد هذه الآية معتقدا وقوعه فمقتضى الشرط أنه يكون كافرا وبذلك قال مالك. قال ابن العربي: قال هشام بن عمار:)سمعت مالكا يقول: من سب أبا بكر وعمر أدب ومن سب عائشة قتل لأن الله يقول) يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين(فمن سب عائشة فقد خالف القرآن ومن خالف القرآن قتل(اه. يريد بالمخالفة إنكار ما جاء به القرآن نصا وهو يرى أن المراد بالعود لمثله في قضية الإفك لأن الله برأها بنصوص لا تقبل التأويل، وتواتر أنها نزلت في شأن عائشة. وذكر ابن العربي عن الشافعية أن ذلك ليس بكفر. وأما السبب بغير ذلك فهو مساو لسب غيرها من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

)ويبين الله لكم الآيات(أي يجعلها لكم واضحة الدلالة على المقصود. والآيات: آيات القرآن النازلة في عقوبة القذف وموعظة الغافلين عن المحرمات.

ومناسبة التذكير بصفتي العلم والحكمة ظاهرة.

)إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون[19](لما حذر الله المؤمنين من العود إلى مثل ما خاضوا به من الإفك على جميع أزمنة المستقبل أعقب تحذيرهم بالوعيد على ما عسى أن يصدر منهم في المستقبل بالوعيد على محبة شيوع الفاحشة في المؤمنين؛ فالجملة استئناف ابتدائي، واسم الموصول يعم كل من يتصف بمضمون الصلة فيعم المؤمنين والمنافقين والمشركين، فهو تحذير للمؤمنين وإخبار عن المنافقين والمشركين.

وجعل الوعيد على المحبة لشيوع الفاحشة في المؤمنين تنبيها على أن محبة ذلك تستحق العقوبة لأن محبة ذلك دالة على خبث النية نحو المؤمنين. ومن شأن تلك الطوية أن لا يلبث صاحبها إلا يسيرا حتى يصدر عنه ما هو محب له أو يسر بصدور ذلك من غيره، فالمحبة هنا كناية عن التهيؤ لإبراز ما يحب وقوعه. وجيء بصيغة الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار. وأصل الكناية ان تجمع بين المعنى الصريح ولازمه فلا جرم أن ينشأ عن تلك المحبة عذاب الدنيا وهو حد القذف وعذاب الآخرة وهو أظهر لأنه مما تستحقه النوايا الخبيثة. وتلك المحبة شيء غير الهم بالسيئة وغير حديث النفس لأنهما خاطران يمكن أن ينكف عنهما صاحبهما، وأما المحبة المستمرة فهي رغبة في حصول المحبوب. وهذا نظير الكناية في قوله تعالى)ولا يحض عل طعام المسكين(كناية عن انتفاء وقوع طعام المسكين. فالوعيد هنا على محبة وقوع ذلك في المستقبل كما هو مقتضى قوله)أن تشيع(لأن)أن(تخلص المضارع للمستقبل. وأما المحبة الماضية فقد عفا الله عنها بقوله)ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم(.

ومعنى)أن تشيع الفاحشة(أن يشيع خبرها، لأن الشيوع من صفات الأخبار والأحاديث كالفشو وهو: اشتهار التحدث بها. فتعين تقدير مضاف، أي أن يشيع خبرها إذ الفاحشة هي الفعلة البالغة حدا عظيما في الشناعة.

وشاع إطلاق الفاحشة على الزنى ونحوه وتقدم في قوله تعالى) واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم(في سورة النساء. وتقدم ذكر الفاحشة بمعنى الأمر المنكر في قوله)وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا(في سورة الأعراف. وتقدم الفحشاء في قوله تعالى)إنما يأمركم بالسوء والفحشاء(في سورة البقرة.

ومن أدب هذه الآية أن شأن المؤمن أن لا يحب لإخوانه المؤمنين إلا ما يحب لنفسه، فكما أنه لا يحب أن يشيع عن نفسه خبر سوء كذلك عليه أن لا يحب إشاعة السوء عن إخوانه المؤمنين. ولشيوع أخبار الفواحش بين المؤمنين بالصدق أو الكذب مفسدة أخلاقية فإن مما يزع الناس عن المفاسد تهيبهم وقوعها وتجهمهم وكراهتهم سوء سمعتها وذلك مما يصرف تفكيرهم عن تذكرها بله الإقدام عليها رويدا رويدا حتى تنسى وتنمحي صورها من النفوس، فإذا انتشر بين الأمة الحديث بوقوع شيء من الفواحش تذكرتها الخواطر وخف وقع خبرها على الأسماع فدب بذلك إلى النفوس التهاون بوقوعها وخفة

وقعها على الأسماع فلا تلبث النفوس الخبيثة أن تقدم على اقترافها وبمقدار تكرر وقوعها وتكرر الحديث عنها تصير متداولة. هذا إلى ما في إشاعة الفاحشة من لحاق الأذى والضر بالناس ضرا متفاوت المقدار على تفاوت الأخبار في الصدق والكذب.

ولهذا دل هذا الأدب الجليل بقوله)والله يعلم وأنتم لا تعلمون(أي يعلم ما في ذلك من المفاسد فيعظكم لتجتنبوا وأنتم لا تعلمون فتحسبون التحدث بذلك لا يترتب عليه ضر وهذا كقوله)وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم(.

)ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم[20](هذه ثالث مرة كرر فيها)ولولا فضل الله عليكم ورحمته(. وحذف في الأول والثالث جواب)لولا(لتذهب النفس كل مذهب ممكن في تقديره بحسب المقام.

وقد ذكر في المرة الأولى وصف الله بأنه تواب حكيم للمناسبة المتقدمة، وذكر هنا بأنه رؤوف رحيم، لأن هذا التنبيه الذي تضمنه التذييل فيه انتشال للأمة من اضطراب عظيم في أخلاقها وآدابها وانفصام عرى وحدتها فأنقذها من ذلك رأفة ورحمة لآحادها وجماعتها وحفظا لأواصرها.

وذكر وصف الرأفة والرحمة هنا لأنه قد تقدمه إنقاذه إياهم من سوء محبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا تلك المحبة التي انطوت عليها ضمائر المنافقين كان إنقاذ المؤمنين من التخلق بها رأفة بهم من العذاب ورحمة لهم بثواب المتاب.

وهذه الآية هي منتهى الآيات العشر التي نزلت في أصحاب الإفك على عائشة رضي الله عنها، نزلت متتابعة على النبي صلى الله عليه وسلم وتلاها حين نزولها وهو في بيته.

صفحة : 2889

)يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم[21](هذه الآية نزلت بعد العشر الآيات المتقدمة، فالجملة استئناف ابتدائي، ووقوعه عقب الآيات العشر التي في قضية الإفك مشير إلى أن ما تضمنته تلك الآيات من المناهي وظنون السوء ومحبة شيوع الفاحشة كله من وساوس الشيطان، فشبه حال فاعلها في كونه متلبسا بوسوسة الشيطان بهيئة الشيطان يمشي والعامل بأمره يتبع خطى ذلك الشيطان. ففي قوله)لا تتبعوا خطوات

الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان(تمثيل مبني على تشبيه حالة محسوسة بحالة مفعولة إذ لا يعرف السامعون للشيطان خطوات حتى ينهوا على اتباعها.
وفيه تشبيه وسوسة الشيطان في نفوس الذين جاءوا بالإفك بالمشي. و)خطوات(جمع خطوة بضم الخاء. قرأه نافع وأبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم والبزي عن ابن كثير بسكون الطاء كم هي في المفرد فهو جمع سلامة. وقرأه من عداهم بضم الطاء لأن تحريك العين الساكنة أو الواقعة بعد فاء الاسم المضمومة أو المكسورة جائز كثير.
والخطوة بضم الخاء : اسم لنقل الماشي إحدى قدميه التي كانت متأخرة عن القدم الأخرى وجعلها متقدمة عليها. وتقدم عند قوله)ولا تتبعوا خطوات الشيطان(في سورة البقرة.
و)من(شرطية ولذلك وقع فعل)يتبع(مجزوما باتفاق القراء.
وجملة)فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر(جواب الشرط، والرابط هو مفعول)يأمر(المحذوف لقصد العموم فأنه عمومه يشمل فاعل فعل الشرط فبذلك يحصل الربط بين جملة الشرط وجملة الجواب.
وضميرا)فإنه يأمر(عائدان إلى الشيطان. والمعنى: ومن يتبع خطوات الشيطان يفعل الفحشاء والمنكر لأنه من أفراد العموم.
والفحشاء: كل فعل أو قول قبيح. وقد تقدم عند قوله تعالى)إنما يأمركم بالسوء والفحشاء(في سورة البقرة.
والمنكر: ما تنكره الشريعة وينكره أهل الخبر. وتقدم عند قوله تعالى)وينهون عن المنكر(في سورة آل عمران.
وقوله)ولولا فضل الله عليكم(الآية، أي لولا فضله بأن هداكم إلى الخير ورحمته بالمغفرة عند التوبة ما كان أحد من الناس زاكيا لأن فتنة الشيطان عظيمة لا يكاد يسلم منها الناس لولا إرشاد الدين، قال تعالى حكاية عن الشيطان)قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين(.
و)زكى(بتخفيف الكاف على المشهور من القراءات. وقد كتب) زكى(في المصحف بألف في صورة الياء. وكان شأنه أن يكتب بالألف الخالصة لأنه غير ممال ولا أصاله باء فإنه واوي اللام, ورسم المصحف قد لا يجري على القياس. ولا تعد قراءته بتخفيف الكاف مخالفة لرسم المصحف لأن المخالفة المضعفة للقراءة هي المخالفة المؤدية إلى اختلاف النطق بحروف الكلمة، وأما مثل هذا فمما يرجع إلى الأداء والرواية تعصم من الخطأ فيه.
وقوله)والله سميع عليم(تذييل بين الوعد والوعيد، أي سميع لمن يشيع الفاحشة، عليم بما في نفسه من محبة إشاعتها، وسميع لمن

ينكر على ذلك، عليم لما في نفسه من كراهة ذلك فيجازي كلا على عمله.
وإظهار اسم الجلالة فيه ليكون التذييل مستقلا بنفسه لأنه مما يجري مجرى المثل.
)ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمسكين والمهجرين في سيبل الله وليعفوا وليصحفوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم[22](عطف على جملة)لا تتبعوا خطوات الشيطان(عطف خاص على عام للاهتمام به لأنه قد يخفى أنه من خطوات الشيطان فإن من كيد الشيطان أن يأتي بوسوسة في صورة خواطر الخير إذا علم أن الموسوس إليه من الذين يتوخون البر والطاعة، وأنه ممن يتعذر عليه ترويج وسوسته إذا كانت مكشوفة.

صفحة : 2890

وإن من ذيول قصة الإفك أن أبا بكر رضي الله عنه كان ينفق على مسطح بن أثاثة المطلبي إذ كان ابن خالة أبي بكر الصديق وكان من فقراء المهاجرين فلما علم بخوضه في قضية الإفك أقسم أن لا ينفق عليه. ولما تاب مسطح وتاب الله عليه لم يزل أبو بكر واجدا في نفسه على مسطح فنزلت هذه الآية. فالمراد من أولي الفضل ابتداء أبو بكر، والمراد من أولي القربى ابتداء مسطح بن أثاثة، وتعم الآية غيرهما ممن شاركوا في قضية الإفك وغيرهم ممن يشمله عموم لفظها فقد كان لمسطح عائلة تنالهم نفقة أبي بكر.
قال ابن عباس: إن جماعة المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل من قال في الإفك وقالوا: والله لا نصل من تكلم في شأن عائشة، فنزلت الآية في جميعهم.
ولما قرأ رسول الله على الله عليه وسلم الآية إلى قوله)ألا تحبون أن يغفر الله لكم(قال أبو بكر: بلى أحب أن يغفر الله لي. ورجع إلى مسطح وأهله ما كان ينفق عليهم. قال ابن عطية: وكفر أبو بكر عن يمينه، رواه عن عائشة.
وقرأ الجمهور)ولا يأتل(. والايتلاء افتعال من الإلية وهي الحلف وأكثر استعمال الإلية في الحلف على امتناع، يقال: إلى وائتلي. وقد تقدم عند قوله تعالى)للذين يؤلون من نسائهم(في سورة البقرة. وقرأه أبو جعفر)ولا يتأل(من تألي تفعل الألية.
والفضل: أصله الزيادة فهو ضد النقص، وشاع إطلاقه على الزيادة في الخير والكمال الديني وهو المراد هنا. ويطلق على زيادة المال

فوق حاجة صاحبه وليس مرادا هنا لأن عطف)والسعة(عليه يبعد ذلك. والمعني من أولي الفضل ابتداء أبو بكر الصديق.
والسعة: الغنى. والأوصاف في قوله)أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله(مقتضية المواساة بانفرادها، فالحلف على ترك مواساة واحد منهم سد لباب عظيم من المعروف وناهيك بمن جمع الأوصاف كلها مثل مسطح الذي نزلت الآية بسببه.
والاستفهام في قوله)ألا تحبون(إنكاري مستعمل في التحضيض على السعي فيما به المغفرة وذلك العفو والصفح في قوله)وليعفوا وليصفحوا(. وفيه إشعار بأنه قد تعارض عن أبي بكر سبب المعروف وسبب البر في اليمين وتجهم الحنث وأنه أخذ بجانب البر في يمينه وترك جانب ما يفوته من ثواب الإنفاق ومواساة القرابة وصلة الرحم وكأنه قدم جانب التأثم على جانب طلب الثواب فنبهه الله على أنه يأخذ بترجيح جانب المعروف لأن لليمين مخرجا وهو الكفارة.
وهذا يؤذن بأن كفارة اليمين كانت مشروعة من قبل هذه القصة ولكنهم كانوا يهابون الإقدام على الحنث كما جاء في خبر عائشة: أن لا تكلم عبد الله بن الزبير حين بلغها قوله: إنه يحجر عليها لكثرة إنفاقها المال. وهو في صحيح البخاري في كتاب الأدب باب الهجران.
وعطف)والله غفور رحيم(على جملة)ألا تحبون أن يغفر الله لكم(زيادة في الترغيب في العفو والصفح وتطمينا لنفس أبي بكر في حنثه وتنبيها على الأمر بالتخلق بصفات الله تعالى.
)إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم[23] يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون[24] يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين[25](جملة)إن الذين يرمون المحصنات(استئناف بعد استئناف قوله)إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا(والكل تفصيل للموعظة التي في قوله) يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين(فابتدئ بوعيد العود إلى محبته ذلك وثني بوعيد العودة إلى إشاعة القالة، فالمضارع في قوله)يرمون(للاستقبال. وإنما لم تعطف هذه الجملة لوقوع الفصل بينها وبين التي تناسبها بالآيات النازلة بينهما من قوله)يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان(.
واسم الموصول ظاهر في إرادة جماعة وهم عبد الله بن أبي سلول ومن معه.

و)الغافلات(هن اللاتي لا علم لهن بما رمين به. وهذا كناية عن عدم وقوعهن فيما رمين به لأن الذي يفعل الشيء لا يكون غافلا عنه. فالمعنى: إن الذين يرمون المحصنات كذبا عليهن، فلا تحسب المراد الغافلات عن قول الناس فيهن. وذكر وصف)المؤمنات(لتشنيع قذف الذين يقذفوهن كذبا لأن وصف الإيمان وازع لهن عن الخنى.

وقوله)لعنوا(إخبار عن لعن الله إياهم بما قدر لهم من الإثم وما شرع لهم.

واللعن: في الدنيا التفسيق، وسلب أهلية الشهادة، واستيحاش المؤمنين منهم، وحد القذف. واللعن في الآخرة: الإبعاد من رحمة الله.

والعذاب العظيم: عذاب جهنم فلا جدوى في الإطالة بذكر مسألة جواز لعن المسلم المعين هنا ولا في أن المقصود بها من كان من الكفرة.

والظرف في قوله)يوم تشهد عليهم(متعلق بما تعلق به الظرف المجعول خبرا للمبتدأ في قوله)ولهم عذاب عظيم(. وذكر شهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم للتهويل عليهم لعلهم يتقون ذلك الموقف فيتوبون.

وشهادة الأعضاء على صاحبها من أحوال حساب الكفار.

وتخصيص هذه الأعضاء بالذكر مع أن الشهادة تكون من جميع الجسد كما قال تعالى)وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا(لأن لهذه الأعضاء عملا في رمي المحصنات فهم ينطقون بالقذف ويشيرون بالأيدي إلى المقذوفات ويسعون بأرجلهم إلى مجالس الناس لإبلاغ القذف.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف)يشهد عليهم(بالتحتية، وذلك وجه في الفعل المسند إلى ضمير جمع تكسير.

وقوله)يومئذ يوفيهم الله دينهم(استئناف بياني لأن ذكر شهادة الأعضاء يثير سؤالا عن آثار تلك الشهادة فيجاب بأن أثرها أن يجازيهم الله على ما شهدت به أعضاؤهم عليهم. فدينهم جزاؤهم كما في قوله)ملك يوم الدين(.

و)الحق(نعت للدين، أي الجزاء العادل الذي لا ظلم فيه فوصف بالمصدر للمبالغة.

وقوله)ويعلمون أن الله هو الحق المبين(أي ينكشف للناس أن الله الحق. ووصف الله بأنه)الحق(وصف بالمصدر لإفادة تحقق اتصافه بالحق، كقول الخنساء:

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت فإنما هـي إقـبـال وإدبـار وصفة الله بأنه)الحق(بمعنيين: أولهما: بمعنى الثابت الحاق، وذلك لأن وجوده واجب فذاته حق متحققة لم يسبق عليها عدم ولا انتفاء فلا يقبل إمكان العدم. وعلى هذا المعنى في اسمه تعالى)الحق(اقتصر الغزالي في شرح الأسماء الحسنى.

وثانيهما: معنى أنه ذو الحق، أي العدل وهو الذي يناسب وقوع الوصف بعد قوله)دينهم الحق(. وبه فسر صاحب الكشاف فيحتمل أنه أراد تفسير معنى الحق هنا، أي وصف الله بالمصدر وليس مراده تفسير الاسم وهذا الذي درج عليه ابن برجان الإشبيلي في كتابه شرح الأسماء الحسنى والقرطبي في التفسير.

و)الحق(من أسماء الله الحسنى. ولما وصف بالمصدر زيد وصف المصدر ب)المبين(. والمبين: اسم فاعل من أبان الذي يستعمل متعديا بمعنى أظهر على أصل معنى إفادة الهمزة التعدية، ويستعمل بمعنى بان، أي ظهر على اعتبار الهزة زائدة، فلك أن تجعله وصفا ل)الحق(بمعنى العدل كما صرح به الكشاف، أي الحق الواضح. ولك أن تجعله وصفا لله تعالى بمعنى أن الله مبين وهاد. وإلى هذا نحا القرطبي وابن برجان فقد أثبتا في عداد أسمائه تعالى اسم) المبين(.

فإن كان وصف الله ب)الحق(بالمعنى المصدري فالحصر المستفاد من ضمير الفصل ادعائي لعدم الإعداد ب)الحق(الذي يصدر من غيره من الحاكمين لأنه وإن يصادف المحز فهو مع ذلك معرض للزوال وللتقصير وللخطأ فكأنه ليس بحق أوليس بمبين. وإن كان الخبر عن الله بأنه)الحق(بالمعنى الاسمي لله تعالى فالحصر حقيقي إذ ليس اسم الحق مسمى به غير ذات الله تعالى، فالمعنى: أن الله هو صاحب هذا الاسم كقوله تعالى)هل تعلم له سميا(. وعلى هذين الوجهين يجري الكلام في وصفه تعالى ب)المبين(.

ومعنى كونهم يعلمون أن الله هو الحق المبين: أنهم يتحققون ذلك يومئذ بعلم قطعي لا يقبل الخفاء ولا التردد وإن كانوا عالمين ذلك من قبل لأن الكلام جار في موعظة المؤمنين؛ ولكن نزل علمهم المحتاج للنظر والمعرض للخفاء والغفلة منزلة عدم العلم.

صفحة : 2892

ويجوز أن يكون المراد ب)الذين يرمون المحصنات الغافلات(عبد الله بن أبي سلول ومن يتصل به من المنافقين المبطنين الكفر بله

الإصرار على ذنب الإفك إذ لا توبة لهم فهم مستمرون على الإفك فيما بينهم لأنه زين عند أنفسهم، فلم يروموا الإقلاع عنه في بواطنهم مع علمهم بأنه اختلاق منهم؛ لكنهم لخبث طواياهم يجعلون الشك الذي خالج أنفسهم بمنزلة اليقين فهم ملعونون عند الله في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم في الآخرة، ويعلمون أن الله الحق المبين فيما كذبهم فيه من حديث الإفك وقد كانوا من قبل مبطنين الشرك مع الله فجاعلين الحق ثابتا لأصنامهم، فالقصر حينئذ إضافي، أي يعلمون أن الله وحده دون أصنامهم.

ويجوز أن يكون المراد بالذين يرمون المحصنات الغافلات عبد الله بن أبي مسلول وحده فعبر عنه بلفظ الجمع لقصد إخفاء اسمه تعريضا به، كما في قوله تعالى)الذين قال لهم الناس(وقول النبي صلى الله عليه وسلم ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله .

)الخبيث للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم[26](بعد أن برأ الله عائشة رضي الله عنها مما قال عصبة الإفك ففضحهم بأنهم ما جاءوا إلا بسيء الظن واختلاق القذف وتوعدهم وهددهم ثم تاب على الذين تابوا أنحى عليهم ثانية ببراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن تكون له أزواج خبيثات لأن عصمته وكرامته على الله يأبى الله معها أن تكون أزواجه غير طيبات. فمكانة الرسول صلى الله عليه وسلم كافية في الدلالة على براءة زوجه وطهارة أزواجه كلهن. وهذا من الاستدلال على حال الشيء بحال مقارنه ومماثله، وفي هذا تعريض بالذين اختلقوا الإفك بأن ما أفكوه لا يليق مثله إلا بأزواجهم، فقوله)الخبيثات للخبيثين(تعريض بالمنافقين المختلقين الإفك.

والابتداء بذكر)الخبيثات(لأن غرض الكلام الاستدلال على براءة عائشة وبقية أمهات المؤمنين. واللام في قوله)للخبيثين(لام الاستحقاق. والخبيثات والخبيثون والطيبات والطيبون أوصاف جرت على موصوفات محذوفة يدل عليها السياق. والتقدير في الجميع: الأزواج.

وعطف)والخبيثون للخبيثات(إطناب لمزيد العناية بتقرير هذا الحكم ولتكون الجملة بمنزلة المثل مستقلة بدلالتها على الحكم وليكون الاستدلال على حال القرين بحال مقارنه حاصلا من أي جانب ابتدأه السامع.

وذكر)والطيبات للطيبون والطيبون للطيبات(إطناب أيضا للدلالة على أن المقارنة دليل على حال القرينين في الخير أيضا.

وعطف)والطيبون للطيبات(كعطف)والخبيثون للخبيثات(.

وتقدم الكلام على الخبيث والطيب عند قوله تعالى)ليميز الله الخبيث من الطيب(في سورة الأنفال وقوله)قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة(في سورة آل عمران وقوله)ويحرم عليهم الخبائث(في سورة الأعراف.

وغلب ضمير التذكير في قوله)مبرأون(وهذه قضية كلية ولذلك حق لها أن تجري مجرى المثل وجعلت في آخر القصة كالتذييل.

والمراد بالخبث: خبث الصفات الإنسان ية كالفواحش. وكذلك المراد بالطيب: زكاء الصفات الإنسان ية من الفضائل المعروفة في البشر فليس الكفر من الخبث ولكنه من متمماته. وكذلك الإيمان من مكملات الطيب فلذلك لم يكن كفر امرأة نوح وامرأة لوط ناقضا لعموم قوله)الخبيثات للخبيثون(فإن المراد بقوله تعالى)كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما(أنهما خانتا زوجيهما بإبطال الكفر. ويدل لذلك مقابلة حالهما بحال امرأة فرعون)إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة(إلى قوله)ونجني من القوم الظالمين(.

والدول عن التعبير عن الإفك باسمه إلى)ما يقولون(إلى أنه لا يعدو كونه قولا، أي أنه غير مطابق للواقع كقوله تعالى)ونرثه ما يقول(لأنه لا مال له ولا ولد في الآخرة.

والرزق الكريم: نعيم الجنة. وتقدم أن الكريم هو النفيس في جنسه عند قوله)درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم(في سورة الأنفال.

وبهذه الآيات انتهت زواجر الإفك.

صفحة : 2893

)يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون[27] فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم[28](ذكرنا أن من أكبر الأغراض في هذه السورة تشريع نظام المعاشرة والمخالطة العائلية في التجاور. فهذه الآيات استئناف لبيان أحكام التزاور وتعليم آداب الاستئذان، وتحديد ما يحصل المقصود منه كيلا يكون الناس مختلفين في كيفيته على تفاوت اختلاف مداركهم في المقصود منه والمفيد.

وقد كان الاستئذان معروفا في الجاهلية وصدر الإسلام وكان يختلف شكله باختلاف حال المستأذن عليه من ملوك وسوقة فكان غير متماثل. وقد يتركه أو يقصر فيه من لا يهمه إلا قضاء وطره وتعجيل حاجته، ولا يبعد بأن يكون ولوجه محرجا للمزور أو مثقلا

عليه فجاءت هذه الآيات لتحديد كيفيته وإدخاله في آداب الدين حتى لا يفرط الناس فيه أو في بعضه باختلاف مراتبهم في الاحتشام والأنفة واختلاف أوهامهم في عدم المؤاخذة أو في شدتها.

وشرع الاستئذان لمن يزور أحدا في بيته لأن الناس اتخذوا البيوت للاستتار مما يؤذي الأبدان من حر وقر ومطر وقتام، ومما يؤذي العرض والنفس من انكشاف ما لا يحب الساكن اطلاع الناس عليه، فإذا كان في بيته وجاءه أحد فهو لا يدخله حتى يصلح ما في بيته وليستر ما يجب أن يستره ثم يأذن له أو يخرج له فيكلمه من خارج الباب.

ومعنى)تستأنسوا(تطلبوا الأنس بكم، أي تطلبوا أن يأنس بكم صاحب البيت، وأنسه به بانتفاء الوحشة والكراهية. وهذا كناية لطيفة عن الاستئذان، أي أن يستأذن الداخل، أي يطلب إذنا من شأنه أن لا يكون معه استيحاش رب المنزل بالداخل. قال ابن وهب قال مالك: الاستئناس فيما نرى والله أعلم الاستئذان. يريد أنه المراد كناية أو مرادفة فهو من الأنس، وهذا الذي قاله مالك هو القول الفصل. ووقع لابن القاسم في جامع العتبية أن الاستئناس التسليم. قال ابن العربي: وهو بعيد. وقلت: أراد ابن القاسم السلام بقصد الاستئذان فيكون عطف)وتسلموا(عطف تفسير. وليس المراد بالاستئناس أنه مشتق من آنس بمعنى علم لأن ذلك إطلاق آخر لا يستقيم هنا فلا فائدة في ذكره وذلك بحسب الظاهر فإنه إذا أذن له دل إذنه على أنه لا يكره دخوله وإذا كره دخوله لا يأذن له والله متولي علم ما في قلبه فلذلك عبر عن الاستئذان بالاستئناس مع ما في ذلك من الإيماء إلى علة مشروعية الاستئذان.

وفي ذلك من الآداب أن المرء لا ينبغي أن يكون كلا على غيره، ولا ينبغي له أن يعرض نفسه إلى الكراهية والاستثقال، وأنه ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين متآنسين وذلك عون على توفر الأخوة الإسلامية.

وعطف الأمر بالسلام على الاستئناس وجعل كلاهما غاية للنهي عن دخول البيوت تنبيها على وجوب الإتيان بهما لأن النهي لا يرتفع إلا عند حصولهما. وعن ابن سيرين: أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أأدخل؟ فأمر النبي رجلا عنده أو أمة اسمها روضة فقال: إنه لا يحسن أن يستأذن فليقل: السلام عليكم أأدخل. فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل. فقال:ادخل . وروى مطرف عن مالك عن زيد بن أسلم: أنه استأذن على عبد الله بن عمر فقال: أألج. فأذن له ابن عمر، فلما دخل قال له ابن عمر: ما لك واستئذان العرب؟ يريد أهل الجاهلية إذا استأذنت فقل: السلام عليكم. فإذا رد عليك السلام فقل: أأدخل، فإن أذن لك فادخل .

وظاهر الآية أن الاستئذان واجب وأن السلام واجب غير أن سياق الآية لتشريع الاستئذان. وأما السلام فتقررت مشروعيته من قبل في أول الإسلام ولم يكن خاصا بحالة دخول البيوت فلم يكن للسلام اختصاص هنا وإنما ذكر مع الاستئذان للمحافظة عليه مع الاستئذان لئلا يلهي الاستئذان الطارق فينسى السلام أو يحسب الاستئذان كافيا عن السلام. قال المازري في كتاب المعلم على صحيح مسلم: الاستئذان مشروع. وقال ابن العربي في أحكام القرآن قال جماعة: الاستئذان فرض والسلام مستحب. وروي عن عطاء: الاستئذان واجب على كل محتلم. ولم يفصح عن حكم الاستئذان سوى فقهاء المالكية. قال الشيخ أبو محمد في الرسالة: الاستئذان واجب فلا تدخل بيتا فيه أحد حتى تستأذن ثلاثا فإن أذن لك وإلا رجعت. وقال ابن رشد في المقدمات: الاستئذان واجب. وحكى أبو الحسن المالكي في شرح الرسالة الإجماع على وجوب الاستئذان. وقال النووي في شرح صحيح مسلم: الاستئذان مشروع. وهي كلمة المازري في شرح مسلم. وأقول ليس قرن الاستئذان بالسلام في الآية بمقتض مساواتهما في الحكم إذ كانت هنالك أدلة أخرى تفرق بين حكميهما وتلك أدلة من السنة، ومن المعنى فإن فائدة الاستئذان دفع ما يكره عن المطروق المزور وقطع أسباب الإنكار أو الشتم أو الإغلاط في القول مع سد ذرائع الريب وكلها أو مجموعها يقتضي وجوب الاستئذان.

وأما فائدة السلام مع الاستئذان فهي تقوية الألفة المتقررة فلا تقتضي أكثر من تأكد الاستحباب. فالقرآن أمر بالحالة الكاملة وأحال تفصيل أجزائها على تبيين السنة كما قال تعالى)لتبين للناس ما نزل إليهم(.

وقد أجملت حكمة الاستئذان في قوله تعالى)ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون(أي ذلكم الاستئذان خير لكم، أي فيه خير لكم ونفع فإذا تدبرتم علمتم ما فيه من خير لكم كما هو المرجو منكم.

وقد جمعت الآية الاستئذان والسلام بواو العطف المفيد التشريك فقط فدلت على أنه إن قدم الاستئذان على السلام أو قدم السلام على الاستئذان فقد جاء بالمطلوب منه، وورد في أحاديث كثيرة الأمر بتقديم السلام على الاستئذان فيكون ذلك أولى ولا يعارض الآية.

وليس للاستئذان صيغة معينة. وما ورد في بعض الآثار فإنما محمله على أنه المتعارف بينهم أو على أنه كلام أجمع من غيره في المراد. وقد بينت السنة أن المستأذن إن لم يؤذن له بالدخول يكرره ثلاث مرات فإذا لم يؤذن له انصرف.

وورد في هذا حديث أبي موسى الأشعري مع عمر بن الخطاب في صحيح البخاري وهو ما روي: عن أبي سعيد الخدري قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى الأشعري كأنه مذعور قال: استأذنت على عمر ثلاثا فلم يأذن لي فرجعت وفسروه في رواية أخرى بأن عمر كان مشتغلا ببعض أمره ثم تذكر فقال: ألم أسمع صوت عبد الله ابن قيس؟ قالوا:استأذن ثلاثا ثم رجع فأرسل وراءه فجاء أبو موسى فقال عمر: ما منعك؟ قال قلت: استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت. وقال رسول الله: إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع. فقال عمر: والله لتقيمن عليه بينة. قال أبو موسى: أمنكم أحد سمعه من النبي؟ فقال أبي بن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغرنا فكنت أصغرهم فقمت معه فأخبرت عمر أن النبي قال ذلك. فقال عمر: خفي علي هذا من أمر رسول الله ألهاني الصفق بالأسواق.

وقد علم أن الاستئذان إذنا ومنعا وسكوتا فإن أذن له فذاك وإن منع بصريح القول فذلك قوله تعالى)وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم(. والضمير عائد إلى الرجوع المفهوم من) ارجعوا(كقوله)اعدلوا هو أقرب للتقوى(.

ومعنى)أزكى لكم(أنه أفضل وخير لكم من أن يأذنوا على كراهية. وفي هذا أدب عظيم وهو تعليم الصراحة بالحق دون المواربة ما لم يكن فيه أذى. وتعليم قبول الحق لأنه أطمن لنفس قابله من تلقي ما لا يدرى أهو حق أم مواربة، ولو اعتاد الناس التصارح بالحق بينهم لزالت عنهم ظنون السوء بأنفسهم.

وأما السكون فهو ما بين حكمه حديث أبي موسى. وفعل)تسلموا(معناه تقولوا: السلام عليكم، فهو من الأفعال المشتقة من حكاية الأقوال الواقعة في الجمل مثل: رحب وأهل، إذا قال: مرحبا أهلا، وحيا، إذا قال: حياك الله، وجزأ، إذا قال له: جزاك الله خيرا. وسهل، إذا قال: سهلا، أي حللت سهلا. قال البعيث بن حريث:

فقلت لها أهلا وسهلا ومرحبا فردت

بتأهيل وسهل ومرحب وفي الحديث)تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر

كل صلاة ثلاثا وثلاثين(. وهي قريبة من النحت مثل: بسمل، إذا قال: بسم الله، وحسبل، إذا قال: حسبنا الله.
و)على أهلها(يتعلق ب)تسلموا(لأنه أصله من بقية الجملة التي صيغ منها الفعل التي أصلها: السلام عليكم، كما يعدى رحب به، إذا قال: مرحبا بك، وكذلك أهل به وسهل به. ومنه قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما(.
وصيغة التسليم هي: السلام عليكم. وقد علمها النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، ونهى أبا جزي الهجيمي عن أن يقول: عليك السلام. وقال له: إن عليك السلام تحية الميت ثلاثا، أي الابتداء بذلك. وأما الرد فيقول: وعليك السلام بواو العطف وبذلك فارقت تحية الميت ورحمة الله. أخرج ذلك الترمذي في كتاب الاستئذان. وتقدم السلام في قوله تعالى)وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم(في سورة الأنعام.
وأما قوله)فإن لم تجدوا فيها أحدا(الخ للاحتراس من أن يظن ظان أن المنازل غير المسكونة يدخلها الناس في غيبة أصحابها بدون إذن منهم توهما بأن علة شرع الاستئذان ما يكره أهل المنازل من رؤيتهم على غير تأهب بل العلة هي كراهتهم رؤية ما يحبون ستره من شؤونهم. فالشرط هنا يشبه الشرط الوصلي لأنه مراد به المبالغة في تحقيق ما قبله ولذلك ليس له مفهوم مخالفة.
والغاية في قوله)حتى يؤذن لكم(لتأكيد النهي بقوله)فلا تدخلوها(أي حتى يأتي أهلها فيأذنوا لكم.
وقوله)والله بما تعملون عليم(تذييل لهذه الوصايا بتذكيرهم بأن الله عليم بأعمالهم ليزدجر أهل الإلحاح عن إلحاحهم بالتثقيل، وليزدجر أهل الحيل أو التطلع من الشقوق ونحوها. وهذا تعريض بالوعيد لأن في ذلك عصيانا لما أمر الله به. فعلمه به كناية عن مجازاته فاعليه بما يستحقون.
وخطاب)لا تدخلوا(يعم وهو مخصوص بمفهوم قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم(كما سيأتي. ولذا فأن المماليك والأطفال مخصصون من هذا العموم كما سيأتي.
وقرأ الجمهور)بيوتا(حيثما وقع بكسر الباء. وقرأه أبو عمرو وورش عن نافع وحفص عن عاصم وأبو جعفر بضم الباء. وقد تقدم في سورة آل عمران.
)ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون[29](هذا تخصيص لعموم قوله) بيوتا غير بيوتكم(بالبيوت المعدة للسكنى، فأما البيوت التي ليست معدودة للسكنى إذا كان لأحد حاجة في دخولها أن له أن يدخلها لأن كونها غير معدودة للسكنى تجعل القاطن بها غير محترز من

دخول الغير إليها بل هو على استعداد لمن يغشاه فهي لا تخلو من أن تكون خاوية من الساكن مثل البيوت المقامة على طرق المسافرين لنزولهم، كما كانت بيوت على الطريق بين الحجاز والشام في طريق التجار كانوا يأوون إليها ويحطون فيها متعاهم للاستراحة ثم يرتحلون عنها ويستأنفون سيرهم، وتسمى الخانات جمع خان بالخاء المعجمة فهو اسم معرب من الفارسية. ومثلها بيوت كانت في بعض سكك المدينة كانوا يضعون بها متاعا وأقتابا وقد بناها بعض من يحتاج إليها وارتفق بها غيرهم.

وأما أن تكون تلك البيوت مأهولة بأناس يقطنونها يأوون المسافرين ورحالهم ورواحلهم ويحفظون أمتعتهم ويبيتونهم حتى يستأنفوا المرحلة مثل الخانات المأهولة والفنادق. وكذلك البيوت المعدودة لبيع السلع، والحمامات، وحوانيت التجار، وكذلك المكتبات وبيوت المطالعة فهذه مأهولة ولا تسمى مسكونة لأن السكنى هي الإقامة التي يسكن بها المرء ويستقر فيها ويقيم فيها شؤونه. فمعنى قوله)غير مسكونة(أنها غير مأهولة على حالة الاستقرار أو غير مأهولة البتة.

وأما الخوانيق جمع خانقاه ويقال الخانكات جمع خانكاه وهي منازل ذات بيوت يقطنها طلبة الصوفية، وكذلك المدارس يقطنها طلبة العلم، وكذلك الربط جمع رباط وهو مأوى الحراس على الثغور، فلا استئذان بين قاطنها لأنهم قد طرحوا الكلفة فيما بينهم فصاروا كأهل البيت الواحد ولكن على الغريب عنهم أن يستأذن في الدخول عليهم فيأذن له ناظرهم أو كبيرهم أو من يبلغ عنهم.

وقوله)فيها متاع لكم(صفة ثانية ل)بيوتا(.

صفحة : 2896

والمتاع: الجهاز من العروض والسلع والرحال. وظاهر قوله)فيها متاع(أن المتاع موضوع هناك قبل دخول الداخل فلا مفهوم لهذه الصفة لأنها خرجت مخرج التنبيه على العذر في الدخول. ويشمل ذلك أن يدخلها لوضع متاعه لدلالة لحن الخطاب، وكذلك يشمل دخول المسافر وإن كان لا متاع له لقصد التظلل أو المبيت بدلالة لحن الخطاب أو القياس.

وقد فسر المتاع بالمصدر، أي التمتع والانتفاع. قال جابر بن زيد: كل منافع الدنيا متاع. وقال أبو جعفر النحاس: هذا شرح حسن من قول إمام من أئمة المسلمين وهو موافق للغة وتبعه على ذلك في الكشاف. ونوه بهذا التفسير أبو بكر ابن العربي فيكون إيماء إلى أن

من لا منفعة له في دخولها لا يؤذن له في دخولها لأنه يضيق على أصحاب الاحتياج إلى بقاعها.
وجملة)والله يعلم ما تبدون وما تكتمون(مستعملة في التحذير من تجاوز ما أشارت إليه الآية من القيود وهي كون البيوت غير مسكونة وكون الداخل محتاج إلى دخولها بله أن يدخلها بقصد التجسس على قطانها أو بقصد أذاهم أو سرقة متاعهم.
)قل للمؤمنين يغضوا من أبصرهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون[30](أعقب حكم الاستئذان ببيان آداب ما تقتضيه المجالسة بعد الدخول وهو أن لا يكون الداخل إلى البيت محدقا بصره إلى امرأة فيه بل إذا جالسته المرأة غض بصره واقتصر على الكلام ولا ينظر إليها إلا النظر الذي يعسر صرفه.
ولما كان الغض التام لا يمكن جيء في الآية بحرف)من(الذي هو للتبعيض إيماء إلى ذلك إذ من المفهوم أن المأمور بالغض فيه هو مالا يليق تحديق النظر إليه وذلك يتذكره المسلم من استحضاره أحكام الحلال والحرام في هذا الشأن فيعلم أن غض البصر مراتب: منه واجب ومنه دون ذلك، فيشمل غض البصر عما اعتاد الناس كراهية التحقق فيه كالنظر إلى خبايا المنازل، بخلاف ما ليس كذلك فقد جاء في حديث عمر بن الخطاب حين دخل مشربة النبي صلى الله عليه وسلم فرفعت بصري إلى السقف فرأيت أهبة معلقة .
وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية .
وفي هذا الأمر بالغض أدب شرعي عظيم في مباعدة النفس عن التطلع إلى ما عسى أن يوقعها في الحرام أو ما عسى أن يكلفها صبرا شديدا عليها.
والغض: صرف المرء بصره عن التحديق وتثبيت النظر. ويكون من الحياء كما قال عنترة: وأغض طرفي حين تبدو جارتي حتى يواري جارتي مأواها ويكون من مذلة كما قال جرير:
فغض الطرف إنك من نمير ومادة الغض تفيد معنى الخفض والنقص.
والأمر بحفظ الفروج عقب الأمر بالغض من الأبصار لأن النظر رائد الزنى. فلما كان ذريعة له قصد المتذرع إليه بالحفظ تنبيها على المبالغة في غض الأبصار في محاسن النساء. فالمراد بحفظ الفروج حفظها من أن تباشر غير ما أباحه الدين.
واسم الإشارة إلى المذكور، أي ذلك المذكور من غض الأبصار وحفظ الفروج.
واسم التفضيل بقوله)أزكى(مسلوب المفاضلة. والمراد تقوية تلك التزكية لأن ذلك جنة من ارتكاب ذنوب عظيمة.

وذيل بجملة)إن الله خبير بما يصنعون(لأنه كناية عن جزاء ما يتضمنه الأمر من الغض والحفظ لأن المقصد من الأمر الامتثال.
)وقل للمؤمنات يغضضن من أبصرهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن علي جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني أخونهن أو بني أخوتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير ألي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورة النساء(أردف أمر المؤمنين بأمر المؤمنات لأن الحكمة في الأمرين واحدة، وتصريحا بما تقرر في أوامر الشريعة المخاطب بها الرجال من أنها تشمل النساء أيضا. ولكنه لما كان هذا الأمر قد يظن أنه خاص بالرجال لأنهم أكثر ارتكابا لضده وقع النص على هذا الشمول بأمر النساء بذلك أيضا.

صفحة : 2897

وانتقل من ذلك إلى نهي النساء عن أشياء عرف منهن التساهل فيها ونهيهن عن إظهار أشياء تعودن أن يحببن ظهورها وجمعها القرآن في اللفظ الزينة بقوله)ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها(.
والزينة: ما يحصل به الزين. والزين: الحسن، مصدر زانه. قال عمر ابن أبي ربيعة: جلل الله ذلك الوجه زينا.
يقال: زين بمعنى حسن، قال تعالى)زين للناس حب الشهوات(في سورة آل عمران وقال)وزيناها للناظرين(في سورة الحجر.
والزينة قسمان خلقية ومكتسبة. فالخلقية: الوجه والكفان أو نصف الذراعين، والمكتسبة: سبب التزين من اللباس الفاخر والحلي والكحل والخضاب بالحناء. وقد أطلق اسم الزينة على اللباس في قوله تعالى)يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد(وقوله)قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده(في سورة الأعراف، وعلى اللباس الحسن في قوله)قال موعدكم يوم الزينة(. والتزين يزيد المرأة حسنا ويلفت إليها الأنظار لأنها من الأحوال التي لا تقصد إلا لأجل التظاهر بالحسن فكانت لافتة أنظار الرجال، فلذلك نهي النساء عن إظهار زينتهن إلا للرجال الذين ليس من شأنهم أن تتحرك منهم شهوة نحوها لحرمة قرابة أو صهر.
واستثني ما ظهر من الزينة وهو ما في ستره مشقة على المرأة أو في تركه حرج على النساء وهو ما كان من الزينة في مواضع العمل التي لا يجب سترها مثل الكحل والخضاب والخواتيم.

وقال ابن العربي: إن الزينة نوعان خلقية ومصطنعة. فأما الخلقية فمعظم جسد المرأة وخاصة: الوجه والمعصمين والعضدين والثديين والساقين والشعر. وأما المصطنعة فهي ما لا يخلو عنه النساء عرفا مثل: الحلي وتطريز الثياب وتلوينها ومثل الكحل والخضاب بالحناء والسواك. والظاهر من الزينة الخلقية ما في إخفائه مشقة كالوجه والكفين والقدمين، وضدها الخفية مثل أعالي الساقين والمعصمين والعضدين والنحر والأذنين. والظاهر من الزينة المصطنعة ما في تركه حرج على المرأة من جانب زوجها وجانب صورتها بين أترابها ولا تسهل إزالته عند البدو أمام الرجال وإرجاعه عند الخلو في البيت، وكذلك ما كان محل وضعه غير مأمور بستره كالخواتيم بخلاف القرط والدمالج. واختلف في السوار والخلخال والصحيح أنهما من الزينة الظاهرة وقد أقر القرآن الخلخال بقوله)ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن(كما سيأتي. قال ابن العربي: روى أبن القاسم عن مالك: ليس الخضاب من الزينة اه ولم يقيده بخضاب اليدين. وقال ابن العربي: والخضاب من الزينة الباطنة إذا كان في القدمين.

فمعنى)ما ظهر منها(ما كان موضعه مما لا تستره المرأة وهو الوجه والكفان والقدمان.

صفحة : 2898

وفسر جمع من المفسرين الزينة بالجسد كله وفسر ما ظهر بالوجه والكفين قيل والقدمين والشعر. وعلى هذا التفسير فالزينة الظاهرة هي التي جعلها الله بحكم الفطرة بادية يكون سترها معطلا الانتفاع بها أو مدخلا حرجا على صاحبتها وذلك الوجه والكفان، وأما القدمان فحالهما في الستر لا يعطل الانتفاع ولكنه يعسره لأن الحفاء غالب حال نساء البادية، فمن أجل ذلك اختلف في سترهما الفقهاء، ففي مذهب مالك قولان: أشهرهما أنها يجب ستر قدميها، وقيل: لا يجب، وقال أبو حنيفة: لا يجب ستر قدميها، أما ما كان محاسن المرأة ولم يكن عليها مشقة في ستره فليس مما ظهر من الزينة مثل النحر والثدي والعضد والمعصم وأعلى الساقين، وكذلك ما له صورة حسنة في المرأة وإن كان غير معرى كالعجيزة والأعكان والفخذين ولم يكن مما في إرخاء الثوب عليه حرج عليها. وروى مالك في الموطإ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات لا يدخلن الجنة قال ابن عبد البر: أراد اللواتي يلبسن من الثياب الخفيف الذي يصف ولا

يستر، أي هن كاسيات بالاسم عاريات بالحقيقة اه. وفي نسخة ابن بشكوال من الموطإ عن القنازعي قال فسر مالك: إنهن يلبسن الثياب الرقاق التي لا تسترهن اه. وفي سماع ابن القاسم من جامع العتبية قال مالك: بلغني أن عمر بن الخطاب نهى النساء عن لبس القباطي. قال ابن رشد في شرحه: هي ثياب ضيقة تلتصق بالجسم لضيقها فتبدو ثخانة لابستها من نحافتها، وتبدي ما يستحسن منها، امتثالا لقوله تعالى)ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها(اه. وفي روايات ابن وهب من جامع العتبية قال مالك في الإماء يلبسن الأقبية: ما يعجبني فإذا شدته عليها كان إخراجا لعجزتها.

وجمهور الأئمة على أن استثناء إبداء الوجه والكفين من عموم منع إبداء زينتهن يقتضي إباحة إبداء الوجه والكفين في جميع الأحوال لأن الشأن أن يكون للمستثنى جميع أحوال المستثنى منه. وتأوله الشافعي بأنه استثناء في حالة الصلاة خاصة دون غيرها وهو تخصيص لا دليل عليه.

ونهين عن التساهل في الخمرة. والخمار: ثوب تضعه المرأة على رأسها لستر شعرها وجيدها وأذنيها وكان النساء ربما يسدلن الخمار إلى ظهورهن كما تفعل نساء الأنباط فيبقى العنق والنحر والأذنان غير مستورة فلذلك أمرن في قوله تعالى)إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا(في سورة البقرة.

والمعنى: ليشددن وضع الخمر على الجيوب، أي بحيث لا يظهر شيء من بشرة الجيب.

والباء في قوله)بخمرهن(لتأكيد اللصوق مبالغة في إحكام وضع الخمار على الجيب زيادة على المبالغة المستفادة من فعل) يضربن(.

والجيوب: جمع جيب بفتح الجيم وهو طوق القميص مما يلي الرقبة. والمعنى: وليضعن خمرهن على جيوب الأقمصة بحيث لا يبقى بين منتهى الخمار ومبدأ الجيب ما يظهر منه الجيد.

وقوله)ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن(أعيد لفظ)ولا يبدين زينتهن(تأكيدا لقوله)ولا يبدين زينتهن(المتقدم وليبني عليه الاستثناء في قوله)إلا لبعولتهن(الخ الذي مقتضى ظاهره أن يعطف على) إلا لبعولتهن(لبعد ما بين الأول والثاني، أي لا يبدين زينتهن غير الظاهرة إلا لمن ذكروا بعد حرف الاستثناء لشدة الحرج في إخفاء الزينة غير الظاهرة في أوقات كثيرة، فإن الملابسة بين المرأة وبين أقربائها وأصهارها المستثنين ملابسة متكررة فلو وجب عليها ستر زينتها في أوقاتها كان ذلك حرجا عليها.

وذكرت الآية اثنى عشر مستثنى كلهم ممن يكثر دخولهم. وسكتت الآية عن غيرهم ممن هو في حكمهم بحسب المعنى. وسنذكر ذلك عند الفراغ من ذكر المصرح بهم في الآية.
والبعولة: جمع بعل، وهو الزوج، وسيد الأمة. وأصل البعل الرب والمالك وسمي الصنم الأكبر عند أهل العراق القدماء بعلا وجاء ذكره في القرآن في قصة أهل نينوى ورسولهم إلياس ، فأطلق على الزوج لأن أصل الزواج ملك وقد بقي من آثار الملك فيه الصداق لأنه كالثمن. ووزن فعولة في الجموع قليل وغير مطرد وهو مزيد التاء في زنة فعول من جموع التكسير.

صفحة : 2899

وكل من عد من الرجال الذين استثنوا من النهي هم من الذين لهم بالمرأة صلة شديدة هي وازع من أن يهموا بها. وفي سماع ابن القاسم من كتاب الجامع من العتبية: سئل مالك عن الرجل تضع أم امرأته عنده جلبابها قال: لا بأس بذلك. قال ابن رشد في شرحه: لأن الله تعالى قال)وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن(الآية، فأباح الله تعالى أن تضع خمارها عن جيبها وتبدي زينتها عند ذوي محارمها من النسب أو الصهر اه. أي قاس مالك زوج بنت المرأة على ابن زوج المرأة لاشتراكهما في حرمة الصهر.
والإضافة في قوله)نسائهن(إلى ضمير)المؤمنات(: إن حملت على ظاهر الإضافة كانت دالة على أنهن النساء اللاتي لهن بهن مزيد اختصاص فقيل المراد نساء أمتهن، أي المؤمنات، مثل الإضافة في قوله تعالى)واستشهدوا شهيدين من رجالكم(، أي من رجال دينكم. ويجوز أن يكون المراد أو النساء. وإنما أضافهن إلى ضمير النسوة إتباعا لبقية المعدود.
قال ابن العربي: إن في هذه الآية خمسة وعشرين ضميرا فجاء هذا للإتباع اه. أي فتكون الإضافة لغير داع معنوي بل لداع لفظي تقتضيه الفصاحة مثل الضميرين المضاف إليهما في قوله تعالى) فألهمها فجورها وتقواها(أي ألهمها الفجور والتقوى، فإضافتهما إلى الضمير إتباع للضمائر التي من أول السورة)والشمس وضحاها(وكذلك قوله فيها)كذبت ثمود بطغواها(أي بالطغوى وهي الطغيان فذكر ضمير ثمود مستغنى عنه لكنه جيء به لمحسن المزاوجة.

ومن هذين الاحتمالين اختلف الفقهاء في جواز نظر النساء المشركات والكتابيات إلى ما يجوز للمرأة المسلمة إظهاره للأجنبي من جسدها. وكلام المفسرين من المالكية وكلام فقهائهم في هذا غير مضبوط. والذي يستخلص من كلامهم قول خليل في التوضيح عند قول ابن الحاجب: وعورة الحرة ماعدا الوجه والكفين. ومقتضى كلام سيدي أبي عبد الله ابن الحاج: أما الكافرة فكالأجنبية مع الرجال اتفاقا اه.

وفي مذهب الشافعي قولان: أحدهما أن غير المسلمة لا ترى من المرأة المسلمة إلا الوجه والكفين، ورجحه البغوي وصاحب المنهاج البيضاوي واختاره الفخر في التفسير. ونقل مثل هذا عن عمر بن الخطاب وابن عباس، وعلله ابن عباس بأن غير المسلمة لا تتورع عن ان تصف لزوجها المسلمة. وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح: أنه بلغني أن نساء أهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساء المسلمين فامنع من ذلك وحل دونه فإنه لا يجوز أن ترى الذمية عرية المسلمة.

القول الثاني: أن المرأة غير المسلمة كالمسلمة ورجحه الغزالي.

ومذهب أبي حنيفة كذلك فيه قولان: أصحهما أن المرأة غير المسلمة كالرجل الأجنبي فلا ترى من المرأة المسلمة إلا الوجه والكفين والقدمين، وقيل هي كالمرأة المسلمة.

وأما ما ملكت أيمانهن فهو رخصة لأن ستر المرأة زينتها عنهم مشقة عليها، لكثرة ترددهم عليها، ولأن كونه مملوكا لها وازع له ولها عن حدوث ما يحرم بينهما، والإسلام وازع له من أن يصف المرأة للرجال.

وأما التابعون غير أولي الإربة من الرجال فهم صنف من الرجال الأحرار تشترك أفراده في الوصفين وهما التبعية وعدم الإربة.

فأما التبعية فهي كونهم من اتباع بيت المرأة وليسوا ملك يمينها ولكنهم يترددون على بيتها لأخذ الصدقة أو للخدمة.

والإربة: الحاجة. والمراد بها الحاجة إلى قربان النساء. وانتفاء هذه الحاجة تظهر في المجبوب والعنين والشيخ الهرم فرخص الله في إبداء الزينة لنظر هؤلاء لرفع المشقة عن النساء مع السلامة الغالبة من تطرق الشهوة وآثارها من الجانبين.

واختلف في الخصي غير التابع هل يلحق بهؤلاء على قولين مرويين عن السلف. وقد روي القولان عن مالك. وذكر ابن الفرس: أن الصحيح جواز دخوله على المرأة إذا اجتمع فيه الشرطان التبيعية وعدم الإربة. وروي ذلك عن معاوية بن أبي سفيان.

وأما قضية)هيت(المخنث أو المخصي)1(ونهى النبي صلى الله عليه وسلم نساءه أن يدخلن عليهن فتلك قضية عين تعلقت بحالة

خاصة فيه. وهي وصفه النساء للرجال فتقصى على أمثاله، ألا ترى أنه لم ينه عن دخوله على النساء قبل أن يسمع منه ما سمع.
وقرأ الجمهور)غير أولي الإربة(بخفض)غير(. وقرأه ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر بنصب)غير(على الحال.

صفحة : 2900

والطفل مفرد مراد به الجنس فلذلك أجري عليه الجمع في قوله)الذين لم يظهروا(وذلك مثل قوله)ثم نخرجكم طفلا(أي أطفالا.
ومعنى)لم يظهروا على عورات النساء(لم يطلعوا عليها. وهذا كناية عن خلو بالهم من شوة النساء وذلك ما قبل سن المراهقة.
ولم يذكر في عداد المستثنيات العم والخال فاختلف العلماء في مساواتهما في ذلك: فقال الحسن والجمهور: هما مساويان لمن ذكر من المحارم وهو ظاهر مذهب مالك إذ لم يذكر المفسرون من المالكية مثل ابن الفرس وابن جزي عنه المنع. وقال الشعبي بالمنع وعلل التفرقة بأن العم والخال قد يصفان المرأة لأبنائهما وأبناؤهما غير محارم، وهذا تعليل واه لأن وازع الإسلام يمنع من وصف المرأة.
والظاهر أن سكوت الآية عن العم والخال ليس لمخالفة حكمهما حكم بقية المحارم ولكنه اقتصار على الذين تكثر مزاولتهم بيت المرأة، فالتعداد جرى على الغالب. ويلحق بهؤلاء القرابة من كان في مراتبهم من الرضاعة لقول النبي صلى الله عليه وسلم يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب . وجزم بذلك الحسن، ولم أر فيه قولا للمالكية. وظاهر الحديث أن فيهم من الرخصة ما في محارم النسب والصهر.
)ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن(الضرب بالأرجل إيقاع المشي بشدة كقوله: يضرب في الأرض.
روى الطبري عن حضرمي: أن امرأة اتخذت برتين تثنية برة بضم الباء وتخفيف الراء المفتوحة ضرب من الخلخال من فضة واتخذت جزعا في رجليها فمرت بقوم فضربت برجلها فوقع الخلخال على الجزع فصوت فنزلت هذه الآية.
والتحقيق أن من النساء من كن إذا لبسن الخلخال ضربن بأرجلهن في المشي بشدة لتسمع قعقعة الخلاخل غنجا وتباهيا بالحسن فنهين عن ذلك مع النهي عن إبداء الزينة.
قال الزجاج: سماع هذه الزينة أشد تحريكا للشهوة من النظر للزينة. فأما صوت الخلخال المعتاد فلا ضير فيه.

وفي أحاديث أن وهب من جامع العتبية: سئل مالك عن الذي يكون في أرجل النساء من الخلاخل قال:)ما هذا الذي جاء فيه الحديث وتركه أحب إلى من غير تحريم(. قال ابن رشد في شرحه: أراد أن الذي يحرم إنما هو أن يقصدن في مشيهن إلى إسماع قعقعة الخلاخل إظهارا بهن من زينتهن.

وهذا يقتضي النهي عن كل ما من شأنه أن يذكر الرجل بلهو النساء ويثير منه إليهن من كل ما يرى أو يسمع من زينة أو حركة كالتثني والغناء وكلم الغزل. ومن ذلك رقص النساء في مجالس الرجال ومن ذلك التلطخ بالطيب الذي يغلب عبيقه. وقد أومأ إلى علة ذلك قوله تعالى)ليعلم ما يخفين من زينتهن(. ولعن النبي صلى الله عليه وسلم المستوشمات والمتفلجات للحسن.

قال مكي بن أبي طالب ليس في كتاب الله آية أكثر ضمائر من هذه الآية جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات من مخفوض ومرفوع وسماها أبو بكر ابن العربي: آية الضمائر.

)وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون[31](أعقبت الأوامر والنواهي الموجهة إلى المؤمنين بأمر جميعهم بالتوبة إلى الله إيماء إلى أن فيما أمروا به ونهوا عنه دفاعا لداع تدعو إليه الجبلة البشرية من الاستحسان والشهوة فيصدر ذلك عن الإنسان عن غفلة ثم يتغلغل هو فيه فأمروا بالتوبة ليحاسبوا أنفسهم على ما يفلت منهم من ذلك اللمم المؤدي إلى ما هو أعظم.

والجملة معطوفة على جملة)قل للمؤمنين(. ووقع التفات من خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خطاب الأمة لأن هذا تذكير بواجب التوبة المقررة من قبل وليس استئناف تشريع.

ونبه بقوله)جميعا(على أن المخاطبين هم المؤمنون والمؤمنات وإن كان الخطاب ورد بضمير التذكير على التغليب، وأن يؤملوا الفلاح إن هم تابوا وأنابوا.

وتقدم الكلام على التوبة في سورة النساء عند قوله تعالى)إنما التوبة على الله(.

وكتب في المصحف)أيه(بهاء في آخره اعتبارا بسقوط الألف في حال الوصل مع كلمة)المؤمنون(. فقرأها الجمهور بفتح الهاء بدون ألف في الوصل. وقرأها أبو عامر بضم الهاء إتباعا لحركة)أي(. ووقف عليها أبو عمرو والكسائي بألف في آخرها. ووقف الباقون عليها بسكون الهاء على اعتبار ما رسمت به.

والطفل مفرد مراد به الجنس فلذلك أجري عليه الجمع في قوله)الذين لم يظهروا(وذلك مثل قوله)ثم نخرجكم طفلا(أي أطفالا.
ومعنى)لم يظهروا على عورات النساء(لم يطلعوا عليها. وهذا كناية عن خلو بالهم من شوة النساء وذلك ما قبل سن المراهقة.
ولم يذكر في عداد المستثنيات العم والخال فاختلف العلماء في مساواتهما في ذلك: فقال الحسن والجمهور: هما مساويان لمن ذكر من المحارم وهو ظاهر مذهب مالك إذ لم يذكر المفسرون من المالكية مثل ابن الفرس وابن جزي عنه المنع. وقال الشعبي بالمنع وعلل التفرقة بأن العم والخال قد يصفان المرأة لأبنائهما وأبناؤهما غير محارم، وهذا تعليل واه لأن وازع الإسلام يمنع من وصف المرأة.
والظاهر أن سكوت الآية عن العم والخال ليس لمخالفة حكمهما حكم بقية المحارم ولكنه اقتصار على الذين تكثر مزاولتهم بيت المرأة، فالتعداد جرى على الغالب. ويلحق بهؤلاء القرابة من كان في مراتبهم من الرضاعة لقول النبي صلى الله عليه وسلم يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب . وجزم بذلك الحسن، ولم أر فيه قولا للمالكية. وظاهر الحديث أن فيهم من الرخصة ما في محارم النسب والصهر.
)ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن(الضرب بالأرجل إيقاع المشي بشدة كقوله: يضرب في الأرض.
روى الطبري عن حضرمي: أن امرأة اتخذت برتين تثنية برة بضم الباء وتخفيف الراء المفتوحة ضرب من الخلخال من فضة واتخذت جزعا في رجليها فمرت بقوم فضربت برجلها فوقع الخلخال على الجزع فصوت فنزلت هذه الآية.
والتحقيق أن من النساء من كن إذا لبسن الخلخال ضربن بأرجلهن في المشي بشدة لتسمع قعقعة الخلاخل غنجا وتباهيا بالحسن فنهين عن ذلك مع النهي عن إبداء الزينة.
قال الزجاج: سماع هذه الزينة أشد تحريكا للشهوة من النظر للزينة. فأما صوت الخلخال المعتاد فلا ضير فيه.
وفي أحاديث أن وهب من جامع العتبية: سئل مالك عن الذي يكون في أرجل النساء من الخلاخل قال:)ما هذا الذي جاء فيه الحديث وتركه أحب إلى من غير تحريم(. قال ابن رشد في شرحه: أراد أن الذي يحرم إنما هو أن يقصدن في مشيهن إلى إسماع قعقعة الخلاخل إظهارا بهن من زينتهن.
وهذا يقتضي النهي عن كل ما من شأنه أن يذكر الرجل بلهو النساء ويثير منه إليهن من كل ما يرى أو يسمع من زينة أو حركة كالتثني والغناء وكلم الغزل. ومن ذلك رقص النساء في مجالس

الرجال ومن ذلك التلطخ بالطيب الذي يغلب عبيقه. وقد أومأ إلى علة ذلك قوله تعالى)ليعلم ما يخفين من زينتهن(. ولعن النبي صلى الله عليه وسلم المستوشمات والمتفلجات للحسن.

قال مكي بن أبي طالب ليس في كتاب الله آية أكثر ضمائر من هذه الآية جمعت خمسة وعشرين ضميرا للمؤمنات من مخفوض ومرفوع وسماها أبو بكر ابن العربي: آية الضمائر.

)وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون[31](أعقبت الأوامر والنواهي الموجهة إلى المؤمنين بأمر جميعهم بالتوبة إلى الله إيماء إلى أن فيما أمروا به ونهوا عنه دفاعا لداع تدعو إليه الجبلة البشرية من الاستحسان والشهوة فيصدر ذلك عن الإنسان عن غفلة ثم يتغلغل هو فيه فأمروا بالتوبة ليحاسبوا أنفسهم على ما يفلت منهم من ذلك اللمم المؤدي إلى ما هو أعظم.

والجملة معطوفة على جملة)قل للمؤمنين(. ووقع التفات من خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خطاب الأمة لأن هذا تذكير بواجب التوبة المقررة من قبل وليس استئناف تشريع.

ونبه بقوله)جميعا(على أن المخاطبين هم المؤمنون والمؤمنات وإن كان الخطاب ورد بضمير التذكير على التغليب، وأن يؤملوا الفلاح إن هم تابوا وأنابوا.

وتقدم الكلام على التوبة في سورة النساء عند قوله تعالى)إنما التوبة على الله(.

وكتب في المصحف)أيه(بهاء في آخره اعتبارا بسقوط الألف في حال الوصل مع كلمة)المؤمنون(. فقرأها الجمهور بفتح الهاء بدون ألف في الوصل. وقرأها أبو عامر بضم الهاء إتباعا لحركة)أي(. ووقف عليها أبو عمرو والكسائي بألف في آخرها. ووقف الباقون عليها بسكون الهاء على اعتبار ما رسمت به.

صفحة : 2901

)وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله وسع عليم[32](أردفت أوامر العفاف بالإرشاد إلى ما يعين عليه، ويعف نفوس المؤمنين والمؤمنات، ويغض من أبصارهم، فأمر الأولياء بأن يزوجوا أيا ما هم ولا يتركوهن متأيمات لأن ذلك أعف لهن وللرجال الذين يتزوجونهن. وأمر السادة بتزويج عبيدهم وإمائهم. وهذا وسيلة لإبطال البغاء كما سيتبع به في آخر الآية.

والآيامى: جمع أيم بفتح الهمزة وتشديد الياء المكسورة بوزن فيعل وهي المرأة التي لا زوج لها كانت ثيبا أم بكرا. والشائع إطلاق الأيم على التي كانت زوج ثم خلت عنه بفراق أو موته، وأما إطلاقه على البكر التي لا زوج لها فغير شائع فيحمل على انه مجاز كثر استعماله. والأيم في الأصل من أوصاف النساء قال أبو عمرو والكسائي ولذلك لم تقترن به هاء التأنيث فلا يقال: امرأة أئمة. وإطلاق الأيم على الرجل الخلي عن امرأة إما لمشاكلة أو تشبيه، وبعض أئمة اللغة كأبي عبيد والنضر بن شميل يجعل الأيم مشتركا للمرأة والرجل وعليه درج في الكشاف والقاموس.

ووزن أيامى عند الزمخشري أفاعل لأنه جمع أيم بوزن فيعل، وفيعل لا يجمع على فعالى. فأصل أيامى أيائم فوقع فيه قلب مكاني قدمت الميم للتخلص من ثقل الياء بعد حرف المد، وفتحت الميم للتخفيف فقلبت الياء ألفا. وعند ابن مالك وجماعة: وزنه فعالى عل غير قياس وهو ظاهر كلام سيبويه.

و)الأيامى(صيغة عموم لأنه جمع معرف باللام فتشمل البغايا. أمر أولياؤهن بتزويجهن فكان هذا العموم ناسخا لقوله تعالى)والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك(فقد قال جمهور الفقهاء: إن هذه ناسخة للآية التي تقدمت وهو قول مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد. ونقل القول بأن التي قبلها محكمة من غير معين. وزوج أبو بكر امرأة من رجل زنى بها لما شكاه أبوها.

ومعنى التبعيض في قوله)منكم(أنهن من المسلمات لأن غير المسلمات لا يخلون عند المسلمين من أن يكن أزواجا لبعض المسلمين فلا علاقة للآية بهن؛ أو أن يكن مملوكات فهن داخلات في قوله)والصالحين من عبادكم وإمائكم(على الاحتمالات الآتية في معنى)الصالحين(. وأما غيرهن فولايتهن لآهل ملتهن.

والمقصود: الأيامى الحرائر، خصصه قوله بعده)والصالحين من عبادكم وإمائكم(. وظاهر وصف العبيد والإماء بالصالحين أن المراد اتصافهم بالصلاح الديني، أي الأتقياء. والمعنى: لا يحملكم تحقق صلاحهم على إهمال إنكاحهم لأنكم آمنون من وقوعهم في الزنى بل عليكم أن تزوجوهم رفقا بهم ودفعا لمشقة العنت عنهم.

فيفيد أنهم إن لم يكونوا صالحين كان تزويجهم آكد أمرا. وهذا من دلالة الفحوى فيشمل غير الصالحين غير الإعفاء والعفائف من المماليك المسلمين، ويشمل المماليك غير المسلمين. وبهذا التفسير تنقشع الحيرة التي عرضت للمفسرين في التقييد بهذا الوصف. وقيل أريد بالصالحين الصلاح للتزوج بمعنى اللياقة لشؤون الزوج، أي إذا كانوا مظنة القيام بحقوق الزوجية.

وفي صيغة الأمر في قوله تعالى)وأنكحوا الأيامي منكم(إلى آخره مجملة تحتمل الوجوب والندب بحسب ما يعرض من حال المأمور بإنكاحهم: فإن كانوا مظنة الوقوع في مضار في الدين أو الدنيا كان إنكاحهم واجبا، وإن لم يكونوا كذلك فعند مالك وأبي حنيفة إنكاحهم مستحب. وقال الشافعي: لا يندب، وحمل الأمر عل الإباحة، وهو محمل ضعيف في مثل هذا المقام إذ ليس المقام مظنة تردد في إباحة تزويجهم.

وجملة)إن يكونوا فقراء(إلخ استئناف بياني لأن عموم الأيامى والعبيد والإماء في صيغة الأمر يثير سؤال الأولياء والموالي أن يكون الراغب في تزوج المرأة الأيم فقيرا فهل يرده الوالي، وأن يكون سيد العبيد فقيرا لا يجد ما ينفقه على زوجه، وكذلك سيد الأمة يخطبها رجل فقير حر أو عبد فجاء هذا لبيان إرادة العموم في الأحوال. ووعد الله المتزوج من هؤلاء إن كان فقيرا أن يغنيه الله، وإغناؤه تيسير الغنى إليه إن كان حرا وتوسعة المال على مولاه إن كان عبدا فلا عذر للولي ولا للمولى أن يرد خطبته في هذه الأحوال.

صفحة : 2902

وإغناء الله إياهم توفيق ما يتعاطونه من أسباب الرزق التي اعتادوها مما يرتبط به سعيهم الخاص من مقرنة الأسباب العامة أو الخاصة التي تفيد سعيهم نجاحا وتجارتهم رباحا. والمعنى: أن الله تكفل لهم أن يكفيهم مؤنة ما يزيده التزوج من نفقاتهم.

وصفة الله)الواسع(مشتقة من فعل وسع باعتبار أنه مجازي لأن الموصوف بالسعة هو إحسانه. قال حجة الإسلام: والسعة تضاف مرة إلى العلم إذا اتسع وأحاط بالمعلومات الكثيرة، وتضاف مرة إلى الإحسان وبذل النعم، وكيفما قدر وعلى أي شيء نزل فالواسع المطلق هو الله تعالى لأنه إن نظر إلى علمه فلا ساحل لبحر معلوماته وإن نظر إلى إحسانه ونعمه فلا نهاية لمقدوراته اه.

والذي يؤخذ من استقراء القرآن أن وصف الواسع المطلق إنما يراد به سعة الفضل والنعمة، ولذلك يقرن بوصف العلم ونحوه قال تعالى)وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما(. أما إذا ذكرت السعة بصيغة الفعل فيراد بها الإحاطة فيما تميز به كقوله تعالى)وسع ربنا كل سيء علما(.

وذكر)عليم(بعد)واسع(إشارة إلى أنه يعطي فضله على مقتضى ما علمه من الحكمة في مقدار الإعطاء.

)وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله(.
أمر كل من تعلق به الأمر بالإنكاح بأن يلازموا العفاف في مدة انتظارهم تيسير النكاح لهم بأنفسهم أو بأذن أوليائهم ومواليهم. والسين والتاء للمبالغة في الفعل، أي وليعف الذين لا يجدون نكاحا. ووجه دلالته على المبالغة أنه في الأصل استعارة. وجعل طلب الفعل بمنزلة طلب السعي فيه ليدل على بذل الوسع.
ومعنى)لا يجدون نكاحا(لا يجدون قدرة على النكاح ففيه حذف مضاف. وقيل النكاح هنا اسم ما هو سبب تحصيل النكاح كاللباس واللحاف.
فالمراد المهر الذي يبذل للمرأة.
والإغناء هنا هو إغناؤهم بالزواج. والفضل: زيادة العطاء.
)والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وأتوهم من مال الله الذي آتاكم(لما ذكر وعد الله من يزوج من العبيد الفقراء بالغنى وكان من وسائل غناه أن يذهب يكتسب بعمله وكان ذلك لا يستقل به العبد لأنه في خدمة سيده جعل الله للعبيد حقا في الاكتساب لتحرير أنفسهم من الرق ويكون في ذلك غنى للعبد إن كان من ذوي الأزواج. أمر الله السادة بإجابة من يبتغي الكتابة من عبيدهم تحقيقا لمقصد الشريعة من بث الحرية في الأمة، ولمقصدها من إكثار النسل في الأمة، ولمقصدها من تزكية الأمة واستقامة دينها.
و)الذين(مرفوع بالابتداء أو منصوب بفعل مضمر يفسره) فكاتبوهم(. وهذا الثاني هو اختيار سيبويه والخليل.
ودخول الفاء في)فكاتبوهم(لتضمين الموصول معنى الشرطية كأنه قيل: إن ابتغى الكتاب ما ملكت أيمانكم فكاتبوهم، تأكيدا لترتب الخبر على تحقق مضمون صلة الموصول بأن يكون كترتب الشروط على الشرط.
والكتاب: مصدر كاتب إذا عاقد على تحصيل الحرية من الرق على قدر معين من المال يدفع لسيد العبد منجما، أي موزعا على مواقيت معينة، كانوا في الغالب يوقتونها بمطالع نجوم المنازل مثل الثريا فلذلك سموا توقيت دفعها نجما وسموا توزيعها تنجيما، ثم غلب ذلك في كل توقيت فيقال فيه: تنجيم. وكذلك الديات والحمالات كانوا يجعلونها موزعة على مواقيت فيسمون ذلك تنجيما وكان تنجيم الدية في ثلاث سنين على السواء، قال زهير:
تعفى الكلوم بالمئين فأصبحت ينجمها
من ليس فيها بمجرم وسموا ذلك كتابة لأن السيد وعبده كانا يسجلان عقد تنجيم عوض الحرية بصك يكتبه كاتب بينهما، فلما كان في الكتب حفظ لحق كليهما أطلق على ذلك التسجيل كتابة لأن ما

يتضمنه هو عقد من جانبين، وإن كان الكاتب واحدا والكتب واحدا. وفي حديث عبد الرحمان بن عوف: كاتبت أمية بن خلف كتابا بأن يحفظني في صاغيتي بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة.
ومعنى)إن علمتم فيهم خيرا(إن ظننتم أنهم لايبتغون بذلك إلا تحرير أنفسهم ولا يبتغون بذلك تمكنا من الإباق، وذلك الخير بالقدرة على الاكتساب وبصفة الأمانة ولا يلزم أن يتحقق دوام ذلك لأنه إن عجز عن إكمال ما عليه رجع عبدا كما كان.

صفحة : 2903

وكانت الكتابة معروفة من عهد الجاهلية ولكنها كانت على خيار السيد فجاءت هذه الآية تأمر السادة بذلك إن رغبه العبد أو لحثه على ذلك على اختلاف بين الأئمة في محمل الأمر من قوله تعالى)فكاتبوهم(. فعن عمر بن الخطاب ومسروق وعمرو بن دينار وابن عباس والضحاك وعطاء وعكرمة والظاهرية أن الكتابة واجبة على السيد إذا علم خيرا في عبده وقد وكله الله في ذلك إلى علمه ودينه، واختاره الطبري وهو الراجح لأنه يجمع بين مقصد الشريعة وبين حفظ حق السادة في أموالهم فإذا عرض العبد اشتراء نفسه من سيده وجب عليه إجابته. وقد هم عمر بن الخطاب أن يضرب أنس بن مالك بالدرة لما سأله سيرين عبده أن يكاتبة فأبى أنس. وذهب الجمهور إلى حمل الأمر على الندب.
وقد ورد في السنة حديث كتابة بريرة مع سادتها وكيف أدت عنها عائشة أم المؤمنين مال الكتابة كله. وذكر ابن عطية عن النقاش ومكي بن أبي طالب أن سبب نزول هذه الآية: أن غلاما لحويطب بن عبد العزي أو لحاطب بن أبي بلتعة اسمه صبيح القبطي أو صبح سأل مولاه الكتابة فأبى عليه فأنزل الله هذه الآية فكاتبه مولاه. وفي الكشاف أن عمر بن الخطاب كاتب عبدا له يكنى أبا أمية أول عبد كوتب في الإسلام.
والظاهر أن الخطاب في قوله)وآتوهم من مال الله الذي آتاكم(موجه إلى سادة العبيد ليتناسق الخطابان وهو أمر للسادة بإعانة مكاتبيهم بالمال الذي أنعم الله به عليهم فيكون ذلك بالتخفيف عنهم من مقدار المال الذي وقع التكاتب عليه. وكذلك قال مالك: يوضع عن المكاتب من آخر كتابته ما تسمح به نفس السيد. وحدده بعض السلف بالربع وبعضهم بالثلث وبعضهم بالعشر.
وهذا التخفيف أطلق عليه لفظ)الإيتاء(وليس ثمة إيتاء ولكنه لما كان إسقاطا لما وجب على المكاتب كان ذلك بمنزلة الإعطاء كما

سمي إكمال المطلق قبل البناء لمطلقته جميع الصداق عفوا في قوله تعالى)أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح(في قول جماعة في محمل)الذي بيده عقدة النكاح(منهم الشافعي.

وقال بعض المفسرين: الخطاب في قوله)وآتوهم(للمسلمين، أمرهم الله بإعانة المكاتبين.

والأمر محمول على الندب عند أكثر العلماء وحمله الشافعي على الوجوب. وقال إسماعيل بن حماد القاضي: وجعل الشافعي الكتابة غير واجبة وجعل الأمر بالإعطاء للوجوب فجعل الأصل غير واجب والفرع واجبا وهذا لا نظير له اه وفيه نظر.

وإضافة المال إلى الله لأنه ميسر أسباب تحصيله. وفيه إيماء إلى أن الإعطاء من ذلك المال شكر والإمساك جحد للنعمة قد يتعرض به الممسك لتسلب النعمة عنه.

والموصول في قوله الذي)آتاكم(يجوز أن يكون وصفا ل)مال الله(ويكون العائد محذوفا تقديره: آتاكموه. ويجوز أن يكون وصفا لاسم الجلالة فيكون امتنانا وحثا على الامتثال بتذكير أنه ولي النعمة ويكون مفعولا)آتاكم(محذوفا للعموم، أي آتاكم على الامتثال بتذكير أنه ولي النعمة، ويكون مفعول)آتاكم(محذوفا للعموم، أي آتاكم نعما كثيرة كقوله)وآتاكم من كل ما سألتموه(.

وأحكام الكتابة وعجز المكاتب عن أداء نجومه ورجوعه مملوكا وموت المكاتب وميراث الكتابة وأداء أبناء المكاتب نجوم كتابته مسبوطة في كتب الفروع.

)ولا تكرهوا فتيتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم[33]

(انتقال إلى تشريع من شؤون المعاملات بين الرجال والنساء التي لها أثر في الأنساب ومن شؤون حقوق الموالي والعبيد، وهذا الانتقال لمناسبة ما سبق من حكم الاكتساب المنجر من العبيد لمواليهم وهو الكتابة فانتقل إلى حكم البغاء.

والبغاء مصدر: باغت الجارية. إذا تعاطت الزنى بالأجر حرفة لها، فالبغاء الزنى بأجرة. واشتقاق صيغة المفاعلة فيه للمبالغة والتكرير ولذلك لا يقال إلا: باغت الأمة. ولا يقال: بغت. وهو مشتق من البغي بمعنى الطلب كما قال عياض في المشارق لأن سيد الأمة بغى بها كسبا. وتسمى المرأة المحترفة له بغيا بوزن فعول بمعنى فاعل ولذلك لا تقترن به هاء التأنيث. فأصل بغي بغوي فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء.

وقد كان هذا البغاء مشروعا في الشرائع السالفة فقد جاء في سفر التكوين في الإصحاح 38: فخلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلففت وجلست في مدخل عينائم التي على الطريق ثم قال فنظرها يهوذا وحسبها زانية لأنها كانت قد غطت وجهها فمال إليها على الطريق وقال: هاتي أدخل عليك. فقالت: ماذا تعطيني؟ فقال: أرسل لك جدي معزى من الغنم.. ثم قال ودخل عليها فحبلت منه .

وقد كانت في المدينة إماء بغايا منهن ست إماء لعبد الله بن أبي بن سلول وهن: معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة، وكان يكرههن على البغاء بعد الإسلام. قال ابن العربي: روى مالك عن الزهري أن رجلا من أسرى قريش في يوم بدر قد جعل عند عبد الله بن أبي وكان هذا الأسير يريد معاذة على نفسها وكانت تمتنع منه لأنها أسلمت وكان عبد الله بن أبي يضربها على امتناعها منه رجاء أن تحمل منه أي من الأسير القرشي فيطلب فداء ولده، أي فداء رقه من ابن أبي. ولعل هذا الأسير كان مؤسرا له مال بمكة وكان الزاني بالأمة يفتدي ولده بمائة من الإبل يدفعها لسيد الأمة، وأنها شكته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية.

وقالوا إن عبد الله ابن أبي كان قد أعد معاذة لإكرام ضيوفه فإذا نزل عليه ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الكرامه له. فأقبلت معاذة إلى أبي بكر فشكت ذلي إليه فذكر أبو بكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأمر النبي أبا بكر بقبضها فصاح عبد الله بن أبي: من يعذرنا من محمد يغلبنا على مماليكنا. فأنزل الله هذه الآية، أي وذلك قبل أن يتظاهر عبد الله بن أبي بالإسلام. وجميع هذه الآثار متظافرة على أن هذه الآية كان بها تحريم البغاء على المسلمين والمسلمات المالكات أمر أنفسهن.

وكان بمكة تسع بغايا شهيرات يجعلن على بيوتهن رايات مثل رايات البطار ليعرفهن الرجال، وهن كما ذكر الواحدي: أم مهزول جارية السائب المخزومي، وأم غليظ جارية صفوان بن أمية، وحية القبطية جارية العاصي ابن وائل، ومزنة جارية مالك بن عميلة بن السباق، وجلالة جارية سهيل بن عمرة، وأم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومي، وشريفة جارية ربيعة ابن أسود، وقرينة أم قريبة جارية هشام بن ربيعة، وقرينة جارية هلال بن أنس. وكانت بيوتهن تسمى في الجاهلية المواخير.

قلت: وتقدم أن من البغايا عناق ولعلها هي أم مهزول كما يقتضيه كلام القرطبي في تفسير قوله تعالى)الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة(. ولم أقف على أن واحدة من هؤلاء اللاتي كن بمكة أسلمت وأما اللاتي كن بالمدينة فقد أسلمت منهن معاذة ومسيكة وأميمة، ولم أقف على أسماء الثلاث الأخر في الصحابة فلعلهن هلكن قبل أن يسلمن.

والبغاء في الجاهلية كان معدودا من أصناف النكاح. ففي الصحيح من حديث عائشة أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها.

ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طئها أرسلي إلي فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب. وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاح يسمى نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومر عليها الليالي بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها.

ونكاح رابع يجتمع الناس فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن الرايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به ودعى ابنه، فلما بعث محمد بالحق هدم نكاح الجاهلية كل إلا نكاح الناس اليوم اه.

صفحة : 2905

فكان البغاء في الحرائر باختيارهن إياه للارتزاق، وكانت عناق صاحبة مرثد بن أبي مرثد التي تقدم ذكرها عند قوله تعالى)الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة(. وكان في الإماء من يلزمهن سادتهن عليه لاكتساب أجور بغائهن فكما كانوا يتخذون الإماء للخدمة وللتسري كانوا يتخذون بعضهن للاكتساب وكانوا يسمون أجرهن مهرا كما جاء في حديث أبي مسعود أن رسول الله نهى عن مهر البغي ولأجل هذا اقتصرت الآية على ذكر الفتيات جمع فتاة بمعنى الأمة، كما قالوا للعبد: غلام.

واعلم أن تفسير هذه الآية معضل وأن المفسرين ما وفوها حق البيان وما أتوا إلا إطنابا في تكرير مختلف الروايات في سبب نزولها وأسماء من وردت أسماؤهم في قضيتها دون إفصاح عما يستخلصه الناظر من معانيها وأحكامها.

ولا ريب أن الخطاب بقوله تعالى)ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء(موجه إلى المسلمين، فإذا كانت قصة أمة ابن أبي حدثت بعد أن أظهر سيدها الإسلام كان هو سبب النزول فشمله العموم لا محالة، وإن كانت حدثت قبل أن يظهر الإسلام فهو سبب ولا يشمله الحكم لأنه لم يكن من المسلمين يومئذ وإنما كان تذمر أمته من داعيا لنهي المسلمين عن إكراه فتياتهم على البغاء. وأياما كان فالفتيات مسلمات لأن المشركات لا يخاطبن بفروع الشريعة؛ وقد كان إظهار عبد الله بن أبي الإسلام في أثناء السنة الثانية من الهجرة فإنه تردد زمنا في الإسلام ولما رأى قومه دخلوا في الإسلام دخل فيه كارها مصرا على النفاق. ويظهر أن قصة أمته حدثت في مدة صراحة كفره لما علمت مما روي عن الزهري من قول ابن أبي حين نزلت: من يعذرنا من محمد يغلبنا على مماليكنا، ونزول سورة النور كان في حدود السنة الثانية كما علمت في أول الكلام عليها فلا شك أن البغاء الذي هو من عمل الجاهلية استمر زمنا بعد الهجرة بنحو سنة.

ولا شك أن البغاء يمت إلى الزاني بشبه لما فيه من تعريض الأنساب للاختلاط وإن كان لا يبلغ مبلغ الزنى في خرم كلية حفظ النسب من حيث كان الزانى سرا لا يطلع عليه إلا من اقترفه وكان البغاء علنا، وكانوا يرجعون في إلحاق الأبناء الذي تلدهم البغايا بآبائهم إلى إقرار البغي بأن الحمل ممن تعينه. واصطلحوا على الأخذ بذلك في النسب فكان شبيها بالاستلحاق على أنه قد يكون من البغايا من لا ضبط لها في هذا الشأن فيفضي الأمر إلى عدم التحاق الولد بأحد.

ولا شك في أن الزنى كان محرما تحريما شديدا على المسلم من مبدإ ظهور الإسلام. وكانت عقوبته فرضت في حدود السنة الأولى بعد الهجرة بنزول سورة النور كما تقدم في أولها. وقد أثبتت عائشة أن الإسلام هدم أنكحة الجاهلية الثلاثة وأبقى النكاح المعروف ولكنها لم تعين ضبط زمان ذلك الهدم.

ولا يعقل أن يكون البغاء محرما قبل نزول هذه الآية إذ لم يعرف قبلها شيء في الكتاب والسنة يدل على تحريم البغاء، ولأنه لو كان كذلك لم يتصور حدوث تلك الحوادث التي كانت سبب نزول الآية إذ لا سبيل للإقدام على محرم بين المسلمين أمثالهم.

ولذلك فالآية نزلت توطئة لإبطاله كما نزل قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى(توطئة لتحريم الخمر البتة. وهو الذي جرى عليه المفسرون مثل الزمخشري والفخر بظاهر عباراتهم دون صراحة بل بما تأولوا به معاني الآية إذ تأولوا قوله)إن أردن تحصنا(بأن الشرط لا يراد به عدم النهي عن الإكراه على البغاء إذا انتفت إرادتهن التحصن بل كان الشرط خرج مخرج الغالب لأن إرادة التحصن هي غالب أحوال الإماء البغايا المؤمنات إذ كن يحببن التعفف، أو لأن القصة التي كانت سبب نزول الآية كانت معها إرادة التحصن.

والداعي إلى ذكر القيد تشنيع حالة البغاء في الإسلام بأنه عن إكراه وعن منع من التحصن. ففي ذكر القيدين إيماء إلى حكمة تحريمه وفساده وخباثة الاكتساب به.

وذكر)إن أردن تحصنا(لحالة الإكراه إذ إكراههم إياهن لا يتصور إلا وهن يأبين وغالب الإباء أن يكون عن إرادة التحصن. هذا تأويل الجمهور ورجعوا في الحامل على التأويل إلى حصول إجماع الأمة على حرمة البغاء سواء كان الإجماع لهذه الآية أو بدليل آخر انعقد الإجماع على مقتضاه فلا نزاع في أن الإجماع على تحريم البغاء ولكن النظر في أن تحريمه هل كان بهذه الآية.

صفحة : 2906

وأنا أقول: إن ذكر الإكراه جرى على النظر لحال القضية التي كانت سبب النزول.

والذي يظهر من كلام ابن العربي أنه قد نحا بعض العلماء إلى اعتبار الشرط في الآية دليلا على تحريم الإكراه على البغاء بقيد إرادة الإماء التحصن. فقد تكون الآية توطئة لتحريم البغاء تحريما باتا، فحرم على المسلمين أن يكرهوا إماءهم على البغاء لأن الإماء المسلمات يكرهن ذلك ولا فائدة لهن فيه، ثم لم يلبث أن حرم تحريما مطلقا كما دل عليه حديث أبي مسعود الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن مهر البغي، فإن النهي عن أكله يقتضي إبطال البغاء.

وقد يكون هذا الاحتمال معضودا بقوله تعالى بعده)ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم(كما يأتي.

وفي تفسير الأصفهاني: وقيل إنما جاء النهي عن الإكراه لا عن البغاء لأن حد الزنا نزل بعد هذا . وهذا يقتضي أن صاحب هذا القول يجعل أول السورة نزل بعد هذه الآيات ولا يعرف هذا.

وقوله)لتبتغوا عرض الحياة الدنيا(متعلق ب)تكرهوا(أي لا تكرهوهن لهذه العلة. ذكر هذه العلة لزيادة التبشيع كذكر)إن أردن تحصنا(.
و)عرض الحياة(هو الأجر الذي يكتسبه الموالي من إمائهم وهو ما يسمى بالمهر أيضا.
وأما قوله)ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم(فهو صريح في أنه حكم متعلق بالمستقبل لأنه مضارع في حيز الشرط، وهو صريح في أنه عفو عن إكراه.
والذي يشتمل عليه هذا الخبر جانبان: جانب المكرهين وجانب المكرهات بفتح الراء ، فأما جانب المكرهين فلا يخطر بالبال أن الله غفور رحيم لهم بعد أن نهاهم عن الإكراه إذ ليس لمثل هذا التبشير نظير في القرآن.
وأما الإماء المكرهات فإن الله غفور رحيم لهن. وقد قرأ بهذا المقدر عبد الله بن مسعود وابن عباس فيما يروى عنهما وعن الحسن أنه كان يقول غفور رحيم لهن والله . وجعلوا فائدة هذا الخبر أن الله عذر المكرهات لأجل الإكراه، وأنه من قبيل قوله) فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم(. وعلى هذا فهو تعريض بالوعيد للذين يكرهون الإماء على البغاء.
ومن المفسرين من قدر المحذوف ضمير)من(الشرطية، أي غفور رحيم له، وتأولوا ذلك بأنه بعد أن يقلع ويتوب وهو تأويل بعيد.
وقوله)فإن الله غفور رحيم(دليل جواب الشرط إذ حذف الجواب إيجازا واستغنى عن ذكره بذكر علته التي تشمله وغيره. والتقدير: فلا إثم عليهن فإن الله غفور رحيم لأمثالهن ممن أكره على فعل جريمة.
والفاء رابطة الجواب.
وحرف)إن(في هذا المقام يفيد التعليل ويغني غناء لام التعلل.
)ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين[34](ذيلت الأحكام والمواعظ التي سبقت بإثبات نفعها وجدواها لما اشتملت عليه مما ينفع الناس ويقيم عمود جماعتهم ويميز الحق من الباطل ويزيل من الأذهان اشتباه الصواب بالخطأ فيعلم الناس طرق النظر الصائب والتفكير الصحيح، وذلك تنبيه لما تستحقه من التدبر فيها ولنعمة الله على الأمة بإنزالها ليشكروا الله حق شكره.

ووصف هذه الآيات المنزلة بثلاث صفات كما وصف السورة في طالعتها بثلاث صفات. والمقصد من الأوصاف في الموضعين هو الامتنان فكان هذا يشبه رد العجز على الصدر، فجملة)ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات(مستأنفة استئناف التذييل وكان مقتضى الظاهر أن لا تعطف لأن شأن التذييل والاستئناف الفصل كما فصلت أختها الآتية قريبا بقوله تعالى)لقد أنزلنا آيات مبينات(. وإنما عدل عن الفصل إلى العطف لأن هذا ختام التشريعات والأحكام التي نزلت السورة لأسبابها. وقد خللت بمثل هذا التذييل مرتين قبل هذا بقوله تعالى في ابتداء السورة)وأنزلنا فيها آيات بينات(ثم قوله)ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم(قم قوله هنا)ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات(فكان كل واحد من هذه التذييلات زائدا على الذي قبله؛ فالأول زائد بقوله)يبين الله لكم الآيات(لأنه أفاد أن بيان الآيات لفائدة الأمة، وما هنا زاد بقوله)ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين(، فكانت كل زيادة من هاتين مقتضية العطف لما حصل من المغايرة بينها وبين أختها، وتعتبر كل واحدة عطفا على نظيرتها، فوصفت السورة كلها بثلاث صفات، ووصف ما كان من هذه السورة مشتملا على أحكام القذف والحدود وما يفضي إليها أو إلى مقاربها من أحوال المعاشرة بين الرجال والنساء بثلاث صفات، فقوله هنا)ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات(يطابق قوله في أول السورة)وأنزلنا فيها آيات بينات(وقوله)ومثلا من الذين خلوا من قبلكم(يقابل قوله في أول السورة)وفرضناها(على ما اخترناه في تفسير ذلك بأن معناه التعيين والتقدير لأن في التمثيل تقديرا وتصويرا للمعاني بنظائرها وفي ذلك كشف للحقائق، وقوله) وموعظة للمتقين(يقابل قوله في أولها)لعلكم تذكرون(.

والآيات جمل القرآن لأنها لكمال بلاغتها وإعجازها المعاندين عن أن يأتوا بمثلها كانت دلائل على أنه كلام منزل من عند الله.

وابتدئ الكلام بلام القسم وحرف التحقيق للاهتمام به.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب)مبينات(بفتح التحتية على صيغة المفعول. فالمعنى: أن الله بينها ووضحها. وقرأ الباقون بكسر التحتية على معنى أنها أبانت المقاصد التي أنزلت لأجلها. ومعنيا القراءتين متلازمان فبذلك لم يكن تفاوت بين مفاد هذه الآية ومفاد قوله في نظيرتها)وأنزلنا فيها آيات بينات(في أول السورة لأن البينات هي الواضحة، أي الواضحة الدلالة والإفادة.

والمثل: النظير والمشابه. ويجوز أن يراد به الحال العجيبة.

و)من(في قوله)من الذين خلوا(ابتدائية، أي مثلا ينشأ ويتقوم من الذين خلوا. والمراد نشأة المشابهة. وفي الكلام حذف مضاف يدل

عليه السياق تقديره: من أمثال الذين خلوا من قبلكم. وحذف المضاف في مثل هذا طريقة فصيحة، قال النابغة:

وقد خفت حتى ماتزيد مخافـتـي
على وعل في ذي المطارة عاقل أراد على مخافة وعل.

و)الذين خلوا من قبلكم(هم الأمم الذين سبقوا المسلمين، وأراد: من أمثال صالحي الذي خلوا من قبلكم.

وهذا المثل هو قصة الإفك النظيرة لقصة يوسف وقصة مريم في تقول البهتان على الصالحين البراء.

والموعظة: كلام أو حالة يعرف منها المرء مواقع الزلل فينتهي عن اقتراف أمثالها. وقد تقدم عند قوله تعالى)فأعرض عنهم وعظهم(في سورة النساء وقوله)موعظة وتفصيلا لكل شيء(في سورة الأعراف.

ومواعظ هذه الآيات من أول السورة كثيرة كقوله)وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين(وقوله)لولا إذ سمعتموه(الآيات، وقوله)يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا(.

والمتقون: الذين يتقون، أي يتجنبون ما نهوا عنه.

)الله نور السماوات و الأرض(أتبع منة الهداية الخاصة في أحكام خاصة المفادة من قوله تعالى)ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات(الآية بالامتنان بأن الله هو مكون أصول الهداية العامة والمعارف الحق للناس كلهم بإرسال رسوله بالهدى ودين الحق، مع ما في هذا الامتنان من الإعلام بعظمة الله تعالى ومجده وعموم علمه وقدرته.

صفحة : 2908

والذي يظهر لي أن جملة:)الله نور السماوات والأرض(معترضة بين الجملة التي قبلها وبين جملة)مثل نوره كمشكاة(وأن جملة) مثل نوره كمشكاة(بيان لجملة)ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات(كما سيأتي في تفسيرها فتكون جملة)الله نور السماوات والأرض(تمهيدا لجملة)مثل نوره كمشكاة(.

ومناسبة موقع جملة)مثل نوره كمشكاة(بعد جملة)ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات(أن آيات القرآن نور قال تعالى)وأنزلنا إليكم نورا مبينا(في سورة النساء، وقال)قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين(في سورة العقود، فكان قوله)الله نور السماوات والأرض(كلمة جامعة لمعاني جمة تتبع معاني النور في إطلاقه في الكلام.

وموقع الجملة عجيب من عدة جهات، وانتقال من بيان الأحكام إلى غرض آخر من أغراض الإرشاد وأفانين من الموعظة والبرهان.
والنور: حقيقته الإشراق والضياء. وهو اسم جامد لمعنى، فهو كالمصدر لأنا وجدناه أصلا لاشتقاق أفعال الإنارة فشابهت الأفعال المشتقة من الأسماء الجامدة نحو: استنوق الجمل، فأن فعل أنار مثل فعل أفلس، وفعل استنار مثل فعل استحجر الطين. وبذلك كان الإخبار به بمنزلة الإخبار بالمصدر أو باسم الجنس في إفادة المبالغة لأنه اسم ماهية من المواهي فهو والمصدر سواء في الاتصاف.
فمعنى)الله نور السماوات والأرض(أن منه ظهورهما. والنور هنا صالح لعدة معان تشبه بالنور، وإطلاق اسم النور عليها مستعمل في اللغة.
فالإخبار عن الله تعالى بأنه نور إخبار بمعنى مجازي للنور لا محالة بقرينة أصل عقيدة الإسلام أن الله تعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا يتردد في ذلك أحد من أصحاب اللسان العربي ولا تخلو حقيقة معنى النور عن كونه جوهرا أو عرضا. وأسعد إطلاقات النور في اللغة بهذا المقام أن يراد به جلاء الأمور التي شأنها أن تخفي عن مدارك الناس وتلتبس فيقل الاهتداء إليها، فإطلاقه على ذلك مجاز بعلامة التسبب في الحس والعقل وقال الغزالي في رسالته المعروفة بمشكاة الأنوار: النور هو الظاهر الذي به كل ظهور، أي الذي تنكشف به الأشياء وتنكشف له وتنكشف منه وهو النور الحقيقي وليس فوقه نور. وجعل اسمه تعالى النور دالا على التنزه عن العدم وعلى إخراج الأشياء كلها عن ظلمة العدم إلى ظهور الوجود فآل إلى ما يستلزمه اسم النور من معنى الإظهار والتبيين في الخلق والإرشاد والتشريع وتبعه ابن برجان الإشبيلي في شرح الأسماء الحسنى فقال: إن اسمه النور آل إلى صفات الأفعال اه.
أما وصف النور هنا فيتعين أن يكون ملائما لما قبل الآية من قوله)لقد أنزلنا إليكم آيات مبينات(وما بعدها من قوله)مثل نوره كمشكاة(إلى قوله)يهدي الله لنوره من يشاء(وقوله عقب ذلك) ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور(. وقد أشرنا آنفا إلى أن للنور إطلاقات كثيرة وإضافات أخرى صالحة لأن تكون مرادا من وصفه تعالى بالنور، وقد ورد في مواضع من القرآن والحديث فيحمل الإطلاق في كل مقام على ما يليق بسياق الكلام ولا يطرد ذلك على منوال واحد حيثما وقع، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن فإن عطف ومن فيهن يؤذن بأن المراد ب)السماوات والأرض(ذاتهما لا الموجودات التي فيهما فيتعين أن يراد بالنور

هنالك إفاضة الوجود المعبر عنه بالفتق في قوله تعالى)كانتا رتقا ففتقناهما(. والمعنى: أنه بقدرته تعالى استقامت أمورهما.
والتزام حكماء الإشراق من المسلمين وصوفية الحكماء معاني من إطلاقات النور. وأشهرها ثلاث: البرهان العلمي، والكمال النفساني، وما به مشاهدة النورانيات من العوالم. وإلى ثلاثتها أشار شهاب الدين يحيى السهروردي في أول كتابه هياكل النور بقوله يا قيوم أيدنا بالنور، وثبتنا على النور، واحشرنا إلى النور كما بينه جلال الدين الدواني في شرحه.
ونلحق بهذه المعاني إطلاق النور على الإرشاد إلى الأعمال الصالحة وهو الهدي.

صفحة : 2909

وقد ورد في آيات إطلاق النور على ما هو أعم من الهدي كما في قوله تعالى)إذا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور(وقوله)قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس(فعطف أحد اللفظين على الآخر مشعر بالمغايرة بينهما. وليس شيء من معاني لفظ النور الوارد في هذه الآيات بصالح لأن يكون هو الذي جعل وصفا لله تعالى لا حقيقة ولا مجازا فتعين أن لفظ)نور(في قوله)مثل نوره كمشكاة(غير المراد بلفظ نور في قوله)الله نور السماوات والأرض(فالنور لفظ مشترك استعمل في معنى وتارة أخرى في معنى آخر.
فأحسن ما تفسر به قوله تعالى)الله نور السماوات والأرض(أن الله موجد كل ما يعبر عنه بالنور وخاصة أسباب المعرفة الحق والحجة القائمة والمرشد إلى الأعمال الصالحة التي بها حسن العاقبة في العالمين العلوي والسفلي، وهو من استعمال المشترك في معانيه.
ويجوز أن يراد بالسماوات والأرض من فيهما من باب)واسأل القرية(وهو أبلغ من ذكر المضاف المحذوف لأن في هذا الحذف إيهام أن السماوات والأرض قابلة لهذا النور كما أن القرية نفسها تشهد بما يسأل منها، وذلك أبلغ في الدلالة على الإحاطة بالمقصود وألطف دلالة. فيشمل تلقين العقيدة الحق والهداية إلى الصلاح؛ فأما هداية البشر إلى الخير والصلاح فظاهرة، وأما هداية الملائكة إلى ذلك فبأن خلقهم الله على فطرة الصلاح والخير. وبأن أمرهم بتسخير القوى للخير، وبأن أمر بعضهم بإبلاغ الهدى بتبليغ الشرائع

وإلهام القلوب الصالحة إلى الصلاح وكانت تلك مظاهر هدي لهم وبهم.

)مثل نوره كمشكوة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور(يظهر أن هذه الجملة بيان لجملة)ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات(إذ كان ينطوي في معنى)آيات(ووصفها ب)مبينات(ما يستشرف إليه السامع من بيان لما هي الآيات وما هو تبيينها، فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا. ووقعت جملة)الله نور السماوات والأرض(معترضة بين هذه الجملة والتي قبلها تمهيدا لعظمة هذا النور الممثل بالمشكاة.

وجرى كلام كثير من المفسرين على ما يقتضي أنها بيان لجملة) الله نور السماوات والأرض(فيكون موقعها موقع عطف البيان فلذلك فصلت فلم تعطف.

والضمير في قوله)نوره(عائد إلى اسم الجلالة، أي مثل نور الله. والمراد ب)نوره(كتابه أو الدين الذي أختاره، أي مثله في إنارة عقول المهتدين.

فالكلام تمثيل لهيئة إرشاد الله المؤمنين بهيئة المصباح الذي حفت به وسائل قوة الإشراق فهو نور الله لا محالة. وإنما أوثر تشبيهه بالمصباح الموصوف بما معه من الصفات دون أن يشبه نوره بطلوع الشمس بعد ظلمة الليل لقصد إكمال مشابهة الهيئة المشبه بها بأنها حالة ظهور نور يبدو في خلال ظلمة فتنقشع به تلك الظلمة في مساحة يراد تنويرها. ودون أن يشبه بهيئة بزوغ القمر في خلال ظلمة الأفق لقصد إكمال المشابهة لأن القمر يبدو ويغيب في بعض الليلة بخلاف المصباح الموصوف. وبعد هذا فلأن المقصود ذكر ما حف بالمصباح من الأدوات ليتسنى كمال التمثيل بقبوله تفريق التشبيهات كما سيأتي وذلك لا يتأتى القمر.

والمثل: تشبيه حال بحال، وقد تقدم في أوائل سورة البقرة. فمعنى)مثل نوره(: شبيه هديه حال مشكاة.. إلى آخره، فلا حاجة إلى تقدير: كنور مشكاة، لأن المشبه به هو المشكاة وما يتبعها.

وقوله)كمشكاة فيها مصباح(المقصود كمصباح في مشكاة. وإنما قدم)المشكاة(في الذكر لأن المشبه به هو مجموع الهيئة، فاللفظ الدال على المشبه به هو مجموع المركب المبتدئ بقوله) كمشكاة(والمنتهي بقوله)ولو لم تمسسه نار(فلذلك كان دخول كاف الشبه على كلمة)مشكاة(دون لفظ)مصباح(لا يقتضي أصالة لفظ مشكاة في الهيئة المشبه بها دون لفظ)مصباح(بل موجب هذا الترتيب مراعاة الترتيب الذهني في تصور هذه الهيئة لمتخيله

حين يلمح الناظر إلى انبثاق النور ثم ينظر إلى مصدره فيرى مشكاة ثم يبدو له مصباح في زجاجة.

صفحة : 2910

والمشكاة المعروف من كلام أهل اللغة أنها فرجة في الجدار مثل الكوة لكنها غير نافذة فإن كانت نافذة فهي الكوة. ولا يوجد في كلام الموثوق عنهم من أهل العربية غير هذا المعنى، واقتصر عليه الراغب وصاحب القاموس والكشاف واتفقوا على أنها كلمة حبشية أدخلها العرب في كلامهم فعدت في الألفاظ الواقعة في القرآن بغير لغة العرب. ووقع ذلك في صحيح البخاري فيما فسره من مفردات سورة النور.
ووقع في تفسير الطبري وابن عطية عن مجاهد: أن المشكاة العمود الذي فيه القنديل يكون على رأسه، وفي الطبري عن مجاهد أيضا: المشكاة الصفر أي النحاس أي قطعة منه شبيه القصيبة الذي في جوف القنديل. وفي معناه ما رواه هو عن ابن عباس: المشكاة موقع الفتيلة، وفي معناه أيضا ما قاله ابن عطية عن أبي موسى الأشعري: المشكاة الحديد والرصاصة التي يكون فيها الفتيل في جوف الزجاجة. وقول الأزهري: أراد قصبة الزجاجة التي يستصبح فيها وهي موضع الفتيلة.
وقد تأوله الأزهري بأن قصبة الزجاجة شبهت بالمشكاة وهي الكوة فأطلق عليها مشكاة.
والمصباح: اسم للإناء الذي يوقد فيه بالزيت للإنارة، وهي من صيغ أسماء الآلات مثل المفتاح، وهو مشتق من اسم الصبح، أي ابتداء ضوء النهار، فالمصباح آلة الإصباح أي الإضاءة. وإذا كان المشكاة اسما للقصيبة التي توضع في جوف القنديل كان المصباح مرادا به الفتيلة التي توضع في تلك القصيبة.
وإعادة لفظ)المصباح(دون أن يقال: فيها مصباح في زجاجة، كما قال)كمشكاة فيها مصباح(إظهار في مقام الإضمار للتنويه بذكر المصباح لأنه أعظم أركان هذا التمثيل. وكذلك إعادة لفظ) الزجاجة(في قوله)الزجاجة كأنها كوكب دري(لأنه من أعظم أركان التمثيل. ويسمى مثل هذه الإعادة تشابه الأطراف في فن البديع، وأنشدوا فيه قول ليلى الأخيلية في مدح الحجاج بن يوسف:

إذا أنزل الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دائها فشـفـاهـا

شفاها من الداء العضال الذي بها
غلام إذا هز القناة سـقـاهـا
سقاها فرواها بشرب سجـالـه دماء
رجال يحلبون صـراهـا ومما فاقت به الآية عدم تكرار ذلك أكثر من مرتين.

والزجاجة: اسم إناء يصنع من الزجاج، سميت زجاجة لأنها قطعة مصنوعة من الزجاج بضم الزاي وتخفيف الجيمين ملحقة بآخر الكلمة هاء هي علامة الواحد من اسم الجمع كأنهم عاملوا الزجاج معاملة أسماء الجموع مثل تمر، ونمل، ونخل، كانوا يتخذون من الزجاج آنية للخمر وقناديل للإسراج بمصابيح الزيت لأن الزجاج شفاف لا يحجب نور السراج ولا يحجب لون الخمر وصفاءها ليعلمه الشارب.

والزجاج: صنف من الطين المطين من عجين رمل مخصوص يوجد في طبقة الأرض وليس هو رمل الشطوط. وهذا العجين اسمه في اصطلاح الكيمياء سليكا يخلط بأجزاء من رماد نبت يسمى في الكيمياء صودا ويسمى عند الرب الغاسول وهو الذي يتخذون منه الصابون. ويضاف إليهما جزء من الكلس الجير ومن البوتاس أو من أكسيد الرصاص فيصير ذلك الطين رقيقا ويدخل للنار فيصهر في أتون خاص به شديد الحرارة حتى يتميع وتختلط أجزاؤه ثم يخرج من الأتون قطعا بقدر ما يريد الصانع أن يصنع منه، وهو حينئذ رخو يشبه الحلواء فيكون حينئذ قابلا للامتداد وللانتفاخ إذا نفخ فيه بقصبة من حديد يضعها الصانع في فمه وهي متصلة بقطعة الطين المصهورة فينفخ فيها فإذا داخلها هواء النفس تمددت وتشكلت بشكل كما يتفق فيتصرف فيه الصانع بتشكيله بالشكل الذي يبتغيه فيجعل منه أواني مختلفة الأشكال من كؤوس وباطيات وقنينات كبيرة وصغيرة وقوارير للخمر وآنية لزيت المصابيح تفضل ما عداها بأنها لا تحجب ضوء السراج وتزيده إشعاعا.

وقد كان الزجاج معروفا عند القدماء الفينيقيين وعند القبط من نحو القرن الثلاثين قبل المسيح ثم عرفه العرب وهم يسمونه الزجاج والقوارير.

قال بشار:
ارفق بعمرو إذا حركت نسبته فإنه
عربـي مـن قـوارير

وقد عرفه العبرانيون في عهد سليمان واتخذ منه سليمان بلاطا في ساحة صرحه كما ورد في قوله تعالى)قال إنه صرح ممرد من قواريرا(. وقد عرفه اليونان قديما ومن أقوال الحكيم ديوجينوس اليوناني : تيجان الملوك كالزجاج يسرع إليها العطب . وسمى العرب الزجاج بلورا بوزن سنور وبوزن تنور. واشتهر بصناعته أهل الشام. قال الزمخشري في الكشاف:)في زجاجة(أراد قنديلا من زجاج شامي أزهر. واشتهر بدقة صنعه في القرن الثالث المسيحي أهل البندقية ولونوه وزينوه بالذهب وما زالت البندقية إلى الآن مصدر دقائق صنع الزجاج على اختلاف أشكاله وألوانه يتنافس فيه أهل الأذواق. وكذلك بلاد بوهيميا من أرض المجر لجودة التراب الذي يصنع مكنه في بلادهم. ومن أصلح ما انتفع فيه الزجاج اتخاذ أطباق منه توضع على الكوى النافذة والشبابيك لتمنع الرياح وبرد الشتاء والمطر عن سكان البيوت ولا يحجب عن سكانها الضوء. وكان ابتكار استعمال هذه الأطباق في القرن الثالث من التاريخ المسيحي ولكن تأخر الانتفاع به في ذلك مع الاضطرار إليه لعسر استعماله وسرعة تصدعه في النقل ووفرة ثمنه، ولذلك اتخذ في النوافذ أول الأمر في البلاد التي يصنع فيها فبقى زمانا طويلا خاصا بمنازل الملوك والأثرياء.

والكوكب: النجم، والدري بضم الدال وتشديد التحتية في قراءة الجمهور واحد الدراري وهي الكواكب الساطعة النور مثل الزهرة والمشتري منسوبة إلى الدر في صفاء اللون وبياضه، والياء فيه ياء النسبة وهي نسبة المشابهة كما في قول طرفة يصف راحلته:

جمالية وجناء...البيت أي كالجمل في عظم الجثة وفي القوة.

وقولهم في المثل بات بليلة نابغية أي كليلة النابغة في قوله:

فبت كأني ساورتني ضئيلة...الأبيات قال الحريري فبت بليلة نابغية. وأحزان يعقوبية المقامة السابعة والعشرون.

ومنه قولهم: وردي اللون، أي كلون الورد. والدر يضرب مثلا للإشراق والصفاء. قال لبيد:

وتضيء في وجه الظلام منيرة

كجمانة البحري سل نظامهـا وقيل الكوكب الدري علم بالغلبة على كوكب الزهرة.

وقرأ أبو عمرو والكسائي)دري(بكسر الدال ومد الراء على وزن شريب من الدرء وهو الدفع، لأنه يدفع الظلام بضوءه أو لأن بعض شعاعه يدفع بعضا فيما يخاله الرائي.

وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بضم الدال ومد الراء من الدرء أيضا على أن وزنه فعيل وهو وزن نادر في كلام العرب لكنه من

أبنية كلامهم عند سيبويه ومنه علية وسرية وذرية بضم الأول في ثلاثتها.
وإنما سلك طريق التشبيه في التعبير عن شدة صفاء الزجاجة لأنه أوجز لفظا وأبين وصفا. وهذا تشبيه مفرد في أثناء التمثيل ولاحظ له في التمثيل.
وجملة)يوقد من شجرة(الخ في موضع الصفة ل)مصباح(.
وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم)يوقد(بتحتية في أوله مضمومة بعدها واو ساكنة وبفتح القاف مبنيا للنائب، أي يوقده الموقد، فالجملة حال من)مصباح(.
وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف)توقد(بفوقية مفتوحة في أوله وبفتح الواو وتشديد القاف مفتوحة ورفع الدال على أنه مضارع توقد حذفت منه إحدى التاءين وأصله تتوقد على أنه صفة أو حال من)مشكاة(أو من)زجاجة(أو من المذكورات وهي مشكاة ومصباح وزجاجة، أي تنير. وإسناد التوقد إليها مجاز عقلي.
وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر مثل قراءة حمزة ومن معه لكن بفتح الدال على أنه فعل مضي حال أو صفة لمصباح.
والإيقاد: وضع الوقود وهو ما يزاد في النار المشتعلة ليقوى لهبها، وأريد به هنا ما يمد به المصباح من الزيت.
وفي صيغة المضارع على قراءة الأكثرين إفادة تجدد إيقاده، أي لا يذوى ولا يطفأ. وعلى قراءة ابن كثير ومن معه بصيغة المضي إفادة أن وقوده ثبت وتحقق.
وذكرت الشجرة باسم جنسها ثم أبدل منه)زيتونة(وهو اسم نوعها للإبهام الذي يعقبه التفصيل اهتماما بتقرر ذلك في الذهن. ووصف الزيتونة بالمباركة لما فيها من كثرة النفع فإنها ينتفع بحبها أكلا وبزيتها كذلك ويستنار بزيتها ويدخل في أدوية وإصلاح أمور كثيرة، وينتفع بحطبها وهو أحسن حطب لأن فيه المادة الدهنية قال تعالى)تنبت بالدهن(، وينتفع بجودة هواء غاباتها.

صفحة : 2912

وقد قيل إن بركتها لأنها من شجر بلاد الشام والشام بلد مبارك من عهد إبراهيم عليه السلام قال تعالى)ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين(يريد أرض الشام.
ووصف الزيتونة ب)مباركة(على هذا وصف كاشف، ويجوز أن يكون وصفا مخصصا ل)زيتونة(أي شجرة ذات بركة، أي نماء ووفرة ثمر

من بين شجر الزيتون فيكون ذكر هذا الوصف لتحسين المشبه به لينجر منه تحسين للمشبه كما في قول كعب بن زهير:

شجت بذي شبم من ماء محـنـية
صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
تنفي الرياح القذى عنه وأفرطـه من
صوب سارية بيض يعـالـيل فإن قوله، وأفرطه الخ لا يزيد الماء صفاء ولكنه حالة تحسنه عند السامع.

وقوله)لا شرقية ولا غربية(وصف ل)زيتونة(. دخل حرف)لا(النافية في كلا الوصفين فصار بمنزلة حرف هجاء من الكلمة بعده ولذلك لم يكن في موضع إعراب نظير)ال(المعرفة التي ألغز فيها الدماميني بقوله: حاجيتكم لتبخروا ما اسمان وأول إعرابه في الثاني

وهو مبني بكل حـال ها هو للناظر

كالعيان لإفادة الاتصاف بنفي كل وصف وعطف على كل وصف ضده لإرادة الاتصاف بوصف وسط بين الوصفين المنفيين لأن الوصفين ضدان على طريقة قولهم: الرمان حلو حامض . والعطف هنا من عطف الصفات كقوله تعالى)لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء(وقوله المرأة الرابعة من حديث أم زرع زوجي كليل تهامة لا حر ولا قر أي وسطا بين الحر والقر. وقوله العجاج يصف حمار وحش:

حشرج في الجوف قليلا وشهق حتى

يقال ناهق ومـا نـهـق والمعنى: إنها زيتونة جهتها بين جهة الشرق وجهة الغرب، فنفي عنها أن تكون شرقية وأن تكون غربية. وهذا الاستعمال من قبيل الكناية لأن المقصود لازم المعنى لا صريحه. وأما إذا لم يكن الأمران المنفيان متضادين فإن نفيهما لا يقتضي أكثر من نفي وقوعهما كقوله تعالى)وظل من يحموم لا بارد ولا كريم(وقول المرأة الأولى من نساء حديث أم زرع زوجي لحم جمل على رأس جبل، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل .

واعلم أن هذا الاستعمال إنما يكون في عطف نفي الأسماء وأما عطف الأفعال المنفية فهو من عطف الجمل نحو)فلا صدق ولا صلى(وقوله صلى الله عليه وسلم: لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض .

واعلم أيضا أن هذا لم يرد إلا في النفي بلا النافية ولذلك استقام للحريري أن يلقب شجرة الزيتون بلقب لا ولا بقوله في المقامة السادسة والأربعين بورك فيك من طلا. كما بورك في لا ولا أي في الشجرة التي قال الله في شأنها)لا شرقية ولا غربية(.

ثم يحتمل أن يكون معنى)لا شرقية ولا غربية(أنها نابتة في موضع بين شرق بلاد العرب وغربها وذلك هو البلاد الشامية، وقد قيل إن أصل منبت شجرة الزيتون بلاد الشام. ويحتمل أن يكون المعنى أن جهة تلك الشجرة من بين ما يحف بها من شجر الزيتون موقع غير شرق الشمس وغربها وهو أن تكون متجهة إلى الجنوب. أي لا يحجبها عن جهة الجنوب حاجب وذلك أنفع لحياة الشجرة وطيب ثمرتها، فبذلك يكون زيتها أجود وإذا كان أجود كان أشد وقودا ولذلك أتبع بجملة)يكاد زيتها يضيء(وهي في موضع الحال.

وجملة)ولو لم تمسسه النار(في موضع الحال من)زيتها(.

والزيت: عصارة حب الزيتون وما يشبهه من كل عصارة دهنية، مثل زيت السمسم والجلجلان. وهو غذاء. ولذلك تجب الزكاة في زيت الزيتون إذا كان حبه نصابا خمسة أوسق وكذلك زكاة زيت الجلجلان والسمسم.

و)لو(وصلية. والتقدير: يكاد يضيء في كل حال حتى في حالة لم تمسسه فيها نار.

وهذا تشبيه بالغ كمال الإفصاح بحيث هو مع أنه تشبيه هيئة بهيئة هو أيضا مفرق التشبيهات لأجزاء المركب المشبه مع أجزاء المركب المشبه به وذلك أقصى كمال التشبيه التمثيلي في صناعة البلاغة.

ولما كان المقصود تشبيه الهيئة بالهيئة والمركب بالمركب حسن دخول حرف التشبيه على بعض ما يدل على بعض المركب ليكون قرينة على أن المراد التشبيه المركب ولو كان المراد تشبيه الهدى فقط لقال: نوره كمصباح في مشكاة.. إلى آخره.

فالنور هو معرفة الحق على ما هو عليه المكتسبة من وحي الله وهو القرآن. شبه بالمصباح المحفوف بكل ما يزيد نوره انتشارا وإشراقا.

صفحة : 2913

وجملة)نور على نور(مستأنفة إشارة إلى أن المقصود من مجموع أجزاء المركب التمثيلي هنا هو البلوغ إلى إيضاح أن الهيئة المشبه بها قد بلغت حد المضاعفة لوسائل الإنارة إذ تظاهرت فيها المشكاة والمصباح والزجاج الخالص والزيت الصافي، فالمصباح إذا كان في مشكاة كان شعاعه منحصرا فيها غير منتشر فكان أشد إضاءة لها مما لو كان في بيت، وإذا كان موضوعا في زجاجة صافية تضاعف نوره، وإذا كان زيته نقيا صافيا كان أشد إسراجا،

فحصل تمثيل حال الدين أو الكتاب المنزل من الله في بيانه وسرعة فشوه في الناس بحال انبثاق نور المصباح وانتشاره فيما حف به من أسباب قوة شعاعه وانتشاره في الجهة المضاءة به.

فقوله)نور(خبر مبتدأ محذوف دل عليه قوله)مثل نوره كمشكاة(إلى آخره، أي هذا المذكور الذي مثل به الحق هو نور على نور.

و)على(للاستعلاء المجازي وهو التظاهر والتعاون. والمعنى: أنه نور مكرر مضاعف. وقد أشرت آنفا إلى أن هذا التمثيل قابل لتفريق التشبيه في جميع أجزاء ركني التمثيل بأن يكون كل جزء من أجزاء الهيئة المشبهة مشابها لجزء من الهيئة المشبه بها وذلك أعلى التمثيل.

فالمشكاة يشبهها ما في الإرشاد الإلهي من انضباط اليقين وإحاطة الدلالة بالمدلولات دون تردد ولا انثلام، وحفظ المصباح من الانطفاء مع ما يحيط بالقرآن من حفظه من الله بقوله)إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون(.

ومعاني هداية إرشاد الإسلام تشبه المصباح في التبصير والإيضاح، وتبيين الحقائق من ذلك الإرشاد.

وسلامته من أن يطرقه الشك واللبس يشبه الزجاجة في تجلية حال ما تحتوي عليه كما قال)ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات(.

والوحي الذي أبلغ الله به حقائق الديانة من القرآن والسنة يشبه الشجرة المباركة التي تعطي ثمرة يستخرج منها دلائل الإرشاد.

وسماحة الإسلام وانتفاء الحرج عنه يشبه توسط الشجرة بين طرفي الأفق فهو وسط بين الشدة المحرجة وبين اللين المفرط.

ودوام ذلك الإرشاد وتجدده يشبه الإيقاد.

وتعليم النبي صلى الله عليه وسلم أمته ببيان القرآن وتشريع الأحكام يشبه الزيت الصافي الذي حصلت به البصيرة وهو مع ذلك بين قريب التناول يكاد لا يحتاج إلى إلحاح المعلم.

وانتصاب النبي عليه الصلاة والسلام للتعليم يشبه مس النار للسراج وهذا يومئ إلى استمرار هذا الإرشاد.

كما أن قوله)من شجرة(يومئ إلى الحاجة إلى اجتهاد علماء الدين في استخراج إرشاده على مرور الأزمنة لأن استخراج الزيت من ثمر الشجرة بتوقف على اعتصار الثمرة وهو الاستنباط.

)يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم[35](هذه الجمل الثلاث معترضة أو تذييل للتمثيل.

والمعنى: دفع التعجب من عدم اهتداء كثير من الناس بالنور الذي أنزله الله وهو القرآن والإسلام فإن الله إذا لم يشأ هدي أحد خلقه وجبله على العناد والكفر.

وأن الله يضرب الأمثال للناس مرجوا منهم التذكر بها: فمنهم من يعتبر بها فيهتدي، ومنهم من يعرض فيستمر على ضلاله ولكن شأن تلك الأمثال أن يهتدي بها غير من طبع على قلبه.
وجملة)والله بكل شيء عليم(تذييل لمضمون الجملتين قبلها، أي لا يعزب عن عمله شيء. ومن ذلك علم من هو قابل للهدى ومن هو مصر على غيه. وهذا تعريض بالوعد للأولين والوعيد للآخرين.
)في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال[36] رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار[37] ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب[38](تردد المفسرون في تعلق الجار والمجرور من قوله)في بيوت(الخ. فقيل قوله)في بيوت(من تمام التمثيل، أي فيكون)في بيوت(متعلقا بشيء مما قبله. فقيل يتعلق بقوله) يوقد(، أي يوقد المصباح في بيوت. وقيل هو صفة لمشكاة، أي مشكاة في بيوت وما بينهما اعتراض؛ وإنما جاء بيوت بصيغة الجمع مع أن)مشكاة(و)مصباح(مفردان لأن المراد بها الجنس فتساوى الإفراد والجمع.

صفحة : 2914

ثم قيل: أريد بالبيوت المساجد. ولا يستقيم ذلك إذ لم يكن في مساجد المسلمين يومئذ مصابيح وإنما أحدثت المصابيح في المساجد الإسلامية في خلافة عمر بن الخطاب فقال له علي: نور الله مضجعك يابن الخطاب كما نورت مسجدنا. وروي أنما أسلم تميم سنة تسع، أي بعد نزول هذه الآية. وقيل البيوت مساجد بيت المقدس وكانت يومئذ بيعا للنصارى. ويجوز عندي على هذا الوجه أن يكون المراد بالبيوت صوامع الرهبان وأديرتهم وكانت معروفة في بلاد العرب في طريق الشام يمرون عليها وينزلون عندها في ضيافة رهبانها. وقد ذكر صاحب القاموس عددا من الأديرة. ويرجح هذا قوله)أن ترفع(فإن الصوامع كانت مرفوعة والأديرة كانت تبنى على رؤوس الجبال. أنشد الفراء:
لو أبصرت رهبان دير بالجبل لانحدر
الرهبان يسعى ويصل والمراد بإذن الله برفعها أنه ألهم متخذيها أن يجعلوها عالية وكانوا صالحين يقرأون الإنجيل فهو كقوله تعالى) لهدمت صوامع وبيع(إلى قوله)يذكر فيها اسم الله كثيرا(. وعبر بالإذن دون الأمر لأن الله لم يأمرهم باتخاذ الأديرة في أصل

النصرانية ولكنهم أحدثوها للعون على الانقطاع للعبادة باجتهاد منهم، فلم ينههم الله عن ذلك إذ لا يوجد في أصل الدين ما يقتضي النهي عنها فكانت في قسم المباح، فلما انضم إلى إباحة اتخاذها نية العون على العبادة صارت مرضية لله تعالى. وهذا كقوله تعالى) ورهبانية ابتدعوها ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله(. وقد كان اجتهاد أحبار الدين في النصرانية وإلهامهم دلائل تشريع لهم كما تقتضيه نصوص من الإنجيل. والمقصد من ذكر هذا على هذه الوجوه زيادة إيضاح المشبه به كقول النبي صلى الله عليه وسلم في صفة جهنم: فإذا لهم كلاليب مثل حسك السعدان هل رأيتم حسك السعدان؟ . وفيه مع ذلك تحسين المشبه به ليسري ذلك إلى تحسين المشبه كما في قول كعب بن زهير:

شجت بذي شبم من ماء محـنـية
صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
تنفي الرياح القذى عنه وأفرطـه من
صوب سارية بيض يعـالـيل لأن ما ذكر من وصف البيوت وما يجري فيها مما يكسبها حسنا في نفوس المؤمنين.

وتخصيص التسبيح بالرجال لأن الرهبان كانوا رجالا.

وأريد بالرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله: الرهبان الذين انقطعوا للعبادة وتركوا الشغل بأمور الدنيا، فيكون معنى)لا تلهيهم تجارة ولا بيع(: أنهم لا تجارة لهم ولا بيع من شأنهما أن يلهياهم عن ذكر الله، فهو من باب: على لاحب لا يهتدى بمناره.

والثناء عليهم يومئذ لأنهم كانوا على إيمان صحيح إذ لم تبلغهم يومئذ دعوى الإسلام ولم تبلغهم إلا بفتوح مشارف الشام بعد غزوة تبوك، وأما كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل فإنه لم يذع في العامة. وكان الرهبان يتركون الكوى مفتوحة ليظهر ضوء صوامعهم وقد كان العرب يعرفون صوامع الرهبان وأضواءها في الليل. قال امرؤ القيس:

تضيء الظلام بالعشي كأنها منارة
ممسى راهب متبتل وقال أيضا:
يضيء سناه أو مصابيح راهب أمال

السليط بالذبال المقـتـل والسليط: الزيت، أي صب الزيت على الذبال. فهو في تلك الحالة أكثر إضاءة. وكانوا يهتدون بها في أسفارهم ليلا. وقال امرؤ القيس:

سموت إليها والنجوم كأنهـا مصابيح
رهبان تشب لقفال القفال: جمع قافل وهم الراجعون من أسفارهم.

وقيل: أريد بالرفع الرفع المعنوي وهو التعظيم والتنزيه عن النقائض، فالإذن حينئذ بمعنى الأمر.

وبعد فهذا يبعد عن أغراض القرآن وخاصة المدني منه لأن الثناء على هؤلاء الرجال ثناء جم ومعقب بقوله)ليجزيهم الله أحسن ما عملوا(.

صفحة : 2915

والأظهر عندي: أن قوله)في بيوت(ظرف مستقر هو حال من) نوره(في قوله)مثل نوره كمشكاة(الخ مشير إلى أن)نور(في قوله)مثل نوره(مراد منه القرآن، فيكون هذا الحال تجريدا للاستعارة التمثيلية بذكر ما يناسب الهيئة المشبهة أعني هيئة تلقي القرآن وقراءته وتدبره بين المسلمين مما أشار إليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده ، فكان هذا التجريد رجوعا إلى حقيقة التركيب الدال على الهيئة المشبهة كقول طرفة:

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادف
مظاهر سمطي لؤلـؤ وزبـرجـد مع في الآية من بيان ما أجمل في لفظ)مثل نوره(وبذلك كانت الآية أبلغ من بيت طرفة لأن الآية جمعت بين تجريد وبيان وبيت طرفة تجريد فقط.

ويجوز أن يكون)في بيوت(غير مرتبط بما قبله وأنه مبدأ استئناف ابتدائي وأن المجرور متعلق بقوله)يسبح له فيها(. وتقديم المجرور للاهتمام بتلك البيوت وللتشويق إلى متعلق المجرور وهو التسبيح وأصحابه. والتقدير: يسبح لله رجال في بيوت، ويكون قوله) فيها(تأكيدا لقوله)في بيوت(لزيادة الاهتمام بها. وفي ذلك تنويه بالمساجد وإيقاع الصلاة والذكر فيها كما في الحديث: صلاة أحدكم في المسجد أي الجماعة تفضل صلاته في بيته بسبع وعشرين درجة .

والمراد بالغدو: وقت الغدو وهو الصباح لأنه وقت خروج الناس في قضاء شؤونهم.

والآصال: جمع أصيل وهو آخر النهار، وتقدم في آخر الأعراف وفي سورة الرعد.

والمراد بالرجال: أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كان مثلهم في التعلق بالمساجد.

وتخصيص التسبيح بالرجال على هذا لأنهم الغالب على المساجد كما في الحديث ...ورجل قلبه معلق بالمساجد... .

ويجوز عندي أن يكون)في بيوت(خبرا مقدما)ورجال(مبتدأ، والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن قوله)يهدي الله لنوره من يشاء(فيسأل السائل في نفسه عن تعيين بعض ممن هداه الله لنوره فقيل: رجال في بيوت. والرجال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والبيوت مساجد المسلمين وغيرها من بيوت الصلاة في أرض الإسلام والمسجد النبوي ومسجد قباء بالمدينة ومسجد جؤاثى بالبحرين.

ومعنى)لا تلهيهم تجارة(أنهم لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن الصلوات وأوقاتها في المساجد. فليس في الكلام أنهم لا يتجرون ولا يبيعون بالمرة.

والتجارة: جلب السلع للربح في بيعها، والبيع أعم وهو أن يبيع أحد ما يحتاج إلى ثمنه.

وقرأ الجمهور)يسبح(بكسر الموحدة بالبناء للفاعل و)رجال(فاعله. وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم بفتح الموحدة على البناء للمجهول فيكون نائب الفاعل أحد المجرورات الثلاثة وهي)له فيها بالغدو(ويكون)رجال(فاعلا بفعل محذوف من جملة هي استئناف. ودل على المحذوف قوله)يسبح(كأنه قيل: من يسبحه؟ فقيل: يسبح له رجال. على نحو قول نهشل بن حري يرثي أخاه يزيد:

لبيك يزيد ضارع لخصوصة ومختبط

مما تطيح الطوائح وجملة)لا تلهيهم تجارة(وجملة)يخافون(صفتان ل)رجال(، أي لا يشغلهم ذلك عن أداء ما وجب عليهم من خوف الله)وإقام الصلاة(الخ وهذا تعريض بالمنافقين.

و)إقام(مصدر على وزن الإفعال. وهو معتل العين فاستحق نقل حركة عينه إلى الساكن الصحيح قبله وانقلاب حرف العلة ألفا إلا أن الغالب في نظائره أن يقترن آخره بهاء تأنيث نحو إدامة واستقامة.وجاء مصدر)إقام(غير مقترن بالهاء في بعض المواضع كما هنا. وتقدم معنى إقامة الصلاة في صدر سورة البقرة.

وانتصب)يوما(من قوله)يخافون يوما(على المفعول به لا على الظرف بتقدير مضاف، أي يخافون أهواله.

وتقلب القلوب والأبصار: اضطرابها عن مواضعها من الخوف والوجل كما يتقلب المرء في مكانه. وقد تقدم في قوله تعالى)ونقلب أفئدتهم وأبصارهم(في سورة الأنعام. والمقصود من خوفه: العمل لما فيه الفلاح يومئذ كما يدل عليه قوله)ليجزيهم الله أحسن ما عملوا(.

ويتعلق قوله)ليجزيهم الله أحسن ما عملوا(ب)يخافون(، أي كان خوفهم سببا للجزاء على أعمالهم الناشئة عن ذلك الخوف.

والزيادة: من فضله هي زيادة أجر الرهبان إن آمنوا بمحمد على الله عليه وسلم حينما تبلغهم دعوته لما في الحديث الصحيح: أن لهم أجرين ، أو هي زيادة فضل الصلاة في المساجد إن كان المراد بالبيوت مساجد الإسلام.
وجملة)والله يرزق من يشاء بغير حساب(تذييل لجملة)ليجزيهم الله(. وقد حصل التذييل لما في قوله)من يشاء(من العموم، أي وهم ممن يشاء الله لهم الزيادة.
والحساب هنا بمعنى التحديد كما في قوله)إن الله يرزق من يشاء بغير حساب(في سورة آل عمران. وأما قوله)جزاء من ربك عطاء حسابا(فهو بمعنى التعيين والإعداد للاهتمام بهم.
)والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب[39](لما جرى ذكر أعمال المتقين من المؤمنين وجزائهم عليها بقوله تعالى)يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال(إلى قوله) ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب(أعقب ذلك بضده من حال أعمال الكافرين التي يحسبونها قربات عند الله تعالى وما هي بمغنية عنهم شيئا على عادة القرآن في إرداف البشارة بالنذارة، وعكس ذلك كقوله)ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد لكم الذين اتقوا ربهم لهم جنات(الخ فعطف حال أعمال الكافرين عطف القصة على القصة. ولعل المشركين كانوا إذا سمعوا ما وعد الله به المؤمنين من الجزاء على الأعمال الصالحة يقولون: ونحن نعمر المسجد الحرام ونطوف ونطعم المسكين ونسقي الحاج ونقري الضيف، كما أشار إليه قوله تعالى)أجعلتم سقاية الحج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر(يعدون أعمالا من أفعال الخيرات فكانت هذه الآيات إبطالا لحسابهم، قال تعالى)وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا(وقد أعلمناك أن هذه السورة نزل أكثرها عقب الهجرة وذلك حين كان المشركون يتعقبون أخبار المسلمين في مهاجرهم ويتحسسون ما نزل من القرآن.
والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا.)والذين كفروا(مبتدأ وخبره جملة)أعمالهم كسراب(الخ. وجعل المسند إليه ما يدل على ذوات الكافرين ثم بني عليه مسند إليه آخر وهو)أعمالهم(. ولم يجعل المسند إليه أعمال الذين كفروا من أول وهلة لما في الافتتاح بذكر الذين كفروا من التشويق إلى معرفة ما سيذكر من شؤونهم ليتقرر

في النفس كمال التقرر وليظهر أن للذين كفروا حظا في التمثيل بحيث لا يكون المشبه أعمالهم خاصة.
وفي الإتيان بالموصول وصلته إيماء إلى وجه بناء الخير. وهو أنه من جزاء كفرهم بالله. على أنه قد يكون عنوان الذين كفروا قد غلب على المشركين من أهل مكة فيكون افتتاح الكلام بهذا الوصف إشارة إلى أنه إبطال لشيء اعتقده الذين كفروا. فتشبيه الكافرين وأعمالهم تشبيه تمثيلي: شبهت حالة كدهم في الأعمال وحرصهم على الاستكثار منها مع ظنهم أنها تقربهم إلى رضى الله ثم تبين أنها لا تجديهم بل يلقون العذاب في وقت ظنهم الفوز؛ شبه ذلك بحالة ظمآن يري السراب فيحسبه ماء فيسعى إليه فإذا بلغ المسافة التي خال أنها موقع الماء لم يجد ماء ووجد هنالك غريما يأسره ويحاسبه على ما سلف من أعماله السيئة.
واعلم أن الحالة المشبهة مركبة من محسوس ومعقول والحالة المشبه بها حالة محسوسة. أي داخلة تحت إدراك الحواس.

صفحة : 2917

والسراب: رطوبة كثيفة تصعد على الأرض ولا تعلو في الجو تنشأ من بين رطوبة الأرض وحرارة الجو في المناطق الحارة الرملية فيلوح من بعيد كأنه ماء. وسبب حدوث السراب اشتداد حرارة الرمال في أرض مستوية فتشتد حرارة طبقة الهواء الملاصة للرمل وتحر الطبقة الهوائية التي فوقها حرا أقل من حرارة الطبقة الملاصقة ، وهكذا تتناقص الحرارة في كل طبقة من الهواء عن حرارة الطبقة التي دونها، وبذلك تزداد كثافة الهواء بزيادة الارتفاع عن سطح الأرض. وبحرارة الطبقة السفلى التي تلي الأرض تحدث فيها حركات تموجية فيصعد جزء منها إلى ما فوقها من الطبقات وهكذا.. فتكون كل طبقة أكثف من التي تحتها. فإذا انعكس على تلك الأشعة نور الجو من قرب طلوع الشمس إلى بقية النهار تكيفت تلك الأشعة بلون الماء. ففي أول ظهور النور يلوح السراب كأنه الماء الراكد أو البحر وكلما اشتد الضياء ظهر في السراب ترقرق كأنه ماء جار.
ثم قد يطلق السراب على هذا الهواء المتموج في سائر النهار من الغدوة إلى العصر. وقد يخص ما بين أول النهار إلى الضحى باسم الآل ثم سراب. وعلى هذا قول أكثر أهل اللغة والعرب يتسامحون في إطلاق أحد اللفظين مكان الآخر. وقد شاهدته في شهر نوفمبر فيما بين الفجر وطلوع الشمس بمقربة من موضع يقال له: أم

العرائس من جهات توزر، وأنا في قطار السكة الحديدية فخلت أول النظر أنا أشرفنا على بحر.

وقوله)بقيعة(الباء بمعنى في و)قيعة(أرض، والجار والمجرور وصف)لسراب(وهو وصف كاشف لأن السراب لا يتكون إلا في قيعة. وهذا كقولهم في المثل للذليل)هو فقع في قرقر(فإن الفقع لا ينبت إلا في قرقر. والقيعة: الأرض المنبسطة ليس فيها ربى ويرادفها القاعة. وقيل قيعة جمع قاع مثل جيرة جمع جار، ولعله غلب لفظ الجمع فيه حتى ساوى المفرد.

وقوله)يحسبه الظمآن ماء(يفيد وجه الشبه ويتضمن أحد أركان التمثيل وهو الرجل العطشان وهو مشابه الكافر صاحب العمل.

و)حتى(ابتدائية فهي بمعنى فاء التفريع. ومجيء الظمآن إلى السراب يحصل بوصوله إلى مسافة كان يقدرها مبدأ الماء بحسب مرأى تخيله، كأن يحدده بشجرة أو صخرة. فلما بلغ إلى حيث توهم وجود الماء لم يجد الماء فتحقق أن ما لاح له سراب. فهذا معنى قوله)حتى إذا جاءه(، أي إذا جاء الموضع الذي تخيل أنه إن وصل إليه يجد ماء. وإلا فإن السراب لا يزال يلوح له بعد كلما تقدم السائر في سيره. فضرب ذلك مثلا لقرب زمن إفضاء الكافر إلى عمله وقت موته حين يرى مقعده أو في وقت الحشر.

وقوله)لم يجده شيئا(أي لم يجد ما كان يخيل إلى عينه أنه ماء لم يجده شيئا.

والشيء: هو الموجود وجودا معلوما للناس، والسراب موجود ومرئي، فقوله)شيئا(أي شيئا من ماء بقرينة المقام. وهذا التمثيل كقوله تعالى)وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا(.

و)إذا(هنا ظرف مجرد عن الشرطية. والمعنى: زمن مجيئه إلى السراب، أي وصوله إلى الموضع.

وقوله)ووجد الله عنده(هو من تمام التمثيل، أي لم يجد الماء ووجد في مظنة الماء الذي ينتفع به وجد من إن أخذ بناصيته لم يفلته، أي هو عند ظنه الفوز بمطلوبه فاجأه من يأخذه للعذاب، وهو معنى قوله)فوفاه حسابه(أي أعطاه جزاء كفره وافيا. فمعنى) فوفاه(أنه لا تخفيف فيه، فهو قد تعب ونصب في العمل فلم يجد جزاء إلا العذاب بمنزلة من ورد الماء للسقي فوجد من له عنده ترة فأخذه.

وجملة)والله سريع الحساب(تذييل. والسريع: ضد البطيء. والمعنى: أنه لا يماطل الحساب ولا يؤخره عند حلول مقتضيه، فهو عام في حساب الخير والشر ولذلك كان تذييلا.

واعلم أن هذا التمثيل العجيب صالح لتفريق أجزائه في التشبيه بأن ينحل إلى تشبيهات واستعارات. فأعمال الكافرين شبيهة بالسراب في أن لها صورة الماء وليست بماء. والكافر يشبه الظمآن في الاحتياج إلى الانتفاع بعمله، ففي قوله)يحسبه الظمآن(استعارة مصرحة، وخيبة الكافر عند الحساب تشبه خيبة الظمآن عند مجيئه السراب ففيه استعارة مصرحة، ومفاجأة الكافر بالأخذ والعتل من جند الله أو بتكوين الله تشبه مفاجأة من حسب أنه يبلغ الماء للشراب فبلغ إلى حيث تحقق أنه لا ماء فوجد عند الموضع الذي بلغه من يترصد له لأخذه أو أسره. فهنا استعارة مكنية إذ شبه أمر الله أو ملائكته بالعدو، ورمز إلى العدو بقوله)فوفاه حسابه(. وتعدية فعل)وجد(إلى اسم الجلالة على حذف مضاف هي تعدية المجاز العقلي.

)أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمت بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور[40](شأن)أو(إذا جاءت في عطف التشبيهات أن تدل على تخيير السامع أن يشبه بما قبلها وربما بعدها. وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى)أو كصيب من السماء(في سورة البقرة، أي مع اتحاد وجه الشبه. ومنه قول امرىء القيس:

يضيء سناه أو مصابيح راهب ..... وقول لبيد:

أفتلك أم وحشية مسيوعة خذلت

وهادية الصوار قوامها فإذا كان الكلام هنا جاريا على ذلك الشأن كان المعنى تمثيل الذين كفروا في أعمالهم التي يظنون أنهم يتقربون بها إلى الله بحال ظلمات ليل غشيت ماخرا في بحر شديد الموج قد اقتحم ذلك البحر ليصل إلى غاية مطلوبة، فحالهم في أعمالهم تشبه حال سابح في ظلمات ليل في بحر عميق يغشاه موج يركب بعضه بعضا لشدة تعاقبه، وإنما يكون ذلك عند اشتداد الرياح حتى لا يكاد يرى يده التي هي أقرب شيء إليه وأوضحه في رؤيته فكيف يرجو النجاة.

وإن كان الكلام جاريا على التخيير في التشبيه مع اختلاف وجه التشبيه كان المعنى تمثيل حال الذين كفروا في أعمالهم التي يعملونها وهي غير مؤمنين وحال من ركب البحر يرجو بلوغ غاية فإذا هو في ظلمات لا يهتدي معها طريقا، فوجه الشبه هو ما حف بأعمالهم من ضلال الكفر الحائل دون حصول مبتغاهم.

ويرجح هذا الوجه تذييل التمثيل بقوله)ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور(.
وعلى الوجهين فقوله)كظلمات(عطف على)كسراب(والتقدير: والذين كفروا أعمالهم كظلمات.
وهذا التمثيل من قبيل تشبيه حالة معقولة بحالة محسوسة كما يقال: شاهدت سواد الكفر في وجه فلان.
والظلمات: الظلمة الشديدة. والجمع مستعمل في لازم الكثرة وهو الشدة، فالجمع كناية لأن شدة الظلمة يحصل من تظاهر عدة ظلمات. ألا ترى أن ظلمة بين العشاءين أشد من ظلمة عقب الغروب وظلمة العشاء أشد مما قبلها.
وقد ذكرنا فيما مضى أن لفظ ظلمة بالإفراد لم يرد في القرآن انظر أول سورة الأنعام. ومعنى كونها)في بحر(أنها انطبع سوادها على ماء بحر فصار كأنها في البحر كقوله تعالى)أو كصيب من السماء فيه ظلمات(. وقد تقدم في سورة البقرة إذ جعل الظلمات في الصيب.
واللجي منسوب إلى اللجة، واللج: هو معظم البحر، أي في بحر عميق، فالنسب مستعمل في التمكن من الوصف كقول أبي النجم: والدهر بالإنسان دواري أي دوار، وكقولهم: رجل مشركي ورجل غلابي، أي قوي الشرك وكثير الغلب.
والموج: اسم جمع موجة. والموجة: مقدار يتصاعد من ماء البحر أو النهر عن سطح مائه بسبب اضطراب في سطحه بهبوب ريح من جانبه يدفعه إلى الشاطئ. وأصله مصدر: ماج البحر، أي اضطرب وسمي به ما ينشأ عنه.
ومعنى)من فوقه موج(أن الموج لا يتسكر حتى يلحقه موج آخر من فوقه وذلك أبقى لظلمته.
والسحاب تقدم في سورة الرعد. والسحاب يزيد الظلمة إظلاما لأنه يحجب ضوء النجم والهلال.
وقوله)ظلمات بعظها فوق بعض(استئناف. والتقدير: هي ظلمات. والمراد بالظلمات التي هنا غير المراد بقوله)أو كظلمات(لأن الجمع هنا جمع أنواع وهنالك جمع أفراد من نوع واحد.
وقرأ الجمهور)سحاب ظلمات(بالتنوين فيهما.

وقرأ البزي عن ابن كثير)من فوقه سحاب ظلمات(بترك بالتنوين في)سحاب(وبإضافته إلى)ظلمات(. وقرأه قنبل عن ابن

كثير برفع)سحاب(منونا وبجر)ظلمات(على البدل من قوله)أو كظلمات(.

وقوله)لم يكد يراها(هو من قبيل قوله)فذبحوها وما كادوا يفعلون(. وقد تقدم وجه هذا الاستعمال في سورة البقرة وما فيه من قصة بيت ذي الرمة.

وجملة)ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور(تذييل للتمثيل، أي هم باءوا بالخيبة فيما ابتغوا مما عملوا وقد حفهم الضلال الشديد فيما عملوا حتى عدموا فائدته لأن الله لم يخلق في قلوبهم الهدى حين لم يوفقهم إلى الإيمان، أي أن الله جبلهم غير قابلين للهدى فلم يجعل لهم قبوله في قلوبهم فلا يحل بها شيء من الهدى.

وفيه تنبيه على أن الله تعالى متصرف بالإعطاء والمنع على حسب إرادته وحكمته وما سبق من نظام تدبيره.

وهذا التمثيل صالح لاعتبار التفريق في تشبيه أجزاء الهيئة المشبهة بأجزاء الهيئة المشبه بها؛ فالضلالات تشبه الظلمات، والأعمال التي اقتحمها الكافر لقصد التقرب بها تشبه البحر، وما يخالط أعماله الحسنة من الأعمال الباطلة كالبحيرة، والسائبة يشبه الموج في تخليطه العمل الحسن وتخلله فيه وهو الموج الأول. وما يرد على ذلك من أعمال الكفر كالذبح للأصنام يشبه الموج الغامر الآتي على جميع ذلك بالتخلل والإفساد وهو الموج الثاني، وما يحف اعتقاده من الحيرة في تمييز الحسن من العبث ومن القبيح يشبه السحاب الذي يغشى ما بقي في السماء من بصيص أنوار النجوم، وتطلبه الانتفاع من عمله يشبه إخراج الماخر يده لإصلاح أمر سفينته أو تناول ما يحتاجه فلا يرى يده بله الشيء الذي يريد تناوله.

)ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صفت كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون[41](أعقب تمثيل ضلال أهل الضلالة وكيف حرمهم الله الهدى في قوله)والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة(إلى قوله)ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور(بطلب النظر والاعتبار كيف هدى الله تعالى كثيرا من أهل السماوات والأرض إلى تنزيه الله المقتضي الإيمان به وحده، وبما ألهم الطير إلى أصواتها المعربة عن بهجتها بنعمة وجودها ورزقها الناشئين عن إمداد الله إياها بهما فكانت أصواتها دلائل حال على تسبيح الله وتنزيهه عن الشريك، فأصواتها تسبيح بلسان الحال.

والجملة استئناف ابتدائي ومناسبته ما عملت.

وجملة)كل قد علم صلاته وتسبيحه(استئناف ثان وهو من تمام العبرة إذ أودع الله في جميع أولئك ما به ملازمتهم لما فطروا عليه من تعظيم الله وتنزيهه.

فتسبيح العقلاء حقيقة. وتسبيح الطير مجاز مرسل في الدلالة على التنزيه. وفيه استعمال لفظ التسبيح في حقيقته ومجازه، ولذلك خولف بينهما في الجملة الثانية فعبر بالصلاة والتسبيح مراعاة لاختلاف حال الفريقين: فريق العقلاء، وفريق الطير وإن جمعتهما كلمة)كل(، فأطلق على تسبيح العقلاء اسم الصلاة لأنه تسبيح حقيقي. فالمراد بالصلاة الدعاء وهو من خصائص العقلاء، وليس في أحوال الطير اسم التسبيح لأنه يطلق مجازا على الدلالة بالصوت بعلاقة الإطلاق وذلك على التوزيع؛ ولولا إرادة ذلك لقيل: كل قد علم تسبيحه، أو كل قد علم صلاته.

والخطاب في قوله)ألم تر(للنبي صلى الله عليه وسلم. والمراد من يبلغ إليه، أو الخطاب لغير معين فيعم كل مخاطب كما هو الشأن في أمثاله.

والاستفهام مستعمل كناية عن التعجيب من حال فريق المشركين الذين هم من أصحاب العقول ومع ذلك قد حرموا الهدى لما لم يجعله الله فيهم. وقد جعل الهدى في العجماوات إذ جبلها على إدراك أثر نعمة الوجود والرزق. وهذا في معنى قوله تعالى)إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا(.

والصافات: من صفات الطير: يراد به صفهن أجنحتهن في الهواء حين الطيران. وتخصيص الطير بالذكر من بين المخلوقات للمقابلة بين مخلوقات الأرض والسماء بذكر مخلوقات في الجو بين السماء والأرض ولذلك قيدت ب)صافات(.

وفعل)علم(مراد به المعرفة لظهور الفرق بين علم العقلاء بصلاتهم وعلم الطير بتسبيحها فإن الثاني مجرد شعور وقصد للعمل.

صفحة : 2920

وضمائر)علم صلاته وتسبيحه(راجعة إلى)كل(لا محالة.

ولو كان المراد بها التوزيع على من في السماوات والأرض والطير من جهة وعلى اسم الجلالة من جهة لوقع ضمير فصل بعد) علم(فلكان راجعا إلى الله تعالى.

والرؤية هنا بصرية لأن تسبيح العقلاء مشاهد لكل ذي بصر، وتسبيح الطير مشاهد باعتبار مسماه فما على الناظر إلا أن يعلم أن ذلك المسمى جدير باسم التسبيح.

وعلى هذا الاعتبار كان الاستفهام الإنكاري مكين الوقع.
وإن شئت قلت: إن جملة)ألم تر(جارية مجرى الأمثال في كلام البلغاء فلا التفات فيها إلى معنى الرؤية.
وقيل: الرؤية هنا قلبية. وأغنى المصدر عن المفعولين.
وجملة)والله عليم بما يفعلون(تذييل وهو إعلام بسعة علم الله تعالى الشامل للتسبيح وغيره من الأحوال.
والإتيان بضمير جمع العقلاء تغليب. وقد تقدم في قوله تعالى)ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم(في سورة البقرة وقوله)ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن(في سورة الأنعام.
)ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير[42](تحقيق لما دل عليه الكلام السابق من إعطائه الهدى للعجماوات في شؤونه وحرمانه إياه فريقا من العقلاء فلو كان ذلك جاريا على حسب الاستحقاق لكان هؤلاء أهدى من الطير في شأنهم.
وتقديم المعمولين للاختصاص، أي أن التصرف في العوالم لله لا لغيره.
وفي هذا انتقال إلى دلالة أحوال الموجودات على تفرد الله تعالى بالخلق ولذلك أعقب بقوله:)ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار[43](أعقب الدلالة على إعطاء الهدى في قوانين الإلهام في العجاوات بالدلالة على خلق الخصائص في الجماد بحيث تسير على السير الذي قدره الله لها سيرا لا يتغير، فهي بذلك أهدى من فريق الكافرين الذين لهم عقول وحواس لا يهتدون بها إلى معرفة الله تعالى والنظر في أدلتها، وفي ذلك دلالة على عظم القدرة وسعة العلم ووحدانية التصرف. وهذا استدلال بنظام بعض حوادث الجو حتى آل إلى قوله)فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء(.
وقد حصل من هذا حسن التخلص للانتقال إلى الاستدلال على عظم القدرة وسمو الحكمة وسعة العلم الإلهي.
و)يزجي(: يسوق. يقال: أزجى الإبل إزجاء.
وأطلق الإزجاء على دنو بعض السحاب من بعض بتقدير الله تعالى الشبيه بالسوق حتى يصير سحابا كثيفا، فانضمام بعض السحاب إلى بعض عبر عنه بالتأليف بين أجزائه بقوله تعالى)ثم يؤلف بينه(إلخ.
وتقدم الكلام على السحاب في سورة البقرة في قوله)والسحاب المسخر(وفي أول سورة الرعد.

ودخلت)بين(على ضمير السحاب لأن السحاب ذو أجزاء كقول امرىء القيس:
بين الدخول فحومل أي يؤلف بين السحابات منه.
والركام: مشتق من الركم. والركم: الجمع والضم. ووزن فعال وفعالة يدل على معنى المفعول. فالركام بمعنى المركوم كما جاء في قوله تعالى)وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم(في سورة الطور.
فإذا تراكم السحاب بعضه على بعض حدث فيه ما يسمى في علم حوادث الجو بالسيال الكهربائي وهو البرق. فقال بعض المفسرين: هو الودق. وأكثر المفسرين على أن الودق هو المطر، وهو الذي اقتصرت عليه دواوين اللغة، والمطر يخرج من خلال السحاب.
والخلال: الفتوق، جمع خلل كجبل وجبال. وتقدم)خلال الديار(في سورة الإسراء.
ومعنى)ينزل من السماء(يسقط من علو إلى سفل، أي ينزل من جو السماء إلى الأرض. والسماء: الجو الذي فوق جهة الأرض.
وقوله)من جبال(بدل من)السماء(بإعادة حرف الجر العامل في المبدل منه وهو بدل بعض لأن المراد بالجبال سحاب أمثال الجبال.

صفحة : 2921

وإطلاق الجبال في تشبيه الكثرة معروف، يقال: فلان جبل علم، وطود علم. وفي حديث البخاري من طريق أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان لي مثل أحد ذهبا لسرني أن لا تمر علي ثلاث ليال وعندي منه شيء إلا شيئا أرصده لدين أي ما كان يسرني، فالكلام بمعنى النفي، أي لما سرني، أو لما كان سرني الخ..
وحرف)من(الأول للابتداء و)من(الثاني كذلك و)من(في قوله)من برد(مزيدة في الإثبات على رأي الذين جوزوا زيادة)من(في الإثبات. أو تكون)من(اسما بمعنى بعض.
ومفعول)ينزل(محذوف يدل عليه قوله)فيها من برد(. والتقدير: ينزل بردا.
ووقوع)من(زائدة لقصد مشاكلة قوله)من جبال(.
وقوله)فيصيب به من يشاء(جعل نزول البرد إصابة لأن الإصابة إذا أطلقت في كلامهم دلت على إنها حلول مكروه. ومن ذلك سميت المصيبة الحادثة المكروهة. وأما قوله تعالى)إن تصبك حسنة تسؤهم(فلأن قوله)حسنة(قرينة على إطلاق الإصابة على مطلق

الحدوث إما مجازا مرسلا وإما مشتركا لفظيا أو مشتركا معنويا فإن)أصاب(مشتق من الصوب وهو النزول ومنه صوب المطر، فجعل نزول البرد إصابة لأنه يفسد الزرع والثمرة، فضمير)به(للبرد.

وجملة)يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار(وصف ل)سحابا(. وضمير) برقه(عائد إلى)سحابا(. وفائدة هذه الصفة تنبيه العقول إلى التدبر في هذه التغيرات إذ كان شعور الناس بحدوث البرق أوضح وأكثر من شعورهم بتكون السحاب وتراكمه ونزول المطر والبرد، إذ قد يغفل الناس عن ذلك لكثرة حدوثه وتعودهم به بخلاف اشتداد البرق فإنه لا يخلو أحد من أن يكون قد عرض له مرات، فإن أصحاب الأبصار التي حركها خفق البرق يتذكرون تلك الحالة العجيبة الدالة على القدرة. ولهذه النكتة خصصت هذه الحالة من أحوال البرق بالذكر.

والسنا مقصورا: ضوء البرق وضوء النار. وأما السناء الممدود فهو الرفعة. قال ابن دريد في أبيات له في متشابه المقصور والممدود:

زال السنا عن ناظـريه وزال عن شرف السناء ولام التعرف في)الأبصار(لام الحقيقة، وقوله)يكاد سنا برقة يذهب بالأبصار(وهو كقوله في سورة البقرة)يكاد البرق يخطف أبصارهم(سوى ان هذه الآية زيد فيها لفظ سنا لأن هذه الآية واردة في مقام الاعتبار بتكوين السحاب وإنزال الغيث فكان المقام مقتضيا للتنويه بهذا البرق وشدة ضيائه حتى يكون الاعتبار بأمرين: بتكوين البرق في السحاب، وبقوة ضيائه حتى يكاد يذهب بالأبصار، وآية البقرة واردة في مقام التهديد والتشويه لحالهم حين كانوا مظهرين الإسلام ومنطوين على الكفر والجحود فكانت حالهم كحالة الغيث المشتمل على صواعق ورعد وبرق فظاهره منفعة وفي باطنه قوارع ومصائب.

ومن أجل اختلاف المقامين وضع التعبير هنا ب)يذهب بالأبصار(وهنالك بقوله)يخطف أبصارهم(لأن في الخطف من معنى النكاية بهم والتسلط عليهم ما ليس في)يذهب(إذ هو مجرد الاستلاب.

وأما التعبير هنا ب)الأبصار(معرفا باللام فلأن المقصود أن البرق مقارب أن يزيل طائفة من جنس الأبصار إذ اللام هنا لام الحقيقة كما في قوله)أن يأكله الذئب(وقولهم: ادخل السوق، لأن الحكم على حالة البرق الشديد من حيث هي. بخلاف آية البقرة فإنها في مقام التوبيخ لهم بأن ما شأنه أن ينتفع الناس به قد أشرف على الضر بهم فلذلك ذكر لفظ أبصار مضافا إلى ضميرهم مع ما في هذا التخالف من تفنين الكلام الواحد على أفانين مختلفة حتى لا يكون الكلام معادا وإن كان المعنى متحدا ولا تجد حق الإيجاز فائتا

فإن هذين الكلامين في حد التساوي في الحرف والنطق. وهكذا نرى بلاغة القرآن وإعجازه وحلاوة نظمه.
وقرأ الجمهور)يذهب(بفتح التحتية وفتح الهاء، فالباء للتعدية، أي يذهب الأبصار. وقرأه أبو جعفر وحده بضم التحتية وكسر الهاء فتكون الباء مزيدة لتأكيد اللصوق مثل)وامسحوا برؤوسكم(.
)يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار[44](

صفحة : 2922

التقليب تغيير هيئة إلى ضدها. ومنه)فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها(أي يدير كفيه من ظاهر إلى باطن، فتقليب الليل والنهار تغيير الأفق من حالة الليل إلى حالة الضياء ومن حالة النهار إلى حالة الظلام، فالمقلب هو الجو بما يختلف عليه من الأعراض ولكن لما كانت حالة ظلمة الجو تسمى ليلا وحالة نوره تسمى نهارا عبر عن الجو في حالتيه بهما، وعدي التقليب إليهما بهذا الاعتبار.
ومما يدخل في معنى التقليب تغيير هيئة الليل والنهار بالطول والقصر. ولرعي تكرر التقلب بمعنييه عبر بالمضارع المقتضي للتكرر والتجدد.
والكلام استئناف. وجيء به مستأنفا غير معطوف على آيات الاعتبار المذكور قبله لأنه أريد الانتقال من الاستدلال بما قد يخفى على بعض الأبصار إلى الاستدلال بما يشاهده كل ذي بصر كل يوم وكل شهر فهو لا يكاد يخفى على ذي بصر. وهذا تدرج في موقع هذه الجملة عقب جملة)يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار(كما أشرنا إليه آنفا. ولذلك فالمقصود من الكلام هو جملة)إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار(، ولكن بني نظم الكلام على تقديم الجملة الفعلية لما تقتضيه من إفادة التجدد بخلاف أن يقال: إن في تقليب الليل والنهار لعبرة.
والإشارة الواقعة في قوله)إن في ذلك(إلى ما تضمنه فعل)يقلب(من المصدر. أي إن في التقليب. ويرجح هذا القصد ذكر العبرة بلفظ المفرد المنكر.
والتأكيد ب)إن(إما لمجرد الاهتمام بالخبر وإما لتنزيل المشركين في تركهم الاعتبار بذلك منزلة من ينكر أن في ذلك عبرة.
وقيل: الإشارة بقوله)إن في ذلك(إلى جميع ما ذكر آنفا ابتداء من قوله)ألم تر أن الله يزجي سحابا(فيكون الإفراد في قوله)لعبرة(ناظرا إلى أن مجموع ذلك يفيد جنس العبرة الجامعة لليقين بأن الله هو المتصرف في الكون.

ولم ترد العبرة في القرآن معرفة بلام الجنس ولا مذكورة بلفظ الجمع.

)والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير[45](لما كان الاعتبار بتساوي أجناس الحيوان في أصل التكوين من ماء التناسل مع الاختلاف في أول أحوال تلك الأجناس في آثار الخلقة وهو حال المشي إنما هو باستمرار ذلك النظام بدون تخلف وكان ذلك محققا كان إفراغ هذا المعنى بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي مفيدا لأمرين: التحقق بالتقديم على الخبر الفعلي، والتجدد يكون الخبر فعليا.

وإظهار اسم الجلالة دون الإضمار للتنويه بهذا الخلق العجيب.

واختير فعل المضي للدلالة على تقرير التقوي بأن هذا شأن متقرر منذ القدم مع عدم فوات الدلالة على التكرير حيث عقب الكلام بقوله)يخلق الله ما يشاء(.

وقرأ الجمهور)والله خلق كل دابة(بصيغة فعل المضي ونصب) كل(. وقرأه الكسائي)والله خالق كل دابة(بصيغة اسم الفاعل وجر)كل(بإضافة اسم الفاعل إلى مفعوله.

والدابة: ما دب على وجه الأرض، أي مشى. وغلب هنا الإنسان فأتي بضمير العقلاء مرادا به الإنسان وغيره مرتين.

وتنكير)ماء(لإرادة النوعية تنبيها على اختلاف صفات الماء لكل نوع من الدواب إذ المقصود تنبيه الناس إلى اختلاف النطف للزيادة في الاعتبار.

وهذا بخلاف قوله)وجعلنا من الماء كل شيء حي(إذ قصد ثمة إلى أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من جنس الماء وهو جنس واحد اختلفت أنواعه، فتعريف الجنس هناك إشارة إلى ما يعرفه الناس إجمالا ويعهدونه من أن الحيوان كله مخلوق من نطف أصوله. وهذا مناط الفرق بين التنكير كما هنا وبين تعريف الجنس كما في آية)وجعلنا من الماء كل شيء حي(.

و)من(ابتدائية متعلقة ب)خلق(.

ورتب ذكر الأجناس في حال المشي على ترتيب قوة دلالتها على عظم القدرة لأن الماشي بلا آلة مشي متمكنة أعجب من الماشي على رجلين، وهذا المشي زحفا. أطلق المشي على الزحف بالبطن للمشاكلة مع بقية الأنواع. وليس في الآية ما يقتضي حصر المشي في هذه الأحوال الثلاثة لأن المقصود الاعتبار بالغالب المشاهد.

وجملة)يخلق الله ما يشاء(زيادة في العبرة، أي يتجدد خلق الله ما يشاء أن يخلقه مما علمتم وما لم تعلموا، فهي جملة مستأنفة.

وجملة)إن الله على كل شيء قدير(تعليل وتذييل. ووقع فيه إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار ليكون كاملا مستقلا بذاته لأن شأن التذييل أن يكون كالمثل.
)لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[46](تذييل للدلائل والعبر السالفة وهو نتيجة الاستدلال ولذلك ختم بقوله)والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم(، أي إن لم يهتد بتلك الآيات أهل الضلالة فذلك لأن الله لم يهدهم لأنه يهدي من يشاء. والمراد بالآيات هنا آيات القرآن كما يقتضيه فعل)أنزلنا(ولذلك لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها بعكس قوله السابق)ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات(.
ولما كان المقصود من هذا إقامة الحجة دون الامتنان لم يقيد إنزال الآيات بأنه إلى المسلمين كما قيد في قوله تعالى قبله)ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات(كما تقدم.
وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب)مبينات(بفتح الياء على صيغة اسم المفعول، أي بينها الله ووضحها ببلاغتها وقوة حجتها. وقرأ الباقون بكسر الياء على صيغة اسم الفاعل، فإسناد التبيين إلى الآيات على هذه القراءة مجاز عقلي لأنها سبب البيان.
والمعنى أن دلائل الحق ظاهرة ولكن الله يقدر الهداية إلى الحق لمن يشاء هدايته.
)ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين[47] وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحك بينهم إذا فريق منهم معرضون[48] وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين[49] أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون[50](عطف جملة)ويقولون(على جملة)والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم(لما تتضمنه جملة)يهدي من يشاء(من هداية بعض الناس وحرمان بعضهم من الهداية كما هو مقتضى)من يشاء(. وهذا تخلص إلى ذكر بعض ممن لم يشأ الله هدايتهم وهم الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام وهم أهل النفاق. فبعد أن ذكرت دلائل انفراد الله تعالى بالإلهية وذكر الكفار الصرحاء الذين لم يهتدوا بها في قوله)والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة(الآيات تهيأ المقام لذكر صنف آخر من الكافرين الذين لم يهتدوا بآيات الله وأظهروا أنهم اهتدوا بها.
وضمير الجمع عائد إلى معروفين عند السامعين وهم المنافقون لأن ما ذكر بعده هو من أحوالهم، وعود الضمير إلى شيء غير

مذكور كثير في القرآن، على انهم قد تقدم ما يشير إليهم بطريق التعريض في قوله)رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة(.
وقد أشارت الآية إلى المنافقين عامة، ثم إلى فريق منهم أظهروا عدم الرضى بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم فكلا الفريقين موسوم بالنفاق، ولكن أهما استمر على النفاق والمواربة وفريقا لم يلبثوا أن أظهروا الرجوع إلى الكفر بمعصية الرسول علنا.
ففي قوله)ويقولون(إيماء إلى أن حظهم من الإيمان مجرد القول دون الاعتقاد كما قال تعالى)قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم(.
وعبر بالمضارع لإفادة تجدد ذلك منهم واستمرارهم عليه لما فيه من تكرر الكذب ونحوه من خصال النفاق التي بينتها في سورة البقرة. ومفعول)أطعنا(محذوف دل عليه ما قبله، أي أطعنا الله والرسول.
والإشارة في قوله)وما أولئك(إلى ضمير)يقولون(، أي يقولون آمنا وهم كاذبون في قولهم. وإنما يظهر كفرهم عندما تحل بهم النوازل والخصومات فلا يطمئنون بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا يصح جعله إشارة إلى)فريق(من قوله)إذا فريق منهم معرضون(لأن إعراضهم كاف في الدلالة على عدم الإيمان.
فالضمير في قوله)وإذا دعوا(عائد إلى معاد ضمير)يقولون(. وإسناد فعل)دعوا(إلى جميعهم وإن كان المعرضون فريقا منهم لا جميعهم للإشارة إلى أنهم سواء في التهيؤ إلى الإعراض ولكنهم لا يظهرونه إلا عندما تحل بهم النوازل فالمعرضون هم الذين حلت بهم الخصومات.

صفحة : 2924

وقد شملت الآية نفرا من المنافقين كانوا حلت بهم خصومات فأبوا حكم النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يحكم عليهم أو بعدما حكم عليهم فلم يرضهم حكمه، فروى المفسرون أن بشرا أحد الأوس أو الخزرج تخاصم إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع يهودي فلما حكم النبي لليهودي لم يرض بشر بحكمه ودعاه إلى الحكم عند كعب بن الأشرف إليهودي فأبى إليهودي وتساوقا إلى عمر بن الخطاب فقصا عليه القضية فلما علم عمر أن بشرا لم يرض بحكم النبي قال لهما: مكانكما حتى آتيكما. ودخل بيته فأخرج سيفه وضرب بشرا بالسيف فقتله. فروي أن النبي صلى الله عليه

وسلم لقب عمر يومئذ الفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل، أي فرق بينهما بالمشاهدة. وقيل إن أحد المنافقين اسمه المغيرة بن وائل من الأوس من بني أمية بن زيد الأوسي تخاصم مع علي بن أبي طالب في أرض اقتسماها ثم كره أمية القسم الذي أخذه فرام نقض القسمة وأبى علي نقضها ودعاه إلى الحكومة لدى النبي صلى الله عليه وسلم. فقال المغيرة: أما محمد فلست آتيه لأنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف علي، فنزلت هذه الآية. وتقدم ذلك عند قوله تعالى)ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك(الآية في سورة النساء.

ومن سماجة الأخبار ما نقله الطبرسي الشيعي في تفسيره المسمى مجمع البيان عن البلخي أنه كانت بين علي وعثمان منازعة في أرض اشتراها من علي فخرجت فيها أحجار وأراد ردها بالعيب فلم يأخذها فقال: بيني وبينك رسول الله. فقال له الحكم بن أبي العاص إن حاكمته إلى ابن عمه يحكم له فلا تحاكمه إليه، فنزلت الآيات. وهذا لم يروه أحد من ثقات المفسرين ولا أشك في أنه مما اعتيد إلصاقه ببني أمية من تلقاء المشوهين لدولتهم تطلعا للفتنة والحكم بن أبي العاص أسلم يوم الفتح وسكن المدينة وهل يظن به أن يقول مثل هذه المقالة بين مسلمين.

وإنما جعل الدعاء إلى الله ورسوله كليهما مع أنهم دعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن حكم الرسول حكم الله لأنه لا يحكم إلا عن وحي. ولهذا الاعتبار أفرد الضمير في قوله) ليحكم(العائد إلى أقرب مذكور ولم يقل: ليحكما.

وقوله)وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه(أي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومعنى)وإن يكن لهم الحق(أنه يكون في ظن صاحب الحق ويقينه أنه على الحق. ومفهومه أن من لم يكن له الحق منهم وهو العالم بأنه مبطل لا يأتي إذا دعي إلى الرسول عليه الصلاة، فعلم منه أن الفريق المعرضين هم المبطلون. وكذلك شأن كل من هو على الحق أنه لا يأبى من القضاء العادل، وشأن المبطل أن يأبى العدل لأن العدل لا يلائم حبه الاعتداء على حقوق الناس، فسبب إعراض المعرضين علمهم بأن في جانبهم الباطل وهم قد تحققوا أن الرسول لا يحكم إلا بصراح الحق.

وهذا وجه موقع جملة)أفي قلوبهم مرض(إلى آخرها.

ووقع حرف)إذا(المفاجأة في جواب)إذا(الشرطية لإفادة مبادرتهم بالإعراض دون تريث لأنهم قد أيقنوا من قبل بعدالة الرسول وأيقنوا بأن الباطل في جانبهم فلم يترددوا في الإعراض.

والإذعان: الانقياد والطاعة.

ولما كان هذا شأنا عجيبا استؤنف عقبه بالجملة ذات الاستفهامات المستعملة في التنبيه على أخلاقهم ولفت الأذهان إلى ما انطووا عليه والداعي إلى ذلك أنها أحوال خفية لأنهم كانوا يظهرون خلافها.
وأتبع بعض الاستفهامات بعضا بحرف)أم(المنقطعة التي هي هنا للإضراب الانتقالي كشأنها إذا عطفت الجمل الاستفهامية فإنها إذا عطفت الجمل لم تكن لطلب التعيين كما هي في عطف المفردات لأن المتعاطفات بها حينئذ ليست مما يطلب تعيين بعضه دون بعض، وأما معنى الاستفهام فملازم لها لأنه يقدر بعد)أم(.
والانتقال هنا تدرج في عد أخلاقهم. فالمعنى انه سأل سائل عن اتصافهم بخلق من هذه المذكورات علم المسؤول أنهم متصفون به، فكان الاستفهام المكرر ثلاث مرات مستعملا في التنبيه مجازا مرسلا، ومنه قوله تعالى)ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان يسمعون بها(في سورة الأعراف.
والقلوب: العقول. والمرض مستعار للفساد أو للكفر قال تعالى)في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا(أو للنفاق.

صفحة : 2925

وأتي في جانب هذا الاستفهام بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات المرض في قلوبهم وتأصله فيها بحيث لم يدخل الإيمان في قلوبهم.
والارتياب: الشك. والمراد: ارتابوا في حقية الإسلام، أي حدث لهم ارتياب بعد أن آمنوا إيمانا غير راسخ.
وأتي في جانبه بالجملة الفعلية المفيدة للحدوث والتجدد، أي حدث لهم ارتياب بعد أن اعتقدوا الإيمان اعتقادا مزلزلا. وهذا يشير إلى أنهم فريقان: فريق لم يؤمنوا ولكنهم أظهروا الإيمان وكتموا كفرهم، وفريق آمنوا إيمانا ضعيفا ثم ظهر كفرهم بالإعراض.
والحيف: الظلم والجور في الحكومة. وجيء في جانبه بالفعلين المضارعين للإشارة إلى أنه خوف في الحال من الحيف في المستقبل كما يقتضيه دخول)أن(، وهي حرف الاستقبال، على فعل)يحيف(. فهم خافوا من وقوع الحيف بعد نشر الخصومة فمن ثمة أعرضوا عن التحاكم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.
وأسند الحيف إلى الله ورسوله بمعنى أن يكون ما شرعه الإسلام حيفا لا يظهر الحقوق. وهذا كناية عن كونهم يعتقدون أنه غير منزل من الله وأن يكون حكم الرسول بغير ما أمر الله، فهم يطعنون في الحكم وفي الحاكم وما ذلك إلا لأنهم لا يؤمنون بأن شريعة

الإسلام منزلة من الله ولا يؤمنون بأن محمدا عليه الصلاة والسلام مرسل من عند الله، فالكلام كناية عن إنكارهم أن تكون الشريعة إلهية وأن يكون الآتي بها صادقا فيما أتى به.

واعلم أن المنافقين اتصفوا بهذه الأمور الثلاثة وكلها ناشئة عن عدم تصديقهم الرسول سواء في ذلك من حلت به قضية ومن لم تحل.

وفيما فسرنا به قوله تعالى)أفي قلوبهم مرض(ما يثلج صدر الناظر ويخرج به من سكوت الساكت وحيرة الحائر.

و)بل(للإضراب الانتقالي من الاستفهام التنبيهي إلى خبر آخر. ولم يؤت في هذا الإضراب ب)أم(لأن)أم(لا بد معها من معنى الاستفهام، وليس المراد عطف كونهم ظالمين على الاستفهام المستعمل في التنبيه بل المراد به إفادة اتصافهم بالظلم دون غيرهم لأنه قد اتضح حالهم فلا داعي لإيراده بصيغة استفهام التنبيه. وليست)بل(هنا للإبطال لأنه لا يستقيم إبطال جميع الأقسام المتقدمة فإن منها مرض قلوبهم وهو ثابت، ولا دليل على قصد إبطال القسم الأخير خاصة، ولا على إبطال القسمين الآخرين.

وجملة)أولئك هم الظالمون(مستأنفة استئنافا بيانيا لأن السامع بعد أن ظنت بأذنه تلك الاستفهامات الثلاثة ثم أعقبت بحرف الإضراب يترقب ماذا سيرسي عليه تحقيق حالهم فكان قوله)أولئك هم الظالمون(بيانا لما يترقبه السامع.

والمعنى: أنهم يخافون أن يحيف الرسول عليهم ويظلمهم. وليس الرسول بالذي يظلم بل هم الظالمون. فالقصر الحاصل من تعريف الجزأين ومن ضمير الفصل حسر مؤكد، أي هم الظالمون لا شرع الله ولا حكم رسوله.

وزار اسم الإشارة تأكيدا للخبر فحصل فيه أربعة مؤكدات: اثنان من صيغة الحصر إذ ليس الحصر والتخصيص إلا تأكيدا على تأكيد، والثالث ضمير الفصل، والرابع اسم الإشارة .

واسم الإشارة الموضوع للتمييز استعمل هنا مجازا لتحقيق اتصافهم بالظلم، فهم يقيسون الناس على حسب مايقيسون أنفسهم، فلما كانوا أهل ظلم ظنوا بمن هو أهل الإنصاف أنه ظالم كما قال أبو الطيب:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

وصدق ما يعتاده من تـوهـم ولا تعلق لهذه الآية بحكم من دعي إلى القاضي للخصومة فامتنع لأن الذم والتوبيخ فيها كانا على امتناع ناشئ عن كفرهم ونفاقهم.

)إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون[51](

استئناف بياني لأن الإخبار عن الذين يعرضون عندما يدعون إلى الحكومة بأنهم ليسوا بالمؤمنين في حين أنهم يظهرون الإيمان يثير سؤال سائل عن الفاصل الذي يميز بين المؤمن الحق وبين الذي يرائي بإيمانه في حين يدعى إلى الحكومة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقتضي أن يبين للسائل الفرق بين الحالين لئلا يلتبس عنده الإيمان المزور بالإيمان الصادق، فقد كان المنافقون يموهون بأن إعراض من أعرض منهم عن التحاكم عند رسول الله ليس لتزلزل في إيمانه بصدق الرسول ولكنه إعراض لمراعاة أعراض من العلائق الديوية كقول بشر: إن الرسول يبغضني. فبين الله بطلان ذلك بأن المؤمن لا يرتاب في عدل الرسول وعدم مصانعته.

وقد أفاد هذا الاستئناف أيضا الثناء على المؤمنين الأحقاء بضد ما كان ذما للمنافقين. وذلك من مناسبات هذا الاستئناف على عادة القرآن في إرداف التوبيخ بالترغيب والوعيد بالوعد والنذارة بالبشارة والذم بالثناء.

وجيء بصيغة الحصر ب)إنما(لدفع أن يكون مخالف هذه الحالة في شيء من الإيمان وإن قال بلسانه إنه مؤمن، فهذا القصر إضافي، أي هذا قول المؤمنين الصادقين في إيمانهم لا كقول الذي أعرضوا عن حكم الرسول حين قالوا)آمنا بالله وبالرسول وأطعنا(فلما دعوا إلى حكم الرسول عصوا أمره فإن إعراضهم نقيض الطاعة، وسيأتي بيانه قريبا. وليس قصرا حقيقيا لأن أقوال المؤمنين حين يدعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم غير منحصرة في قول)سمعنا وأطعنا(ولا في مرادفه، فلعل منهم من يزيد على ذلك.

وفي الموطإ من حديث زيد بن خالد الجهني: أن رجلين اختصما إلى رسول الله. فقال أحدهما: يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله يعني وهو يريد أن رسول الله يقضي له كما وقع التصريح في رواية الليث بن سعد في البخاري أن رجلا من الأعراب أتى رسول الله فقال: أنشدك بالله إلا قضيت لي بكتاب الله . وقال الآخر وهو أفقههما: أجل يا رسول الله فاقض بيننا بكتاب الله وأذن لي أن أتكلم يريد لا تقض له علي فأذن لي أن أبين فقال رسول الله تكلم.. إلخ.

وليس المراد بقول)سمعنا وأطعنا(خصوص هذين اللفظين بل المراد لفظهما أو مرادفهما للتسامح في مفعول فعل القول أن لا

يحكي بلفظه كما هو مشهور. وإنما خص هذان اللفظان بالذكر هنا من أجل أنهما كلمة مشهورة تقال في مثل هذه الحالة وهي مما جرى المثل كما يقال أيضا سمع وطاعة بالرفع و سمعا وطاعة بالنصب. وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى)ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا(في سورة النساء. وفي حديث أبي هريرة)قال النبي للأنصار: تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة. فقال الأنصار: سمعنا وأطعنا(.

و)قول المؤمنين(خبر)كان(و)أن يقولوا(هو اسم)كان(وقدم خبر كان على اسمها متابعة للاستعمال العربي لأنهم إذا جاءوا بعد)كان(بأن والفعل لم يجيئوا بالخبر إلا مقدما على الاسم نظرا إلى كون المصدر المنسبك من أن والفعل أعرف من المصدر الصريح، ولم يجيئوا بالخبر إلا مقدما كراهية توالي أداتين وهما:)كان(و)أن(. ونظائر هذا الاستعمال كثيرة في القرآن. وتقدم عند قوله تعالى)وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا(في سورة آل عمران.

وجيء في وصف المؤمنين بالفلاح بمثل التركيب الذي وصف به المنافقون بالظلم بصيغة القصر المؤكد ليكون الثناء على المؤمنين ضدا لمذمة المنافقين تاما.

واعلم أن القصر المستفاد من)إنما(هنا قصر إفراد لأحد نوعي القول. فالمقصود منه الثناء على المؤمنين برسوخ إيمانهم وثبات طاعتهم في المنشط والمكروه. وفيه تعريض بالمنافقين إذ يقولون كلمة الطاعة ثم ينقضونها بضدها من كلمات الإعراض والارتياب. ونظير هذه الآية في طريق قصر ب)إلا(قوله تعالى)وما كان قولهم إلا أن قال ربنا اغفر لنا ذنوبنا(في سورة آل عمران.

)ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون[52](

صفحة : 2927

الواو اعتراضية أو عاطفة على جملة)وأولئك هم المفلحون(. والتقدير: وهم الفائزون. فجاء نظم الكلام على هذا الإطناب ليحصل تعميم الحكم والمحكوم عليه. وموقع هذه الجملة موقع تذييل لأنها تعم ما ذكر قبلها من قول المؤمنين)سمعنا وأطعنا(وتشمل غيره من الطاعات بالقول أو بالفعل.

و)من(شرطية عامة، وجملة)فأولئك(جواب الشرط. والفوز: الظفر بالمطلوب الصالح. والطاعة: امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

والخشية: الخوف. وهي تتعلق بالخصوص بما عسى أن يكون قد فرط فيه من التكاليف على إنها تعم التقصير كله.

والتقوى: الحذر من مخالفة التكاليف في المستقبل.
فجمعت الآية أسباب الفوز في الآخرة وأيضا في الدنيا.
وصيغة الحسر للتعريض بالذين أعرضوا إذا دعوا إلى الله ورسوله وهي على وزان صيغة القصر التي تقدمتها.
)وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون[53](عطف على جملة) ويقولون آمنا بالله وبالرسول(. أتبعت حكاية قولهم ذلك بحكاية قسم أقسموه بالله ليتنصلوا من وصمة أن يكون إعراضهم عن الحكومة عند الرسول صلى الله صلى عليه وسلم فجاءوه فأقسموا إنهم لا يضمرون عصيانه فيما يقضي به فإنه لو أمرهم الرسول بأشق شيء وهو الخروج للقتال لأطاعوه. قال ابن عطية: وهذه في المنافقين الذين تولوا حين دعوا إلى الله ورسوله. وقال القرطبي: لما بين كراهتهم لحكم النبي أتوه فقالوا: والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا لخرجنا ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا. فنزلت هذه الآية.
وكلام القرطبي يقتضي أنهم ذكروا خروجين. وبذلك يكون من الإيجاز في الآية حذف متعلق الخروج ليشمل ما يطلق عليه لفظ الخروج من حقيقة ومجاز بقرينة ما هو معروف من قصة سبب نزول الآية يومئذ، فإنه بسبب خصومة في مال فكان معنى الخروج من المال أسبق في القصد. واقتصر جمهور المفسرين على أن المراد ليخرجن من أموالهم وديارهم. واقتصر الطبري عل أن المراد ليخرجن إلى الجهاد على اختلاف الرأيين في سبب النزول.
والإقسام: النطق بالقسم، أي اليمين.
وضمير)أقسموا(عائد إلى ما عاد إليه ضمير)ويقولون(. بفعل المضي هنا لأن ذلك شيء وقع وانقضى.
والجهد بفتح الجيم وسكون الهاء : منتهى الطاقة. ولذلك يطلق على المشقة كما في حديث بدء الوحي فغطني حتى بلغ مني الجهد لأن الأمر الشاق لا يعمل إلا بمنتهى الطاقة. وهو مصدر) جهد(كمنع متعديا إذا أتعب غيره.
ونصب)جهد أيمانهم(يجوز أن يكون على الحال من ضمير) أقسموا(على تأويل المصدر باسم الفاعل كقوله)لا تأتيكم إلا بغتة(، أي جاهدين. والتقدير: جاهدين أنفسهم، أي بالغين بها أقصى الطاقة. وهذا على طريقة التجريد. ومعنى ذلك: أنهم كرروا الأيمان وعددوا عباراتها حتى أتعبوا أنفسهم ليوهموا أنهم صادقون في أيمانهم. وإضافة)جهد(إلى)أيمانهم(على هذا الوجه إضافة على معنى)من(، أي جهدا ناشئا من أيمانهم.
ويجوز أن يكون)جهد(منصوبا على المفعول المطلق الواقع بدلا من فعله. والتقدير: جهدوا أيمانهم جهدا، والفعل المقدر في موضع

الحال من ضمير)أقسموا(. والتقدير: أقسموا يجهدون أيمانهم جهدا. وإضافة)جهد(إلى)أيمانهم(على هذا الوجه من إضافة المصدر إلى مفعوله؛ جعلت الأيمان كالشخص الذي له جهد، ففيه استعارة مكنية، ورمز إلى المشبه به بما هو من روادفه وهو أن أحدا يجهده، أي يستخرج منه طاقته فإن كل إعادة لليمين هي كتكليف لليمين بعمل متكرر كالجهد له، فهذا أيضا استعارة.

وتقدم الكلام على شيء من هذا عند قوله تعالى)أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم(في سورة العقود وقوله)وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية(في سورة الأنعام.

وجملة)لئن أمرتهم(الخ بيان لجملة)أقسموا(. وحذف مفعول) أمرتهم(لدلالة قوله)ليخرجن(. والتقدير: لئن أمرتهم بالخروج ليخرجن.

صفحة : 2928

فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم هذه الكلمات ذات المعاني الكثيرة وهي)لا تقسموا طاعة معروفة(. وذلك كلام موجه لأن نهيهم عن أن يقسموا بعد أن صدر القسم يحتمل أن يكون نهيا عن إعادته لأنهم كانوا بصدد إعادته، بمعنى: لا حاجة بكم إلى تأكيد القسم، أي فإن التأكيد بمنزلة المؤكد في كونه كذبا.

ويحتمل أن يكون النهي مستعملا في معنى عدم المطالبة بالقسم، أي ما كان لكم أن تقسموا إذ لا حاجة إلى القسم لعدم الشك في أمركم.

ويحتمل أن يكون النهي مستعملا في التسوية مثل)اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم(.

ويحتمل أن يكون النهي مستعملا في حقيقته والمقسم عليه محذوف، أي لا تقسموا على الخروج من دياركم وأموالكم فإن الله لا يكلفكم بذلك. ومقام مواجهة نفاقهم أن تكون هذه الاحتمالات مقصودة.

وقوله)طاعة معروفة(كلام أرسل مثلا وتحته معان جمة تختلف باختلاف الاحتمالات المتقدمة في قوله)لا تقسموا(.

وتنكير)طاعة(لأن المقصود به نوع الطاعة وليست طاعة معينة فهو من باب: تمرة خير من جرادة، و)معروفة(خبره.

فعلى احتمال أن يكون النهي عن القسم مستعملا في النهي عن تكريره يكون المعنى من قبيل التهكم، أي لا حرمة للقسم فلا تعيدوه فطاعتكم معروفة، أي معروف وهنها وانتفاؤها.

وعلى احتمال استعمال النهي في عدم المطالبة باليمين يكون المعنى: لماذا تقسمون أفأنا أشك في حالكم فإن طاعتكم معروفة عندي، أي أعرف عدم وقوعها، والكلام تهكم أيضا.
وعلى احتمال استعمال النهي في التسوية فالمعنى: قسمكم ونفيه سواء لأن أيمانكم فاجرة وطاعتكم معروفة.
أو يكون)طاعة(مبتدأ محذوف الخبر، أي طاعة معروفة أولى من الأيمان، ويكون وصف)معروفة(مشتقا من المعرفة بمعنى العلم، أي طاعة تعلم وتتحقق أولى من الأيمان على طاعة غير واقعة، وهو كالعرفان في قولهم: لا أعرفنك تفعل كذا.
وإن كان النهي مستعملا في حقيقته فالمعنى: لا تقسموا هذا القسم، أي على الخروج من دياركم وأموالكم لأن الله لا يكلفكم الطاعة إلا في معروف، فيكون وصف)معروفة(مشتقا من العرفان، أي عدم النكران كقوله تعالى)ولا يعصينك في معروف(.
وجملة)إن الله خبير بما تعملون(صالحة لتذييل الاحتمالات المتقدمة، وهي تعليل لما قبلها.
)قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين[54](تلقين آخر للرسول عليه الصلاة والسلام بما يرد بهتانهم بقلة الاكتراث بمواعيدهم الكاذبة وأن يقتصروا من الطاعة على طاعة الله ورسوله فيما كلفهم دون ما تبرعوا به كذبا، ويختلف معنى)أطيعوا الله وأطيعوا الرسول(بين معاني الأمر بإيجاد الطاعة المفقودة أو إيهام طلب الدوام على الطاعة على حسب زعمهم.
وأعيد الأمر بالقول للاهتمام بهذا القول فيقع كلاما مستقلا غير معطوف.
وقوله)فإن تولوا(يجوز أن يكون تفريعا على فعل)أطيعوا(فيكون فعل)تولوا(من جملة ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم ويكون فعلا مضارعا بتاء الخطاب. وأصله: تتولوا بتاءين حذفت منهما تاء الخطاب للتخفيف وهو حذف كثير في الاستعمال. والكلام تبليغ عن الله تعالى إليهم، فيكون ضميرا)فعليه ما حمل(عائدين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.
ويجوز أن يكون تفريعا على فعل)قل(، أي فإذا قلت ذلك فتولوا ولم يطيعوا الخ، فيكون فعل)تولوا(ماضيا بتاء واحدة مواجها به النبي صلى الله عليه وسلم، أي فأن تولوا ولم يطيعوا فإنما عليك ما حملت من التبليغ وعليهم ما حملوا من تبعة التكليف. كمعنى قوله تعالى)فإن تولوا فأنما عليك البلاغ المبين(في سورة النحل فيكون في ضمائر)فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم(التفات.

وأصل الكلام: فإنما عليك ما حملت وعليهم ما حملوا. والالتفات محسن لا يحتاج إلى نكتة.

صفحة : 2929

وبهذين الوجهين تكون الآية مفيدة معنيين: معنى من تعلق خطاب الله تعالى بهم وهو تعريض بتهديد ووعيد، ومعنى من موعظة النبي صلى الله عليه وسلم إياهم وموادعة بهم. وهذا كله تبكيت لهم ليعلموا أنهم لايضرون لتوليهم إلا أنفسهم. ونظيره قوله في سور آل عمران)ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب(هم اليهود) يدعون إلى كتاب الله(إلى قوله)قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين(.

واعلم أن هذين الاعتبارين لا يتأتيان في المواضع التي يقع فيها الفعل المضارع المفتتح بتاءين في سياق النهي نحو قوله تعالى)ولا تتبدل الخبيث بالطيب(وقوله)ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون(وقوله)ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون(في سورة الأنفال، وأما قوله تعالى في سورة القتال)وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم(فثبتت فيه التاءان لأن الكلام فيه موجه إلى المؤمنين فلم يكن فيه ما يقتضي نسج نظمه بما يصلح لإفادة المعنيين المذكورين في سورة النور وفي سور آل عمران.

والبلاغ: اسم مصدر بمعنى التبليغ كالأداء بمعنى التأدية. ومعنى كونه مبينا أنه فصيح واضح.

وجملة)وإن تطيعوه تهتدوا(إرداف الترهيب الذي تضمنه قوله) وعليكم ماحملتم(بالترغيب في الطاعة استقصاء في الدعوة إلى الرشد.

وجملة)وما على الرسول إلا البلاغ المبين(بيان لإبهام قوله)ما حمل(.

)وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحت ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون[55](والأشبه أن هذا الكلام استئناف ابتدائي انتقل إليه بمناسبة التعرض إلى أحوال المنافقين الذين أبقاهم على النفاق ترددهم في عاقبة أمر المسلمين، وخشيتهم أن لا يستقر بمسلمين المقام بالمدينة حتى يغزوهم المشركون، أو يخرجهم المنافقون حين يجدون الفرصة لذلك كما حكى الله تعالى من قول عبد الله بن أبي)لئن رجعنا إلى

المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل(، فكانوا يظهرون الإسلام اتقاء من تمام أمر الإسلام ويبطنون الكفر ممالاة لأهل الشرك حتى إذا ظهروا على المسلمين لم يلمزوا المنافقين بأنهم قد بدلوا دينهم، مع ما لهذا الكلام من المناسبة مع قوله)وإن تطيعوه تهتدوا(.
فيكون المعنى: وإن تطيعوه تهتدوا وتنصروا وتأمنوا. ومع ما روي من حوادث تخوف المسلمين ضعفهم أمام أعدائهم فكانوا مشفقين من غزو أهل الشرك ومن كيد المنافقين ودلالتهم المشركين على عورات المسلمين فقيل كانت تلك الحوادث سببا لنزول هذه الآية.
قال أبو العالية: مكث رسول الله بمكة عشر سنين بعد ما أوحي إليه خائفا هو وأصحابه ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح فقال رجل: يا رسول الله أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال رسول الله: لا تغبرون أي لا تمكثون إلا قليلا حتى يجلس الرجل منكم في الملإ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة .ونزلت هذه الآية.
فكان اجتماع هذه المناسبات سببا لنزول هذه الآية في موقعها هذا بما اشتملت عليه من الموعود به الذي لم يكن مقتصرا على إبدال خوفهم أمنا كما اقتضاه أثر أبي العالية، ولكنه كان من جملة الموعود كما كان سببه من عداد الأسباب.
وقد كان المسلمون واثقين بالأمن ولكن الله قدم على وعدهم بالأمن أن وعدهم بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين والشريعة فيهم تنبيها لهم بأن سنة الله أنه لا تأمن أمة بأس غيرها حتى تكون قوية مكينة مهيمنة على أصقاعها. ففي الوعد بالاستخلاف والمكين وتبديل الخوف أمنا إيماء إلى التهيؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا في ذلك، وأن ملاك ذلك هو طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم)فأن تطيعوه تهتدوا(، وإذا حل الاهتداء في النفوس نشأت الصالحات فأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة، فالأسباب هي الإيمان وعمل الصالحات.

صفحة : 2930

والموصول عام لا يختص بمعين، وعمومه عرفي، أي غالب فلا يناكده ما يكون في الأمة من مقصرين في عمل الصالحات فإن تلك المنافع عائدة على مجموع الأمة.
والخطاب في)منكم(لأمة الدعوة بمشركيها ومنافقيها بأن الفريق الذي يتحقق فيه الإيمان وعمل الصالحات هو الموعود بهذا الوعد.

والتعريف في)الصالحات(للاستغراق، أي عملوا جميع الصالحات، وهي الأعمال التي وصفها الشرع بأنها صلاح، وترك الأعمال التي وصفها الشرع بأنها فساد لأن إبطال الفساد صلاح.

فالصالحات جمع صالحة: وهي الخصلة والفعلة ذات الصلاح، أي التي شهد الشرع بأنها صالحة. وقد تقدم في أول البقرة.

واستغراق)الصالحات(استغراق عرفي، أي عمل معظم الصالحات ومهماتها ومراجعها مما يعود إلى تحقيق كليات الشريعة وجري حالة مجتمع الأمة على مسلك الاستقامة، وذلك يحصل بالاستقامة في الخويصة وبحسن التصرف في العلاقة المدنية بين الأمة على حسب ما أمر به الدين أفراد الأمة كل فيما هو من عمل أمثاله الخليفة فمن دونه، وذلك في غالب أحوال تصرفاتهم، ولا التفات إلى الفلتات المناقضة فإنها معفو عنها إذا لم يسترسل عليها وإذا ما وقع السعي في تداركها.

والاستقامة في الخويصة هي موجب هذا الوعد وهي الإيمان وقواعد الإسلام، والاستقامة في المعاملة هي التي بها تيسير سبب الموعود به.

وقد بين الله تعالى أصول انتظام أمور الأمة في تضاعيف كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم مثل قوله تعالى)إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي(. وقوله)يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم(وقوله في سياق الذم)وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد(وقوله)فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم(وبين الرسول عليه الصلاة والسلام تصرفات ولاة الأمور في شؤون الرعية ومع أهل الذمة ومع الأعداء في الغزو والصلح والمهادنة والمعاهدة، وبين أصول المعاملات بين الناس.

فمتى اهتم ولاة الأمور وعموم الأمة باتباع ما وضح لهم الشرع تحقق وعد الله إياهم بهذا الوعد الجليل.

وهذه التكاليف التي جعلها الله لصلاح أمور الأمة ووعد عليها بإعطاء الخلافة والتمكين والأمن صارت بترتيب تلك الموعدة عليها أسبابا لها، وكانت الموعدة كالمسبب عليها فشابهت من هذه الحالة خطاب الوضع، وجعل الإيمان عمودها وشرطا للخروج من عهدة التكليف بها وتوثيقا لحصول آثارها بأن جعله جالب رضاه وعنايته. فبه يتيسر للأمة تناول أسباب النجاح، وبهي يحف اللطف الإلهي بالأمة في أطوار مزاولتها واستجلابها بحيث يدفع عنهم العراقيل والموانع، وربما حف بهم اللطف والعناية عند تقصير لهم في القيام بها. وعند

تخليطهم الصلاح بالفساد فرفق بهم ولم يعجل لهم الشر وتلوم لهم في إنزال العقوبة. وقد أشار إلى هذا قوله تعالى)ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغ لقوم عابدين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين(يريد بذلك كله المسلمين. وقد مضى الكلام على ذلك في سورة الأنبياء كقوله)إن الله يدافع عن الذين آمنوا(في سورة الحج.

صفحة : 2931

فلو أن قوم غير مسلمين عملوا في سيرتهم وشؤون رعيتهم بمثل ما أمر الله به المسلمين من الصالحات بحيث لم يعوزهم إلا الإيمان بالله ورسوله لاجتنبوا من سيرتهم صورا تشبه الحقائق التي يجتنيها المسلمون لأن تلك الأعمال صارت أسبابا وسننا تترتب عليها آثارها التي جعلها الله سننا وقوانين عمرانية سوى أنهم لسوء معاملتهم ربهم بجحوده أو بالإشراك به أو بعدم تصديق رسوله يكونون بمنأى عن كفالته وتأييده إياهم ودفع العوادي عنهم، بل يكلهم إلى أعمالهم وجهودهم على حسب المعتاد. ألا ترى أن القادة الأوربيين بعد أن اقتبسوا من الإسلام قوانينه ونظامه بما مارسوه من شؤون المسلمين في خلال الحروب الصليبية ثم بما اكتسبوه من ممارسة كتب التاريخ الإسلامي والفقه الإسلامي والسيرة النبوية قد نظموا ممالكهم على قواعد العدل والإحسان والمواساة وكراهة البغي والعدوان فعظمت دولهم واستقامة أمورهم. ولا عجب في ذلك فقد سلط الله الآشوريين وهم مشركون على بني إسرائيل لفسادهم فقال)وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا(وقد تقدم في سورة الإسراء.

والاستخلاف: جعلهم خلفاء، أي عن الله في تدبير شؤون عباده كما قال)إني جاعل في الأرض خليفة(وقد تقدم في سورة البقرة. والسين والتاء للتأكيد. وأصله: ليخلفنهم في الأرض.

وتعليق فعل الاستخلاف بمجموع الذين آمنوا وعملوا الصالحات وإن كان تدبير شؤون الأمة منوطا بولاة الأمور لا بمجموع الأمة من حيث إن لمجموع الأمة انتفاعا بذلك وإعانة عليه كل بحسب مقامه في المجتمع، كما حكى تعالى قول موسى لبني إسرائيل)وجعلكم ملوكا(كما تقدم في سورة العقود.

ولهذا فالوجه أن المراد من الأرض جميعها، وان الظرفية المدلولة بحرف)في(ظاهرة في جزء من الأرض وهو موطن حكومة الأمة وحيث تنال أحكامها سكانه. والأصل في الظرفية عدم استيعاب المظروف الظرف كقوله تعالى)واستعمركم فيها(.

وإنما صيغ الكلام في هذا النظم ولم يقتصر على قوله) ليستخلفنهم(دون تقييد بقوله)في الأرض(ل)ليستخلفنهم(للإيماء إلى أن الاستخلاف يحصل في معظم الأرض. وذلك يقبل الامتداد والانقباض كما كان الحال يوم خروج بلاد الأندلس من حكم الإسلام. ولكن حرمة الأمة واتقاء بأسها ينتشر في المعمورة كلها بحيث يخافهم من عداهم من الأمم في الأرض التي لم تدخل تحت حكمهم ويسعون الجهد في مرضاتهم ومسالمتهم. وهذا استخلاف كامل ولذلك نظر بتشبيهه باستخلاف الذين من قبلهم يعني الأمم التي حكمت معظم العالم وأخافت جميعه مثل الآشوريين والمصريين والفينيقيين واليهود زمن سليمان، والفرس، واليونان، والرومان.

وعن مالك: أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر فيكون موصول الجمع مستعملا في معنى المثنى. وعن الضحاك: هذه الآية تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. ولعل هذا مراد مالك. وعلى هذا فالمراد بالذين من قبلهم صلحاء الملوك مثل: يوسف، وداود، وسليمان، وأنو شروان، وأصحمة النجاشي، وملكي صادق الذي كان في زمن إبراهيم ويدعى حمورابي، وذي القرنين، وإسكندر المقدوني، وبعض من ولي جمهورية اليونان.

وفي الآية دلالة واضحة على أن خلفاء الأمة مثل: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن ومعاوية كانوا بمحل الرضى من الله تعالى لأنه استخلفهم استخلافا كاملا كما استخلف الذين من قبلهم وفتح لهم البلاد من المشرق إلى المغرب وأخاف منهم الأكاسرة والقياصرة.

وجملة)ليستخلفهم(بيان لجملة)وعد(لأنها عين الموعود به. ولما كانت جملة قسم وهو من قبيل القول كانت إحداهما بيانا للأخرى.

وقرأ الجمهور)كما استخلف(بالبناء للفاعل، أي كما استخلف الله الذين من قبلهم. وقرأه أبو بكر عن عاصم بالبناء للنائب فيكون) الذين(نائب فاعل.

صفحة : 2932

وتمكين الدين: انتشاره في القبائل والأمم وكثرة متبعيه. استعير التمكين الذي حقيقته التثبيت والترسيخ لمعنى الشيوع والانتشار لأنه

إذا انتشر لم يخش عليه الانعدام فكان كالشيء المثبت المرسخ، وإذا كان متبعوه في قلة كان كالشيء المضطرب المتزلزل. وهذا الوعد هو الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة منها حديث الحديبية إذ جاء فيه قوله وإن هم أبوا أي إلا القتال فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أي ينفصل مقدم العنق عن الجسد ولينفذن الله أمره .

وقوله)لهم(مقتضى الظاهر فيه أن يكون بعد قوله)دينهم(لأن المجرور بالحرف أضعف تعلقا من مفعول الفعل، فقدم)لهم(عليه للإيماء إلى العناية بهم، أي بكون التمكين لأجلهم، كتقديم المجرور على المفعولين في قوله)ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك(.

وإضافة الدين إلى ضميرهم لتشريفهم به لأنه دين الله كما دل عليه قوله عقبه)الذي ارتضى لهم(، أي الذي اختاره ليكون دينهم، فيقتضي ذلك أنه اختارهم أيضا ليكونوا أتباع هذا الدين. وفيه إشارة إلى أن الموصوفين بهذه الصلة هم الذين ينشرون هذا الدين في الأمم لأنه دينهم فيكون تمكنه في الناس بواسطتهم.

وإنما قال)وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا(ولم يقل: وليؤمننهم، كما قال في سابقيه لأنهم ما كانوا يطمحون يومئذ إلى الأمن، كما ورد في حديث أبي العالية المتقدم آنفا، فكانوا في حالة هي ضد الأمن ولو أعطوا الأمن دون أن يكونوا في حالة خوف لكان الأمن منة واحدة. وإضافة الخوف إلى ضميرهم للإشارة إلى أنه خوف معروف مقرر.

وتنكير)أمنا(للتعظيم بقرينة كونه مبدلا من بعد خوفهم المعروف بالشدة. والمقصود: الأمن من أعدائهم المشركين والمنافقين. وفيه بشارة بأن الله مزيل الشرك والنفاق من الأمة. وليس هذا الوعد بمقتضى أن لا تحدث حوادث خوف في الأمة في بعض الأقطار كالخوف الذي اعترى أهل المدينة من ثورة أهل مصر الذين قادهم الضال مالك الأشتر النخعي، ومثل الخوف الذي حدث في المدينة يوم الحرة وغير ذلك من الحوادث، وإنما كانت تلك مسببات عن أسباب بشرية وإلى الله إيابهم وعلى الله حسابهم.

وقرأ الجمهور)وليبدلنهم(بفتح الموحدة وتشديد الدال. وقرأه ابن كثير وأبو بكر عن عاصم ويعقوب بسكون الموحدة وتخفيف الدال والمعنى واحد.

وجملة)يعبدونني(حال من ضمائر الغيبة المتقدمة، أي هذا الوعد جرى في حال عبادتهم إياي. وفي هذه الحال إيذان بأن ذلك الوعد جزاء لهم، أي وعدتهم هذا الوعد الشامل لهم والباقي في خلفهم لأنهم يعبدونني عبادة خالصة عن الإشراك.

وعبر بالمضارع لإفادة استمرارهم على ذلك تعريضا بالمنافقين إذ كانوا يؤمنون ثم ينقلبون.
وجملة)لا يشركون بي شيئا(حال من ضمير الرفع في)يعبدونني(تقييدا للعبادة بهذه الحالة لأن المشركين قد يعبدون الله ولكنهم يشركون معه غيره. وفي هاتين الجملتين ما يؤيد ما قدمناه آنفا من كون الإيمان هو الشريطة في كفالة الله للأمة هذا الوعد.
وجملة)ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون(تحذير بعد البشارة على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالنذارة والعكس دفعا للاتكال.
والإشارة في قوله)بعد ذلك(إلى الإيمان المعبر عنه هنا ب)يعبدونني لا يشركون بي شيئا(والمعبر عنه في أول الآيات بقوله)وعد الله الذين آمنوا(، أي ومن كفر بعد الإيمان وما حصل له من البشارة عليه فهم الفاسقون عن الحق.
وصيغة الحسر المأخوذة من تعريف المسند بلام الجنس مستعملة مبالغة للدلالة على أنه الفسق الكامل.
ووصف الفاسقين له رشيق الموقع، لأن مادة الفسق تدل على الخروج من المكان من منفذ ضيق.
)وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون[56](عطف على جملة)يعبدونني لا يشركون بي شيئا(لما فيها من معنى الأمر بترك الشرك، فكأنه قيل: اعبدوني ولا تشركوا وأقيموا الصلاة، لأن الخبر إذا كان يتضمن معنى الأمر كان في قوة فعل الأمر حتى أنه قد يجزم جوابه كما في قوله تعالى)تؤمنون بالله ورسوله(إلى قوله)يغفر لكم ذنوبكم(بجزم)يغفر(لأن قوله)تؤمنون(في قوة أن يقول: آمنوا بالله.

صفحة : 2933

والخطاب موجه للذين آمنوا خاصة بعد أن كان موجها لأمة الدعوة على حد قوله تعالى)يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك(، فالطاعة المأمور بها هنا غير الطاعة التي في قوله)قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا(الخ لأن تلك دعوة للمعرضين وهذه ازدياد للمؤمنين.
وقد جمعت هذه الآية جميع الأعمال الصالحات فأهمها بالتصريح وسائرها بعموم حذف المتعلق بقوله)وأطيعوا الرسول(، أي في كل ما يأمركم وينهاكم.

ورتب على ذلك رجاء حصول الرحمة لهم، أي في الدنيا بتحقيق الوعد الذي من رحمته الأمن وفي الآخرة بالدرجات العلى. والكلام على)لعل(تقدم في غير موضع في سورة البقرة.
)لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير[57](استئناف ابتدائي لتحقيق ما اقتضاه قوله)وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا(، فقد كان المشركون يومئذ لم يزالوا في قوة وكثرة، وكان المسلمون لم يزالوا يخافون بأسهم فربما كان الوعد بالأمن من بأسهم متلقى بالتعجب والاستبطاء الشبيه بالتردد فجاء قوله)لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض(تطمينا وتسلية.
والخطاب لمن قد يخامره التعجب والاستبطاء دون تعيين.
والمقصود من النهي عن هذا الحسبان التنبيه على تحقيق الخبر.
وقراءة الجمهور)تحسبن(بتاء الخطاب. وقرأ ابن عامر وحمزة وحده بياء الغيبة فصار)الذين كفروا(فاعل)يحسبن(فيبقى ل)يحسبن(مفعول واحد هو)معجزين(. فقال أبو حاتم والنحاس والفراء: هي خطأ أو ضعيفة لأن فعل الحسبان يقتضي مفعولين. وهذا القول جرأة على قراءة متواترة. وقال الزجاج: المفعول الأول محذوف تقديره: أنفسهم، وقد وفق لأن الحذف ليس بعزيز في الكلام. وفي الكشاف أن)في الأرض(هو المفعول الثاني، أي لا يحسبوا ناسا معجزين في الأرض)يعني ما من كائن في الأرض إلا وهو في متناول قدرة الله إن شاء أخذه، أي فلا ملجأ لهم في الأرض كلها(قال:)وهذا معنى قوي جيد(.
والمعجز: الذي يعجز غيره، أي يجعله عاجزا عن غلبه. وقد تقدم عند قوله تعالى)إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين(في سورة الأنعام. وكذلك المعاجز بمعنى المحاول عجز ضده تقدم في قوله تعالى)والذين سعوا في آياتنا معاجزين(في سورة الحج.
والأرض: هي أرض الدنيا، أي هم غير غالبين في الدنيا كما حسبوا أنه ليس ثمة عالم آخر. و)في الأرض(متعلق ب)معجزين(على قراءة الجمهور وعلى بعض التوجيهات من قراءة حمزة وابن عامر، أو هو مفعول ثان على بعض التوجيهات كما علمت.
وقوله)ومأواهم النار(أي هم في الآخرة معلوم أن مأواهم النار فقد خسروا الدارين.
)يا أيها الذين آمنوا ليستئذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرت من قبل صلوة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلوة العشاء ثلاث عورت لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم[58] وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستئذنوا كما استئذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله

لكم آياته والله عليم حكيم[59](استئناف انتقالي إلى غرض من أحكام المخالطة والمعاشرة. وهو عود إلى الغرض الذي ابتدئت به السورة وقطع عند قوله)وموعظة للمتقين(كما تقدم.

صفحة : 2934

وقد ذكر في هذه الآية شرع الاستئذان لأتباع العائلة ومن هو شديد الاختلاط إذا أراد دخول بيت، فهو من متممات ما ذكر في قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا(وهو بمفهوم الزمان يقتضي تخصيص عموم قوله)لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم(الآيات لأن ذلك عام في الأعيان والأوقات فكان قوله)الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم(إلى قوله)ومن بعد صلاة العشاء(تشريعا لاستئذانهم في هذه الأوقات وهو يقتضي عدم استئذانهم في غير تلك الأوقات الثلاثة، فصار المفهوم مخصصا لعموم النهي في قوله)لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا(. وأيضا هذا الأمر مخصص بعموم)ما ملكت أيمانهن(وعموم)الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء(من قوله تعالى)ولا يبدين زينتهن(الخ المتقدم آنفا.

وقد روى أن أسماء بنت مرثد دخل عليها عبد لها كبير في وقت كرهت دخوله فيه فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إنما خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حالة نكرهها. فنزلت الآية،)يعني أنها اشتكت إباحة ذلك لهم(. ولو صحت هذه الرواية لكانت هذه الآية نسخا لعموم)أو ما ملكت أيمانهن(وعموم)أو الطفل(لأنها تقتضي أنه وقع العمل بذلك العموم ثم خصص بهذه الآية. والتخصيص إذا ورد بعد العمل بعموم العام صار نسخا.

والأمر في قوله)ليستأذنكم(للوجوب عند الجمهور. وقال أبو قلابة: هو ندب.

فأما المماليك فلأن في عرف الناس أن لا يتحرجوا من اطلاع المماليك عليهم إذ هم خول وتبع. وقد تقدم ذلك آنفا عند قوله تعالى)أو ما ملكت أيمانهن(. وأما الأطفال فلأنهم لا عناية لهم بتطلع أحوال الناس. وتقدم آنفا عند قوله)أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء(.

كانت هذه الأوقات أوقاتا يتجرد فيها أهل البيت من ثيابهم كما آذن به قوله تعالى)وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة(فكان من القبيح أن يرى مماليكهم وأطفالهم عوراتهم لأن ذلك منظر يخجل منه المملوك وينطبع في نفس الطفل لأنه لم يعتد رؤيته، ولأنه يجب ان

ينشأ الأطفال على ستر العورة حتى يكون ذلك كالسجية فيهم إذا كبروا.
ووجه الخطاب إلى المؤمنين وجعلت صيغة الأمر موجهة إلى المماليك والصبيان على معنى: لتأمروا الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم أن يستأذنوا عليكم، لأن على أرباب البيوت تأديب أتباعهم، فلا يشكل توجيه الأمر إلى الذين لم يبلغوا الحلم.
وقوله)الذين ملكت أيمانكم(يشمل الذكور والإناث لمالكيهم الذكور والإناث.
وأما مسألة النظر وتفصيلها في الكبير والصغير والذكر والأنثى فهي من علائق ستر العورة المفصلة في كتب الفقه. وقد تقدم شيء من ذلك عند قوله تعالى)ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها(إلى قوله) على عورات النساء(فلا ينبغي التصدي بإيراد صورها في هذه الآية.
وتعيين الاستيذان في هذه الأوقات الثلاثة لأنها أوقات خلوة الرجال والنساء وأوقات التعري من الثياب، وهي أوقات نوم وكانوا غالبا ينامون مجردين من الثياب اجتراء بالغطاء، وقد سماها الله تعالى) عورات(.
وما بعد صلاة العشاء هو الليل كله إلى حين الهبوب من النوم قبل الفجر. وانتصب)ثلاث مرات(على أنه مفعول مطلق) ليستأذنكم(لأن مرات في قوة استئذانات.
وقوله)من قبل صلاة الفجر(ظرف مستقر في محل نصب على البدل من)ثلاث مرات(بدل مفصل من مجمل. وحرف)من(مزيد للتأكيد.
وعطف عليه)وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء(والظهيرة: وقت الظهر وهو انتصاف النهار.
وقوله)ثلاث عورات(قرأ الجمهور مرفوعا على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ثلاث عورات، أي أوقات ثلاث عورات. وحذف المسند إليه هنا مما اتبع فيه الاستعمال في كل إخبار عن شيء تقدم الحديث عنه.
و)لكم(متعلق ب)عورات(. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بالنصب على البدل من)ثلاث مرات(.
والعورة في الأصل: الخلل والنقص. وفيه قيل لمن فقدت عينه أعور وعورت عينه، ومنه عورة الحي وهي الجهة غير الحصينة منه بحيث يمكن الدخول منها كالثغر، قال لبيد: وأجن عورات الثغور ظلامها وقال تعالى)يقولون إن بيوتنا عورة(. ثم أطلقت على ما يكره انكشافه كما هنا وكما سمي ما لا يحب الإنسان كشفه من جسده عورة. وفي قوله)ثلاث عورات لكم(نص على علة إيجاب الاستئذان فيها.

وقوله)ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن(تصريح بمفهوم الظروف في قوله)من قبل صلاة الفجر(وما عطف عليه، أي بعد تلك الأوقات المحددة. فصلاة الفجر حد معلوم، وحالة وضع الثياب من الظهيرة تحديد بالعرف، وما بعد صلاة العشاء من الحصة التي تسع في العرف تصرف الناس في التهيؤ إلى النوم.

ولك أن تجعل)بعد(بمعنى)دون(، أي في غير تلك الأوقات الثلاثة كقوله تعالى)فمن يهديه من بعد الله(، وضمير)بعدهن(عائد إلى ثلاث عورات، أي بعد تلك الأوقات.

ونفي الجناح عن المخاطبين في قوله)ليس عليكم(بعد أن كان الكلام على استئذان المماليك والذين لم يبلغوا الحلم إيماء إلى لحن خطاب حاصل من قوله)ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم(فإن الأمر باستئذان هؤلاء عليهم يقتضي أمر أهل البيت بالاستئذان على الذين ملكت أيمانهم إذا دعاهم داع إلى الدخول عليهم في تلك الأوقات كما يرشد السامع إليه قوله)ثلاث عورات لكم(. وإنما لم يصرح بأمر المخاطبين بأن يستأذنوا على الذين ملكت أيمانهم لندور دخول السادة على عبيدهم أو على غلمانهم إذ الشأن أنهم إذا دعتهم حاجة إليهم أن ينادوهم فأما إذا دعت الحاجة إلى الدخول عليهم فالحكم فيهم سواء. وقد أشار إلى العلة قوله تعالى)طوافون عليكم بعضكم على بعض(.

وقوله)طوافون عليكم(خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم طوافون، يعود على)الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم(.

والكلام استئناف بياني، أي إنما رفع الجناح عليهم وعليكم في الدخول بدون استئذان بعد تلك الأوقات الثلاثة لأنهن طوافون عليكم فلو وجب أن يستأذنوا كان ذلك حرجا عليهم وعليكم.

وفي الكلام اكتفاء. تقديره: وأنتم طوافون عليهم دل عليه قوله) ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن(وقوله عقبه)بعضكم على بعض(.

و)بعضكم على بعض(جملة مستأنفة أيضا. ويجعل)بعضكم(مبتدأ، ويتعلق قوله)على بعض(بخبر محذوف تقديره: طواف على بعض. وحذف الخبر وبقي المتعلق به وهو كون خاص حذف لدلالة) طوافون(عليه. والتقدير: بعضكم طواف على بعض. ولا يحسن من جعل)بعضكم على بعض(بدلا من الواو في)طوافون عليكم(لأنه

عائد إلى)الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم(فلا يحسن أن يبدل منه بعض المخاطبين وهم ليسوا من الفريقين إلا بتقدير.
وقوله)كذلك يبين الله لكم الآيات(أي مثل ذلك البيان الذي طرق أسماعكم يبين الله لكم الآيات، فبيانه بالغ الغاية في الكمال حتى لو أريد تشبيهه لما شبه إلا بنفسه. وقد تقدم عند قوله تعالى) وكذلك جعلناكم أمة وسطا(في سورة البقرة.
والتعريف في)الآيات(تعريف الجنس. والمراد بالآيات القرآن فإن ما يقع فيه إجمال منها يبين بآيات أخرى، فالآيات التي أولها)يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم(.
وجملة)والله عليكم حكيم(معترضة. والمعنى: يبين الله لكم الآيات بيانا كاملا وهو عليم حكيم، فبيانه بالغ غاية الكمال لا محالة.
ووقع قوله)وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم(في موقع التصريح بمفهوم الصفة في قوله)والذين لم يبلغوا الحلم(ليعلم أن الأطفال إذ بلغوا الحلم تغير حكمهم في الاستئذان إلى حكم استئذان الرجال الذي في قوله)يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم(الآيات، فالمراد بقوله)الذين من قبلهم(فيما ذكر من الآية السابقة أو الذين كانوا يستأذنون من قبلهم وهم كانوا رجالا قبل أن يبلغ أولئك الأطفال مبلغ الرجال.
وقوله)كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم(القول فيه كالقول في نظيره المتقدم آنفا، وهو تأكيد له بالتكرير لمزيد الاهتمام والامتنان. وإنما أضيفت الآيات هنا لضمير الجلالة تقننا ولتقوية تأكيد معنى كمال التبيين الحاصل من قوله)كذلك(. وتأكيد معنى الوصفين)العليم الحكيم(، أي هي آيات من لدن من هذه صفاته ومن تلك صفات بيانه.
)والقواعد من النساء التي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم[60](هذه الآية مخصصة لقوله تعالى)ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن(إلى قوله)على عورات النساء(.

صفحة : 2936

ومناسبة هذا التخصيص هنا أنه وقع بعد فرض الاستئذان في الأوقات التي يضع الرجال والنساء فيها ثيابهم عن أجسادهم، فعطف الكلام إلى نوع من وضع الثياب عن لابسها وهو وضع النساء القواعد بعض ثيابهن عنهن فاستثني من عموم النساء النساء

المتقدمات في السن بحيث بلغن إبان الإياس من المحيض فرخص لهن أن لا يضربن بخمرهن على جيوبهن، وأن لا يدنين عليهن من جلابيبهن. فعن ابن مسعود وابن عباس: الثياب الجلباب، أي الرداء والمقنعة التي فوق الخمار. وقال السدي: يجوز لهن وضع الخمار أيضا.

والقواعد: جمع قاعد بدون هاء تأنيث مثل: حامل وحائض لأنه وصف نقل لمعنى خاص بالنساء وهو القعود عن الولادة وعن المحيض. استعير القعود لعدم القدرة لأن القعود يمنع الوصول إلى المرغوب وإنما رغبة المرأة في الولد والحيض من سبب الولادة فلما استعير لذلك وغلب في الاستعمال صار وصف قاعد بهذا المعنى خاصا بالمؤنث فلم تلحقه هاء التأنيث لانتفاء الداعي إلى الهاء من التفرقة بين المذكر والمؤنث وقد بينه قوله)اللآتي لا يرجون نكاحا(، وذلك من الكبر.

وقوله)اللاتي لا يرجون نكاحا(وصف كاشف ل)القواعد(وليس قيدا.

واقتران الخبر بالفاء في قوله)فليس عليهن جناح(لأن الكلام بمعنى التسبب والشرطية، لأن هذا المبتدأ يشعر بترقب ما يرد بعده فشابه الشرط كما تقدم في قوله تعالى)والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما(. ولا حاجة إلى ادعاء أن)ال(فيه موصولة إذ لا يظهر معنى الموصول لحرف التعريف وإن كثر ذلك في كلام النحويين. و)وان يضعن(متعلق ب)جناح(بتقدير)في(.

والمراد بالثياب بعضها وهو المأمور بإدنائه على المرأة بقرينة مقام التخصيص.

والوضع: إناطة شيء على شيء، وأصله ان يعدى بحرف)على(وقد يعدي بحرف)عن(إذا أريد أنه أزيل عن مكان ووضع على غيره وهو المراد هنا كفعل)ترغبون(في قوله تعالى)وترغبون أن تنكحوهن(في سورة النساء، أي أن يزلن عنهن ثيابهن فيضعنها على الأرض أو على المشجب. وعلة هذه الرخصة هي أن الغالب أن تنتفي أو تقل رغبة الرجال في أمثال هذه القواعد لكبر السن. فلما كان في الأمر بضرب الخمر على الجيوب أو إدناء الجلابيب كلفة النساء المؤمورات اقتضاها سد الذريعة، فلما انتفت الذريعة رفع ذلك الحكم رحمة من الله، فإن الشريعة ما جعلت في حكم مشقة لضرورة إلا رفعت تلك المشقة بزوال الضرورة وهذا معنى الرخصة. ولذلك عقب هذا الترخيص بقوله)وأن يستعففن خير لهن(.

والاستعفاف: التعفف، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل استجاب، أي تعففهن عن وضع الثياب عنهن أفضل لهن ولذلك قيد هذا الإذن بالحال وهو)غير متبرجات بزينة(أي وضعا لا يقارنه تبرج بزينة.

والتبرج: التكشف. والباء في)بزينة(للملابسة فيؤول إلى أن لا يكون وضع الثياب إظهارا لزينة كانت مستورة. والمراد: إظهار ما عادة المؤمنات ستره. قال تعالى)ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى(فإن المرأة إذا تجلت بزينة من شأنها إخفاؤها إلا عن الزوج فكأنها تعرض باستجلاب استحسان الرجال إياها وإثارة رغبتهم فيها، وهي وإن كانت من القواعد فإن تعريضها بذلك يخالف الآداب ويزيل وقار سنها، وقد يرغب فيها بعض أهل الشهوات لما في التبرج بالزينة من الستر على عيوبها أو الإشغال عن عيوبها بالنظر في محاسن زينتها.

فالتبرج بالزينة: التحلي بما ليس من العادة التحلي به في الظاهر من تحمير وتبييض وكذلك الألوان النادرة، قال بشار:

وإذا خرجت تقـنـعـي بالحمر إن

الحسن أحمر وسئلت عائشة أم المؤمنين عن الخضاب والصباغ والتمايم أي حقاق من فضة توضع فيها تمايم ومعاذات تعلقها المرأة والقرطين والخلخال وخاتم الذهب ورقاق الثياب فقالت: أحل الله لكن الزينة غير متبرجات لمن لا يحل لكن أن يروا منكن محرما . فأحالت الأمر على المعتاد والمعروف، فيكون التبرج بظهور ما كان يحجبه الثوب المطروح عنها كالوشام في اليد أو الصدر والنقش بالسواد في الجيد أو الصدر المسمى في تونس بالحرقوص غير عربية . وفي الموطإ: دخلت حفصة بنت عبد الرحمان بن أبي بكر على عائشة أم المؤمنين وعلى حفصه خمار رقيق فشقته عائشة وكستها خمارا كيفا أي شقته لئلا تخمر به فيما بعد.

صفحة : 2937

وقيل: إن المعني بقوله)غير متبرجات بزينة(غير متكشفات من منازلهن بالخروج في الطريق، أي أن يضعن ثيابهن في بيوتهن، أي فإذا خرجت فلا يحل لها ترك جلبابها، فيؤول المعنى إلى أن يضعن ثيابهن في بيوتهن، ويكون تأكيدا لما تقدم في قوله تعالى)ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن(أي كونهن من القواعد لا يقتضي الترخيص لهن إلا في وضع ثيابهن وضعا مجردا عن قصد ترغيب فيهن.

وجملة)والله سميع عليم(مسوقة مساق التذييل للتحذير من التوسع في الرخصة أو جعلها ذريعة لما لا يحمد شرعا، فوصف)

السميع(تذكير بأنه يسمع ما تحدثن به أنفسهن من المقاصد، ووصف)العليم(تذكير بأنه يعلم أحوال وضعهن الثياب وتبرجهن ونحوها.
)ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج(اختلف في أن قوله تعالى)ليس على الأعمى حرج(الخ منفصل عن قوله)ولا على أنفسكم(وأنه في غرض غير غرض الأكل في البيوت، أي فيكون من تمام آية الاستئذان، أو متصل بما بعده في غرض واحد.
فقال بالأول الحسن وجابر بن زيد وهو مختار الجبائي وابن عطية وابن العربي وأبي حيان. وقال ابن عطية: إنه ظاهر الآية. وهو الذي نختاره تفاديا من التكلف الذي ذكره مخالفوهم لبيان اتصاله بما بعده في بيان وجه الرخصة لهؤلاء الثلاثة الأصناف في الطعام في البيوت المذكورة، ولأن في قوله)أن تأكلوا من بيوتكم(إلى آخر المعدودات لا يظهر اتصاله بالأعمى والأعرج والمريض، فتكون هذه الآية نفيا للحرج عن هؤلاء الثلاثة فيما تجره ضرارتهم إليهم من الحرج من الأعمال، فالحرج مرفوع عنهم في كل ما تضطرهم إليه أعذارهم، فتقتضي نيتهم الإتيان فيه بالإكمال ويقتضي العذر أن يقع منهم. فالحرج منفي عن الأعمى في التكليف الذي يشترط فيه البصر، وعن الأعرج فيما يشترط فيه المشي والركوب، وعن المريض في التكليف الذي يؤثر المرض في إسقاطه كالصوم وشروط الصلاة والغزو. ولكن المناسبة في ذكر هذه الرخصة عقب الاستئذان أن المقصد الترخيص للأعمى أنه لا يتعين عليه استئذان لانتفاء السبب الموجبة. ثم ذكر الأعرج والمريض إدماجا وإتماما لحكم الرخصة لهما للمناسبة بينهما وبين الأعمى.
وقال بالثاني جمهور المفسرين وقد تكلفوا لوجه عد هذه الأصناف الثلاثة في عداد الآكلين من الطعام الذي في بيوت من ذكروا في الآية الموالية.
والجملة على كلا الوجهين مستأنفة استئنافا ابتدائيا.
)ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا(مناسبة عطف هذه الرخص على رخصة الأعمى، على تقدير أنه منفصل عنه كما تقدم وهو المختار عند المحققين، هو تعلق كليهما بالاستئذان والدخول للبيوت سواء كان لغرض الطعام فيها أو كان للزيارة ونحوها لاشتراك الكل في رفع الحرج، وعلى تقدير أنه متصل به على قول الجمهور فاقتران الجميع في الحكم هو الرخصة للجميع في الأكل، فأذن الله للأعمى والأعرج والمريض أن يدخلوا

للأكل لأنهم محاويج لا يستطيعون التكسب وكان التكسب زمانئذ بعمل الأبدان فرخص لهؤلاء أن يدخلوا بيوت المسلمين لشبع بطونهم.
هذا أظهر الوجوه في توجيه عد هؤلاء الثلاثة مع من عطف عليهم. وقد ذكر المفسرون وجوها أخر انهاها أبو بكر ابن العربي في احكام القرآن إلى ثمانية ليست منها واحد ينثلج له الصدر، ولا نطيل بها.
وأعيد حرف)لا(مع المعطوف على المنفي قبله تأكيدا لمعنى النفي وهو استعمال كثير.
والمقصود بالأكل هنا الأكل بدون دعوة وذلك إذا كان الطعام محضرا دون المختزن.
والمراد بالأنفس ذوات المخاطبين بعلامات الخطاب فكأنه قيل: ولا عليكم جناح أن تأكلوا إلى آخره، فالمخاكب للأمة.
والمراد بأكل الإنسان من بيته الأكل غير المعتاد، أي أن يأكل أكلا لا يشاركه فيع بقية أهله كأن يأكل الرجل وزوجته غائبة، أو أن تأكل هي وزوجها غائب فهذه أثرة مرخص فيها.

صفحة : 2938

وعطف على بيوت أنفسهم بيوت آبائهم، ولم يذكر بيوت أولادهم مع انهم أقرب إلى الآكلين من الآباء فهم أحق بأن يأكلوا من بيوتهم. قيل: لأن الأبناء كائنون مع الآباء في بيوتهم، ولا يصح فقد كان الابن إذا تزوج بنى لنفسه بيتا كما في خبر عبد الله بن عمر. فالوجه أن بيوت الأبناء معلوم حكمها بالأولى من البقية لقول النبي صلى الله عليه وسلم:)أنت ومالك لأبيك(.
وهؤلاء المعدودون في الآية بينهم من القربة أو الولاية أو الصداقة ما يعتاد بسببه التسامح بينهم في الحضور للأكل بدون دعوة لا يتحرج أحد منهم من ذلك غالبا.
و)ما(في قوله)ماملكتم مفاتحه(موصولة صادقة على المكان أو الطعام، عطف على)بيوت خالاتكم(لا على)أخوالكم(ولهذا جيء ب)ما(الغالب استعمالها في غير العاقل.
وملك المفاتيح أريد به حفظها بقرينة إضافته إلى المفاتيح دون الدور أو الحوائط. والمفاتح: جمع مفتح وهو اسم آلة الفتح. ويقال فيها مفتاح ويجمع على مفاتيح.
وهذه رخصة للوكيل والمختزن للطعام وناطور الحائط ذي الثمر أن يأكل مل منهم ما تحت يده بدون إذن ولا يتجاوز شبع بطنه ذلك

للعرف بأن ذلك كالإجازة فلذلك قال الفقهاء: إذا كان لواحد من هؤلاء أجرة على عمله لم يجز له الأكل مما تحت يده.
و)صديق(هنا المراد به الجنس الصادق بالجماعة بقرينة إضافته إلى ضمير جماعة المخاطبين، وهو اسم تجوز فيه المطابقة لمن يجري عليه إن كان وصفا أو خبرا في الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث وهو الأصل، والغالب في فصيح الاستعمال أن يلزم حالة واحدة قال تعالى)فما لنا من شافعين ولا صديق حميم(ومثله الخليط والقطين.
والصديق: فعيل بمعنى فاعل وهو الصادق في المودة. وقد جعل في مرتبة القرابة مما هو موقور في النفوس من محبة الصلة مع الأصدقاء. وسئل بعض الحكماء: أي الرجلين أحب إليك أخوك أم صديقك؟ فقال: إنما أحب أخي إذا كان صديقي.
وأعيدت جملة)ليس عليكم جناح(تأكيدا للأولى في قوله)ولا على أنفسكم(إذ الجناح والحرج كالمترادفين. وحسن هذا التأكيد بعد ما بين الحال وصاحبها وهو واو الجماعة في قوله)أن تأكلوا من بيوتكم(، ولأجل كونها تأكيدا فصلت بلا عطف.
والجميع: المجتمعون على أمر.
والأشتات: الموزعون فيما الشأن اجتماعهم فيه، قال تعالى) تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى(.
والأشتات: جمع شت، وهو مصدر شت إذا تفرق. وأما شتى فجمع شتيت.
والمعنى: لاجناح عليكم أن يأكل الواحد منكم مع جماعة جاءوا للأكل مثله: أو أن يأكل وحده متفرقا عن مشارك، لئلا يحسب أحدهم أنه إن وجد من سبقه للأكل أن يترك الأكل حتى يخرج الذي سبقه، أو أن يأكل الواحد منكم مع أهل البيت. أو أن يأكل وحده.
وتقدم قراءة)بيوت(بكسر الباء للجمهور وبضمها لورش وحفص عن عاصم عند قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم(في هذه السورة.
)فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون[61](تفريع على الإذن لهم في الأكل من هذه البيوت بأن ذكرهم بأدب الدخول المتقدم في قوله)يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها(لئلا يجعلوا القرابة والصداقة والمخالطة مبيحة لإسقاط الآداب فإن واجب المرء أن يلازم الآداب مع القريب والبعيد ولا يغرنه قول الناس: إذا استوى الحب سقط الأدب.

ومعنى)فسلموا على أنفسكم(فليسلم بعضكم على بعض، كقوله) ولا تقتلوا أنفسكم(.
ولقد عكف قوم على ظاهر هذا اللفظ وأهملوا دقيقته فظنوا أن الداخل يسلم على نفسه إذا لم يجد أحدا وهذا بعيد من أغراض التكليف والآداب. وأما ما ورد في التشهد من قوله: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فذلك سلام بمعنى الدعاء بالسلامة جعله النبي صلى الله عليه وسلم لهم عوضا عما كانوا يقولون: السلام على الله، السلام على النبي، السلام على جبريل ومكائيل، السلام على فلان وفلان. فقال لهم رسول الله:)إن الله هو السلام، إبطالا لقولهم: السلام على الله. ثم قال لهم: قولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد الله صالح في السماء وفي الأرض(.

صفحة : 2939

وأما السلام في هذه الآية فهو التحية كما فسره بقوله)تحية من عند الله مباركة طيبة(ولا يؤمر أحد بأن يسلم على نفسه.
والتحية: أصلها مصدر حياة تحية ثم أدغمت الياءان تخفيفا وهي قول: حياك الله. وقد وتقدم في قوله تعالى)وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها(في سورة النساء.
فالتحية مصدر فعل مشتق من الجملة المشتملة على فعل) حيا(مثل قولهم: جزاه، إذا قال له: جزاك الله خيرا، كما تقدم في فعل)وتسلموا على أهلها(آنفا. وكان هذا اللفظ تحية العرب قبل الإسلام تحية العامة قال النابغة:
حياك ربي فإنا لا يحل لـنـا لهو النساء وإن الدين قد عزما وكانت تحية الملوك)عم صباحا(فجعل الإسلام التحية كلمة)السلام عليكم(، وهي من جوامع الكلم لأن المقصود من التحية تأنيس الداخل بتأمينه إن كان لا يعرفه وباللطف له إن كان معروفا.
ولفظ)السلام(يجمع المعنيين لأنه مشتق من السلامة فهو دعاء بالسلامة وتأمين بالسلام لأنه إذا دعا له بالسلامة فهو مسلم له فكان الخبر كناية عن التأمين، وإذا تحقق الأمران حصل خير كثير لأن السلامة لا تجامع شيئا من الشر في ذات السالم، والأمان لا يجامع شيئا من الشر يأتي من قبل المعتدي فكانت دعاء ترجى إجابته وعهدا بالأمن يجب الوفاء به. وفي كلمة)عليكم(معنى التمكن، أي السلامة مستقرة عليكم.

ولكون كلمة)السلام(جامعة لهذا المعنى امتن الله على المسلمين بها بأن جعلها من عند الله إذ هو الذي علمها رسوله بالوحي.
وانتصب)تحية(على الحال من التسليم الذي يتضمنه)
فسلموا(نظير عود الضمير على المصدر في قوله)اعدلوا هو أقرب للتقوى(.
والمباركة: المجعولة فيها البركة. والبركة: وفرة الخير. وإنما كانت هذه التحية مباركة لما فيها من نية المسالمة وحسن اللقاء والمخالطة وذلك يوفر خير الأخوة الإسلامية.
والطيبة: ذات الطيب، وهو طيب مجازي بمعنى النزاهة والقبول في نفوس الناس. ووجه طيب التحية أنها دعاء بالسلامة وإيذان بالمسالمة والمصافاة. ووزن)طيبة(فيعلة مبالغة في الوصف مثل: الفيصل. وتقدم في قوله تعالى)قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة(في آل عمران وفي قوله:)وجرين بهم بريح طيبة(في سورة يونس.
والمعنى أن كلمة السلام عليكم تحية خير من تحية أهل الجاهلية. وهذا كقوله تعالى)وتحيتهم فيها سلام(أي تحيتهم هذا اللفظ.
وجملة)كذلك يبين الله لكم الآيات(تكرير للجملتين الواقعتين قبلها في آية الاستئذان لأن في كل ما وقع قبل هذه الجملة بيانا لآيات القرآن اتضحت به الأحكام التي تضمنتها وهو بيان يرجى معه أن يحصل لكم الفهم والعلم بما فيه كمال شأنكم.
)إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستئذنوه إن الذين يستئذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استئذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم[62](لما جرى الكلام السابق في شأن الاستئذان للدخول عقب ذلك بحكم الاستئذان للخروج ومفارقة المجامع فاعتني من ذلك بالواجب منه وهو استئذان الرسول صلى الله عليه وسلم في مفارقة مجلسه أو مفارقة جمع جمع عن إذنه لأمر مهم كالشورى والقتال والاجتماع للوعظ ونحو ذلك.
وكان من أعمال المنافقين أن يحضروا هذه المجامع ثم يتسللوا منها تفاديا من عمل يشق أو سآمة من سماع كلام لا يهتبلون به، فنعى الله عليهم فعلهم هذا وأعلم بمنافاته للإيمان وأنه شعار النفاق، بأن أعرض عن وصف نفاق المنافقين واعتنى باتصاف المؤمنين الأحقاء بضد صفة المنافقين قال تعالى)وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف

الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون(ولذلك جاء في أواخر هذه الآيات قوله)قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا(.

صفحة : 2940

فالقصر المستفاد من)إنما(قصر موصوف على صفة. والتعريف في)المؤمنون(تعريف الجنس أو العهد، أي أن جنس المؤمنين أو أن الذين عرفوا بوصف الإيمان هم الذين آمنوا بالله ورسوله ولم ينصرفوا حتى يستأذنوه. فالخبر هو مجموع الأمور الثلاثة وهو قصر إضافي قصر إفراد، أي لا غير أصحاب هذه الصفة من الذين أظهروا الإيمان ولا يستأذنون الرسول عند إرادة الانصراف، فجعل هذا الوصف علامة مميزة المؤمنين الأحقاء عن المنافقين يومئذ إذ لم يكن في المؤمنين الأحقاء يومئذ من ينصرف عن مجلس النبي بدون إذنه، فالمقصود: إظهار علامة المؤمنين وتمييزهم عن علامة المنافقين. فليس سياق الآية لبيان حقيقة الإيمان لأن للإيمان حقيقة معلومة ليس استئذان النبي صلى الله عليه وسلم عند إرادة الذهاب من أركانها، فعلمت أن ليس المقصود من هذا الحصر سلب الإيمان عن الذي ينصرف دون إذن من المؤمنين الأحقاء لو وقع منه ذلك عن غير قصد الخذل للنبي صلى الله عليه وسلم أو أذاه، إذ لا يعدو ذلك لو فعله أحد المؤمنين عن أن يكون تقصيرا في الأدب يستحق التأديب والتنبيه على تجنب ذلك لأنه خصلة من النفاق كما ورد التحذير من خصال النفاق في أحاديث كثيرة.

وعلمت أيضا أن ليس المقصود من التعريف في)المؤمنون(معنى الكمال لأنه لو كان كذلك لم يحصل قصد التشهير بنفاق المنافقين.

والأمر: الشأن والحال المهم. وتقدم في قوله)وأولي الأمر منكم(في سورة النساء.

والجامع: الذي من شأنه أن يجتمع الناس لأجله للتشاور أو التعلم. والمراد: ما يجتمع المسلمون لأجله حول الرسول عليه الصلاة والسلام في مجلسه أو في صلاة الجماعة. وهذا ما يقتضيه) مع(و)على(من قوله)معه على أمر جامع(لإفادة)مع(معنى المشاركة وإفادة)على(معنى التمكن منه.

ووصف الأمر ب)جامع(على سبيل المجاز العقلي لأنه سبب الجمع. وتقدم في قوله تعالى)فأجمعوا أمركم(في سورة يونس.

وعن مالك: أن هذه الآية نزلت في المنافقين يوم الخندق)وذلك سنة خمس(كان المنافقون يتسللون من جيش الخندق ويعتذرون بأعذار كاذبة.

وجملة)إن الذي يستأذنونك(إلى آخرها تأكيد لجملة)إنما المؤمنون(لأن مضمون معنى هذه الجملة هو مضمون معنى جملة) إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله(الآية. وقد تفنن في نظم الجملة الثانية بتغيير أسلوب الجملة الأولى فجعل مضمون المسند في الأولى مسندا إليه في الثانية والمسند إليه الأولى مسندا في الثانية ومآل الأسلوبين واحد لأن المآل الإخبار بأن هذا هو ذاك على حد: وشعر شعري، تنويها بشأن الاستئذان، وليبني عليها تفريع)فإذا استأذنوك لبعض شأنهم(ليعلم المؤمنين الأعذار الموجبة للاستئذان، أي ليس لهم أن يستأذنوا في الذهاب إلا لشأن مهم من شؤونهم.
ووقع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله)يستأذنوك(تشريفا للرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب.
وقد خير الله رسوله في الإذن لمن استأذنه من المؤمنين لأنه أعلم بالشأن الذي قضاؤه أرجح الأمر الجامع لأن مشيئة النبي لاتكون عن هوى ولكن لعذر ومصلحة.
وقوله)واستغفر لهم الله(مؤذن بأن ذلك الانصراف خلاف ما ينبغي لأنه لترجيح حاجته على الإعانة على حاجة الأمة.
وهذه الآية أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمة لأن من السنة أن يكون لكل اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع. وقد أشارت مشروعية الإمامة إلى ذلك النظام. ومن السنة أن لا يجتمع جماعة إلا أمروا عليهم أميرا فالذي يترأس الجمع هو قائم مقام ولي أمر المسلمين فهو في مقام النبي صلى الله عليه وسلم فلا ينصرف أحد عن اجتماعه إلا بعد أن يستأذنه، لأنه لو جعل أمر الانسلال لشهوة الحاضر لكان ذريعة لانفضاض الاجتماعات دون حصول الفائدة التي جمعت لأجلها، وكذلك الأدب أيضا في التخلف عن الاجتماع عند الدعوة إليه كاجتماع المجالس النيابية والقضائية والدينية أو التخلف عن ميقات الاجتماع المتفق عليه إلا لعذر واستئذان.
)لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم[63](

صفحة : 2941

لما كان الاجتماع للرسول في الأمور يقع بعد دعوته الناس للاجتماع وقد أمرهم الله أن لا ينصرفوا عن مجامع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا لعذر بعد إذنه أنبأهم بهذه الآية وجوب استجابة دعوة الرسول إذا دعاهم. وقد تقدم قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا

استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم(في سورة الأنفال. والمعنى: لا تجعلوا دعوة الرسول إياكم للحضور لديه مخيرين في استجابتها كما تتخيرون في استجابة دعوة بعضكم بعضا، فوجه الشبه المنفي بين الدعوتين هو الخيار في الإجابة. والغرض من هذه الجملة أن أن الواجب هو الثبات في مجامع الرسول إذا حضروها، وانهم في حضورها إذا دعوا إليها بالخيار، فالدعاء على هذا التأويل مصدر دعاه إذا ناداه أو أرسل إليه ليحضر.

وإضافة)دعاء(إلى)الرسول(من إضافة المصدر إلى فاعله. ويجوز أن تكون إضافة)دعاء(من إضافة المصدر إلى مفعوله الفاعل المقدر ضمير المخاطبين. والتقدير: لا تجعلوا دعاءكم الرسول، فالمعنى نهيهم.

ووقع الالتفات من الغيبة إلى خطاب المسلمين حثا على تلقي الجملة بنشاط فهم، فالخطاب للمؤمنين الذي تحدث عنهم بقوله) إنما المؤمنون الذي آمنوا بالله ورسوله(وقوله)إن الذين يستأذنوك(الخ. نهوا عن أن يدعوا الرسول عند مناداته كما يدعو بعضهم بعضا في اللفظ أو في الهيئة. فأما في اللفظ فبأن لا يقولوا: يامحمد، أو يا بن عبد الله، أو يابن عبد المطلب، ولكن يا رسول الله، أو يا نبي الله، أو بكنية يا أبا القاسم. وأما في الهيئة فبأن لا يدعوه من وراء الحجرات، وأن لا يلحوا في دعائه إذا لم يخرج إليهم، كما جاء في سورة الحجرات، لأن ذلك كله من الجلافة التي لا تليق بعظمة قدر الرسول صلى الله عليه وسلم. فهذا أدب للمسلمين وسد لأبواب الأذى عن المنافقين. وإذا كانت الآية تحتمل ألفاظها هذا المعنى صح للمتدبر أن ينتزع هذا المعنى منها إذ يكفي أن يأخذ من لاح له معنى ما لاح له.

و)بينكم(ظرف إما لغو متعلق ب)تجعلوا(، أو مستقر صفة ل)دعاء(، أي دعاءه في كلامكم. وفائدة ذكره على كلا الوجهين التعريض بالمنافقين الذين تمالؤوا بينهم على التخلف عن رسول الله إذا دعاهم كلما وجدوا لذلك سبيلا كما أشار إليه قوله تعالى)ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله(. فالمعنى: لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كما جعل المنافقون بينهم وتواطأوا على ذلك.

وهذه الجملة معترضة بين جملة)إنما المؤمنون الذي آمنوا بالله ورسوله(وما تبعها وبين جملة)قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا(.

وجملة)قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا(استئناف تهديد للذين كانوا سبب نزول آية)إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله

ورسوله(الآية، أي أولئك المؤمنون وضدهم المعرض بهم ليسوا بمؤمنين. وقد علمهم الله وأطلع على تسللهم.
)وقد(لتحقيق الخبر لأنهم يظنون أنهم إذا تسللوا متسترين لم يطلع عليهم النبي فأعلمهم الله أنه علمهم، أي أنه أعلم رسوله بذلك.
و)قد(لتحقيق الخبر لأنهم يظنون أنهم إذا تسللوا متسترين لم يطلع عليهم النبي فأعلمهم الله أنه علمهم، أي أنه أعلم رسوله بذلك.
ودخول)قد(على المضارع يأتي للتكثير كثيرا لأن)قد(فيه بمنزلة) رب(تستعمل في التكثير، ومنه قوله تعالى)قد يعلم الله المعوقين منكم(وقول زهير:
أخو ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه
قد يهلك المال نائلـه و)الذين يتسللون(هم المنافقون. والتسلل: الانسلال من صبرة، أي الخروج منه بخفية خروجا كأنه سل شيء من شيء. يقال: تسلل، أي تكلف الانسلال مثل ما يقال: تدخل إذا تكلف إدخال نفسه.
واللوذ: مصدر لاوذه، إذا لاذ به الآخر. شبه تستر بعضهم ببعض عن اتفاق وتآمر عند الانصراف خفية بلوذ بعضهم ببعض لأن الذي ستر الخارج حتى يخرج هو بمنزلة من لاذ به أيضا فجعل حصول فعله مع فعل اللائذ كأنه مفاعلة من اللوذ.
وانتصب)لواذا(على الحال لأنه في تأويل اسم الفاعل.
و)منكم(متعلق ب)يتسللون(. وضمير)منكم(خطاب للمؤمنين، أي قد علم الله الذين يخرجون من جماعتكم متسللين ملاوذين.

وفرع على ما تضمنته جملة)قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا(تحذير من مخالفة ما نهى الله عنه بقوله)لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم(الآية بعد التنبيه على أنه تعالى مطلع على تسللهم.
والمخالفة: المغايرة في الطريق التي يمشي فيها بأن يمشي الواحد في طريق غير الطريق الذي مشى فيه الآخر، ففعلها متعد. وقد حذف مفعوله هنا لظهور أن المراد الذين يخالفون الله، وتعدية فعل المخالف بحرف)عن(لأنه ضمن معنى الصدود كما عدي ب)إلى(في قوله تعالى)وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه(لما ضمن معنى الذهاب. يقال: خالفه إلى الماء، إذا ذهب إليه دونه، ولو تركت

تعديته بحرف جر لإفادة أصل المخالفة في الغرض المسوق له الكلام.
وضمير)عن أمره(عائد إلى الله تعالى. والأمر هو ما تضمنه قوله)لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا(فإن النهي عن الشيء يستلزم الأمر بضده فكأنه قال: اجعلوا لدعاء الرسول الامتثال في العلانية والسر. وهذا كقول ابن أبي ربيعة:
فقلن لها سرا فديناك لا يرح صحيحا
وإن لم تقتليه فألمم فجعل قولهن)لا يرح(صحيحا وهو نهي في معنى: اقتليه، فبنى عليه قوله)وإن لم تقتليه فألمم(.
والحذر: تجنب الشيء المخيف. والفتنة: اضطراب حال الناس، وقد تقدمت عند قوله تعالى)والفتنة أشد من القتل(في البقرة. والعذاب الأليم هنا عذاب الدنيا، وهو عذاب القتل.
)ألا إن لله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم[64](تذييل لما تقدم في هذه السورة كلها. وافتتاحه بحرف التنبيه إيذان بانتهاء الكلام وتنبيه للناس ليعوا ما يرد بعد حرف التنبيه، وهو أن الله مالك ما في السماوات والأرض، فهو يجازي عباده بما يستحقون وهو عالم بما يفعلون.
ومعنى)ما أنتم عليه(الأحوال الملابسين لها من خير وشر، فحرف الاستعلاء مستعار للتمكن.
وذكرهم بالمعاد إذ كان المشركون والمنافقون منكرينه.
وقوله)فينبئهم بما عملوا(كناية عن الجزاء لأن إعلامهم بأعمالهم لو لم يكن كناية عن الجزاء لما كانت له جدوى.
وقوله)والله بكل شيء عليم(تذييل لجملة)قد يعلم ما أنتم عليه(لأنه أعم منه.
وفي هذه الآية لطيفة الاطلاع على أحوالهم لأنهم كانوا يسترون نفاقهم.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة الفرقان
سميت هذه السورة سورة الفرقان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبمسمع منه. ففي صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله فكدت أساوره في الصلاة فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فانطلقت به أقوده إلى رسول الله فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها.. الحديث.

ولا يعرف لهذه السورة اسم غير هذا. والمؤدبون من أهل تونس يسمونها)تبارك الفرقان(كما يسمون)سورة الملك(تبارك، وتبارك الملك.

ووجه تسميتها)سورة الفرقان(لوقوع لفظ الفرقان فيها. ثلاث مرات في أولها ووسطها وآخرها.

وهي مكية عند الجمهور. وروي عن ابن عباس أنه استثنى منها ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى)والذين لا يدعون مع الله إلها آخر(إلى قوله)وكان الله غفورا رحيما(. والصحيح عنه أن هذه الآيات الثلاث مكية كما في صحيح البخاري في تفسير الفرقان:)عن القاسم بن أبي بزة أنه سأل سعيد بن جبير: هل لمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة؟ فقرأت عليه)ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق(. فقال سعيد: قرأتها على ابن عباس كما قرأتها علي؟ فقال: هذه مكية نسختها آية مدنية التي في سورة النساء. يريد قوله تعالى)ومن يقتل مؤمنا متعمدا(الآية(. وعن الضحاك: أنها مدنية إلا الآيات الثلاث من أولها إلى قوله)ولا نشورا(.

وأسلوب السورة وأغراضها شاهدة بأنها مكية.

وهي السورة الثانية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يس وقبل سورة فاطر، وعدد آياتها سبع وسبعون باتفاق أهل العدد.

أغراض هذه السورة

صفحة : 2943

واشتملت هذه السورة على الابتداء بتحميد الله تعالى وإنشاء الثناء عليه، ووصفه بصفات الإلهية والوحدانية فيها.

وأدمج في ذلك التنويه بالقرآن، وجلال منزله، وما فيه من الهدى، وتعريض بالامتنان على الناس بهديه وإرشاده إلى اتقاء المهالك، والتنويه بشأن النبي صلى الله عليه وسلم.

وأقيمت هذه السورة على ثلاث دعائم: الأولى: إثبات القرآن منزل من عند الله، والتنويه بالرسول المنزل عليه صلى الله عليه وسلم، ودلائل صدقه، ورفعة شأنه عن أن تكون له حظوظ الدنيا، وأنه على طريقة غيره من الرسل، ومن ذلك تلقى قومه دعوته بالتكذيب.

الدعامة الثانية: إثبات البعث والجزاء، والإنذار بالجزاء في الآخرة، والتبشير بالثواب فيها للصالحين، وإنذار المشركين بسوء حظهم

يومئذ، وتكون لهم الندامة على تكذيبهم الرسول وعلى إشراكهم واتباع أئمة كفرهم.
الدعامة الثالثة: الاستدلال على وحدانية الله، وتفرده بالخلق، وتنزيهه عن أن يكون له ولد أو شريك، وإبطال إلهية الأصنام، وإبطال ما زعموه من بنوة الملائكة لله تعالى.
وافتتحت في آيات كل دعامة من هذه الثلاث بجملة)تبارك الذي(الخ.
قال الطيبي: مدار هذه السورة على كونه صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى الناس كافة ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ولهذا جعل براعة استهلالها)تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا(وذكر بدائع من صنعه تعالى جميعا بين الاستدلال والتذكير.
وأعقب ذلك بتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوته ومقاومته الكافرين.
وضرب الأمثال للحالين ببعثة الرسل السابقين وما لقوا من أقوامهم مثل قوم موسى وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط.
والتوكل على الله، والثناء على المؤمنين به، ومدح خصالهم ومزايا أخلاقهم، والإشارة إلى عذاب قريب يحل بالمكذبين.
)تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا[1](.
افتتاح بديع لندرة أمثاله في كلام بلغاء العرب لأن غالب فواتحهم أن تكون بالأسماء مجردة أو مقترنة بحرف غير منفصل، مثل قول طرفة:
لخولة أطلال ببرقة ثهمد أو بأفعال المضارعة ونحوها كقول امرئ القيس)قفا نبك(البيت، أو بحروف التأكيد أو الاستفهام أو التنبيه مثل)إن(و)قد(والهمزة و)هل(. ومن قبيل هذا الافتتاح قول الحارث بن حلزة.

آذنتنا ببينها أسماء وقوله النابغة: كتمتك ليلا بالجمومين ساهرا وهمين هما مستكنا وظاهرا وبهذه الندرة يكون في طالع هذه السورة براعة المطلع لأن الندرة من العزة، والعزة من محاسن الألفاظ وضدها الابتذال.
وتبارك: تعاظم خيره وتوفر، والمراد بخيره كمالاته وتنزهاته. وتقدم في قوله تعالى)تبارك الله رب العالمين(في سورة الأعراف.
والبركة: الخير، وتقدم عند قوله تعالى)اهبط بسلام منا وبركات عليك(في سورة هود وعند قوله)تحية من عند الله مباركة طيبة(في سورة النور.

وظاهر قوله)تبارك الذي نزل الفرقان(أنه إخبار عن عظمة الله وتوفر كمالاته فيكون المقصود به التعليم والإيقاظ، ويجوز مع ذلك أن يكون كناية عن إنشاء ثناء على الله تعالى أنشأ الله به ثناء على نفسه كقوله)سبحان الذي أسرى بعبده(على طريقة الكلام العربي في إنشاء التعجب من صفات المتكلم في مقام الفخر والعظمة، أو إظهار غرائب صدرت، كقول امرئ القيس:

ويوم عقرت للعذارى مطيتـي فيما

عجبا من كورها المتحمل وإنما يتعجب من إقدامه على أن جعل كور المطية يحمله هو بعد عقرها. ومنه قول الفند الزماني:

أيا طـعـنة مـا شـيخ كبـير بـفـن بـالـي

يريد طعنة طعنها قرنه. والذي نزل الفرقان هو الله تعالى. وإذ قد كانت الصلة من خصائص الله تعالى كان الفعل كالمسند إلى ضمير المتكلم فكأنه قيل: تباركت.

والموصول يومئ إلى علة ما قبله فهو كناية عن تعظيم شأن الفرقان وبركته على الناس من قوله)ليكون للعالمين نذيرا(. فتلك منة عظيمة توجب الثناء على الله. وهو أيضا كناية عن تعظيم شأن الرسول عليه الصلاة والسلام.

صفحة : 2944

والتعريف بالموصول هنا لكون الصلة من صفات الله في نفس الأمر وعند المؤمنين وإن كان الكفار ينكرونها لكنهم يعرفون أن الرسول أعلنها فالله معروف بذلك عندهم معرفة بالوجه لا بالكنه الذي ينكرونه.

والفرقان: القرآن وهو في الأصل مصدر فرق، كما في قوله)وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان(وقوله)يجعل لكم فرقانا(. وجعل علما بالغلبة على القرآن لأنه فرق بين الحق والباطل لما بين من دلائل الحق ودحض الباطل. وقد تقدم في قوله تعالى)وأنزلنا الفرقان(في سورة آل عمران.

وإيثار اسم الفرقان بالذكر هنا للإيماء إلى أن ما سيذكر من الدلائل على الوحدانية وإنزال القرآن دلائل قيمة تفرق بين الحق والباطل.

ووصف النبي ب)عبده(تقريب له وتمهيد لإبطال طلبهم منه في قوله)وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام(الآية.

والمراد ب)العالمين(جميع الأمم من البشر لأن العالم يطلق على الجنس وعلى النوع وعلى الصنف بسب ما يسمح به المقام، والنذارة لا تكون إلا للعقلاء ممن قصدوا بالتكليف. وقد مضى الكلام على لفظ)العالمين(في سورة الفاتحة.

والنذير: المخبر بسوء يقع، وهو فعيل بمعنى مفعل بصيغة اسم الفاعل مثل الحكيم. والاقتصار في وصف الرسول هنا على النذير دون البشر كما في قوله)وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا(لأن المقام هنا لتهديد المشركين إذ كذبوا بالقرآن وبالرسول عليه الصلاة والسلام. فكان مقتضيا لذكر النذارة دون البشارة، وفي ذلك اكتفاء لأن البشارة تخطر ببال السامع عند ذكر النذارة. وسيجيء)وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا(في هذه السورة.

وفي هذه الآية جمع بين التنويه بشأن القرآن وأنه منزل من الله وتنويه بشأن النبي عليه الصلاة والسلام ورفعة منزلته عند الله وعموم رسالته.

)الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا[2](.

أجريت على اسم الله تعالى هذه الصفات الأربع بطريق تعريف الموصولية لأن بعض الصلات معروف عند المخاطبين اتصاف الله به وهما الصفتان الأولى والرابعة؛ وإذا قد كانتا معلومتين كانت الصلتان الأخريان المذكورتان معهما في حكم المعروف لأنهما أجريتا على من عرف بالصلتين الأولى والرابعة فإن المشركين ما كانوا يمترون في أن الله هو مالك السماوات والأرض ولا في أن الله هو خالق كل شيء كما في قوله)قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله(الآيات من سورة المؤمنين، ولكنهم يثبتون لله ولدا وشريكا في الملك.

ومن بديع النظم أن جعل الوصفان المختلف فيهما معهم متوسطين بين الوصفين اللذين لا مرية فيهما حتى يكون الوصفان المسلمين كالدليل أولا والنتيجة آخرا، فإن الذي له ملك السماوات والأرض لا يليق به أن يتخذ ولدا ولا أن يتخذ شريكا لأن ملكه العظيم يقتضي غناه المطلق فيقتضي أن يكون اتخاذه ولدا وشريكا عبثا إذ لا غاية له، وإذا كانت أفعال العقلاء تصان عن العبث فكيف بأفعال أحكم الحكماء تعالى وتقدس.

فقوله)الذي له ملك السماوات والأرض(بدل من)الذي نزل الفرقان(.

وإعادة اسم الموصول لاختلاف الغرض من الصلتين لأن الصلة الأولى في غرض الامتنان بتنزيل القرآن للهدى، والصلة الثانية في غرض اتصاف الله تعالى بالوحدانية.

وفي الملك إيماء إلى أن الاشتراك في الملك ينافي حقيقة الملك التامة التي لا يليق به غيرها.
والخلق: الإيجاد، أي أوجد كل موجود من عظيم الأشياء وحقيرها.
وفرع على)خلق كل شيء فقدره تقديرا(لأنه دليل على إتقان الخلق إتقانا يدل على أن الخالق متصف بصفات الكمال.
ومعنى)قدرة(جعله على مقدار وحد معين لا مجرد مصادفة، أي خلقه مقدرا، أي محكما مضبوطا صالحا لما خلق لأجله لا تفاوت فيه ولا خلل. وهذا يقتضي أنه خلقه بإرادة وعلم على كيفية أرادها وعينها كقوله)إنا كل شيء خلقناه بقدر(. وقد تقدم في قوله)أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها(في سورة الرعد. وتأكيد الفعل بالمفعول المطلق بقوله)تقديرا(للدلالة على أنه تقدير كامل في نوع التقادير.

صفحة : 2945

وما جاء من أول السورة إلى هنا براعة استهلال بأغراضها وهو يتنزل منزلة خطبة الكتاب أو الرسالة.
)واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا[3](.
استطراد لانتهاز الفرصة لوصف ضلال أهل الشرك وسفالة تفكيرهم، فهو عطف على جملة)الذي له ملك السماوات والأرض(وما تلاها مما هو استدلال على انفراده تعالى بالإلهية، وأردفت بقوله)وخلق كل شيء(الشامل لكون ما اتخذوه من الآلهة مخلوقات فكان ما تقدم مهيئا للتعجيب من اتخاذ المشركين آلهة دون ذلك الإله المنعوت بصفات الكمال والجلال.
فالخبر غير مقصود به الإفادة بل هو للتعجيب من حالهم كيف قابلوا نعمة إنزال الفرقان بالجحد والطغيان وكيف أشركوا بالذي تلك صفاته آلهة أخرى صفاتهم على الضد من صفات من أشركوهم به، وإلا فإن اتخاذ المشركين آلهة أمر معلوم لهم وللمؤمنين فلا يقصد إفادتهم لحكم الخبر.
وبين قوله)ولم يتخذ ولدا(وقوله)واتخذوا من دونه آلهة(محسن الطباق.
وضمير)اتخذوا(عائد إلى المشركين ولم يسبق لهم ذكر في الكلام وإنما هم معروفون في مثل هذا المقام وخاصة من قوله)ولم يكن له شريك في الملك(.

وجملة)لا يخلقون شيئا(مقابلة جملة)الذي له ملك السماوات والأرض(. وجملة)وهم يخلقون(مقابلة جملة)ولم يتخذ ولدا(لأن ولد الخالق يجب أن يكون متولدا منه فلا يكون مخلوقا.

وجملة)ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا(مقابلة جملة)ولم يكن له شريك في الملك(لأن الشركة في الملك تقتضي الشركة في التصرف.

وضمير)لأنفسهم(يجوز أن يعود إلى)آلهة(أي لا تقدر الأصنام ونحوها على ضر أنفسهم ولا على نفعهم. ويجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير)واتخذوا(أي لا تقدر الأصنام على نفع الذين عبدوهم ولا على ضرهم.

واعلم أن)ضرا ولا نفعا(هنا جرى مجرى المثل لقصد الإحاطة بالأحوال، فكأنه قيل: لا يملكون التصرف بحال من الأحوال. وهذا نظير أن يقال: شرقا وغربا، وليلا ونهارا. وبذلك يندفع ما يشكل في بادىء الرأي من وجه نفي قدرتهم على إضرار أنفسهم بأنه لا تتعلق إرادة أحد بضر نفسه، وبذلك أيضا لا يتطلب وجه لتقديم الضر على النفع، لأن المقام يقتضي التسوية في تقديم أحد الأمرين، فالمتكلم مخير في ذلك والمخالفة بين الآيات في تقديم أحد الأمرين مجرد تفنن.

والمجرور في)لأنفسهم(متعلق ب)يملكون(.

والضر- بفتح الضاد- مصدر ضره، إذا أصابه بمكروه. وقد تقدم نظيره في قوله تعالى)قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله(في سورة يونس.

وجملة)ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا(مقابلة جملة)وخلق كل شيء فقدره تقديرا(لأن أعظم مظاهر تقدير الخلق هو مظهر الحياة والموت، وذلك من المشاهدات. وأما قوله)ولا نشورا(فهو تكميل لقرع المشركين نفاة البعث لأن نفي أن يكون الآلهة يملكون نشورا يقتضي إثبات حقيقة النشور في نفس الأمر إذ الأكثر في كلام العرب أن نفي الشيء يقتضي تحقيق ماهيته. وأما نحو قول امرئ القيس:

على لاحب لا يهتدي بمناره يريد لا منار فيه. وقول ابن أحمر:

لا تفزع الأرنب أهوالـهـا ولا ترى

الضب بها ينجحر أراد: إنها لا أرنب فيها ولا ضب. فهو من قبيل التمليح.

ذكر في هذه الآية من أقوالهم المقابلة للجمل الموصوف بها الله تعالى اهتماما بإبطال كفرهم المتعلق بصفات الله لأن ذلك أصل الكفر ومادته.

واعلم أن معنى)وهم يخلقون(وهم يصنعون، أي يصنعهم الصانعون لأن أصنامهم كلها حجارة منحوته فقد قومتها الصنعة، فأطلق الخلق على التشكيل والنحت من فعل الناس، وإن كان الخلق شاع في الإيجاد بعد العدم؛ إما اعتبارا بأصل مادة الخلق وهو تقدير مقدار الجلد قبل فريه كما قال زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلـ ... ـق ثـم لا يفـري فأطلق الخلق على النحت؛ إما على سبيل المجاز المرسل، وإما مشاكلة لقوله)لا يخلقون شيئا(.

صفحة : 2946

والملك في قوله)لا يملكون(مستعمل في معنى القدرة والاستطاعة كما تقدم في قوله تعالى)قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم(في سورة العقود، وقوله فيها) قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا(، أي من لا يقدر على ضركم ولا نفعكم. فقوله هنا)لأنفسهم(متعلق ب)يملكون(، واللام فيه لام التعليل، أي لا يملكون لأجل أنفسهم، أي لفائدتها.

ثم إن المراد ب)أنفسهم(يجوز أن يكون الجمع فيه باعتبار التوزيع على الآحاد المفادة بضمير)يملكون(أي لا يملك كل واحد لنفسه ضرا ولا نفعا، ويكون المراد بالضر دفعه على تقدير مضاف دل عليه المقام لأن الشخص لا يتعلق غرضه بضر نفسه حتى يقرع بأنه عاجز عن ضر نفسه.

وتنكير)موتا-وحياة(في سياق النفي للعموم، أي موت أحد من الناس ولا حياته.

والنشور: الإحياء بعد الموت. وأصله نشر الشيء المطوي.

)وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا[4](انتقال من ذكر كفرهم في أفعالهم إلى ذكر كفرهم بأقوالهم الباطلة.

والإظهار هنا لإفادة أن مضمون الصلة هو علة قولهم هذا، أي ما جرأهم على هذا البهتان إلا إشراكهم وتصلبهم فيه، وليس ذلك لشبهة تبعثهم على هذه المقالة لانتفاء شبهة ذلك، بخلاف ما حكي آنفا من كفرهم بالله فإنهم تلقوه من آبائهم، فالوصف الذي أجري عليهم هنا مناسب لمقالتهم لأنها أصل كفرهم.

وهذه الجملة مقابلة جملة)تبارك الذي نزل الفرقان على عبده(فهي المقصود من افتتاح الكلام كما آذنت بذلك فاتحة

السورة. وإنما أخرت هذه الجملة التي تقابل الجملة الأولى مع أن مقتضى ظاهر المقابلة أن تذكر هذه الجملة قبل جملة)واتخذوا من دونه آلهة(اهتماما بإبطال الكفر المتعلق بصفات الله كما تقدم آنفا.

والقصر المشتمل عليه كلامهم المستفاد من)إن(النافية و) إلا(قصر قلب؛ زعموا به رد دعوى أن القرآن منزل من عند الله.

وممن قال هذه المقابلة النضر بن الحارث، وعبد الله بن أمية، ونوفل بن خويلد. فإسناد هذا القول إلى جميع الكفار لأنه واقع بين ظهرانيهم وكلهم يتناقلونه. وهذه طريقة مألوفة في نسبة أمر إلى القبيلة كما يقال: بنو أسد قتلوا حجرا.

واسم الإشارة إلى القرآن حكاية لقولهم حين يسمعون آيات القرآن.

والضمير المرفوع في)افتراه(عائد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم المعلوم من قوله)على عبده(.

والإفك: الكذب. وتقدم عند قوله تعالى)إن الذين جاءوا بالإفك(في سورة النور. والافتراء: اختلاق الأخبار، أي ابتكارها وهو الكذب عن عمد، وتقدم في قوله)ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب(في سورة العقود.

)وأعانه عليه(أي على ما يقوله من القرآن قوم آخرون لقنوه بعض ما يقوله. وأرادوا بالقوم الآخرين اليهود. روي هذا التفسير عن مجاهد وعن ابن عباس: أشاروا إلى عبيد أربعة كانوا للعرب من الفرس وهم: عداس مولى حويطب ابن عبد العزى، ويسار أبو فكيهة الرومي مولى العلاء بن الحضرمي، وفي سيرة ابن هشام أنه مولى صفوان بن أمية بن محرث، وجبر مولى عامر. وكان هؤلاء من موالي قريش بمكة ممن دانوا بالنصرانية وكانوا يعرفون شيئا من التوراة والإنجيل ثم أسلموا، وقد مر ذلك في سورة النحل، فزعم المشركون أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتردد إلى هؤلاء سرا ويستمد منهم أخبار ما في التوراة والإنجيل.

والقصر المستفاد من قوله)إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون(متسلط على كلتا الجملتين، أي لا يخلو هذا القرآن من مجموع الأمرين، هما: أن يكون افترى بعضه من نفسه، وأعانه قوم على بعضه.

وفرع على حكاية قولهم هذا ظهور أنهم ارتكبوا بقولهم ظلما وزورا لأنهم حين قالوا ذلك ظهر أن قولهم زور وظلم لأنه اختلاق واعتداء.

و)جاءوا(مستعمل في معنى)عملوا(وهو مجاز في العناية بالعمل والقصد إليه لأن من اهتم بتحصيل شيء مشى إليه، وبهذا الاستعمال صح تعديته إلى مفعول كما في هذه الآية.

والظلم: الاعتداء بغير حق بقول أو فعل قال تعالى)قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه(وتقدم في قوله)ومن أظلم ممن منع مساجد الله(في سورة البقرة. والظلم الذي أتوه هو نسبتهم الرسول إلى الاختلاق فإنه اعتداء على حقه الذي هو الصدق.

والزور: الكذب، وأحسن ما قيل في الزور: إنه الكذب المحسن المموه بحيث يشتبه بالصدق.

وكون قولهم ذلك كذبا ظاهر لمخالفته الواقع فالقرآن ليس فيه شيء من الإفك، والذين زعموهم معينين عليه لا يستطيع واحد منهم أن يأتي بكلام عربي بالغ غاية البلاغة ومرتق إلى حد الإعجاز، وإذا كان لبعضهم معرفة ببعض أخبار الرسل فما هي إلا معرفة ضئيلة غير محققة كشأن معرفة العامة والدهماء.

)وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا[5] (الضمير عائد إلى الذين كفروا، فمدلول الصلة مراعى في هذا الضمير إيماء إلى أن هذا القول من آثار كفرهم.

والأساطير: جمع أسطورة بضم الهمزة كالأحدوثة والأحاديث، والأغلوطة والأغاليط، وهي القصة المسطورة. وقد تقدم معناها مفصلا عند قوله)حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين(في سورة الأنعام. وقائل هذه المقالة هو النضر بن الحارث العبدري قال: إن القرآن قصص من قصص الماضين. وكان النضر هذا قد تعلم بالحيرة قصص ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار فكان يقول لقريش: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا من محمد فهلم أحدثكم؛ وكان يقول في القرآن: هو أساطير الأولين. قال ابن عباس: كل ما ذكر فيه أساطير الأولين في القرآن فالمقصود منه قول النضر بن الحارث. وقد تقدم هذا في سورة الأنعام وفي أول سورة يوسف.

وجملة)اكتتبها(نعت أو حال ل)أساطير الأولين(.

والاكتتاب: افتعال من الكتابة، وصيغة الافتعال تدل على التكلف لحصول الفعل، أي حصوله من فاعل الفعل، فيفيد قوله)اكتتبها(أنه تكلف أن يكتبها. ومعنى هذا التكلف أن النبي عليه الصلاة والسلام لما كان أميا كان إستاد الكتابة إليه إسنادا مجازيا فيؤول المعنى: أنه سأل من يكتبها له، أي ينقلها، فكان إسناد الاكتتاب إليه إسنادا مجازيا لأنه سببه، والقرينة ما هو مقرر لدى الجميع من أنه أمي لا يكتب، ومن قوله)فهي تملى عليه(لأنه لو كتبها لنفسه لكان يقرأها

بنفسه. فالمعنى: استنسخها. وهذا كله حكاية لكلام النضر بلفظه أو معناه. ومراد النضر بهذا الوصف ترويج بهتانه لأنه علم أن هذا الزور مكشوف قد لا يقبل عند الناس لعلمهم بأن النبي أمي فكيف يستمد قرآنه من كتب الأولين فهيأ لقبول ذلك أنه كتبت له، فاتخذها عنده فهو يناولها لمن يحسن القراءة فيملي عليه ما يقصه القرآن.

والإملاء: هو الإملال وهو إلقاء الكلام لمن يكتب ألفاظه أو يرويها أو يحفظها. وتفريع الإملاء على الاكتتاب كان بالنظر أن إملاءها عليه ليقرأها أو ليحفظها.

والبكرة: أول النهار. والأصيل: آخر المساء، وتقد م في قوله) بالغدو والآصال(في آخر سورة الأعراف، أي تملى عليه طرفي النهار. وهذا مستعمل كناية عن كثرة الممارسة لتلقي الأساطير.

)قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما[6](لقن الله رسوله الجواب لرد بهتان القائلين إن هذا القرآن إلا إفك، وإنه أساطير الأولين، بأنه أنزله الله على رسوله.

وعبر عن منزل القرآن بطريق الموصول لما تقتضيه الصلة من استشهاد الرسول الله على ما في سره لأن الله يعلم كل سر في كل مكان.

فجملة الصلة مستعملة في لازم الفائدة وهو كون المتكلم، أي الرسول، عالما بذلك. وفي ذلك كناية عن مراقبته الله فيما يبلغه عنه. وفي ذلك إيقاظ لهم بأن يتدبروا في هذا الذي زعموه إفكا أو أساطير الأولين ليظهر لهم اشتماله على الحقائق الناصعة التي لا يحيط بها إلا الله الذي يعلم السر، فيوقنوا أن القرآن لا يكون إلا من إنزاله، وليعلموا براءة الرسول صلى الله عليه وسلم من الاستعانة بمن زعموهم يعينونه.

صفحة : 2948

والتعريف في)السر(تعريف الجنس يستغرق كل سر، ومنه إسرار الطاعنين في القرآن عن مكابرة وبهتان، أي يعلم أنهم يقولون في القرآن ما لا يعتقدونه ظلما وزورا منهم، وبهذا يعلم موقع جملة)إنه كان غفورا رحيما(ترغيبا لهم في الإقلاع عن هذه المكابرة وفي اتباع دين الحق ليغفر الله لهم ويرحمهم، وذلك تعريض بأنهم إن لم يقلعوا ويتوبوا حق عليهم الغضب والنقمة.

)وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا[7] أو يلقى إليه كنز أو تكون له

جنة يأكل منها(انتقال من حكاية مطاعنهم في القرآن وبيان إبطالها إلى حكاية مطاعنهم في الرسول عليه الصلاة والسلام.
والضمير عائد إلى الذين كفروا، فمدلول الصفة مراعى كما تقدم.
وقد أوردوا طعنهم في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم بصيغة الاستفهام عن الحالة المختصة به إذ أوردوا اسم الاستفهام ولام الاختصاص والجملة الحالية التي مضمونها مثار الاستفهام.
والاستفهام تعجيبي مستعمل في لازمه وهو بطلان كونه رسولا بناء على أن التعجب من الدعوى يقتضي استحالتها أو بطلانها.وتركيب) ما لهذا(ونحوه يفيد الاستفهام عن أمر ثابت له، فاسم الاستفهام مبتدأ و)لهذا(خبر عنه فمثار الاستفهام في هذه الآية هو ثبوت حال أكل الطعام والمشي في الأسواق للذي يدعي الرسالة من الله.
فجملة)يأكل الطعام(جملة حال. وقولهم)لهذا الرسول(أجروا عليه وصف الرسالة مجاراة منهم لقوله وهم لا يؤمنون به ولكنهم بنوا عليه ليتأنى لهم التعجب والمراد منه الإحالة والإبطال.
والإشارة إلى حاضر في الذهن، وقد بين الإشارة ما بعدها من اسم معرف بلام العهد وهو الرسول.
وكنوا بأكل الطعام والمشي في الأسواق عن مماثلة أحواله لأحوال الناس تذرعا منهم إلى إبطال كونه رسولا لزعمهم أن الرسول عن الله تكون أحواله غير مماثلة لأحوال الناس، وخصوا أكل الطعام والمشي في الأسواق لأنهما من الأحوال المشاهدة المتكررة. ورد الله عليهم قولهم هذا بقوله)وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق(. ثم انتقلوا إلى اقتراح أشياء تؤيد رسالته فقالوا)لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا(. وخصوا من أحوال الرسول حال النذارة لأنها التي أنبتت حقدهم عليه.
و)لولا(حرف تحضيض مستعمل في التعجيز، أي لو أنزل إليه ملك لاتبعناه.
وانتصب)فيكون(على جواب التحضيض.
و)أو(للتخيير في دلائل الرسالة في وهمهم.
ومعنى)يلقى إليه كنز(أي ينزل إليه كنز من السماء، غذ كان الغنى فتنة لقلوبهم. والإلقاء: الرمي، وهو هنا مستعار للإعطاء من عند الله لأنهم يتخيلون اللع تعالى في السماء.
والكنز تقدم في قوله تعالى)أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز(في سورة هود. وجعلوا إعطاء جنة له علامة على النبوة لأن وجود الجنة في مكة خارق للعادة.
وقرأ الجمهور)يأكل منها(بياء الغائب، والضمير المستتر عائد إلى) هذا الرسول(.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف)نأكل منها(بنون الجماعة. والمعنى: ليتيقنوا أن ثمرها حقيقة لا سحر.
ذكر أصحاب السير أن هذه المقالة صدرت من كبراء المشركين وفي مجلس لهم مع رسول الله-صلى الله عليه وسلم- جمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، وأبا البختري، والأسود بن عبد المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وأمية بن خلف ،وعبد الله بن أبي أمية، والعاصي بن وائل، ونبيه بن الحجاج ومنبه بن الحجاج، والنضر بن الحارث، وأن هذه الأشياء التي ذكروها تداولها أهل المجلس إذ لم يعين أهل السير قائلها.
قال ابن عطية: وأشاعوا ذلك في الناس فنزلت هذه الآية في ذلك. وقد تقدم شيء من هذا في سورة الإسراء.

صفحة : 2949

وكتبت لام)مال هذا(منفصلة عن اسم الإشارة الذي بعدها في المصحف الإمام فاتبعته المصاحف لأن رسم المصحف سنة فيه، كما كتب)مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة(في سورة الكهف، وكما كتب)مال الذين كفروا قبلك مهطعين(في سورة سال سائل، كما كتب)فمال هؤلاء القوم(في سورة النساء. ولعل وجه هذا الانفصال أنه طريقة رسم قديم كانت الحروف تكتب منفصلا بعضها عن بعض ولا سيما حروف المعاني فعاملوا ما كان على حرف واحد معاملة ما كان على حرفين فبقيت على يد أحد كتاب المصحف آثاره من ذلك، وأصل حروف الهجاء كلها الانفصال، وكذلك هي في الخطوط القديمة للعرب وغيرهم. وكان وصل حروف الكلمة الواحدة تحسينا للرسم وتسهيلا لتبادر المعنى، وأما ما كان من كلمتين فوصله اصطلاح. وأكثر ما وصلوا منه الكلمة الموضوعة على حرف واحد مثل حروف القسم أو كالواحد مثل)ال(.
)وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا[8] انظر كيف ضربوا لك الأمثل فضلوا فلا يستطيعون سبيلا[9](الظالمون: هم المشركون، فغير عنوانهم الأول إلى عنوان الظلم وهم هم تنبيها على أن في هذا القول اعتداء على الرسول بنبزه بما هو بريء منه وهم يعلمون أنه ليس كذلك فظلمهم له أشد ظلم وصلى الله عليه وسلم.
ذكر الماوردي: أن قائل)إن تتبعون إلا رجلا مسحورا(هو عبد الله ابن الزبعرى، أي هو مبتكر هذا البهتان وإنما أسند القول إلى جميع الظالمين لأنهم تلقفوه ولهجوا به.

والمسحور: الذي أصابه السحر، وهو يورث اختلال العقل عندهم، أي ما تتبعون إلا رجلا أصابه خلل العقل فهو يقول ما لا يقول مثله العقلاء.

وذكر)رجلا(هنا لتمهيد استحالة كونه رسولا لأنه رجل من الناس. وهذا الخطاب خاطبوا به المسلمين الذين اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم.

ومعنى)انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا(: أنهم ضربوا لك الأمثال الباطلة بأن مثلوك برجل مسحور.

وقوله)انظر(مستعار لمعنى العلم تشبيها للأمر المعقول بالأمر المرئي لشدة وضوحه.

و)كيف(اسم للكيفية والحالة مجرد هنا عن معنى الاستفهام.

وفرع على هذا التعجيب إخبار عنهم بأنهم ضلوا في تلفيق المطاعن في رسالة الرسول فسلكوا طرائق لا تصل بهم إلى دليل مقنع على مرادهم، ففعل)ضلوا(مستعمل في معنييه المجازيين هما: معنى عدم التوفق في الحجة، ومعنى عدو الوصول للدين الحق، وهو هنا تعجيب من خطلهم وإعراض عن مجاوبتهم.

)تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنت تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا[10](ابتدئت السورة بتعظيم الله وثنائه على أن أنزل الفرقان على رسوله، وأعقب ذلك بما تلقى به المشركون هذه المزية من الجحود والإنكار الناشئ عن تمسكهم بما اتخذوه من آلهة من صفاتهم ما ينافي الإلهية، ثم طعنوا في القرآن والذي جاء به بما هو كفران للنعمة ومن جاء بها.

فلما أريد الإعراض عن باطلهم والإقبال على خطاب الرسول بتثبيته وتثبيت المؤمنين أعيد اللفظ الذي ابتدئت به السورة على طريقة وصل الكلام بقوله)تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك(.

وهذه الجملة استئناف واقع موقع الجواب عن قولهم)أو تكون له جنة(الخ، أي إن شاء جعل لك خيرا من الذي اقترحوه، أي أفضل منه، أي إن شاء عجله لك في الدنيا، فالإشارة إلى المذكور من قولهم، فيجوز أن يكن المراد بالجنات والقصور جنات في الدنيا وقصورا فيها، أي خيرا من الذي اقترحوه دليلا على صدقك في زعمهم بأن تكون عدة جنات وفيها قصور. وبهذا فسر جمهور المفسرين. وعلى هذا التأويل تكون)إن(الشرطية واقعة موقع)لو(، أي أنه لم يشأ ولو شاءه لفعله ولكن الحكمة اقتضت عدم البسط للرسول في هذه الدنيا ولكن المشركين لا يدركون المطالب العالية.

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون المراد بالجنات والقصور ليست التي في الدنيا، أي هي جنات الخلد وقصور الجنة فيكون وعد من الله لرسوله.

واقترن هذا الوعد بشرط المشيئة جار على ما تقتضيه العظمة الإلهية وإلا فسياق الوعد يقتضي الجزم بحصوله، فالله شاء ذلك لا محالة، بأن يقال: تبارك الذي جعل لك خيرا من ذلك. فموقع)إن شاء(اعتراض.

صفحة : 2950

وأصل المعنى: تبارك الذي جعل لك خيرا من ذلك جنات إلى آخره. ويساعد هذا قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي بكر عن عاصم)ويجعل لك قصورا(برفع) يجعل(على الاستئناف دون إعمال حرف الشرط، وقراءة الأكثر بالجزم عطفا على فعل الشرط وفعل الشرط محقق الحصول بالقرينة، وهذا المحمل أشد تبكيتا للمشركين وقطعا لمجادلتهم، وقرينة ذلك قوله بعده)بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا(، وهو ضد ومقابل لما أعده لرسوله والمؤمنين.

والقصور: المباني العظيمة الواسعة على وجه الأرض وتقدم في قوله)تتخذون من سهولها قصورا(في سورة الأعراف، وقوله)وقصر مشيد(في سورة الحج.

)بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا[11](.

)بل(للإضراب، فيجوز أن يكون إضراب انتقال من ذكر ضلالهم في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذكر ضلالهم في إنكار البعث على تأويل الجمهور قوله)إن شاء جعل لك خيرا من ذلك(كما تقدم.

ويجوز أن يكون إضراب إبطال لما تضمنه قوله)إن شاء جعل لك خيرا من ذلك(على تأويل ابن عطية من الوعد بإيتائه ذلك في الآخرة، أي بل هم لا يقنعون بأن حظ الرسول عند ربه ليس في متاع الدنيا الفاني الحقير ولكنه في خيرات الآخرة الخالدة غير المتناهية، أي أن هذا رد عليهم ومقنع لهم لو كانوا يصدقون بالساعة ولكنهم كذبوا بها فهم متمادون على ضلالهم لا تقنعهم الحجج.

والساعة: اسم غلب على عالم الخلود، تسمية باسم مبدئه وهو ساعة البعث. وإنما قصر تكذيبهم على الساعة لأنهم كذبوا بالبعث فهم بما وراءه أحرى تكذيبا.

وجملة)واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا(معترضة بالوعيد لهم، وهو لعمومه يشمل المشركين المتحدث عنهم، فهو تذييل. ومن غرضه مقابلة ما أعد الله للمؤمنين في العاقبة بما أعده للمشركين.

والسعير: الالتهاب، وهو فعيل بمعنى مفعول، أي مسعور، أي زيد فيها الوقود، وهو معامل معاملة المذكر لأنه من أحوال اللهب، وتقدم في قوله تعالى)كلما خبت زدناهم سعيرا(في سورة الإسراء. وقد يطلق علما بالغلبة على جهنم وذلك على حذف مضاف، أي ذات سعير.

)إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا[12] وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا[13] لا تدعوا اليوم ثبورا وحدا وادعوا ثبورا كثيرا[14](.

تخلص من اليأس من اقتناعهم إلى وصف السعير الذي أعد لهم، وأجري على السعير ضمير)رأتهم(بالتأنيث لتأويل السعير بجهنم إذ هو علم عليها بالغلبة كما تقدم.

وإسناد الرؤية إلى النار استعارة. والمعنى: إذا سيقوا إليها فكانوا من النار بمكان ما يرى الرائي من وصل إليه سمعوا لها تغيظا وزفيرا من مكان بعيد، ويجوز أن يكون معنى)رأتهم(رآهم ملائكتها أطلقوا منافذها فانطلقت ألسنتها بأصوات اللهيب كأصوات المتغيظ وزفيره فيكون إسناد الرؤية إلى جهنم مجازا عقليا.

والتغيظ: شدة الغيظ. والغيظ: الغضب الشديد، وتقدم عند قوله) عضوا عليكم الأنامل من الغيظ(في سورة آل عمران. فصيغة التفعل هنا الموضوعة في الأصل لتكلف الفعل مستعملة مجازا في قوته لأن المتكلف لفعل يأتي به كأشد ما يكون.

والمراد به هنا صوت المتغيظ، بقرينة تعلقه بفعل)سمعوا(فهو تشبيه بليغ.

والزفير: امتداد النفس من شدة الغيظ وضيق الصدر، أي صوتا كالزفير فهو تشبيه بليغ أيضا. ويجوز أن يكون الله قد خلق لجهنم إدراكا للمرئيات بحيث تشدد أحوالها عند انطباع المرئيات فيها فتضطرب وتفيض وتتهيأ لالتهام بعثها فتحصل منها أصوات التغيظ والزفير فيكون إسناد الرؤية والتغيظ والزفير حقيقة، وأمور العالم الأخرى لا تقاس على الأحوال المتعارفة في الدنيا.

وعلى هذين الاحتمالين يحمل ما ورد في القرآن والحديث نحو قوله تعالى)يوم يقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد(، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:)اشتكت النار إلى ربها فقالت يا رب أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفسين نفس في الصيف ونفس في الشتاء(رواه في الموطأ. زاد في رواية مسلم)فما ترون من

شدة البرد فذلك من زمهريرها وما ترون من شدة الحر فهو من سمومها(. .

صفحة : 2951

وجعل إزجاؤهم إلى النار من مكان بعيد زيادة في النكاية بهم لأن بعد المكان يقتضي زيادة المشقة إلى الوصول ويقتضي طول الرعب مما سمعوا.
ووصف وصولهم إلى جهنم من مكان بعيد ووضعهم فيها بقوله) وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا(فصيغ نظمه في صورة توصيف ضجيج أهل النار من قوله)دعوا هنالك ثبورا(وأدمج في خلال ذلك وصف داخل جهنم ووصف وضع المشركين فيها بقوله)مكانا ضيقا(وقوله)مقرنين(تفننا في أسلوب الكلام.
والإلقاء: الرمي، وهو هنا كناية عن الإهانة.
وانتصب)مكانا(على نزع الخافض، أي في مكان ضيق.
وقرأ الجمهور)ضيقا(بتشديد الياء. وقرأه ابن كثير)ضيقا(بسكون الياء وكلاهما للمبالغة في الوصف مثل : ميت وميت، لأن الضيق بالتشديد صيغة تمكن الوصف من الموصوف، والضيق بالسكون وصف بالمصدر.
و)مقرنين(حال من ضمير)ألقوا(أي مقرنا بعضهم في بعض كحال الأسرى والمساجين أن يقرن عدد منهم في وثاق واحد، كما قال تعالى)وآخرين مقرنين في الأصفاد(. والمقرن: المقرون، صيغت له مادة التفعيل للإشارة إلى شدة القرن.
والدعاء: النداء بأعلى الصوت، والثبور: الهلاك، أي نادوا: يا ثبورنا، أو واثبوراه بصيغة الندبة، وعلى كلا الاحتمالين فالنداء كناية عن التمني، أي تمنوا حلول الهلاك فنادوه كما ينادي من يطلب حضوره، أو ندبوه كما يندب من يتحسر على فقده، أي تمنوا الهلاك للاستراحة من فضيع العذاب.
وجملة)لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا(إلى آخرها مقولة لقول محذوف، أي يقال لهم، ووصف الثبور بالكثير إما لكثرة ندائه بالتكرير وهو كناية عن عدم حصول الثبور لأن انتهاء النداء يكون بحضور المنادى، أو هو يأس يقتضي تكرير التمني أو التحسر.
)قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا[15] لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسؤلا[16](.

الأمر بالقول يقتضي مخاطبا مقولا لهم ذلك، فيجوز ان يقصد: قل لهم، أي للمشركين الذين يسمعون الوعيد والتهديد السابق: أذلك خير أم الجنة؟ فالجمل متصلة السياق، والاستفهام حينئذ للتهكم إذ لا شبهة في كون الجنة الموصوفة خيرا. ويجوز أن يقصد: قل للمؤمنين، فالجملة معترضة بين آيات الوعيد لمناسبة إبداء البون بين حال المشركين وحال المؤمنين. والاستفهام حينئذ مستعمل في التلميح والتلطف. وهذا كقوله)أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم(في سورة الصافات.

والإشارة إلى المكان الضيق في جهنم.

و)خير(اسم تفضيل، وأصله أخير بوزن اسم التفضيل فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال. والتفضيل على المحمل الأول في موقع الآية مستعمل للتهكم بالمشركين، وعلى المحمل الثاني مستعمل للتلميح في خطاب المؤمنين وإظهار المنة عليهم.

ووصف الموعودين بأنهم متقون على المحمل الأول جار على مقتضى الظاهر، على المحمل الثاني جار على خلاف مقتضى الظاهر لأن مقتضى الظاهر أن يوتى بضمير الخطاب، فوجه العدول إلى الإظهار ما يفيده)المتقون(من العموم للمخاطبين ومن يجيء بعدهم.

وجملة)كانت لهم جزاء ومصيرا(تذييل لجملة)جنة الخلد التي وعد المتقون(لما فيها من التنويه بشأن الجنة بتنكير)جزاء ومصيرا(مع الإيماء إلى أنهم وعدوا بها وعد مجازاة على نحو قوله تعالى) نعم الثواب وحسنت مرتفقا(وقوله)بيس الشراب وساءت مرتفقا(في سورة الكهف.

وجملة)لهم فيها ما يشاءون(، حال من)جنة الخلد(، أو صفة ثانية. وجملة)كان على ربك وعدا مسؤولا(حال ثانية والرابط محذوف إذ التقدير: وعدا لهم.

والضمير المستتر في)كان على ربك وعدا(عائدا إما إلى الوعد المفهوم من قوله)التي وعد المتقون(، أي كان الوعد وعدا مسؤولا. وأخبر عن الوعد ب)وعدا(وهو عينه ليبنى عليه)مسؤولا(.

ويجوز أن يعود الضمير إلى)ما يشاءون(والإخبار عنه ب)وعدا(من الإخبار بالمصدر والمراد المفعول كالخلق بمعنى المخلوق.

ويتعلق)على ربك(ب)وعدا(لتضمين)وعدا(معنى)حقا(لإفادة أنه) وعدا(لا يخلف كقوله تعالى)وعدا علينا إنا كنا فاعلين(.

والمسؤول: الذي يسأله مستحقه ويطالب به، أي حقا للمتقين أن يترقبوا حصوله كأنه أجر لهم عن عمل. وهذا مسوق مساق المبالغة في تحقيق الوعد والكرم كما يشكرك شاكر على إحسان فتقول: ما أتيت إلا واجبا، إذ لايتبادر هنا غير هذا المعنى، إذ لا معنى للوجوب على الله تعالى سوى أنه تفضل وتعهد به، ولا يختلف في هذا أهل الملة وإنما اختلفوا في جواز إخلاف الوعد.

)ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل[17] قالوا سبحنك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا[18](عطف)ويوم نحشرهم(إما على جملة) قل أذلك خير(إن كان المراد: قل للمشركين، أو عطف على جملة)واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا(على جواز أن المراد: قل للمؤمنين.

وعلى كلا الوجهين فانتصاب)يوم نحشرهم(على المفعولية لفعل محذوف معلوم في سياق أمثاله، تقديره: اذكر ذلك اليوم لأنه لما توعدهم بالسعير وما يلاقون من هولها بين لهم حال ما قبل ذلك وهو حالهم في الحشر مع أصنامهم. وهذا مظهر من مظاهر الهول لهم في المحشر إذ يشاهدون خيبة آمالهم في آلهتهم إذ يرون حقارتها بين يدي الله وتبرؤها من عبادها وشهادتها عليهم بكفرانهم نعمة الله وإعراضهم عن القرآن، وإذ يسمعون تكذيب من عبدوهم من العقلاء من الملائكة وعيسى عليهم السلام والجن ونسبوا إليهم أنهم أمروهم بالضلالات.

وعموم الموصول من قوله)وما يعبدون(شامل لأصناف المعبودات التي عبدوها ولذلك أوثرت)ما(الموصولة لأنها تصدق على العقلاء وغيرهم. على ان التغليب هنا لغير العقلاء. والخطاب في)أأنتم أضللتم(للعقلاء بقرينة توجيه الخطاب.

فجملة)قالوا سبحانك(جواب عن سؤال الله إياهم:)أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل(، فهو استئناف ابتدائي ولا يتعلق به)يوم نحشرهم(.

وقرأ الجمهور)نحشرهم(بالنون و)يقول(بالياء ففيه التفات من التكلم إلى الغيبة. وقرأه ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب)يحشرهم-ويقول(كليهما بالياء. وقرأ ابن عامر)نحشرهم-ونقول(كليهما بالنون.

والاستفهام تقريري للاستنطاق والاستشهاد. والمعنى: أأنتم أضللتموهم أم ضلوا من تلقاء أنفسهم دون تضليل منكم. ففي الكلام حذف دل عليه المذكور.

وأخبر بفعل)أضللتم(عن ضمير المخاطبين المنفصل وبفعل) ضلوا(عن ضمير الغائبين المنفصل ليفيد تقديم المسند إليهما عل

الخبرين الفعليين تقوي الحكم المقرر به لإشعارهم بأنهم لا مناص لهم من الإقرار بأحد الأمرين وأن أحدهم محقق الوقوع لا محالة. فالمقصود بالتقوية هو معادل همزة الاستفهام وهو)أم هم ضلوا السبيل(.

والمجيبون هم العقلاء من المعبودين الملائكة وعيسى عليهم السلام.

وقولهم)سبحانك(كلمة تنزيه كني بها عن التعجب من قول فظيع، كقول الأعشى:

قد قلت لما جاءني فخره سبحان

من علقمة الفاخر وتقدم في سورة النور)سبحانك هذا بهتان عظيم(. واعلم أن ظاهر ضمير)نحشرهم(أن يعود على المشركين الذين قرعتهم الآية بالوعيد وهم الذين قالوا)ما لهذا الرسول يأكل الطعام(إلى قوله)مسحورا(؛ لكن ما يقتضيه وصفهم ب)الظالمون(والإخبار عنهم بأنهم كذبوا بالساعة وما يقتضيه ظاهر الموصول في قوله)لمن كذب بالساعة(من شمول كل من تحقق فيه مضمون الصلة، كل ذلك يقتضي أن يكون ضمير)نحشرهم(عائدا إلى)من كذب بالساعة(فيشمل المشركين الموجودين في وقت نزول الآية ومن انقرض منهم بعد بلوغ الدعوة المحمدية ومن سيأتي بعدهم من المشركين.

ووصف العباد هنا تسجيل على المشركين بالعبودية وتعريض بكفرانهم حقها.

والإشارة إليهم لتمييزهم من بين بقية العباد.

وهذا أصل في أداء الشهادة على عين المشهود عليه لدى القاضي.

وإسناد القول إلى ما يعبدون من دون الله يقتضي أن الله يجعل في الأصنام نطقا يسمعه عبدتها، أما غير الأصنام من عبد من العقلاء فالقول فيهم ظاهر.

صفحة : 2953

وإعادة فعل)ضلوا(في قوله)أم هم ضلوا السبيل(ليجري على ضميرهم مسند فعلي فيفيد التقوي في نسبة الضلال إليهم. والمعنى: أم هم ضلوا من تلقاء أنفسهم دون تضليل منكم. وحق الفعل أن يعدى ب)عن(ولكنه عدي بنفسه لتضمنه معنى)أخطؤوا(، أو على نزع الخافض.

و)سبحانك(تعظيم لله تعالى في مقام الاعتراف بأنهم ينزهون الله هن أن يدعوا لأنفسهم مشاركته في الإلهية.

ومعنى)ما كان ينبغي لنا(ما يطاوعنا طلب أن نتخذ عبدة لأن) انبغى(مطاوع)بغاه(إذا طلبه. فالمعنى: لا يمكن لنا اتخاذنا أولياء، أي عبادا، قال تعالى)وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي(. وقد تقدم في قوله تعالى)وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا(في سورة مريم. وهو هنا كناية عن انتفاء طلبهم هذا الاتخاذ انتفاء شديدا، أي نتبرأ من ذلك، لأن نفي)كان(وجعل المطلوب نفيه خبرا عن) كان(أقوى في النفي ولذلك يسمى جحودا. والخبر مستعمل في لازم فائدته، أي نعلم أنه لا ينبغي لنا فكيف نحاوله.

و)من(في قوله)من دونك(للابتداء لأن أصل)دون(أنه اسم للمكان، ويقدر مضاف محذوف يضاف إليه)دون(نحو: جلست دون، أي دون مكانه، فموقع)من(هنا موقع الحال من)أولياء(. وأصلها صفة ل)أولياء(فلما قدمت الصفة على الموصوف صارت حالا. والمعنى: لا نتخذ أولياء لنا موصوفين بأنهم من جانب دون جانبك، أي أنهم لا يعترفون لك بالوحدانية في الإلهية فهم يشركون معك في الإلهية.

وعن ابن جني: أن)من(هنا زائدة. وأجاز زيادة)من(في المفعول.

و)من(في قوله)من أولياء(مزيدة لتأكيد عموم النفي، أي استغراقه لأنه نكرة في سياق النفي.

والأولياء: جمع الولي بمعنى التابع في الولاء فإن الولي يرادف المولى فيصدق على كلا طرفي الولاء، أي على السيد والعبد، أو الناصر والمنصور. والمراد هنا: الولي التابع كما في قوله)فتكون للشيطان وليا(في سورة مريم، أي لا نطلب من الناس أن يكونوا عابدين لنا.

وقرأ الجمهور)نتخذ(بالبناء للفاعل. وقرأه أبو جعفر)نتخذ(بضم النون وفتح الخاء على البناء للمفعول، أي أن يتخذنا الناس أولياء لهم من دونك. فموقع)من دونك(موقع الحال من ضمير)نتخذ(. والمعنى عليه: أنهم يتبرؤون من أن يدعوا الناس لعبادتهم، وهذا تسفيه للذين عبدوهم ونسبوا إليهم موالاتهم. والمعنى: لا نتخذ من يوالينا دونك، أي من يعبدنا دونك.

والاستدراك الذي أفاده)لكن(ناشئ عن التبرؤ من أن يكونوا هم المضلين لهم بتعقيبه ببيان سبب ضلالهم لئلا يتوهم أن تبرئة أنفسهم من إضلالهم يرفع تبعة الضلال عن الضالين. والمقصود بالاستدراك ما بعد)حتى(وهو)نسوا الذكر(، وأما ما قبلها فقد أدمج بين حرف الاستدراك ومدخوله ما يسجل عليهم فظاعة ضلالهم بأنهم قابلوا رحمة الله ونعمته عليهم وعلى آبائهم بالكفران، فالخبر عن الله بأنه متع الضالين وآباءهم مستعمل في الثناء على الله بسعة

الرحمة، وفي الإنكار على المشركين مقابلة النعمة بالكفران غضبا عليهم.
وجعل نسيانهم الذكر غاية للتمتع للإيماء إلى أن ذلك التمتع أفضى إلى الكفران لخبث نفوسهم فهو كجود في أرض سبخة قال تعالى) وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون(.
والتعرض إلى تمتيع آبائهم هنا مع أن نسيان الذكر إنما حصل من المشركين الذين بلغتهم الدعوة المحمدية ونسوا الذكر، أي القرآن، هو زيادة تعظيم نعمة التمتيع عليهم بأنها نعمة متأثلة تليدة، مع الإشارة إلى أن كفران النعمة قد انجر لهم من آبائهم الذين سنوا لهم عبادة الأصنام. ففيه تعريض بشناعة الإشراك ولو قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم.
وبهذا يظهر أن ضمير)نسوا(وضمير)كانوا(عائدان إلى الظالمين المكذبين بالإسلام دون آبائهم لأن الآباء لم يسمعوا الذكر.
والنسيان مستعمل في الإعراض عن عمد على وجه الاستعارة لأنه إعراض بشبه النسيان في كونه عن غير تأمل ولا بصيرة. وتقدم في قوله تعالى)وتنسون ما تشركون(في سورة الأنعام.

والذكر: القرآن لأنه يتذكر به الحق، وقد تقدم في قوله تعالى) وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون(في سورة الحجر.

صفحة : 2954

والبور: جمع بائر كالعوذ جمع عائذ، والبائر: هو الذي أصابه البوار، أي الهلاك. وتقدم في قوله تعالى)وأحلوا قومهم دار البوار(أي الموت. وقد استعير البور لشدة سوء الحالة بناء على العرف الذي يعد الهلاك آخر ما يبلغ إليه الحي من سوء الحال كما قال تعالى) يهلكون أنفسهم(، أي سوء حالهم في نفس الأمر وهم عنه غافلون. وقيل: البوار الفساد في لغة الأزد وأنه وما اشتق منه مما جاء في القرآن بغير لغة مضر.
واجتلاب فعل)كان(وبناء)بورا(على)قوما(دون أن يقال: حتى نسوا الذكر وباروا للدلالة على تمكن البوار منهم بما تقتضيه) كان(من تمكن معنى الخبر، وما يقتضيه)قوما(من كون البوار من مقومات قوميتهم كما تقدم عند قوله تعالى)لآيات لقوم يعقلون(في سورة البقرة.
)فقد كذبوكم بما تقولون فما يستطيعون صرفا ولا نصرا(.

الفاء فصيحة، أي إفصاح عن حجة بعد تهيئة ما يقتضيها، وهو إفصاح رائع وزاده الالتفات في قوله)كذبوكم(.
وفي الكلام حذف فعل قول يدل عليه المقام. والتقدير: إن قلتم هؤلاء آلهتنا فقد كذبوكم، وقد جاء التصريح بما يدل على القول المحذوف في قول عباس بن الأحنف.

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسـانـا أي إن قلتم ذلك فقد جئنا خراسان. وفي حذف فعل القول في هذه الآية استحضار لصورة المقام كأنه مشاهد غير محكي وكأن السامع آخر الآية قد سمع لهذه المحاورة مباشرة دون حكاية فقرع سمعه شهادة الأصنام عليهم ثم قرع سمعه توجه خطاب التكذيب إلى المشهود عليهم، وهو تفنن بديع في الحكاية يعتمد على تخييل المحكي واقعا، ومنه قوله تعالى)يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر(. فجملة)فقد كذبوكم(الخ مستأنفة ابتدائية هو إقبال على خطاب الحاضرين وهو ضرب من الالتفات مثل قوله تعالى)واستغفري لذنبك(بعد قوله) يوسف أعرض عن هذا(.
والباء في قوله)بما تقولون(يجوز أن تكون بمعنى)في(للظرفية المجازية، أي كذبوكم تكذيبا واقعا فيما تقولون، ويجوز أن تكون للسببية، أي كذبوكم بسبب ما تقولون.
و)ما(موصولة. والذي قالوه هو ما يستفاد من السؤال والجواب وهو أنهم قالوا إنهم دعوهم إلى أن يعبدوهم.
وفرع على الإعلان بتكذيبهم إياهم تأييسهم من الانتفاع بهم في ذلك الموقف إذ بين لهم أنهم لا يستطيعون صرفا، أي صرف ضر عنهم، ولا نصرا، أي إلحاق ضر بمن يغلبهم. ووجه التفريع ما دل عليه قولهم)سبحانك(الذي يقتضي أنهم في موقف العبودية والخضوع.
وقرأ الجمهور)يستطيعون(بياء الغائب، وقرأه حفص بتاء الخطاب على أنه خطاب للمشركين الذين عبدوا الأصنام من دون الله.
)ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا[19](.
تذييل للكلام يشمل عمومه جميع الناس، ويكون خطاب) منكم(لجميع المكلفين. ويفيد ذلك أن المشركين المتحدث عنهم معذبون عذابا كبيرا: والعذاب الكبير هو عذاب جهنم.
)وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق(.
وهذا رد على قولهم)ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق(بعد أن رد عليهم قولهم)أو يلقى إليه كنز أو تكون له

جنة يأكل منها(بقوله)تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك(، ولكن لما كان قولهم)أو يلقى إليه كنز(حالة لم تعط للرسل في الدنيا كان رد قولهم فيها بأن الله أعطاه خيرا من ذلك في الآخرة.
وأما قولهم)ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق(فقد توسلوا به إلى إبطال رسالته بثبوت صفات البشر له، فكان الرد عليهم بأن جميع الرسل كانوا متصفين بصفات البشر، ولم يكن المشركون منكرين وجود رسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم، فقد قالوا)فليأتنا بآية كما أرسل الأولون(، وإذ كانوا موجودين فبالضرورة كانوا يأكلون الطعام إذ هم من البشر ويمشون في أسواق المدن والبادية لأن الدعوة تكون في مجامع الناس. وقد قال موسى)موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى(. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوا قريشا في مجامعهم ونواديهم ويدعوا سائر العرب في عكاظ وفي أيام الموسم.

صفحة : 2955

وجملة)ليأكلون الطعام(في موضع الحال لأن المستثنى منه عموم الأحوال. والتقدير: وما أرسلنا قبلك من المرسلين في حال إلا في حال)إنهم ليأكلون الطعام(. والتوكيد ب)إن(واللام لتحقيق وقوع الحال تنزيلا للمشركين في تناسيهم أحوال الرسل منزلة من ينكر أن يكون الرسل السابقون يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. ولم تقترن جملة الحال بالواو لأن وجود أداة الاستثناء كاف في الربط ولا سيما وقد تأكد الربط بحرف التوكيد فلا يزاد حرف آخر فيتوالى إلى أربعة حروف وهي: إلا، وإن، واللام، ويزاد الواو بخلاف قوله تعالى)وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم(. وقوله)وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون(.
وإنما أبقى الله الرسل على الحالة المعتادة للبشر فيما يرجع إلى أسباب الحياة المادية إذ لا حكمة في تغيير حالهم عن ذلك وإنما يغير الله حياتهم النفسية لأن في تغييرها إعداد نفوسهم لتلقي الفيوضات الإلهية.
ولله تعالى حفاظ على نواميس نظام الخلائق والعوالم لأنه ما خلقها عبثا فهو لا يغيرها إلا بمقدار ما تتعلق به إرادته من تأييد الرسل بالمعجزات ونحو ذلك.
)وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا[20].
تذييل، فضمير الخطاب في قوله)بعضكم(يعم جميع الناس بقرينة السياق، وكلا البعضين مبهم يبينه المقام. وحال الفتنة في كلا

البعضين مختلف، فبعضها فتنة في العقيدة، وبعضها فتنة في الأمن، وبعضها فتنة في الأبدان.
والإخبار عنه ب)فتنة(مجازي لأنه سبب الفتنة، وشمل أحد البعضين النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه، والبعض الآخر المشركين؛ فكان حال الرسول فتنة للمشركين إذ زعموا أن حاله مناف للرسالة فلم يؤمنوا به وكان حال المؤمنين في ضعفهم فتنة للمشركين إذ ترفعوا عن الإيمان الذي يسويهم بهم، فقد كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل وإضرابهم يقولون: إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمار بن ياسر وصهيب وبلال ترفعو علينا إدلالا بالسابقة. وهذا كقول صناديد قوم نوح لا نؤمن حتى تطرد الذي آمنوا بك فقال:)وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون(.
وقال تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم)ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين(.
والكلام تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن إعراض بعض قومه عن الإسلام، ولذلك عقب بقوله)أتصبرون(، وهو استفهام مستعمل في الحث والأمر كقوله)فهل أنتم منتهون(.
وموقع)وكان ربك بصيرا(موقع الحث على الصبر المأمور به، أي هو عليهم بالصابرين، وإيذان بأن الله لا يضيع جزاء الرسول على ما يلاقيه من قومه وأنه ناصره عليهم.
وفي الإسناد إلى وصف الرب مضافا إلى ضمير النبي إلماع إلى هذا الوعد فإن الرب لا يضيع أولياءه كقوله)ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين(أي النصر المحقق.
)وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتوا كبيرا[21](.
حكاية مقالة أخرى من مقالات تكذيبهم الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد عنون عليها في هذه المقالة ب)الذين لا يرجون لقاءنا(وعنون عليهم في المقالات السابقة ب)الذين كفروا(وب)الظالمون(لأن بين هذا الوصف وبين مقالتهم انتقاض، فهم كذبوا بلقاء الآخرة بما فيه من رؤية الله والملائكة، وطلبوا رؤية الله في الدنيا، ونزول الملائكة عليهم في الدنيا، وأرادوا تلقي

الدين من الملائكة أو من الله مباشرة، فكان في حكاية قولهم وذكر وصفهم تعجيب من تناقض مداركهم.

صفحة : 2956

واعلم أن أهل الشرك شهدوا أنفسهم بإنكار البعث وتوهموا أن شبهتهم في إنكاره أقوى حجة لهم في تكذيب الرسل، فمن أجل ذلك أيضا جعل قولهم ذلك طريقا لتعريفهم بالموصول كما قال تعالى:)وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله(في سورة يونس.
و)لولا(حرف تحضيض مستعمل في التعجيز والاستحالة، أي هلا أنزل علينا الملائكة فنؤمن بما جئت به، يعنون أنه إن كان صادقا فليسأل من ربه وسيلة أخرى لإبلاغ الدين إليهم.
ومعنى)لا يرجون(لا يظنون ظنا قريبا، أي يعدون لقاء الله محالا. ومقصدهم من مقالهم أنهم أعلى من أن يتلقوا الدين من رجل مثلهم ولذلك عقب بقوله)لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا(على معنى التعجيب من ازدهائهم وغرورهم الباطل.
والجملة استئناف يتنزل منزلة جواب عن قولهم. والتأكيد بلام القسم لإفادة معنى التعجيب لأن القسم يستعمل في التعجب كقول أحد بني كلاب أو بني نمير أنشده ثعلب في مجالسه والقالي في أماليه:
ألا يا سنا برق على قلل الحمى
لهنك من برق علـي كـريم فإن قوله: من برق، في قوة التمييز وإنما يكون التمييز فيه لما فيه من معنى التعجب.
والاستكبار: مبالغة في التكبر، فالسين والتاء للمبالغة مثل استجاب.
و)في(للظرفية المجازية؛ شبهت أنفسهم بالظروف في تمكن المظروف منها، أي هو استكبار متمكن منهم كقوله تعالى)وفي أنفسكم أفلا تبصرون(.
ويجوز أن تكون)في(للتعليل كما في الحديث)دخلت امرأة النار في هرة حبستها(الحديث، أي استكبروا لأجل عظمة أنفسهم في زعمهم. وليست الظرفية حقيقية لقلة جدوى ذلك؛ إذ من المعلوم أن الاستكبار لا يكون إلا في النفس لأنه من الأفعال النفسية.
والعتو: تجاوز الحد في الظلم، وتقدم في قوله تعالى)وعتوا عن أمر ربهم(في الأعراف. وإنما كان هذا ظلما لأنهم تجاوزوا مقدار ما خولهم الله من القابلية.

وفي هذا إيماء إلى أن النبوة لا تكون بالاكتساب وإنما هي إعداد من الله تعالى قال)الله أعلم حيث يجعل رسالاته(.

)يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا[22](.

استئناف ثان جواب عن مقالتهم، فبعد إبداء التعجيب منها عقب بوعيد لهم فيه حصول بعض ما طلبوا حصوله الآن، أي هم سيرون الملائكة ولكنها رؤية تسوءهم حين يرون زبانية العذاب يسوقونهم إلى النار، ففي هذا الاستئناف تمليح وتهكم بهم لأن ابتداءه مطمع بالاستجابة وآخره مؤيس بالوعيد، فالكلام جرى على طريقة الغيبة لأنه حكاية عن توركهم، والمقصود إبلاغه لهم حين يسمعونه. وانتصب)يوم يرون(على الظرفية ل)لا بشرى(. وتقديم الظرف للاهتمام به لإثارة الطمع وللتشويق إلى تعيين إبانه حتى إذا ورد ما فيه خيبة طمعهم كان له وقع الكآبة على نفوسهم حينما يسمعونه.

وإعادة)يومئذ(تأكيد.

وذكر وصف المجرمين إظهار في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بأنهم مجرمون بعد أن وصفوا بالكفر والظلم واليأس من لقاء الله. وانتفاء البشرى مستعمل في إثبات ضده وهو الحزن.

و)حجرا(بسكر الحاء وسكون الجيم، ويقال بفتح الحاء وضمها على الندرة فهي كلمة يقولونها عند رؤية ما يخاف من إصابته بمنزلة الاستعاذة. قال الخليل وأبو عبيدة: كان الرجل إذا رأى الرجل الذي يخاف منه أن يقتله في الأشهر الحرم يقول له: حجرا محجورا، أي حرام قتلي، وهي عوذة.

و)حجرا(مصدر: حجره، إذا منعه قال تعالى)وحرث حجر(، وهو في هذا الاستعمال لازم النصب على المفعول المطلق المنصوب بفعل مضمر مثل: معاذ الله، وأما رفعه في قول الراجز:

قال فيها حيدة وذعـر عوذ بربي

منكم وحجر فهو تصرف فيه، ولعله عند سيبويه ضرورة لأنه لم يذكر الرفع في استعمال هذه الكلمات في هذا الغرض وهو الذي حكاه الراجز. وأما رفع)حجر(في غير حالة استعماله للتعوذ فلا مانع منه لأنه الأصل وقد جاء في القرآن منصوبا لا على المفعولية المطلقة في قوله تعالى)وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا(، فإنه معطوف على مفعول)جعل(وسننبه عليه قريبا.

و)محجورا(وصف ل)حجرا(مشتق من مادته للدلالة على تمكن المعنى المشتق منه كما قالوا: ليل أليل. وذيل ذائل، وشعر شاعر.
)وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلنه هباء منثورا[23](.
كانوا في الجاهلية يعدون الأعمال الصالحة مجلبة لخير الدنيا لأنها ترضي الله تعالى فيجازيهم بنعم في الدنيا إذا كانوا لا يؤمنون بالبعث، وقد قالت خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم حين تحير في أمر ما بدأه من الوحي وقال لها:)لقد خشيت على نفسي(، فقالت)والله لا يخزيك الله أبدا. إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق(. فالظاهر أن المشركين إذا سمعوا آيات الوعيد يقولون في أنفسهم: لئن كان البعث حقا لنجدن أعمالا عملناها من البر تكون سببا لنجاتنا، فعلم الله ما في نفوسهم فأخبر بأن أعمالهم تكون كالعدم يومئذ.
والقدوم مستعمل في معنى العمد والإرادة، وأفعال المشي والمجىء تجيء في الاستعمال لمعاني القصد والعزم والشروع مثل: قام يفعل، وذهب يقول، وأقبل، ونحوها. وأصل ذلك ناشئ عن تمثيل حال العامد إلى فعل باهتمام بحال من يمشي إليه، فموقعه في الكلام أرشق من أن يقول: وعمدناه، أو أردنا إلى ما عملوا.
و)من(في قوله)من عمل(بيانية لإبهام)ما(وتنكير)عمل(للنوعية والمراد به عمل الخير، أي إلى ما عملوه من جنس عمل الخير.
والهباء: كائنات جسمية دقيقة لا ترى إلا في أشعة الشمس المنحصرة في كوة ونحوها، تلوح كأنها سابحة في الهواء وهي أدق من الغبار، أي فجعلناه كهباء منثور، وهو تشبيه لأعمالهم في عدم الانتفاع بها مع كونها موجودة بالهباء في عدم إمساكه مع كونه موجودا، وهذا تشبيه بليغ وهو هنا رشيق. ونظيره قوله تعالى)وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا(.
والمنثور: غير المنتظم، وهو وصف كاشف لأن الهباء لا يكون إلا منثورا، فذكر هذا الوصف للإشارة إلى ما في الهباء من الحقارة ومن التفرق.
)أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا[24](.
استئناف ابتدائي جيء به لمقابلة حال المشركين في الآخرة بضدها من حال أصحاب الجنة وهم المؤمنون لأنه لما وصف حال المشركين في الآخرة علم أن لا حظ لهم في الجنة فتعينت الجنة لغير المشركين يومئذ وهم المؤمنون، إذ أهل مكة في وقت نزول هذه الآية فريقان مشركون مؤمنون. فمعنى الكلام: المؤمنون يومئذ هم أصحاب الجنة وهم خير مستقرا وأحسن مقيلا.
والخير هنا: تفضيل، وهو تهكم بالمشركين، وكذلك)أحسن(.
والمستقر: مكان الاستقرار.

والمقيل: المكان الذي يؤوى إليه في القيلولة والاستراحة في ذلك الوقت من عادة المترفين.
)ويوم تشقق السماء بالغمم ونزل الملائكة تنزيلا[25] الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكفرين عسيرا[26](.
عطف على جملة)يوم يرون الملائكة(. والمقصود تأييسهم من الانتفاع بأعمالهم وبآلهتهم وعيدهم. وأدمج في ذلك وصف بعض شؤون ذلك اليوم، وأنه يوم تنزيل الملائكة بمرأى من الناس.
وأعيد لفظ)يوم(على طريقة الإظهار في مقام الإضمار وإن كان ذلك يوما واحدا لبعد ما بين المعاد ومكان الضمير.
والتشقق: التفتح بين أجزاء ملتئمة، ومنه)إذا السماء انشقت(. ولعله انخراق يحصل في كور تلك العوالم، والذين قالوا: السماوات لا تقبل الخرق ثم الالتئام بنوه على تخيلهم إياها كقباب من معادن صلبة، والحكماء لم يصلوا إلى حقيقتها حتى الآن.
وتشقق السماء حالة عجيبة تظهر يوم القيامة، ومعناه زوال الحواجز والحدود التي كانت تمنع الملائكة من مبارحة سماواتهم إلا من يؤذن له بذلك، فاللام في الملائكة للاستغراق، أي بين جمع الملائكة فهو بمنزلة أن يقال: يوم تفتح أبواب السماء. قال)وفتحت السماء فكانت أبوابا(؛ على أن التشقق يستعمل في معنى انجلاء النور كما قال النابغة.

فانشق عنهاعمود الصبح جـافـلة عدو

النحوص تخاف القانص اللحما وحاصل المعنى: أن هنالك انبثاقا وانتفاقا يقارنه نزول الملائكة لأن ذلك الانشقاق إذن للملائكة بالحضور إلى موقع الحشر والحساب.
والتعبير بالتنزيل يقتضي أن السماوات التي تنشق عن الملائكة أعلى من مكان حضور الملائكة.

صفحة : 2958

وقرأ الجمهور)تشقق(بتشديد الشين. وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الشين.
والغمام: السحاب الرقيق. وهو ما يغشى مكان الحساب قال تعالى)هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر(تقدم في سورة البقرة.
والباء في قوله)بالغمام(قيل بمعنى)عن(، أي تشقق عن غمام يحف بالملائكة. وقيل للسببية، أي يكون غمام يخلقه الله فيه قوة

تنشق بها السماء لينزل الملائكة مثل قوة البرق التي تشق السحاب. وقيل الباء للملابسة، أي تشقق ملابسة لغمام يظهر حينئذ. وليس في الآية ما يقتضي مقارنة التشقق لنزول الملائكة ولا مقارنة الغمام للملائكة، فدع الفهم يذهب في ترتيب ذلك كل مذهب ممكن.

وأكد)نزل الملائكة(بالمفعول المطلق لإفادة أنه نزول بالذات لا بمجرد الاتصال النوراني مثل الخواطر الملكية التي تشعشع في نفوس أهل الكمال.

وقرأ الجمهور)ونزل الملائكة(بنون واحدة وتشديد الزاي وفتح اللام ورفع)الملائكة(مبنيا للنائب. وقراه ابن كثير)وننزل(بنونين أولاهما مضمومة والثانية ساكنة وبضم اللام ونصب)الملائكة(.

وقوله)الملك يومئذ(هو صدر الجملة المعطوفة فيتعلق به)يوم تشقق السماء بالغمام(، وإنما قدم عليه للوجه المذكور في تقديم قوله)يوم يرون الملائكة(وكذلك القول في تكرير)يومئذ(.

والحق: الخالص، كقولك: هذا ذهب حقا. وهو الملك الظاهر أنه لا يماثله ملك لأن حالة الملك في الدنيا متفاوتة. والملك الكامل إنما هو لله، ولكن العقول قد لا تلتفت إلى ما في الملوك من نقص وعجز وتبهرهم بهرجة تصرفاتهم وعطاياهم فينسون الحقائق، فأما في ذلك اليوم فالحقائق منكشفة وليس ثمة من يدعي شيئا من التصرف، وفي الحديث ثم يقول الله: أنا الملك أين ملوك الأرض .

ووصف اليوم بعسير باعتبار ما فيه من أمور عسيرة على المشركين.

وتقديم)على الكافرين(للحصر. وهو قصر إضافي، أي دون المؤمنين.

)ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا[27] يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلنا خليلا[28] لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا[29](.

هذا هو ذلك اليوم أعيد الكلام عليه باعتبار حال آخر من أحوال المشركين فيه، أو باعتبار حال بعض المشركين المقصود من الآية.

والتعريف في)الظالم(يجوز أن يكون للاستغراق. والمراد بالظلم الشرك فيعم جميع المشركين الذين أشركوا بعد ظهور الدعوة المحمدية بقرينة قوله)يقول: يا ليتني أتخذت مع الرسول سبيلا(، ويكون قوله)ليتني لم أتخذ فلانا خليلا(إعلاما بما لا تخلو عنه صحبة بعضهم مع بعض وإغراء بعضهم بعضا على مناواة الإسلام.

ويجوز أن يكون للعهد المخصوص. والمراد بالظلم الاعتداء الخاص المعهود من قصة معينة وهي قصة عقبة بن أبي معيط وما أغراه

به أبي بن خلف. قال الواحدي وغيره عن الشعبي وغيره: كان عقبة بن أبي معيط خليلا لأمية بن خلف، وكان عقبة لا يقدم من سفر إلا صنع طعاما ودعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم، فقدم من بعض أسفاره فصنع طعاما ودعا رسول الله فلما قربوا الطعام قال رسول الله: ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا اله إلا الله، فقال عقبة: أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فأكل رسول الله من طعامه. وكان أبي بن خلف غائبا فلما قدم أخبر بقضيته، فقال: صبأت يا عقبة. قال: والله ما صبأت ولكن دخل علي رجل فأبي أن يأكل من طعامي حتى أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له فطعم، فقال أبي: ما أنا بالذي أرضى عنك أبدا إلا أن تأتيه فتبصق في وجهه، فكفر عقبة وأخذ في امتثال ما امره به أمية بن خلف، فيكون المراد ب)فلان(الكناية عن أبي بن خلف فخصوصه يقتضي لحاق أمثاله من المشركين الذين أطاعوا أخلتهم في الشرك ولم يتبعوا سبيل الرسول، ولا يخلو أحد من المشركين عن خليل مشرك مثله يصده عن متابعة الإسلام إذا هم بها ويثبته على دين الشرك فيتندم يوم الجزاء على طاعته ويذكره باسمه.

صفحة : 2959

والعض: الشد بالأسنان على الشيء ليؤلمه أو ليمسكه، وحقه التعدية بنفسه إلا أنه كثرت تعديته ب)على(لإفادة التمكن من المعضوض إذا قصدوا عضا شديدا كما في هذه الآية.
والعض على اليد كناية عن الندامة لأنهم تعارفوا في بعض أغراض الكلام أن يصحبوها بحركات بالجسد مثل التشذر، وهو رفع اليد عن كلام الغضب قال لبيد:
غلب تشذر بالدخول كأنهم جن البدي
رواسيا أقدامها ومثل وضع اليد على الفم عند التعجب قال تعالى) فردوا أيديهم في أفواههم(. ومنه في الندم قرع السن بالأصبع، وعض السبابة، وعض اليد. ويقال: حرق أسنانه وحرق الأرم)بوزن ركع(الأضراس أو أطراف الأصابع، وفي الغيض عض الأنامل قال تعالى)عضوا عليكم الأنامل من الغيظ(في سورة آل عمران، وكانت كنايات بناء على ما يلازمها في العرف من معان نفسية، وأصل نشأتها عن تهيج القوة العصبية من جراء غضب أو تلهف.
والرسول: هو المعهود وهي محمد صلى الله عليه وسلم.

واتخاذ السبيل: أخذه، وأصل الأخذ: التناول باليد، فأطلق هنا على قصد السير فيه قال تعالى)واتخذ سبيله في البحر(.
و)مع الرسول(أي متابعا للرسول كما يتابع المسافر دليلا يسلك به أحسن الطرق وأفضاها إلى المكان المقصود. وإنما عدل عن الإتيان بفعل الاتباع ونحوه بأن يقال: يا ليتني اتبعت الرسول، إلى هذا التركيب المطنب لأن في هذا التركيب تمثيل هيئة الاقتداء بهيئة مسايرة الدليل تمثيلا محتويا على تشبيه دعوة الرسول بالسبيل، ومتضمنا تشبيه ما يحصل عن سلوك ذلك السبيل من النجاة ببلوغ السائر إلى الموضع المقصود فكان حصول هذه المعاني صائرا بالإطناب إلى إيجاز، وأما لفظ المتابعة فقد شاع إطلاقه على الاقتداء فهو غير مشعر بهذا التمثيل. وعلم أن هذا السبيل سبيل نجاح من تمناه لأن التمني طلب الأمر المحجوب العزيز المنال.
و)يا ليتني(نداء للكلام الدال على التمني بتنزيل الكلمة منزلة العاقل الذي يطلب حضوره لأن الحاجة تدعو إليه في حالة الندامة، كأنه يقول: هذا مقامك فاحضري، على نحو قوله)يا حسرتنا على ما فرطنا فيها(في سورة الأنعام. وهذا النداء يزيد المتمني استبعادا للحصول.
وكذلك قوله)يا ويلتا(هو تحسر بطريق نداء الويل. والويل: سوء الحال، والألف عوض عن ياء المتكلم، وهو تعويض مشهور في نداء المضاف إلى ياء المتكلم.
وقد تقدم الكلام على الويل في قوله تعالى)فويل للذين يكتبون الكتاب(في سورة البقرة. وعلى)يا ويلتنا(في قوله)يا ويلتنا ما لهذا الكتاب(في سورة الكهف.
وأتبع التحسر بتمني أن لا يكون اتخذ فلانا خليلا.
وجملة)ليتني لم اتخذ فلانا خليلا(بدل من جملة)ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا(بدل اشتمال لأن اتباع سبيل الرسول يشتمل على نبذ خلة الذين يصدون عن سبيله فتمني وقوع أولهما يشتمل على تمني وقوع الثاني.
وجملة)يا ويلتا(معترضة بين جملة)يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا(وجملة)ليتني لم اتخذ فلانا خليلا(.
و)فلان(: اسم يكنى عمن لا يذكر اسمه العلم، كما يكنى ب)فلانة(عمن لا يراد ذكر اسمها العلم سواء كان ذلك في الحكاية أم في غيرها. قاله ابن السكيت وابن مالك خلافا لابن السراج وابن الحاجب في اشتراط وقوعه في حكاية بالقول، يعامل)فلان(معاملة العلم المقرون بالنون الزائدة و)فلانة(معاملة العلم المقترن بهاء التأنيث، وقد جمعهما قول الشاعر:

ألا قاتل الله الوشاة وقولهم فلانة

أضحت خلة لفلان أراد نفسه وحبيبته.

وقال المرار العبسي:

وإذا فلان مات عن أكرومة دفعوا

معاوز فقده بفـلان أرادا: إذا مات من له اسم منهم أخلفوه بغيره في السؤدد، وكذلك قول معن بن أوس:

وحتى سألت القرض من كل ذي

الغنى ورد فلان حاجتي وفلان وقال أبو زيد في نوادره: أنشدني المفضل لرجل من ضبة هلك منذ أكثر من مائة سنة، أي في أواسط القرن الأول للهجرة:

إن لسعد عندنا ديوانـا يخزي فلانا

وابنه فلانا

صفحة : 2960

والداعي إلى الكناية بفلان إما قصد إخفاء اسمه خيفة عليه أو خيفة من أهلهم أو للجهل به، أو لعدم الفائدة لذكره، أو لقصد نوع من له اسم علم. وهذان الأخيران هما اللذان يجريان في هذه الآية إن حملت على إرادة خصوص عقبة وأبي أو حملت على إرادة كل مشرك له خليل صده عن اتباع الإسلام.

وإنما تمنى أن لا يكون اتخذه خليلا دون تمني أن يكون عصاه فيما سول له قصدا للاشمئزاز من خلته من أصلها إذ كان الإضلال من أحوالها.

وفيه إيماء إلى أن شان الخلة الثقة بالخليل وحمل مشورته على النصح فلا ينبغي أن يضع المرء خلته إلا حيث يوقن بالسلامة من إشارات السوء قال الله تعالى)يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا(فعلى من يريد اصطفاء خليل أن يسير سيرته في خويصته فإنه سيحمل من يخاله عل ما يسير به لنفسه، وقد قال خالد بن زهير وهو ابن أخت أبي ذؤيب الهذلي:

فأول راض سنة من يسيرها وهذا عندي هو محمل قول النبي صلى الله عليه وسلم:)لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا(فإن مقام النبوءة يستدعي من الأخلاق ما هو فوق مكارم الأخلاق المتعارفة في الناس فلا يليق به إلا متابعة ما لله من الكمالات بقدر الطاقة ولهذا قالت عائشة: كان خلقه القرآن. وعلمنا بهذا أن أبا بكر أفضل الأمة مكارم أخلاق بعد النبي صلى الله عليه وسلم لأن النبي جعله المخير لخلته لو كان متخذا خليلا غير الله.

وجملة)لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني(تعليلة لتمنيه أن لا يكون اتخذ فلانا خليلا بأنه قد صدر عن خلته أعظم خسران لخليله إذ أضله عن الحق بعد أن كاد يتمكن منه.

وقوله)أضلني عن الذكر(معناه سول لي الانصراف عن الحق.

والضلال: إضاعة الطريق وخطؤه بحيث يسلك طريقا غير المقصود فيقع في غير المكان الذي أراده وإنما وقع في أرض العدو أو في مسبعة. ويستعار الضلال للحياد عن الحق والرشد إلى الباطل والسفه كما يستعار ضده وهو الهدى)الذي هو إصابة الطريق(لمعرفة الحق والصواب حتى تساوى المعنيان الحقيقان والمعنيان المجازيان لكثرة الاستعمال، ولذلك سموا الدليل الذي يسلك بالركب الطريق المقصود هاديا.

والإضلال مستعار هنا للصرف عن الحق لمناسبة استعاره السبيل لهدى الرسول وليس مستعملا هنا في المعنى الذي غلب على الباطل بقرينة تعديته بحرف)عن(في قوله)عن الذكر(فإنه لو كان الإضلال هو تسويل الضلال لما احتاج إلى تعديته ولكن أريد هنا متابعة التمثيل السابق. ففي قوله)أضلني(مكنية تقتضي تشبيه الذكر بالسبيل الموصول إلى المنجى، وإثبات الإضلال عنه تخييل كإثبات الأظفار للمنية فهذه نكت من بلاغة نظم الآية.

والذكر: هو القرآن، أي نهاني عن التدبر فيه والاستماع له بعد أن قاربت فهمه.

والمجيء في قوله)إذ جاءني(مستعمل في إسماعه القرآن فكأن القرآن جاء حل عنده. ومنه قولهم: أتاني نبأ كذا، قال النابغة:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني فإذا حمل الظالم في قوله)ويوم يعض الظالم على يديه(على معين وهو عقبة ابن أبي معيط فمعنى مجيء الذكر إياه أنه كان يجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويأنس إليه حتى صرفه عن ذلك أبي بن خلف وحمله على عداوته وأذاته، وإذا حمل الظالم على العموم فمجيء الذكر هو شيوع القرآن بينهم، وإمكان استماعهم إياه. وإضلال خلانهم إياهم صرف كل واحد خليله عن ذلك، وتعاون بعضهم على بعض في ذلك.

وقيل الذكر: كلمة الشهادة، بناء على تخصيص الظالم بعقبة بن أبي معيط كما تقدم، وتأتي في ذلك الوجوه المتقدمة؛ فإن كلمة الشهادة لما كانت سبب النجاة مثلت بسبيل الرسول الهادي، ومثل الصرف عنها بالإضلال عن السبيل.

و)إذ(ظرف للزمن الماضي، أي بعد وقت جاءني فيه الذكر، والإتيان بالظرف هنا دون أن يقال: بعد ما جاءني، أو بعد أن جاءني، للإشارة إلى شدة التمكن من الذكر لأنه قد استقر في زمن

وتحقق، ومنه قوله تعالى)وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم(أي تمكن هديه منهم.

صفحة : 2961

وجملة)وكان الشيطان للإنسان خذولا(تذييل من كلام الله تعالى لا من كلام الظالم تنبيها للناس على أن كل هذا الإضلال من عمل الشيطان فهو الذي يسول لخليل الظالم إضلال خليله لأن الشيطان خذول الإنسان، أي مجبول على شدة خذله.
والخذل: ترك نصر المستنجد مع القدرة على نصره، وقد تقدم عند قوله تعالى)وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده(في سورة آل عمران.
فإذا أعان على الهزيمة فهو أشد الخذل، وهو المقصود من صيغة المبالغة في وصف الشيطان بخذل الإنسان لأن الشيطان يكيد الإنسان فيورطه في الضر فهو خذول.
)وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا[30](.
عطف على أقوال المشركين ومناسبته لقوله)لقد أضلني عن الذكر(أن الذكر هو القرآن فحكيت شكاية الرسول إلى ربه قومه من نبذهم القرآن بتسويل زعمائهم وسادتهم الذين أضلوهم عن القرآن، أي عن التأمل فيه بعد أن جاءهم وتمكنوا من النظر، وهذا القول واقع في الدنيا والرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وهو خبر مستعمل في الشكاية.
والمقصود من حكاية قول الرسول إنذار قريش بان الرسول توجه إلى ربه في هذا الشأن فهو يستنصر به ويوشك أن ينصره، وتأكيده ب)إن(للاهتمام به ليكون التشكي أقوى. والتعبير عن قريش ب)قومي(لزيادة التذمر من فعلهم معه لأن شأن قوم الرجل أن يوافقوه.
وفعل الاتخاذ إذا قيد بحالة يفيد شدة اعتناء المتخذ بتلك الحالة بحيث ارتكب الفعل لأجلها وجعله لها قصدا. فهذا أشد مبالغة في هجرهم القرآن من أن يقال: إن قومي هجروا القرآن.
واسم الإشارة في)هذا القرآن(لتعظيمه وأن مثله لا يتخذ مهجورا بل هو جدير بالإقبال عليه والانتفاع به.
والمهجور: المتروك والمفارق. والمراد هنا ترك الاعتناء به وسماعه.
)وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا[31](.

هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن ما لقيه من بعض قومه هو سنة من سنن الأمم مع أنبيائهم. وفيه تنبيه للمشركين ليعرضوا أحوالهم على هذا الحكم التاريخي فيعلموا أن حالهم كحال من كذبوا من قوم نوح وعاد وثمود.

والقول في قوله)وكذلك(تقدم في قوله تعالى)وكذلك جعلناكم أمة وسطا(. والعدو: اسم يقع على المفرد والجمع والمراد هنا الجمع.

ووصف أعداء الأنبياء بأنهم من المجرمين، أي من جملة المجرمين، فإن الإجرام أعم من عداوة الأنبياء وهو أعظمها. وإنما أريد هنا تحقيق انضواء أعداء الأنبياء في زمرة المجرمين، لأن ذلك أبلغ في الوصف من أن يقال: عدوا مجرمين كما تقدم عند قوله تعالى)قال أعوذ بالله ان أكون من الجاهلين(في سورة البقرة.

وأعقب التسلية بالوعد بهداية كثير ممن هم يومئذ معرضون عنه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:)لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده(وبأنه ينصره على الذين يصرون على عداوته لأن قوله)وكفى بربك هاديا ونصيرا(تعريض بأن يفوض الأمر إليه فإنه كاف في الهداية والنصر.

والباء في قوله)بربك(تأكيد لاتصال الفاعل بالفعل. وأصله: كفى ربك في هذه الحالة.

)وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة وحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلنه ترتيلا[32](.

صفحة : 2962

عود إلى معاذيرهم وتعلالاتهم الفاسدة إذ طعنوا في القرآن بأنه نزل منجما وقالوا: لو كان من عند الله لنزل كتابا جملة واحدة. وضمير)قالوا(ظاهر في أنه عائد إلى المشركين، وهذه جهالة منهم بنسبة كتب الرسل فإنها لم ينزل شيء منها جملة واحدة وإنما كانت وحيا مفرقا؛ فالتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام في الألواح هي عشرة كلمات بمقدار سورة الليل في القرآن، وما كان الإنجيل إلا أقوالا ينطق بها عيسى عليه السلام في الملأ، وكذلك الزبور نزل قطعا كثيرة، فالمشركون نسبوا ذلك أو جهلوا فقالوا: هلا نزل القرآن على محمد جملة واحدة فنعلم أنه رسول الله. وقيل: إن قائل هذا اليهود أو النصارى فإن صح ذلك فهو بهتان منهم لأنهم يعلمون أنه لم تنزل التوراة والإنجيل والزبور إلا مفرقة. فخوض المفسرين في بيان الفرق بين حالة رسولنا من الأمية وحالة الرسل

الذين أنزلت عليهم الكتب اشتغال بما لا طائل فيه فإن تلك الكتب لم تنزل أسفارا تامة قط.

و)نزل(هنا مرادف انزل وليس فيه إيذان بما يدل عليه التفعيل من التكثير كما تقدم في المقدمة الأولى من مقدمات هذا التفسير بقرينة قولهم)جملة واحدة(.

وقد جاء قوله)كذلك لنثبت به فؤادك(ردا على طعنهم فهو كلام مستأنف فيه رد لما أرادوه من قولهم)لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة(. وعدل فيه عن خطابهم إلى خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام إعلاما له بحكمة تنزيله مفرقا، وفي ضمنه امتنان على الرسول بما فيه تثبيت قلبه والتيسير عليه.

وقوله)كذلك(جواب عن قولهم)لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة(إشارة إلى الإنزال المفهوم من)لولا نزل عليهم القرآن(وهو حالة إنزال القرآن منجما، أي أنزلناه كذلك الإنزال، أي المنجم، أي كذلك الإنزال الذي جهلوا حكمته، فاسم الإشارة في محل نصب على أنه نائب عن مفعول مطلق جاء بدلا عن الفعل. فالتقدير: أنزلناه إنزالا كذلك الإنزال المنجم. فموقع جملة)كذلك(موقع الاستئناف في المحاورة. واللام في)لنثبت(متعلقة بالفعل المقدر الذي دل عليه)كذلك(. والتثبيت: جعل الشيء ثابتا. والثبات: استقرار الشيء في مكانه غير متزلزل قال تعالى)كشجرة طيبة أصلها ثابت(. ويستعار الثبات لليقين وللاطمئنان بحصول الخير لصاحبه قال تعالى)لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا(، وهي استعارات شائعة مبنية على تشبيه حصول الاحتمالات في النفس باضطراب الشيء في المكان تشبيه معقول بمحسوس. والفؤاد: هنا العقل. وتثبيته بذلك الإنزال جعله ثابتا في ألفاظه ومعانيه لا يضطرب فيه.

وجاء في بيان حكمة إنزال القرآن منجما بكلمة جامعة وهي)لنثبت به فؤادك(لأن تثبيت الفؤاد يقتضي كل ما به خير للنفس، فمنه ما قاله الزمخشري: الحكمة في تفريقه أن نقوي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه، لأن المتلقن إنما يقوي قلبه على حفظ العلم يلقى إليه إذ ألقي إليه شيئا بعد شيء وجزءا عقب جزء، وما قاله أيضا) أنه كان ينزل على حسب الدواعي والحوادث وجوابات السائلين(اه، أي فيكونون أوعى لما ينزل فيه لأنهم بحاجة إلى علمه، فيكثر العمل بما فيه وذلك مما يثبت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم ويشرح صدره.

وما قاله بعد ذلك)إن تنزيله مفرقا وتحديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفارق كلما نزل شيء منها، أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة(اه.

ومنه ما قال الجد الوزير رحمه الله: إن القرآن لو لم ينزل منجما على حسب الحوادث لما ظهر في كثير من آياته مطابقتها لمقتضى الحال ومناسبتها للمقام وذلك من تمام إعجازها. وقلت: إن نزوله منجما أعون لحفاظه على فهمه وتدبره.
وقوله)ورتلناه ترتيلا(عطف على قوله)كذلك(، أنزلناه منجما ورتلناه، والترتيل يوصف به الكلام إذا كان حسن التأليف بين الدلالة. واتفقت أقوال أئمة اللغة على أن هذا الترتيل مأخوذ من قولهم: ثغر مرتل ورتل، وإذا كانت أسنانه مفلجة تشبه نور الأقحوان. ولم يوردوا شاهدا عليه من كلام العرب.

صفحة : 2963

والترتيل يجوز أن يكون حالة لنزول القرآن، أي نزلنا مفرقا منسقا في ألفاظه ومعانيه غير متراكم فهو مفرق في الزمان فإذا كمل إنزال سورة جاءت آياتها مرتبة متناسبة كأنها أنزلت جملة واحدة، ومفرق في التأليف بأنه مفصل واضح. وفي هذا إشارة إلى أن ذلك من دلائل أنه من عند الله لأن شأن كلام الناس إذا فرق تأليفه على أزمنة متباعدة أن يعتوره التفكك وعدم تشابه الجمل.
ويجوز أن يراد ب)رتلناه(أمرنا بترتيله، أي بقراءته مرتلا، أي بتمهل بأن لا يعجل في قراءته بأن تبين جميع الحروف والحركات بمهل، وهو المذكور في سورة المزمل في قوله تعالى)ورتل القرآن ترتيلا(.
و)ترتيلا(مصدر منصوب على المعفول المطلق قصد به ما في التنكير من معنى التعظيم فصار المصدر مبنيا لنوع الترتيل.
)ولا يأتونك بمثل إلا جئنك بالحق وأحسن تفسيرا[33](.
لما استقصى أكثر معاذيرهم وتعللاتهم وألقمهم أحجار الرد إلى لهواتهم عطف على ذلك فذلكة جامعة تعم ما تقدم وما عسى أن يأتوا به من الشكوك والتمويه بأن كل ذلك مدحوض بالحجة الواضحة الكاشفة لترهاتهم.
والمثل: المشابه. وفعل الإتيان مجاز في أقوالهم والمحاجة به، وتنكير)مثل(في سياق النفي للتعميم، أي بكل مثل. والمقصود: مثل من نوع ما تقدم من أمثالهم المتقدمة ابتداء من قوله)وقال الذي كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون(،)وقالوا أساطير الأولين(بقرينة سوق هذه الجملة عقب استقصاء شبهتهم،) وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام( )وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحور( )وقال الذين لا يرجون لقاءنا لو لا أنزل علينا

الملائكة( )وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة(. ودل على إرادة هذا المعنى من قوله)بمثل(قوله آنفا)انظر كيف ضربوا لك الأمثال(عقب قوله)وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا(. وتعدية فعل)يأتونك(إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم لإفادة أن إتيانهم الأمثال يقصدون به أن يفحموه.

والإتيان مستعمل مجازا في الإظهار. والمعنى: لا يأتونك بشبه يشبهون به حالا من أحوالك يبتغون إظهار أن حالك لا يشبه حال رسول من الله إلا أبطلنا تشبيههم وأريناهم أن حالة الرسالة عن الله لا تلازم ما زعموه سواء كان ما أتوا به تشبيها صريحا بأحوال غير الرسل كقولهم)أساطير الأولين أكتتبها(وقولهم)ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق(، وقولهم)إن تتبعون إلا رجلا مسحورا(، أم كان نفي مشابهة حاله بأحوال الرسل في زعمهم فإن نفي مشابهة الشيء يقتضي إثبات ضده كقولهم)لو لا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا(وكذلك قولهم)لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة(إذا كانوا قالوه على معنى أنه مخالف لحال نزول التوراة والإنجيل. فهذا نفي تمثيل حال الرسول صلى الله عليه وسلم بحال الرسل الأسبقين في زعمهم، ويدخل في هذا النوع ما يزعمون أنه تقتضيه النبوءة من المكانة عند الله أن يسأله، فيجاب إليه كقولهم)لو لا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها(.

وصيغة المضارع في قوله)ولا يأتونك(تشمل ما عسى أن يأتوا به من هذا النوع كقولهم)أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا(.

والاستثناء في قوله)إلا جئناك بالحق(استثناء من أحوال عامة يقتضيها عموم الأمثال لأن عموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال.

وجملة)جئناك(حالية كما تقدم في قوله)وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا إنهم ليأكلون الطعام(.

قوله) جئناك بالحق(مقابل قوله)لا يأتونك بمثل(وهو مجيء مجازي ومقابلة)جئناك بالحق(لقوله)ولا يأتونك بمثل(إشارة إلى أن ما يأتون به باطل. مثال ذلك أن قولهم)ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق(، أبطله قوله)وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق(.

والتعبير في جانب ما يؤيده الله من الحجة ب)جئناك(دون: أتيناك، كما عبر عما يجيئون به ب)يأتونك(، إما لمجرد التفنن، وإما لأن فعل الإتيان إذا استعمل مجازا كثر فيما يسوء وما يكره، كالوعيد والهجاء قال شقيق بن شريك الأسدي:

أتاني من أبي أنـس وعـيد فسل

لغيظة الضحاك جسمي وقول النابغة:

أتانيأبيت اللعنأنك لمتني وقوله:
فليأتينك قصائد وليدفعـن جيشا إليك
قوادم الأكوار يريد قصائد الهجاء. وقول الملائكة للوط)وأتيناك بالحق(أي عذاب قومه ولذلك قالوا له في المجيء الحقيقي)بل جئناك بما كانوا فيه يمترون(. وتقدم في سورة الحجر، وقال الله تعالى)أتاها أمرنا ليلا أو نهارا( )أتى أمر الله فلا تستعجلوه( )فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا(. بخلاف فعل المجيء إذا استعمل في مجازه فأكثر ما يستعمل في وصول الخير والوعد والنصر والشيء العظيم، قال تعالى)قد جاءكم برهان من ربكم( )وجاء ربك والملك صفا صفا( )إذا جاء نصر الله(، وفي حديث الإسراء: ..مرحبا به ونعم المجيء جاء ،)وقل جاء الحق وزهق الباطل(، وقد يكون متعلق الفعل ذا وجهين باختلاف الاعتبار فيطلق كلا الفعلين نحو)حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور(، فإن الأمر هنا منظور فيه إلى كونه تأييدا نافعا لنوح.
والتفسير: البيان والكشف عن المعنى، وقد تقدم ما يتعلق به مفصلا في المقدمة الأولى من مقدمات هذا الكتاب، والمراد هنا كشف الحجة والدليل.
ومعنى كونه أحسن، أنه أحق في الاستدلال، فالتفضيل للمبالغة إذ ليس في حجتهم حسن أو يراد بالحسن ما يبدو من بهرجة سفسطتهم وشبههم فيجيء الكشف عن الحق أحسن وقعا في نفوس السامعين من مغالطاتهم، فيكون التفضيل بهذا الوجه على حقيقته فهذه نكتة من دقائق الاستعمال ودقائق التنزيل.
)الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا[34](.
استئناف ابتدائي لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم، ولوعيد المشركين وذمهم.
والموصول واقع موقع الضمير كأنه قيل: هم يحشرون على وجوههم، فيكون الضمير عائدا إلى الذين كفروا من قوله)وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة(إظهار في مقام الإضمار لتحصيل فائدة أن أصحاب الضمير ثبت لهم مضمون الصلة، وليبني على الصلة موقع اسم الإشارة، ومقتضى ظاهر النظم أن يقال: ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا هم شر مكانا وأضل سبيلا ونحشرهم على وجوههم إلى جهنم، كما قال في سورة

الإسراء)ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم(عقب قوله)وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا(ويعلم من السياق بطريق التعريض أن الذين يحشرون على وجوههم هم الذين يأتون بالأمثال تكذيبا للنبي صلى الله عليه وسلم. وإذ كان قصدهم مما يأتون به من الأمثال تنقيص شأن النبي ذكروا بأنهم أهل شر المكان وضلال السبيل دون النبي صلى الله عليه وسلم. فالموصول مبتدأ واسم الإشارة خبر عنه.

وقد تقدم معنى)يحشرون على وجوههم(في سورة الإسراء عند قوله)ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم(. وتقدم ذكر الحديث في السؤال عن كيف يمشون على وجوههم.

وشر: اسم تفضيل. وأصله أشر وصيغتا التفضيل في قوله)شر، وأضل(مستعملتان للمبالغة في الاتصاف بالشر والضلال كقوله)قال أنتم شر مكانا(في جواب قوله اخوة يوسف)إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل(.

وتعريف جزأي الجملة يفيد القصر وهو قصر للمبالغة بتنزيلهم منزلة من انحصر الشر والضلال فيهم. وروي عن مقاتل أن الكفار قالوا للمسلمين: هم شر الخلق فنزلت هذه الآية فيكون القصر قصر قلب، أي هم شر مكانا وأضل سبيلا لا المسلمون، وصيغتا التفضيل مسلوبتا المفاضلة على كلا الوجهين.

والمكان: المقر. والسبيل: الطريق، مكانهم جهنم، وطريقهم الطريق الموصول إليها وهو الذي يحشرون فيه على وجوههم.

والإتيان باسم الإشارة عقب ما تقدم للتنبيه على أن المشار إليهم أحرياء بالمكان الأشر والسبيل الأضل، لأجل ما سبق من أحوالهم التي منها قولهم)لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة(.

و)سبيلا(تمييز محول عن الفاعل، فأصله: وضل سبيلهم. وإسناد الضلال إلى السبيل في التركيب المحول عنه مجاز عقلي لأن السبيل سبب ضلالهم.

) ولقد آتينا موسى الكتب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا[35(]فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرنهم تدميرا[36](.

صفحة : 2965

لما جرى الوعيد والتسلية بذكر حال المكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام عطف على ذلك تمثيلهم بالأمم المكذبين رسلهم ليحصل من ذلك موعظة هؤلاء وزيادة تسلية الرسول والتعريض بوعده بالانتصار له.

وابتدئ بذكر موسى وقومه لأنه أقرب زمنا من الذين ذكروا بعده ولأن بقايا شرعه وأمته لم تزل معروفة عند العرب فإن صح ما روي أن الذين قالوا:)لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة(اليهود فوجه الابتداء بذكر ما أوتى موسى أظهر.

وحرف التحقيق ولام القسم لتأكيد الخبر باعتبار ما يشتمل عليه من الوعيد بتدميرهم. وأريد بالكتاب الوحي الذي يكتب ويحفظ وذلك من أول ما ابتدئ بوحيه إليه، وليس المراد بالكتاب الألواح لأن إيتاءه الألواح كان بعد زمن قوله)اذهبا إلى القوم(، فقوله)فقلنا اذهبا(مفرع عن إيتاء الكتاب فالإيتاء متقدم عليه.

وفي وصف الوحي بالكتاب تعريض بجهالة المشركين القائلين)لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة(، فإن الكتب التي أوتيها الرسل ما كانت إلا وحيا نزل منجما فجمعه الرسل وكتبه أتباعهم.

والتعريض هنا إلى تأييد موسى بهارون وتعريض بالرد على المشركين إذ قالوا)لو لا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا(فإن موسى لما اقتضت الحكمة تأييده لم يؤيد بملك ولكنه أيد برسول مثله.

والوزير: المؤازر وهو المعاون المظاهر، مشتق من الأزر وهو القوة. وأصل الأزر: شد الظهر بإزار عند الإقبال على عمل ذي تعب، وقد تقدم في سورة طه. وكان هارون رسولا ثانيا وموسى هو الأصل.

والقوم هم قبط مصر قوم فرعون.

والذين كذبوا بآياتنا وصف للقوم وليس هو من المقول لموسى وهارون لأن التكذيب حينئذ لما يقع منهم، ولكنه وصف لإفادة قراء القرآن أن موسى وهارون بلغا الرسالة وأظهر الله منها الآيات فكذب بها قوم فرعون فاستحقوا التدمير تعريضا بالمشركين في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم، وتمهيدا للتفريع ب)دمرناهم تدميرا(الذي هو المقصود من الموعظة والتسلية.

والموصول في قوله)الذين كذبوا بآياتنا(للإيماء إلى علة الخبر عنهم بالتدمير.

وقد حصل بهذا النظم إيجاز عجيب اختصرت به القصة فذكر منها حاشيتاها: أولها وآخرها لأنهما المقصود بالقصة وهو استحقاق الأمم التدمير بتكذيبهم رسلهم.

والتدمير: الإهلاك، والهلاك: دمور.

وإتباع الفعل بالمفعول المطلق لما في تنكير المصدر من تعظيم التدمير وهو الإغراق في اليم.

)وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقنهم وجعلنهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما[37](.

عطف على جملة)ولقد آتينا موسى الكتاب(باعتبار أن المقصود وصف قومه بالتكذيب والإخبار بالتدمير.
وانتصب)قوم نوح(بفعل محذوف يفسره)أغرقناهم(على طريقة الاشتغال. ولا يضر الفصل بكلمة)لما(لأنها كالظرف، وجوابها محذوف دل عليه مفسر الفعل المحذوف. وفي هذا النظم اهتمام بقوم نوح لأن حالهم هو محل العبرة فقدم ذكرهم ثم أكد بضميرهم.
ويجوز أن يكون)قوم نوح(عطفا على ضمير النصب في قوله) فدمرناهم(أي ودمرنا قوم نوح، وتكون جملة)لما كذبوا الرسل أغرقناهم(مبينة لجملة)دمرناهم(.
والآية: الدليل، أي جعلناهم دليلا على مصير الذين يكذبون رسلهم. وجعلهم آية: هو تواتر خبرهم بالغرق آية.
وجعل قوم نوح مكذبين الرسل مع أنهم كذبوا رسولا واحدا لأنهم استندوا في تكذيبهم رسولهم إلى إحالة أن يرسل الله بشرا لأنهم قالوا)ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين(فكان تكذيبهم مستلزما تكذيب عموم الرسل ولأنهم أول من كذب رسولهم، فكانوا قدوة للمكذبين من بعدهم.
وقصة قوم نوح تقدمت في سورة الأعراف وسورة هود.
وجملة)وأعتدنا للظالمين عذابا أليما(عطف على)أغرقناهم(. والمعنى: عذبناهم في الدنيا بالغرق وأعتدنا لهم عذابا أليما في الآخرة. ووقع الإظهار في مقام الإضمار فقيل)للظالمين(عوضا عن: أعتدنا لهم، لإفادة أن عذابهم جزاء على ظلمهم بالشرك وتكذيب الرسول.
)وعادا وثمودا وأصحب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا[38] وكلا ضربنا له الأمثل وكلا تبرنا تتبيرا[39](.

صفحة : 2966

انتصبت الأسماء الأربعة بفعل محذوف دل عليه)تبرنا(. وفي تقديمها تشويق إلى معرفة ما سيخبر به عنها. ويجوز أن تكون هذه الأسماء منصوبة بالعطف على ضمير النصب من قوله)فدمرناهم تدميرا(.
وتنوين)عادا وثمودا(مع أن المراد الامتنان. فأما تنوين)عادا(فهو وجه وجيه لأنه اسم عري عن علامة التأنيث وغير زائد على ثلاثة أحرف فحقه الصرف. وأما صرف)ثمودا(في قراءة الجمهور فعلى

اعتبار اسم الأب، والأظهر عندي أن تنوينه للمزاوجة مع)عادا(كما قال تعالى)سلاسلا وأغلالا وسعيرا(.

وقرأه حمزة وحفص ويعقوب بغير تنوين على ما يقتضيه ظاهر اسم الأمة من التأنيث المعنوي. وتقدم ذكر عاد في سورة الأعراف.

وأما أصحاب الرس فقد اختلف المفسرون في تعيينهم واتفقوا على أن الرس بئر عظيمة أو حفير كبير. ولما كان اسما لنوع من أماكن الأرض أطلقه العرب على أماكن كثيرة في بلاد العرب.

قال زهير:

بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن

ووادي الرس كاليد للفم وسموا بالرس ما عرفوه من بلاد فارس، وإضافة)أصحاب(إلى)الرس(إما لأنهم أصابهم الخسف في رس، وإما لأنهم نازلون على رس، وإما لأنهم احتفروا رسا، كما سمي أصحاب الأخدود الذين خدوه وأضرموه. والأكثر على أنه من بلاد اليمامة ويسمى)فلجا(.

واختلف في المعنى من)أصحاب الرس(في هذه الآية فقيل هم قوم من بقايا ثمود. وقال السهيلي: هم قوم كانوا في عدن أرسل إليهم حنظلة بن صفوان رسولا. وكانت العنقاء هي طائر أعظم ما يكون من الطير)سميت العنقاء لطول عنقها(وكانت تسكن في جبل يقال له)فتح(، وكانت تنقض على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأهلكها الله بالصواعق. وقد عبدوا الأصنام وقتلوا نبيهم فأهلكهم الله. قال وهب بن منبه: خسف بهم وبديارهم. وقيل: هم قوم شعيب. وقيل: قوم كانوا مع قوم شعيب، وقال مقاتل والسدي: الرس بئر بإنطاكية، وأصحاب الرس أهل إنطاكية بعث إليهم حبيب النجار فقتلوه ورسوه في بئر وهو المذكور في سورة يس)وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين(الآيات. وقيل: الرس واد في)أذربيجان(في) أران(يخرج من)قاليقلا(ويصب في بحيرة)جرجان(ولا أحسب أنه المراد في هذه الآية. ولعله من تشابه الأسماء يقال: كانت عليه ألف مدينة هلكت بالخسف وقيل غير ذلك مما هو أبعد.

والقرون :الأمم فإن القرن يطلق على الأمة، وقد تقدم عند قوله تعالى)ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن(في أول الأنعام. وفي الحديث:)خير القرون قرني ثم الذين يلونهم(الحديث.

والإشارة في قوله)بين ذلك(إلى المذكور من الأمم. ومعنى)بين ذلك(أن أمما تخللت تلك الأقوام ابتداء من قوم نوح.

وفي هذه الآية إيذان بطول مدد هذه القرون وكثرتها.

والتنوين في)كلا(تنوين عوض عن المضاف إليه. والتقدير: وكلهم ضربنا له الأمثال. وانتصب)كلا(الأول بإضمار فعل يدل عليه)ضربنا

له(تقديره: خاطبنا أو حذرنا كلا وضربنا له الأمثال، وانتصب)كلا(الثاني بإضمار فعل يدل عليه)تبرنا(وكلاهما من قبيل الاشتغال.
والتتبير: التفتيت للأجسام الصلبة كالزجاج والحديد. وأطلق التتبير على الإهلاك على طريقة الاستعارة تبعية في)تبرنا(وأصلية في)تتبيرا(، وتقدم في قوله تعالى)إن هؤلاء متبر ما هم فيه(في سورة الأعراف، وقوله)وليتبروا ما علوا تتبيرا(في سورة الإسراء. وانتصب)تتبيرا(على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله لإفادة شدة هذا الإهلاك.
ومعنى ضرب الأمثال: قولها وتبيينها. وتقدم عند قوله تعالى)إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما(في سورة البقرة.
والمثل: النظير والمشابه، أي بينا لهم الأشباه والنظائر في الخير والشر ليعرضوا حال أنفسهم عليها. قال تعالى)وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال(.
)ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء ألم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا[40](.

صفحة : 2967

لما كان سوق خبر قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وما بينهما من القرون مقصودا لاعتبار قريش بمصائرهم نقل نظم الكلام هنا إلى إضاعتهم الاعتبار بذلك وبما هو أظهر منه لأنظارهم، وهو آثار العذاب الذي نزل بقرية قوم لوط.
واقتران الخبر بلام القسم لإفادة معنى التعجيب من عدم اعتبارهم كما تقدم في قوله)لقد استكبروا في أنفسهم(. وكانت قريش يمرون بديار قوم لوط في أسفارهم للتجارة إلى الشام فكانت ديارهم يمر بها طريقهم قال تعالى)وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون(. وكان طريق تجارتهم من مكة على المدينة ويدخلون أرض فلسطين فيمرون حذو بحيرة لوط التي على شافتها بقايا مدينة)سدوم(ومعظمها غمرها الماء. وتقدم ذكر ذلك عند قوله تعالى)وإنهما لبإمام مبين(في سورة الحجر.
والإتيان: المجيء. وتعديته ب)على(لتضمينه معنى : مروا، لأن المقصود من التذكير بمجيء القرية التذكير بمصير أهلها فكأن مجيئهم إياها مرور بأهلها، فضمن المجيء بمعنى المرور لأنه يشبه المرور فإن المرور يتعلق بالسكان والمجيء يتعلق بالمكان فيقال: جئنا خراسان، ولا يقال: مررنا بخراسان. وقال تعالى)وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون(.

ووصف القرية ب)التي أمطرت مطر السوء(لأنها اشتهرت بمضمون الصلة بين العرب أهل الكتاب. وهذه القرية هي المسماة) سدوم(بفتح السين وتخفيف الدال وكانت لقوم لوط قرى خمس أعظمها)سدوم(. وتقدم ذكرها عند قوله تعالى)ولوطا إذ قال لقومه(في سورة الأعراف.

و)مطر السوء(هو عذاب نزل عليهم من السماء وهو حجارة من كبريت ورماد، وتسميته مطرا على طريقة التشبيه لأن حقيقة المطر ماء السماء.

والسوء بفتح السين: الضر والعذاب، وأما بضم السين فهو ما يسوء. والفتح هو الأصل في مصدر ساءه؛ وأما السوء بالضم فهو اسم مصدر، فغلب استعمال المصدر في الذي يسوء بضر، واستعمال اسم المصدر في ضد الإحسان.

وتفرع على تحقيق إتيانهم على القرية مع عدم انتفاعهم به استفهام صوري عن انتفاء رؤيتهم إياها حينما يأتون عليها، لأنهم لما لم يتعظوا بها كانوا بحال من يسأل عنهم: هل رأوها، فكان الاستفهام لإيقاظ العقول للبحث عن حالهم. وهو استفهام إما مستعمل في الإنكار والتهديد، وإما مستعمل في الإيقاظ سبب عدم اتعاظهم.

وقوله)بل كانوا لا يرجون نشورا(يجوز أن يكون)بل(للإضراب الانتقالي انتقالا من وصف تكذيبهم بالنبي صلى الله عله وسلم وعدم اتعاظهم بما حل بالمكذبين من الأمم إلى ذكر تكذيبهم بالبعث، فيكون انتهاء الكلام عند قوله)أفلم يكونوا يرونها(وهو الذي يجري على الوجه الأول في الاستفهام. وعبر عن إنكارهم البعث بعدم رجائه لأن منكر البعث لا يرجو منه نفعا ولا يخشى منه ضرا، فعبر عن إنكار البعث بأحد شقي الإنكار تعريضا بأنهم ليسوا مثل المؤمنين يرجون رحمة الله .

والنشور: مصدر نشر الميت أحياه، فنشر، أي حيي. وهو من الألفاظ التي جرت في كلام العرب على معنى التخيل لأنهم لا يعتقدونه، ويروي للمهلهل في قتاله لبني بكر بن وائل الذي قتلوا أخاه كليبا قوله:

يا لبكر انشروا لي كليبا يا لبكر أين

أين الفرار فإذا صحت نسبة البيت إليه كان مراده من ذلك تعجيزهم ليتوسل إلى قتالهم.

والمعنى: أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث فلم يكن لهم استعداد للاعتبار، لأن الاعتبار ينشأ عن المراقبة ومحاسبة النفس لطلب النجاة، وهؤلاء المشركون لما نشأوا على إهمال الاستعداد لما بعد الموت قصرت أفهامهم على هذا العالم العاجل فلم يعنوا إلا بأسباب

وسائل العاجلة، فهم مع زكانتهم في تفرس الذوات والشيات ومراقبة سير النجوم وأنواء المطر والريح ورائحة أتربة منازل الأحياء، هم مع ذلك كله معرضون بأنظارهم عن توسم الالهيات وحياة الأنفس ونحو ذلك. وأصل ذلك الضلال كله انجر لهم من إنكار البعث فلذلك جعل هنا علة لانتفاء اعتبارهم بمصير أمة كذبت رسولها وعصت ربها. وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى)إن في ذلك لآيات للمتوسمين(أي دون من لا يتوسمون.
)وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا[41] إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها(.

صفحة : 2968

كان ما تقدمت حكايته من صنوف أذاهم الرسول عليه الصلاة والسلام أقوالا في مغيبه، فعطف عليها في هذه الآية أذى خاص وهو الأذى حين يرونه. وهذا صنف من الأذى تبعثهم إليه مشاهدة الرسول في غير زي الكبراء والمترفين لا يجر المطارف ولا يركب النجائب ولا يمشي مرحا ولا ينظر خيلاء ويجالس الصالحين ويعرض عن المشركين، ويرفق بالضعفاء ويواصل الفقراء، وأولئك يستخفون بالخلق الحسن، لما غلب على آرائهم من أفن، لذلك لم يخل حاله عندهم من الاستهزاء به إذا رأوه بأن حاله ليست حال من يختاره الله لرسالته دونهم، ولا هو أهل لقيادتهم وسياستهم. وهذا الكلام صدر من أبي جهل وأهل ناديه.
و)إذا(ظرف زمان مضمن معنى الشرط فلذلك يجعل متعلقه جوابا له. بجملة)إن يتخذونك إلا هزؤا(جواب)إذا(. والهزؤ بضمتين: مصدر هزأ به. وتقدم في قوله)قالوا أتتخذونا هزوا(في سورة البقرة. والوصف للمبالغة في استهزائهم به حتى كأنه نفس الهزؤ لأنهم محضوه لذلك، وإسناد)يتخذونك(إلى ضمير الجمع للدلالة على أن جماعاتهم يستهزئون به إذا رأوه وهم في مجالسهم ومنتدياتهم. وصيغة الحصر للتشنيع عليهم بأنهم انحصر اتخاذهم إياه في الاستهزاء به يلازمونه ويدأبون عليه ولا يخلطون معه شيئا من تذكر أقواله ودعوته، فالاستثناء من عموم الأحوال المنفية، أي لا يتخذونك في حالة إلا في حالة الاستهزاء.
وجملة)أهذا الذي بعث الله رسولا(بيان لجملة)إن يتخذونك إلا هزؤا(لأن الاستهزاء من قبيل القول فكان بيانه بما هو من أقوالهم ومجاذبتهم الأحاديث بينهم.
والاستفهام إنكار لأن يكون بعثه الله رسولا.

واسم الإشارة مستعمل في الاستصغار كما علمت في أول تفسير هذه الآية.
والمعنى: إنكار أن يكون المشار إليه رسولا لأن في الإشارة إليه ما يكفي للقطع بانتفاء أنه رسول الله في زعمهم، وقد تقدم قريب من هذه الجملة في قوله تعالى)وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم(في سورة الأنبياء، سوى أن الاستفهام هنالك تعجبي فأنظره.
أما قولهم)إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لو لا أن صبرنا عليها(فالمقصود منه تفاخرهم بتصلبهم في دينهم وأنهم كادوا أن يتبعوا دعوة الرسول بما يلقيه إليهم من الإقناع والإلحاح فكان تأثر أسماعهم بأقواله يوشك بهم ان يرفضوا عبادة الأصنام لو لا أنهم تريثوا، فكان في الريث أن أفاقوا من غشاوة أقواله وخلابة استدلاله واستبصروا مرآة فانجلى لهم أنه لا يستأهل أن يكون مبعوثا من عند الله، فقد جمعوا من كلامهم بين تزييف حجته وتنويه ثباتهم في مقام يستفز غير الراسخين في الكفر. وهذا الكلام مشوب بفساد الوضع ومؤلف على طرائق الدهماء إذ يتكلمون كما يشتهون ويستبلهون السامعين. ومن خلابة المغالطة إسنادهم مقاربة الإضلال إلى الرسول دون أنفسهم ترفعا على أن يكونوا قاربوا الضلال عن آلهتهم مع أن مقاربته إضلالهم تستلزم اقترابهم من الضلال.
و)إن(مخففة من)إن(المشددة، والأكثر في الكلام إهمالهم، أي ترك عملها نصب الاسم ورفع الخبر، والجملة التي تليها يلزم أن تكون مفتتحة بفعل من أخوات كان أو أخوات ظن وهذا من غرائب الاستعمال. ولو ذهبنا إلى أن اسمها ضمير شأن وأن الجملة التي بعدها خبر عن ضمير الشأن كما ذهبوا إليه في)أن(المفتوحة الهمزة إذا خففت لما كان ذلك بعيدا. وفي كلام صاحب الكشاف ما يشهد له في تفسير قوله تعالى)وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين(في سورة آل عمران والجملة بعدها مستأنفة، واللام في قوله)ليضلنا(هي الفارقة بين)إن(المخففة وبين)إن(النافية.
والصبر: الاستمرار على ما يشق عمله على النفس. ويعدي فعله بحرف)على(لما يقتضيه من التمكن من الشيء المستمر عليه.

صفحة : 2969

و)لو لا(حرف امتناع لوجود، أي امتناع وقوع جوابها لأجل وجود شرطها فتقتضي جوابا لشرطها، والجواب هنا محذوف لدلالة ما قبل)لو لا(عليه، وهو)إن كاد ليضلنا(. وفائدة نسبح الكلام على هذا

المنوال دون أن يؤتي بأداة الشرط ابتداء متلوة بجوابها قصد العناية بالخبر ابتداء بأنه حاصل ثم يوتى بالشرط بعده تقييدا لإطلاق الخبر فالصناعة النحوية تعتبر المقدم دليل الجواب، والجواب محذوفا لأن نظر النحوي لإقامة أصل التركيب؛ فأما أهل البلاغة فيعتبرون ذلك للاهتمام وتقييد الخبر بعد إطلاقه، ولذا قال في الكشاف:)لولا(في مثل هذا الكلام جار مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى لا من حيث الصنعة(فهذا شأن الشروط الواقعة بعد كلام مقصود لذاته كقوله تعالى)لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء(إلى قوله)إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي(فإن قوله)إن كنتم(قيد في المعنى للنهي عن موالاة أعداء الله. وتأخير الشرط ليظهر أنه قيد للفعل الذي هو دليل الجواب. قال في الكشاف)إن كنتم خرجتم(متعلق ب)لا تتخذوا(يعني: لا تتولوا إن كنتم أوليائي. وقول النحويين في مثله هو شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه(اه. وكذلك ما قدم فيه على الشرط ما حقه أن يكون جوابا للشرط تقديما لقصد الاهتمام بالجواب كقوله تعالى)قل فأتوا بالتوراة فأتلوها إن كنتم صادقين(.

)وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا[42](.

هذا جواب قولهم)إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لو لا أن صبرنا عليها(المتضمن أنهم على هدى في دينهم، وكان الجواب بقطع مجادلتهم وإحالتهم على حين رؤيتهم العذاب ينزل بهم، فتضمن ذلك وعيدا بعذاب. والأظهر أن المراد عذاب السيف النازل بهم يوم بدر، وممن رآه أبو جهل سيد أهل الوادي، وزعيم القالة في ذلك النادي.

ولما كان الجواب بالإعراض عن المحاجة ارتكب فيه أسلوب التهكم بجعل ما ينكشف عنه المستقبل هو معرفة من هو أشد ضلال من الفريقين على طريقة المجاراة وإرخاء العنان للمخطئ إلى أن يقف على خطئه وقد قال أبو جهل يوم بدر وهو مثخن بالجراح في حالة النزع لما قال له عبد الله بن مسعود: أنت أبو جهل؟ فقال)وهل أعمد من رجل قتله قومه(.

و)من(الاستفهامية أوجبت تعليق فعل)يعلمون(عن العمل.

)أرأيت من اتخذ إلهه هويه أفأنت تكون عليه وكيلا[43](.

استئناف خوطب به الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يخطر بنفسه من الحزن على تكرر إعراضهم عن دعوته إذ كان حريصا على هداهم والإلحاح في دعوتهم، فأعلمه بأن مثلهم لا يرجى اهتداؤه لأنهم جعلوا هواهم إلههم، فالخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم.

وفعل)اتخذ(يتعدى إلى مفعولين وهو من أفعال التصيير الملحقة بأفعال الظن في العمل، وهو إلى باب كسا وأعطى أقرب منه إلى

باب ظن، فإن)اتخذ(معناه صير شيئا إلى حالة غير ما كان عليه أو إلى صورة أخرى. والأصل فيه أن مفعوله الأول هو الذي أدخل عليه التغيير إلى حال المفعول الثاني فكان الحق أن لا يقدم مفعوله الثاني على مفعوله الأول إلا إذا لم يكن في الكلام لبس يلتبس فيه المعنى فلا يدري أي المفعولين وقع تغييره إلى مدلول المفعول الآخر، أو كان المعنى الحاصل من التقديم مساويا للمعنى الحاصل من الترتيب في كونه مرادا للمتكلم.

فقوله تعالى)أرأيت من اتخذ إلهه هواه(إذا أجري على الترتيب كان معناه جعل إلهه الشيء الذي يهوى عبادته، أي ما يحب أن يكون إلها له، أي لمجرد الشهوة لا لأن إلهه مستحق للإلهية، فالمعنى: من اتخذ ربا له محبوبه فإن الذين عبدوا الأصنام كانت شهوتهم في أن يعبدوها وليست لهم حجة على استحقاقها العبادة. فإطلاق)إلهه(على هذا الوجه إطلاق حقيقي. وهذا يناسب قوله قبله)إن كاد ليضلنا عن الهتنا(، ومعناه منقول عن سعيد بن جبير. واختاره ابن عرفة في تفسيره وجزم بأنه الصواب دون غيره وليس جزمه بذلك بوجيه وقد بحث معه بعض طلبته.

وإذا أجري على اعتبار تقديم المفعول الثاني كان المعنى: من اتخذ هواه قدوة له في أعماله لا يأتي عملا إلا إذا كان وفاقا لشهوته فكأن هواه إلهه. وعلى هذا يكون معنى)إلهه(شبيها بإلهه في إطاعته على طريقة التشبيه البليغ.

صفحة : 2970

وهذا المعنى أشمل في الذم لأنه يشمل عبادتهم الأصنام ويشمل غير ذلك من المنكرات والفواحش من أفعالهم. ونحا إليه ابن عباس، وإلى هذا المعنى ذهب صاحب الكشاف وابن عطية. وكلا المعنيين ينبغي أن يكون محملا للآية.

واعلم أنه كان مجموع جملتي)أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا(كلاما واحدا متصلا ثانيه بأوله اتصال المفعول بعامله، تعين فعل)رأيت(لأن يكون فعلا قلبيا بمعنى العلم وكان الاستفهام الذي في الجملة الأولى بقوله)أرأيت(إنكاريا كالثاني في قوله)أفأنت تكون عليه وكيلا(وكان مجموع الجملتين كلاما على طريقة الإجمال ثم التفصيل. والمعنى: أرأيتك تكون وكيلا على من اتخذ إلهه هواه، وتكون الفاء في قوله)أفأنت(فاء الجواب للموصول لمعاملته معاملة الشرط، وهمزة الاستفهام الثانية تأكيد للاستفهام الأول كقوله)إذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون(على قراءة إعادة

همز الاستفهام، وتكون جملة)أفأنت تكون عليه وكيلا(عوضا عن المفعول الثاني لفعل)أرأيت(، والفعل معلق عن العمل فيه بسبب الاستفهام عن نحو قوله تعالى)أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار(وعليه لا يوقف على قوله)هواه(بل يوصل الكلام. وهذا النظم هو الذي مشى عليه كلام الكشاف.

وإن كانت كل جملة من الجملتين مستقلة عن الأخرى في نظم الكلام كان الاستفهام الذي في الجملة الأولى مستعملا في التعجيب من حال الذين اتخذوا إلههم هواهم تعجيبا مشوبا بالإنكار، وكانت الفاء في الجملة الثانية للتفريع على ذلك التعجيب والإنكار، وكان الاستفهام الذي في الجملة الثانية من قوله)أفأنت تكون عليه وكيلا(إنكاريا بمعنى: إنك لا تستطيع قلعه عن ضلاله كما أشار إليه قوله قبله)من أضل سبيلا(.

و)من(صادقة على الجمع المتحدث عنه في قوله)وسوف يعلمون حين يرون العذاب(، وروعي في ضمائر الصلة لفظ)من(فأفردت الضمائر. والمعنى: من اتخذوا هواهم إلها لهم أو من اتخذوا آلهة لأجل هواهم.

و)إله(جنس يصدق بعدة آلهة إن أريد معنى اتخذوا آلهة لأجل هواهم. وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله)أنت تكون عليه وكيلا(للتقوي إشارة إلى إنكار ما حمل الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه من الحرص والحزن في طلب إقلاعهم عن الهوى كقوله تعالى)أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين(. والمعنى: تكون وكيلا عليه في حال إيمانه بحيث لا تفارق إعادة دعوته إلى الإيمان حتى تلجئه إليه.

)أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعم بل هم أضل سبيلا[44](.

انتقال عن التأييس من اهتادئهم لغلبة الهوى على عقولهم إلى التحذير من أن يظن بهم إدراك الدلائل والحجج، وهذا توجيه ثان للإعراض عن مجادلتهم التي أنبأ عنها قوله تعالى)وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا(، ف)أم(منقطعة للإضراب الانتقالي من إنكار على إنكار وهي مؤذنة باستفهام عطفته على الاستفهام الذي قبلها. والتقدير: أم أتحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون.

والمراد من نفي)أن أكثرهم يسمعون(نفي أثر السماع وهو فهم الحق لأن ما يلقيه الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرتاب فيه إلا من هو كالذي لم يسمعه. وهذا كقوله تعالى)ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين(.

وعطف)أو يعقلون(على)يسمعون(لنفي أن يكونوا يعقلون الدلائل غير المقالية وهي دلائل الكائنات قال تعالى)قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون(.
وإنما نفي فهم الأدلة السمعية والعقلية عن أكثرهم دون جميعهم، لأن هذا حال دهمائهم ومقلديهم، وفيهم معشر عقلاء يفهمون ويستدلون بالكائنات ولكنهم غلب عليهم حب الرئاسة وأنفوا من ان يعودوا أتباعا للنبي صلى الله عليه وسلم ومساوين للمؤمنين من ضعفاء قريش وعبيدهم مثل عمار، وبلال.
وجملة)إن هم إلا كالأنعام(مستأنفة استئنافا بيانيا لأن ما تقدم إنكار أنهم يسمعون يثير في نفس السامعين سؤالا عن نفي فهمهم لما يسمعون مع سلامة حواس السمع منهم، فكان تشبيههم بالأنعام تبيينا للجمع بين حصول اختراق أصوات الدعوى آذانهم مع عدم انتفاعهم بها لعدم تهيئهم للاهتمام بها، فالغرض من التشبيه التقريب والإمكان كقول أبي الطيب:

فإن تفق الأنام وأنت منـهـم فإن المسك بعض دم الغزال وضمائر الجمع عائدة إلى أكثرهم باعتبار معنى لفظه كما عاد عليه ضمير)يسمعون(.
وانتقل في صفة حالهم إلى ما هو أشد من حال الأنعام بأنهم أضل سبيلا من الأنعام. وضلال السبيل عدم الاهتداء للمقصود لأن الأنعام تفقه بعض ما تسمعه من أصوات الزجر ونحوها من رعاتها وسائقيها وهؤلاء لا يفقهون شيئا من أصوات مرشدهم وسائسهم وهو الرسول عليه الصلاة والسلام. وهذا كقوله تعالى)فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار(الآية.
)ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا[45] ثم قبضنه إلينا قبضا يسيرا[46](.
استئناف ابتدائي فيه انتقال من إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وإثبات ان القرآن من عند الله أنزله على رسوله، وصفات الرسل وما تخلل ذلك من الوعيد وهو من هذا الاعتبار متصل بقوله)وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة(الآية.
وفيه انتقال إلى الاستدلال على بطلان شركهم وإثبات الوحدانية لله وهو من هذه الجهة متصل بقوله في أول السورة)واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا(الآية.

وتوجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقتضي أن الكلام متصل بنظيره من قوله تعالى)قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض(. وما عطف عليه)قل أذلك خير( )وما أرسلنا قبلك من المرسلين( )وكفى بربك هاديا(فكلها مخاطبات للنبي صلى الله عليه وسلم. وقد جعل مد الظل وقبضه تمثيلا لحكمه التدريج في التكوينات الإلهية والعدول بها عن الطفرة في الإيجاد ليكون هذا التمثيل بمنزلة كبرى القياس للتدليل على أن تنزيل القرآن منجما جار على حكمة التدرج لأنه أمكن في حصول المقصود، وذلك ما دل عليه قوله سابقا)كذلك لنثبت به فؤادك(. فكان في قوله)ألم تر إلى ربك كيف مد الظل..(الآية زيادة في التعليل على ما في قوله)كذلك لنثبت به فؤادك(.

ويستتبع هذا إيماء إلى تمثيل نزول القرآن بظهور شمس في المواضع التي كانت مظللة إذ قال تعالى)ثم جعلنا الشمس عليه دليلا(فإن حال الناس في الضلالة قبل نزول القرآن تشبه بحال امتداد ظلمة الظل، وصار ما كان مظللا ضاحيا بالشمس وكان زوال ذلك الظل تدريجا حتى ينعدم الفيء.

فنظم الآية بما اشتمل عليه من التمثيل أفاد تمثيل هيئة تنزيل القرآن منجما بهيئة مد الظل مدرجا ولو شاء لجعله ساكنا.

وكان نظمها بجمله على حقيقة تركيبه مفيدا العبرة بمد الظل وقبضة في إثبات دقائق قدرة الله تعالى، وهذان المفادان من قبيل استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه الذي ذكرناه في المقدمة التاسعة. وكان نظم الكلام بمعنى ما فيه من الاستعارة التصريحية من تشبيه الهداية بنور الشمس. وبهذا النكتة عطف قوله)ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا(إلى قوله)وجعل النهار نشورا(.

والاستفهام تقرير فهو صالح لطبقات السامعين: من غافل يسأل عن غفلته ليقر بها تحريضا على النظر، ومن جاحد ينكر عليه إهماله النظر، ومن موفق يحث على زيادة النظر.

والرؤية بصرية، وقد ضمن الفعل معنى النظر فعدي إلى المرئي بحرف)إلى(. والمد: بسط الشيء المنقبض المتداخل يقال: مد الحبل ومد يده، ويطلق المد على الزيادة في الشيء وهو استعارة شائعة، وهو هنا الزيادة في مقدار الظل.

ثم إذا كان المقصود بفعل الرؤية حالة من أحوال الذات تصح رؤيتها فلك تعدية الفعل إلى الحالة كقوله تعالى)ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل( )ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا(، وصح تعديته إلى اسم الذات مقيدة بالحالة المقصودة بحال أو ظرف صلة نحو)أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت( )ألم تر إلى

الذي حاج إبراهيم في ربه( )ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا(.

صفحة : 2972

والفريق بين التعديتين أن الأولى يقصد منها العناية بالحالة لا بصاحبها؛ فالمقصود من آية سورة الفيل: الامتنان على أهل مكة بما حل بالذين انتهكوا حرمتها من الاستئصال، والمقصود من آية سورة الغاشية العبرة بكيفية خلقه الإبل لما تشتمل عليه من عجيب المنافع، وكذلك الآيتان الأخيرتان، وإذ قد كان المقام هنا مقام إثبات الوحدانية والإلهية الحق لله تعالى، أوثر تعلق الرؤية باسم الذات ابتداء ثم مجيء الحال بعد ذلك مجيئا كمجيء بدل الاشتمال بعد ذكر المبدل منه.
وأما قوله في سورة نوح)ألم تروا كيف خلق الله(دون أن يقال: ألم تروا ربكم كيف خلق، لأن قومه كانوا متصلبين في الكفر وكان قد جادلهم في الله غير مرة فعلم أنه إن ابتدأهم بالدعوة إلى النظر في الوحدانية جعلوا أصابعهم في آذانهم فلم يسمعوا إليه فبادأهم باستدعاء النظر إلى كيفية الخلق.
وعلى كل فإن)كيف(هنا مجردة عن الاستفهام وهي اسم دال على الكيفية فهي في محل بدل الاشتمال)من ربك(، والتقدير: ألم تر إلى ربك إلى هيئة مده الظل. وقد تقدم ذكر خروج)كيف(عن الاستفهام عند قوله تعالى)هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء(في سورة آل عمران، فإنه لا يخلو النهار من وجود الظل.
وفي وجود الظل دقائق من أحوال النظام الشمسي فإن الظل مقدار محدد من الظلمة يحصل من حيلولة جسم بين شعاع الشمس وبين المكان الذي يقع عليه الشعاع فينطبع على المكان مقدار من الظل مقدر بمقدار كيفية الجسم الحائل بين الشعاع وبين موقع الشعاع على حسب اتجاه ذلك الجسم الحائل من جهته الدقيقة أو الضخمة، ويكون امتداد تلك الظلمة المكيفية بكيفية ذلك الجسم متفاوتا على حسب تفاوت بعد اتجاه الأشعة من موقعها ومن الجسم الحائل ومختلفا باستواء المكان وتحدبه، فذلك التفاوت في مقادير ظل الشيء الواحد هو المعبر عنه بالمد في هذه الآية لأنه كلما زاد مقدار الظلمة المكيفية لكيفية الحائل زاد امتداد الظل. فتلك كلها دلائل كثيرة من دقائق التكوين الإلهي والقدرة العظيمة.
وقد أفاد هذا المعنى كاملا فعل)مد(.

وهذا الامتداد يكثر على حسب مقابلة الأشعة للحائل فكلما اتجهت الأشعة إلى الجسم من أخفض جهة كان الظل أوسع، وإذا اتجهت إليه مرتفعة عنه تقلص ظله رويدا رويدا إلى أن تصير الأشعة مسامتة أعلى الجسم ساقطة عليه فيزول ظلمه تماما أو يكاد يزول، وهذا المعنى قوله تعالى)ولو شاء لجعله ساكنا(أي غير متزايد لأنه لما كان مد الظل يشبه صورة التحرك أطلق على انتفاء الامتداد اسم السكون بأن يلازم مقدارا واحدا لا ينقص ولا يزيد، أي لو شاء الله لجعل الأرض ثابتة في سمت واحد تجاه أشعة الشمس فلا يختلف مقدار ظل الأجسام التي على الأرض وتلزم ظلالها حالة واحدة فتنعدم فوائد عظيمة.

ودلت مقابلة قوله)مد الظل(بقوله)لجعله ساكنا(على حالة مطوية من الكلام، وهي حالة عموم الظل جميع وجه الأرض، أي حالة الظلمة الأصلية التي سبقت اتجاه أشعة الشمس الى وجه الأرض كما أشار إليه قول التوراة)وكانت الأرض خالية، وعلى وجه القمر ظلمة(ثم قال)وقال الله ليكن نور فكان نور...(. وفصل الله بين النور والظلمة)إصحاح واحد من سفر الخروج(، فاستدلال القرآن بالظل أجدى من الاستدلال بالظلمة لأن الظلمة عدم لا يكاد يحصل الشعور بجمالها بخلاف الظل فهو جامع بين الظلمة والنور فكلا دلالتيه واضحة.

وجملة)ولو شاء لجعله ساكنا(معترضة للتذكير بأن في الظل منة.

وقوله)ثم جعلنا الشمس عليه دليلا(عطف على جملة)مد الظل(وأفادت)ثم(أن مدلول المعطوب بها متراخ في الرتبة عن مدلول المعطوف عليه شأن)ثم(إذا عطفت الجملة. ومعنى تراخي الرتبة أنها أبعد اعتبارا، أي أنها أرفع في التأثير أو في الوجود فإن وجود الشمس هو علة وجود الظل للأجسام التي على الأرض والسبب أرفع رتبة من المسبب، أي أن الله مد الظل بأن جعل الشمس دليلا على مقادير امتداده. ولم يفصح المفسرون عن معنى هذه الجملة إفصاحا شافيا.

والالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله)ثم جعلنا(لأن ضمير المتكلم أدخل في الامتنان من ضمير الغائب فهو مشعر بأن هذا الجعل نعمة وهي نعمة النور الذي به تمييز أحوال المرئيات وعليه فقوله)ثم جعلنا الشمس عليه دليلا(ارتقاء في المنة.

والدليل: المرشد إلى الطريق والهادي إليه، فجعل امتداد الظل لاختلاف مقاديره كامتداد الطريق وعلامات مقادير مثل صوى الطريق، وجعلت الشمس من حيث كانت سببا في ظهور مقادير الظل كالهادي إلى مراحل، بطريقة التشبيه البليغ، فكما أن الهادي يخبر السائر أين ينزل من الطريق، كذلك الشمس بتسببها في مقادير امتداد الظل تعرف المستدل بالظل بأوقات أعماله ليشرع فيها.

وتعدية)دليلا(بحرف)على(تفيد أن دلالة الشمس على الظل هنا دلالة تنبيه على شيء قد يخفى كقول الشاعر)إلا علي دليل( )1(. وشمل هذا حالتي المد والقبض.

وجملة)ثم قبضناه إلينا(الخ عطف على جملة)مد الظل(، أو على جملة)جعلنا الشمس عليه دليلا(لأن قبض الظل من آثار جعل الشمس دليلا على الظل.

و)ثم(الثانية مثل الأولى مفيدة التراخي الرتبي، لأن مضمون جملة)قبضناه إلينا قبضا يسيرا(أهم في الاعتبار بمضمونها من مضمون) جعلنا الشمس عليه دليلا(، إذ في قبض دلالة من دلالة الشمس هي عكس دلالتها على امتداده فكانت أعجب إذ هي عمل ضد للعمل الأول، وصدور الضدين من السبب الواحد أعجب من صدور أحدهما السابق في الذكر.

والقبض: ضد المد فهو مستعمل في معنى النقص، أي نقصنا امتداده، والقبض هنا استعارة للنقص. وتعديته بقوله)إلينا(تخييل، شبه الظل بحبل أو ثوب طواه صاحبه بعد أن بسطه على طريقة المكنية، وحرف)إلى(ومجروره تخييل.

وموقع وصف القبض بيسير هنا أريد أن هذا القبض يحصل ببطء دون طفرة، فإن في التريث تسهيلا لقبضه لأن العمل المجزأ أيسر على النفوس من المجتمع غالبا، فأطلق اليسر وأريد به لازم معناه عرفا، وهو التدريج ببطء، على طريقة الكناية، ليكون صالحا لمعنى آخر سنتعرض إليه في آخر كلامنا.

وتعدية القبض ب)إلينا(لأنه ضد المد الذي أسند إلى الله في قوله)مد الظل(. وقد علم من معنى)قبضناه(أن هذا القبض واقع بعد المد فهو متأخر عنه.

وفي مد الظل وقبضه نعمة معرفة أوقات النهار للصلوات وأعمال الناس، ونعمة التناوب في انتفاع الجماعات والأقطار بفوائد شعاع الشمس وفوائد الفيء بحيث إن الفريق الذي كان تحت الأشعة يتبرد بحلول الظل، والفريق الذي كان في الظل ينتفع بانقباضه.

هذا محل العبرة والمنة اللتين تتناولهما عقول الناس على اختلاف مداركهم. ووراء ذلك عبرة علمية كبرى توضحها قواعد النظام

الشمسي وحركة الأرض حول الشمس وظهور الظلمة والضياء، فليس الظل إلا أثر الظلمة فأن الظلمة هي أصل كيفيات الأكوان ثم انبثق النور بالشمس ونشأ عن تداول الظلمة والنور نظام الليل والنهار وعن ذلك نظام الفصول وخطوط الطول والعرض للكرة الأرضية وبها عرفت مناطق الحرارة والبرودة.

ومن وراء ذلك إشارة إلى أصل المخلوقات كيف طرأ عليها الإيجاد بعد أن كانت عدما، وكيف يمتد وجودها في طور نمائها، ثم كيف تعود إلى العدم تدريجا في طور انحطاطها إلى أن تصير إلى العدم، فذلك مما يشير إليه)ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا(فيكون قد حصل من التذكير بأحوال الظل في هذه الآية مع المنة والدلالة على نظام القدرة تقريب لحالة إيجاد الناس وأحوال الشباب وتقدم السن، وأنهم عقب ذلك صائرون إلى ربهم يوم البعث مصيرا لا إحالة فيه ولا بعد، كما يزعمون، فلما صار قبض الظل مثلا لمصير الناس إلى الله بالبعث وصف القبض بيسير تلميحا إلى قوله)ذلك حشر علينا يسير(.

وفي هذا التمثيل إشارة إلى أن الحياة في الدنيا كظل يمتد وينقبض وما هو إلا ظل.

فهذان المحملان في الآية من معجزات القرآن العلمية.

)وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا[47](.

مناسبة الانتقال من الاستدلال باعتبار أحوال الظل والضحاء إلى الاعتبار بأحوال الليل والنهار ظاهرة فالليل يشبه الظل في أنه ظلمة تعقب نور الشمس.

ومورد الاستدلال المقصد المستفاد من تعريف جزأي الجملة وهو قصر إفراد، أي لا يشركه غيره في جعل الليل والنهار. أما كون الجعل المذكور بخلق الله فهم يقرون به؛ ولكنهم لما جعلوا له شركاء على الإجمال أبطلت شركتهم بقصر التصرف في الأزمان على الله تعالى لأنه إذا بطل تصرفهم في بعض الموجودات اختلت حقيقة الإلهية عنهم إذ الإلهية لا تقبل التجزئة.

و)لكم(متعلق ب)جعل(أي من جملة ما خلق له الليل أنه يكون لباسا لكم. وهذا لا يقتضي أن الليل عود الظلمة إلى جانب من الكرة الأرضية المحتجب عن شعاع الشمس باستداراته فتحصل من

ذلك فوائد جمة منها ما في قوله تعالى بعد هذا)وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر....(الخ.

وقد رجع أسلوب الكلام من المتكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات.

و)لباسا(مشبه به على طريقة التشبيه البليغ، أي ساترا لكم يستر بعضكم عن بعض، وفي هذا الستر منن كثيرة لقضاء الحوائج التي يجب إخفاؤها.

وتقديم الاعتبار بحالة ستر الليل على الاعتبار بحالة النوم لرعي مناسبة الليل بالظل كما تقدم، بخلاف قوله)وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا(في سورة النبأ، فإن نعمة النوم أهم من نعمة الستر، ولأن المناسبة بين نعمة خلق الأزواج وبين النوم أشد.

وقد جمعت الآية استدلالا وامتنانا فهي دليل على عظم قدرة الخالق، وهي أيضا تذكير بنعمه، فإن في اختلاف الليل والنهار آيات جمة لما يدل عليه حصول الظلمة من دقة نظام دوران الأرض حول الشمس ومن دقة نظام خلق الشمس، ولما يتوقف عليه وجود النهار من تغير دوران الأرض ومن فوائد نور الشمس، ثم ما في خلال ذلك من نظام النوم المناسب للظلمة حين ترتخي أعصاب الناس فيحصل لهم بالنوم تجدد نشاطهم، ومن الاستعانة على التستر بظلمة الليل ومن نظام النهار من تجدد النشاط وانبعاث الناس للعمل وسآمتهم من الدعة، مع ما هو ملائم لذلك من النور الذي به إبصار ما يقصده العاملون.

والسبات له معان متعددة في اللغة ناشئة عن التوسع في مادة السبت وهو القطع. وأنسب المعاني بمقام الامتنان هو معنى الراحة وإن كان في كلا المعنيين اعتبار بدقيق صنع الله تعالى. وفسر الزمخشري السبات بالنوم على طريقة التشبيه البليغ ناظرا في ذلك إلى مقابلته بقوله)وجعل النهار نشورا(.

وإعادة فعل)جعل(في قوله)وجعل النهار نشورا(دون أن يعاد في قوله)والنوم سباتا(مشعرة بأنه تنبيه إلى أنه جعل مخالف لجعل الليل لباسا. وذلك أنه أخبر عنه بقوله)نشورا(، والنشور: بعث الأموات، وهو إدماج للتذكير بالبعث وتعريض بالاستدلال على من أحالوه، بتقريبه بالهبوب في النهار. وفي هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصبح)الحمد لله الذي أحيانا بعد إذ أماتنا وإليه النشور(.

والنشور: الحياة بعد الموت، وتقدم قريبا عند قوله تعالى)بل كانوا لا يرجون نشورا(. وهو هنا يحتمل معنيين أن يكون مرادا به البروز والانتشار فيكون ضد اللباس في قوله)وهو الذي جعل لكم الليل

لباسا(فيكون الإخبار به عن النهار حقيقيا، والمنة في أن النهار ينتشر فيه الناس لحوائجهم واكتسابهم. ويحتمل أن يكون مرادا به بعث الأجساد بعد موتها فيكون الإخبار على طريقة التشبيه البليغ.
)وهو الذي أرسل الريح نشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا[48] لنحيي به بلدة ميتا ونسقه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا[48] ولقد صرفنه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا[50](استدلال على الانفراد بالخلق وامتنان بتكوين الرياح والأسحبة والمطر. ومناسبة الانتقال من حيث ما في الاستدلال الذي قبله من ذكر حال النشور والامتنان به فانتقل إلى ما في الرياح من النشور بذكر وصفها بأنها نشر على قرأه الجمهور، أو لكونها كذلك في الواقع على قراءة عاصم. ومردود الاستدلال قصر إرسال الرياح وما عطف عليه على الله تعالى إبطالا لا دعاء الشركاء له في الإلهية بنفي الشركة في التصرف في هذه الكائنات وذلك ما لا ينكره المشركون كما تقدم مثله في قوله)وهو الذي جعل لكم الليل لباسا(الخ...
وأطلق على تكوين الرياح فعل)أرسل(الذي هو حقيقته في بعث شيء وتوجيهه، لأن حركة الرياح تشبه السير. وقد شاع استعمال الإرسال في إطلاق العنان لخيل السباق.

صفحة : 2975

وهذا استدلال بدقيق خلق الله في تكوين الرياح، فالعامة يعتبرون بما هو داخل تحت مشاهدتهم من ذلك، والخاصة يدركون كيفية حدوث الرياح وهبوبها واختلافها، وذلك ناشىء عن التقاء حرارة جانب من الجو ببرودة جانب آخر. ثم إن الرياح بهبوبها حارة مرة وباردة أخرى تكون الأسحبة وتؤذن بالمطر فلذلك وصفت بأنها: نشر بين يدي المطر.
قرأ الجمهور)أرسل الرياح(بصيغة الجمع. وقرأ ابن كثير) الريح(بصيغة الإفراد على معنى الجنس. والقرأتان متحدتان في المعنى، ولكن غلب جمع الريح في ريح الخير وإفراد الريح في ريح العذاب قاله ابن عطية. وتقدم في قوله تعالى)وتصريف الرياح(في سورة البقرة.
وقرأ الجمهور)نشرا(بنون في أوله وبضمتين جمع نشور كرسول ورسل. وقرأ ابن عامر بضم فسكون على تخفيف الحركة. وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح النون وسكون الشين على أنه من الوصف بالمصدر، وكلها من النشر وهو البسط كما ينشر الثوب

المطوي لأن الرياح تنشر السحاب. وقرأ عاصم بباء موحدة وسكون الشين جمع بشور من التبشير لأنها تبشر بالمطر. وتقدم قوله)وهو الذي يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته(في سورة الأعراف.
والالتفات من الغيبة إلى المتكلم في قوله)وأنزلنا-لنحيي-ونسقيه- ولقد صرفناه(للداعي الذي قدمناه في قوله آنفا)ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا(.
والمراد ب)رحمته(المطر لأنه رحمة للناس والحيوان بما ينبته من الشجر والمرعى.
وجملة)وأنزلنا من السماء ماء طهورا(عطف على جملة)أرسل الرياح(الخ، فهي داخلة في حيز القصر، أي وهو الذي أنزل من السماء ماء طهور. وضمير)أنزلنا(التفات من الغيبة إلى التكلم لأن التكلم أليق بمقام الامتنان. وتقدم معنى إنزال الماء من السماء عند قوله)أو كصيب من السماء(في سورة البقرة.
والطهور بفتح الطاء من أمثلة المبالغة في الوصف بالمصدر كما يقال: رجل صبور. وماء المطر بالغ منتهى الطهارة إذ لم يختلط به شيء يكدره أو يقذره وهو في علم الكيمياء أنقى المياه لخلوه عن جميع الجراثيم فهو الصافي حقا. والمعنى: أن الماء النازل من السماء هو بالغ نهاية الطهارة في جنسه من المياه ووصف الماء بالطهور يقتضي أنه مطهر لغيره إذ العدول عن صيغة فاعل إلى صيغة فعول لزيادة معنى في الوصف، فاقتضاؤه في هذه الآية أنه مطهر لغيره اقتضاء التزامي ليكون مستكملا وصف الطهارة القاصرة والمتعدية، فيكون ذكر هذا الوصف إدماجا لمنة في أثناء المنن المقصودة، كقوله تعالى)وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به(وصف الطهارة الذاتية وتطهيره، فيكون هذا الوصف إدماجا ولولا ذلك لكان الأحق بمقام الامتنان وصف الماء بالصفاء أو نحو ذلك.
والبلدة: الأرض. ووصفها بالحياة والموت مجازان للري والجفاف لأن ري الأرض ينشأ عنه النبات وهو يشبه الحي وجفاف الأرض يجف به النبات فيشبه الميت.
ولماء المطر خاصية الإحياء لكل أرض لأنه لخلوه من الجراثيم ومن بعض الأجزاء المعدنية والترابية التي تشتمل عليها مياه العيون ومياه الأنهار والأودية كان صالحا بكل أرض وبكل نبات على اختلاف طباع الأرضين والمنابت.
والبلدة: البلد. والبلد يذكر ويؤنث مثل كثير من أسماء أجناس البقاع كما قالوا: دار ودارة. ووصفت البلدة بميت، وهو وصف مذكر لتأويل)بلدة(بمعنى مكان لقصد التخفيف. وقال في الكشاف ما معناه: إنه لما دل على المبالغة في الاتصاف بالموت ولم يكن جاريا على أمثلة المبالغة نزل منزلة الاسم الجاد)أي فلم يغير(. وأحسن من

هذا أنه أريد به اسم الميت، ووصف البلدة به وصف على معنى التشبيه البليغ.
وفي قوله)لنحيي به بلدة ميتا(إيماء إلى تقريب إمكان البعث.
)ونسقيه(بضم النون مضارع أسقى مثل الذي بفتح النون فقيل هما لغتان يقال: أسقى وسقى. قال تعالى)قالتا لا نسقي(بفتح النون. وقيل: سقى: أعطى الشراب، وأسقى: هيأ الماء للشرب. وهذا القول أسد لأن الفروق بين معاني الألفاظ من محاسن اللغة فيكون المعنى هيأناه لشرب الأنعام والأناسي فكل من احتاج للشرب شرب منه سواء من شرب ومن لم يشرب.

صفحة : 2976

و)أنعاما(مفعول ثان ل)نسقيه(. وقوله)مما خلقنا(حال من)أنعاما وأناسي(. و)من(تبعيضية. و)ما(موصولة، أي بعض ماخلقناه، والموصول للإيماء إلى علة الخبر، أي نسقيهم لأنهم مخلوقات. ففائدة هذا الحال الإشارة إلى رحمة الله بها لأنها خلقه. وفيه إشارة إلى أن أنواعا أخرى من الخلائق تسقى بماء السماء، ولكن الاقتصار على ذكر الأنعام والأناسي لأنهما موقع المنة؛ فالأنعام بها صلاح حال البادين بألبانها وأصوافها وأشعارها ولحومها، وهي تشرب من مياه المطر من الأحواض والغدران.
والأناسي: جمع إنسي، وهو مرادف إنسان. فالياء فيه ليست للنسب. وجمع على فعالي مثل كرسي وكراسي. ولو كانت ياؤه نسب لجمع على أناسية كما قالوا: صيرفي وصيارفة. ووصف الأناسي ب)كثيرا(لأن بعض الأناسي لا يشربون من ماء السماء وهم الذين يشربون من مياه الأنهار كالنيل والفرات، والآبار والصهاريج، ولذلك وصف العرب بأنهم بنو ماء السماء. فالمنة أخص بهم، قال زيادة الحارثي:
ونحن بنو ماء السماء فلا نرى
لأنفسنا من دون مملكة قصرا وفي أحاديث ذكر هاجر زوج إبراهيم عليه السلام قال أبو هريرة)فتلك أمكم يا بني ماء السماء(يعني العرب. وماء المطر لنقاوته التي ذكرناها صالح بأمعاء كل الناس وكل الأنعام دون بعض مياه العيون والأنهار.
ووصف أناسي وهو جمع بكثير وهو مفرد لأن فعيلا قد يراد به المتعدد مثل رفيق وكذلك قليل قال تعالى)واذكروا إذ كنتم قليلا(.
وتقديم ذكر الأنعام على الأناسي اقتضاه نسج الكلام على طريقة الأحكام في تعقيبه بقوله)ولقد صرفناه بينهم ليذكروا(، ولو قدم

ذكر)أناسي(لتفكك النظم. ولم يقدم ذكر الناس في قوله تعالى) متاعا لكم ولأنعامكم(في سورة النازعات لانتفاء الداعي للتقديم فجاء على أصل الترتيب.

وضمير)صرفناه(عائد إلى)ماء طهورا(. والتصريف: التغيير. والمراد هنا تغيير أحوال الماء، أي مقاديره ومواقعه.

وتوكيد الجملة بلام القسم و)قد(لتحقيق التعليل لأن تصرف المطر محقق لا يحتاج إلى التأكيد وإنما الشيء الذي لم يكن لهم علم به هو ان من حكمة تصريفه بين الناس أن يذكروا نعمة الله تعالى عليهم مع نزوله عليهم وفي حالة إمساكه عنهم، لأن كثير من الناس لا يقدر قدر النعمة إلا عند فقدها فيعلموا أن الله هو الرب الواحد المختار في خلق الأسباب والمسببات وقد كانوا لا يتدبرون حكمة الخالق ويسندون الآثار إلى مؤثرات وهمية أو صورية.

ولما كن التذكر شاملا لشكر المنعم عليهم بإصابة المطر ولتفطن المحرومين إلى سبب حرمانهم إياه لعلهم يستغفرون، جيء في التعليل بفعل)ليذكروا(ليكون علة لحالتي التصريف بينهم.

وقوله)فأبى أكثر الناس إلا كفورا(تركيب جرى بمادته وهيئته مجرى المثل في الإخبار عن تصميمي المخبر عنه على ما بعد حرف الاستثناء، وذلك يقتضي وجود الصارف عن المستثنى، أي فصمموا على الكفور لا يرجعون عنه لأن الاستثناء من عموم أشياء مبهمة جعلت كلها مما تعلق به الإباء كأن الآبين قد عرضت عليهم من الناس أو من خواطرهم أمور وراجعوا فلم يقبلوا منها إلا الكفور وإن لم يكن هنالك عرض ولا إباء، ومنه قوله تعالى في سورة براءة)ويأبى الله إلا أن يتم نوره(؛ ألا ترى أن ذلك استعمل هنا في مقام معارضة المشركين للتوحيد في سورة براءة في مقام معارضة أهل الكتاب للإسلام. وشدة الفريقين في كفرهم معلومة مكشوفة ولم يستعمل في قوله تعالى في سورة الصف)يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره(.

والكفور: مصدر بمعنى الكفر. وتقديم نظير في سورة الإسراء، أي أبوا إلا الإشراك بالله وعدم التذكر.

وقرأ الجمهور)ليذكروا(بتشديد الذال وتشديد الكاف مدغمة فيها التاء وأصله ليتذكروا. وقرأ حمزة والكسائي وخلف بسكون الذال وتخفيف الكاف مضمومة، أي ليذكروا ما هم عنه غافلون.

ويؤخذ من الآية أن الماء المنزل من السماء لا يختلف مقداره وإنما تختلف مقادير توزيعه على مواقع القطر، فعن ابن عباس: ما عام أقل مطرا من عام ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء. وتلا هذه الآية. وذكر القرطبي عن ابن مسعود عن النبي صلى اله عليه وسلم أنه قال:)ما من سنة بأمطر من أخرى ولكن إذا عمل قوم المعاصي صرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعا صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار(اه. فحصل من هذا أن المقدار الذي تفضل الله به من المطر على هذه الأرض لا تختلف كميته وإنما يختلف توزيعه. وهذه حقيقة قررها علماء حوادث الجو في القرن الحاضر، فهو من معجزات القرآن العلمية الراجعة إلى الجهة الثالثة من المقدمة العاشرة لهذا التفسير.

وجوز فريق أن يكون ضمير)صرفناه(عائدا إلى غير مذكور معلوم في المقام مراد به القرآن؛ قالوا لأنه المقصود في هذه السورة فإنها افتتحت بذكره، وتكرر في قوله)إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا(. وأصل هذا التأويل مروي عن عطاء. ولقوله بعده)وجاهدهم به جهادا كبيرا(.

وقيل الضمير عائد إلى الكلام المذكور، أي ولقد صرفنا هذا الكلام وكررناه على ألسنة الرسل ليذكروا.

)ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا[51] فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا[52](.

جملة اعتراض بين ذكر دلائل تفرد الله بالخلق وذكر منته على الخلق. ومناسبة موقع هذه الجملة وتفريعها بموقع الآية التي قبلها خفية. وقال ابن عطية في قوله)ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا(: اقتضاب يدل عليه ما ذكر. تقديره: ولكنا أفردناك بالنذارة وحملناك فلا تطع الكافرين(اه.

فإن كان عنى بقوله: اقتضاب، معنى الاقتضاب الاصطلاحي بين علماء الأدب والبيان، وهو عدم مراعاة المناسبة بين الكلام المنتقل منه والكلام المنتقل إليه، كان عدولا عن التزام تطلب المناسبة بين هذه الآية والآية التي قبلها، وليس الخلو عن المناسبة ببدع فقد قال صاحب تلخيص المفتاح)وقد ينقل منه)أي مما شبب به الكلام(إلى ما لا يلائمه)أي لا يناسب المنتقل منه(ويسمى الاقتضاب وهو مذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين(الخ. وإذا كان ابن عطية عنى بالاقتضاب معنى القطع)أي الحذف من الكلام(أي إيجاز الحذف كما يشعر به قوله)يدل عليه ما ذكر تقديره الخ(، كان لم يعرج على اتصال هذه الآية بالتي قبلها.

وفي الكشاف:)ولو شئنا لخففنا عنك أعباء نذارة جمع القرى ولبعثنا في كل قرية نبيا ينذرها، وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمناك

على سائر الرسل)أي بعموم الدعوة(فقابل ذلك بالتصبر(اه. وقد قال الطيبي:)ومدار السورة على كونه صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى الناس كافة ولذلك افتتحت بما يثبت عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس بقوله تعالى)ليكون للعالمين نذيرا(.

وليس في كلام الكشاف والطيبي إلا بيان مناسبة الآية لمهم أغراض السورة دون بيان مناسبتها للتي قبلها.

والذي أختاره أن هذه الآية متصلة بقوله تعالى)وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة(الآية، فيعد أن بين إبطال طعنهم فقال)كذلك لنثبت به فؤادك(انتقل إلى تنظير القرآن بالكتاب الذي أوتيه موسى عليه السلام وكيف استأصل الله من كذبوه، ثم استطرد بذكر أمم كذبوا رسلهم، ثم انتقل إلى استهزاء المشركين بالنبي صلى الله عليه وسلم وأشار إلى تحرج النبي صلى الله عليه وسلم من إعراض قومه عن دعوته بقوله)أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا(.

وتسلسل الكلام بضرب المثل بمد الظل وقبضه، وبحال الليل والنهار، وبإرسال الرياح. أمارة على رحمة غيثه الذي تحيا به الموت حتى انتهى إلى قوله)ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا(ويؤيد ما ذكرنا اشتمال التفريع على ضمير القرآن في قوله)وجاهدهم به(.

ومما يزيد هذه الآية اتصالا بقوله تعالى)وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة(أن بعث نذير إلى كل قرية ما هو أشد من تنزيل القرآن مجزأ؛ فلو بعث الله في كل قرية نذيرا لقال الذين كفروا: لو لا أرسل رسول واحد إلى الناس جميعا فإن مطاعنهم لا تقف عند حد كما قال تعالى)ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لو لا فصلت آياته أعجمي وعربي(في سورة حم السجدة.

صفحة : 2978

وتفريع)فلا تطع الكافرين(على جملة)ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا(لأنها تتضمن أنه مرسل إلى المشركين من أهل مكة وهم يطلبون منه الكف عن دعوتهم وعن تنقص أصنامهم.

والنهي مستعمل في التحذير والتذكير، وفعل)تطع(في سياق النهي يفيد عموم التحذير من أدنى طاعة.

والطاعة: عمل المرء بما يطلب منه، أي فلا تهن في الدعوة رعيا لرغبتهم أن تلين لهم.

وبعد أن حذره من الوهن في الدعوة أمره بالحرص والمبالغة فيها. وعبر عن ذلك بالجهاد وهو الاسم الجامع لمنتهى الطاقة. وصيغة المفاعلة فيه ليفيد مقابلة مجهودهم بمجهوده فلا يهن ولا يضعف ولذلك وصف بالجهاد الكبير، أي الجامع لكل مجاهدة.

وضمير)به(عائد إلى غير مذكور: فإما أن يعود إلى القرآن لأنه مفهوم من مقام النذارة، وإما أن يعود إلى المفهوم من)لا تطع(وهو الثبات على دعوته بأن يعصيهم، فإن النهي عن الشيء أمر بضده كما دل قول أبي حية النميري:

فقلن لها سرا فديناك لا يرح صحيحا

وإن لم تقتليه فألمم مقابل قوله)لا يرح صحيحا(بقوله)وإن لم تقتليه فألمم(كأنه قال: فديناك فاقتليه.

والمعنى: قاومهم بصبرك. وكبر الجهاد تكريره والعزم فيه وشدة ما يلقاه في ذلك من المشقة. وهذا كقول النبي صلى الله عليه سلم لأصحابه عند قفوله من بعض غزواته)رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قالوا)وما الجهاد الأكبر؟(- قال مجاهدة العبد هواه(. رواه البيهقي بسند ضعيف.

)وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا[53](.

عود إلى الاستدلال على تفرده تعالى بالخلق. جمعت هذه الآية استدلالا وتمثيلا وتثبيتا ووعدا، فصريحها استدلال على شيء عظيم من آثار القدرة الإلهية وهو التقاء الأنهار والأبحر كما سيأتي، وفي ضمنها تمثيل لحال دعوة الإسلام في مكة يومئذ واختلاط المؤمنين مع المشركين بحال تجاوز البحرين: أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج. وتمثيل الإيمان بالعذب الفرات والشرك بالملح الأجاج، وأن الله تعالى كما جعل بين البحرين برزخا يحفظ العذب من أن يكدره الأجاج، وكذلك حجز بين المسلمين والمشركين فلا يستطيع المشركون أن يدسوا كفرهم بين المسلمين. وفي هذا تثبيت للمسلمين بأن الله يحجز عنهم ضر المشركين لقوله)لن يضروكم إلا أذى(. وفي ذلك تعريض كنائي بأن الله ناصر لهذا الدين من أن يكدره الشرك.

ولأجل ما فيها من التمثيل والتثبيت والوعد كان لموقعها عقب جملة)فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاد كبيرا(أكمل حسن. وهي معطوفة على جملة)وهو الذي أرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته(. ومناسبة وقوعها عقب التي قبلها أن كلتيهما استدلال بآثار القدرة في تكوين المياه المختلفة. ومفاد القصر هنا نظير ما تقدم في الآيتين السابقتين .

والمزج: الخلط. واستعير هنا لشدة المجاورة، والقرينة قوله)وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا(. والبحر: الماء المستبحر، أي الكثير العظيم. والعذاب: الحلو. والفرات: شديد الحلاوة. والملح بكسر الميم وصف به بمعنى الملح، ولا يقال في الفصيح إلا ملح وأما مالح فقليل. وأريد هنا ملتقى ماء نهري الفرات والدجلة مع ماء بحر خليج العجم.

والبرزخ: الحائل بين شيئين. والمراد بالبرزخ تشبيه ما في تركيب الماء الملح مما يدفع تخلل الماء العذب فيه بحيث لا يخلط أحدهما بالآخر ويبقى كلاهما حافظا لطعمه عند المصب.

)وحجرا(مصدر منصوب على المفعولية به لأنه معطوف على مفعول)جعلنا(. وليس هنا مستعملا في التعوذ كالذي تقدم آنفا في قوله تعالى)ويقولون حجرا ومحجورا(. و)محجروا(وصف ل)حجرا(مشتق من مادته للدلالة على تمكن المعنى المشتق منه كما قالوا: ليل أليل. وقد تقدم في هذه السورة. ووقع في الكشاف تكلف بجعل)حجرا محجورا(هنا بمعنى التعوذ كالذي في قوله) ويقولون حجرا محجورا(ولا داعي إلى ذلك لأن ما ذكروه من استعمال)حجرا محجورا(في التعوذ لا يقتضي أنه لا يستعمل إلا كذلك.

)وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا[54](.

صفحة : 2979

مناسبة موقع هذا الاستدلال بعد ما قبله أنه استدلال بدقيق آثار القدرة في تكوين المياه وجعلها سبب حياة مختلفة الأشكال والأوضاع. ومن أعظمها دقائق الماء الذي خلق منه أشرف الأنواع التي على الأرض وهو نطفة الإنسان بأنها سبب تكوين النسل للبشر فإنه يكون أول أمره ماء ثم يتخلق منه البشر العظيم، فالتنوين في قوله)بشرا(للتعظيم.

والقصر المستفاد من تعريف الجزئين قصر إفراد لإبطال دعوى شركة الأصنام لله في الإلهية.

والبشر: الإنسان. وقد تقدم في قوله تعالى)فتمثل لها بشرا سويا(في سورة مريم. والضمير المنصوب في)فجعله(عائد إلى البشر، أي فجعل البشر الذي خلقه من الماء نسبا وصهرا، أي قسم الله البشر قسمين نسب، وصهر. فالواو للتقسيم بمعنى)أو(والواو أجود من)أو(في التقسيم.

و)نسبا وصهرا(مصدران سمي بهما صنفان من القرابة على تقدير: ذا نسب وصهر وشاع وذلك في الكلام.
والنسب لا يخلو من أبوة وبنوة وأخوة لأولئك وبنوة لتلك الأخوة .
وأما الصهر فهو: اسم لما بين المرء وبين قرابة زوجه وأقاربه من العلاقة، ويسمى أيضا مصاهرة لأنه يكون من وجتهين، وهو آصره اعتبارية تتقوم بالإضافة إلى ما تضاف إليه، فصهر الرجل قرابة امرأته، وصهر المرأة قرابة زوجها، ولذلك يقال: صاهر فلان فلانا إذا تزوج من قرابته ولو قرابة بعيدة كقرابة القبيلة. وهذا لا يخلوا عنه البشر المتزوج وغير المتزوج.
ويطلق الصهر على من له مع الآخرة علاقة المصاهرة من إطلاق المصدر في موضع الوصف فالأكثر حينئذ أن يخص بقريب زوج الرجل، وأما قريب زوج المرأة فهو ختن لها أو حم. ولا يخلو أحد عن آصرة صهر ولو بعيدا. وقد أشار إلى ما في هذا الخلق العجيب من دقائق نظام إيجاد طبيعي واجتماعي بقوله)وكان ربك قديرا(، أي عظيم القدرة إذ أوجد من هذا الماء خلقا عظيما صاحب عقل وتفكير فاختص باتصال أواصر النسب وأواصر الصهر، وكان ذلك أصل نظام الاجتماع البشري لتكوين القبائل والشعوب وتعاونهم مما جاء بهذه الحضارة المرتقية مع العصور والأقطار قال تعالى)يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا(.
وفي تركيب)وكان ربك قديرا(من دقيق الإيذان بأن قدرته راسخة واجبة له متصف بها في الأزل بما اقتضاه فعل)كان(، وما في صيغة)قدير(من الدلالة على قوة القدرة المقتضية تمام الإرادة والعلم.
)ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا[55](.
الواو للحال، وهذا مستعمل في التعجيب من استمرارهم في الشرك، وأعقب ذكر ما نفع الله به الناس من إلطافه بهم في تصاريف الكائنات إذ جعل لهم الليل والنهار، وخلق لهم الماء فأنبت به الزرع وسقى به الناس والأنعام، مع ما قارنه من دلائل القدرة بذكر عبادتهم ما لا ينفع الناس عودا إلى حكاية شيء من أحوال مشركي مكة.
ونفي الضر بعد نفي النفع للتنبيه على انتفاء شبهة عبدة الأصنام في شركهم لأن موجب العبادة إما رجاء النفع وإما اتقاء ضر المعبود وكلاهما منتف عن الأصنام بالمشاهدة.
والتعبير بالفعل المضارع للدلالة على تجدد عبادتهم الأصنام وعدم إجداء الدلائل المقلعة عنها في جانبهم.

وجملة)وكان الكافر على ربه ظهيرا(تذييل لما قبله، فاللام في تعريف)الكافر(للاستغراق، أي على كل كافر على ربه ظهير.
وجعل الخبر عن الكافر خبرا ل)كان(للدلالة على إن اتصافه بالخبر أمر متقرر معتاد من كل كافر.
والظهير: المظاهر، أي المعين، وتقدم في قوله تعالى)ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا(في سورة الإسراء وهو فعيل بمعنى مفاعل، أي مظاهر مثل حكيم بمعنى محكم، وعوين بمعنى معاون. وقول عمر بن معد يكرب:
من ريحانة الداعي السميع

أي المسمع. قال في الكشاف)ومجيء فعيل بمعنى مفاعل غير عزيز(. وهو مشتق من: ظاهر عليه، إذا أعان من يغالبه على غلبه، وأصله الأصيل مشتق من اسم جامد وهو اسم الظهر من الإنسان أو الدابة لأن المعاون أحدا على غلب غيره كأنه يحمل الغالب على المغلوب كما يحمل على ظهر الحامل، جعل المشرك في إشراكه مع وضوح دلالة عدم استئهال الأصنام للإلهية كأنه ينصر الأصنام على ربه الحق. وفي ذكر الرب تعريض بأن الكافر عاق لمولاه. وعن أبي عبيدة: ظهير بمعنى مظهور، أي كفر الكافر هين على الله، يعني أي فعيلا فيه بمعنى مفعول، أي مظهور عليه وعلى هذا يكون)على(متعلقا بفعل)كان(أي كان على الله هينا.
)وما أرسلنك إلا مبشرا ونذيرا[56] قل ما أسئلكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا[57](.
لما أفضى الكلام بأفانين انتقالاته إلى التعجيب من استمرارهم على أن يعبدوا ما لا يضرهم ولا ينفعهم أعقب بما يومئ إلى استمرارهم على تكذيبهم محمد صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة بنسبة ما بلغه إليهم إلى الإفك، وأنه أساطير الأولين، وأنه سحر، فأبطلت دعاويهم كلها بوصف النبي بأنه مرسل من الله، وقصره على صفتي التبشير والنذارة. وهذا الكلام الوارد في الرد عليهم جامع بين إبطال إنكارهم لرسالته وبين تأنيس الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه ليس بمضل ولكنه مبشرا ونذير. وفيه تعريض بأن لا يحزن لتكذيبهم إياه.
ثم أمره بأن يخاطبهم بأنه غير طامع من دعوتهم في أن يعتز باتباعهم إياه حتى يحسبوا أنهم إن أعرضوا عنه فقد بلغوا من النكاية به أملهم، بل ما عليه إلا التبليغ بالتبشير والنذارة لفائدتهم لا يريد منهم الجزاء على عمله ذلك.

والأجر: العوض على العمل ولو بعمل آخر يقصد به الجزاء.
والاستثناء تأكيد لنفي أن يكون يسألهم أجرا لأنه استثناء من أحوال عامة محذوف ما يدل عليها لقصد التعميم، والاستثناء معيار العموم فلذلك كثر في كلام العرب أن يجعل تأكيد الفعل في صورة الاستثناء، ويسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم، وبعبارة أتقن تأكيد الشيء بما يشبه ضده وهو مرتبتان: منه ما هو تأكيد محض وهو ما كان المستثنى فيه منقطعا عن المستثنى منه أصلا كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن

فلول من قراع الكتائب فإن فلول سيفهم ليس من جنس العيب فيهم بحال؛ ومنه مرتبة ما هو تأكيد في الجملة وهو ما المستثنى فيه ليس من جنس المستثنى منه لكنه قريب منه بالمشابهة لم يطلق عليه اسم المشبه به بما تضمنه الاستثناء كما في قوله)قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى(؛ ألا ترى أنه نفى أن يكون يسألهم أجرا على الإطلاق في قوله)قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين(. فقوله تعالى)إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا(من قبيل المرتبة الثانية لأن الكلام على حذف مضاف يناسب أجرا إذ التقدير: إلا عمل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا، وذلك هو اتباع دين الإسلام. ولما كان هذا إجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم أشبه الأجر على تلك الدعوة فكان نظير قوله)قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى(. وقد يسمون هذا الاستثناء الاستثناء المنقطع ويقدرونه كالاستدراك.
والسبيل: الطريق. واتخاذ السبيل تقدم آنفا في قوله)يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا(. وجعل السبيل هنا إلى الله لأنه وسيلة إلى إجابته فيما دعاهم إليه وهذا كقوله تعلى)فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا(.
وذكر وصف الرب دون الاسم العلم للإشارة إلى استحقاقه السير إليه لأن العبد محقوق بأن يرجع إلى ربه وإلا كان آبقا.
)وتوكل على الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا[58](عطف على جملة)قل ما أسألكم عليه من أجر(أي قل لهم ذلك وتوكل على الله في دعوتك إلى الدين فهو الذي يجازيك على ذلك ويجازيهم.
والتوكل: الاعتماد وإسلام الأمور إلى المتوكل عليه وهو الوكيل، أي المتولي مهمات غيره، وقد تقدم في قوله)فإذا عزمت فتوكل على الله(في آل عمران.

و)الحي الذي لا يموت(هو الله تعالى. وعدل عن اسم الجلالة إلى هذين الوصفين لما يؤذن به من تعليل الأمر بالتوكل عليه لأنه الدائم فيفيد ذلك معنى حصر التوكل في الكون عليه، فالتعريف في)الحي(للكامل، أي الكامل حياته لأنها واجبة باقية مستمرة وحياة غيره معرضة للزوال بالموت ومعرضة لاختلال أثرها بالذهول كالنوم ونحوه فإنه من جنس الموت، فالتوكل على غيره معرض للاختلال وللانخرام. وفي ذكر الوصفين تعريض بالمشركين إذ ناطوا آمالهم بالأصنام وهي أموات غير أحياء.

وفي الآية إشارة إلى أن المرء الكامل لا يثق إلا بالله لأن التوكل على الأحياء المعرضين للموت وإن كان قد يفيد أحيانا لكنه لا يدوم.

وأما أمره بالتسبيح فهو تنزيه الله عما لا يليق به وأول ذلك الشركة في الإلهية أي إذا أهمك أمر إعراض المشركين عن دعوة الإسلام فعليك نفسك فنزه الله.

والباء في)بحمده(للمصاحبة، أي سبحه تسبيحا مصاحبا للثناء عليه بما هو أهله. فقد جمع له في هذا الأمر التخلية والتحلية مقدما التخلية لأن شأن الإصلاح أن يبدأ بإزالة النقص.

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم يشمل الأمة ما لم دليل على الخصوصية.

وجملة)وكفى به بذنوب عباده خبيرا(اعتراض في آخر الكلام، فيفيد معنى التذييل لما فيه من الدلالة على عموم علمه تعالى بذنوب الخلق، ومن ذلك أحوال المشركين الذين هم غرض الكلام. ففي)ذنوب عباده(عمومان عموم ذنوبهم كلها لإفادة الجمع المضاف عموم إفراد المضاف، وعموم الناس لإضافة)عباد(إلى ضمير الجلالة، أي جميع عباده، مع ما في صيغة)خبير(من شدة العلم وهو يستلزم العموم فكان كعموم ثالث. والكفاية: الإجزاء، وفي فعل)كفى(لإفادة أنه لا يحتاج إلى غيره وهو مستعمل في الأمر بالاكتفاء بتفويض الأمر إليه.

والباء لتأكيد إسناد الفعل إلى الفاعل. وقد كثر دخول باء التأكيد بعد فعل الكفاية على فاعله أو مفعوله، وتقدم في قوله تعالى)كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا(في سورة الإسراء. و)خبيرا(حال من ضمير)به(أي كفى به من حيث الخبرة.

والعلم بالذنوب كناية عن لازمه وهو أن يجازيهم عن ذنوبهم، والشرك جامع الذنوب. وفي الكلام أيضا تعريض بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من أذاهم.

)الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فسئل به خبيرا[59](أجريت هذه الصلة وصفا

ثانيا ل)الحي الذي لا يموت(لاقتضائها سعة العلم وسعة القدرة وعظيم المجد، فصاحبها حقيق بأن يتوكل عليه ويفوض أمر الجزاء إليه. وهذا تخلص إلى العود إلى الاستدلال على تصرف الله تعالى بالخلق.

وتقدم الكلام على خلق السماوات والأرض في ستة أيام في سورة البقرة، وعلى الاستواء في سورة الأعراف.

و)الرحمان(خبر مبتدأ محذوف، أي هو الرحمان. وهذا من حذف المسند إليه الغالب في الاستعمال عندما تتقدم أخبار أو أوصاف لصاحبها، ثم يراد الإخبار عنه بما هو إفصاح عن وصف جامع لما مضى أو أهم في الغرض مما تقدمه، فإن وصف الرحمان أهم في الغرض المسوق له الكلام وهو الأمر بالتوكل عليه فإنه وصف يقتضي أنه يدبر أمور من توكل عليه بقوي الإسعاف.

وفرع على وصفه ب)الرحمان(قوله)فاسأل به خبيرا(للدلالة على أن في رحمته من العظمة والشمول ما لا تفي فيه العبارة فيعدل عن زيادة التوصيف إلى الحوالة على العليم بتصاريف رحمته مجرب لها متلق أحاديثها ممن علمها وجربها.

وتنكير)خبيرا(للدلالة على العموم، فلا يظن خبيرا معينا، لأن النكرة إذا تعلق بها فعل اقتضت عموما بدليل أي خبير سألته أعلمك.

وهذا يجري مجرى المثل، ولعله من مبتكرات القرآن نظير قول العرب)على الخبير سقطت(يقولها العارف بالشيء إذا سئل عنه. والمثلان وإن تساويا في عدد الحروف المنطوق بها فالمثل القرآني أفصح لسلامته من ثقل تلاقي القاف والطاء والتاء في)سقطت(. وهو أيضا أشرف لسلامته من معنى السقوط، وهو أبلغ معنى لما فيه من عموم كل خبير، بخلاف قولهم: على الخبير سقطت، لأنها إنما يقولها الواحد المعين. وقريب من معنى)فأسأل خبيرا(قول النابغة:

هلا سألت بني ذبيان ما حسبـي إذا الدخان تغشى الأشمط البرما إلى قوله:

يخبرك ذو عرضهم عني وعالمهم

وليس جاهل شيء مثل من علما والباء في)به(بمعنى)عن(أي فأسأل عنه كقول علقمة:

فإن تسألوني بالنساء فإنني خبير

بأدواء النساء طبيب ويجوز أن تكون الباء متعلقة ب)خبيرا(وتقديم المجرور للرعي على الفاصلة وللاهتمام، فله سببان.

)وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا)60((.

لما جرى وصف الله تعالى بالرحمن مع صفات أخر استطرد ذكر كفر المشركين بهذا الوصف. وقد علمت عند الكلام على البسملة في أول هذا التفسير أن وصف الله تعالى باسم)الرحمان(هو من وضع القرآن ولم يكن معهودا للعرب، وأما قول شاعر اليمامة في مدح مسيلمة:

سموت بالمجد يابن الأكرمين أبـا

وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا فذلك بعد ظهور الإسلام في مدة الردة، ولذلك لما سمعوه من القرآن أنكروه قصدا بالتورك على النبي صلى الله عليه وسلم وليس ذلك عن جهل بمدلول هذا الوصف ولا بكونه جاريا على مقاييس لغتهم ولا أنه إذا وصف الله به فهو رب واحد وأن التعدد في الأسماء؛ فكانوا يقولون: انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو الله ويدعو الرحمان. وفي ذلك نزل قوله تعالى)قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى(. وقد تقدم في آخر سورة الإسراء. وهذه الآية تشير إلى آية سورة الإسراء.

والخبر هنا مستعمل كناية في التعجيب من عنادهم وبهتانهم، وليس المقصود إفادة الإخبار عنهم بذلك لأنه أمر معلوم من شأنهم.

والسجود الذي أمروا به سجود الاعتراف له بالوحدانية وهو شعار الإسلام، ولم يكن السجود من عبادتهم وإنما كانوا يطوفون بالأصنام، وأما سجود الصلاة التي هي من قواعد الإسلام فليس مرادا هنا إذ لم يكونوا ممن يؤمر بالصلاة ولا فائدة في تكليفهم بها قبل أن يسلموا. ويدل لذلك حديث معاذ بن جبل حين أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فأمره أن يدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ثم قال: فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة الخ. ومسألة تكليف الكفار بفروع الشريعة لا طائل تحتها.

وواو العطف في قولهم)وما الرحمان(لعطفهم الكلام الذي صدر منهم على الكلام الذي وجه إليهم في أمرهم بالسجود للرحمن، على طريقة دخول العطف بين كلامي متكلمين كما في قوله تعالى)قال إني جاعلك إماما قال ومن ذريتي(. و)ما(من قوله)وما الرحمان(استفهامية.

والاستفهام مستعمل في الاستغراب، يعنون تجاهل هذا الاسم، ولذلك استفهموا عنه بما دون)من(باعتبار السؤال عن معنى هذا الاسم.

والاستفهام في)أنسجد لما تأمرنا(إنكار وامتناع، أي لا نسجد لشيء تأمرنا بالسجود له على أن)ما(نكرة موصوفة، أو لا نسجد للذي تأمرنا بالسجود له إن كانت)ما(موصولة. وحذف العائد من الصفة أو الصلة مع ما أتصل هو به لدلالة ما سبق عليه، ومقصدهم من ذلك إباء السجود لله لأن السجود الذي أمروا به سجود لله بنية انفراد الله دون غيره، وهم لا يجيبون إلى ذلك كما قال الله تعالى)وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون(، أي فيأبون، وقال:) وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون(. ويدل على ذلك قوله)وزادهم نفورا(فالنفور من السجود سابق قبل سماع اسم الرحمن.

وقرأ الجمهور)تأمرنا(بتاء الخطاب. وقرأه حمزة والكسائي بياء الغيبة على أن قولهم ذلك يقولونه بينهم ولا يشافهون به النبي صلى الله عليه وسلم.

والضمير المستتر في)زادهم(عائد إلى القول المأخوذ من)وإذا قيل لهم(. والنفور: الفرار من الشيء. وأطلق هنا على لازمه وهو البعد. وإسناد زيادة النفور إلى القول لأنه سبب تلك الزيادة فهم كانوا أصحاب نفور من سجود لله فلما أمروا بالسجود للرحمان زادوا بعدا من الإيمان، وهذا كقوله في سورة نوح)فلم يزدهم دعائي إلا فرارا(.

صفحة : 2983

وهذا موضع سجدة من سجود القرآن بالاتفاق. ووجه السجود هنا إظهار مخالفة المشركين إذ أبوا السجود للرحمن، فلما حكي إباؤهم من السجود للرحمان في معرض التعجيب من شأنهم عزز ذلك بالعمل بخلافهم فسجد النبي صلى الله عليه وسلم هنا مخالفا لهم مخالفة بالفعل مبالغة في مخالفته لهم بعد أن أبطل كفرهم بقوله)وتوكل على الحي الذي لا يموت(الآيات الثلاث. وسن الرسول عليه السلام السجود في هذا الموضع.

)تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سرجا وقمرا منيرا[61](.

استئناف ابتدائي جعل تمهيدا لقوله)وعباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هونا(الآيات التي هي محصول الدعامة الثالثة من الدعائم الثلاث التي أقيم عليها بناء هذه السورة، وافتتحت كل

دعامة منها ب)تبارك الذي...(الخ كما تقدم في صدر السورة. وافتتح ذلك بإنشاء الثناء على الله بالبركة والخير لما جعله للخلق من المنافع. وتقدم)تبارك(أول السورة وفي قوله)تبارك الله رب العالمين(في الأعراف.

والبروج: منازل مرور الشمس فيما يرى الراصدون. وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى)ولقد جعلنا في السماء بروجا(في أول سورة الحج.

والامتنان بها لأن الناس يوقتون بها أزمانهم.

وقرأ الجمهور)سراجا(بصيغة المفرد. والسراج: الشمس كقوله) وجعل الشمس سراجا(في سورة نوح. ومناسبة ذلك لما يرد بعده من قوله)وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة....(.

وقرأ حمزة والكسائي)سرجا(بضم السين والراء جمع سراج فيشمل مع الشمس النجوم، فيكون امتنانا بحسن منظرها للناس كقوله)ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح(. والامتنان بمحاسن المخلوقات وارد في القرآن قال تعالى)ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون(.

والكلام جار على التشبيه البليغ لأن حقيقة السراج: المصباح الزاهر الضياء. والمقصود: أنه جعل الشمس مزيلة للظلمة كالسراج، أو خلق النجوم كالسراج في التلألؤ وحسن المنظر.

ودلالة خلق البروج والشمس والقمر على عظيم القدرة دلالة بينة للعاقل، وكذلك دلالته على دقيق الصنع ونظامه بحيث لا يختل ولا يختلف حتى تسنى للناس رصد أحوالها وإناطة حسابهم بها.

)وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا[62](.

الاستدلال هذا بما في الليل والنهار من اختلاف الحال بين ظلمة ونور، وبرد وحر، مما يكون بعضه أليق ببعض الناس من بعض ببعض آخر، وهذا مخالف للاستدلال الذي في قوله) وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا(، فهذه دلالة أخرى والحكم في المخلوقات كثيرة.

والقصر هنا قصر حقيقي وليس إضافيا فلذلك لا يراد به الرد على المشركين بخلاف صيغ القصر السابقة من قوله) وهو الذي جعل لكم الليل لباسا(إلى قوله)وكان ربك قديرا(.

والخلفة بكسر الخاء وسكون اللام: اسم لما يخلف غيره في بعض ما يصلح له. صيغ هذا الاسم على زنة فعلة لأنه في الأصل ذو خلفة، أي صاحب حالة خلف فيها غيره ثم شاع استعماله فصار اسما، قال زهير:

بها العين والآرام يمشين خلـفة
وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم أي يمشي سرب ويخلفه سرب آخر ثم يتعاقب هكذا. فالمعنى: جعل الليل خلفة والنهار خلفة: أي كل واحد منهما خلفة عن الآخر، أي فيما يعمل فيها من التدبر في أدلة العقيدة والتعبد والتذكر.
واللام في)لمن أراد أن يذكر(لام التعليل وهي متعلقة ب)جعل(، فأفاد ذلك أن هذا الجعل نافع من أراد أن يذكر أو أراد شكورا.
والتذكر: تفعل من الذكر، أي تكلف الذكر. والذكر جاء في القرآن بمعنى التأمل في أدلة الدين، وجاء بمعنى: تذكر فائت أو منسي، ويجمع المعنيين استظهار ما احتجب عن الفكر.
والشكور: بضم الشين مصدر مرادف الشكر، والشكر: عرفان إحسان المحسن. والمراد به هنا العبادة لأنها شكر لله تعالى.

صفحة : 2984

فتفيد الآية معنى: لينظر في اختلافهما المتفكر فيعلم أن لابد لانتقالهما من حال إلى حال مؤثر حكيم فيستدل بذلك على توحيد الخالق ويعلم أنه عظيم القدرة فيوقن بأنه لا يستحق غيره الإلهية، وليشكر الشاكر على ما في اختلاف الليل والنهار من نعم عظيمة منها ما ذكر في قوله تعالى)وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا(فيكثر الشاكرون على اختلاف أحوالهم ومناسباتهم، وتفيد معنى: ليتدارك الناسي ما فاته في الليل بسبب غلبة النوم أو التعب فيقضيه في النهار أو ما شغله عنه شواغل العمل في النهار فيقضيه بالليل عند التفرغ فلا يرزؤه ذلك ثواب أعماله. روي أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى يوما فقيل له: صنعت شيئا لم تكن تصنعه ? فقال: إنه بقى علي من وردي شيء فأحببت أن أقضيه وتلا قوله تعالى)وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة(الآية. ولمن أراد أن يتقرب إلى الله شكرا له بصلاة أو صيام فيكون الليل أسعد ببعض ذلك والنهار أسعد ببعض، فهذا مفاد عظيم في إيجاز بديع.
وجيء في جانب المتذكرين بقوله)أن يذكر(لدلالة المضارع على التجدد. واقتصر في جانب الشاكرين على المصدر بقوله)أو أراد شكورا(لأن الشكر يحصل دفعة. ولأجل الاختلاف بين النظمين أعيد فعل)أراد(إذ لا يلتئم عطف)شكورا(على)أن يذكر(.
وقرأ الجمهور)ان يذكر(بتشديد الذال مفتوحة، وأصله: يتذكر فأدغمت التاء في الذال لتقاربهما. وقرأ حمزة وخلف)أن

يذكر(بسكون الذال وضم الكاف وهو بمعنى المشدد إلا أن المشدد أشد عملا، وكلا العملين يستدركان في الليل والنهار.
)وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلما[63](عطف جملة على جملة، فالجملة المعطوفة هي)عباد الرحمان(الخ، فهو مبتدأ وخبره)الذين يمشون على الأرض هونا(الخ. وقيل: الخبر)أولئك يجزون الغرفة بما صبروا(. والجملة المعطوف عليها جملة) وهو الذي جعل لكم الليل والنهار خلفة(الخ. فبمناسبة ذكر من أراد أن يذكر تخلص إلى خصال المؤمنين أتباع النبي صلى الله عليه وسلم حتى تستكمل السورة أغراض التنويه بالقرآن ومن جاء به ومن اتبعوه كما أشرنا إليه في الإلمام بأهم أغراضها في طالعة تفسيرها. وهذا من أبدع التخلص إذ كان مفاجئا للسامع مطمعا أنه استطراد عارض كسوابقه حتى يفاجئه ما يؤذن بالختام وهو)قل ما يعبأ بكم ربي(الآية.
والمراد ب)عباد الرحمان(بادئ ذي بدء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالصلات الثمان التي وصفوا بها في هذه الآية حكاية لأوصافهم التي اختصوا بها.
وإذ قد أجريت عليهم تلك الصفات في مقام الثناء والوعد بجزاء الجنة، علم أن من اتصف بتلك الصفات موعود بمثل ذلك الجزاء وقد شرفهم الله بأن جعل عنوانهم عباده، واختار لهم من الإضافة إلى اسمه اسم الرحمان لوقوع ذكرهم بعد ذكر الفريق الذين قيل لهم: اسجدوا للرحمن. قالوا: وما الرحمان. فإذا جعل المراد من)عباد الرحمان(أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كان الخبر في قوله) الذين يمشون على الأرض هونا(إلى آخر المعطوفات وكان قوله الآتي) أولئك يجزون الغرفة بما صبروا(استئنافا لبيان كونهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة.
وإذا كان المراد من)عباد الرحمن(جميع المؤمنين المتصفين بمضمون تلك الصلات كانت تلك الموصولات وصلاتها نعوتا ل)عباد الرحمن(وكان الخبر اسم الإشارة في قوله)أولئك يجزون الغرفة(الخ.
وفي الإطناب بصفاتهم الطيبة تعريض بأن الذين أبوا السجود للرحمن وزادهم نفورا هم على الضد من تلك المحامد، تعريضا تشعر به إضافة)عباد(إلى)الرحمن(.
واعلم أن هذه الصلات التي أجريت على)عباد الرحمان(جاءت على أربعة أقسام: قسم هو من التحلي بالكمالات الدينية وهي التي ابتدئ بها من قوله تعالى)الذين يمشون على الأرض هونا(إلى قوله) سلاما(.

وقسم هو من التخلي عن ضلالات أهل الشرك وهو الذي من قوله)والذين لا يدعون مع الله إلها آخر(.
وقسم هو من الاستقامة على شرائع الإسلام وهو قوله)والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما(، وقوله)والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا(الآية، وقوله)ولا يقتلون النفس(إلى قوله)لا يشهدون الزور(الخ.

صفحة : 2985

وقسم من تطلب الزيادة من صلاح الحال في هذه الحياة وهو قوله)والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا(إلى قوله)للمتقين إماما(.
وظاهر قوله)يمشون على الأرض هونا(أنه مدح لمشية بالأرجل وهو الذي حمل عليه جمهور المفسرين.
وجوز الزجاج أن يكون قوله)يمشون(عبارة عن تصرفاتهم في معاشرة الناس فعبر عن ذلك بالانتقال في الأرض وتبعه ابن عطية وهذا الذي ذكره مأخوذ مما روي عن زيد بن أسلم كما سيأتي.
فعلى الوجه الأول يكون تقييد المشي بأنه على الأرض ليكون في وصفه بالهون ما يقتضي أنهم يمشون كذلك اختيارا وليس ذلك عند المشي في الصعدات أو على الجنادل.
والهون: اللين والرفق. ووقع هنا صفة لمصدر المشي محذوف تقديره)مشيا(فهو منصوب على النيابة عن المفعول المطلق.
والمشي الهون: هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام وخفق النعال فهو مخالف لمشي المتجبرين المعجبين بنفوسهم وقوتهم. وهذا الهون ناشئ عن التواضع لله تعالى والتخلق بآداب النفس العالية وزوال بطر أهل الجاهلية فكانت هذه المشية من خلال الذين آمنوا على الضد من مشي أهل الجاهلية. وعن عمر بن الخطاب أنه رأى غلاما يتبختر في مشيته فقال له)إن البخترة مشية تكره إلا في سبيل الله(. وقد مدح الله تعالى أقواما بقوله سبحانه)وعباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هونا(فاقصد من مشيتك، وحكى الله تعالى عن لقمان لابنه)ولا تمش في الأرض مرحا(.
والتخلق بهذا الخلق مظهر من مظاهر التخلق بالرحمة المناسب لعباد الرحمان لأن الرحمة ضد الشدة فالهون يناسب ماهيتها وفيه سلامة من صدم المارين.
وعن زيد بن أسلم قال: كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى:)الذين يمشون على الأرض هونا(فما وجدت في ذلك شفاء فرأيت في

المنام من جاءني فقال لي:)هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض(. فهذا رأي لزيد بن أسلم ألهمه يجعل معنى)يمشون على الأرض(أنه استعارة للعمل في الأرض كقوله تعالى)وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها(وأن الهون مستعار لفعل الخير لأنه هون على الناس كما يسمى بالمعروف.

وقرن وصفهم بالتواضع في سمتهم وهو المشي على الأرض هونا بوصف آخر يناسب التواضع وكراهية التطاول وهو متاركة الذين يجهلون عليهم في الخطاب بالأذى والشتم وهؤلاء الجاهلون يومئذ هم المشركون إذ كانوا يتعرضون للمسلمين بالأذى والشتم فعلمهم الله متاركة السفهاء، فالجهل هنا ضد الحلم، ولذلك أشهر إطلاقاته عند العرب قبل الإسلام وذلك معلوم في كثير من الشعر والنثر.

وانتصب)سلاما(على المفعولية المطلقة. وذكرهم بصفة الجاهلين دون غيرها مما هو أشد مذمة مثل الكافرين لأن هذا الوصف يشعر بأن الخطاب الصادر منهم خطاب الجهالة والجفوة.

و)السلام(يجوز أن يكون مصدرا بمعنى السلامة، أي لا خير بيننا ولا شر فنحن مسلمون منكم. ويجوز أن يكون مرادا به لفظ التحية فيكون مستعملا في لازمه وهو المتاركة لأن أصل استعمال لفظ السلام في التحية أنه يؤذن بالتأمين، أي عدم الإهاجة، والتأمين: أول ما يلقى به المرء من يريد إكرامه، فتكون الآية في معنى قوله) وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين(.

قال ابن عطية: وأريت في بعض التواريخ أن إبراهيم بن المهدي وكان من المائلين على علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال يوم بحضرة المأمون وعنده جماعة: كنت أرى علي بن أبي طالب في النوم فكنت أقول له: من أنت؟ فكان يقول: علي بن أبي طالب، فكنت أجيء معه إلى قنطرة فيذهب فيتقدمني في عبورها أقول: إنما تدعي هذا الأمر بامرأة ونحن أحق به منك، فما رأيت له في الجواب بلاغة كما يذكر عنه، قال المأمون: وبماذا جاوبك؟ قال: فكان يقول لي: سلاما. قال الراوي: فكأن إبراهيم بن المهدي لا يحفظ الآية أو ذهبت عنه في ذلك الوقت، فنبه المأمون على الآية من حضره وقال: هو والله يا عم علي بن أبي طالب وقد جاوبك بأبلغ جواب، فخزي إبراهيم واستحيا. ولأجل المناسبة بين الصيغتين عطفت هذه على الصلة الأولى. ولم يكرر اسم الموصول كما كرر في الصفات بعدها.

)والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما[64](عطف صفة أخرى على صفتيهم السابقتين على حد قول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم وإعادة الموصول لتأكيد أنهم يعرفون بهذه الصلة، والظاهر أن هذه الموصولات وصلاتها كلها أخبار أو أوصاف لعباد الرحمن. روي عن الحسن البصري أنه كان إذا قرأ)الذين يمشون على الأرض هونا(قال: هذا وصف نهارهم ثم إذا قرأ)والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما(قال: هذا وصف ليلهم.

والقيام: جمع قائم كالصحاب، والسجود والقيام ركنا الصلاة، فالمعنى: يبتون يصلون، فوق إطناب في التعبير عن الصلاة بركنيها تنويها بكليهما. وتقديم)سجدا(على)قياما(للرعي على الفاصلة مع الإشارة إلى الاهتمام بالسجود وهو ما يبينه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيري التهجد كما أثنى الله عليهم بذلك بقوله)تتجافى جفونهم عن المضاجع(.

)والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما[65] إنها ساءت مستقرا ومقاما[66](دعاؤهم هذا أمارة على شدة مخافتهم الذنوب فهم يسعون في مرضاة ربهم لينجوا من العذاب، فالمراد بصرف العذاب: إنجاؤهم منه بتيسير العمل الصالح وتوفيره واجتناب السيئات.

وجملة)إن عذابها كان غراما(يجوز أن تكون حكاية من كلام القائلين. ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى معرضة بين اسمي الموصول، وعلى كل فهي تعليل لسؤال صرف عذابها عنهم.

والغرام: الهلاك الملح الدائم، وغلب إطلاقه على الشر المستمر.

وجملة)إنها ساءت مستقرا ومقاما(يجوز أن تكون حكاية لكلام القائلين فتكون تعليلا ثانيا مؤكدا لتعليلهم الأول، وأن تكون من جانب الله تعالى دون التي قبلها فتكون تأيدا لتعليل القائلين. وأن تكون من كلام الله مع التي قبلها فتكون تكريرا للاعتراض.

والمستقر: مكان الاستقرار. والاستقرار: قوة القرار. والمقام: اسم مكان الإقامة، أي ساءت موضعا لمن يستقر فيها بدون إقامة مثل عصاة أهل الأديان ولمن يقيم فيها من المكذبين للرسل المبعوثين إليهم.

)والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما[67] (أفاد قوله)إذا أنفقوا(أن الإنفاق من خصالهم فكأنه قال: والذين ينفقون وإذا أنفقوا الخ. وأريد بالإنفاق هنا الإنفاق غير الواجب وذلك إنفاق المرء على أهل بيته وأصحابه لأن الإنفاق الواجب لا يذم

الإسراف فيه، والإنفاق الحرام لا يحمد مطلقا بله أن يذم الإقتار فيه على أن في قوله)إذا أنفقوا(إشعارا بأنهم اختاروا أن ينفقوا ولم يكن واجبا عليهم.

والإسراف: تجاوز الحد الذي يقتضيه الإنفاق بحسب حال المنفق وحال المنفق عليه. وتقدم معنى الإسراف في قوله تعالى)ولا تأكلوها إسرافا(في سورة النساء، وقوله)ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين(في سورة الأنعام.

والإقتار عكسه. وكان أهل الجاهلية يسرفون في النفقة في اللذات ويغلون السباء في الخمر ويتممون الأيسار في الميسر. وأقوالهم في ذلك كثيرة في أشعارهم وهي في معلقة طرفة وفي معلقة لبيد وفي ميمية النابغة، ويفتخرون بإتلاف المال ليتحدث العظماء عنهم بذلك، قال الشاعر مادحا:

مفيد ومتلاف إذا ما أتيتـه تهلل

واهتز اهتزاز المهند وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر)ولم يقتروا(بضم التحتية وكسر الفوقية من الإقتار وهو مرادف التقتير. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح التحتية وكسر الفوقية من قتر من باب ضرب وهو لغة. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح التحتية وضم الفوقية من فعل قتر من باب نصر.

والإقتار والقتر: الإحجاف والنقص مما تسعه الثروة ويقتضيه حال المنفق عليه. وكان أهل الجاهلية يقترون على المساكين والضعفاء لأنهم لا يسمعون ثناء العظماء في ذلك. وقد تقدم ذلك عند قوله) كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين(.

والإشارة في قوله)بين ذلك(إلى ما تقدم بتأويل المذكور، أي الإسراف والإقتار.

والقوام بفتح القاف: العدل والقصد بين الطرفين.

والمعنى أنهم يضعون النفقات مواضعها الصالحة كما أمرهم الله فيدوم إنفاقهم وقد رغب الإسلام في العمل الذي يدوم عليه صاحبه، وليسير نظام الجماعة على كفاية دون تعريضه للتعطيل فإن الإسراف من شأنه استنفاد المال فلا يدوم الإنفاق، وأما الإقتار فمن شأنه إمساك المال فيحرم من يستأهله.

وقوله)بين ذلك(خبر)كان(، و)قواما(حال مؤكدة لمعنى)بين ذلك(. وفيها إشعار بمدح ما بين ذلك بأنه الصواب الذي لا عوج فيه. ويجوز أن يكون)قواما(خبر)كان(و)بين ذلك(ظرفا متعلقا به. وقد

جرت الآية على مراعاة الأحوال الغالبة في إنفاق الناس. قال القرطبي: والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله ولهذا ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق يتصدق بجميع ماله ومنع غيره من ذلك.

)والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلن النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما[68] يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا[69](هذا قسم آخر من صفات عباد الرحمن وهو قسم التخلي عن المفاسد التي كانت ملازمة لقومهم من المشركين؛ فتنزه عباد الرحمن عنها بسبب إيمانهم، وذكر هنا تنزههم عن الشرك وقتل النفس والزنا، وهذه القبائح الثلاث كانت غالبة على المشركين.

ووصف النفس ب)التي حرم الله(بيانا لحرمة النفس التي تقررت من عهد آدم فيما حكى الله من محاورة ولد آدم بقوله)قال لأقتلنك(الآيات، فتقرر تحريم قتل النفس من أقدم أزمان البشر ولم يجهله أحد من ذرية آدم، فذلك معنى وصف النفس بالموصول في قوله)التي حرم الله(. وكان قتل النفس متفشيا في العرب بالعداوات والغارات وبالوأد في كثير من القبائل بناتهم، وبالقتل لفرط الغيرة، كما قال امرؤ القيس:

تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا علي

حراصا لو يسرون مقتلي وقال عنترة:

علقتها عرضا وأقتل قومها زعما

لعمر أبيك ليس بمزعم وقوله)إلا بالحق(المراد به يومئذ: قتل قاتل أحدهم، وهو تهيئة لمشروعية الجهاد عقب مدة نزول هذه السورة. ولم يكن بيد المسلمين يومئذ سلطان لإقامة القصاص والحدود. ومضى الكلام على الزنى في سورة سبحان.

وقد جمع التخلي عن هذه الجرائم الثلاث في صلة موصول واحد ولم يكرر اسم الموصول كما كرر في ذكر خصال تحليهم، للإشارة إلى أنهم لما أقلعوا عن الشرك ولم يدعوا مع الله إلها آخر فقد أقلعوا عن أشد القبائح لصوقا بالشرك وذلك قتل النفس والزنى. فجل ذلك شبيه خصلة واحدة، وجعل في صلة موصول واحد.

وقد يكون تكرير)لا(مجزئا عن إعادة اسم الموصول وكافيا في الدلالة على أن كل خصلة من هذه الخصال موجبة لمضاعفة العذاب، ويؤيده ما في صحيح مسلم من حديث عبد الله ابن مسعود قال: قتل يا رسول الله أي الذنب أكبر?: قال أن تدعو لله ندا وهو خلقك. قلت: ثم أي? قال: أن تقتل ولدك خيفة أن يطعم معك. قلت ثم أي? قال: أن تزاني حليلة جارك. فأنزل الله تعالى

تصديقا)والذين لا يدعون مع الله إلها آخر(وإلى)أثاما(، وفي رواية ابن عطية ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية.
وقد علمت أن هذه الآيات الثلاث إلى قوله)غفورا رحيما(قيل نزلت بالمدينة.
والإشارة ب)ذلك(إلى ما ذكر من الكبائر على تأويله بالمذكور كما تقدم في نظيره آنفا، والمتبادر من الإشارة أنها إلى المجموع، أي من يفعل مجموع الثلاث ويعلم أن جزاء ما يفعل بعضها ويترك بعضا عدا الإشراك دون جزاء من يفعل جميعها، وأن البعض أيضا مراتب، وليس المراد من يفعل كل واحدة مما ذكر يلق أثاما لأن لقي الآثام بين هنا بمضاعفة العذاب والخلود فيه. وقد نهضت أدلة متظافرة من الكتاب والسنة على أن ما عدا الكفر من المعاصي لا يوجب الخلود، مما يقتضي تأويل ظواهر الآية.
ويجوز أن تكون مضاعفة العذاب مستعملة في معنى قوته، أي يعذب عذابا شديدا وليست لتكرير عذاب مقدر.
والأثام بفتح الهمزة جزاء الإثم على زنة الوبال والنكال، وهو أشد من الإثم، أي يجازى على ذلك سوءا لأنها آثام.

صفحة : 2988

وجملة)يضاعف له العذاب(بدل اشتمال من)يلق أثاما(، وإبدال الفعل من الفعل إبدال جملة فإن كان في الجملة فعل قابل للإعراب ظهر إعراب المحل في ذلك الفعل لأنه عماد الجملة. وجعل الجزاء مضاعفة العذاب والخلود.
فأما مضاعفة العذاب فهي أن يعذب على كل جرم مما ذكر عذابا مناسبا ولا يكتفي بالعذاب الأكبر عن أكبر الجرائم وهو الشرك، تنبيها على أن الشرك لا ينجي صاحبه من تبعة ما يقترفه من الجرائم والمفاسد، وذلك أن دعوة الإسلام للناس جاءت بالإقلاع عن الشرك وعن المفاسد كلها. وهذا معنى قول من قال من العلماء بأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة يعنون خطاب المؤاخذة على ما نهوا عن ارتكابه، وليس المراد أنهم يطلب منهم العمل إذ لا تقبل منهم الصاحبات بدون الإيمان، ولذلك رام بعض أهل الأصول تخصيص الخلاف بخطاب التكليف لا الإتلاف والجنايات وخطاب الوضع كله.
وأما الخلود في العذاب فقد اقتضاه الإشراك.
وقوله)مهانا(حال قصد منها تشنيع حالهم في الآخرة، أي يعذب ويهان إهانة زائدة على إهانة التعذيب بأن يشتم ويحقر.

وقرأ الجمهور)يضاعف(بألف بعد الضاد وبجزم الفعل. وقرأه ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب)يضعف(بتشديد العين وبالجزم. وقرأه ابن عامر وأبو بكر بن عاصم)يضاعف(بألف بعد الضاد وبرفع الفعل على أنه استئناف بياني.

)إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما[70](الاستثناء من العموم الذي أفادته) من(الشرطية في قوله)ومن يفعل ذلك(. والتقدير: إلا من تاب فلا يضاعف له العذاب ولا يخلد فيه، وهذا تطمين لنفوس فريق من المؤمنين الذين قد كانوا تلبسوا بخصال أهل الشرك ثم تابوا عنها بسبب توبتهم من الشرك، وإلا فليس في دعوتهم مع الله إلها آخر بعد العنوان عنهم بأنهم عباد الرحمن ثناء زائد.

وفي صحيح مسلم: عن ابن عباس أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت:)والذين لا يدعون مع الله إلها آخر(الآية، والمعنى: أنه يعفى عنه من عذاب الذنوب التي تاب منها، ولا يخطر بالبال أنه يعذب عذابا غير مضاعف وغير مخلد فيه، لأن ذلك ليس من مجاري الاستعمال العربي بل الأصل في ارتفاع الشيء المقيد أن يقصد منه رفعه بأسره لا رفع قيوده، إلا بقرينة.

والتوبة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فرط، والعزم على أن لا يعود إلى الذنب، وإذ كان فيما سبق ذكر الشرك فالتوبة هنا التلبس بالإيمان، والإيمان بعد الكفر يوجب عدم المؤاخذة كما اقترفه المشرك في مدة شركه كما في الحديث الإسلام يجب ما قبله ، ولذلك فعطف)وآمن(على)من تاب(للتنويه بالإيمان، وليبنى عليه قوله)وعمل عملا صالحا(وهو شرائع الإسلام تحريضا على الصالحات وإيماء إلى أنها لا يعتد بها إلا مع الإيمان كما قال تعالى في سورة البلد)ثم كان من الذين آمنوا(، وقال في عكسه)والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا(.

وقتل النفس الواقع في مدة الشرك يجبه إيمان القاتل لأجل مزية الإيمان، والإسلام يجب ما قبله بلا خلاف، وإنما الخلاف الواقع بين السلف في صحة توبة القاتل إنما هو في المؤمن القاتل مؤمنا متعمدا. ولما كان مما تشمله هذه الآية لأن سياقها في الثناء على المؤمن فقد دلت الآية على أن التوبة تمحو آثام كل ذنب من الذنوب المعدودة ومنها قتل النفس بدون حق وهو المعروف من عمومات الكتاب والسنة. وقد تقدم ذلك مفصلا في سورة النساء عند قوله تعالى)ومن يقتل مؤمنا متعمدا(الآية.

وفرع عن الاستثناء الذين تابوا وآمنوا وعملوا عملا صالحا إنهم يبدل الله سيئاتهم حسنات، وهو كلام مسوق لبيان فضل التوبة المذكورة التي هي الإيمان بعد الشرك لأن)من تاب(مستثنى من) من يفعل ذلك(فتعين أن السيئات المضافة إليهم هي السيئات المعروفة، أي التي تقدم ذكرها الواقعة منهم في زمن شركهم.

صفحة : 2989

والتبديل: جعل شيء بدلا عن شيء آخر، وتقدم عند قوله تعالى) ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة(في سورة الأعراف، أي يجعل الله لهم حسنات كثيرة عوضا عن تلك السيئات التي اقترفوها قبل التوبة وهذا التبديل جاء مجملا وهو تبديل يكون له أثر في الآخرة بأن يعوضهم عن جزاء السيئات ثواب حسنات أضداد تلك السيئات، وهذا الفضل الإيمان بالنسبة للشرك ولفضل التوبة بالنسبة للآثام الصادرة من المسلمين.

وبه يظهر موقع اسم الإشارة في قوله)فأولئك(المفيد التنبيه على أنهم أحرياء بما أخبر عنهم به بعد اسم الإشارة لأجل ما ذكر من الأوصاف قبل اسم الإشارة، أي فأولئك التائبون المؤمنون العاملون الصالحات في الإيمان يبدل الله عقاب سيئاتهم التي اقترفوها من الشرك والقتل والزنا بثواب. ولم تتعرض الآية لمقدار الثواب وهو موكول إلى فضل الله، ولذلك عقب هذا بقوله)وكان الله غفورا رحيما(المقتضي أنه عظيم المغفرة.

)ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا[71](إذا وقع الإخبار 'ن شيء أو توصيف له أو حالة منه بمرادف لما سبق مثله في المعنى دون زيادة تعين أن يكون الخبر الثاني مستعملا في شيء من لوازم معنى الإخبار يبينه المقام، كقول أبي الطمحان لقيني:

وإني من القوم الذين هم هم وقول أبي النجم:

أنا أبو النجم وشعري شعري وقول النبي صلى الله عليه وسلم من رآني في المنام فقد رآني . فقوله تعالى هنا)ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا(وقع الإخبار عن التائب بأنه تائب إذ المتاب مصدر ميمي بمعنى التوبة فيتعين أن يصرف إلى معنى مفيد، فيجوز أن يكون المقصود هو قوله)إلى الله(فيكون كناية عن عظيم ثوابه.

ويجوز أن يكون المقصود ما في المضارع من الدلالة على التجدد، أي فإنه يستمر على توبته ولا يرتد على عقبيه فيكون وعدا من

الله تعالى أن يثبته على القول الثابت إذا كان قد تاب وأيد توبته بالعمل الصالح.
ويجوز أن يكون المقصود ما للمفعول المطلق من معنى التأكيد، أي من تاب وعمل صالحا فإن توبته هي التوبة الكاملة الخالصة لله على حد قول النبي صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه فيكون قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا(. وذكر المفسرون احتمالات أخرى بعيدة.
والتوكيد ب)إن(على التقادير كلها لتحقيق مضمون الخبر.
)والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما[72](أتبع خصال المؤمنين الثلاث التي هي قوام الإيمان بخصال أخرى من خصالهم هي من كمال الإيمان، والتخلق بفضائله، ومجانبة أحوال أهل الشرك. وتلك ثلاث خصال أولاها أفصح عنه قوله هنا)والذين لا يشهدون الزور(الآية.
وفعل شهد يستعمل بمعنى حضر وهو أصل إطلاقه كقوله تعالى)فمن شهد منكم الشهر فليصمه(، ويستعمل بمعنى أخبر عن شيء شهده وعلمه كقوله تعالى)وشهد شاهد من أهلها(.
والزور: الباطل من قول أو فعل وقد غلب على الكذب. وقد تقدم في أول السورة فيجوز أن يكون معنى الآية: أنهم لا يحضرون محاضر الباطل التي كان يحضرها المشركون وهي مجالس اللهو والغناء والغيبة ونحوها، وكذلك أعياد المشركين وألعابهم، فيكون الزور مفعولا به ل)يشهدون(. وهذا ثناء على المؤمنين بمقاطعة المشركين وتجنبهم. فأما شهود مواطن عبادة الأصنام فذلك قد دخل في قوله)والذين لا يدعون مع الله إلها آخر(. وفي معنى هذه الآية قوله في سورة الأنعام)وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين(ويجوز أن يكون فعل)
يشهدون(بمعنى الإخبار عما علموه ويكون الزور منصوبا على نزع الخافض، أي لا يشهدون بالزور؛ أو مفعولا مطلقا لبيان نوع الشهادة، أي لا يشهدون شهادة هي زور لا حق.
وقوله)وإذا مروا باللغو مروا كراما(مناسب لكلا الجملتين.

واللغو: الكلام العبث والسفه الذي لا خير فيه. وتقدم في قوله تعالى)لا يسمعون فيها لغوا(في سورة مريم. ومعنى المرور به المرور بأصحابه اللاغين في حال لغوهم، فجعل المرور بنفس اللغو للإشارة إلى أن أصحاب اللغو متلبسون به وقت المرور.

ومعنى)مروا كراما(أنهم يمرون وهم في حال كرامة، أي غير متلبسين بالمشاركة في اللغو فيه فإن السفهاء إذا مروا بأصحاب اللغو أنسوا بهم ووقفوا عليهم وشاركوهم في لغوهم فإذا فعلوا ذلك كانوا في غير حال كرامة.

والكرامة: النزاهة ومحاسن الخلال، وضدها اللؤم والسفالة. وأصل الكرامة أنها نفاسة الشيء في نوعه قال تعالى)وأنبتنا فيها من كل زوج كريم(. وقال بعض شعراء حمير في الحماسة:

ولا يخيم اللقـاء فـارسـهـم حتى

يشق الصفوف من كرمه أي شجاعته، وقال تعالى)وأعد لهم أجرا كريما(.

وإذا مر أهل المروءة على أصحاب اللغو تنزهوا عن مشاركتهم وتجاوزوا ناديهم فكانوا في حال كرامة، وهذا ثناء على المؤمنين بترفعهم على ما كانوا عليه في الجاهلية كقوله تعالى)وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا(، وقوله)وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين(.

وإعادة فعل)مروا(لبناء الحال عليه، وذلك من محاسن الاستعمال، كقول الأحوص:

فإذا تزول تزول عن متخمط تخشى

بوادره على الأقران ومنه قوله تعالى)ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا(كما ذكره ابن جني في شرح مشكل أبيات الحماسة، وقد تقدم عند قوله تعالى)صراط الذين أنعمت عليهم(.

)والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا[73] (أريد تمييز المؤمنين بمخالفة حالة هي من حالات المشركين وتلك هي حالة سماعهم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وما تشتمل عليه من آيات القرآن وطلب النظر في دلائل الوحدانية، فلذلك جيء بالصلة لتحصيل الثناء عليهم مع التعريض بتفظيع حال المشركين فإن المشركين إذا ذكروا بآيات الله خروا صما وعميانا كحال من لا يحب أن يرى شيئا فيجعل وجهه على الأرض، فاستعير الخرور لشدة الكراهية والتباعد بحيث أن حالهم عند سماع القرآن كحال الذي يخر إلى الأرض لئلا يرى ما يكره بحيث لم يبق له شيء من التقوم والنهوض، فتلك حالة هي غاية في نفي إمكان القبول.

ومنه استعارة القعود للتخلف عن القتال، وفي عكس ذلك يستعار الإقبال والتلقي والقيام للاهتمام بالأمر والعناية به.
ويجوز أن يكون الخرور واقعا منهم أو من بعضهم حقيقة لأنهم يكونون جلوسا في مجتمعاتهم ونواديهم فإذا دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام طأطأوا رؤوسهم وقربوها من الأرض لأن ذلك للقاعد يقوم مقام الفرار، أو ستر الوجه كقول أعرابي يهجوا قوما من طيء، أنشده المبرد:
إذا مـا قـيل أيهــم لأي تشابهت
المناكب والرؤوس وقريب من هذا المعنى قوله تعالى في سورة نوح)واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا(. وتقدم الخرور الحقيقي في قوله تعالى)يخرون للأذقان سجدا(في سورة الإسراء، وقوله)فخر عليهم السقف من فوقهم(، وقوله)وخر موسى صعقا(في سورة الأعراف.
و)صما وعميانا(حالان ن ضمير)يخر(، مراد بهما التشبيه بحذف حرف التشبيه، أي يخرون كالصم والعميان في عدم الانتفاع بالمسموع من الآيات والمبصر منها مما يذكرون به. فالنفي على هذا منصب إلى الفعل وإلا قيده، وهو استعمال كثير في الكلام. وهذا الوجه أوجه.

صفحة : 2991

ويجوز أن يكون توجه النفي إلى القيد كما هو استعمال غالب وهو مختار صاحب الكشاف، فالمعنى: لم يخرو عليها في حالة كالصمم والعمى ولكنهم يخرون عليها سامعين مبصرين فيكون الخرور مستعارا للحرص على العمل بشراشر القلب، كما يقال: أكب على كذا، أي صرف جهده فيه، فيكون التعريض بالمشركين في أنهم يصمون ويعمون عن الآيات ومع ذلك يخرون على تلقيها تظاهرا منهم بالحرص على ذلك. وهذا الوجه ضعيف لأنه إنما يليق لو كان المعرض بهم منافقين وكيف والسورة مكية فأما المشركون فكانوا يعرضون عن تلقي الدعوة علنا، قال تعالى)وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون(وقال)وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب( ) والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما[74](هذه صفة ثالثة للمؤمنين بأنهم يعنون بانتشار الإسلام وتكثير أتباعه فيدعون الله أن يرزقهم أزواجا وذريات تقر

بهم أعينهم، فالأزواج يطعنهم باتباع الإسلام وشرائعه؛ فقد كان بعض أزواج المسلمين مخالفات أزواجهم في الدين، والذريات إذا نشأوا نشأوا مؤمنين، وقد جمع ذلك لهم في صفة)قرة أعين(. فإنها جامعة للكمال في الدين واستقامة الأحوال في الحياة إذ لا تقر عيون المؤمنين إلا بأزواج وأبناء مؤمنين وقد نهى الله المسلمين عن إبقاء النساء الكوافر في العصمة بقوله)ولا تمسكوا بعصم الكوافر(، وقال)والذي قال لوالديه أف لكما أتعداني أن أخرج(الآية. فمن أجل ذلك جعل دعاؤهم هذا من أسباب جزائهم بالجنة وإن كان فيها حظ لنفوسهم بقرة أعينهم إذ لا يناكد حظ النفس حظ الدين في أعمالهم، كما في قول عبد الله بن رواحة وهو خارج إلى غزوة مؤتة فدعا له المسلمون ولمن معه أن يردهم الله سالمين فقال:

لكنني أسأل الرحمن مغـفـرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مجهـزة بحربة تنفذ الأحشاء والكـبـدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي

أرشدك الله من غاز وقد رشدا فإن في قوله: حتى يقولوا، حظا لنفسه من حسن الذكر وان كان فيه دعاء له بالرشد وهو حظ ديني أيضا، وقوله: وقد رشد، حسن ذكر محض. في كتاب الجامع من جامع العتبية من أحاديث ابن وهب قال: رأيت رجلا يسأل ربيعة يقول : أني لأحب أن أرى رائحا إلى المسجد، فكأنه كره في قوله ولم يعجبه أن يحب أحد أن يرى في شيء من أعمال الخير. وقال ابن رشد في شرحه: وهذا خلاف قول مالك في رسم العقول من سماع أشهب من كتاب الصلاة: إنه ل بأس بذلك إذا كان أوله لله أي القصد الأول من العمل لله . وقال ابن رشد في موضع آخر من شرحه قال الله تعالى)وألقيت عليك محبة مني(، وقال)واجعل لي لسان صدق في الآخرين(. وقال الشاطبي في الموافقات: عد مالك ذلك من قبيل الوسوسة، أي أن الشيطان باقي للإنسان إذا سره مرأى الناس له على الخير فيقول: إنك لمراء. وليس كذلك إنما هو أمر يقع في قبله لا يملك اه.

وفي المعيار عن كتاب سراج المريدين لأبي بكر بن العربي قال:سألت شيخنا أبا منصور الشيرازي الصوفي عن قوله تعالى)إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا(ما بينوا؟ قال: أظهروا أفعالهم للناس بالصلاح والطاعات.

قال الشاطبي: وهذا الموضع محل اختلاف إذا كان القصد المذكور تابعا لقصد العبادة. وقد التزم الغزالي فيها وفي أشباهها أنها خارجة

عن الإخلاص لكن بشرط يصير العمل أخف عليه بسبب هذه الأغراض. وأما ابن العربي فذهب إلى خلاف ذلك وكأن مجال النظر يلفت إلى انفكاك القصدين، على أن القول بصحة الانفكاك فيما يصح فيه الانفكاك أوجه لما جاء في الأدلة على ذلك، إلى آخره.
و)من(في قوله)من أزواجنا(للابتداء، أي اجعل لنا قرة أعين تنشأ من أزواجنا وذرياتنا.

صفحة : 2992

وقرأ الجمهور)وذرياتنا(جمع ذرية، والجمع على الطوائف من الذين يدعون بذلك، وإلا فقد يكون لأحد الداعين ولد واحد. وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف
و)ذريتنا(بدون ألف بعد التحتية، ويستفاد معنى الجمع من الإضافة إلى ضمير)الذين يقولون(، أي ذرية كل واحد.
والأعين: هي أعين الداعين، أي قرة أعين لنا. وإذ قد كان الدعاء صادرا منهم جميعا اقتضى ذلك أنهم يريدون قرة أعين جميعهم.
وكما سألوا التوفيق والخير لأزواجهم وذرياتهم سألوا لأنفسهم بعد أن وفقهم الله إلى الإيمان أن يجعلهم قدوة يقتدي بها المتقون. وهذا يقتضي أنهم يسألون لأنفسهم بلوغ الدرجات العظيمة من التقوى فإن القدوة يجب أن يكون بالغا أقصى غاية العمل الذي يرغب المهتمون به الكمال فيه. وهذا يقتضي أيضا أنهم يسألون أن يكونوا دعاة للدخول في الإسلام وأن يهتدي الناس إليه بواستطهم.
والإمام أصله: المثال والقالب الذي يصنع على شكله مصنوع من مثله قال النابغة:
أبوه قبلـه وأبـو أبـيه بنوا مجد الحياة
إلى إمام وأطلق الإمام على القدوة تشبيها بالمثال والقالب، وغلب ذلك فصار الإمام بمعنى القدوة. وقد تقدم في قوله تعالى)قال إني جاعلك للناس إماما(في سورة البقرة. ووقع الإخبار ب)إماما(وهو مفرد على ضمير جماعة المتكلمين لأن المقصود أن يكون كل واحد منهم إماما يقتدى به، فالكلام على التوزيع، أو أريد من إمام معناه الحقيقي وجرى الكلام على التشبيه البليغ، وقيل إمام جمع، مثل هجان وصيام ومفرده: إم.
)أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما[75] خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما[76](التصدير باسم الإشارة للتنبيه على أن ما يرد بعده كانوا أحرياء به لأجل ما ذكر قبل اسم الإشارة. وتلك مجموع إحدى عشرة خصلة وهي: التواضع، والحلم،

والتهجد، والخوف، وترك الإسراف، وترك الإقتار، والتنزه عن الشرك، وترك الزنا، وترك قتل النفس، والتوبة، وترك الكذب، والعفو عن المسيء، وقبول دعوة الحق، وإظهار الاحتياج إلى الله بالدعاء،.
واسم الإشارة هو الخبر عن قوله)وعباد الرحمن(كما تقدم على ارجح الوجهين.
والغرفة: البيت المعتلي يصعد إليه بدرج وهو أعز منزلا من البيت الأرضي، والتعريف في الغرفة تعريف الجنس فيستوي فيه المفرد والجمع مثل قوله تعالى)وأنزلنا معهم الكتاب(فالمعنى:يجزون الغرف، أي من الجنة، قال تعالى)وهم في الغرفات آمنون(والباء للسببية، و)ما(مصدرية في قوله)بما صبروا(، أي بصبرهم وهو صبرهم على ما لقوا من المشركين من أذى، وصبرهم على كبح شهواتهم لأجل إقامة شرائع الإسلام، وصبرهم على مشقة الطاعات.
وقرأ الجمهور)ويلقون(بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف المفتوحة مضارع لقاه إذا جعله لاقيا. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف)ويلقون(بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف المفتوحة مضارع لقي. واللقي واللقاء: استقبال شيء ومصادفته، وتقدم في قوله تعالى)واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه(في سورة البقرة، وفي قوله)يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا(في سورة الأنفال، وتقدم قريبا قوله تعالى)ومن يفعل ذلك يلق أثاما(.
وقد استعير اللقي لسماع التحية والسلام، أي أنهم يسمعون ذلك في الجنة من غير أن يدخلوا على بأس أو يدخل عليهم بأس بل هم مصادفون تحية إكرام وثناء مثل تحيات العظماء والملوك التي يرتلها الشعراء المنشدون.
ويجوز أن يكون إطلاق اللقي إسماع ألفاظ التحية والسلام لأجل الإيماء إلى أنهم يسمعون التحية من الملائكة يلقونهم بها، فهو مجاز بالحذف قال تعالى)وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون(في سورة الأنبياء.
وقوله)حسنت مستقرا ومقاما(هو ضد مقيل في المشركين)إنها ساءت مستقرا ومقاما(. والتحية تقدمت في قوله)وإذا حيتم بتحية(في سورة النساء، وفي قوله)وتحيتهم فيها سلام(في سورة يونس، وقوله)تحية من عند الله مباركة طيبة(في آخر النور.
)قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما[77](

لما استوعبت السورة إغراض التنويه بالرسالة والقرآن، وما تضمنته من توحيد الله، ومن صفة كبرياء المعاندين وتعللاتهم، وأحوال المؤمنين، وأقيمت الحجج الدامغة للمعرضين، ختمت بأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يخاطب المشركين بكلمة جامعة يزال بها غرورهم وإعجابهم بأنفسهم وحسبانهم أنهم قد شفوا غليلهم من الرسول بالإعراض عن دعوته وتوركهم في مجادلته؛ فبين لهم حقارتهم عند الله تعالى وأنه ما بعث إليهم رسوله وخاطبهم بكتابه إلا رحمة منه بهم لإصلاح خالهم وقطعا لعذرهم فإذ كذبوا فسوف يحل بهم العذاب.

و)ما(من قوله)ما يعبأ(نافية. وتركيب: ما يعبأ به، يدل على التحقير وضده عبأ به يفيد الحفاوة.

ومعنى)ما يعبا(: ما يبالي وما يهتم، وهو مضارع عبأ مثل: ملأ يملأ مشتق من العبء بكسر العين وهو الحمل بكسر الحاء وسكون الميم، أي الشيء الثقيل الذي يحمل على البعير ولذلك يطلق العبء على العدل بكسر فسكون، ثم تشعبت عن هذا إطلاقات كثيرة. فأصل)ما يعبأ(: ما يحمل عبئا، تمثيلا بحالة المتعب من الشيء، فصار المقصود: ما يهتم وما يكترث، وهو كناية عن قلة العناية.

والباء فيه للسببية، أي بسببكم وهو على حذف مضاف يدل عليه مقام الكلام. فالتقدير هنا: ما يعبأ بخطابكم.

والدعاء: الدعوة إلى شيء، وهو هنا مضاف إلى مفعوله، والفاعل يدل عليه)ربي(أي لولا دعاؤه إياكم، أي لولا أنه يدعوكم. وحذف متعلق الدعاء لظهوره من قوله)فقد كذبتم(، أي الداعي هو محمد صلى الله عليه وسلم، فتعين أن الدعاء الدعوة إلى الإسلام.

والمعنى: أن الله لا يلحقه من ذلك انتفاع ولا اعتزاز بكم. وهذا كقوله تعالى)وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون(.

وضمير الخطاب في قوله)دعاؤكم(موجه إلى المشركين بدليل تفريغ)فقد كذبتم(عليه وهو تهديد لهم، أي فقد كذبتم الداعي وهو الرسول عليه الصلاة والسلام. وهذا التفسير هو الذي يقتضيه المعنى، ويؤيده قول مجاهد والكلبي والفراء. وقد فسر بعض المفسرين الدعاء بالعبادة فجعلوا الخطاب موجها إلى المسلمين فترتب على ذلك التفسير تكلفات وقد أغنى عن التعرض إليها اعتماد المعنى الصحيح فمن شاء فلينظرها بتأمل ليعلم أنها لا داعي إليها.

وتفريع)فق كذبتم(على قوله)لولا دعاؤكم(، والتقدير: فقد دعاكم إلى الإسلام فكذبتم الذي دعاكم على لسانه.

والضمير في)يكون(عائدا إلى التكذيب المأخوذ من)كذبتم(، أي سوف يكون تكذيبهم لزاما لكم، أي لازما لا انفكاك لكم منه. وهذا تهديد بعواقب التكذيب تهديدا مهولا بما فيه من الإبهام كما تقول للجاني: قد جعلت كذا فسوف تتحمل ما فعلت. ودخل في هذا الوعيد ما يحل بهم في الدنيا من قتل وأسر وهزيمة وما يحل بهم في الآخرة من العذاب.

واللزام: مصدر لازم، وقد صيغ على زنة المفاعلة لإفادة اللزوم، أي عدم المفارقة، قال تعالى)ولا لو كلمة سبقت من ربك لكان لزاما(في سورة طه. والضمير المستتر في)كان(عائدا إلى عذاب الآخرة في قوله)ولعذاب الآخرة أشد وأبقى(فالإخبار باللزام من باب الإخبار بالمصدر للمبالغة. وقد اجتمع فيه مبالغتان: مبالغة في صيغته تفيد قوة لزومه، ومبالغة في الإخبار به تفيد تحقيق ثبوت الوصف.

وعن ابن مسعود وأبي بن كعب: اللزام: عذاب يوم بدر. ومرادهما بذلك أنه جزئي من جزيئات اللزام الموعود لهم. ولعل ذلك شاع حتى صار اللزام كالعلم بالغلبة على يوم بدر. وفي الصحيح عن ابن مسعود: خمس قد مضين: الخان، والقمر، والروم، والبطشة، واللزام. يعني أن اللزام غير عذاب الآخرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشعراء

اشتهرت عند السلف بسورة الشعراء لأنها تفردت من بين سور القرآن بذكر كلمة الشعراء. وكذلك جاءت تسميتها في كتب السنة. وتسمى أيضا سورة طسم.

وفي أحكام ابن العربي أنها تسمى أيضا الجامعة، ونسبه أبن كثير والسيوطي في الإتقان إلى تفسير مالك المروي عنه. ولم يظهر وجه وصفها بهذا الوصف. ولعلها أول سورة جمعت ذكر الرسل أصحاب الشرائع المعلومة إلى الرسالة المحمدية.

صفحة : 2994

وهي مكية، فقيل جميعها مكي، وهو المروي عن ابن الزبير. ورواية عن ابن عباس ونسبه ابن عطية إلى الجمهور. وروي عن ابن عباس أن قوله تعالى)والشعراء يتبعهم الغاوون(إلى آخر السورة نزل بالمدينة لذكر شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت وابن رواحة وكعب بن مالك وهم المعني بقوله)إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات(الآية. ولعل هذه الآية هي التي أقدمت هؤلاء

على القول بأن تلك الآيات مدنية. وعن الداني قال: نزلت)والشعراء يتبعهم الغاوون(في شاعرين تهاجيا في الجاهلية.
وأقول: كان شعراء بمكة يهجون النبي صلى الله عليه وسلم منهم النضر بن الحارث، والعوراء بنت حرب زوج أبي لهب ونحوهما، وهم المراد بآيات)والشعراء يتبعهم الغاوون(. وكان شعراء المدينة قد أسلموا قبل الهجرة وكان في مكة شعراء مسلمون من الذين هاجروا إلى الحبشة كما سيأتي.
وعن مقاتل: أن قوله تعالى)أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل(نزل بالمدينة. وكان الذي دعاه إلى ذلك أن مخالطة علماء بني إسرائيل كانت بعد الهجرة. ولا يخفى أن الحجة لا تتوقف على وقوع مخالطة علماء بني إسرائيل؛ فقد ذكر القرآن مثل هذه الحجة في آيات نزلت بمكة، من ذلك قوله)قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب(في سورة الرعد وهي مكية، وقوله)الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون(في سورة القصص وهي مكية، وقوله)وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به(في سورة العنكبوت وهي مكية. وشأن علماء بني إسرائيل مشهور بمكة وكان لأهل مكة صلات مع اليهود بالمدينة ومراجعة بينهم في شأن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم عند قوله تعالى)ويسألونك عن الروح(في سورة الإسراء، ولذا فالذي نوقن به أن السورة كلها مكية.
وهي السورة السابعة والأربعون في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الواقعة وقبل سورة النمل. وسيأتي في تفسير قوله تعالى) وأنذر عشيرتك الأقربين(ما يقتضي أن تلك الآية نزلت قبل نزول سورة أبي لهب وتعرضنا لإمكان الجمع بين الأقوال.
وقد جعل أهل المدينة وأهل مكة وأهل البصرة عدد آيها مائتين وستا وعشرين، وجعله أهل الشام وأهل الكوفة مائتين وسبعا وعشرين.

الأغراض التي اشتملت عليها
أولها التنويه بالقرآن، والتعريض بعجزهم عن معارضته، وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من إعراض قومه عن التوحيد الذي دعاهم إليه القرآن.
وفي ضمنه تهديدهم على تعرضهم لغضب الله تعالى، وضرب المثل لهم بما حل بالأمم المكذبة رسلها والمعرضة عن آيات الله.
وأحسب أنها نزلت إثر طلب المشركين أن يأتيهم الرسول بخوارق، فافتتحت بتسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيت له ورباطة لجأشه بأن ما يلاقيه من قومه هو سنة الرسل من قبله مع

أقوامهم مثل موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب؛ ولذلك ختم كل استدلال جيء به على المشركين المكذبين بتذييل واحد هو قوله)إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم(تسجيلا عليهم بأن آيات الوحدانية وصدق الرسل عديدة كافية لمن يتطلب الحق ولكن أكثر المشركين لا يؤمنون وأن الله عزيز قادر على أن ينزل بهم العذاب وأنه رحيم برسله فناصرهم على أعدائهم.

قال في الكشاف: كل قصة من القصص المذكورة في هذه السورة كتنزيل برأسه. وفيها من الاعتبار ما في غيرها فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تختم بما اختتمت به صاحبتها، ولأن في التكرير تقريرا للمعاني في الأنفس وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأبعد من النسيان، ولأن هذه القصص طرقت بها إذان وقرت عن الإنصات للحق فكوثرت بالوعظ والتذكير وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذنا أو يفتق ذهنا اه.

ثم التنويه بالقرآن، وشهادة أهل الكتاب له، والرد على مطاعنهم في القرآن وجعله عضين، وأنه منزه عن أن يكون شعرا ومن أقوال الشياطين، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بإنذار عشيرته، وأن الرسول ما عليه إلا البلاغ، وما تخلل ذلك من دلائل .)طسم[1](.

صفحة : 2995

يأتي في تفسيره من التأويلات ما سبق ذكره في جميع الحروف المقطعة في أوائل السور في معان متماثلة. وأظهر تلك المعاني أن المقصود التعريض بإلهاب نفوس المنكرين لمعارضة بعض سور القرآن بالإتيان بمثله في بلاغته وفصاحته وتحديهم بذلك والتورك عليهم بعجزهم عن ذلك.

وعن ابن عباس: أن طسم قسم، وهو اسم من أسماء الله تعالى، والمقسم عليه قوله)إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية(. فقال القرظي: أقسم الله بطوله وسنائه وملكه. وقيل الحروف مقتضبة من أسماء الله تعالى ذي الطول، القدوس، الملك. وقد علمت في أول سورة البقرة أنها حروف للتهجي واستقصاء في التحدي يعجزهم عن معرضة القرآن، وعليه تظهر مناسبة تعقيبه بآياته)تلك آيات الكتاب المبين(.

والجمهور قرأوا)طسم(كلمة واحدة، وأدغموا النون من سين في الميم وقرأ حمزة بإظهار النون. وقرأ أبو جعفر حروفا مفككة، وقالوا وكذلك هي مرسومة في مصحف ابن مسعود حروفا مفككة)ط س م(.

والقول في عدم مد اسم)طا(مع إن أصله مهموز الآخرة لأنه لما كان قد عرض له سكون السكت حذفته همزته كما تحذف للوقوف، كما في عدم مد)را(في آلر في سورة يونس.

)تلك آيات الكتب المبين[2](.

الإشارة إلى الحاضر في الأذهان من آيات القرآن المنزل من قبل، وبينه الإخبار عن اسم الإشارة بأنها آيات الكتاب.

ومعنى الإشارة إلى آيات القرآن قصد التحدي بأجزائه تفصيلا كما قصد التحدي بجميعه إجمالا. والمعنى: هذه آيات القرآن تقرأ عليكم وهي بلغتكم وحروف هجائها فأتوا بسورة من مثلها ودونكموها.

والكاف المتصلة باسم الإشارة للخطاب وهو خطاب لغير معين من كل متأهل لهذا التحدي من بلغائهم.

و)المبين(الظاهر، وهو من أبان مرادف بان، أي تلك آيات الكتاب الواضح كونه من عند الله لما فيه من المعاني العظيمة والنظم المعجز، وإذا كان الكتاب مبينا كانت آياته المشتمل عليها آيان مبينة على صدق الرسل بها.

ويجوز أن يكون)المبين(من أبان المتعدي، أي الذي يبين ما فيه من معاني الهدى والحق وهذا من استعمال اللفظ في معنييه كالمشترك.

والمعنى: أن ما بلغكم وتلي عليكم هو آيات القرآن المبين، أي البين صدقه ودلالته على صدق ما جاء به ما لا يجحده إلا مكابر.

)لعلك بخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين[3](.

حول الخطاب من توجيهه إلى المعاندين إلى توجيهه للرسول عليه الصلاة والسلام. والكلام استئناف بياني جوابا عما يثيره مضمون قوله)تلك آيات الكتاب المبين(من تساؤل النبي صلى الله عليه وسلم في نفسه عن استمرار إعراض المشركين عن الإيمان وتصديق القرآن كما قال تعالى)فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا(، وقوله)فلا تذهب نفسك عليهم حسرات(.

و)لعل(إذا جاءت في ترجي الشيء المخوف سميت إشفاقا وتوقعا. وأظهر الأقوال أن الترجي من قبيل الخبر وأنه ليس بإنشاء مثل التمني.

والترجي مستعمل في الطلب. والأظهر أنه حث على ترك الأسف من ضلالهم على طريقة تمثيل شأن المتكلم الحاث على الإقلاع

بحال من يستقرب حصول هلاك المخاطب إذا استمر على ما هو فيه من الغم.
والباخع: القاتل. وحقيقة البخع إعماق الذبح. يقال: بخع الشاة، قال الزمخشري: إذا بلغ السكن البخاع بالموحدة المكسورة وهو عرق مستبطن الفقار، كذا قال في الكشاف هنا وذكره أيضا في الفائق. وقد تقدم ما فيه عند قوله تعالى)فلعلك باخع نفسك على آثارهم(في سورة الكهف. وهو هنا مستعار للموت السريع، والإخبار عنه ب)باخع(تشبيه بليغ. وفي)باخع(ضمير المخاطب هو الفاعل.

صفحة : 2996

و)أن لا يكونوا(في موضع نصب على نزع الخافض بعد) أن(والخافض لام التعليل، والتقدير: لأن لا يكونوا مؤمنين، أي لانتفاء إيمانهم في المستقبل، لأن)أن(تخلص المضارع للاستقبال. والمعنى: أن غمك من عدم إيمانهم فيما مضى يوشك أن يوقعك في الهلاك في المستقبل بتكرر الغم والحزن، كقول إخوة يوسف لأبيهم لما قال)يا أسفى على يوسف(فقالوا)تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين(؛ فوزان هذا المعنى وزان معنى قوله في سورة الكهف)فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا(، فإن)أن(الشرطية تتعلق بالمستقبل. ويجوز أن يجعل)أن لا يكونوا(في موضع الفاعل ل)باخع(والجملة خبر)لعل(. وإسناد)باخع(إلى)أن لا يكونوا مؤمنين(مجاز عقلي لأن عدم إيمانهم جعل سبيل للبخع.
وجيء بمضارع الكون للإشارة إلى أنه لا يأسف على عدم إيمانهم ولو استمر ذلك في المستقبل فيكون انتفاؤه فيما مضى أولى بأن لا يؤسف له.
وحذف متعلق)مؤمنين(، إما لأن المراد مؤمنين بما جئت به من التوحيد والبعث وتصديق القرآن وتصديق الرسول، وإما لأنه أريد بمؤمنين المعنى اللقبي، أي أن لا يكونوا في عداد الفريق المعروف بالمؤمنين وهم أمة الإسلام. وضمير)أن لا يكونوا(عائد إلى معلوم من المقام وهم المشركون الذي دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم.
وعدل عن: أن لا يؤمنوا، إلى)أن لا يكونوا مؤمنين(لأن في فعل الكون دلالة على الاستمرار زيادة على ما أفادته صيغة المضارع، فتأكد استمرار عدم إيمانهم الذي هو مورد الإقلاع عن الحزن له. وقد جاء في سورة الكهف)فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم

يؤمنوا بهذا الحديث(بحرف نفي الماضي وهو)لم(لأن سورة الكهف متأخرة النزول عن سورة الشعراء فعدم إيمانهم قد تقرر حينئذ وبلغ حد المأيوس منه.

وضمير)يكونوا(عائد إلى معلوم من مقام التحدي الحاصل بقوله) طسم تلك آيات الكتاب المبين(للعلم بأن المتحدين هم الكافرون المكذبون.

)إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين[4](.

استئناف بياني ناشئ عن قوله)أن لا يكونوا مؤمنين(لأن التسلية على عدم إيمانهم تثير في النفس سؤالا عن إمهالهم دون عقوبة ليؤمنوا، كما قال موسى)ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم(، فأجيب بأن الله قادر على ذلك فهذا الاستئناف اعتراض بين الجملتين المعطوفة إحداهما على الأخرى.

ومفعول)نشأ(محذوف يدل عليه جواب الشرط على الطريقة الغالبة في حذف مفعول المشيئة. والتقدير: إن نشأ تنزيل آية ملجئة ننزلها.

وجيء بحرف)إن(الذي الغالب فيه أن يشعر بعدم الجزم بوقوع الشرط للإشعار بأن ذلك لا يشاؤه الله لحكمة اقتضيت أن لا يشاءه.

ومعنى انتفاء هذه المشيئة أن الحكمة الإلهية اقتضت أن يحصل الإيمان عن نظر واختيار لأن ذلك أجدى لانتشار سمعة الإسلام في مبدأ ظهوره، فالمراد بالآية العلامة التي تدل على تهديدهم بالإهلاك تهديدا محسوسا بأن تظهر لهم بوارق تنذر باقتراب عذاب. وهذا من معنى قوله تعالى)وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية(، وليس المراد آيات القرآن وذلك أنهم لم يقتنعوا بآيات القرآن.

وجعل تنزيل الآية من السماء حينئذ أوضح وأشد تخويفا لقلة العهد بأمثالها ولتوقع كل من تحت السماء أن تصيبه. فإن قلت: لماذا لم يرهم آية كما أرى بنو إسرائيل نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة ? قلت: كان بنو إسرائيل مؤمنين بموسى وما جاء به فلم يكن إظهار الآيات لهم لإلجائهم على الإيمان ولكنه كان لزيادة تثبيتهم كما قال إبراهيم)أرني كيف تحيي الموتى(.

وفرع على تنزيل الآية ما هو في معنى الصفة لها وهو جملة) فظلت أعناقهم لها خاضعين(بفاء التعقيب.

وعطف)فظلت(وهو ماض على المضارع قوله)ننزل(لأن المعطوف عليه جواب شرط، فللمعطوف حكم جواب الشرط فاستوى فيه صيغة المضارع وصيغة الماضي لأن أداة الشرط تخلص الماضي للاستقبال؛ ألا ترى أنه لو قيل: إن شئنا نزلنا أو إن نشأ نزلنا لكان سواء إذ التحقيق أنه لا مانع من اختلاف فعلي الشرط والجزاء بالمضارعية والماضوية، على إن المعطوفات يتسع فيها ما لا يتسع في المعطوف عليها لقاعدة: أن يغتفر في الثواني ما لا يغتفر في الأوائل، كما في القاعدة الثامنة من الباب الثامن من مغني اللبيب، غير أن هذا الاختلاف بين الفعلين لا يخلو من خصوصية في كلام البليغ وخاصة في الكلام المعجز، وهي هنا أمران: التفنن بين الصيغتين، وتقريب زمن مضي المعقب بالفاء من زمن حصول الجزاء بحيث يكون حصول خضوعهم للآية بمنزلة حصول تنزيلها فيتم ذلك سريعا حتى يخيل لهم من سرعة حصوله أنه أمر مضى فلذلك قال)فظلت(ولم يقل: فتظل. وهذا قريب من استعمال الماضي في قوله تعالى:)أتى أمر الله فلا تستعجلوه(. وكلاهما للتهديد، ونظيره لقصد التشويق: قد قامت الصلاة.

والخضوع: التطامن والتواضع. ويستعمل في الانقياد مجازا لأن الانقياد من أسباب الخضوع. وإسناد الخضوع إلى الأعناق مجاز عقلي، وفيه تمثيل لحال المنقادين الخائفين الأذلة بحال الخاضعين الذين يتقون أن تصيبهم قاصمة على رؤوسهم فهم يطأطئون رؤوسهم وينحنون اتقاء المصيبة النازلة بهم.

والأعناق: جمع عنق بضمتين وقد تسكن النون وهو الرقبة، وهو مؤنث. وقيل: المضموم النون مؤنث والساكن النون مذكر.

ولما كانت الأعناق هي مظهر الخضوع أسند الخضوع إليها وهو في الحقيقة مما يسند إلى أصحابها ومنه قوله تعالى)وخشعت الأصوات للرحمان(أي أهل الأصوات بأصواتهم كقول الأعشى:

)كذلك فافعل ما حييت إذا شتوا(وأقدم إذا ما

أعين الناس تفرق فأسند الفرق إلى العيون على سبيل المجاز العقلي لأن الأعين سبب الفرق عند رؤية الأشياء المخفية. ومنه قوله تعالى)سحروا أعين الناس(وإنما سحروا الناس سحرا ناشئا عن رؤية شعوذة السحر بأعينهم، مع ما يزيد به قوله)ظلت أعناقهم لها خاضعين(من الإشارة إلى تمثيل حالهم، ومقتضى الظاهر: فظلوا لها خاضعين بأعناقهم.

وفي إجراء ضمير العقلاء في قوله)خاضعين(على الأعناق تجريد للمجاز العقلي في إسناد)خاضعين(إلى)أعناقهم(لأن مقتضى الجري على وتيرة المجاز أن يقال لها: خاضعة، وذلك خضوع من توقع لحاق العذاب النازل. وعن مجاهد: أن الأعناق هنا جمع عنق بضمتين يطلق على سيد القوم ورئيسهم كما يطلق عليه رأس القوم وصدر القوم، أي فظلت سادتهم، يعني الذين أغروهم بالكفر خاضعين، فيكون الكلام تهديدا لزعمائهم الذين زينوا لهم الاستمرار على الكفر، وهو تفسير ضعيف. وعن ابن زيد والأخفش: الأعناق الجماعات واحدها عنق بضمتين جماعة الناس، أي فظلوا خاضعين جماعات جماعات، وهذا أضعف من سابقه.

ومن بدع التفاسير وركيكها ما نسبه الثعلبي إلى ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هوان بعد عزة، وهذا من تحريف كلم القرآن عن مواضعه ونحاشي ابن عباس رضي الله عنه أن يقوله وهو الذي دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يعلمه التأويل. وهذا من موضوعات دعاة المسودة مثل أبي مسلم الخراساني وكم لهم في الموضوعات من اختلاق، والقرآن أجل من أن يتعرض لهذه السفاسف.

وقر أ الجمهور)ننزل(بالتشديد في الزاي وفتح النون الثانية. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بضم النون الأولى وتخفيف الزاي.

)وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين[5] (.

عطف على جملة)لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين(أي هذه شنشنتهم فلا تأسف لعدم إيمانهم بآيات الكتاب المبين، وما يجيئهم منها من بعد فسيعرضون عنه لأنهم عرفوا بالإعراض.

والمضارع هنا لإفادة التجدد والاستمرار. فالذكر هو القرآن لأنه تذكير للناس بالأدلة. وقد تقدم وجه تسميته ذكرا عند قوله تعالى) وقالوا يأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون(في سورة الحجر.

صفحة : 2998

والمحدث: الجديد، أي من ذكر بعد ذكر يذكرهم بما أنزل من القرآن من قبله فالمعنى المستفاد من وصفه بالمحدث غير المعنى المستفاد من إسناد صيغة المضارع في قوله)ما يأتيهم من ذكر(. فأفاد الأمران أنه ذكر متجدد مستمر وأن بعضه يعقب بعضا ويؤيده.

وقد تقدم في سورة الأنبياء قوله)ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم(.

وذكر اسم الرحمان هنا دون وصف الرب كما في سورة الأنبياء لأن السياق هنا لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على إعراض قومه فكان في وصف مؤتي الذكر بالرحمان تشنيع لحال المعرضين وتعريض لغباوتهم أن يعرضوا عما هو رحمة لهم، فإذا كانوا لا يدركون صلاحهم فلا تذهب نفسك حسرات على قوم أضاعوا نفعهم وأنت قد أرشدتهم إليه وذكرتهم كما قال المثل:)لا يحزنك دم هراقه أهله(وقال النابغة:

فإن تغلب شقاوتكم عليكم فإني في صلاحكم سعيت وفي الإتيان بفعل)كانوا(وخبره دون أن يقال: إلا أعرضوا، إفادة أن إعراضهم راسخ فيهم وأنه قديم مستمر إذ أخبر عنهم قبل ذلك بقوله)أن لا يكونوا مؤمنين(، فانتفاء كون إيمانهم واقعا هو إعراض منهم عن دعوة الرسول التي طريقها الذكر بالقرآن فإذا أتاهم ذكر بعد الذكر الذي لم يؤمنوا بسببه وجدهم على إعراضهم القديم.

و)من(في قوله)من ذكر(مؤكدة لعموم نفي الأحوال.

و)من(التي في قوله)من الرحمان(ابتدائية.

والاستثناء من أحوال عامة فجملة)كانوا عنه معرضين(في موضع الحال من ضمير)يأتيهم من ذكر(. وتقدم المجرور لرعاية الفاصلة.

)فقد كذبوا فسيأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزءون[6](.

فاء)فقد كذبوا(فصيحة، أي فقد تبين أن إعراضهم إعراض تكذيب بعد الإخبار بأن سنتهم الإعراض عن الذكر الآتي بعضه عقب بعض فإن الإعراض كان لأنهم قد كذبوا بالقرآن. وأما الفاء في قوله) فسيأتيهم(فلتعقيب الإخبار بالوعيد بعد الإخبار بالتكذيب.

والأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر عن الحدث العظيم، وتقدم عند قوله تعالى)ولقد جاءك من نبأ المرسلين(في سورة الأنعام.

والأنباء: ظهور صدقها، وليس المراد الإتيان هنا البلوغ كالذي في قوله)وهل أتاك نبأ الخصم(لأن بلوغ الأنباء قد وقع فلا يحكى بعلامة الاستقبال في قوله)فسيأتيهم(.

و)ما(في قوله)ما كانوا به يستهزئون(يجوز أن تكون موصولة فيجوز أن يكون ما صدقها القرآن وذلك كقوله تعالى)ولا تتخذوا آيات الله هزوا(. وجيء في صلته بفعل)يستهزئون(دون) يكذبون(لتحصل فائدة الإخبار عنهم بأنهم كذبوا به وأستهزأوا به، وتكون الباء في)به(لتعدية فعل)يستهزئون(، والضمير المجرور عائدا إلى)ما(الموصولة، وأنباؤه أخباره بالوعيد. ويجوز ان يكون ما

صدق)ما(جنس ما عرفوا باستهزائهم به وهو التوعد، كانوا يقولون: متى هذا الوعد ؟ ونحو ذلك.
وإضافة)أنباء(إلى)ما كانوا به يستهزئون(على هذا إضافة بيانية، أي ما كانوا به يستهزئون الذي هو أنباء ما سيحل بهم.
وجمع الأنباء على هذا باعتبار أنهم استهزأوا بأشياء كثيرة منها البعث، ومنها العذاب في الدنيا، ومنها نصر المسلمين عليهم) ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين(، ومنها فتح مكة، ومنها عذاب جهنم، وشجرة الزقوم، وكان أبو جهل يقول: زقمونا، استهزاء.
ويجوز كون)ما(مصدرية، أي أنباء كون استهزائهم، أي حصوله، وضمير)به(عائدا إلى معلوم من المقام، وهو القرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم.
والمراد بأنباء استهزائهم أنباء جزائه وعاقبته وهو ما توعدهم به القرآن في غير ما آية.
والقول في إقحام فعل)كانوا(هنا كالقول في إقحامه في قوله آنفا)كانوا عنه معرضين(ولكن أوثر الإتيان بالفعل المضارع وهو) يستهزئون(دون اسم الفاعل كالذي في قوله)كانوا عنه معرضين(لأن الاستهزاء يتجدد عند تجدد وعيدهم بالعذاب، وأما الإعراض فمتمكن منهم.
ومعنى)فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون(على الوجه الأول أن يكون الإتيان بمعنى التحقق كما في قوله)أتى أمر الله(أي تحقق، أي سوف تتحقق أخبار الوعيد الذي توعدهم به القرآن الذي كانوا يستهزئون به.